رواية



آرثر وجورج

جوليان بارنز
ترجمة: نداء فاروق غانم



جوليان بارنز

آرثر وجورج

مبنية على أحداث حقيقية جمعت المحامي جورج إدالجي،
وآرثر كونان دويل، مؤلّف سلسلة شِرلوك هولمز

ترجمة نداء فاروق غانم

آرثر وجورج

آرثر وجورج

آرثر وجورج

تأليف: جوليان بارنز
ترجمة: نداء فاروق غانم

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-46-853-0

رواياـت
REWAYAT

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2023

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقًا
لنظام التصنيف العمري الصادر عن وزارة الثقافة والشباب
المرجع: MC-10-01-2001051
التصنيف العمري: 17+

مجموعة كلمات
KALIMAT GROUP

إلى بي. كاي.

واحد

بدايتان

آرثر

يرغب طفل في أن يرى. هكذا يبدأ الأمر دائمًا، وهكذا بدأ. رغب طفل في أن يرى. كان قادرًا على المشي، استطاع أن يصل إلى مقبض الباب. قام بهذا بلا هدف يذكر، بدافع فطرة الطفل للحركة فقط. وجد بابًا ليُدفَع، دخل فتوقف فنظر. لم يلحظه أحد هناك، استدار وابتعد بعد أن أغلق الباب خلفه بحرص.

شكّل ما رآه هناك ذاكرته الأولى. صبي صغير وحجرة وسرير وستائر مُسدلة يتسلل منها ضوء ما بعد الظهيرة. انقضى ستون عامًا قبل أن يحين الوقت ليصف ذلك علنًا. كم عدد المرات التي أعاد في داخله سرد ما رأى من الكلمات البسيطة التي صقلها وعدّلها واعتاد استخدامها مؤخرًا؟ مما لا شك فيه أن الحدث ما زال يبدو جليًا كما لو أنه حدث للتو. الباب والحجرة والضوء والسرير، وما كان على السرير: "شيء شاحب أبيض".

صبي صغير وجثة: لم تكن مثل هذه المصادفات في عصره نادرة الحدوث في إدنبرة. كان ارتفاع معدلات الوفيات وضيق الأحوال بمثابة دروسٍ مبكرة. كانت الأسرة كاثوليكية، والجثة لجدة آرثر، المُسمّاة كاثرين باك. ولعل الباب قد تُرك عمدًا مواربًا. ربما هناك رغبة في إقناع الطفل برعب الموت أو بتفاؤل أكبر؛ لإظهار أن الموت ليس مرعبًا. من الواضح أن روح الجدة قد صعدت إلى السماء، مُخلّفة مجرد قشور منزوعة من جسدٍ منهارٍ وراءها فقط. يرغب الصبي في أن يرى؟ إذن دع الصبي يرى.

لقاء في حجرة ذات ستائر. صبي صغير وجثة. حفيد بعد أن اكتسب الذاكرة، توقف للتو عن كونه مجرد شيء، وجدة بفقدانها تلك السمة التي نمّاها الطفل، عادت لكونها مجرد شيء. حدّق الصبي الصغير وبعد أكثر من نصف قرن، ما زال الرجل البالغ يُحدّق. ما بلغه "الشيء" إلى حدٍّ بعيد -أو بعبارة أدق، ما جدّ بالضبط عندما حدث التحوّل الهائل، مُخلّفًا وراءه "شيئًا" فقط- أصبح ذا أهمية مركزية لآرثر.

جورج

لا يحتفظ جورج بذاكرة أولى، وإلى أن يحين الوقت الذي يشير فيه أحدهم إلى أنه ربما من الطبيعي أن يمتلك المرء ذاكرة أولى، يكون الأوان قد فات. من الواضح أنه لا يحمل أي ذكريات من الماضي... لا عن حمله أو عناقه أو السخرية منه أو توبيخه. يعي أنه نشأ في يوم من الأيام طفلًا وحيدًا، ويعرف أنْ بات له أخ يُدعى هوراس دون أن يسبب وجوده قلقًا له، ولم يشكّل حتى تهديدًا للطرد من جنة الوحدة. لا نظرة أولى يتذكرها، ولا حتى رائحة أولى: سواءً رائحة زكية من الأم أم انبعاث المواد الكربونية من خادمة تعمل على مدار الساعة.

إنه صبي خجول وجاد، وفَطِن في استشعار توقعات الآخرين. يخالجه إحساس أنه يخذل والديه في بعض الأحيان: يجب ألّا ينسى الطفل المطيع أنهما اعتنيا به منذ نعومة أظفاره. ومع ذلك فإن والديه لم يُوبّخاه على هذا القصور. وعلى الرغم من أن الأطفال الآخرين قد ينتفعون من هذا التساهل -قد يضعون وجه الأم الرؤوم أو الذراع الحانية للأب نصب أعينهم عنوة في ذاكرتهم- فإن جورج لم يفعل ذلك. بداية يعوزه الخيال. وسواء لم يسبق له امتلاكه، أو ما إذا توقف نمو خياله بسبب أفعال والديه، فإنه سؤال في فرع من العلوم النفسية التي لم توضع بعد. كان جورج قادرًا تمامًا على متابعة إبداعات الآخرين -قصص سفينة نوح، وداوود وجالوت، ورحلة المجوس[1]- لكنه لا يستطيع مجاراتها بخياله.

إنه لا يشعر بالذنب حيال ذلك؛ لأن والديه لا يعدّان ذلك خطأً فيه. حين يقال إن طفلًا في القرية "ذا مخيلة واسعة"، فمن الواضح أنها مفردة للذم. ولتوسيع النطاق، هناك "رواة القصص الطويلة" و"ملفقو الأكاذيب". الأسوأ إلى حدٍ بعيدٍ هو الطفل "الكذوب دائمًا"... يجب تجنبه بأي ثمن. لم يندفع جورج من تلقاء نفسه لقول الحقيقة أبدًا: ما يعني ضمنًا أنه في حاجة إلى التشجيع. إنه أبسط من هذا: من المتوقع أن يقول الحقيقة؛ لأنه لا بديل عن ذلك في بيت الكاهن.

---

1 Journey of the Magi: عبارة عن قصيدة مؤلفة من 43 سطرًا، كتبها ت. س. إليوت عام 1927.

"أنا الطريق والحقيقة والحياة": إنه يسمع هذا يتردد مرات عدة على شفاه أبيه. الطريق والحقيقة والحياة. تشق طريقك في الحياة عبر قول الحقيقة. يعلم جورج أن هذا ليس ما يرمي إليه الكتاب المقدس بالضبط، ولكن فيما هو يكبر، هذا هو وقع الكلمات عليه.

آرثر

كانت في نظر آرثر مسافة معتادة بين المنزل والكنيسة. مع ذلك، اكتظّت بالشخوص والحكايات والتعليمات. اعتاد الذهاب للكنيسة الحجرية الباردة مرة واحدة في الأسبوع؛ ليجثو على ركبتيه ويصلي، إذ الرّب هناك ويسوع المسيح وتلاميذ المسيح الاثني عشر والوصايا العشر والخطايا السبع المميتة. كان كل شيء مُنَظَّمًا للغاية، ومُدرَجًا ومُرقّمًا دائمًا مثل التراتيل والصلوات وآيات الكتاب المقدس.

لقد فهم أن ما تعلمه هناك هو الحقيقة، لكن خياله فضّل الرواية الموازية المختلفة التي تلقّاها في المنزل. قصص والدته حكت عن عهود الماضي البعيد، ووُضِعت لتعليمه التمييز بين الصواب والخطأ أيضًا. كانت تقف الأم عند موقد المطبخ، وتقلّب العصيدة، وتدسّ شعرها خلف أذنيها كما اعتادت أن تفعل، وبدوره كان ينتظر اللحظة التي تنقر فيها على المقلاة بالملعقة الخشبية، وتتوقف وتلتفت صوبه وعلى وجهها ابتسامة. بعد ذلك، بينما كانت عيناها الرماديتان تضمّانه، صنع صوتها منحنى مثيرًا للمشاعر في الهواء، تَقلَّب صعودًا وهبوطًا، ثم تباطأ إلى أن توقف عند بلوغها جزءًا من الحكاية بالكاد صبر لبلوغه، إما عن روائع التعذيب أو الفرح وهو الجزء المُنتَظَر ليس من البطل والبطلة فحسب ولكن المُستمع كذلك.

"وبعد ذلك أمسكوا بالفارس فوق حفرة تتمعّج الثعابين فيها، فَحّت ونفثت سمّها فيما أجسادها الطويلة المُلتفّة وقعت في شَرَكِها العظام المبَيَضّة لضحاياها السابقين..."

"ثم سحب الوغد أسود القلب، مع يمين مُروّعة، خنجرًا مخفيًا من حذائه وتقدّم نحو الأشخاص العُزّل..."

"وبعد ذلك، أخذت العذراء دبوسًا من شعرها، وتدلّت الخصلات الذهبية من النافذة، نزولًا نحو الأسفل، مداعبة جدران القلعة إلى أن أوشكت على ملامسة العشب الأخضر الذي وقف عليه..."

كان آرثر صبيًا مفعمًا بالحيوية وجامحًا لم يهدأ قط، ولكن بمجرد أن ترفع الأم مَغْرفة العصيدة الخشبية، ينغمس في حالة من السحر الصامت... كما لو أن شريرًا من إحدى قصصها قد دفع عشبة سريّة إلى طعامه. ثم انتقل الفرسان وسيداتهم إلى المطبخ الصغير. وُزعت التحديات، ونُفذت المهمات بأعجوبة، وصَلْصلت الدروع، وخشخشت الزُّرود، والشرف مرفوع دائمًا.

ارتبطت هذه القصص بطريقة لم يفهمها في البداية، في صندوق خشبي قديم إلى جانب سرير والديه، احتوى على أوراق أصول العائلة. هنا كانت أنواع مختلفة من القصص، تشبه إلى حد كبير الواجبات المدرسية عن منزل دوقة بريتاني، والفرع الإيرلندي لعائلة بيرسيز في مقاطعة نورثمبرلاند، وقد قاد أحدهم لواء باك في معركة واترلو، وكان عمّ الشيء الشاحب الأبيض الذي لم ينسه أبدًا. واقترن كل هذا في الدروس الخاصة التي قدمتها والدته له في علم شعارات النبالة. سحبت الأم من خزانة المطبخ أوراقًا كبيرة من الورق المقوى، رسم عليها ولوَّنها أحد أعمامه في لندن. كانت تشرح له شعارات النبالة، ثم تُوجّهه بدوره: "صِف لي هذا الدرع!" وكان عليه أن يجيب، كما هو الحال مع جداول الضرب: شارة الرتبة، النجمة السداسية، النجمة الخماسية، الأشكال خماسية الأقواس، الأهِلّة الفضية، وكل ما يبرق من مثيلاتها.

تعلّم في المنزل وصايا إضافية على رأس العشرة التي عرفها من الكنيسة. "لا خوف من الأقوياء. تواضع مع الضعفاء"، وكانت إحداها "الشهامة مع النساء في كل مكان" شعر أنها أكثر أهمية؛ لأنها جاءت مباشرة من الأم، كما أنها تقتضي التطبيق العملي. لم ينظر آرثر إلَى ما هو أبعد من ظروفه الحالية. إذ الشقة صغيرة، والمال زهيد، ووالدته مُنهَكة، ووالده مُتقلب. لقد أخذ على نفسه في وقت مُبكّر نذور الطفولة ونذورًا علم أنه لن يحيد عنها في أي وقت: "حين يتقدم بكِ العمر مامي، سترتدين فستانًا مخمليًّا ونظارات ذهبية وتجلسين بسكينة قرب النار" تمكن آرثر من رؤية بداية القصة -حيث هو الآن- ونهايتها السعيدة،

لكنه فقد منتصفها للحظة فقط.

بحث عن أدلة عند كاتبه المفضل ماين ريد. لقد بحث في كتاب حرّاس البندقية أو مغامرات في جنوب المكسيك[2]. قرأ الرحالة يونغ الصغير[3] وحرب تايلند[4] والفارس مقطوع الرأس[5]. اختلطت الآن الجواميس والهنود الحمر في رأسه بالفرسان المُدرّعين وأفراد المشاة في لواء باك. من مُفضّلاته لماين ريد قصة صيادو البراري أو مغامرات رومانسية في جنوب المكسيك[6]. لم يعرف آرثر بعد كيفية الحصول على النظارات الذهبية والفستان المخملي، لكنه ظنّ أنها قد تنطوي على رحلة محفوفة بالمخاطر إلى المكسيك.

جورج

تصحبه والدته مرة واحدة في الأسبوع لزيارة ضريح العم الأكبر كومبسون. يرقد العم في مكان غير بعيد، خلف رصيف منخفض من الغرانيت لا يُسمح لجورج بعبوره. يُجدّدون أصيص زهوره كل أسبوع. منطقة غريت ويرلي كانت أبرشيّة العم كومبسون على مدى ستة وعشرين عامًا، روحه في السماء الآن وجسده لا يزال في فناء الكنيسة. تشرح والدته ذلك فيما تزيل السيقان الذابلة، وتتخلص من المياه ذات الرائحة النَّتِنة، وينتصب الزهر الغضّ النضِر. في بعض الأحيان، تسمح لجورج بمساعدتها في صبّ الماء النظيف. أخبرته أن الإفراط في الحِداد ليس من المسيحية في شيء، لكن جورج لا يفهم هذا.

بعد أن صعدت روح العم الأكبر إلى السماء، أخذ والده مكانه. تزوج من والدته بعد عام واحد، وبالتالي حصل على أبرشيّته، وعقب ذلك وُلِد جورج. هذه هي القصة التي رُويت له، وهي واضحة وصحيحة وسعيدة، كما يجب أن يكون كل شيء. أُمٌّ حاضرة باستمرار في

---

2 (The Rifle Rangers) هي رواية للكاتب ماين ريد (1850) في فيرا كروز، المكسيك خلال الحرب المكسيكية (1846-1848).

3 (The Young Voyageursand)

4 (The War Trailand)

5 (The Headless Horseman)

6 (Romantic Adventures)

حياته، تُعلّمه حروفه الأولى، وتقبّله قبل النوم، وأب غائب في كثير من الأحيان؛ لأنه يزور المسنين والمرضى، أو يكتب خطبه، أو يَعِظهم. هناك بيت الكاهن والكنيسة، والمبنى الذي تُعطي الأم فيه الدروس في مدرسة الآحاد، والحديقة والقط والدجاج، والعشب الممتد الذي يقطعونه بين بيت الكاهن والكنيسة وفنائها. هذا هو عالم جورج، وهو يدرك ذلك جيدًا.

كل شيء هادئ داخل بيت الكاهن: الصلوات والكتب والتطريز. لا تصرخ، ولا تَجْرِ، ولا تلطّخ نفسك. تثير المدفأة الصخب في بعض الأحيان، والسكاكين والشوك تفعل ذلك إذا لم تمسك بها بإحكام، وهذا حال شقيقه هوراس حين يصل. لكن كل ما سبق استثناء في عالم مسالم وجدير بالثقة. أما بالنسبة إلى جورج يبدو أن العالم خارج نطاق بيت الكاهن ممتلئ بالضوضاء والأحداث غير المتوقعة. في الرابعة من عمره، أُخِذ في نزهة بين الطرقات وعُرِضت عليه بقرة. ليس حجمها ما أرعبه، ولا ضَرعها المنتفخ المُتقلقل في مستوى نظره، لكنه الخوار الأجش المفاجئ الذي يصدر عنها دون سبب وجيه. ربما هي في مزاج سيئ للغاية فحسب. بينما ينفجر جورج في البكاء، يقسو والده على البقرة بضربها بالعصا، عندئذ تُدير جانبها، وترفع ذيلها وتلطّخ نفسها. تسمّر جورج في مكانه من هذا السَّيل، ومن جلبة اللطخات الغريبة وهي تهبط على العشب. على أي حال، لقد خرجت الأمور فجأة عن السيطرة. لكن يد أمه سحبته بعيدًا قبل أن يتمكن من مواصلة النظر.

ليست البقرة -أو أيٌّ من أصدقائها الكثيرين مثل الحصان والخروف والخنزير- هي ما يجعل جورج متشككًا من العالم خارج أسوار بيت الكاهن. معظم ما يسمعه عن هذا العالم يجعله قلقًا. إنه عالم يعجّ بالمسنين والمرضى والفقراء، وكلها أوضاع سيئة انطلاقًا من نظرة الأب وصوته الخفيض عند عودته، وما يسميه الناس أرامل المنجم، وهو ما لا يفهمه جورج. خلف الأسوار صِبْية من مختلقي الأكاذيب، والأسوأ منهم، أولئك الأفّاكون جدًا. وهناك ما يُعرَف بالمنجم أي منجم الفحم في مكان قريب أيضًا، وهو المكان الذي يجَلبون منه الفحم الموجود في الموقد. إنه غير واثق من مشاعره حيال الفحم. إنه نتن الرائحة ومغبر ومزعج عند نكزه، ويُطلب منك الابتعاد عن لهيبه، كذلك يجلبه إلى المنزل رجال ضِخام ذوو بأس يرتدون خوذات جلدية، يحملونه على ظهورهم. حين يطرق العالم الخارجي مقرعة الباب، يقفز جورج عادة. في كل الأحوال، فضّل البقاء في الداخل مع

والدته وشقيقه هوراس وشقيقته الجديدة مود، إلى أن تحين ساعته لدخول الجنة ولقاء العم الأكبر كومبسون، لكنه يشك في السماح له بذلك.

آرثر

اعتادوا التنقل كثيرًا: انتقلوا ست مرات في الأعوام العشرة الأولى من حياة آرثر. بدا أن الشّقق راحت تضيق مع ارتفاع عدد أفراد الأسرة. بصرف النظر عن آرثر، فإن هناك أخته الكبرى أنيت، وشقيقتاه الأصغر منه، لوتي وكوني، وشقيقه الصغير إينيس، وبعد ذلك شقيقتاه إيدا وجوليا، المعروفة باسم دودو. كان والدهم جيدًا في إنجاب الأطفال -هناك اثنان آخران لم تكتب لهما الحياة- لكنه أقل جودة في توفيرها لهم. هذا الإدراك المبكر بأن والده لن يوفر الحياة الكريمة المناسبة للأم حين تتقدم في السن، جعل آرثر أكثر تصميمًا على توفيرها لها بنفسه.

ينحدر والده -لنُنحّي دوق بريتاني- من أسرة ذات ميول فنية. تمتّع بمواهب وميول دينية رفيعة. لكنه دأب على أن يكون في غاية التوتر، ولم يحظ ببنية قوية. وصل إلى إدنبرة من لندن في سن التاسعة عشرة، عمل مساعد مسّاح أراضٍ في مجلس أشغال أسكتلندا، وقد اندفع في عمر مبكر جدًا إلى المجتمع الراقي، وعلى الرغم من لطفه، إلا أنه اتّصف في كثير من الأحيان بالقسوة وكثرة الشرب. لم يتقدم في مجلس الأشغال، ولا في شركة جورج ووترمان وأولاده، ولا حتى في الطابعات الليثوغرافية. كان فشلاً بسيطًا لرجل، ذي وجه ناعم خلف لحية كاملة وناعمة، فقد أدرك المسؤولية متأخرًا، وأضاع طريقه في الحياة.

لم يتّسم أبدًا بالشدة أو العدوانية، كان سكّيرًا من النوع الانفعالي الذي يفتح فمه ويزمجر بأقذع الألفاظ، ومن النوع المُشفِق على نفسه. أعاده سائقو سيارات الأجرة إلى المنزل، وبإصرارهم على أخذ أجرتهم أوشكوا على إيقاظ الأطفال، واللعاب يسيل على لحيته. في صباح اليوم التالي، انتحب في وصلة بكاء لعجزه عن دعم أولئك الذين أحبهم بحنان كبير. أُرسِل آرثر إلى مسكن مؤقت لعام واحد عوضًا عن أن يشهد مرحلة جديدة من

انحطاط أبيه، لكنه رأى ما يكفي لدعم تغيير فهمه أو تعديل مسار استيعابه لما يمكن أو يجب أن يكون عليه الرجل. في حكايات والدته عن الفروسية والرومانسية، مقاطع الرسامين المخمورين قليلة.

مارس والد آرثر الرسم بالألوان المائية، وعزم على زيادة دخله عن طريق بيع أعماله دائمًا. لكن فطرته الكريمة تدخلت باستمرار، فقد أهدى رسوماته لكل قادم، أو في أحسن الأحوال قبض بضعة بنسات. يمكن أن يقال إن مواضيعه اتّسمت بأنها وحشية ومخيفة، وعلى الأغلب قدمت أدلة على طبيعته ذات الحس الساخر. ولكن أكثر ما فضل رسمه، وجلّ ما يُذكَر في رسمه هي الجنّيات.

جورج

أُرسِل جورج إلى مدرسة القرية. ارتدى ياقة مُنشّاة داكنة مع ربطة عنق مُرتخية لإخفاء زر معدني، صُدْرة تصل أزرارها إلى أسفل العنق مباشرة، وسترة ذات طيّات أفقية تقريبًا. الأولاد الآخرون ليسوا على تلك الدرجة من الأناقة: بعضهم يرتدي بلوزات خشنة ومحبوكَة في المنزل أو سترات غير مناسبة مرّت من الإخوة الأكبر سنًا. عدد قليل منهم ياقاتهم مُنشّاة، لكن هاري تشارلزورث وحده فقط من يتأنق بربطة العنق كما يفعل جورج.

علّمته والدته أبجديته الأولى، ووالده مبادئ الجمع البسيطة. في الأسبوع الأول وجد نفسه جالسًا في مؤخرة الفصل. سيُجرى اختبار للطلاب وإعادة توزيع للمقاعد بناءً على ذكائهم في يوم الجمعة: الأولاد الأذكياء سيجلسون في المقدمة، والأغبياء في الخلف، فثواب التفوق هو أن تجد نفسك أقرب إلى المعلم، إلى مقعد التعليم، إلى المعرفة، إلى الحقيقة. هذا هوَ السيد بوستوك، الذي يرتدي سترة تويد ذات النسيج الصوفي الخشن، وصُدْرة صوفية، وياقة قميص سحبت أطرافها خلف ربطة عنق بدبوس ذهبي. يعتمر السيد بوستوك قبعة لبّادية بُنية طوال الوقت ويضعها على المنضدة أثناء الحصة، كما لو أنه لا يثق بها بعيدًا عن مرأى عينيه.

عندما تحين فرصة بين الحصص، يذهب الأولاد إلى الخارج في ما يسمى الفناء، ولكنها مجرد مساحة من العشب المُداس بالأقدام، تطلّ عبر الحقول المفتوحة على منجم الفحم البعيد. الأولاد الذين يعرفون بعضهم يبدؤون العِراك فورًا؛ من أجل فعل شيء ما فقط. لم يسبق لجورج أن رأى أولادًا يتعاركون أبدًا. بينما كان يراقب، يأتي سِد هينشو، أحد الأولاد الأشد قسوة، ويتسمّر أمامه. يتصنّع هينشو وجهًا ساخرًا، شادًّا جانبي فمه بأنامله الصغيرة فيما يستخدم إبهاميه ليرفرف أذنيه إلى الأمام.

"كيف حالك؟ اسمي جورج" هذا ما تطلب منه قوله. لكن هينشو اكتفى فقط بإثارة قرقرة مزعجة، ورفرفة أذنيه.

أتى بعض الصبية من المزارع، ويظن جورج أن رائحة بقر تنبعث منهم. الآخرون هم أبناء عمال المناجم، ويبدو أنهم يتحدثون بأسلوب مختلف. يحفظ جورج أسماء زملائه في الدراسة: سِد هينشو، وآرثر آرام، وهاري بوم، وهورايس نايتون، وهاري تشارلزورث، ووالي شارب، وجون هاريمان، وألبرت ياتس...

يرى والده أنه سينجح في تكوين صداقات، لكنه غير متأكد كيف سيحدث ذلك. في صباح أحد الأيام يخرج والي شارب وراءه في الفناء، ويهمس:

"لستَ شخصًا جيدًا"

يستدير جورج، قائلاً: "كيف حالك؟ اسمي جورج" يكرّر ذلك.

اختبرهم السيد بوستوك في القراءة والإملاء والحساب في نهاية الأسبوع الأول. يعلن النتائج صباح الاثنين، حينذاك يُحرّكون طاولات الصف. يجيد جورج القراءة من الكتاب الذي أمامه، لكن الإملاء والحساب خذلاه. طُلب منه البقاء في مؤخرة الفصل. لم يُحرِز تقدمًا في الجمعة المقبلة، والجمعة التالية. في الوقت الحالي، يجد نفسه محاطًا بفتية المزارع والصبية الذين لا يحفلون بأماكن جلوسهم، يظن أنه من المفيد أن يجلسوا بعيدين عن السيد بوستوك كي يتمكنوا من إساءة السلوك. يشعر جورج كما لو أنه يُقصى ببطء من الطريق والحقيقة والحياة.

سدّد السيد بوستوك نقرات على السبورة بقطعة من الطباشير. "هذا يا جورج زائد هذا، (نقرة) يساوي ماذا؟" (نقرة نقرة).

كل شيء في رأس جورج مشوش، وهو يخمّن بعشوائية. يقول: "اثنا عشر،" أو: "سبعة ونصف". يضحك الصبية في المقدمة، ثم ينضم فتية المزارع إليهم حين يدركون أنه أخطأ.

تَنهّد السيد بوستوك وهزّ رأسه، وسأل هاري تشارلزورث، الجالس في الصف الأمامي كالعادة، ويرفع يده طوال الوقت.

"ثمانية،" يجيب هاري، أو: "ثلاثة عشر وربعًا"، يرمق السيد بوستوك جورج بنظرة لإظهار مدى حماقته.

بعد ظهر أحد الأيام، في طريقه للعودة إلى بيت الكاهن، يلوّث جورج نفسه. تنزع والدته عنه ملابسه، وتوقفه في الحمام، وتفرك جسده، وتلبسه مرة أخرى، وتأخذه إلى والده. رغم ذلك، لم يتمكن جورج من أن يشرح لأبيه السبب، رغم أنه يبلغ من العمر سبعة أعوام تقريبًا، فقد تصرف كرضيع في الحفاظ.

يتكرر هذا ثانية، ثم مرة أخرى. لا يُقاصِصه والداه، لكن خيبة أملهما الواضحة في مولودهما البكر -غبي في المدرسة، وكرضيع في طريق عودته إلى المنزل- سيئة كأي عقوبة. يُناقشانه فوق رأسه.

"إنك تثيرين أعصاب الطفل يا شارلوت"

"على أي حال، لا يمكن أن يكون التسنين"

"ويمكننا استثناء البرد؛ لأننا في سبتمبر"

"والمواد الغذائية غير القابلة للهضم؛ لأن هوراس لا يتأثر بها"

"ماذا تبقى؟"

"السبب الآخر الوحيد الذي يشير إليه الكتاب هو الخوف"

"جورج، هل أنت خائف من شيء ما؟"

ينظر جورج إلى والده في الياقة الكهنوتية اللامعة، وإلى وجهه الواسع الذي لا يبتسم أعلَاها، والفم الذي يتحدث عن الحقيقة المُبهمة من منبر القديس مارك في كثير من الأحيان، والأعين السوداء التي تستوعب الحقيقة منه الآن. ماذا يقول؟ إنه يرتعد من والي شارب وسِد هينشو وآخرين، لكن هذا ما سيُطلعهم عليه. على أي حال، ليس هذا أكثر ما يخشاه. في النهاية، يقول: "أنا خائف من أن أكون غبيًا".

أجابه والده: "جورج، نحن نعلم أنك لست غبيًا. والدتك وأنا علمناك الأبجدية ومبادئ الجمع. أنت فتى ذكي. يمكنك حل مسائل الجمع في المنزل لكن ليس في المدرسة! هل يمكن أن تخبرنا لماذا؟"

"لا"

"هل يعلّمها السيد بوستوك بطريقة مختلفة؟"

"لا يا أبي"

"هل تتوقف عن المحاولة؟"

"لا ، أبي. يمكنني حلّها في الكتاب لكني لا أستطيع على السبورة"

"شارلوت، أعتقد أننا يجب أن نأخذه إلى برمنغهام"

آرثر

لدى آرثر أعمام شهدوا تدهور شقيقهم، وأشفقوا على حال أسرته. ارتأوا الحل في إرسال آرثر للدراسة على يد اليسوعيين في إنجلترا. وُضع في القطار في إدنبرة في سن التاسعة، وذرف الدموع على طول الطريق إلى بريستون. قضى السنوات السبع المقبلة في ستونيهرست[7]، باستثناء ستة أسابيع كل صيف، حين يعود إلى الأم وإلى أبيه الحاضر الغائب.

قَدِم اليسوعيون من هولندا، جالبين معهم منهجهم وأساليب تأديبهم. يشمل التعليم سبع فئات من المعرفة -العناصر، والأشكال، والمبادئ الأساسية، والقواعد، وبناء الجمل، والشعر والخطابة- مع تخصيص عام واحد لكل منها. كان للمدارس العامة روتينها المعتاد المكوَّن من الهندسة الإقليدية والجبر والكلاسيكيات، وحقائقها التي أقرّتها عمليات الضرب المبرح. انتشرت الأداة -قطعة من المطاط الهندي بحجم وسُمك نعل الحذاء- المستوردة من هولندا أيضًا، وتعرف باسم تولِلي. ضربة واحدة على راحة اليد، وُجّهت لغاية يسوعية خالصة، وهي كافية لتتسبب في تورّم راحة اليد وتغير لونها. تتألف العقوبة العادية

7 اسم ملكية ريفية مساحتها 300 فدان مملوكة لجمعية يسوع بالقرب من كليثروي في لانكشاير، إنجلترا.

للأولاد الأكبر سنًا من تسع ضربات على راحة كل يد. في ما بعد، كان المخطئ بالكاد يستطيع أن يدير مقبض باب الغرفة الدراسية باليد التي تعرضت للضرب.

جاء اسم تولِلي، كما فُسّر لآرثر، كَتَوْرية لاتينية (تلاعب لفظي). فيرو، أنا أحتمل. فيرو، فيري، تولي، لاتوم. تولي، لقد تحملت، تولِلي هو ما احتملناه، نعم؟

كانت الدعابة قاسية مثل العقوبات. عندما سئل كيف يرى مستقبله، أقرّ آرثر بأنه فكّر في أن يصبح مهندسًا مدنيًا.

أجاب كاهن الأبرشية: "حسنًا، قد تصبح مهندسًا، لكني لا أعتقد أنك ستكون مدنيًا أبدًا"

نضج آرثر ليصبح شابًا بدينًا مُفعمًا بالحيوية والحياة، وجد العزاء في مكتبة المدرسة، والسعادة في ملعب لعبة الكريكت. بدأ الأولاد كتابة فروضهم مرة واحدة في الأسبوع، فيما اعتُبر عقابًا إضافيًا، لكن آرثر عدّها مكافأة. في تلك الساعة صبّ كل شيء على والدته. ربما كان الرّب ويسوع المسيح والكتاب المقدس واليسوعيون وتوللي هناك، لكن السلطة التي آمن بها وخضع لها هي سلطة الأم الشابة. كانت خبيرة في جميع الأمور، من الملابس الداخلية إلى نار الجحيم. "ارتدي الفانيلا واجعلها ملاصقة لبشرتك"، ونصحته مرة: "لا تصدّق بوجود العقاب الأبدي أبدًا"

أرشدته بأدنى عمدٍ يُذكر إلى طريق المجد أيضًا. في وقت مبكر، بدأ في سرد قصص الفروسية والرومانسية على زملائه التلاميذ، التي سمعها لأول مرة من تحت مَغْرفة عصيدة الأم وهي تقلّبها وتعلو بها. بينما وقف على طاولة، قرفص جمهوره مُتحلّقًا حوله في منتصف أيام العطلة النّدِيّة. مستحضرًا مهارات الأم، عرف كيف يخفض صوته، وكيف يسترسل في سرد القصة، ومتى يكف عن الحديث في لحظة محفوفة بالمخاطر، مع وعد بالمزيد في اليوم التالي. نظرًا لكونه بدينًا وجائعًا، فإنه سيقبل المعجنات باعتبارها مقابلًا للحكاية. لَكنه أحيانًا، قد يتوقف فجأة في ذروة المُعضِلة، ويمكن أن يواصل مرة أخرى لأجل تفاحة.

وهكذا، اكتشف العلاقة الجوهرية بين السرد والمكافأة.

جورج

لا ينصح طبيب العيون بنظارات للأطفال الصغار. من الأفضل ترك عينيْ الصبي تتكيفان تكيفًا طبيعيًا على مرّ الأعوام. ينبغي نقله في انتظار ذلك إلى مقدمة الفصل الدراسي. يترك جورج فتية المزارع خلفه ويُنقَل إلى جانب هاري تشارلزورث، الحائز على أعلى الدرجات في الاختبارات دائمًا. تصبح المدرسة ذات معنى لجورج الآن؛ أمكنه أن يرى أين نقر السيد بوستوك بقطعة الطباشير، ولم يعد لتلويث نفسه مرة أخرى في طريقه إلى المنزل.

واصل سِد هينشو تصنّع الوجه الساخر، لكن جورج بالكاد لاحظ ما يفعل. سِد هينشو مجرد فتى مزرعة غبي تنبعث منه رائحة الأبقار، وربما لا يمكنه حتى تهجئة كلمة.

في أحد الأيام، ينقضّ هينشو على جورج في الفناء، ويدفعه بكتفه، وفيما يستجمع جورج قواه، ينزع هينشو ربطة عنقه ويفر. يسمع جورج قهقهة. عند عودته إلى الفصل، يسأله السيد بوستوك أين يجب أن تكون ربطة عنقه.

يواجه جورج مشكلة. فهو يعلم أنه من الخطأ أن يتسبب في المشكلات لأحد زملائه. لكنه يعلم أن الأسوأ اختلاق الأكاذيب. والده واضح تمامًا بشأن هذا الموضوع. بمجرد أن تبدأ في اختلاق الأكاذيب، ستقودك إلى مسارات الخطيئة، ولن يوقفك أي شيء إلى أن يُعلّق الجلاّد حبل المشنقة حول عنقك. لم يقل أحد هذا، لكن هذا ما فهمه جورج، لذا لا يستطيع أن يكذب على السيد بوستوك. إنه يبحث عن مَخرج -ربما يكون سيئًا بدرجة كافية على أي حال، البدء في كذبة- ثم سيجيب على السؤال ببساطة.

"لقد ضربني سِد هينشو وأخذها"

يقود السيد بوستوك هينشو من شعره إلى الخارج، ويضربه حتى يعوي، ويرجع بربطة عنق جورج، ويعطي الفصل محاضرة عن السرقة. يقف والي شارب بعد المدرسة، في طريق جورج ويقول في ما يدور حوله، "لستَ شخصًا جيدًا".

يستبعد جورج والي شارب كصديق محتمل.

نادرًا ما يشعر بافتقاد ما لا يملك. ليس للأسرة أي دور في المجتمع المحلي، مع ذلك لا يمكن لجورج تصور ما قد ينطوي عليه ذلك، ناهيك عن السبب وراء عدم رغبتهم

أو ربما فشلهم. هو نفسه لم يزر منزلاً من منازل الأولاد الآخرين أبدًا، لذا لا يمكنه الحكم على كيفة سير الأمور في مكان آخر. مُكتفٍ بحياته. لا يملك المال، ولكنه في غِنىً عنه أيضًا، بل أدنى من ذلك، عندما يعلم أن حب المال هو أصل كل الشرور. ليس لديه ألعاب، لكنه لم يفتقدها. إنه يفتقر إلى المهارة وقوة الإبصار المطلوبة للعب، لم يسبق له أن قفز على مربعات لعبة الحجلة، في حين أن أي كرة ملقاة تجعله يتخبط. إنه سعيد باللعب الأخوي مع هوراس، وبلطف أكثر مع مود، ولا يزال يلعب بلطف أكثر مع الدجاجات.

إنه يعلم أن معظم الأولاد لديهم أصدقاء... ديفيد وجوناثان في درس الكتاب المقدس، وقد شاهد هاري بوم وآرثر آرام يجتمعان عند حافة الفناء، ويكشف كل منهما للآخر ما في جيوبه... لكن لم يسبق أن حدث مثل ذلك معه. هل المقصود أن عليه فعل شيء، أو ينبغي عليهم القيام بشيء ما؟ في كل الأحوال، على الرغم من أنه يرغب في نيل رضا السيد بوستوك، فهو لا يعبأ بإرضاء الأولاد الجالسين خلفه.

عندما تصل الخالة الكبرى ستونهام لارتشاف الشاي، كما تفعل في أول يوم أحد من كل شهر؛ تَطْرُق فنجانها بِصحنه مُحدِثة ضجة، وبفمها المُتغضّن تسأله عن أصدقائه.

يجيب على الدوام: "هاري تشارلزورث، يجلس إلى جواري"

تعيد فنجانها إلى صحنه مثيرة ضجة في المرة الثالثة التي يقدّم فيها الردّ نفسه، لتستفسر منه وهي عابسة: "هل لديك صديق آخر؟"

أجاب: "إنهم مجرد فتية مزارع ذوو رائحة كريهة"

يعلم أنه قد قال شيئًا خاطئًا من الطريقة التي تنظر بها الخالة الكبرى ستونهام إلى أبيه. استدعاه والده إلى المكتب قبل العشاء. يقف في مكتبه، مع كل سُلطة الإيمان الموضوعة على الرّف خلفه.

"جورج، كم عمرك؟"

هكذا تبدأ الحوارات مع الأب غالبًا. كلاهما يعرف الإجابة بالفعل، لكن ما زال يتوجب على جورج أن يجيب.

"سبعة يا أبي"

"هذا عمر يُتوقّع من حامله بعض الذكاء والحكمة. لذا دعني أسألك هذا يا جورج. هل تعتقد أنك في نظر الرّب أكثر أهمية من الأولاد الذين يعيشون في المزارع؟"

يمكن لجورج أن يقول إن الإجابة الصحيحة هي لا، لكنه متردد في تقديمها على الفور. من المؤكد أن الفتى الذي يعيش في بيت الكاهن، ووالده كاهن، وعمه الأكبر كان كاهنًا أيضًا، أكثر أهمية عند الرّب من صبي لم يذهب أبدًا إلى الكنيسة وغبي ولئيم مثل هاري بوم كذلك؟

"لا"، كما يقول.

"ولماذا تقول عن أولئك الأولاد إنهم ذوو الرائحة؟"

تبدو الإجابة الصحيحة على هذا السؤال مُبهمة. ينظر جورج في هذه المسألة. الإجابة الصحيحة، التي تعلمها، هي الإجابة الصادقة.

"لأنهم كذلك، يا أبي"

تنهّد والده. "وإن كانوا يا جورج، لماذا هم كذلك؟"

"لماذا هم ماذا يا أبي؟"

"ذوو رائحة كريهة"

"لأنهم لا يغتسلون"

"لا يا جورج، تنبعث منهم الرائحة الكريهة؛ لأنهم فقراء. نحن محظوظون بما يكفي لأننا قادرون على شراء الصابون والملابس الكتانية الجديدة، ولدينا حمّام ولا نعيش بالقرب من الحيوانات. هم المتواضعون في الأرض. وقل لي هذا، من يحب الرّب أكثر، المتواضعون في الأرض أم أولئك الذين امتلأوا بالغرور الجائر؟"

هذا سؤال أسهل، حتى لو لم يوافق جورج تحديدًا على الإجابة. "المتواضعون في الأرض يا أبي"

"طوبى للودعاء[8]، يا جورج. أنت تعرف الآية"

"نعم، أبي"

لكن شيئًا ما في جورج يقاوم هذا الاستنتاج. فهو لا يحسب هاري بوم وآرثر آرام

---

8 "طُوبَى لِلْوُدَعَاءِ: لأَنَّهُمْ يَرِثُونَ الأَرْضَ" إنجيل متى 5.

متواضعين. ولا يمكن أن يصدّق أن يكون جزءًا من خطة الرّب الأبدية لخلقه، أن ينتهي هاري بوم وآرثر آرام إلى وراثة الأرض. هذا بالكاد يتوافق مع شعور جورج بالعدالة. إنهم مجرد فتية مزارع تنبعث منهم رائحة كريهة في النهاية.

آرثر

عرضت ستونيهرست تسديد رسوم آرثر الدراسية إذا كان مستعدًا للتدرب على الكهنوت، لكن الأم رفضت العرض. كان آرثر طموحًا ومؤهلاً فعلاً للقيادة، وقد صُنّف كقائد كريكت مستقبلاً. لكنها لم تتنبأ أن يصير أي طفل من أطفالها مرشدًا روحيًا. من جانبه عرف آرثر، أنه لا يستطيع الحصول على النظارات الذهبية الموعودة، والثياب المخملية، والمقعد أمام المدفأة إذا نذر نفسه لحياة العوز والرضوخ.

لم يكن اليسوعيون أفرادًا سيئين في تقديره. لقد اعتبروا أن الطبيعة البشرية ضعيفة من حيث الجوهر، وبدا ارتيابهم مُبرَّرًا لآرثر: كان عليك فقط أن تنظر إلى والده. لقد فهموا أيضًا أن الخطيئة بدأت باكرًا. لم يُسمح للصبية أن ينفردوا بأنفسهم مُطلقًا، على الدوام رافقهم المدرسون في الجولات. وفي كل ليلة تطوف شخصية غامضة المهاجع. قد تقوض الرقابة المستمرة احترام الذات والاعتماد على النفس، مع ذلك تبقى الرذيلة والهمجية المتفشية في المدارس الأخرى في حدّها الأدنى هنا.

اعتقد آرثر أن الرّب موجود على العموم، وأن الصبية تم إغواؤهم بالذنوب، وكان الآباء على حق في ضربهم بتوللي. عندما يتعلق الأمر بمواد معينة عن الإيمان، وعلى انفراد، جادل صديقه بارتريدج. لقد تأثر به حين وقف عند المنحدر الثاني، وأخذ التقاطته المذهلة في وَاحدة من أسرع عمليات التسليم لآرثر، وأطبق على الكرة ووضعها في جيبه بأسرع مما تراه العين، وانصرف متظاهرًا بمشاهدة الكرة تختفي إلى ما وراء الحدود. يميل بارتريدج إلى إرباك ندّه، ليس في مجال لعبة الكريكت فحسب.

"هل تعلم أن مفهوم عقيدة الحبَل بلا دنس[9] أصبح بندًا إيمانيًا منذ عام ألف وثمانمئة وأربعة وخمسين؟"

"كنت أفكر في وقت متأخر بعض الشيء من اليوم، يا بارتريدج"

"تخيّل. ظلت الكنيسة تطرح هذه المسألة للنقاش على مدى قرون، وخلال ذلك الوقت لم يعد من الهرطقة إنكار ولادة العذراء. لكنه الآن كذلك"

"همم"

"الآن، لماذا تقرر فجأة التقليل من طبيعة مشاركة جوزيف في هذه المسألة؟"

"أرى أن تتمهّل يا رجل"

لكن بارتريدج جمع بالفعل عقيدة العصمة البابوية[10]، التي أُعلنت قبل خمسة أعوام فقط. لماذا يجب أن يُعلِن جميع باباوات القرون الماضية ضِمنًا أنهم غير معصومين من الخطأ؟ في حين أن جميع البابوات حاضرًا ومستقبلاً عكس ذلك؟ لماذا حقًا؟ ردّد آرثر؛ لأن بارتريدج انضم مرة أخرى، كانت المسألة تخص سياسات الكنيسة أكثر من كونها عن التقدم اللاهوتي. تعلّق الأمر كله بحضور اليسوعيين المؤثر في الفاتيكان.

"بُعِثتَ لإغوائي"، يرد آرثر أحيانًا.

"على العكس تمامًا. أنا هنا لتعزيز إيمانك. التفكير في أنفسنا داخل الكنيسة هو طريق الطاعة الحقيقية. كلما شعرت الكنيسة بالتهديد، تستجيب بفرض نظام أكثر صرامة. إنه يُجدي على المدى القصير، ولكن ليس على المدى الطويل. إنه مثل تولِّي. إنك تتعرض للضرب اليوم، وبالتالي لن تذنب مرة أخرى غدًا أو في اليوم التالي. ومع ذلك، لا تظل الإهانة لبقية حياتك لأن ذاكرة تولِّي لا قيمة لها، أليس كذلك؟"

"إلا إذا نجح"

---

9 الحبَل بلا دنس هي عقيدة مسيحية تختصّ مريم العذراء، وتندرج في إطار العلوم المريمية، ورغم وجودها في كتابات آبائية عديدة، إلا أنها أقرّت رسميًا في حبرية البابا بيوس التاسع عام 1854، وتنصّ أن العذراء مريم قد ولدت من دون أن ترث الخطيئة الأصلية، أي خطيئة آدم وحواء التي يرثها الجنس البشري. نص العقيدة: "إن الطوباوية مريم العذراء حفظت معصومة من كل دنس الخطيئة الأصلية منذ اللحظة الأولى من الحبل بها، وذلك بامتياز ونعمة خاصة من الله القدير بالنظر إلى استحقاقات يسوع المسيح فادي الجنس البشري"

10 العصمة البابوية هي عقيدة كاثوليكية تم إقرارها في المجمع الفاتيكاني الأول عام1870 في زمن حبرية البابا بيوس التاسع. تقر هذه العقيدة بأن البابا له سلطة شرعية على الكنيسة الكاثوليكية كلها، لذلك وتحت شروط محددة فهو منزّه عن الخطأ من الله في ما يخص قضايا تعليم الإيمان والأخلاقيات التي أرادها الله للكنيسة.

"ولكن في غضون عام أو عامين، يجب أن نترك هذا المكان. لن يبقى لتوللي وجود. عندها علينا أن نكون مسلحين لمقاومة الخطيئة والجريمة بحجة عقلانية، وليس بفعل الخوف من الألم الجسدي"

"أشك في أن الحجة العقلانية ستُجدي مع بعض الأولاد"

"إذن يجب أن تبقى توللي مهما كلّف الأمر، والشيء ذاته في العالم الخارجي. بالطبع لا بد أن هناك السجن والأشغال الشاقة والجلّاد"

"لكن ما الذي يهدّد الكنيسة؟ تبدو قوية"

"العلم. وانتشار مذهب التشكيك. وفقدان الهيبة البابوية. وفقدان النفوذ السياسي. وحلول القرن العشرين"

"القرن العشرين". استغرق آرثر في التفكير في هذه اللحظة. "لا أستطيع أن أصل بتفكيري إلى هذا الحد. سأبلغ الأربعين عندما يَهِلّ القرن القادم"

"وكابتن منتخب إنجلترا"

"أشك في ذلك يا بارتريدج. لكن لن أصبح قِسًّا، بكل الأحوال"

لم يكن آرثر مدركًا تمامًا لضعف إيمانه. لكن التفكير بنفسه داخل الكنيسة دفعه بسهولة إلى التفكير بنفسه خارجها. وجد أن العقل والضمير لن يتقبلا ما يوضع أمامهما دائمًا. في عامه الأخير في المدرسة، جاء الأب موري للوعظ. من أعلى منبر الوعظ، بشراسة ووجه أحمر، هدّد كاهن الأبرشية كل من بقي خارج الكنيسة بلعنة معينة مؤكدة. سواءً كان إقصاؤهم ناتجًا عن الشر أو العناد أو مجرد الجهل، فإن العواقب هي نفسها: اللعنة المؤكدة والثابتة على الجميع للأبد. تبع ذلك وصف بانورامي للعذاب والخراب في الجحيم، المُصمّم خصيصًا ليصيب الأولاد بالذعر، لكن آرثر انقطع عن الحضور. استفسرت منه الأم عن المسألة. ومن الآن فصاعدًا، حدّق في الأب موري كحكواتي لم يعد يؤمن به.

جورج

تعطي الوالدة الدروس كل أحد في المدرسة في المبنى المجاور لبيت الكاهن. مبناه القرميدي مُعيّن الشكل، إذ تقول الوالدة إنه يذكرها بكومفورتر (مُواسي) جزيرة فير[11]. لا يفهم جورج هذا، على الرغم من أنه يتساءل عما إذا كان لهذا أي رابط بوظيفة كومفورتر[12] (المُواسين). إنه يتلهَّف إلى مدرسة الأحد طوال الأسبوع. لا يحضر الأولاد الأشقياء في هذا اليوم: هم يركضون في البريّة، وينصبون الفخاخ لصيد الأرانب، ويختلقون الأكاذيب، وينغمسون في مسار زهرة الربيع[13] إلى اللعنة الأبدية عمومًا. لقد حذرته الوالدة من أنها ستعامله كالآخرين في الفصل تمامًا. يستوعب جورج السبب، فهي ترشدهم جميعًا –على حدٍ سواء– إلى طريق الجنة.

إنها تروي لهم قصصًا مثيرة، يمكن لجورج مُتابعتها بسهولة: مثل دانيال في عرين الأُسود والفرن الناري الملتهب. لكن القصص الأخرى أكثر صعوبة. درس جورج عن السيد المسيح في الحكايات الرمزية الأخلاقية، ووجد نفسه لا يميل للحكايات الرمزية الأخلاقية. خذ مثلاً حكاية الحنطة والزَّوان. يدرك جورج الجزء المتعلق بالعدو الذي يغرس الزَّوان بين الحنطة، وكيف لا ينبغي عليك جمع الزَّوان في حال قمت في الوقت نفسه باجتثاث الحنطة... على الرغم من أنه غير متأكد تمامًا من هذا الأمر؛ لأنه كثيرًا ما يرى والدته تقتلع الأعشاب الضارة في حديقة بيت الكاهن. وما هو اقتلاع الأعشاب الضارة إلّا جمع الزَّوان قبل أن تنمو والحنطة بالكامل؟ ولكن حتى تجاهل هذه المشكلة، لا يمكن أن يذهب أبعد من ذلك. إنه يعرف أن القصة تدور حول شيء آخر -هذا هو السبب في كونها حكاية- لكن ما هو هذا الشيء الآخر، هذا ما لا يصل إليه عقله.

---

11 (Fair Isle comforter) هي تقنية حياكة تقليدية تستخدم لإنشاء أنماط بألوان متعددة. سميت على اسم جزيرة فير، إحدى جزر شيتلاند. اكتسبت الحياكة في الجزيرة شعبية كبيرة عندما ارتدى أمير ويلز كنزة على نمط حياكة الجزيرة في الأماكن العامة في عام 1921.

12 في منتصف القرن الثامن عشر، بدأ المتحدثون باللغة الإنجليزية باستخدام عبارة (Job's comforter) شَخص يُحاوِل مُساعَدة أو مُواساة شخص في وَرطة أو حَلَّت به مُصيبة ولكن ما يَفعله أو يَقوله يَزيد الأُمور تَعقيدًا. وهنا يوجد معنيين لذات الكلمة وهي (comforter) لذا اختلط المعنى على جورج ولم يفهم ما عنته والدته.

13 Primrose Path: هي حياة سهلة وممتعة، حياة منغمسة في ملذات النفس أو مذهب المتعة: هذه الحياة التي تؤدي إلى اللعنة. أصل هذه التسمية لشكسبير، مأساة هاملت، أمير الدنمارك، الفصل الأول، المشهد الثالث.

يحكي لهوراس عن الحنطة والزّوان، لكن هوراس لا يفهم حتى ماهية الزّوان. هوراس أصغر بثلاثة أعوام من جورج، ومود أصغر بثلاثة أعوام من هوراس. مود، كونها فتاة، وكذلك أصغر الأطفال، ليست في قوة شقيقيها، اللذين قيل لهما إن من واجبهما حمايتها. ما ينطوي عليه هذا، تُرِك بلا تحديد تمامًا. يبدو أن المطلوب يتمثل بشكل أساسي في عدم القيام بأي شيء... لا لنكزها بالعصي، ولا لشدّ شعرها، وعدم القيام بأي سخافات أمامها كما يميل أن يفعل هوراس.

لكن جورج وهوراس أثبتا أنهما غير كافيين لحماية مود. تبدأ زيارات الطبيب، الذي تُسبب زياراته التفقدية المنتظمة إلى إصابة الأسرة بالقلق. ينتاب جورج شعور بالذنب عند استدعاء الطبيب ويتوارى عن الأنظار، في حال تبيّن أنه السبب الرئيس لمرض أخته. وفي المقابل لا يشعر هوراس بأي ذنب، بل يسأل بفرح إن أمكنه حمل حقيبة الطبيب إلى الطابق العلوي.

تقرر أنه لا يمكن ترك مود بمفردها طوال الليل في عمر الرابعة؛ لأنها ضعيفة للغاية، ولا يمكن الوثوق بأي من جورج وهوراس، ولا حتى في كليهما معًا، لرعايتها في الليل. من الآن فصاعدًا ستنام في حجرة والدتهم. وفي الوقت ذاته، تقرر أن ينام جورج مع والده، وسيحتفظ هوراس بحجرة الأطفال لنفسه. بلغ جورج الآن العاشرة من عمره، وهوراس السابعة، ربما يُعتقد أن عمر الخطيئة يدنو، ولا ينبغي ترك الصبيين وحدهما معًا. لم يُقدَّم أي تفسير، ولم يُطلب أي شيء. لم يسأل جورج ما إذا كان وضعه في حجرة والده عقابًا أم مكافأة. هكذا هي الأمور، وهذا هو كل ما يمكن أن يقال.

يصلي جورج ووالده معًا، راكعين جنبًا إلى جنب على ألواح الغسيل الخشبية التقليدية. ثم يصعد جورج إلى الفراش فيما يغلق والده الباب ويطفئ الضوء. يفكر جورج في حقه في الكلام فيما يغفو، وكيف يجب فرك روحه تمامًا كما تُفرك الثياب على ألواح الغسيل الخشبية التقليدية.

نوم الأب ليس نومًا سلسًا، ويميل إلى أن يزحر ويصفُر. في بعض الأحيان، عندما يبدأ بزوغ الفجر على حواف الستائر في الصباح الباكر، يستخدم والده أسلوب السؤال والجواب لتلقينه الدين المسيحي.

"جورج، أين تسكن؟"

"في بيت الكاهن، في غريت ويرلي"

"وأين تقع هذه؟"

"ستافوردشاير، يا أبي"

"وأين هي؟"

"في قلب إنجلترا"

"وما هي إنجلترا، يا جورج؟"

"إنجلترا هي قلب الإمبراطورية النابض يا أبي"

"جيد. وما هو الدم الذي يتدفق عبر شرايين وأوردة الإمبراطورية للوصول إلى أبعد شواطئها؟"

"كنيسة إنجلترا"

"هذا جيد، يا جورج"

وبعد فترة يبدأ الأب يزحر ويصفُر مرة أخرى. يراقب جورج الخطوط العريضة للستارة الخشنة. يستلقي هناك ممعنًا التفكير في الطرق الرئيسة والأوردة التي تصنع خطوطًا حمراء على خريطة العالم، وتربط بريطانيا بجميع الأماكن ذات اللون الوردي: أستراليا والهند وكندا والجزر المتناثرة في كل مكان. إنه يفكر في الكابلات الممتدة على طول قاع المحيط مثل كابلات التلغراف. كما يفكر في الحيوات التي تتدفق عبر هذه الكابلات وتنبثق في سيدني وبومباي وكيب تاون. سلالات الأسلاف، هذه هي الكلمة التي سمعها في مكان ما، وعلى نبض حيواتها في أذنيه، يبدأ في النوم مرة أخرى.

آرثر

نجح آرثر في الحصول على شهادة الثانوية العامة مع مرتبة الشرف، مع أنه لا يزال في عامه السادس عشر فقط، لذا أُرسِل لعام آخر بين اليسوعيين في النمسا. اكتشف في مدينة

فيلدكيرخ نظامًا جانبيًا، يسمح بشرب الجعة ومهجع دافئ. هناك عبر ممرات طويلة، حيث أحاط الأولاد الناطقون بالألمانية بالتلاميذ الإنجليز عن عمد، مما دفعهم للتحدث باللغة. عيّن آرثر نفسه محررًا ومساهمًا منفردًا في الصحيفة الرسمية فيلدكيرشيان، وهي المجلة الأدبية والعلمية المكتوبة بخط اليد. كما لعب كرة القدم كلاعب ارتكاز، وأخذ دروسًا في آلة النفخ الموسيقية توبا بومباردون، وهي آلة نفخ موسيقية تلتف مرتين حول الصدر، تصدر صوتًا كصوت القيامة.

عند عودته إلى إدنبرة، اكتشف أن والده أُودِع في دار لرعاية المسنين، ويعاني رسميًا من داء الصرع. لن يكون هناك دخل إضافي، ولا حتى قطعة نقد نحاسية من بيع لوحات الجنّيات المائية في بعض الأحيان. توظَّفت أنيت الأخت الكبرى، الموجودة بالفعل في البرتغال، كمربية أطفال. وسرعان ما انضمت لوتي إليها، وبدأتا معًا في إرسال الأموال إلى الوطن. أما مصدر المال الآخر للأم فهو تأجير غرف السّكن. شعر آرثر بالحرج والإهانة من هذا. لا ينبغي اختزال والدته، من بين جميع الناس، في مقام مؤجّرة الغرف.

"لكن يا آرثر، لو لم يعمل الناس على تأجيل الغرف، لما جاء والدك ليستأجر غرفة من الجدّة باك، وما كنت لألتقيه عندئذ أبدًا"

هذا الأمر صدم آرثر ودفعه لبغض المستأجرين أكثر. أدرك أنه لن يُسمح له بانتقاد أبيه بأي شكل من الأشكال؛ لذا ظلّ صامتًا. مع ذلك، من غير المعقول الادعاء بأن الأم لم يمكنها أن تنتقي زوجًا أفضل.

"وإذا لم يحدث ذلك،" واستطردت، مبتسمة له بعينيها الرماديتين اللتين لم يستطع أن يعصيهما أبدًا، "لن يكون هناك وجود لآرثر فحسب، بل لما وُجِدت أنيت، ولا لوتي، ولا كوني، ولا إينيس ولا إيدا أيضًا"

بدا هذا صحيحًا بلا شك، ومن تلك الألغاز الغيبية غير القابلة للحل أيضًا. تمنى لو أن بارتريدج موجود لمساعدته في مناقشة السؤال: هل يمكن أن تبقى أنت نفسك، أو على الأقل ما يكفي منك، إذا كان لديك أب آخر؟ إن لم يحدث ذلك، فقد يترتب أن أخواته لن يبقين أنفسهن، خصوصًا لوتي الأثيرة على قلبه، على الرغم من أن كوني الأجمل كما قيل. أمكنه أن يتصور أنه سيصبح مختلفًا، لكن دماغه لن يبذل أي جهد يقوده إلى إحداث قدر

ضئيل جدًا ليغيّر لوتي.

ربما أمكن آرثر أن يهضم رد فعل الأم إزاء حالتهم الاجتماعية المتدنية بشكل أفضل، إذ لم يكن التقى بالفعل بمستأجرها الأول. براين تشارلز والر: يكبر آرثر بستة أعوام فقط، لكنه طبيب مؤهل بالفعل. وشاعر له قصائد منشورة أيضًا، إذ تلقى دعم عمه في حياة البذخ[14]. لم يعترض آرثر على حقيقة أنه قارئ جيد، حتى إنه بات مثقفًا، ولا حقيقة أنه ملحد وشاب مثير، لكنه اعترض على الطريقة الفاتنة التي اعتاد السير بها في جميع أنحاء المنزل، والكيفية التي نطق بها عبارة: "هذا هو آرثر إذن" ومدّ يده مبتسمًا. الأسلوب الذي ألمح فيه، أنه متقدم بخطوة واحدة عنه بالفعل. والكيفية التي ارتدى بها بدلتيْه اللندنيتين، وتحدث في العموميات والحِكم المعبرة الساخرة، والأسلوب الذي اتبعه مع لوتي وكوني، والنهج الذي سلكه مع الأم.

لقد كان سلسًا ولطيفًا مع آرثر الذي ألمّ به السأم من تلميذ المدرسة السابق الضخم، والأخرق العنيد العائد لتوّه من النمسا. تصرف والر كأنه فهم آرثر حتى عندما لم يكن آرثر يفهم نفسه، حين وقف هناك بمفرده وبشعوره المُتّقد كما لو أنه غريب، وكأن آلة النفخ الموسيقية توبا بومباردون تلتف مرتين حوله. لقد أراد أن يفجر عاصفة احتجاج، والأكثر من ذلك حدث عندما تصنّع والر التحديق في روحه ذاتها -وكان هذا الجزء الأكثر إزعاجًا- لأخذ ما وجده هناك بجدية ولكن بلا جدية أيضًا، يبتسم كما لو أن كل هذا الإرباك الذي اكتشفه لم يكن مفاجئًا بل وثانويًا.

سهل للغاية إلى حد بعيد وفاتن مع الحياة نفسها، اللعنة.

جورج

لطالما تذكر جورج، أن هناك خادمة تقوم بجميع المهمات المنزلية في بيت الكاهن، شخص ما في الخلفية يفرك، وينفض، ويُلمّع، ويشعل النار، ويفحّم مقود المدفأة، ويضبط

---

14 (Vanity Fair) أي مكان أو مجموعة، كعالم أو مجتمع عصري، يتميز أو يُظهر انشغالًا بملذات الخمول أو التباهي.

المِرجل ليغلي. تُستبدَل الخادمة كل عام أو نحو ذلك؛ لأن الواحدة منهن تتزوج، وتنتقل أخرى إلى كانوك أو والسال أو حتى برمنغهام. لم تحظ أي منهن بأدنى اهتمام من جورج أبدًا، والآن بعد أن درس في مدرسة روغيلي، يستقلّ القطار يوميًا ويعود، وبالكاد ينتبه لوجود الخادمة.

إنه سعيد بالنجاة من مدرسة القرية بكل ما فيها: من فتية المزارع الأغبياء، وأولاد عمال المناجم الذين يتحدثون بطريقة غريبة، الذين سرعان ما سينسى أسماءهم. عادة ما يكون مع أفضل الصبية في روغيلي، فيما يعدّه المعلمون شيئًا مفيدًا ليصبح ذكيًا. يتعامل مع زملائه معاملة حسنة، حتى لو لم يحظَ بأي صديق مقرّب. ارتاد هاري تشارلزورث مدرسة في والسال، وفي الوقت الحاضر، إذا التقى كل منهما بالآخر يكتفي بتبادل الإيماءات. إن عمل جورج وأسرته وإيمانه، وجميع الواجبات التي تنبع من هذه الانتماءات، هي ما يهم. سيكون هناك وقت لأشياء أخرى لاحقًا.

يُستدعى جورج إلى مكتب والده بعد ظهر أحد أيام السبت. لمح هناك فهرسًا أبجديًا للكتاب المقدس مفتوحًا على المكتب، وبعض الملحوظات عن موعظة الغد. تبدو هيئة الأب كما هي على المنبر. يستطيع جورج تخمين ما سيكون عليه السؤال الأول على الأقل.

"جورج، كم عمرك؟"

"اثنا عشرة، يا أبي"

"عمر يتوقع فيه إلى حد ما، الحكمة وحسن التقدير"

لم يفهم جورج إذا كان هذا سؤالًا أم لا، لذا ظلّ صامتًا.

"جورج، تشكو إليزابيث فوستر من أنك تُحدّق فيها بطريقة غريبة"

عندها ارتبك. إليزابيث فوستر هي الخادمة الجديدة، أمضت هنا بضعة أشهر. ترتدي زي الخادمة، كجميع سابقاتها من الخادمات.

"ما الذي تعنيه هذه المرأة يا أبي؟"

"ماذا تعتقد أنها تقصد؟"

يفكر جورج مليًا لبعض الوقت: "هل تقصد أنه شيء آثم؟"

"وإن بدا الأمر كذلك، فماذا يمكن أن يكون؟"

"خطيئتي الوحيدة يا أبي، هي أنني بالكاد أعرفها، على الرغم من إدراكي أنها جزء من خلق الربّ. لم أتحدث إليها أكثر من مرتين في الأوقات التي بحثت فيها عن أشياء مفقودة. ليس لدي أي سبب للتحديق فيها"

"لا يوجد سبب على الإطلاق، جورج؟"

"لا يوجد سبب على الإطلاق، أبي"

"إذن سأخبرها أنها فتاة حمقاء وخبيثة، ستُفصل إذا أبدت أسبابًا أخرى للشكوى"

يحرص جورج على تصرفاته، ولا يحفل بمصير إليزابيث فوستر. كما أنه لا يتساءل عما إذا كانت خطيئة ألا يحفل بمصيرها.

آرثر

تَقرّر أن يدرس آرثر الطب في جامعة إدنبرة. كان مسؤولاً وجادًا في عمله، مع الوقت سيكتسب اللامبالاة التي يفضل المرضى الثقة بها. وافق آرثر على الفكرة، ولو أن هناك شكًا في نشأتها. اقترحت الأم لأول مرة الطب في رسالة إلى مدينة فيلدكيرخ، وهي رسالة أُرسلت في غضون شهر من وصول الدكتور والر إلى المنزل. مجرد صدفة؟ تأمل آرثر ذلك، لم يكن يُبالي بتخيل مستقبله الذي جرت مناقشته بين والدته وهذا المتطفل. حتى لو أن هذا ما حدث، فهو طبيب مؤهل وشاعر معروف، كما عرفه الناس باستمرار. فقد سانده عمه في حياة البذخ.

بدا الأمر مريحًا جدًا نوعًا ما أيضًا؛ لأن والر عرض عليه الآن تقديم منحة دراسية له. قَبِل آرثر على مضض بكياسة المراهقين، مما استدعى حديثًا خاصًا من الأم. في هذه الأيام، تفوّق عليها وعلى شَعرها، الذي فقد شقاره بالفعل، وبدأ البياض يكتسحه حيث تقهقر خلف أذنيها، لكن عينيها الرماديتين وصوتها الهادئ، والسلطة الأخلاقية الضمنية فيهما، بقيت قوية كما كانت دائمًا.

أثبت والر أنه مدرس ممتاز. ضغطوا الكلاسيكيات معًا، بهدف الحصول على منحة

غريرسون: التي تعادل أربعين جنيهًا إسترلينيًا في العام الواحد لمدة عامين، إنها بمثابة مساعدة عظيمة للأسرة. حين وصلت الرسالة، اجتمعت الأسرة بأكملها على الهاتف، وشعر أنه أول إنجاز حقيقي له، وأول فعل له يتمثل في رد جميل والدته مقابل تضحياتها على مرّ الأعوام. ملأت المصافحات والقبلات المكان. انفعلت لوتي وكوني على نحو سخيف وذرفتا الدموع كما لو كُنّ طفلتين. وآرثر في بادرة جيدة، عزم على وضع شكوكه في والر جانبًا.

بعد بضعة أيام، اتصل آرثر بالجامعة للمطالبة بمنحته. أجابه مسؤول صغير بحرج أن وضعه الدقيق لم يتّضح بعد. دعا كل شيء للأسف حقًا. ولم يتّضح بعد، كيف حدث ذلك. خطأ مطبعي من نوع ما. اقتصرت منحة غريرسون على طلاب الفنون فحسب. لم يكن دخول آرثر مقبولاً على الإطلاق. وهكذا سيتوجب اتخاذ خطوات في المستقبل وهلمّ جرًا.

مع ذلك، هناك مكافآت ومنح دراسية، أشار آرثر إلى قائمة كاملة منها. يُفترض أن يقدموا له إحدى هذه المنح. حسنًا، نعم، يمكن أن يكون هذا هو الحال من الناحية النظرية، في الواقع، كانت المنحة التالية في القائمة متاحة للأطباء. مع الأسف، كما زعموا.

مثلما حدث مع كل الآخرين بالفعل. "لكن هذه سرقة في وضح النهار،" صاح آرثر، قائلاً: "سرقة في وضح النهار!"

من المؤكد بدا الأمر مؤسفًا. ربما يمكن القيام بشيء ما. وفي الأسبوع التالي، وجد آرثر نفسه يحصل على تعويض قدره سبعة جنيهات إسترلينية، تراكمت في بعض الصناديق المُهْمَلة، وانتاب السلطات شعور لطيف في أنه يمكن توظيفها في تلبية حاجته.

تلك تجربته الأولى التي اختبر فيها درجة من درجات الظلم. حتى عند تعرضه للضرب بتوللي، نادرًا ما ضُرِب دون سبب معقول. عندما أُبعِد والده، توجّع قلب ابنه، لكنه لم يستطع أن يتحجج بأن والده بريء، تلك مأساة وإن لم تكن ظلمًا. لكن هذا... هذا ظلم! لذا رفع دعوى قضائية ضد الجامعة، بموافقة الجميع. وعزم على مقاضاتهم واستعادة المنحة. استغرق الأمر وقتًا من الدكتور والر لإقناعه بعدم جدوى مقاضاة المؤسسة التي تتّكل عليها لتعليمك. لم يكن هناك شيء يجدر القيام به، باستثناء ابتلاع كبريائه وتحمل خيبة الأمل كرجل. قبل آرثر هذه المناشدة لرجولة لم يملأها بعد. لكن العبارات المهدئة

التي تظاهر أنه وجدها مقنعة، لم تتجاوز كونها مجرد أنفاس في أذنه. كل ما بداخله تقيّح واحترق وتعفّن، مثل زاوية صغيرة من الجحيم لم يعد يؤمن بها.

جورج

من غير المعتاد أن يتحدث والد جورج معه بعد الصلوات وانطفاء الأضواء. من المفترض أن يتفكروا في معاني الكلمات فيما يسلمون أنفسهم إلى السكون في حضن الرّب. في الحقيقة، إن جورج ينزع أكثر للتفكير في دروس اليوم التالي. إنه لا يصدق أن الرّب سيحتسب هذه الخطيئة.

يقول والد جورج فجأة: "جورج هل لاحظت أي شخص يتسكّع بالقرب من بيتنا بيت الكاهن؟"

"اليوم، يا أبي؟"

"لا ، ليس اليوم. في الآونة الأخيرة عمومًا"

"لا ، يا أبي. لماذا قد يتسكّع أحدهم؟"

"تصلنا أنا ووالدتك رسائل مجهولة"

"من المُتسكّعين؟"

"نعم. لا ، أريدك أن تبلغني عن أي شيء مريب، يا جورج. إن شخصًا ما دفع شيئًا عبر الباب، والناس وقفوا مكتوفي الأيدي"

"ممن هذه الرسائل يا أبي؟"

"إنهم مجهولون يا جورج" حتى في الظلام يمكنه أن يشعر بنفاد صبر والده. "مجهولون. يونانيون، كذلك لاتينيون. إنها رسائل بلا أسماء"

"ماذا يقولون يا أبي؟"

"يتفوّهون بأشياء شريرة عن... الجميع"

يعلم جورج أنه من المفترض أن يقلق، لكنه يجد كل شيء مثيرًا للغاية. لقد مُنح

السلطة للعب دور المحقق، وهو يفعل ذلك قدر الإمكان دون تعارض مع واجباته المدرسية. يختلس النظر من خلف جذوع الأشجار. يخفي نفسه في حجيرة أسفل الدرج ليراقب الباب الأمامي، ويتفحّص سلوك أولئك القادمين إلى المنزل، ويتساءل كيف يمكنه شراء عدسة مكبرة وربما تلسكوب. لم يكتشف شيئًا.

كما أنه لا يعلم من الذي بدأ في كتابة كلمات بذيئة بالطباشير عن والديه في حظيرة السيد هاريمان وملحق السيد آرام. تظهر الكلمات بطريقة غامضة مرة أخرى، بمجرد غسلها. لم يخبرا جورج ما يقال. بعد ظهر أحد الأيام، وهو يسلك طريقًا ملتوية كأفضل المحققين، اقترب خلسة من حظيرة السيد هاريمان، لكن كل ما يقع بصره عليه عبارة عن جدار مع بعض البقع الرطبة التي بدأت تجف.

"أبي"، يهمس جورج بعد أن تطفأ الأضواء. إنه يفترض أن هذا هو الوقت المسموح به للحديث عن مثل هذه الأمور. "لدي فكرة. السيد بوستوك"

"ماذا عن السيد بوستوك؟"

"لديه الكثير من الطباشير. امتلك الكثير من الطباشير على الدوام"

"هذا صحيح يا جورج. لكنني أعتقد أننا قد نستبعد السيد بوستوك بارتياح"

التوى معصم والدة جورج ولفّته في الشاش بعد بضعة أيام. طلبت من إليزابيث فوستر أن تكتب قائمة طلبات الجزّار لها، ولكن بدلًا من إرسال الفتاة مع الطلبات إلى السيد غرينسيل، بعثتها مع القائمة إلى والد جورج. وبعد مقارنة خطّ إليزابث في كتابة القائمة مع محتويات أحد الأدراج المقفلة من الرسائل المجهولة، طُرِدت إليزابيث فوستر.

في وقت لاحق، يتوجب على الوالد أن يذهب ويشرح الأمور للقضاة في كانوك. يأمل جورج سرًا أن يُطلب منه تقديم أدلة أيضًا. يذكر الأب أن الفتاة البائسة ادعت أن ما فعلته مِزحة حمقاء، لكنه أغلق الأمر حفاظًا على السلام.

لم تُشاهَد إليزابيث فوستر مرة أخرى في المنطقة، وسرعان ما وصلت خادمة جديدة. يشعر جورج أن بإمكانه القيام بدور المحقق بشكل أفضل. كما تمنى لو عرف ما كُتب بالطباشير على حظيرة السيد هاريمان وملحق السيد آرام.

أصبح إيرلنديًا من أسلافه، وأسكتلنديًا بالولادة، ولقّنه اليسوعيون الهولنديون الإيمان في روما، ثم صار آرثر إنجليزيًا. ألهمه التاريخ الإنجليزي، وجعلته الحريات الإنجليزية فخورًا، والكريكت الإنجليزي وطنيًا. وأعظم حقبة في التاريخ الإنجليزي -تاريخ حافل، لذا يصعب الاختيار- هو القرن الرابع عشر: الزمن الذي تولى فيه الرماة الإنجليز السيطرة على الميدان، واحتُجز كل من ملك فرنسا وملك أسكتلندا في لندن[15].

لكنه لم ينسَ مطلقًا الحكايات التي سمعها أثناء رفع مَغْرفة تقليب العصيدة أيضًا. ومن وجهة نظر آرثر فإن أصله الإنجليزي يكمن في عالم الفروسية الذي مضى عليه زمن طويل، وابتُدِع منذ أمدٍ بعيد. ليس هناك فارس أكثر إخلاصًا من السير كاي[16]، ولا أشجع وأكثر عاطفة من السير لانسلوت[17]، ولا شريفًا مثل السير غالاهاد[18]. ولا وجود لثنائي من العشاق أصدق من تريستان وإيزولت[19]، ولا زوجة أكثر إنصافًا وإلحادًا من غوينيفير[20]. وبالطبع لم يكن هناك ملك أكثر نبلًا من آرثر.

ممارسة الفضائل المسيحية من حق الجميع: من المتواضع إلى ذي المقام الرفيع. لكن وحدها الفروسية امتياز لذوي النفوذ. يحمي الفارس حبيبته. ويساعد القوي الضعيف. كان الشرف كائنًا حيًا يجب أن تكون مستعدًا للموت في سبيله. للأسف، عدد المهمات والأسئلة المتاحة للطبيب المؤهل حديثًا محدودة إلى حد ما. في هذا العالم الحديث من مصانع برمنغهام وقبعات الرامي (الأُرصوصة)، بدا أن مفهوم الفروسية قد تراجع إلى مجرد

---

15 في عهد إدوارد الثالث، استعادت إنجلترا نجاحاتها العسكرية بعد التراجع في عهد والده أمام الأسكتلنديين والفرنسيين. ومن بين نجاحاته أسره للملك جون الثاني ملك فرنسا والملك ديفيد الثاني ملك أسكتلندا. خلال هذه الفترة، سجن العديد من النبلاء في البرج كأسرى حرب.

16 (Sir Kaye) هو الأخ الحاضن للملك آرثر وسنشل لاحقًا، فضلًا عن كونه أحد أوائل فرسان المائدة المستديرة.

17 (Sir Lancelot) فارس من فرسان المائدة المستديرة وأهم أتباع الملك آرثر المخلصين.

18 (Sir Galahad) هو شخصية خيالية وفارس شجاع من اسطورة فرسان المائدة المستديرة وهو واحد ممن حققوا الكأس المقدسة. وهو من أشهر النبلاء واكثرهم تنوقاً للفن. وهو الابن غير الشرعي للسير لانسلوت.

19 (Tristan and Iseult) المعروفان بدلًا من ذلك باسم تريستان وإيزولد، هي قصة حب خيالية أعيد سردها في العديد من الاختلافات منذ القرن الثاني عشر. القصة مأساة عن الحب الزاني بين الفارس الكورنيش تريستان (تريسترام، إلخ) والأميرة الإيرلندية إيزولت (إيزولد، إيسولت، إلخ)؛ بينما تختلف التفاصيل من مؤلف إلى آخر.

20 (Guinevere) في الحكايات الآرثرية، هي زوجة الملك آرثر.

روح رياضية. لكن آرثر أجْرى أعراف الفروسية واتّبعها ما أمكنه ذلك. عُرف كرجل يحترم كلمته. قدّم العون للفقراء. واحتفظ بحذره من المشاعر السيئة، وعامل النساء باحترام. أعدّ خططًا طويلة الأجل لإنقاذ ورعاية والدته. بالنظر إلى أن القرن الرابع عشر قد انتهى مع الأسف، وأنه ليس ويليام دوغلاس، لورد ليدزديل وزهرة الفروسية نفسها، هذا أفضل ما استطاع آرثر النجاح فيه حاليًا.

حكمت قواعد الفروسية أولى ميوله نحو الجنس اللطيف، لا الكتب المدرسية لعلم وظائف الأعضاء. لقد كان وسيمًا بما يكفي لجذب النساء، بل زير نساء. ذات مرة، أخبر الأم بفخر أنه أحب بصدق خمس نساء في الوقت ذاته. اختلف الأمر كصديقات حميمات عن كونهنّ زميلات دراسة، ولكن على الأقل أمكنه تطبيق القواعد نفسها في بعض الأحيان. وبالتالي، إذا أحببت فتاة، فأنت تمنحها اسمًا تحبّبًا. إلمور ويلدون، على سبيل المثال: فاتنة، الأمر الثابت أنه دأب على مغازلتها لأسابيع. سَمَّاها إلمو، بعد حريق القديس إلمو[21]، شوهدت كرة النور المتوهجة تلك على الصواري وقوارب السفن أثناء العاصفة. أَحب أن يصور نفسه على أنه بحّار تحدق به الأخطار في بحار الحياة، فيما هي أضاءت ظلمة السماء له. في الواقع، كاد أن يخطب إلمو. لكنه بعد فترة، لم يفعل.

قلق بشدة في هذا الوقت بشأن الاحتلام الليلي أيضًا، الذي لم يظهر كثيرًا في كتاب موت آرثر[22]. سلبت ملاءات الصباح الرطبة جزءًا من أحلام الفارس. ومن شعور الرجل الذي كان عليه أيضًا أو قد يكون، إن سخّر عقله وقوّته لهذا الغرض. سعى آرثر إلى فرض الانضباط على نفسه أثناء نومه من خلال زيادة النشاط البدني. هو تورط فعلًا، ولعب الكريكت وكرة القدم. الآن بدأ في لعبة الغولف أيضًا. إذ استشار الرجال الأقل قذارة، قرأ ويسدن[23].

---

21 (St Elmo's Fire) تعرف باسم شرر القديس إلمو أيضًا هي ظاهرة مناخية تنشأ فيها البلازما المضيئة عن طريق تصريف إكليلي من جسم حاد أو مدبب في حقل كهربائي قوي في الغلاف الجوي.

22 موت آرثر عبارة عن نثر إنجليزي من القرن الخامس عشر، صاغه السير توماس مالوري عن حكايات الملك الأسطوري آرثر وغوينيفير ولانسيلوت وميرلين وفرسان المائدة المستديرة، جنبًا إلى جنب مع الفولكلور الخاص بهم.

23 كتاب (Wisden Cricketers 'Almanack) أو ببساطة (Wisden)، بالعامية الكتاب المقدس للكريكت، هو كتاب مرجعي للكريكت ينشر سنويًا في المملكة المتحدة. استخدم وصف "الكتاب المقدس للكريكت" لأول مرة في ثلاثينيات القرن العشرين بواسطة أليك وو في مراجعة لجريدة لندن ميركوري.

بدأ بإرسال القصص إلى المجلات. وقف الصبي على الطاولة المدرسية مرة أخرى، مُسخرًا حِيَله الصوتية؛ ليغدو محطّ أنظار العيون الشاخصة، والسبب في الأفواه الفاغِرة بسذاجة. لقد كتب نوع القصص التي يُتلذذ في قراءتها... بدا له أنه الأسلوب الأكثر منطقية في لعبة الكتابة. ذهب بمغامرات في أراضٍ بعيدة، حيث أمكن العثور على الكنز المدفون في كثير من الأحيان، والسكان المحليون أشرار ذوو قلوب سوداء وعذراوات يمكن إنقاذهن. جهّز نوعًا معينًا من الأبطال لأخذ دوره في المهمات الخطرة التي رسمها فقط. كبداية أولئك الذين كانت بنيتهم الجسدية ضعيفة، وأولئك الذين أدمنوا الخمور والشفقة على الذات، غير ملائمين أبدًا. لقد فشل والد آرثر في واجباته كفارس شهم تجاه الأم، لذا انتقلت المهمة لابنه الآن. لم يستطع إنقاذها بأساليب من القرن الرابع عشر، فتعيّن عليه تطبيق ما توفر لديه منها في عصر أحدث. كتب القصص: أنقذها عبر الوصف الخيالي لإنقاذ الآخرين. هذا الوصف سيجلب له المال، والمال سيتكفل بالباقي.

جورج

قبل أسبوعين من عيد الميلاد المجيد. يكمل جورج ستة عشر عامًا الآن، ولم يعد يشعر بالإثارة هذا الموسم كما اعتاد في الماضي. إنه يعرف أن ميلاد مُخلصنا حقيقة مقدسة، تقام الاحتفالات به سنويًا، لكنه ترك وراءه تمجيد القلق الذي مازال ينتاب هوراس ومود. كما أنه لا يشترك مع زملائه القدامى في روغيلي في الآمال البسيطة التي عبّروا بصراحة عنها: في الهدايا التافهة من النوع الذي ليس له مكان في بيت الكاهن. إنهم يتوقون لها سنويًا، حتى إنهم يحطّون من قدر الدين عبر الصلاة من أجلها.

لم يكن جورج راغبًا في التزلج على الجليد أو صنع رجل الثلج. وقد شرع بالفعل في بناء مستقبله الوظيفي. ترك روغيلي، دارسًا القانون في كلية ماسون في برمنغهام. إذا تقدّم بنفسه، واجتاز الاختبار الأول، فسيصبح محاميًا متدربًا في مكتب محاماة. بعد خمسة أعوام من كتابة المرافعات والمذكرات، هناك اختبارات نهائية، وبعد ذلك سيصبح محاميًا.

يرى نفسه على مكتب ورزمة من كتب القانون، وبدلة مع سلسلة ساعة جيب معلقة بين جيوب صُدْرته مثل حبل ذهبي. يتخيل نفسه شخصية تحظى بالاحترام، ومُعتمِرًا قبعة.

يكاد يحل الظلام قريبًا، عندما يصل إلى المنزل في وقت متأخر بعد ظهر يوم الثاني عشر من ديسمبر. يلحظ وجود شيء مُلقىً على السلّم، حين يصل إلى الباب الأمامي لبيت الكاهن. ينحني ثم يقرفص لفحصه عن كثب. إنه مفتاح كبير بارد الملمس وثقيل في اليد. لم يعرف جورج ماذا يصنع به. مفاتيح بيت الكاهن أصغر بكثير، وكذلك الحال في الصفوف الدراسية. يختلف عن مفتاح الكنيسة، ولا يبدو أن هذا مفتاح مزرعة من أي نوع. لكن وزنه يوحي بوجود غاية حقيقية.

يأخذه إلى والده، الذي يحتار بالقدر نفسه.

"على السلّم، تقول؟" سؤال آخر يعرف الأب جوابه بالفعل.

"نعم، يا أبي"

"ولم ترَ أحدًا يضعه هناك؟"

"لا"

"وهل قابلت أي شخص يبتعد عن بيت الكاهن في طريقك من المحطة؟"

"لا ، يا أبي"

أُرسل المفتاح مع ملحوظة إلى مركز شرطة هيدنسفورد، وعندما عاد جورج من الكلية بعد ثلاثة أيام، وجد الرقيب أبتون جالسًا في المطبخ. لا يزال الأب يتجوّل جولات أبرشيّة في الخارج، والأم تقف قلقة. جال في خاطر جورج أن هناك مكافأة لمن يعثر على المفتاح. إذا كانت هذه واحدة من تلك القصص التي اعتاد الصبية في روغيلي على التعلق بها، فستُفتح خزينة حديدية أو صندوق للكنوز، وسيحتاج البطل بعد ذلك إلى خريطة مُلقاة عليها عِلامة إكس. لم يختبر جورج مثل هذه المغامرات من قبل، واحتمالات أن يتأذى كبيرة.

الرقيب أبتون رجل محمرّ الوجه في بنية حدّاد. يرتدي زي الرقيب الغامق المُقيِّد له، وربما هو السبب وراء أصوات الخشخشة التي يصدرها. يومئ لنفسه فيما يدقق النظر في جورج.

"إذن، أنت الشاب الذي وجد المفتاح؟"

تذكر جورج محاولاته للعب دور المحقق عندما كتبت إليزابيث فوستر على الجدران. يوجد الآن لغز آخر، لكن هذه المرة مرتبط بشرطي ومحام مستقبلي. إنه شعور كافٍ ومثير أيضًا.

"نعم. على عتبة الباب" لم يُبدِ الرقيب أي رد فعل تجاه هذا، ولكنه حمله على المضي قدمًا في الإيماء لنفسه. يبدو أنه بحاجة إلى الراحة، لذا حاول جورج المساعدة. "هل هناك مكافأة؟"

أبدى الرقيب استغرابه. "لماذا تتساءل الآن عما إذا كانت هناك مكافأة؟ أنت من بين الجميع؟"

يأخذ جورج هذا بمعنى أنه لا يوجد أحد. ربما جاء الشرطي لتهنئته على إعادة الغرض المفقود. "هل اكتشفت من أين أتى؟"

لم يرد أبتون على هذا أيضًا. بدلًا من ذلك، أخرج دفترًا وقلم رصاص.

"اسمك؟"

"أنت تعرف اسمي"

"قلت، ما اسمك؟"

يمكن للرقيب أن يكون أكثر لطفًا، فكّر جورج.

"جورج"

"نعم. استمر"

"إرنست"

"استمر"

"ثومبسون"

"تابع"

"تعرف اسم عائلتي؛ فأنا أحمل اسم عائلة والدي ووالدتي"

"هيا، أقول لك أيها الشاب الصغير المختال"

"إدالجي"

قال الرقيب: "آه نعم، الآن أعتقد أنه من الأفضل أن تتهجّى ذلك من أجلي"

آرثر

بدأ زواج آرثر بالموت، مثل حياته كما يذكرها.

تأهل كطبيب. وعمل طبيبًا بديلًا في شيفيلد وشروبشاير وبرمنغهام، ثم تولى مهمة الجرّاح على متن باخرة صيد الحيتان الحوّاتة هوب. أبحروا من بيترهيد إلى حقل الجليد في القطب الشمالي، بعد اصطياد الفقمة وأي حيوان آخر يمكنهم مطاردته وقتله. أثبتت مهمات آرثر أنها بسيطة، ولأنه كان شابًا عاديًا، استسلم بسعادة للشرب، وإن لزم الأمر للعِراك، وسرعان ما كسب ثقة الطاقم، كما غاص في البحر في أحايين كثيرة لدرجة أنهم أطلقوا عليه لقب غوّاص الشمال العظيم. ومثل أي بريطاني يتمتع بصحة جيدة، نَعِمَ بصيدٍ جيد: فقد وصلت حقيبة طرائده في الرحلة البحرية إلى خمسٍ وخمسين فقمة.

شعر بقدر ضئيل من قدرة الذكور التنافسية حين خرجوا لِدَكّ الفقمات حتى الموت على الجليد الذي لا نهاية له. في أحد الأيام تمكنوا من احتجاز حوت في غرينلاند، وجدها تجربة مختلفة عن أي شيء اختبره من قبل. قد يكون التنافس على صيد السلمون لعبة ملكية، ولكن عندما تزن فريسة القطب الشمالي أكثر من فيلا مبنيّة في الضواحي، فإنها تُقزِّم جميع المقارنات. راقب آرثر مع لمسة يد، عين الحوت -لدهشته، ليست أكبر من عين الثور- تعتم ببطء حتى الموت.

لغز الضحية: شيء ما تغير الآن في طريقة تفكيره. استمر في إطلاق النار على البط من السماء الثلجية، وشعر بالزهو لمهاراته في الرماية، ومع ذلك، يكمن وراء شعوره هذا ما يمكن أن يدركه لكنه لا يحيط به. كل الطيور التي أسقطها حملت البحص في حواصلها من أرض تجاهلتها الخرائط.

بعد ذلك أبحر جنوبًا، في مايومبا خارج ليفربول، متجهًا إلى جزر الكناري والساحل الغربي لأفريقيا. واصل الشرب على ظهر السفينة، لكن العراك وقع على طاولة لعبة الورق الكريبج ولوحها فقط. إذ أعرب عن أسفه لمبادلة الجزمات البحرية واللباس غير الرسمي لصائدي الحيتان بأزراره المذهبة وبدلة سيرج لركاب السفينة، على الأقل وجد تعويضًا في صحبة الجنس اللطيف. في إحدى الليالي، صنعت السيدات بروح رياضية فطيرة تفاح في

سريره. وفي اليوم التالي، اختار انتقامه الودّي عن طريق إخفاء سمكة من السمك الطيّار في واحد من قمصان نومهن.

عاد إلى اليابسة وإلى فطرته السليمة ووظيفته. ثبّت لوحة مهنته على عيادته في ساوث سي. وصار ماسونيًا، قُبِل في الدرجة الثالثة في فينيكس لودج رقم 257. كان قائد نادي بورتسموث للكريكت وعُرف بأنه أحد أكثر المدافعين موثوقية في هامبشاير. قام الدكتور بايك -زميله العضو في نادي ساوث سي للبولينغ- بإحالة المرضى إليه، واستقدمته شركة غريشام للتأمين على الحياة لإجراء فحوصات طبية.

في أحد الأيام، سعى الدكتور بايك للحصول على رأي آرثر بشأن مريض شاب انتقل مؤخرًا إلى ساوث سي مع والدته الأرملة وأخته الكبرى. لم يكن هذا الرأي الثاني إلا تهذيبًا لائقًا: كان جليًّا أن جاك هوكينز مصابًا بالتهاب السحايا الدماغي، وغير مؤمن بمهنة الطب بأكملها، ناهيك عن أن آرثر وحيد وعاجز. لن يقبل أي فندق أو نُزُل الشخص الفقير، لذلك عرض آرثر أن يأخذه إلى منزله كمريض مقيم. هوكينز يكبُرُ مضيفه بشهر واحد فقط. على الرغم من آلاف الكؤوس المسكنة للألم من نبات الأرورروت، تدهور تدهورًا مفاجئًا، وبدأ يهذي وحطّم كل شيء في غرفته. وفي غضون أيام كان ميتًا.

حدّق آرثر في هذه الجثة أكثر مما فعل في الشيء الأبيض الشاحب في طفولته. في كثير من الأحيان، بدأ يجد أثناء تدريبه الطبي أن وعودًا كثيرة على وجوه الموتى. كما لو أن إجهاد الحياة وتوتّرها قد أفسحا الطريق لمزيد من السكينة. وجد أن الاسترخاء العضلي بعد الموت هو الجواب العلمي، لكن جزءًا منه تساءل عما إذا كان هذا هو التفسير الكامل. كما أن الموتى حملوا في أحشائهم البحص من أراضٍ تجاهلتها الخرائط.

بينما سار في موكب الجنازة الوحيد من منزله إلى مقبرة طريق هايلاند، أثارت الأم المتشحة بالسواد والأخت مشاعر آرثر الشهم، وهما الآن وحدهما في بلدة غريبة بلا سند من أي ذكر. أثبتت لويزا، بمجرد رفع وشاحها، أنها شابة خجولة ذات وجه مستدير وعيون زرقاء مظللة بلون أخضر بحري. بعد مرور فترة زمنية مقبولة على الوفاة، سُمح لآرثر بالتواصل معها في مقر إقامتها.

بدأ الطبيب الشاب بشرح كيف -ساوث سي كانت جزيرة، على الرغم من شكلها

الخارجي- يمكن تمثيل الجزيرة كسلسلة من الحلقات الصينية: تتوسطها مساحات مفتوحة، ثم دائرة قلب المدينة، ومن ثم دائرة المحيط الخارجي للبحر. أخبرها عن التربة المفروشة بالحصى والصرف السريع الناتج عنها. حول فعالية الترتيبات الصحية للسيد فريدريك براموبل، وعن صيت البلدة الصحي. تسببت هذه النقطة الأخيرة في محنة مفاجئة للويزا، أخفتها باستفسارها عن براموبل. قيل لها الكثير عن هذا المهندس المميز.

وهكذا وُضعت القاعدة، لقد آن الأوان لتفقد المكان بالشكل الصحيح. قاما بزيارة رصيفيْ الميناء، حيث بدا أن الفرق العسكرية تعزف طوال اليوم. راقبا انتشار الألوان على غافرنر غرين، وتجسيد المعارك في كومون، تفحصا بالمنظار أسطول معركة الأمة الراسي في المرفأ على مسافة متوسطة في سبيتهيد. بينما صعدا على كلارنس إسبليناد، شرح لها آرثر بالتتابع عن كل الجوائز والنصب التذكارية المعروضة للحرب. هنا مسدس روسي، وهناك مدفع وقذائف هاون يابانية، في كل مكان ألواح ومِسلّات للبحّارة والجنود المشاة ممن لقوا حتفهم في جميع أنحاء الإمبراطورية وبكافة الطرق... الحمى الصفراء، وغرق السفينة، والفعل الغادر للمتمردين الهنود. تساءلت بدورها عما إذا عانى الطبيب من تاريخ مرضي، لكنه آثر أن يحسم في الوقت الحالي، أن فضوله المثير للانتباه يتناسب مع جهده البدني. إلى أن أوصلها بعربات الترام التي تجرها الخيول إلى ساحة رويال كلارنس فكتوالينغ؛ لمشاهدة عملية تصنيع بسكويت البحر: من كيس الطحين إلى العجين، حتى تحويله عن طريق الحرارة إلى تذكار بين أسنان الزائرين يحملونه معهم عند مغادرتهم.

لم تدرك الآنسة لويزا هوكينز أن المغازلة -إن بدا هذا هو ما عليه الأمر- يمكن أن تكون مُضْنية للغاية، أو أشبه بالسياحة. ثم اتجهت أعينهما جنوبًا نحو جزيرة وايت. من إسبليناد، أشار آرثر إلى ما سماه التلال اللازوردية لجزيرة فكتريان، وهو تحوّل في عبارة مجازية صُدمت بأن معظمها شعري. لمحا بعيدًا أوزبورن هاوس، وشرح كيف تحدث زيادة في حركة المياه عند إقامة الملكة. ثم أخذا سفينة بخارية عبر مضيق سولنت وحول الجزيرة. وصوبت عينيها إلى نيديلز[24]، وخليج ألوم، وقلعة كاريسبروكي، ومنطقة لاندسليب وأندركليف... إلى أن اضطرت إلى طلب كرسي قابل للطي وبساط.

---

24 (Needles) عبارة عن صف من ثلاث أكوام من الطباشير ترتفع حوالي ثلاثين مترًا عن البحر قبالة الطرف الغربي لجزيرة وايت في المملكة المتحدة.

أثناء تحديقهما في البحر على رصيف ميناء ساوث باريد في إحدى الأمسيات، وصف مآثره في إفريقيا والقطب الشمالي، ومع ذلك، فإن الكيفية التي اغرورقت عيناها بالدموع عندما ذكر الهدف منها في حقل الجليد جعلته يُحجِم عن التفاخر بكيس طرائده. اكتشف أن لديها لطفًا غريزيًّا ميّزها عن كل النساء، بمجرد أن تتعرف عليها. كانت ابتسامتها قريبة على الدوام. ولكن لا يمكنها أن تحتمل أي دعابة قد تصل إلى حد القسوة، أو تتضمن ما يفوق الفكاهة. اتصفت بأنها ذات طبيعة منفتحة وسخية، ورأس جميل من الشعر المُجعّد، ودخل مالي صغير يخصّها.

في تعامله السابق مع النساء، لعب آرثر دور المُغازِل الشريف. بينما كانا يتجولان في المنتجع المتحد المركز الآن، تعلمت أن تأخذ ذراعه، وتَغيّر اسمها في فمه من لويزا إلى توي، حين نظر خلسة إلى وركيها عندما استدارت، علم أنه يريد أكثر من المغازلة. كما اعتقد أنها ستطوره كرجل. وهو أحد مبادئ الزواج.

أولًا، ومع ذلك، يجب أن تقبل الأم بالشابة المحتمَلة، مما دفعها للسفر إلى هامبشاير للمعاينة. وجدت لويزا خجولة وطَيِّعة، ومن أسرة كريمة وإن لم تكن متميزة. لم تجد ابتذالًا أو ضعفًا أخلاقيًّا واضحًا يحرج ابنها الحبيب. ولا يبدو أن أي غرور كامن قد يجعل الفتاة في بعض الأوقات مستقبلًا تلجأ إلى سلطة آرثر. بدت كلٌّ من الأم والسيدة هوكينز لطيفة ومحترمة. سمحت الأم لنفسها في منحهما موافقتها، بالتعبير عن احتمال وجود شيء ما يخص لويزا –هناك فقط، حين شغلت نفسها في أمر بسيط كهذا– يذكرها بنفسها عندما كانت أصغر سنًا. وما الذي يمكن أن تريده الأم أكثر من ذلك، بعد كل شيء؟

جورج

بدأ جورج عادة المشي في الأزقة معظم الأمسيات بعد عودته من برمنغهام، منذ التحق بكلية ماسون. هذا ليس بغرض التدريب –أمضى عمرًا في ذلك في روغيلي- ولكن لتصفية عقله قبل أن ينكب على كتبه مرة أخرى. في كثير من الأحيان، يُخْفِق في هذا، ويجد نفسه

مجددًا غارقًا في تفاصيل قانون العقود الدقيقة الثانوية. في أمسية باردة من شهر يناير، مع نصف القمر الحاضر في السماء ومازال الجانب العشبي من الطريق لامعًا من صقيع الليلة الماضية، يتمتم جورج بحجته لنقاش الغد -القضية تتعلق بالدقيق الملوث في مخزن الحبوب- حين تقفز شخصية في وجهه من وراء شجرة.

"في طريقك إلى والسال، صحيح؟"

إنه الرقيب أبتون، ذو الوجه المحمر الممتلئ.

"أرجو المعذرة؟"

"سمعت ما قلته" يقف أبتون بالقرب منه، ويحدّق بطريقة يجدها جورج مقلقة. يتساءل عما إذا كان الرقيب معتوهًا بعض الشيء. في هذه القضية، من الأفضل أن يلاطفه.

"سألتَ ما إذا كنتُ في طريقي إلى والسال"

"لذا لديك زوج من الأذنين الحمراوين رغم كل شيء". إنه يصدر صفيرًا أثناء تنفّسه - مثل حصان أو خنزير أو شيء ما.

"لقد تساءلت فقط عن سبب سؤالك؛ لأن هذا ليس هو الطريق إلى والسال. كما نعلم كلانا"

"كما نعلم كلانا. كما نعلم كلانا"، يتقدم أبتون بخطى سريعة إلى الأمام، ويضع يده على كتف جورج. "ما نعرفه كلانا، ما نعرفه كلانا، هو أنك تعرف الطريق إلى والسال، وأنا أعرف الطريق إلى والسال، وأنت خططت لحيلك الصغيرة في والسال، أليس كذلك؟"

إن الرقيب بكل تأكيد معتوه الآن، ويؤذيه أيضًا. هل هناك أي أفضلية في الإشارة إلى أنه لم يذهب إلى والسال منذ ذلك الوقت من عامين، عندما اشترى هدايا عيد الميلاد لهوراس ومود؟

"كنتَ في والسال، وأخذت المفتاح إلى المدرسة، وأعدته إلى المنزل ووضعته على الدّرج الأمامي، أليس كذلك؟"

"أنت تسيء لي" يُعقّب جورج.

"آه لا، أنا لم أسئ لك. أنا لم أسئ لك. هذا لا يسيء لك. أنت ترغب في أن يؤذيك الرقيب أبتون، كل ما عليك فعله هو أن تسأل"

يشعر جورج الآن بالشعور نفسه حين يحدق في السبورة البعيدة دون أي فكرة عن الإجابة الصحيحة. ويعاوده الماضي حين أوشك على تلطيخ نفسه. دون معرفة السبب أبدًا، كما يقول، "سأكون محاميًا"

يحرّر الرقيب قبضته، ويتراجع للوراء، ويضحك في وجه جورج. ثم يبصق في اتجاه جزمة جورج.

"هل هذا ما تفكر فيه؟ مـ... حا.. مِ؟ يا لها من كلمة كبيرة لهجين[25] مثلك. هل تعتقد أنك ستصبح محاميًا إذا قال الرقيب أبتون أنك لن تصبح كذلك أبدًا؟"

امتنع جورج عن القول بأن الأمر متروك لكلية ماسون والممتحنين ونقابة المحامين، لتقرير ما إذا سيصبح محاميًا أم لا. إنه يعتقد أن عليه العودة إلى المنزل بأسرع وقت ممكن وإبلاغ الأب.

"اسمح لي أن أطرح عليك سؤالاً" يبدو أن أبتون قد خفف نبرته، لذا قرر جورج أن يسايره لفترة أطول. "ما هي تلك الأشياء التي بين يديك؟"

رفع جورج ذراعيه، وفرد أصابعه تلقائيًا في قفازاته. "هذه؟" يسأل. لا بد أن الرجل يعاني من نقص عقلي.

"نعم"

"قفازات"

"حسنًا، كونك ولد شقيّ وذكيّ وتعتزم أن تكون مـ... حا.. ميًا، ستعرف أن زوجًا من القفازات يعرف باسم وضع الاستعداد بالمعدات[26]، أليس كذلك؟"

ثم يبصق مرة أخرى وينسحب من الزقاق. تنفجر دموع جورج.

يخجل من نفسه عندما يصل إلى المنزل. إنه في السادسة عشرة من عمره وغير مسموح له بالبكاء. لم يبكِ هوراس منذ أن بلغ الثامنة من عمره. أما مود فبكّاءة، لكنها مريضة فضلاً عن كونها فتاة أيضًا.

يستمع والد جورج إلى قصته، ويصرخ أنه سيكتب إلى قائد شرطة ستافوردشاير. من المشين أن يتعامل رجل شرطة بخشونة مع ابنه على الطريق العام، واتهامه بالسرقة. يجب

25 Half-Caste: شخص من أبوين من أعراق مختلفة.

26 (Going Equipped) هي جريمة حمل أشياء معدة للاستخدام في جريمة في إنجلترا وويلز.

تجريد الضابط من سلطته.

"أظن أنه شخص معتوه إلى حدٍ ما يا أبي. لقد بصق عليّ مرتين"

"بصق عليك؟"

فكر جورج مرة أخرى. مازال خائفًا، لكنه يعلم أن هذا ليس سببًا لقول شيء أقل من الحقيقة.

"لا أستطيع أن أؤكد ذلك يا أبي. وقف على بُعد حوالى ياردة، وبصق مرتين بالقرب من قدمي. من المحتمل أنه بصق مثلما يفعل أي شخص فظ. لكن عندما فعل ذلك بدا أنه غاضب مني"

"هل تعتقد أنه دليل كافٍ على النية؟"

يروق لجورج هذا. أن يُعامل كمحامٍ مستقبلي.

"ربما لا، يا أبي"

"أتفق معك. هذا جيد. ولن آتي على ذكر البصق"

تلقى الموقّر شابورجي إدالجي ردًا من قائد شرطة ستافوردشاير المحترم جورج أ. آنسون بعد ثلاثة أيام. مؤرَّخًا في الثالث والعشرين من يناير من عام ألف وثمانمئة وثلاثة وتسعين، ولا يضم الاعتذار المتوقع والوعد بفعل اللازم. بدلًا من ذلك، كتب آنسون:

> هل من الممكن أن تستفسر من ابنك جورج عن كيفية حصوله على المفتاح المُلقى على عتبة بيتكم في الثاني عشر من ديسمبر؟ سُرِق المفتاح، ولكن إذا أمكن إثبات أن الأمر برمته يرجع إلى مهووسين بلا عمل أو بعض الدعابات، فلا ينبغي أن أميل إلى السماح باتخاذ أي إجراءات تتعلق بالشرطة. ومع ذلك، إذا رفض الأشخاص المعنيون بإبعاد المفتاح، تقديم أي تفسير للموضوع، فيتوجب بالضرورة التعامل مع الأمر كسرقة بكل جدية. ربما أقول على الفور إني لن أدعي تصديق أي اعتراضات على الجهل، قد يقدمها ابنك حول هذا المفتاح. لم أستقِ معلوماتي عن الموضوع من الشرطة.

يعرف الكاهن ابنه كفتى لطيف وكريم. يجب عليه التغلب على العصبية التي يبدو أنه ورثها من والدته، لكنه يبشر بالفعل بالكثير من الأمل. لقد حان الوقت للبدء في

معاملته كشخص بالغ. يعرض الرسالة على جورج ويسأله عن رأيه.

يقرأ جورج الرسالة مرتين، ويستغرق لحظة ليستجمع أفكاره.

"في الزقاق"، يبطئ في القراءة، ويكمل: "اتهمني الرقيب أبتون بالذهاب إلى مدرسة والسال وسرقة المفتاح. من ناحية أخرى، يتهمني قائد الشرطة بالتآمر مع شخص آخر أو عدة أشخاص آخرين. استولى أحدهم على المفتاح، وبدوري قبلت الغرض المسروق ووضعته على هذه العتبة. ربما يدركون أنني لم أزر والسال منذ عامين. على أي حال، لقد غيروا قصتهم"

"نعم. جيد. أنا موافق. وماذا تعتقد أيضًا؟"

"أعتقد أنهما يجب أن يكونا معتوهين على حد سواء"

"جورج، هذه كلمة طفولية. وعلى أي حال، من واجبنا كمسيحيين أن نشفق وأن نعتز بوهن العقل"

"أنا آسف يا أبي. إذن كل ما يمكنني أن أفكر فيه هو أنهما... يجب أن يشتبها بي لسبب لا أدركه"

"وماذا تظن أنه يقصد عندما يكتب لم أستقِ معلوماتي عن الموضوع من الشرطة؟"

"لا بد أنه يعني أن أحدهم أرسل له خطابًا يتهمني فيه. إلا... إلا إذا لم ينطق بالحقيقة. ربما يتظاهر بأنه يعرف أمورًا يجهلها. ربما الأمر مجرد خدعة"

يبتسم شابورجي لابنه. "جورج مع وجهة نظرك هذه، لن تصبح مخبرًا أبدًا. ولكن مع دماغك هذا ستكون محاميًا جيدًا للغاية"

آرثر

لم يتزوج آرثر ولويزا في ساوث سي. كما أنهما لم يتزوجا في مينستروورث، التابعة لمقاطعة غلوسترشاير، أبرشية العروس الأصلية. ولم يتزوجا في مسقط رأس آرثر.

عندما رحل آرثر عن إدنبرة كطبيب مؤهل حديثًا، ترك وراءه الأم، وشقيقه إينيس،

وشقيقاته الثلاث الأصغر منه... كوني وإيدا وجوليا الصغيرة. كما أنه نسي المستأجر الآخر للشقة، الدكتور براين والر، الشاعر المفترض، والمستأجر المسلّم بوجوده، والشخص اللعين جدًا يتعامل بأريحية مع العالم. على الرغم من امتنان آرثر لدروس والر الخصوصية، فإن شيئًا ما يحزّ في نفسه. لم يستطع أبدًا التخفف من شكوكه بأن مساعدة المستأجر خلت من النزاهة، على الرغم من أن هذه المصلحة قد تثقل كاهل آرثر فقد عجز عن اكتشافها.

حين رحل آرثر، تخيل أن والر سيفتتح عيادته الخاصة في إدنبرة قريبًا، وسيحصل على زوجة وقليلًا من السمعة المحلية، ثم سيتلاشى من الذاكرة من حين إلى آخر. هذه التوقعات لم تتحقق. خرج آرثر إلى العالم نيابة عن أسرته المعرّضة للخطر ليؤمّن قوتها، ليجد أن والر قد تولى مهمة الحماية بنفسه، التي ليست ضمن مهماته اللعينة. لقد أصبح (الدّخيل) الوقواق في العش[27]، هكذا عبّر آرثر عنه وهو ما تجنب عمدًا استخدامه في رسائله إلى الأم. في كل مرة عاد آرثر إلى المنزل، وجد نفسه يتخيل بصدق أن الحكايات العائلية العالقة منذ زيارته الأخيرة، ستُستأنف حيث توقفت. لكن في كل مرة أدرك أن القصة -قصته المفضلة- قد استمرت دونه. وجد نفسه يلتقط الكلمات، مع نظرات وتلميحات غير متوقعة، في الحكايات التي لم يعد يظهر فيها. هنا دارت حياة من دونه، وبدا أن المستأجر المحرّك لها.

لم يمتهن براين والر الطب، ولم تتحول خربشات شِعره إلى عمل احترافي. لقد ورث عقارًا في انغلتون في الدائرة الغربية ليوركشاير، وانحاز لحياة الخمول كإقطاعي إنجليزي. أصبح للوقواق الآن أربعة وعشرين فدانًا من غاباته المحيطة بعش من الحجر الرمادي يسمى منزل ماسونغيل. حسنًا، ذلك أفضل بكثير. باستثناء أن آرثر بالكاد استوعب هذه الأخبار الجيدة، عندما وصلت رسالة من الأم، تبلغه فيها أنها وإيدا ودودو غادروا إدنبرة لماسونغيل أيضًا، حيث أُعِدّ لهم بيت صغير في المقاطعة. لم تحاول الأم مجرد تبرير -ربما هواء صحي وطفل غير صحي- إعلان أن هذا حدث. حدث هذا بالفعل في الواقع. آه نعم، هناك مبرر: الإيجار منخفض جدًا.

---

27 A Cuckoo in the Nest: هو دخيل غير مرحب به في مكان. أنثى الوقواق لا تبني عشًا ولا تحتضن بيضها ولا تطعم صغارها. بل تترك مهمة العناية بصغارها لغيرها من الطيور حيث تضع بيضتها في عش طير آخر. وليت الأمر يتوقف على ذكاء الأم في استغلالها للآخرين والاعتماد عليهم في العناية ببيضها، بل الدهاء والذكاء يتجاوز الأم لينتقل لفرخها الصغير وهو قطعة من اللحم لا حول له ولا قوة، إذ يجري الفرخ الصغير بعد خروجه من البيضة محاولات مضنية ومستمرة حتى يتمكن من دحرجة بيض الطائر الأصلي صاحب العش وإلقائه خارجا واحدة تلو الأخرى؛ حتى يكون الغذاء كله من نصيبه دون غيره من فراخ الطيور.

شعر آرثر بأنها عملية اختطاف وخيانة معًا. لقد فشل كليًا في إقناع نفسه بأن والر أقدم على عمل مشرف. رتب الفارس النبيل الحقيقي إيصال بعض الإرث الغامض إلى الأم وبناتها، فيما يرحل بنفسه إلى أرض بعيدة في بحث طويل ويفضل أن يكون محفوفًا بالمخاطر. لن يهجر الفارس النبيل الحقيقي لوتي أو كوني، أيهما تكون. لم يحصل آرثر على أي دليل، وربما ليست أكثر من مجرد مغازلة تسببت في احتمالات خاطئة، ولكن حدث شيء ما، إن بعض التلميحات والصمت الأنثوي تعني ما ظَنّه.

لم تنتهِ شكوك آرثر هناك مع الأسف. كان شابًا يفضل الأمور الواضحة والأكيدة، لكنه وجد نفسه في مكان ما، كل ما فيه غير واضح وبعض التخمينات فيه غير مقبولة. اتضح أن والر ذاك أكثر من مجرد مستأجر. أشير إليه في كثير من الأحيان كصديق للعائلة، وحتى كأحد أفرادها. لكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لآرثر: لم يرغب بأخ أكبر يظهر له فجأة، ناهيك عن أخ تبتسم له الأم بطريقة مختلفة. والر أكبر بستة أعوام من آرثر، وأصغر بخمسة عشر عامًا من الأم. دفع آرثر يده في النار دفاعًا عن شرف والدته، ومبادئه، وشعوره بالأسرة، وواجبه المستحق تجاهها، وكل ما يجيء منها. ومع ذلك، وجد نفسه في بعض الأحيان يتساءل، كيف ستظهر الأمور في المحكمة؟ ما هي الأدلة التي يمكن تقديمها، وما هي الافتراضات التي قدمتها هيئة المحلفين؟ خذ بعين الاعتبار، على سبيل المثال، هذا البند: عانى والده من الهوس الاكتئابي، المحصور في دور رعاية المسنين أحيانًا، وأنجبت والدته طفلتها الأخيرة في الوقت الذي أصبح براين والر جزءًا من الأسرة، وقد انتقت لتلك الابنة أربعة أسماء مسيحية. آخر ثلاثة أسماء هي ماري وجوليا وجوزفين. لقبت الطفلة بدودو. لكن اسمها الأول هو براين. بصرف النظر عن أي شيء آخر، لم يوافق آرثر على أن براين اسم فتاة.

بينما انشغل آرثر في مغازلة لويزا، تمكن والده من الحصول على الكحول في دار الرعاية، وكسر نافذة في محاولة للهرب ونقل إلى مستشفى مونتروز الملكي للمجانين. تزوج آرثر ولويزا، التي أصبح اسمها توي، في السادس من أغسطس عام ألف وثمانمئة وخمسة وثمانين، في كنيسة القديس أوزوالد في قرية ثورنتون في لونسدايل من مقاطعة يوركشاير. كان العريس في السادسة والعشرين والعروس في الثامنة والعشرين. لم يكن إشبين العريس

آرثر عضوًا في نادي ساوث سي للبولينغ، أو في جمعية بورتسموث الأدبية والعلمية، أو في منتجع فينيكس رقم 257. بل براين والر، حيث قامت الأم بجميع الترتيبات، بدا أن والر تولى مَهمة المورِّد المستقبلي للفساتين المخملية والنظارات الذهبية والمقاعد المريحة بجوار المدفئة.

جورج

عندما يسحب جورج الستائر، يشاهد ممخضة حليب فارغة تتوسط العشب. يلفت انتباه والده إليها. يتأهبان ويتباحثان. غطاء الممخضة مفقود، وحين يمعن جورج النظر فيها يرى طائرًا أسودَ ميتًا يرقد في القاع. يدفنان الطائر في عجالة خلف كومة السماد. يؤيد جورج إخبار الوالدة عن الممخضة الموضوعة في الزقاق، ليس الإفصاح عن محتوياتها.

يتلقى جورج في اليوم التالي، بطاقة بريدية لضريح في كنيسة بروود تُظهر رجلاً له زوجتان. يقول فحواها: "لماذا لا تستمر في لعبتك القديمة، أي كتابة الأشياء على الجدران؟"

يتلقى والده رسالة بالخط غير المكتمل: " يكبر حقدي على جورج إدالجي كل يوم وكل ساعة. وزوجتك البغيضة. وابنتك الصغيرة المزعجة. هل تعتقد، أيها المُرائي، لأنك كاهن الرّب، أن الرّب سيخلصك من آثامك؟" لم يطلع جورج على هذه الرسالة.

تصل الأب والابن رسالة مشتركة، جاء فيها:

ها، ها، هوراي لأبتون! أبتون العجوز جيد!
مبارك أبتون. حسن يا أبتون العجوز! مبارك أبتون!
عزيزي أبتون العجوز!
قفوا، انصروا جنود أبتون
يا جنود الصليب،
ارفعوا رايتكم الملكية عاليًا،
احرصوا ألا تخسروا.

يقرر الكاهن وزوجته مستقبلاً فتح جميع رسائل البريد الموجهة إلى بيت الكاهن بنفسيهما. مهما كان الثمن، يجب ألا تتضارب مع دراسة جورج. لذلك فهو لم يتفحص الرسالة التي تبدأ: "أقسم بالرّب أنني سأؤذي أحد الأشخاص. الشيء الوحيد الذي أحفل به في هذا العالم هو الانتقام، الانتقام، الانتقام العذب الذي أتوق إليه، بعد ذلك سأكون سعيدًا في الجحيم" كما أنه لا يعرف من يتوعّد قائلاً: "قبل انتهاء العام، سيكون طفلك إما في المقبرة أو موصومًا بالعار مدى الحياة" ومع ذلك، تبرز له بداية عبارة: "أنت المنافق ومُدّعي النبوة من اتَّهم إليزابيث فوستر، وأرسلها بعيدًا عنك وعن زوجتك اللعينة".

يتواتر وصول الرسائل التي كُتِبَت على ورق مُسطّر ورخيص وممزوع من دفتر، ومنشور من كانوك ووالسال وريغلي وولفرهامبتون وحتى غريت ويرلي نفسها. لا يعلم الكاهن ماذا يفعل بها. بالنظر إلى سلوك أبتون أولاً ثم سلوك قائد الشرطة، يبدو أن هناك القليل من الشكاوى إلى الشرطة. بينما تتراكم الرسائل، يحاول جدولة سماتها الرئيسة. هذه السمات هي: الدفاع عن إليزابيث فوستر، والثناء المحموم على الرقيب أبتون والشرطة بالإجمال، والكراهية المجنونة لعائلة إدالجي والهوس الديني المُفترض أو غير المُفترض. تتنوع أساليب كتابة الخط، فيما يتصور أنه من الممكن أن يختلف الأسلوب إذا مَوّهته بيدك.

يصلي شابورجي من أجل لحظة التنوير. كما يصلي من أجل الصبر، ولأسرته، وتجاه كاتب الرسائل - لديه شعور متردد بعض الشيء بالواجب.

يغادر جورج إلى كلية ماسون قبل وصول أول رسالة، ولكن عند عودته يمكن اكتشاف ما إذا سُلّمت رسالة من مجهول في ذلك اليوم. ستتصنّع والدته البهجة، وتتنقل من موضوع للحديث إلى آخر، كما لو أن الصمت مثل الجاذبية، قد يهوي بهم جميعًا إلى سطح الأرض، إلى ما تبقى من وحل وقذارة هناك. والده الأقل استعدادًا للتشهير الاجتماعي، سُحِب وأُجلس على رأس الطاولة مثل تمثال من الغرانيت. رد فعل كل من الوالدين يثير أعصاب الآخر، يحاول جورج إيجاد حل وسط من خلال التحدث أكثر من والده ولكن أقل من والدته. وفي الوقت نفسه، يثرثر كلٌّ من هوراس وهود دون رادع، هما المستفيدان الوحيدان من حملة كتابة الرسائل ولو مؤقتًا.

بعد المفتاح وممخضة الحليب، تظهر قطع أخرى في بيت الكاهن. مغرفة بيوتر على حافة النافذة، ومِذراة حديقة تثبت أرنبًا ميتًا في المرج، وثلاث بيضات مكسورات على عتبة البيت. يتفقد جورج ووالده الأراضي قبل السماح للأم والصغيرين بالخروج يوميًا كل صباح. في أحد الأيام يعثر على عشرين بنسًا ونصف موزعة على مسافات على العشب، يقرر الكاهن اعتبارها هبة للكنيسة. هناك طيور نافقة، معظمها مخنوقة أيضًا، بمجرد بسط السماد، باتت أكثر وضوحًا. من حين لآخر مع ضوء الفجر، يعي جورج شيئًا أقل من مجرد الحضور والمُراقِب المُحتمَل، إنه أشبه بغياب وشيك، وشعور شخص غادر لتوه. ولكن لم يقبض على أي شخص أو حتى رصده.

والآن تبدأ الخدع. في يوم أحد بعد الكنيسة، صافح السيد بيكوورث من مزرعة هانغ أوفر يد الكاهن، ثم غمزه وتذمّر، "بدء خط عمل جديد، كما أرى" حين يبدو شابورجي مرتبكًا، يمرر بيكوورث قصاصة من صحيفة كانوك تشيس كوريير. إنه إعلان محاط بمربع صدفيّ:

سيدات شابات مؤهلات

صاحبات أخلاق حميدة ومهذبات،

مناسبات للارتباط

بالسادة المحترمين من ذوي الإمكانيات والشخصية

تقديم: الموقّر شوبارجي إدالجي،

بيت الكاهن في غريت ويرلي.

رسوم مستحقة الدفع.

يزور الكاهن مكاتب الصحيفة. هناك قيل له إن ثلاثة إعلانات على غرار هذا الإعلان قد طُلبت بالفعل. لكن لا أحد تنبّه إلى طالبيها: لقد جاءت التعليمات مع خطاب مرفق بأمر بريدي. المدير التجاري عطوف، ويعرض بطبيعة الحال تعليق الإعلانات المتبقية. إذا حاول الجاني الاحتجاج أو استرداد أمواله، بالطبع سيتم استدعاء الشرطة. لكن لا، فهو لا يعتقد أن الصفحات الافتتاحية ستولي القصة اهتمامها. ليس هناك أي إهانة لرجل الدين، لكن لكل صحيفة سمعتها التي تأخذها في عين الاعتبار، وإخبار العالم بأنها خُدِعت قد

يُقوّض مصداقية قصصها الأخرى.

عند عودة شابورجي إلى بيت الكاهن، يجد قسيسًا شابًا أصهبَ من نورفولك في انتظار لقائه، محافظًا على اعتداله المسيحي بمشقة إلى حد ما. إنه لا يطيق صبرًا لمعرفة السبب الذي لأجله استُدعي زميله في خدمة المسيح وصولاً إلى ستافوردشاير بسبب مسألة روحية مستعجلة، ربما تتطلب طرد الأرواح الشريرة، التي يبدو أن زوجة الكاهن جاهلة تمامًا فيها. ها هي رسالتك، وها هو توقيعك. يسترسل شابورجي في التوضيح ويعتذر. يطلب القسيس تعويضًا عن مصاريفه.

بعد ذلك، استُدعيت خادمة إلى وولفرهامبتون لتفقد جثة شقيقتها التي لا وجود لها، ومن المفترض أنها ترقد في حانة. تُسلّم كميات من البضائع -خمسون منديلاً من الكتان، واثنتا عشرة شجرة من أشجار الكمثرى الصغيرة، وشرائح من اللحم البقري، وستة صناديق من الشمبانيا، وخمسة عشر غالونًا من الطلاء الأسود- ويجب إعادة إرسالها. تظهر إعلانات في الصحف تعرض بيت الكاهن للإيجار بسعر منخفض لزيادة عدد الراغبين في شرائه. تتوفر مرافق في الإسطبل، وسماد (زِبل) الخيول أيضًا. ترسل الرسائل باسم الكاهن إلى المخبرين السّرّيين، وتوظيف خدماتهم.

قرر شابورجي الهجوم المضاد، بعد أشهر من الاضطهاد. يُعِدّ إعلانه الخاص، ويستعرض الأحداث الأخيرة، ويصف الرسائل المجهولة والخط والأسلوب والمضمون، ويحدد أوقات وأماكن النشر. يطلب من الصحف رفض الطلبات الممهورة باسمه، ومن القراء الإبلاغ عن أي شكوك تراودهم، ومن الجناة اختبار ضمائرهم.

تظهر زبدية حساء مكسورة فيها شحرور ميت على درجة المطبخ الثانية بعد الظهيرة في وقت لاحق. يصل المأمور للحجز على البضائع لصالح الدَّيْن الوهمي في اليوم التالي. لاحقًا، يأتي خيّاط من ستافورد لأخذ قياسات فستان زفاف مود. عندما يجلب مود أمامه بصمت، يسألها بأدب إذا أرادت أن تكون العروس الطفلة في بعض المراسم الهندوسية. في خضم هذا المشهد، تصل خمس سترات جلدية لجورج.

وبعد ذلك بأسبوع، تنشر ثلاث صحف ردًا على مناشدة الكاهن، في إطار أسود ومعنون بـ"اعتذار". يقرأ:

نعلن نحن الموقعَيْن أدناه، والمقيمَيْن في أبرشية غريت ويرلي، بموجب هذا، أننا المؤلفان والكاتبان الوحيدان لبعض الرسائل الهجومية والمجهولة التي تلقّاها أشخاص مختلفون خلال الاثني عشر شهرًا الماضية. نحن نأسف لهذه الأقوال وللتصريحات ضد السيد أبتون، والرقيب في كانوك، وضد إليزابيث فوستر أيضًا. لقد اختبرنا ضمائرنا كما طلب منا، ونطلب العفو من جميع المعنيين ومن السلطات الروحية والجنائية كذلك.

توقيع، جي. إي. تي. إدالجي وفريدك. بروكس.

آرثر

آمَن آرثر بإمعان النظر.. إلى العين الزرقاء الرمادية لحوت يحتضر، إلى داخل أحشاء معدة طائر أصيب بعيار ناري، إلى وجهٍ مُسترخٍ لجثة رجلٍ لم يكن ليصبح صهره أبدًا. فعْل إمعان النظر هذا يجب أن يكون بلا محاباة: إنه ضرورة عملية للطبيب، ومسألة أخلاقية للإنسان.

راق له الحديث عن كيف تعلم أهمية إمعان النظر في مستشفى إدنبرة. تحمّس هناك جرّاح يدعى جوزيف بيل[28] لهذا الشاب الضخم فوظّف آرثر في عيادته الخارجية. تلخصت مهمته في استقبال المرضى، وتدوين ملحوظات أولية عنهم، ثم توجيههم إلى غرفة السيد بيل، حيث يجلس الجرّاح متأهبًا في زيّه كطبيب. يرحّب بيل بكل مريض، ومن خلال الفحص الدقيق الصامت والمكثف يحاول أن يستنتج قدر الإمكان معلومات عن حياة وميول المرضى. توصل إلى أن هذا الرجل امتهن العمل كصقّال فرنسي، وذاك إسكافي أيسر اليد، وسط ذهول الحاضرين الذي لا يقل عن ذهول المريض نفسه. يذكر آرثر

---

28 Joseph Bell هو محاضر واستاذ أسكتلندي شهير، كان بيل يحاضر في الكلية الطبية في جامعة إدنبرة و ذلك خلال القرن التاسع عشر الميلادي لعل أفضل ما عرف به هو أن شخصية شيرلوك هولمز الخيالية مستوحاة من شخصيته .

النقاش التالي:

"حسنًا يا رجل، لقد خدمت في الجيش"

"نعم سيدي"

"لم تُصرف من الخدمة من وقت طويل؟"

"لا يا سيدي"

"كتيبة المرتفعات؟"

"نعم سيدي"

"المتمركزة في باربادوس؟"

"نعم سيدي"

لقد كانت حيلة، لكنها حيلة حقيقية، غامضة في البداية، وبسيطة عندما توضحت.

"كما ترون أيها السادة، عاش رجلًا محترمًا ولكنه لم يرفع القبعة لأحد. إنهم ليسوا في الجيش، لكنه كان سيتعلم أساليبَ مدنية لو سُرّح منذ فترة طويلة. لديه هيئة رجل من السلطة ومن الواضح أنه أسكتلندي. أما بالنسبة لباربادوس فهي دولة غرب هندية وليست بريطانية، عانى فيها من داء الفيل".

تلقى آرثر تعليمه، خلال معظم تلك الأعوام الجميلة، في كلية الطب الأساسية. شُطبت أي بقايا للديانة الرسمية، مع هذا ظلّ احترامه نظريًا. لقد أقر بإمكانية وجود سبب ذكي جوهري، مع عدم قدرته على تحديد ذلك السبب، أو فهم سبب وجوب تنفيذ تصميماته بمثل هذه الطرق الملتوية والفظيعة في كثير من الأحيان. بقدر ما غاب العقل والروح، فهم آرثر التفسير العلمي اليوم. مثلما ينبع العقل من الدماغ، تفرز العصارة الصفراء من الكبد.. شيء فيزيائي بحت، في حين أن الروح، بقدر ما يمكن الاعتراف بهذا المصطلح، هي الأثر اللاحق الإجمالي لجميع الوظائف الوراثية والشخصية للعقل. لكنه أدرك أن المعرفة لم تتوقف مطلقًا أيضًا، وأن حقائق اليوم قد تصبح خرافات الغد. لذلك، لن يتوقف الواجب الفكري عن مواصلة البحث.

واجه آرثر أكثر العقول التأملية في المدينة، في جمعية بورتسموث الأدبية والعلمية، التي تجتمع الثلاثاء الثاني من كل شهر. بعد أن كان التخاطر قيد المناقشة كثيرًا، وجد

آرثر نفسه بعد ظهر أحد الأيام جالسًا في غرفة ذات ستائر بلا مرايا ولا أسطح عاكسة فيها مع مهندس معماري محلي يدعى ستانلي بول. جلسا ظهرًا لظهر مبتعدين عن بعضهما عدة ياردات. رسم آرثر شكلًا على لوح الرسم الموضوع على ركبته، وحاول بالتركيز القوي للعقل نقل الصورة إلى ستانلي بول. ثم رسم المهندس المعماري أي شكل بدا أن عقله يقترحه. ثم عكسا الأسلوب، المهندس المعماري مُرسِل للشكل والطبيب متلقٍ له. ما أدهشهما أن النتائج أظهرت مطابقة أعلى بكثير من المصادفة. كرّرا التجربة مرات كافية للوصول إلى نتيجة علمية: أي أنه نظرًا إلى التشارك الوجداني الطبيعي بين الموصِّل والمتلقّي، ربما يحدث أن تنتقل الأفكار بالفعل.

ما الذي قد يعنيه هذا؟ إذا ثبتت إمكانية انتقال الأفكار عبر المسافة دون أي وسيلة واضحة للانتقال، فإن النظرة المادية الخالصة لمعلمي آرثر كانت على الأقل جامدة للغاية. إن تطابق الأشكال المرسومة التي حققها مع ستانلي بول لن يسمح بعودة الملائكة بالسيوف اللامعة[29]. لكنه مع ذلك أثار تساؤلًا واحدًا عسيرًا أيضًا.

دفع آخرون كُثُر معًا الجدران المُصفّحة للعالم المادي. قَدِم أستاذ السحر دي ماير، الشهير -وفقًا لصحف بورتسموث- في جميع أنحاء قارة أوروبا، إلى المدينة وحث العديد من الشبان الأصحاء على تنفيذ أوامره. وقف بعضهم بأفواههم الفاغرة، عاجزين عن غلقها على الرغم من الضحك المنبعث من القاعة، سقط آخرون على ركبهم عاجزين عن النهوض دون إذن من الأستاذ. أدرج آرثر نفسه في سلسلة المرشحين على خشبة المسرح، لكن أسلوب ماير تركه غير مبهور وغير مقتنع. لقد أوحى بأنه يعرض مسرحية هزلية (فودفيل) أكثر من كونه عرضًا علميًا.

بدأ هو وتوي حضور جلسات استحضار الأرواح. كان ستانلي بول حاضرًا في كثير منَها، وكذلك الجنرال درايسون الفلكي في ساوث سي. عثروا على إرشادات لعمل هالة من النور، في الصحيفة الأسبوعية النفسية. ستبدأ الأحداث بقراءة الفصل الأول من سِفر حزقيال: "إِلى حَيْثُ تَكُونُ الرُّوحُ لِتَسِيرَ يَسِيرُونَ، إِلَى حَيْثُ الرُّوحُ لِتَسِيرَ"

---

29 آية 24:" 24 فطرد الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة" العهد القديم – سفر التكوين. السيف في يد الملاك هو كلمة الله النارية أي وعود الله = لهيب سيف (عب 4: 12). وفقًا للكتاب المقدس، وضع الله ملاكًا بسيف ملتهب على أبواب الجنة بعد أن طرد منها آدم وحواء (تكوين 3:24)

جعلت رؤية القائد الروحي -من الزوبعة والسحابة العظيمة والبريق والنار والشاروبيم[30] الأربعة لكل واحد منهم أربعة وجوه وأربعة أجنحة- الحاضرين متأهبين ليكونوا أكثر تقبلًا. ثم هناك الشمعة الوامضة، والظلام الدامس، وتركيز العقل، وإفراغ الذات، والانتظار الجماعي. ذات مرة، ظهرت خلفه روح تجيب على اسم عم آرثر الكبير. وفي مناسبة أخرى، رجل أسود مع رمح. بعد بضعة أشهر، أصبحت أنوار الروح مرئية من حين لآخر، حتى بالنسبة له.

لم يكن آرثر متأكدًا من مقدار الثقل الذي يجب منحه لهذه الدوائر التعاونية. بدا أكثر اقتناعًا بنفساني مُسِن التقاه في منزل الجنرال درايسون. بعد التحضيرات المختلفة ذات الطابع المسرحي إلى حد ما، دخل الرجل العجوز في نشوة أنفاس ثقيلة، وبدأ في توزيع النصائح والتواصل الروحي لجمهوره الصامت الصغير. أصبح آرثر مسلحًا تمامًا بالشك.. إلى أن غشى الضباب العيون التي اتجهت نحوه، وسمع صوتًا واهنًا بعيدًا،

"لا تقرأ كتاب لي هانت"

كان هذا أكثر من غريب. تساءل آرثر لعدة أيام، على نحو خاص ما إذا وجب عليه قراءة كتاب هانت (*Comic Dramatists of the Restoration*) أم لا. لم يناقش الأمر مع أي أحد، وبالكاد مشكلة يمكنها أن تزعج توي. ولكن أن يُعطى إجابة دقيقة لسؤاله الذي لم يفه به... لا يمكن أن تكون خدعة من ساحر، أمكن أن يحدث ذلك من خلال قدرة عقل الرجل على الوصول بطريقة لا يمكن تفسيرها، حتى الآن إلى عقل رجل آخر فقط.

اقتنع آرثر بالتجربة التي كتبها بالتفصيل من أجل الشهرة. هنا دليل آخر على نجاح التخاطر في الوقت الراهن، لا شيء أكثر من ذلك. هذا ما شاهده إلى الآن: ما هو الحد الأدنى، وليس الحد الأقصى، الذي يمكن استنتاجه؟ على الرغم من استمرار تراكم البيانات الموثوقة، فقد يتعين أخذ أكثر من الحد الأدنى في الاعتبار. ماذا لو أصبحت كل الحقائق السابقة غير مؤكدة؟ وماذا يمكن أن يكون الحد الأقصى في هذا الشأن؟

نظرت توي إلى تورّط زوجها في التخاطر، وعالم الروح بالاهتمام الودي واليقظ ذاته

---

30 (cherubim) هي جوقة من الملائكة مذكورة في عدة مواضع من الكتاب المقدس، وتعتبر أحد أقسام الملائكة في اليهودية والمسيحية، وتكتب في صيغة الجمع لا المفرد.

الذي جلبته إلى حماسه للرياضة. بدت لها قوانين الظواهر النفسية مُبهمة مثل قوانين لعبة الكريكت. لكنها شعرت مع كل نتيجة مؤكدة، وافترضت وديًا أن آرثر سيبلغها حين يتوصل إلى هذه النتيجة. إلى جانب ذلك، انغمست الآن في ابنتهما ماري لويز، التي نشأ كيانها عبر تطبيق قوانين أقل غموضًا وتخاطرًا معروفًا للبشرية.

جورج

منح "اعتذار" جورج للكاهن في الصحيفة خط تحقيق جديدًا. إنه يستدعي وليام بروكس، تاجر الحديد والخردوات في القرية، والد فريدرك بروكس، الشريك المفترض لجورج. يأخذ تاجر الحديد والخردوات، الرجل القصير والبدين في مئزر أخضر، شابورجي إلى مخزن اعتاد أن يعلّق فيه المماسِح والدِّلاء ومغاطس الزنك. يخلع مِئزره، ويسحب جارورًا، ويسلّمه أكثر من ست رسائل استنكار تلقتها أسرته. رسائل مكتوبة على ورق مسطّر غير رسمي ممزوع من دفتر، على الرغم من أن أسلوب الخط مختلف.

خربش مقدمة الرسالة بصبيانية وتَردُّد. "ما لم تكن هاربًا من الموت الأسود (الطاعون)، سأقتلك أنت والسيدة بروك، أعرف أسماءكم، وسأكتب لكم لإبلاغكم" الآخرون في متناول يد تبدو أكثر قوة، حتى لو تنكّروا. "ابنك وابن وين بصقا في وجه امرأة عجوز في محطة والسال" يطالب الكاتب بإرسال الأموال إلى مكتب بريد والسال على سبيل التعويض. الرسالة اللاحقة، تؤكد هذا، وبها تهديد بالملاحقة إذا لم يُنفّذ الطلب.

"أفترض أنك لم ترسل أي أموال"

"بالطبع لا"

"لكنك عرضت الرسائل على الشرطة؟"

"الشرطة؟ لا يستحق الأمر إهدار وقتهم أو وقتي. إنهم مجرد أطفال، أليس كذلك؟ وكما ورد في الكتاب المقدس، قد تكسر العصي والحجارة عظامي، لكن الكلمات لن تكسرني"

لا يصحح الكاهن مَرجع السيد بروكس. كما أنه يستشعر بشيء من البرود في موقف الرجل. "لكنك لم تقم بوضع الرسائل في الجارور؟"

"سألت في الجوار قليلاً. سألت فريد عما عرفه"

"من هو هذا السيد وين؟"

وين كما يبدو تاجر أقمشة يعيش في بلوكسويتش. لديه ابن يذهب إلى المدرسة في والسال مع ابن بروكس. يجتمعان في القطار كل صباح وعادة ما يعودان معًا. منذ مدة -لا يُحدد تاجر الحديد والخردوات طول المدة- اتُهم ابن وين والشاب فريد بتحطيم نافذة عربة. أقسم الاثنان أن صبيًا يدعى سبيك من فعلها، وفي النهاية قرر مسؤولو السكك الحديدية عدم توجيه اتهامات. حدث هذا قبل أسابيع قليلة من وصول الرسالة الأولى. ربما لهذا صلة بعض الشيء. وربما لا.

يفهم الكاهن الآن أن بروكس يفتقر إلى الحماس في هذه المسألة. لا، لم يعرف تاجر الحديد من هو سبيك. لا، لم يتلق السيد وين أي رسائل. لا، ابن وين وابن بروكس ليسا صديقين لجورج. هذه المعلومة الأخيرة ليست مفاجأة.

يصف شابورجي النقاش لجورج قبل العشاء، ويبدي رأيه أنه مشجِّع.

"لماذا أنت متحمس يا أبي؟"

"كلما زاد عدد الأشخاص المعنيين، زاد احتمال اكتشاف الوغد. وكلما زاد عدد الأشخاص المضطهدين، زادت إمكانية ارتكابه خطأ. هل تعرف هذا الفتى الذي يدعى سبيك؟"

"سبيك؟ لا" يهز جورج رأسه.

"وأنا شجعني أن عائلة بروكس مضطهدة بشكل أو بآخر أيضًا. هذا يثبت أنها ليست مجرد ضغينة عنصرية"

"هل هذا شيء جيد يا أبي؟ أن تكون مكروهًا لأكثر من سبب؟"

يبتسم شابورجي مع نفسه. تبهجه لحظات الذكاء هذه، الآتية من صبي مُنصاعٍ وكثيرًا ما انشغل بنفسه.

"سأقولها مرة أخرى، ستكون محاميًا جيدًا، يا جورج" ولكن حتى عندما ينطق

الكلمات، فإنه يستحضر سطرًا في إحدى الرسائل التي لم يُطْلِع ابنه عليها. "قبل نهاية العام، سيكون طفلك إما في المقبرة أو موصومًا بالعار مدى الحياة"

"جورج" كما يقول. "يوجد تاريخ أتمنى ألا تنساه. هو السادس من يوليو عام ألف وثمانمئة واثنين وتسعين. قبل عامين فقط. في ذلك اليوم، انتُخِب السيد دادابوي ناوروجي لعضوية البرلمان في منطقة فينسبري المركزية في لندن"

"نعم يا أبي"

"عمل السيد ناوروجي أستاذًا للغة الكوجراتية في كلية لندن الجامعية لأعوام عدة. تواصلت معه لفترة وجيزة، وأنا فخور بالقول إنه أثنى على قواعدي في اللغة الكوجراتية"

"نعم يا أبي" لقد اطلع جورج على رسالة البروفيسور، التي ظهرت في أكثر من مناسبة.

"كان انتخابه نهاية مُشرّفة لوقت صعب للغاية. قال رئيس الوزراء، اللورد سالزبوري، إنه لا ينبغي انتخاب الرجال السود للبرلمان ولن يتم انتخابهم. ولأجل ذلك وبّخته الملكة بنفسها. وبعد ذلك، بعد أربعة أعوام فقط، قرر ناخبو فينسبري سنترال، أنهم يوافقون الملكة الرأي وليسوا مع اللورد سالزبوري"

"لكني لست بارسيًا[31]، يا أبي" تردد صدى الكلمات في رأس جورج: وسط إنجلترا، القلب النابض للإمبراطورية البريطانية، السلالة المتدفقة التي هي كنيسة إنجلترا. إنه إنجليزي، وطالِب للقانون الإنجليزي، وفي يوم من الأيام بمشيئة الرب، سيتزوج وفقًا لطقوس ومراسم كنيسة إنجلترا. هذا ما علّمه والداه منذ ولادته.

"جورج، هذا صحيح بما يكفي. أنت رجل إنجليزي. لكن قد لا يتفق الآخرون معك على الدوام. وحيث نعيش.."

"وسط إنجلترا"، يجيب جورج، كما لو أن القدّاس في حجرة النوم.

"وسط إنجلترا، نعم، حيث وجدنا أنفسنا، وخدمت منذ ما يقرب من عشرين عامًا، مركز إنجلترا -على الرغم من أن كل مخلوقات الرب مباركة بالقدر نفسه- مازال بدائيًا قليلًا يا جورج. ضِف إلى ذلك، أنك ستتعثر بأشخاص ساذجين حيث لا تتوقعهم. إنهم

---

31 البارسيون: هي مجموعة عرقية دينية. يتركز تواجدها في شبه القارة الهندية. ويمثلون جزءًا من الزردشتيين الذين يعيشون في شبه القارة الهندية. المعروف أن البارسي وهم الزردشتيون الإيرانيون استوطنوا غرب الهند قبل ألف عام مضت.

موجودون في صفوف المجتمع حيث من الأفضل توقّعهم. لكن إذا استطاع السيد ناوروجي أن يصبح أستاذًا جامعيًا وعضوًا في البرلمان، فعندئذ يمكنك يا جورج، أن تصبح محاميًا وعضوًا محترمًا في المجتمع. وإذا حدثت أمور جائرة ووقعت أحداث شريرة، فعليك أن تتذكر تاريخ السادس من يوليو عام ألف وثمانمئة واثنين وتسعين"

يفكر جورج في هذا الأمر لفترة من الوقت، ثم يكرر بهدوء ولكن بحزم، "لكني لست بارسيًا يا أبي. هذا ما علمتني إياه أنت ووالدتي"

"تذكّر التاريخ، يا جورج، تذكّر التاريخ"

آرثر

بدأ آرثر الكتابة باحتراف أكبر. بينما شغّل العضلات الأدبية، نمت قصصه لتصبح روايات، تحدّدت أفضلها تلقائيًا في القرن الرابع عشر الملحمي. سيقرأ كل صفحة من العمل بصوت مرتفع لِتوي بعد العشاء، ويرسل النص المكتمل إلى الأم للتعليق على التحرير. عَيّن آرثر في منصب سكرتير وأمين سر أيضًا: ألفريد وود، أستاذًا من مدرسة بورتسموث، شخص كفء وحصيف مع هيئة صادقة لصيدلي، ورياضي من جميع النواحي أيضًا، مع مضرب لعبة كريكت لائق جدًا عليه.

مع ذلك ظلّ الطب مصدر رزق آرثر الحالي. كلما تقدم في مهنته، علم أن الوقت قد حان للتخصص. افتخر بنفسه دائمًا، في كل جانب من جوانب حياته، عند التمعّن لم يتطلب الأمر صوت الروح أو طاولة تقفز في الهواء لينتقي التخصص المختار.. إنه طبيب عيون. لم يكن رجلًا يميل إلى المراوغة أو المساومة، وفي الحال عرف أفضل مكان للتدريب.

"فيينا؟" كررت توي متسائلة؛ لأنها لم تغادر إنجلترا أبدًا. إننا في نوفمبر الآن، الشتاء قادم. بدأت ماري الصغيرة في المشي، شريطة أن يمسك أحدهم بحزامها. "متى نغادر؟"

"على الفور" أجاب آرثر.

انتهت توي –ليباركها الرب- فحسب من أشغالها في التطريز ودمدمت، "إذن يجب

أن أسرع"

باعا أملاكهما، وتركا ماري مع السيدة هوكينز، وأقلعت طائرتهما إلى فيينا لستة أشهر. التحق آرثر بدورة عن محاضرات لأمراض العين في كرانكينهاوس، لكن سرعان ما اكتشف أن تعلّم اللغة الألمانية أثناء السير جنبًا إلى جنب مع تلميذين نمساويين، اتّسم أسلوبهما اللغوي في كثير من الأحيان بأنه أدنى من أن يُعدّ الشخص المخُتار إعدادًا كاملًا للحصول على تعلّم سريع تتناثر فيه المصطلحات الفنية. ومع ذلك، مدّه الشتاء النمساوي بالتزلج الرائع على الجليد، وكعك المدينة الممتاز. أنجز آرثر في عجالة كتابة رواية قصيرة بعنوان أفعال رافلز هاو[32]، كفته لدفع جميع مصاريف فيينا. بالرغم من ذلك، اعترف بعد شهرين بأنه حبّذ لو أنه درس في لندن. استجابت توي لتغيير الخطة برباطة جأشها المعتادة والسريعة. عادا عبر باريس، حيث تمكن آرثر من إجراء دراسة عن حلقة لاندولت[33] خلال أيام قليلة.

وهكذا تمكن من ادعاء تلقي تدريب في دولتين، فقد حجز غرفًا في شارع ديفونشاير بلايس، وانتخب عضوًا في جمعية طب العيون، وانتظر المرضى. كما أعرب عن أمله في أن ينجح كبار الرجال في هذه المهنة، الذين انهمكوا بحساب انكسارات الضوء بأنفسهم في الغالب. اعتبرها بعضهم مجرد عمل غبي. لكن آرثر اعتبر نفسه مختصًا في هذا المجال، وعوّل على فائض العمل المتراكم في طريقه.

مع أن في عيادته التي تقع في شارع ديفونشاير بلايس غرفتا انتظار واستشارة، إلا أنه - بعد مضي بضعة أسابيع - ألقى دعابة أن الغرفتين مخصصتان للانتظار. وأن آرثر هو من ينتظر. كانت البطالة بغيضة، لذا جلس على مكتبه وكتب. لقد أصبح الآن متمرسًا جيدًا في اللعبة الأدبية، وحوّل عقله إلى واحدة من إغواءاتها الحالية هي: المجلات الخيالية. راقت المسألة لآرثر، ومضى بها على هذا النحو. نشرت المجلات نوعين من القصص: إما سلاسل طويلة جذبت القارئ أسبوعًا تلو الآخر، وشهرًا إثر آخر أو حكايات قائمة بذاتها. كانت المشكلة في القصص أنها في كثير من الأحيان، لا تمنحك ما يكفي لتستحوذ عليك.

---

32 (Doings of Raffles Haw).

33 اخترع العالم لاندولت عام 1899 ما يعرف بحلقة لاندولت وهي عبارة عن لوحة تضم صفوف من الحلقات السوداء التي يقل قطرها تدريجيًا من أعلى إلى أسفل، ولكل حلقة فتحة بحساب معين. تستخدم لقياس قوة النظر.

أما في تلك السلاسل، فالمشكلة هي أنك إذا غفلت عن أمر واحد، ستضيع الحبكة. تصور آرثر أن بتسخيره إمكانات دماغه على المشكلة، سيجمع بين فضائل الشكلين: سلسلة من القصص، كل منها مكتملة في حد ذاتها، مع ذلك مليئة بالشخصيات البارزة؛ لإعادة إشعال تعاطف القارئ أو استنكاره.

لذا كان في حاجة إلى نوع البطل الذي يمكن الاعتماد عليه لخوض مغامرات منتظمة ومختلفة. من الواضح أن معظم المهن لا تحتاج إلى تقديم. عندما انقلب الأمر في ديفونشاير بلايس، بدأ يتساءل عما إذا لم يوفق في خلق المرشح المناسب. برز تحرٍّ في روايتيه الأقل نجاحًا، على غرار جوزيف بيل من عيادة إدنبرة: كانت المراقبة الحثيثة التي أعقبها الاستنتاج الدقيق هي مفتاح التشخيص الجنائي وكذلك التشخيص الطبي. أطلق عليه آرثر في البداية اسم المحقق شيريدان هوب. لكن الاسم لم يكن مُرضيًا، وعند كتابة شيريدان هوب تحوّل أولاً إلى شيرينغفورد هولمز وبعد ذلك -حتمًا كما بدا بعد ذلك- إلى شيرلوك هولمز.

جورج

تتواصل الرسائل والحِيَل. يبدو أن النداء الذي قدمه شابورجي للمجرم لاختبار ضميره كان بمثابة استفزاز إضافي. تعلن الصحف أن بيت الكاهن الآن دار إقامة يوفر شروطًا متدنية. أصبح مسلخًا، ستُرسل عينات مجانية من مشدّات السيدات عند الطلب. يبدو أن جورج نصّب نفسه طبيب عيون، يقدّم المشورة القانونية مجانًا أيضًا، كما أنه مؤهل لتنظيم شراء التذاكر والإقامة للمسافرين إلى الهند والشرق الأقصى. تَسلّموا ما يكفي من الفحم لتشغيل سفينة حربية. كما وصلت كتب الموسوعات جنبًا إلى جنب مع الإوز الحيّ.

من المستحيل أن تستمر إلى الأبد في التوتر ذاته، وبعد فترة من الوقت، أوشكت الأسرة على تحويل اضطهادها إلى روتين تقريبًا. تُسيّر دوريّات لحراسة أراضي بيت الكاهن مع بزوغ أول شعاع نور، حيث تُرفَض البضائع عند البوابة أو تُعاد، وتُقدّم تفسيرات لخيبة

أمل العملاء في الخدمات المخصصة لفئة معينة. أصبحت شارلوت بارعة في استرضاء رجال الدين، أولئك الذين تم استدعاؤهم من المقاطعات البعيدة عبر مناشدات عاجلة للمساعدة.

غادر جورج كلية ماسون، وهو الآن يعمل في شركة محامين في برمنغهام. مع كل صباح يستقلّ فيه القطار، يوخزه الذنب لترك عائلته، لكن الأمسيات لا تجلب الراحة، إنها مجرد شكل آخر من القلق. كما اختار والده التجاوب مع الأزمة فيما يبدو لجورج بطريقة غريبة: عبر إلقاء محاضرات قصيرة حول كيفية تفضيل البريطانيين للبارسيين. وهكذا يَعلم جورج أن أول مسافر هندي إلى بريطانيا كان بارسيًا، وأول هندي درس اللاهوت المسيحي في إحدى الجامعات البريطانية بارسي أيضًا، والتحق أول طالب هندي في أكسفورد، وفي وقت لاحق أول طالبة. كما قدّم أول رجل هندي نفسه إلى المحكمة، ثم أول امرأة هندية. وأول هندي دخل الخدمة المدنية الهندية بارسيًا. يعطي شابورجي لجورج أسماء الجراحين والمحامين المتدربين في بريطانيا، ومعلومات حول دور مؤسسة بارسي الخيرية خلال المجاعة الإيرلندية، وفي ما بعد عن معاناة عمال المطاحن في لانكشاير. حتى إنه حكى لجورج عن أول فريق كريكت هندي قام بجولة في إنجلترا... كل واحد منهم بارسي. لكن جورج لا يحفل بالكريكت كثيرًا، ويجد أن حيلة والده يائسة أكثر من كونها مفيدة. عندما يُطلب من العائلة أن تشرب نخب انتخاب عضو بارسي ثانٍ في البرلمان، وهو مونشرجي بوناغري في دائرة شمال شرق بيثنال غرين، يشعر جورج بسخرية فاضحة تتصاعد داخله. لم لا تكتب إلى النائب الجديد وتقترح أن يساعد في منع وصول الفحم والموسوعات والإوز الحي؟

انتاب شابورجي القلق بشأن الرسائل أكثر من مُستلِميها. وتبيّن على نحو متصاعد أنه فعل مهووس ديني. وقّعها الرّب وبعل زبوب[34] والشيطان. يدّعي الكاتب أنه ضاع في الجحيم إلى الأبد أو تاق إلى تلك الوجهة. عندما يبدأ هذا الهوس في إظهار نوايا عنيفة، يشرع الكاهن في الخوف على أسرته. "أقسم بالرّب أني سأقتل جورج إدالجي قريبًا" "ليرديني الرّب قتيلًا إذا لم تحدث الفوضى وإراقة الدماء" "سأهبط إلى الجحيم وأمطركم

34 (Beelzebub) بعل زبوب أو بعل زبول هو اسم شيطان، وفي المسيحية هو اسم آخر لإبليس.

جميعًا بلعناتي، وسنلتقي هناك في الوقت المناسب مع الرّب" "أنت تقترب من نهايتك على هذه الأرض، وأنا أداة الرّب المختارة لهذه المهمة"

قرر شابورجي الاقتراب من قائد الشرطة مرة أخرى بعد أكثر من عامين من الاضطهاد. يكتب سردًا للأحداث، ويرفق نماذج من المراسلات، ويشير بأسلوب مهذّب إلى أنه الآن يجري الإفصاح عن نية واضحة للقتل، ويطلب من الشرطة حماية أسرة بريئة مهددة إلى هذا الحدّ. يردّ كبير المفتشين آنسون بتجاهل الطلب. ويكتب بدلًا من ذلك:

> أنا لا أدّعي معرفة اسم الجاني، رغم أن لدي شكوكي الخاصة. أنا أفضل الاحتفاظ بهذه الشكوك لنفسي إلى أن أتمكن من إثباتها، وأنا على ثقة من أني سأتمكن من الحصول على الأشغال الشاقة للجاني، على الرغم من توخي الحذر الشديد على ما يبدو لتجنب أي شيء يمكن أن يشكل أي جريمة خطيرة في القانون قدر الإمكان، فقد تجاوز كاتب الرسائل حدوده في حالتين أو ثلاث حالات، بطريقة تجعله عرضة لأخطر عقوبة. ليس لدي شك في أن الجاني سيُكشَف.

يُسلِّم شابورجي الرسالة لابنه ويسأله عن رأيه. يقول جورج: "من ناحية أخرى، يؤكد قائد الشرطة على أن المخادع يستخدم معرفته في القانون بمهارة؛ لتجنب ارتكاب أي جريمة فعلية. من جهة أخرى، يبدو أنه يعتقد أن جرائم واضحة قد ارتكبت بالفعل من شأنها أن تؤدي إلى الأشغال الشاقة. في هذه الحالة، فإن المخادع ليس شخصًا ذكيًا بعد كل هذا" يصمت مؤقتًا وينظر إلى والده. "لأنه يعنيني بالطبع. يعتقد أني أخذت المفتاح ويحسبني كاتب الرسائل الآن. إنه يعلم أني أدرس القانون... الإشارة واضحة. أعتقد يا أبي لأكون صادقًا معك، قد يمثل قائد الشرطة تهديدًا لي أكثر من المخادع"

لم يكن شابورجي متيقنًا من ذلك. أحدهما يتوعد بالأشغال الشاقة والآخر يهدد بالقتل. يجد صعوبة في إبعاد المرارة التي يشعر بها ضد قائد الشرطة عن تفكيره. ولم يكشف لجورج بعدُ أخطر الرسائل. هل يعتقد آنسون حقًا أن جورج من كتبها؟ إذا كان الأمر كذلك، فإنه يود أن يعلم كيف يمكن اعتبار كتابة رسالة مجهولة إلى نفسك تهدد فيها بقتل نفسك جريمة. إنه يتقلب قلقًا على ولده البكر في الليل والنهار. ولا يكاد يغمض

له جفن في فراشه، وغالبًا ما يجد نفسه خارج السرير، ويسارع إلى التحقّق من أن الباب مقفل بلا مُسَوِّغ.

ظهر إعلان في صحيفة بلاكبول تُعرض فيه محتويات بيت الكاهن بالكامل للبيع بالمزاد العلني في ديسمبر من عام ألف وثمانمئة وخمسة وتسعين. وخلت القطع من أي تثمين مسبق، فقد حرص الكاهن وزوجته على التخلص من كل شيء قبل رحيلهما الوشيك إلى بومباي.

تبعد بلاكبول ما لا يقل عن مئة ميل بأقصر الطرق. يمتلك شابورجي رؤية للاضطهاد المنتشر في جميع أنحاء البلاد. ربما تكون بلاكبول هي البداية فقط: بعد ذلك ستكون إدنبرة ونيوكاسل ولندن. تتبعها باريس وموسكو وتمبكتو.. لم لا؟

ثم كما بدأت فجأة، تتوقف. لا مزيد من الرسائل، ولا أي من الأشياء غير المرغوب فيها، ولا إعلانات مزيفة، ولا إخوة متطرفين في المسيحية على عتبة الباب. ليوم ثم أسبوع وشهر ثم شهرين. تتوقف. لقد توقفت.

اثنان

بداية النهاية

جورج

يصادف الشهر الذي توقفت فيه عمليات الاضطهاد الذكرى السنوية العشرين لتعيين شابورجي إدالجي في غريت ويرلي، وتليها الذكرى العشرين -لا، الحادية والعشرين- التي تقام الاحتفالات بها في بيت الكاهن. تستلم مود فاصل كتب قماشيًّا، وهوراس نسخته الخاصة من محاضرات الأب عن رسائل القديس بول إلى أهل غلاطية، وجورج نسخة بنية داكنة مطبوعة من لوحة نور العالم[35] للسيد هولمان هانت مع اقتراح أن يعلّقها على جدار مكتبه. يشكر جورج والديه، لكن يمكنه أن يتخيل ما سيعتقده كبار الشركاء: أن محاميًا له مكانة، تدرّب على مدى عامين فقط، ومن هو محل ثقة في القيام بما هو أكثر من مجرد كتابة مستندات في نسخة منقّحة، لا يكاد يكون أهلًا لاتخاذ القرارات بشأن الأثاث. علاوة على ذلك، يأتي العملاء إلى محامٍ للحصول على نوع محدد من التوجيه، وقد يجدون لوحة السيد هانت تكشف عن صنف مختلف يشتت الانتباه.

مع مرور الأشهر الأولى من العام الجديد، تُفتح الستائر كل صباح مع تنامي اليقين بأنه لن يكون هناك سوى ندى الرّب اللامع على العشب، ولم يعد وصول ساعي البريد ينذر بالخطر. يبدأ الكاهن في تكرار أنهم اكتووا بالنار، وقد ساعدهم إيمانهم بالرّب على الصمود أثناء هذه التجربة. ظلّت مود هشّة وتقيّة مع حرص على إبقائها جاهلة بما يدور حولها قدر الإمكان، يبلغ هوراس ستة عشر عامًا الآن وهو قوي وصريح ويعرف أكثر، واعترف سرًا لجورج بأن من وجهة نظره فإن الطريقة القديمة لمبدأ العين بالعين هو نظام عدالة لا يمكن زعزعته، وأنه إن أمسك بأحدهم يرمي طيور الشحرور الميتة على الوشيع، سيدُقّ عنقه بنفسه.

لا يعتقد جورج كما يظن والداه، أنه يمتلك مكتبه الخاص في سانغستر وفيكيري آند سبايت. لديه مقعد ومكتب مرتفع في زاوية خالية من السجاد حيث يعتمد وصول أشعة الشمس على حُسن نية الكُوّة البعيدة. لم يمتلك ساعة جيب بعد، ناهيك عن مجموعته

---

35 (The Light of the World) هي لوحة مجازية للفنان الإنجليزي ويليام هولمان هانت (1827-1910) تمثل شخصية يسوع يستعد فيها للطّرْق على باب ضخم غير مفتوح.

من كتب القانون. لكنه يمتلك قبعة بثلاثة شيلنات وستة بنسات من فنتون في شارع غرانغ. وعلى الرغم من أن سريره لا يزال على بُعد ثلاث ياردات من الأب، إلا أنه يستشعر بدايات حياة مستقلة تتحرك بداخله. حتى أنه تعرف على اثنين من المحامين المتدربين في مكاتب المحاماة المجاورة. غرينواي وستينتسون أكبر منه سنًا بقليل، اصطحباه إلى حانة للغداء، فتظاهر لفترة وجيزة بأنه يستمتع بالبيرة الحامضة الرهيبة التي دفع ثمنها.

خلال العام الذي قضاه في كلية ماسون، لم يولي جورج اهتمامًا كبيرًا للمدينة الكبيرة التي وجد نفسه فيها. أحس بها كحاجز من الضجيج والصخب ممتد بين المحطة وكتبه، في الحقيقة لقد أخافته. لكنه بدأ الآن يشعر بالارتياح في المكان أكثر، وغمره فضول أكبر نحوه. إن لم يسحقه بحيويته وقوته، ربما يصبح ذات يوم جزءًا منه.

يبدأ في استكشاف المدينة. في البداية، وجدها مادة خام رتيبة، عن صانعي السكاكين والحدّادين ومُصنّعي المعادن. ثم تأتي الحرب الأهلية والطاعون والمحرك البخاري والمجتمع القمري[36] والكنيسة وأعمال الشغب واضطرابات الحركة الميثاقية[37]. لكن بعد حوالي عقد من الزمن، بدأت برمنغهام تنفض بنفسها الحياة المحلية الحديثة، وفجأة شعر جورج أنه يقرأ عن أمور حقيقية، وعن أمور ذات صلة. إنه تعذّب ليدرك أن من الممكن أن يشهد واحدة من أعظم لحظات برمنغهام: في يوم ما من عام ألف وثمانمئة وسبعة وثمانين، عندما وضعت صاحبة الجلالة حجر الأساس لمحاكم فيكتوريا القانونية. وبعد ذلك، نجحت المدينة في دفقة نشاط من المباني والمؤسسات الجديدة: المستشفى العام، وقاعة التحكيم، وسوق اللحوم. تُجمع الأموال لإنشاء جامعة حاليًا، وهناك خطة لبناء تيمبرانس هول، وحديث جاد عن أن برمنغهام قد تصبح قريبًا أبرشية، ولن تعود تحت سيطرة ورسستر.

في ذلك اليوم من زيارة الملكة فيكتوريا، حضر خمسمئة ألف شخص للسلام عليها، وعلى الرغم من الحشود الهائلة لم تكن هناك اضطرابات أو إصابات. تأثر جورج بهذا، لكنه لم يفاجأ أيضًا. الرأي السائد هو أن المدن أماكن عنيفة مكتظة، في حين أن الريف

---

36 (Lunar Society) نادي ومجتمع علمي غير رسمي من صناعيين وفلاسفة طبيعة ومفكرين. كانوا يجتمعون بانتظام في الفترة ما بين 1765 و1813 في برمنغهام بإنجلترا.

37 (Chartism) حركة في الطبقة العاملة من أجل الإصلاح السياسي في بريطانيا بين 1838 و1848. وأخذت اسمها من ميثاق الشعب، سنة 1838. والميثاقية أول حركة عمالية حاشدة في الطبقة العاملة في العالم.

هادئ ومسالم. تجربته الخاصة على عكس ذلك: الريف مضطرب وبدائي، في حين أن الحياة في المدينة منظمة وحديثة. بالطبع لا تخلو برمنغهام من الجريمة والرذيلة والشّقاق -وإلا لن يجد المحامون سوى ما يسد رمقهم للعيش- لكن بدا لجورج أن السلوك البشري أكثر عقلانية هنا، وأكثر امتثالاً للقانون: أي أكثر تمدّنًا.

يجد جورج شيئًا جديًّا ومريحًا في مروره اليومي على المدينة. رحلة، ووجهة: تعلّم فهم الحياة بهذه الطريقة. في البيت، الوجهة هي مملكة السماء[38]. في المكتب، الوجهة هي العدالة، وهذا يعني نتيجة ناجحة لموكّلك، لكن كلتا الوجهتين متخمة بالمسارات المتفرعة والفِخاخ المتفجرة التي وضعها الخصم. يوحي خط السكك الحديدية كيف ينبغي أن تكون الوجهة، وكيف يمكن أن تكون: رحلة سلسة إلى المحطة الأخيرة على قضبان متباعدة بالتساوي، ووفقًا لجدول زمني متفق عليه، مع تقسيم الركاب بين عربات الدرجة الأولى والثانية والثالثة.

لعل هذا هو ما يدفع جورج لأن يغضب بصمت، عندما يسعى أي شخص إلى إلحاق الضرر بخط السكك الحديدية. هناك شباب -ربما رجال- يحملون السكاكين وشفرات الحلاقة إلى حزام النافذة الجلدي، ويهاجمون إطارات الصور فوق المقاعد عبثًا، ويتسكعون على جسور المشاة محاولين إلقاء الطوب في مدخنة محرّك القطار. كل هذا مبهم لجورج. قد يبدو وضع بنس واحد على سكة الحديد ورؤيته مُسوّىً بالأرض إلى ضعف قطره، بفعل مرور قطار سريع، لعبة غير مؤذية، لكن جورج يعدّه انحدارًا زلقًا قد يؤدي إلى تحطّم القطار.

يغطي القانون الجنائي مثل هذه التصرفات بلا شك. يجد جورج نفسه منغمسًا في العلاقة المدنية بين الركاب وشركة السكك الحديدية. يشتري الراكب تذكرة، وفي تلك اللحظة، مع الأخذ بعين الاعتبار والاستلام، يظهر العقد إلى حيز الوجود. لكن اسأل ذلك الراكب عن نوع العقد الذي أبرمه فيه، وما هي الالتزامات المفروضة على الطرفين، وما هي دعوى التعويض التي يمكن متابعتها ضد شركة السكك الحديدية في حالة التأخر، أو التعطل أو وقوع حادث، لتأتي الإجابة هنا لا شيء. قد لا يكون هذا خطأ الراكب: تشير التذكرة إلى عقد، ولكن شروطها التفصيلية تُعرض فقط في بعض محطات الخط

38 (Kingdom of Heaven) وردت في إنجيل متى، هو أحد العناصر الرئيسية لتعاليم يسوع في العهد الجديد.

الرئيسي، وفي مكاتب شركة السكك الحديدية... وما الوقت الذي يملكه المسافر المشغول لتحويل مساره وفحصه؟ على الرغم من ذلك، يتعجب جورج من الطريقة التي يتعامل بها البريطانيون، الذين قدّموا السكك الحديدية إلى العالم، كوسيلة من وسائل النقل المريحة، بدلًا من كونها وشائج قوية من الحقوق والمسؤوليات المتعددة.

يقرر تعيين هوراس ومود كرجل وامرأة في كلافام أومنيبوس[39]... أو في هذه الحالة، الرجل والمرأة في قطار والسال، كانوك وروغيلي. يُسمح له باستخدام حجرة الدراسة كمحكمة قانونية. يُجلِس أخاه وأخته إلى الطاولات، ويعرض عليهما قضية واجهها مؤخرًا في تقارير القانون الأجنبي.

"في يوم من الأيام"، يحكي ويبدأ السير صعودًا وهبوطًا بطريقة تبدو ضرورية للقصة، "كان هناك فرنسي سمين جدًا يدعى بايل، ويزن خمسة وعشرين ستون[40]"

يبدأ هوراس بالقهقهة. يكفهرّ جورج في وجه شقيقه، ويقبض على تلابيبه مثل محامي المرافعات. "لا ضحك في المحكمة"، يُصر ويمضي قدمًا. "اشترى مسيو بايل تذكرة من الدرجة الثالثة في قطار فرنسي"

"إلى أين كان يتجه؟" تسأل مود.

"لا يهمّ إلى أين كان يتجه؟"

"لماذا كان سمينًا جدًا؟"، يسأل هوراس مُصِرًّا. يبدو أن لجنة التحكيم هذه تعتقد أنها قد تطرح أسئلة متى شاءت.

"أنا لا أعرف. يجب أن يكون أكثر جشعًا منك. في الواقع، اتّصف بجشعه الشديد لدرجة أنه عندما توقف القطار، وجد أنه لا يستطيع المرور من باب عربة الدرجة الثالثة" يبدأ هوراس في الضحك ضحكة مكبوتة على الفكرة. تاليًا حاول الدخول من الدرجة الثانية، لكنه سمين جدًا إذ لم يتمكن من الوصول إليها أيضًا، ثم جرّب عربة من عربات الدرجة الأولى..."

---

39 (Clapham Omnibus) الرجل الموجود في كلافام الشامل هو شخص افتراضي عادي ومعقول، تستخدمه المحاكم في القانون الإنجليزي إذ يكون من الضروري تحديد ما إذا كان أحد الأطراف قد تصرف كشخص عاقل على سبيل المثال، في دعوى مدنية بسبب الإهمال.

40 (Stone) وحدة قياس للكتل، تساوي 6.35 كيلوغرام أي 14 رطل. يُستخدم الستون لقياس كتلة جسم الإنسان في كل من المملكة المتحدة وإيرلندا.

"وكان سمينًا جدًا لدرجة أنه لم يتمكن من الدخول أيضًا!" يصرخ هوراس، كما لو أنها نهاية لدعابة.

"لا، يا أعضاء لجنة التحكيم، وجد أن هذا الباب واسع بالفعل بما يكفي. لذلك استلّ مقعدًا، وانطلق القطار في... في رحلة لأي وجهة. بعد فترة من الوقت جاء جامع التذاكر، وفحص تذكرته، وطلب الفرق بين أجرة الدرجة الثالثة وأجرة الدرجة الأولى. رفض مسيو بايل الدفع. رفعت شركة السكك الحديدية دعوى قضائية ضد بايل. الآن، هل تفهم المشكلة؟"

"المشكلة هي أنه سمين جدًا" يقول هوراس، ويعاود القهقهة مرة أخرى.

تقول مود: "لم يكن لديه ما يكفي من المال ليدفع. إنه رجل فقير"

"لا، لا شيء من هذا يشكّل مشكلة. إنه يمتلك ما يكفي من المال ليدفع، لكنه رفض. اسمحا لي أن أوضح. جادل محامي بايل بأنه قد أوفى بمتطلباته القانونية عبر شراء تذكرة، وأخطأت الشركة في جعل جميع أبواب القطار ضيقة جدًا باستثناء أبواب الدرجة الأولى. جادلت الشركة أنه إذا كان سمينًا جدًا حدّ أنه تعذر عليه الدخول إلا إلى فئة واحدة من المقصورة، فعليه أخذ تذكرة لنوع المقصورة التي يمكنه أن يدلف منها. ما رأيك؟"

تمسك هوراس بموقفه. "من البديهي أنه إذا ذهب إلى مقصورة من الدرجة الأولى، فعليه أن يدفع ثمن الذهاب إليها. لم ينبغي له أن يأكل الكثير من الكعك. إنها ليست غلطة خط السكك الحديدية إذا كان سمينًا جدًا"

تميل مود إلى جانب المستضعف، وتُقرّر أن تضع الرجل الفرنسي السمين في هذه الفئة. بدأت تقول: "ليس خطؤه أنه سمين. قد يكون مرضًا. أو ربما فقد أمه وحزن كثيرًا فأكل أكثر من اللازم. أو... لأي سبب من الأسباب. لم يبد الأمر كما لو أن شخصًا ما يغادر مقعده وبدلاً من ذلك يذهب إلى مقصورة من الدرجة الثالثة"

"لم يتم إبلاغ المحكمة بأسباب سمنته"

"إذن القانون أحمق"، يقول هوراس الذي تعلم هذه العبارة مؤخرًا.

تسأل مود: "هل فعل ذلك من قبل؟"

"الآن هذه نقطة ممتازة"، يقول جورج وهو يومئ برأسه كقاضٍ. "إنها مسألة نوايا. إما

أنه عرف من تجربة سابقة أنه سمين جدًا على دخول مقصورة من الدرجة الثالثة، واشترى تذكرة على الرغم من علمه بهذا، أو أنه اشترى تذكرة معتقدًا بصدق أنه يمكن أن يدخل بالفعل من الباب"

"حسنًا، أي من هذه الافتراضات هي الصحيحة؟" يسأل هوراس بنفاد صبر.

"أنا لا أعرف. لم يُذكَر في التقرير"

"إذن ما هي الإجابة؟"

"حسنًا، الإجابة هنا هي أن المُحكّمين منقسمان... كل واحد مع طرف. يجب أن نناقش المسألة معكما"

يقول هوراس: "لن أتجادل مع مود. إنها فتاة. ما هي الإجابة الواقعية؟"

"آه، وجدت المحكمة الإصلاحية في ليل أن شركة السكك الحديدية أصابت؛ لذا توجّب على بايل أن يدفع"

صاح هوراس: "لقد فزت! أخطأت مود"

وردّ جورج قائلًا: "لم يخطئ أحد. يمكن أن تذهب القضية في أي من الاتجاهين، لهذا السبب ترجع الأمور إلى المحكمة في المقام الأول"

يقول هوراس: "ما زلت فائزًا"

جورج سعيد. لقد استحوذ على اهتمام المحكمين المبتدئين، وبهذا النجاح يعرض عليهم بعد ظهر يوم السبت، حالات وقضايا جديدة. هل يحق للركاب في مقصورة ممتلئة أن يُبقوا الباب مغلقًا أمام من يسعون للدخول؟ هل هناك فرق قانوني بين العثور على محفظة شخص ما على المقعد، وإيجاد عملة معدنية تحت الوسادة؟ ماذا يجب أن يحدث إذا ركبت في آخر قطار إلى المنزل وفشلت في التوقف في محطتك، مما يستوجب منك السير لمسافة خمسة أميال في المطر؟

عندما يجد جورج تراجعًا في اهتمام المحكمين، يشغلهم بحقائق مثيرة للاهتمام وحالات غريبة. على سبيل المثال، يخبرهم عن الكلاب في بلجيكا. تنص اللوائح في إنجلترا على أن الكلاب يجب أن تخرس وتوضع في الشاحنة، في حين أنها في بلجيكا، قد يكون لها وضع راكب طالما حصلت على تذكرة. يستشهد بقضية رجل صياد أخذ كلب صيد في قطار،

ورفع دعوى قضائية عندما طرد كلبه من المقعد جانبه لصالح إنسان. وقضت المحكمة –مما أثار سعادة هوراس واستياء مود- للمُدَّعي، وهو الحكم الذي يعني أنه من الآن فصاعدًا إذا كان هناك خمسة رجال وكلابهم الخمسة يشغلون حجرة من عشرة مقاعد في بلجيكا، والعشرة حاملي تذاكر، ستُصنّف هذه الحجرة قانونيًا على أنها مكتملة.

فوجئ هوراس ومود بجورج. كانت له سلطة جديدة في حجرة الدراسة، ولكن بنوع من الخفة أيضًا، كما لو أنه على وشك قول دعابة، شيء لم يفعله أبدًا على حد علمهم. في المقابل، يجد جورج لجنة التحكيم مفيدة له. يصل هوراس بسرعة إلى مواقف حادة -عادة ما تكون لصالح شركة السكك الحديدية- لن يتزحزح عنها. تستغرق مود وقتًا طويلاً لتحسم أمرها، وتطرح الأسئلة الأكثر صلة بالموضوع، وتتعاطف مع كل أذى قد يصيب الراكب. على الرغم من أن شقيقيْ جورج بالكاد يمكنهما الوصول لشريحة عريضة من الجمهور المتنقل، إنهما مثاليان، كما يعتقد جورج بجهلهما شبه الكامل بحقوقهما.

آرثر

حدّث أسلوبه في كتابة التحقيقات. تخلّص من الشخصيات التي تمثّل التفكير البطيء في المدرسة القديمة، أولئك البشر العاديون نالوا التصفيق لفك تشفير القرائن الواضحة الموضوعة أمامهم. وضع مكانهم شخصيّات هادئة وماكرة يمكنها أن ترى دليلاً على فكرة القتل في كرة من الصوف، وقناعة مؤكدة في فنجان من الحليب.

منح هولمزُ آرثرَ الشهرة المفاجئة -وهو أمر لم يكن لقائد فريق إنجليزي أن يفعله أبدًا- والمال. اشترى منزلاً بمساحة لائقة في جنوب نوروود، حديقته المُسوّرة بها مساحة لملعب تنس. وضع تمثالاً نصفيًّا لجدّه في الردهة، وأودع جوائزه المداريّة أعلى المكتبة. وجد مكتبًا لوود، إذ بدا أنه التزم بالعمل التزامَ موظّف دائم. كانت لوتي قد عادت من العمل كمربية في البرتغال، وكوني على الرغم من كونها جذابة، تثبت أن لها يدًا لا تقدَّر بثمن على الآلة الكاتبة. كما حصل على آلة في ساوث سي لكنه لم يتمكن من استعمالها بنجاح. مع ذلك،

برع أكثر في قيادة الدراجة ذات المقعدين التي اعتاد ركوبها مع توي. عندما أصبحت حاملاً مرة أخرى، استبدلها بدراجة ثلاثية العجلات، مدفوعة بالقوة الذكورية وحدها. في فترة ما بعد الظهيرة الهادئة، خرج في مهمة قطع خلالها ثلاثين ميلاً عبر تلال سَرِي.

اعتاد النجاح المتعارف عليه وجرى معاينته، وفي مختلف الملذّات والمواقف المحرجة بشأن المقابلات الصحفية أيضًا.

"ورد هنا أنك رجل سعيد، ولطيف، وبسيط" بادلته توي الابتسامة والنظر إلى المجلة. "طويل القامة، وعريض المنكبين، وقبضته تمسك بك بحرارة، وترحب بك بصدق حدّ إيلامك"

"من ذاك؟"

"مجلة ستراند"

"آه. السيد كيف، على ما أذكر. لم يكن واحدًا من الرياضيين بالفطرة، كما ظننت في ذلك الوقت. إنها فِطنة كلب البودل. ماذا يقول عنكِ يا عزيزتي؟"

"يقول... أوه، أُفضّل عدم قراءة ما كتب"

"أُصر. أنت تعرفين كم أحب أن أراك تتوردين خجلاً"

"يقول... أنا "امرأة فاتنة""

وعند الإشارة، توردت، وغيرت الموضوع على عجل. "يقول السيد كيف، "يتصور الدكتور دويل دائمًا نهاية قصته أولاً، ويكتب عنها" أنت لم تخبرني بذلك يا آرثر"

"ألم أفعل؟ ربما لأن هذا واضح تمامًا. كيف يمكنك فهم البداية ما لم تعرفي النهاية؟ إنه منطقي تمامًا عندما تفكري فيه. ماذا يجب على صديقنا أن يقول لنفسه؟"

"أن تأتيك الأفكار في جميع الأوقات... عند المشي أو لعب الكريكت أو ركوب الدراجات أو لعب التنس. هل هذا هو الحال يا آرثر؟ هل هذا يفسر شرود ذهنك عند المغَازلة أحيانًا؟"

"ربما بدوت كالأحمق قليلاً"

"انظر.. ها هي ماري الصغيرة تقف على هذا الكرسي بالذات"

اتكأ آرثر. "إنه منقوش من إحدى صوري... هناك، كما ترين. لقد تأكدت من أنهم

وضعوا اسمي تحته"

أصبح آرثر عَلَمًا في الأوساط الأدبية. عدّ جيروم وباري كأصدقاء. كما التقى بميريديث وويلز. تناول العشاء مع أوسكار وايلد، فقد وجده متحضرًا ولطيفًا جدًا، لأسباب ليس أقلها إن الرجل قرأ وأعجب بمايكا كلارك[41]. يعتقد آرثر الآن أنه سيعمل مع هولمز لأكثر من عامين.. ثلاثة على الأكثر، قبل قتله. ثم سيركز على الروايات التاريخية التي يعرف أنها دائمًا أفضل ما يُجيده.

غمره شعور بالزهو بما حققه حتى الآن. تساءل عما إذا سيفخر أكثر لو أنه حقق نبوءة بارتريدج وقاد إنجلترا في لعبة الكريكت. لن يحدث هذا أبدًا، كما اتضح تمامًا. كان ضارب كرة جيدًا بذراعه اليمنى، وبإمكانه أن يضرب ببطء في مسار قد يُربِك بعضهم. قد يكون رجلًا جيدًا من جميع النواحي في نادي مرليبون للكريكت، لكن طموحه الأخير أصبح الآن أكثر تواضعًا... هو نقش اسمه على صفحات ويسدن.

أنجبت توي طفلًا أسموه ألين كينغزلي. تمنى ملء منزل بأسرته دائمًا. لكن أنيت المسكينة توفيت في البرتغال. بينما أصرت الأم على عنادها كما اعتادت دائمًا، مُحبّذة التمسك ببيتها الريفي في ملكية ذلك الشخص. لا يزال لديه أخوات وأطفال وزوجة. وشقيقه إينيس ليس بعيدًا في وولويتش، متأهبًا للحياة العسكرية. كان آرثر المُعيل، وربّ العائلة الذي استمتع بالصرف بسخاء وبشيكات على بياض. ارتدى رسميًا ملابس بابا نويل مرة واحدة في العام.

علم أن الترتيب الصحيح يجب أن يكون: الزوجة، الأطفال، الأخوات. منذ متى تزوجا... سبعة أعوام أو ثمانية؟ تمتعت توي في كل ما يرغبه أي رجل في الزوجة. كانت بالفعل امرأة فاتنة، كما ذكرت مجلة ستراند. هادئة وناضجة بكفاءة. منحته ابنًا وابنة. آمنت بكتابته حتى آخر كلمة، ودعمت جميع مشاريعه. إنه مُتيّم بالنرويج. ذهبا إلى النرويج معًا؛ لعشقه لها. أحبَّ حفلات العشاء، التي رتبتها تبعًا لذوقه. تزوجها مع احتمالات مفتوحة من الأفضل للأسوأ ومن الأغنى للأفقر. حتى الآن لم يصلا إلى ما هو أسوأ، وما هو أكثر فقرًا. وبعد.

---

41 (Micah Clarke) هي رواية مغامرات تاريخية لآرثر كونان دويل، نُشرت في عام 1889.

لو أنه صدق مع نفسه، لكان الأمر مختلفًا الآن. عندما التقيا، كان شابًا صعب المراس وغير معروف، أحبته ولم تتذمر منه أبدًا. مازال شابًا الآن، لكنه ناجح ومشهور. أمكنه الحفاظ على طاولة في نادي سافيل[42] مع جذب لدهاء المهتمين في كل ساعة. وجد موطئًا لقدميه -وبفضل الزواج جزئيًا- وعقله. نجاحه هو النتيجة المستحقة للعمل الشاق، لكن أولئك الذين لم يكونوا على دراية بالنجاح تخيلوها نهاية القصة. لم يكن آرثر مستعدًا إلى الآن لنهاية قصته. إذا كانت الحياة سعيًا للانتماء لطبقة الفرسان، فقد أنقذ جمال توي، وهزم المدينة، وكوفئ بالذهب. لكن تطلب الأمر أعوامًا قبل أن يتأهب لقبول دور كبير العائلة الحكيم. ماذا فعل الفارس الهائم عندما عاد إلى المنزل لزوجة وطفلين في جنوب نوروود؟

حسنًا، ربما لم يعد هذا سؤالًا صعبًا. وفّر الحماية لهم، وتصرف بشرف، وعلّم أطفاله قواعد العيش المناسبة. قد ينفذ المزيد من المهمات، على الرغم من وضوحها إلا أنها ليست من المهمات التي تنطوي على إنقاذ عائلات أخرى. سيواجه الكثير من التحديات في كتاباته، عن المجتمع والسفر والسياسة. من كان يعلم في أي اتجاه ستأخذه طاقاته المفاجئة؟ منح توي الاهتمام والراحة التي قد تحتاجها دائمًا، ولم يتسبب في تعاستها ولو لحظة.

وبعد.

جورج

يميل كل من غرينواي وستينتسون إلى التسكع معًا، لكن هذا لا يزعج جورج. في وقتِ الغداء، ليس لديه أي رغبة في ارتياد الحانة، مفضلًا الجلوس تحت شجرة في منطقة سانت فيليب وتناول الشطائر التي أعدتها والدته. يفضلها عندما يُطلب منه شرح بعض من جوانب قوانين تحويل الملكية، لكنه غالبًا ما يشعر بالحيرة من الطريقة التي ينطلقان

---

42 Savile Club هو نادي تقليدي للسادة في لندن تأسس في عام 1868، والعديد من أعضائه لهم اهتمام مشترك في الفنون.

بها في رحلات سرية حول الخيول، ومكاتب المراهنات، والفتيات، وقاعات الرقص. وهما مهووسان حاليًا في محمية بيتشواناالاند أيضًا، التي ذهب رؤساؤها في زيارة رسمية إلى برمنغهام.

علاوة على ذلك، عندما يتسكع معهما، فإنهما يفضلان استجواب زميلهما وإغاظته.

"جورج، من أين أتيت؟"

"غريت ويرلي"

"لا، من أين أتيت حقًّا؟" يفكر جورج مليًا في ذلك. "بيت الكاهن" هو يجيب، والسّفيهان يضحكان.

"هل لديك صديقة يا جورج؟"

"عذرًا؟"

"هل هناك بعض التعريفات القانونية التي لا تفهمها في السؤال؟"

"حسنًا، أعتقد أن كل شاب يجب أن يهتم بشؤونه الخاصة"

"أنت مُتجبّر مغرور يا جورج"

إنه موضوع تعلّق به كلٌّ من غرينواي وستينتسون بعناد وعلى نحو مثير للضحك.

"هل هي امرأة رائعة الجمال يا جورج؟"

"هل تبدو مثل ماري لويد - المغنية والكوميدية الإنجليزية؟"

عندما لا يجيب جورج، يتقارب رأساهما، ويرفعان قبعاتهما بزاوية، ويغنيان له. "الـ-ولد-الذي-أُحب-موجود-في-الـ-ر-وا-ق[43]"

"هيا يا جورج، أخبرنا باسمها"

"هيا يا جورج، أخبرنا باسمها"

بعد بضعة أسابيع من ذلك، لم يعد جورج يحتمل المزيد. إذا كان هذا هو ما يريدانه، فهذا ما يمكنهما الحصول عليه. "اسمها دورا تشارلزورث" ينطق فجأة.

"دورا تشارلزورث"، يردّدان. "دورا تشارلزورث، دورا تشارلزورث؟" إنهما يجعلان

---

43 (The Boy I Love Is Up in the Gallery) هي أغنية كتبها جورج وير عام 1885 لنجمة قاعة الموسيقى نيللي باور، واشتهرت بها ماري لويد.

الأمر يبدو غير محتمل بصورة متزايدة.

"إنها أخت هاري تشارلزورث صديقي"

يعتقد أن هذا سيخرسهما، لكن يبدو أنه شجعهما فقط.

"ما هو لون شعرها؟"

"هل قبّلتها، يا جورج؟"

"من أين أتت؟"

"لا ، من أين أتت حقًا؟"

"هل انتقيتها كحبيبة لك؟"

لا يبدو أنهما سئما من الموضوع.

"أقول جورج، هناك سؤال واحد يجب أن نطرحه عن دورا. هل هي زنجية؟"

"إنها إنجليزية، مثلي تمامًا"

"مثلك تمامًا يا جورج؟ مثلك تمامًا فحسب؟"

"متى يمكننا أن نلتقي بها؟"

"أراهن أنها فتاة من بيتشوانا(44)"

"هل نرسل مخبرًا خاصًا للتحقيق؟ ماذا عن ذلك الشخص الذي تستخدمه بعض مؤسسات الطلاق؟ يذهب إلى غرف الفنادق ويمسك الزوج مع الخادمة؟ لا تريد أن يقبض عليك هكذا يا جورج، أليس كذلك؟"

قرر جورج أن ما فعله، أو سمح بحدوثه، ليس كذبًا بحق، إنه مجرد السماح لهما بتصديق ما يرغبان في تصديقه، وهو أمر مختلف. لحسن الحظ، أنهما يعيشان في الجانب الآخر من برمنغهام، لذا في كل مرة ينطلق فيها قطار جورج من نيو ستريت، يترك تلك القصة بعينها وراءه.

في صباح يوم الثالث عشر من فبراير، كان غرينواي وستينتسون في مزاج مُتململ، مع ذلك جورج لم يكتشف السبب أبدًا. أرسلا بطاقة عيد الحب إلى الآنسة دورا تشارلزورث

44 بوتسوانا أو جمهورية بوتسوانا هو بلد يقع جنوب الصحراء الكبرى في أفريقيا الجنوبية. هي محمية بريطانية سابقة تعرف باسم بيتشوانا لاند.

على العنوان غريت ويرلي في ستافوردشاير. مما يثير حيرة كبيرة لساعي البريد، وأكثر من ذلك لهاري تشارلزورث، التوّاق لأخت على الدوام.

يجلس جورج في القطار، فاتحًا جريدته على ركبته. بينما حقيبته في الجزء الأعلى والأوسع من الرفوف المشبكة أعلى رأسه، قبعته في الرف السفلي والأضيق، والمخصص للقبعات والمظلات والعصي والطرود الصغيرة. يفكر في الرحلة التي يتعين على الجميع القيام بها في الحياة. الأب، على سبيل المثال، بدأ في بومباي البعيدة، في الطرف البعيد لإحدى فقاعات سلالات الإمبراطورية. هناك تربى، واهتدى إلى المسيحية. كما كتب قواعد اللغة الكوجراتية التي موّلت انتقاله إلى إنجلترا. درس في كلية القديس أوغستين في كانتربيري، وعيّنه الأسقف ماكارنس كاهنًا، ثم خدم ككاهن رعية في ليفربول قبل أن يجد أبرشية في ويرلي. إنها رحلة عظيمة بكل المقاييس، ويعتقد جورج من منظوره أنها بلا شك لن تكون واسعة النطاق. ربما أقرب عن كثب إلى الأم: من أسكتلندا حيث ولدت إلى شروبشاير، كان والدها كاهنًا في كيتلي على مدى تسعة وثلاثين عامًا، ثم إلى ستافوردشاير المجاورة، حيث زوجها، إن حفظه الرّب، قد يثبت بالقدر نفسه في الخدمة لفترة طويلة. هل ستتحول برمنغهام إلى الوجهة النهائية لجورج أم أنها مجرد نقطة انطلاق؟ لا يستطيع أن يقرر حتى الآن.

بدأ جورج يرى نفسه كقروي لديه بطاقة اشتراك في القطار، وأكثر من هذا كمواطن مُرتقب في برمنغهام. قرر أن يطلق شاربه، كبرهان على هذا الوضع الجديد. يستغرق الأمر وقتًا أطول مما يتخيل، مما يسمح لغرينواي وستينتسون بالسؤال مرارًا وتكرارًا عما إذا كانت لديه الرغبة في أن يلتقيا به، وأن يبتاعا له عبوة من مقوي الشعر. حين ينمو شاربه ويغطي في النهاية كامل مداه لشفته العليا، يبدآن في مناداته باسم مانشو.

عندما يضجران من هذه الدعابة، يعثران على أخرى.

"أقول يا ستينتسون، هل تعرف بمن يذكرني جورج؟"

"أعطني مفتاحًا للغز"

"حسنًا، أي مدرسة ارتاد؟"

"جورج، أي مدرسة ارتدت؟"

"أنت تعلم جيدًا يا ستينتسون"

"أخبرني لا فرق عندي يا جورج"

يرفع جورج رأسه من قانون نقل ملكية الأراضي لعام ألف وثمانمئة وسبعة وتسعين ونتائجه على إيرادات العقارات. "روغيلي"

"فكّر في الأمر يا ستينتسون"

"روغيلي. وصلت إلى هناك الآن. انتظر قليلاً.. هل يمكن أن يكون وليام بالمر.. الطبيب والقاتل المتسلسل...؟"

"بالضبط، إنه أمير السموم!"

"أي مدرسة ارتاد يا جورج؟"

"أنتما تعلمان جيدًا، يا رفيقاي"

"هل أعطوا كل تلميذ دروسًا في السم هناك؟ أم الأولاد الأذكياء فقط؟"

قَتل بالمر زوجته وشقيقه بعد التأمين على حياتهما بمبالغ طائلة، وكيل مراهنات كان مدينًا له. ربما عُثر على ضحايا آخرين، لكن الشرطة اقتنعت باستخراج جثث أقرب الأقرباء فقط. توفرت الأدلة الكافية لضمان تنفيذ حكم إعدام علني بحق المُسمِّم (أمير السموم) في ستافورد أمام حشد من خمسين ألف شخص.

"هل كان لديه شارب مثل جورج؟"

"تمامًا مثل جورج"

"أنت لا تعرف شيئًا عنه، غرينواي"

"أعرف أنه ذهب إلى مدرستك. هل وُضع على لوحة الشرف؟ كخرّيج معروف وما إلى ذلك؟"

يتظاهر جورج بوضع إبهاميه في أذنيه.

"في الواقع، فيما يخص المُسمّم يا ستينتسون، إنه شيطان ذكي. لم يكن الادعاء قادرًا تمامًا على تحديد نوع السم الذي استخدمه"

"شيطان ذكي. هل تعتقد أنه رجل شرقي، هذا البالمر؟"

"قد يكون من محمية بيتشوانالاند. لا يمكنك أن تحدد دائمًا من اسم شخص ما،

هل يمكنك يا جورج؟ وهل سمعت أن بلدة روغيلي أرسلت بعد ذلك تفويضًا إلى اللورد بالمرستون في داوننغ ستريت؟ لقد أرادوا تغيير اسم بلدتهم بسبب العار الذي جلبه المُسمِّم. فكّر رئيس الوزراء في طلبهم للحظة وأجاب: "ما الاسم المقترح.. بلدة بالمرز؟""

يسود الصمت. "أنا لست معك"

"لا، لا بلدة بالمرز. بلدة..بال..مرز"

"آه! والآن أصبح هذا مسليًا للغاية يا غرينواي"

"حتى صديقنا مانشو تنفرج أسنانه تحت شاربه ليضحك"

ولأوّل مرة، فاق الأمر قدرة جورج على الاحتمال. "ارفع كمّك يا غرينواي"

تكلّف غرينواي ابتسامة. "لأجل ماذا؟ هل ستضربني؟"

"ارفع كمّك"

ثم يفعل جورج الشيء نفسه، ويبقي ذراعه بجوار ذراع غرينواي، الذي عاد لتوه منذ أسبوعين قضاهما في تشميس نفسه في آبريستويث. أصبح لجلديهما اللون ذاته. ينتظر غرينواي بلا حياء، تعليق جورج، لكن جورج شعر أنه قد أوضح وجهة نظره، وبدأ إدخال الزر في عروة زند كُمّه مرة أخرى.

"ماذا كان ذلك؟" يسأل ستينتسون.

"أعتقد أن جورج يحاول إثبات أنني مُسمِّم أيضًا"

آرثر

ذهبا مع كوني في جولة أوروبية. كانت أنثى صلبة، فهي المرأة الوحيدة التي لم تصب بدوار البحر على معبر النرويج. هذه المناعة أثارت حنق النساء الأخريات. ولعل جمالها اللافت أغضبهن أيضًا: قال جيروم إن من الممكن لكوني أن تتظاهر بأنها برونهيلد[45]. خلال تلك الرحلة، اكتشف آرثر أن شقيقته، مع خطواتها الخفيفة الراقصة، وشعرها

---

45 (Brünnhilde) هي شخصية نسائية قوية من الأسطورة البطولية الجرمانية.

الكستنائي المُنسدل على ظهرها كمِجسّات قنديل البحر البرتغالي، انجذب إليها أكثر الرجال غير المناسبين: أزوار النساء ولاعبو الورق المحتالون والمطلقون المتملقون. اضطر آرثر إلى رفع عصاه على بعضهم غالبًا.

عند عودتها إلى المنزل، برز أنها ركزت عينها على شخص حسن المظهر أخيرًا: إرنست ويليام هورننغ، البالغ من العمر ستة وعشرين عامًا، طويل القامة، وأنيق، ومريض ربو، حارس ويكيت جيد في لعبة الكريكت، ومن حين لآخر رامي كرة يدور بسرعة. حسن الخلق، فيما لو تحمّل المسؤولية مع أقل قدر من التشجيع. أدرك آرثر أنه سيصعب عليه الموافقة على أي شخص يفكر في الارتباط بلوتي أو كوني، ولكن على أي حال، كان من واجبه ككبير العائلة أن يستجوب شقيقته.

"هورننغ. من هو هذا هورننغ؟ نصف مغولي، ونصف سلافي، من صوته. ألا يمكنك العثور على شخص بريطاني أصيل؟"

"ولد في ميدلزبرة. والده محام. ذهب إلى أبنغهام"

"هناك شيء غريب فيه. أستطيع أن أشمّه"

"عاش في أستراليا لثلاثة أعوام. بسبب الربو. ربما ما يمكنك شمّه هو رائحة أشجار اللبان"

كبت آرثر ضحكة. كوني هي الأخت التي وقفت في وجهه. ولوتي هي الأثيرة على قلبه، لكن كوني هي من أحب أن تؤنبه وتفاجئه. شكر الرّب أنها لم تتزوج والر. والشيء ذاته بالأحرى حدث مع لوتي.

"وماذا يفعل، هذا الرجل من ميدلزبرة؟"

"إنه كاتب، مثلك آرثر"

"لم أسمع به قط"

"لقد كتب عشرات الروايات"

"عشرات! لكنه مجرد غرٌّ صغير" غرٌّ كادحٍ، على الأقل.

"يمكنني إعارتك واحدة من رواياته إذا رغبت في الحكم عليه بهذه الطريقة. لدي

-المجموعة القصصية- تحت سمائين[46] وزعيم تارومبا[47] الكثير من أحداثها تقع في أستراليا، وأراها إنجازًا كبيرًا"

"هل أنتِ من يراها هكذا فقط يا كوني؟"

"لكنه يدرك أنه من الصعب كسب الرزق من كتابة الروايات؛ لذا فهو يعمل كصحفي أيضًا"

"حسنًا، إنه الاسم الذي التصق به"، نخر آرثر ثم أعطى كوني الإذن لتقديم الرجل للأسرة. في الوقت الحالي منحه فائدة الشك من خلال عدم قراءة أي من كتبه.

حلّ الربيع باكرًا ذاك العام، وخُطّط ملعب التنس مع نهاية شهر إبريل. سمع آرثر من مكتبه صوتًا بعيدًا لطقطقة مضرب على كرة، وصراخًا مزعجًا مألوفًا صادرًا من إحدى النساء أضاعت تسديدة سهلة. في وقت لاحق، هام على وجهه في الخارج حيث كوني ترتدي تنورة فضفاضة، وويلي هورننغ مع قبعة من القش وبنطال أبيض واسع من الأعلى يضيق نزولًا. تَنبّه إلى طريقة هورننغ في اللعب معها إذ لم يمنحها أي نقاط سهلة، ولكنه في الوقت نفسه تأخر عن تسديدة كاملة. اتفق معه: أن هذه هي الطريقة التي يجب أن يلعب بها الرجل مع المرأة.

جلست توي على طرف كرسي الاسترخاء القابل للطي الأقل حرارة من أشعة الشمس الشحيحة في أوائل الصيف من حرارة العِشق. بدت ثرثرة ضحكاتهما عبر الشبكة، وخجلهما من بعضهما في ما بعد تسعدها، وبالتالي قرر آرثر كسبها. في الحقيقة، فضّل دور ربّ الأسرة على مضض. وفي بعض الأحيان، برهن هورننغ أنه شخص ظريف. وربما ظريف جدًا، ولكن يمكن أن يعزى ذلك إلى الشباب. ماذا كانت دعابته الأولى؟ نعم، حين قرأ آرثر الصفحات الرياضية، علّق على قصة يُنسب فيها لعدّاء إتمامه المئة ياردة في عشر ثوانٍ فقط.

"ما رأيك في هذا يا سيد هورننغ؟"

ردّ هورننغ سريعًا، "يجب أن يكون خطأ العدّاء"

دُعي آرثر لإلقاء محاضرة في شهر أغسطس في سويسرا. كانت توي لا تزال واهنة

---

46 (Under Two Skies)

47 (The Boss of Taroomba)

بعض الشيء من ولادة كينغزلي؛ لذا رافقهم هورننغ طبعًا. زاروا شلالات رايشنباخ الرائعة والمرعبة في الوقت ذاته، وقبر هولمز الذي يستحق الزيارة. تحوّل الرجل بسرعة إلى رجل عجوز في البحر، مُتشبّثًا برقبة آرثر. وبمساعدة أحد الأشرار اللدودين، نفض عبء رفقته عن كاهله.

سار آرثر مع كوني في ممر الكنيسة في نهاية شهر سبتمبر، وهي تسحب ذراعها بقوة أكبر مما يلزم ضاربة إياه بوتيرة عسكرية. حين سلمها رمزيًا على المذبح، أدرك أن عليه أن يفخر ويفرح بها. لكن وسط كل أزهار البرتقال والمجاملات والنكات عما قبل الزواج، شعر بحلمه في تكوين أسرة كبيرة من حوله آخذًا في طَرق بابه.

علم أن والده توفي في مستشفى دومفريس للأمراض العقلية بعد عشرة أيام. قُدّم داء الصرع على أنه السبب. لم يزره آرثر منذ أعوام، ولم يحضر الجنازة، كما لم يفعل أي من أفراد العائلة. خذل تشارلز دويل الأم، وحكم على أطفاله بالفقر المدقع. كان ضعيفًا وجبانًا، غير قادر على كسب معركته مع الخمور. قاتَل؟ بالكاد رفع قفازيه في وجه الشيطان. التُمِست له الأعذار من حين لآخر، لكن آرثر لم يعد يجد ادعاء مزاجه الفني الإبداعي مقنعًا. رأى أنه مجرد انغماس في الذات وتبرئة لها. رأى أنه من الممكن أن يصبح فنانًا متمكنًا، ومع ذلك وجب عليه أن يكون قويًا ومسؤولاً.

أصيبت توي بسعال الخريف المزمن، واشتكت من آلام في جنبها. حكم آرثر على الأعراض أنها غير مهمة، ولكنه في النهاية استدعى الطبيب المحلي دالتون. بدا من الغريب أن يتحول من طبيب إلى مجرد زوج لمريضة. ومن الغريب أن ينتظر في الطابق السفلي، وفي مكان ما فوق رأسه تقرر مصيره. أُغلق باب حجرة النوم لفترة طويلة، وبرز دالتون كما عُرف بوجهه الكئيب: الوجه ذاته ارتداه آرثر بنفسه مرات عدة.

"تأثرت رئتاها تأثرًا خطيرًا. هناك دلالات على مرض السل السريع. نظرًا لحالتها وتاريخ الأسرة.." لم يكن الدكتور دالتون في حاجة إلى المتابعة، عدا عن إضافة المزيد، "سنحتاج إلى رأي ثانٍ"

ليس ثانيًا فقط، ولكن أفضل. دوغلاس باول، نزل الطبيب الاستشاري في مستشفى برومبتون للسل وأمراض الصدر، إلى جنوب نوروود يوم السبت التالي. رجل باهت وزاهد

وأنيق ومُنضبِط. أكد باول التشخيص مع الأسف.

"على ما أعتقد أنك طبيب سيد دويل؟"

"ألوم نفسي لعدم انتباهي"

"الجهاز التنفسي لم يكن اختصاصك؟"

"العينان"

"إذن يجب ألا تلوم نفسك"

"لا، وعلاوة على ذلك، لدي عينان، ولم أرَ. أنا لم أرَ الميكروب اللعين. لم أعره ما يكفي من الاهتمام. كنت مُنغمسًا.. بنجاحي"

"لكنك طبيب عيون"

"ذهبت إلى برلين قبل ثلاثة أعوام لنقل نتائج كوك -النتائج المفترضة- عن هذا المرض بالتحديد. لقد كتبت عن ذلك لستيد، في ريفيو أوف ريفيو"

"أتفهم"

"ومع ذلك، لم أكتشف حالة داء السل المتفشية عند زوجتي. والأسوأ من ذلك، أني سمحت لها بمشاركتي في الأنشطة التي زادت الأمر سوءًا. نركب دراجة ثلاثية العجلات في جميع أحوال الطقس، سافرنا إلى مناخات باردة، وتبعتني في الرياضات الخارجية.."

"من ناحية أخرى"، قال باول، ورفعت الكلمات معنويات آرثر لفترة وجيزة: "في رأيي، هناك علامات واعدة لنمو الورم الليفي حول موضع المرض. وتضخمت الرئة الأخرى إلى حد الاستبدال. لكن هذا هو أفضل ما يمكنني قوله"

"لن أُسلّم بذلك!" همس آرثر بهذه الكلمات؛ لأنه لا يستطع رفع صوته.

لم ير باول في ذلك أي إساءة. لقد اعتاد على التفوه بأكثر العبارات لطفًا وقوة للحكم بالموت، وهو على دراية بالطرق التي تأثر بها هؤلاء المتضررون. "بالطبع. إذا رغبت في ذِكر.."

"لا. أقبل ما قلته لي. لكنني لا أقبل ما لم تخبرني به. ستُمهلها بضعة أشهر"

"أنت تعلم جيدًا كما أعلم يا سيد دويل، مدى صعوبة التنبؤ.."

"أعلم جيدًا كما تعلم أنت يا دكتور باول، الكلمات التي نستخدمها في إعطاء الأمل لمرضانا والمقربين منهم. وكذلك أعرف الكلمات التي يتردد صداها داخل أنفسنا، ونحن

نسعى إلى رفع معنوياتهم. حوالى ثلاثة أشهر"

"نعم، من وجهة نظري"

"إذن مرة أخرى، أخبرك لن أُسلّم بذلك. حين أُبصر الشيطان، سأشن حربًا عليه. أينما نحتاج أن نذهب، مهما كلفني الأمر، لن أُسلّمها له"

"أتمنى لك الحظ الجيد"، أجاب باول: "وأنا في خدمتك. ومع ذلك، هناك شيئان أنا مضطر أن أصرح بهما. يبدوان غير ضروريان، لكني ملزم. أثق في أنك لن تشعر بالمهانة"

شدّ آرثر ظهره، مثل جندي مستعد للأوامر.

"لديك أطفال كما أعتقد؟"

"اثنان، صبي وبنت. تتراوح أعمارهما بين عام وأربعة أعوام"

"هناك ما يجب أن تفهمه، لا يوجد أي احتمال.."

"فهمت"

"أنا لا أتحدث عن قدرتها على الحَمْل.."

"سيد باول، أنا لست أحمق. ولست فظًا"

"هذه الأمور يجب أن تظلّ واضحة جدًا كالكريستال، عليك أن تتفهم. المسألة الثانية هي ربما أقل وضوحًا. إنه التأثير -التأثير المحتمل- على المريض. بالنسبة للسيدة دويل"

"نعم؟"

"من تجربتنا، يختلف داء السل عن أي مرض عضال آخر. في كثير من الأحيان، يعاني المريض من ألم خفيف جدًا. غالبًا ما يستمر المرض مع ألم أقل من وجع الأسنان أو عسر الهضم. ولكن ما يميزه هو التأثير على العمليات العقلية. غالبًا ما يكون المريض متفائلاً للغاية"

"أتعني مصابًا بالدوار؟ أو الهذيان؟"

"لا، أقصد متفائلاً. أود أن أقول هادئًا ومبتهجًا"

"بسبب العقاقير التي تصفها؟"

"لا على الإطلاق. إنها طبيعة المرض. بغض النظر عن مدى إدراك المريض لخطورة حالته"

"حسنًا، هذا أمر يبعث على الارتياح الشديد بالنسبة لي"

"نعم، في البداية قد يكون الأمر كذلك، سيد دويل"

"ما الذي تعنيه بهذا؟"

"أعني أنه حين لا يعاني المريض ولا يتذمر ويبقى مبتهجًا في مواجهة مرض خطير، فإن المعاناة والشكوى يجب أن تكونا من نصيب شخص آخر"

"أنت لا تعرفني يا سيدي"

"هذا صحيح. ومع ذلك أتمنى لك الشجاعة اللازمة"

للأفضل وللأسوأ وللثراء وللفقر. لقد نسي: في المرض وفي الصحة.

أرسل مستشفى الأمراض العقلية لآرثر كراسة رسم والده. أمضى تشارلز دويل سنواته الأخيرة بائسًا، فقد رقد غير مرغوب فيه في مأواه الأخير القاتم، لكنه لم يمت مجنونًا. كان ذلك واضحًا جدًا: لقد استمر في التلوين بالألوان المائية والرسم، واستمر في كتابة مذكراته أيضًا. لقد صُدم آرثر الآن أن والده كان فنانًا كبيرًا، استخفّ به أقرانه، واستحق بالفعل معرضًا بعد وفاته في إدنبرة.. ربما حتى في لندن. لم يتمكن آرثر من التفكير في التباين بين مصيريهما: بينما استمتع الابن باحتضان الشهرة والمجتمع، لم يعرف والده المنبوذ إلا احتضان سترة المجانين عرضيًا. لم يشعر آرثر بالذنب.. مجرد بوادر من تعاطف الأبناء. وهناك جملة واحدة في مذكرات والده من شأنها أن تفطر قلب أي ابن. لقد كتب: "أعتقد أنني وُصمت بالجنون؛ لسوء في فهم النكات الأسكتلندية فحسب"

في ديسمبر ذاك العام، لقي هولمز حتفه على يدي عدوّه اللدود في القصص، موريارتي، كلاهما دفعته إلى الهاوية يد مؤلف نافد الصبر. لم تتضمن صحف لندن أي نعي لتشارلز دويل، لكنها امتلأت بالاحتجاج والفزع عند وفاة محقق جرائم خيالي غير موجود، بدأت شعبيته في إحراج مؤلفه وحتى استفزازه. بدا لآرثر أن العالم يتجه للجنون: وُورِي جثمان والده الثرى حديثًا، وحُكِم على زوجته بالموت، لكن يبدو أن شباب المدينة ربطوا عُصابات الكريب بقبعاتهم في حدادٍ على السيد شارلوك هولمز.

وقع حدث آخر خلال نهاية هذا العام الكئيب. بعد شهر من وفاة والده، تقدم آرثر بطلب للانضمام إلى جمعية البحوث النفسية.

جورج

نال جورج مرتبة الشرف الثانية في اختبارات المحامين النهائية، وحصل على الميدالية البرونزية من جمعية برمنغهام للمحاماة. افتتح مكتبًا في 54 شارع نيوهول، مع وعد مبدئي ببعض الأعمال الفائضة من سانغستر وفيكيري آند سبايت. إنه في الثالثة والعشرين من عمره، والعالم يتغير من حوله.

رغم أنه نشأ كطفل في بيت الكاهن، وحرص الأبناء على الإصغاء لمنبر القديس مارك، فقد شعر جورج في كثير من الأحيان أنه لا يفهم الكتاب المقدس. ليس كلّه، معظم الوقت، وفي الواقع ما لا يكفي منه، كافٍ في ذلك الوقت، بما يتوفّر من الوقت. كانت هناك قفزات يجب القيام بها دائمًا، من الحقيقة إلى الإيمان، ومن المعرفة إلى الإدراك، وهو ما أثبت أنه عاجز عنه. هذا ما يجعله يشعر بالعار. أصبحت مبادئ كنيسة إنجلترا بعيدة المنال أكثر فأكثر. لا يشعر بها كحقائق قريبة، أو صالحة للعمل بها من يوم لآخر، ومن لحظة إلى أخرى. بطبيعة الحال، لم يخبر والديه بهذا.

عُرِضت أمامه قصص إضافية وتفسيرات للحياة في المدرسة. هذا ما يقوله العلم، وهذا ما يقوله التاريخ، وهذا ما يقوله الأدب.. أصبح جورج بارعًا في الإجابة على أسئلة الامتحان عن هذه الموضوعات، حتى لو افتقر لأي حيوية حقيقية في ذهنه. لكنه الآن اكتشف القانون، وأخيرًا بدأ العالم في اكتساب معنى له. تكشف الروابط غير المرئية -بين الناس، وبين الأشياء، وبين الأفكار والمبادئ- إلى الآن تدريجيًا عن نفسها.

على سبيل المثال، هو في القطار بين بلوكسويتش وبيرشيلز، وينظر من النافذة إلى الوشيع الشجيري. لن يرى ما سيراه الركاب -بضع شجيرات مُلتفّة تشابكت بفعل الرياح، مِوطنًا لبعض أعشاش الطيور- ولكن بدلًا من ذلك، تشكل حدودًا رسمية بين مالكي الأراضي أو ترسيم حدود بموجب عقد أو الاستخدام الطويل، شيء قائم فعلًا، شيء عرضة لتعزيز الوئام أو النزاع. يرى الخادمة تنظف طاولة المطبخ في بيت الكاهن، وبدلًا من الفتاة الفظة والخرقاء التي من المحتمل أن تضع كتبه في غير محلها، يتفحص عقد عملها وخدمة الرعاية، وهو ارتباط معقد وحساس في آنٍ واحد، مدعومًا بقرون من السوابق القضائية،

كل هذا غير مألوف للأطراف المعنية.

يشعره القانون بالثقة والسعادة. فهو يحتوي على قدر كبير من التفسير النصّي، لشرح كيف يمكن للكلمات أن تحمل معانيَ متباينة، وعلى الأغلب توجد العديد من كتب شرح القانون كما هي في الكتاب المقدس. ولكن في النهاية، بالإضافة إلى ذلك لا توجد قفزة أخرى يجب القيام بها. في النهاية، لديك اتفاق وقرار عليك أن تمتثل له، وإدراك ما يعنيه شيء ما. إنها رحلة من الارتباك إلى الوضوح. يكتب بحّار مخمور وصيته الأخيرة على بيضة نعامة، يغرق البحّار وتنجو البيضة، وبناءً عليه، يعيد القانون الترابط والعدالة لكلماته الغارقة في البحر.

يوزع الشباب الآخرون حياتهم بين العمل والمتعة. في الواقع، في إنفاق الحلم السابق من هذا الأخير. يوفر القانون كليهما لجورج. ليست لديه الحاجة أو الرغبة في المشاركة في الأنشطة الرياضية، أو ركوب القوارب، أو ارتياد المسارح، وغير مهتم في الشرب أو تناول الطعام، أو في سباقات الخيول، لكن يخالجه قدر ضئيل من الرغبة في السفر. لديه تدريباته، وبين يديه قانون السكك الحديدية. من المثير للدهشة أن عشرات الآلاف ممن يسافرون يوميًا في القطار لا يملكون كُتيبًا في جيب كل مقعد، يساعدهم على توضيح حقوقهم أمام شركة السكك الحديدية. وقد كتب إلى السادة إيفينغهام ويلسون ناشري سلسلة "كتب ويلسون القانونية المفيدة"، واستنادًا إلى نموذج من فصل قبلوا عرضه.

شبّ جورج على الإيمان بالعمل الجاد، والصدق والادخار والإحسان وحب الأسرة. أن نؤمن أن الفضيلة هي مكافأة بحدّ ذاتها أيضًا. علاوة على ذلك، بصفته الابن البكر، من المتوقع أن يكون قدوة لهوراس ومود. بينما يساوي والديه بين أطفالهما الثلاثة في الحب، يتنامى إدراك جورج أن أثقل الآمال تقع على كاهله. من المرجح أن تكون مود مصدر قلق دائمًا. رغم أن هوراس من جميع النواحي الشخص المحترم جدًا، لم يستثنَ كطالب منحة دراسية أبدًا. غادر المنزل، وبمساعدة ابن عم والدته، تمكن من دخول الخدمة المدنية في أدنى مستوى كهنوتي.

لا يزال جورج يقبض على نفسه في لحظات حاسدًا هوراس، الذي يعيش الآن في حفريات مانشستر، وبين الحين والآخر يرسل بطاقة بريدية مبهجة من منتجع على الشاطئ.

ولحظات تمنى فيها أن دورا تشارلزورث موجودة بالفعل أيضًا. لكنه ليس على دراية بالفتيات. لم تأت أي منهن إلى المنزل. لا يوجد لمود صديقات من الجنس اللطيف قد يتدرب على معرفتهن. أحب كلًا من غرينواي وستينتسون التباهي بخبرتهما في مثل هذه الأمور، لكن جورج غالبًا ما شكّك في ادعاءاتهما، ويسعده أنه ابتعد عنهما. حين يجلس على مقعده في منطقة سانت فيليب مُلتهمًا شطائره، يلقي نظرة إعجاب خاطفة على النساء الشابات العابرات. يتذكر وجه إحداهن أحيانًا، ويتوق إليه في الليل، في حين يتذمر والده ويشخر على بُعد أقدام قليلة. جورج على دراية بخطايا الجسد، كما هي مذكورة في رسالة بولس لأهل غلاطية، الفصل الخامس.. فهي تبدأ بالزنا والعهر والدنس والمجون. لكنه لا يعتقد أن أشواقه الصامتة الهادئة تندرج تحت أي من العنوانين الأخيرين.

في يوم ما سيتزوج. لن يحصل على ساعة جيب فقط ولكن على شريكة شابة أيضًا، وربما محامية متدربة، وبعد ذلك زوجة وأطفال صغار، ومنزل لشرائه سخّر جميع مهاراته في مجال قوانين نقل الملكية. يتخيل نفسه وهو يناقش خلال مأدبة الغداء، قانون بيع السلع لعام ألف وثمانمئة وثلاثة وتسعين مع كبار شركاء مكاتب محاماة برمنغهام الأخرى. إنهم يصغون باحترام إلى ملخصه عن كيفية تفسير القانون، ويصرخون "جورج العجوز الطيب!" عندما يصل إلى هذه النقطة. إنه غير متأكد من كيفية الوصول إلى هناك بالضبط من هنا: سواء أكنت ستحصل على زوجة ثم منزل أم منزل ثم زوجة. لكنه يفترض أن ذلك يحدث، عبر عملية لم يكشف عنها بعد. يمكن الحصول على كلا المكسبين، سوف يعتمد على مغادرته ويرلي، بطبيعة الحال. لم يسأل والده عن هذا. كما أنه لم يسأله لماذا لا يزال يغلق باب حجرة النوم ليلًا.

عندما غادر هوراس المنزل، تأمل جورج في أن ينتقل إلى الحجرة الفارغة. المكتب الصغير الذي رُكّب له في غرفة مكتب الأب عندما ذهب إلى كلية ماسون لأول مرة لم يعد مناسبًا. كما تصوّر حجرة هوراس مع سريره ومكتبه فيها، وتخيّل الخصوصية. لكن حين تقدم بطلبه إلى والدته، أوضحت بلطف أنها ترى مود الآن قوية بما يكفي لتنام وحدها، وأن جورج لا يريد أن يحرمها تلك الفرصة، أليس كذلك؟ أدرك أن الأوان قد فات على تقديم إثبات أن شخير الأب قد زاد سوءًا، وأبقاه مستيقظًا أحيانًا. لذا يواصل العمل، والنوم

على مسافة قريبة من والده. ومع ذلك، فقد حصل على طاولة صغيرة إلى جانب مكتبه، وضع كتبًا إضافية عليها.

لا يزال متمسكًا بعادة المشي في الأزقة، التي أصبحت الآن ضرورة لساعة أو نحو ذلك بعد عودته من المكتب. إنه تفصيل من حياته التي لن يخطط لها. يحتفظ بزوج من الأحذية طويلة الرقبة القديمة إلى جانب الباب الخلفي، مهما ساءت حالة الطقس، فإن جورج يذهب في جولته. يتجاهل المناظر الطبيعية التي لا تعنيه، وحتى زمجرة الحيوانات الضخمة التي تسكنها. أما البشر، سيفكر من حين لآخر في أن يتعرف على شخص ما من مدرسة القرية في أيام السيد بوستوك، لكنه غير متيقن أبدًا. مما لا شك فيه أن فتية المزارع كبروا وأصبحوا عمال مزارع الآن، وأبناء عمال المناجم أسفل المنجم. يلقي جورج نصف تحية في بعض الأيام، رافعًا رأسه لكل من يلتقيه، وفي أحيان أخرى لا يُسلّم على أحد، حتى لو تذكّر أنه عبّره في اليوم السابق.

في إحدى الليالي، تأخرت جولته بسبب رؤية طرد صغير على طاولة المطبخ. يدرك على الفور ما يحتويه من حجمه ووزنه وختم بريد لندن. إنه يريد تأخير اللحظة لأطول فترة ممكنة. فكّ عقدة الخيط ولفه بعناية حول أصابعه. ينزع الورق البني المشمع ويُملّس عليه لإعادة استخدامه. تتحمّس مود الآن للغاية، وحتى والدته تظهر القليل من الصبر. يفتح الكتاب على صفحة العنوان:

قانون السكك الحديدية

عن

"ركّاب القطارات"

موجز معد كدليل لعامة المسافرين يحوي جميع الإجابات
عن الإشكالات التي قد تنشأ في التعامل مع شركة السكك الحديدية

بواسطة

جورج إي. تي. إدالجي

المحامي

امتياز الدرجة الثانية، اختبار المحاماة النهائي، نوفمبر، *1898*؛
الميدالية البرونزية لجمعية برمنغهام للمحاماة، *1898*

لندن
إيفنغهام ويلسون
التبادل الملكي
1901
{ سُجل في قاعة القرطاسية }

تصفّح المحتويات واللوائح الداخلية وصلاحيتها. تذاكر الموسم. الإخلال بمواعيد القطارات وغير ذلك. الأمتعة. نقل العربات. الحوادث. بعض النقاط المتنوعة. يعرض على مود الحالات التي بحثوها في الغرفة الصفيّة مع هوراس. هنا حالة عن السيد بايل السمين. وهنا عن البلجيكيين وكلابهم.

كما يدرك أن اليوم هو الأكثر فخرًا في حياته، وعلى العشاء، من الواضح أن والديه يسمحان له بقدر ما من الفخر مُبرَّرًا ومسيحيًا. لقد درس واجتاز اختباراته. أسس مكتبه الخاص، وأظهر لنفسه الآن سلطة على جانب من جوانب القانون، وهو أمر مفيد عمليًا لكثير من الأشخاص. إنه ماضٍ في طريقه: بدأت الآن تلك الرحلة في الحياة حقًا.

يتجه إلى هورنيمان آند كو للحصول على بعض النشرات المطبوعة. يناقش التصميم، وخط الطباعة، وعدد النسخ المطبوعة مع السيد هورنيمان نفسه، من شخص محترف لآخر. بعد أسبوع، أصبح مالكًا لأربعمئة إعلان عن كتابه. يترك ثلاثمئة في مكتبه، لا يرغب في الظهور بمظهر المغرور، ويأخذ مئة للمنزل. يُغري نموذج الطلب المشترين المهتمين بإرسال طلب بريدي لـ 3/2 -الثالث لتغطية رسوم البريد- إلى 54 شارع نيوهول برمنغهام. يقدم قليلاً من النشرات إلى والديه مع تعليمات، يدفعون بها عند البحث عن الرجال والنساء على الأرجح "في القطار". في صباح اليوم التالي، يعطي ثلاث نسخ إلى مدير المحطة في غريت ويرلي آند تشيرشبريدج، ويوزع البقية على رفاقه المسافرين المحترمين.

آرثر

وضعا الأثاث في المخزن وتركا الأطفال مع السيدة هوكينز. من الضباب والرطوبة في لندن إلى البرد الناشف والنظيف في دافوس، حيث أُجلست توي في فندق كورهاوس تحت كومة من البطانيات. كما تنبأ الدكتور باول، جلب المرض معه تفاؤلاً غريبًا. هذا جنبًا إلى جنب مع طبيعة توي الهادئة، لم تجعلها مجرد رزينة بل فرحة أيضًا. كان من الواضح تمامًا أنها قد تحولت في غضون أسابيع قليلة من زوجة ورفيقة إلى عاجزة وعالة، لكنها لم تشعر بالقلق من حالتها، ناهيك عن الغضب كما فعل آرثر. لقد استبد الغضب في كل منهما من تلقاء نفسه بصمت. كما أخفى مشاعره المتشائمة. كل سعلة بثّت الألم، ليس فيها وحسب بل فيهما معًا. لقد تقيأت القليل من الدم، ما أثار لديه نوبات الشعور بالذنب.

مهما كان خطؤه، وبغض النظر عن إهماله، فقد حدث ما حدث، وليس هناك إلا

سبيلاً واحدًا للعمل: هجوم عنيف على الميكروب الملعون الذي اعتزم التهام أعضائها الحيوية. وعند عدم الحاجة إلى وجوده، عَثر على سبيل واحد للإلهاء فقط: رياضة عنيفة. أحضر زلاجاته النرويجية إلى دافوس، وتلقى تدريبات على استخدامها من شقيقين من عائلة برانغر. عندما بدأت مهارة تلميذهم في مضاهاة عزيمته الشرسة، أخذوه لتسلق جبل ياكوبشورن في سويسرا. استدار على القمة، ورأى في الأسفل بعيدًا أعلام المدينة التي أجمعوا على خفضها. في وقت لاحق من ذلك الشتاء، قاده البرانغر عبر ممر فوركا الجبلي على ارتفاع تسعة آلاف قدم. انطلقوا الساعة الرابعة صباحًا، ووصلوا إلى أروسا بحلول الظهر، وبذلك أصبح آرثر أول رجل إنجليزي يعبر ممر جبال الألب على الزلاجات. سجّل توبياس برانغر لثلاثتهم هذا الإنجاز في فندقهم الواقع في أروسا. كتب إلى جانب اسم آرثر، في المربع الفارغ للمهنة: رجل رياضي.

مع هواء جبال الألب، وأفضل الأطباء والمال وبرعاية لوتي، ومثابرة آرثر في مصارعة الشيطان، استقرت حالة توي ثم بدأت في التحسن. بحلول أواخر الربيع، تشكّل رأي بأنها تتمتع بالقوة الكافية للعودة إلى إنجلترا، مما سمح لآرثر بالمغادرة في جولة أمريكية للنشر. عادا إلى دافوس الشتاء التالي. انقلب القرار الأولي الذي امتد ثلاثة أشهر، فقد أجمع الأطباء على أن صحة المريضة كانت أكثر استقرارًا إلى حد ما. أمضيا الشتاء التالي في الصحراء خارج القاهرة في فندق مينا هاوس، وهو مبنى أبيض منخفض مع أهرامات تلوح في الأفق. ثار غضب آرثر من الجو الجاف. ولكنه هدأ مع لعب البلياردو والتنس والغولف. لقد تنبأ بحياة المنفيين الشتوية السنوية، كل ليلة منها أطول بقليل من سابقتها... لا، يجب ألا يترك نفسه يفكر في ما بعد الربيع، وما بعد الصيف. على الأقل مازال بإمكانه الكتابة مع أسلوب الحياة المتقلب بين الفنادق والبواخر والقطارات. وعندما عجز عن الكتابة، خرج إلى الصحراء وضرب كرة الغولف وإلى حدٍّ ما طارت. لم يكن المسار كله في الواقع إلا حفرة رملية كبيرة، أينما هبطت، أنت فيها. يبدو أن هذا ما أصبحت حياته عليه.

مع ذلك، بالعودة إلى إنجلترا، التقى غرانت ألين: إنه روائي مثل آرثر، ومصاب بالسل مثل توي. أكد له ألين أنه يمكن مقاومة المرض دون اللجوء إلى العزل، وقدّم نفسه كدليل

حي. يكمن الحل في عنوانه البريدي: قرية هيندهيد في مقاطعة سَري. قرية على طريق بورتسموث، في منتصف الطريق تقريبًا، تقع بين ساوث سي ولندن. وبصورة أدق، إنها بقعة ذات مناخ خاص. مرتفعة، ومحمية من الرياح، وجافة، ومليئة بأشجار التنوب والتربة الرملية. أُطلِق على مقاطعة سَري سويسرا المصغرة.

اقتنع آرثر مباشرة. نجح في العمل على إيجاد خطة عاجلة للتنفيذ. كره الانتظار، وخشي الاستسلام للمنفى. كانت هيندهيد الإجابة. يجب شراء الأرض، وتصميم المنزل. وجد أربعة فدادين، مشجرة ومعزولة، حيث تهبط الأرض في واد صغير. هضبة جيبيت وديفيلز بنشبول قريبتان في متناول اليد، وملعب هانكلي للغولف على بعد خمسة أميال. باغتته الأفكار المتدفقة. يجب أن يخصص هناك غرفة بلياردو وملعب تنس واسطبلات، مسكنًا للوتي، وربما السيدة هوكينز، وبالطبع وودي الذي وقّع الآن للعمل منذ فترة. يجب أن يكون المنزل مثيرًا للإعجاب ومريحًا: منزل كاتب شهير، ولكنه منزل عائلي وعليل أيضًا. يجب أن يمتلئ بالضوء، وأن تحظى توي بأفضل إطلالة. كما يجب أن يكون لكل باب مقبض للدفع والسحب، إذ حاول آرثر مرة حساب مقدار الوقت الضائع للجنس البشري في تحويل هذا النوع التقليدي. سيكون من الملائم تمامًا أن يُزوَّد المنزل بمحطة توليد كهرباء، وبالنظر إلى أنه قد حصل الآن على سمعة معينة، فلن يكون من المناسب أن تُعرض أسلحة عائلته في الزجاج المُعشّق.

رسم آرثر مخططًا وسلّم العمل إلى مهندس معماري. ليس أي مهندس معماري فحسب، ولكنه ستانلي بول، صديقه القديم في التخاطر من ساوث سي. كانت تلك التجارب المبكرة الآن بمثابة تدريب مناسب له. أعاد توي إلى دافوس مرة أخرى، وأرسل لبول رسالة، وإذا لزم الأمر، برقية. لكن من كان يعلم ماهية التصاميم المعمارية التي قد لا ترفرف بعاطفة وسط أدمغتهم، في حين أن أجسادهم على بُعد مئات الأميال؟

امتدت نافذة الزجاج المُعشّق إلى أقصى ارتفاع في المدخل ذي الطابقين. في الجزء العلوي أحاطت وردة انجلترا ونبتة أسكتلندا الشوكية بالأحرف الأولى المتشابكة آيه سي دي. أدناها ستكون هناك ثلاثة صفوف من شعارات النبالة. الصف الأول: بورسيل من فولكس راث، وباك من كيلكيني، وماون من شيفيزني. في الصف الثاني: بيرسي من

نورثمبرلاند، وبتلر من أورموند، وكولكلو من تينترن. وعلى مستوى النظر: كونان من دوق بريتاني (في كل صبغة فضة على رسمة شعار النبالة أرجنت وغوليس أسد منتصب معكوس)، هوكينز من ديفونشاير (لتوي) ثم عتاد دويل: ثلاثة رؤوس من الأيائل ويد حمراء لأولستر. كان شعار دويل الحقيقي هو فورتيتودين فينسيت. ولكن هنا، تحت الدّرع، وضع البديل... بإيشينتيا فينسيت. هذا ما جاهر المنزل به إلى العالم أجمع، وإلى الميكروب اللعين: الصبر ينتصر.

لم يشاهد ستانلي بول ومعماريُّوه إلا القليل لكن بنفاد صبر. بعد أن فتح آرثر مكتبه الرئيس في فندق قريب، استمر في قيادة سيارته إلى هناك ولَجّ في إزعاجهم. ومع ذلك في النهاية، اتخذ المنزل تصميمًا مميزًا: بناء طويل يشبه الحظيرة، من الطوب الأحمر، والقرميد المُعلق، ذي الجملون الثقيل، ومُلقى على عنق الوادي. وقف آرثر على شرفته الممتدة حديثًا، وأمعن النظر في المرج الواسع المُلتف المغروس بأكمله مؤخرًا. تهبط الأرض خلفه إلى أن تضيق أكثر من أي وقت مضى إلى حيث تسود الغابة. كان هناك شيء غريب وساحر في الإطلالة: منذ اللحظة الأولى وجد آرثر أنه يستحضر بعض القصص الشعبية الألمانية. فكر أنه سيزرع شجر الورد أو نبات الردندرة.

في اليوم الذي رُفعت فيه نافذة القاعة إلى مكانها، أخذ توي معه لتشهد إزاحة الستار. لقد وقفت أمامها، وعينها تتخطى الألوان والأسماء، ثم تسكن على شعار المنزل.

تنبّه قائلًا: "ستكون الأم راضية". جعلته وقفة طفيفة فقط سبقت ابتسامتها، يدرك أن شيئًا ما قد يبدو غريبًا.

"أنتِ على حق" قال على الفور، رغم أنها لم تتلفظ بكلمة بعد. كيف أمكن أن يظهر كالمغفل؟ لتكريم أصولك العريقة، تنسى عائلة أمك تمامًا؟ للحظة فكر في أن يأمر العمّال بإنزال النافذة اللعينة بالكامل. في وقت لاحق، بعد تفكير بالذنب، طلب نافذة ثانية أكثر تواضعًا لقلب الدرج. سيحمل اللوح المركزي الأسلحة وأسماء غفلوا عنها: فوليز من ورسيسترشاير.

قرر زيارة منزل أندرشو، بعد بستان الأشجار الناتئ الواقع أدناه. سيعطي الاسم هذا البناء الحديث صدىً أنجلوسكسوني عتيق. هنا قد تستمر الحياة كالمعتاد، إذا استمرت

بحذر وضمن الحدود.

الحياة. ما السهولة التي نطق بها الجميع الكلمة، بمن فيهم هو نفسه. يُجمع الجميع على ضرورة استمرارية الحياة بشكل روتيني. ومع ذلك، عدد قليل منهم سأل عن ماهية هذه الحياة، وعن سببها وما إذا كانت هذه هي الحياة الوحيدة أم أنها مجرد أرضية لشيء مختلف تمامًا. كثيرًا ما أربك آرثر ركون الناس إلى الراحة ومتابعتهم مع.. مع ما يسمونها بلا مبالاة حيواتهم، كما لو أن كلًا من كلمة الحياة ومفهوم اللامبالاة شكّلا معًا معنى متكاملًا لهم.

أصبح صديقه القديم في ساوث سي الجنرال درايسون مقتنعًا بالحركة الروحانية، بعد أن تحدث إليه شقيقه المتوفى في جلسة استحضار الأرواح. بعد ذلك، أكد الفلكي أن استمرار الحياة بعد الموت لم يكن مجرد افتراض، ولكنه حقيقة يمكن إثباتها. احتج آرثر آنذاك بلطف، على الرغم من ذلك، تضمنت قائمة الكتب التي يجب قراءتها في تلك السنة أربعة وسبعين موضوعًا عن الفلسفة الروحانية. أرسلها كلها بسرعة، مشيرًا إلى العبارات والأكاذيب التي أثارت إعجابه. مثل هذا الاقتباس من الفيلسوف المجري هيلينباخ: "هناك شك يفوق في الحماقة، بلادة الريفي الأخرق"

إلى أن أعلن مرض توي عن نفسه، امتلك كل شيء افترضه العالم ضروريًا لجعل الرجل قانعًا. ومع ذلك، لم يستطع أبدًا التخلص من الشعور بأن كل ما أنجزه ما هو إلا مجرد بداية عديمة الفائدة ومضللة، وأنه خُلِق لشيء آخر. ولكن ماذا يمكن أن يكون الشيء الآخر؟ عاد إلى دراسة الأديان في العالم، لكنه لم يستطع التعمق في أي منها أكثر مما أمكن أن تدخل بدلة صبي فيه. انضم إلى رابطة العقلانيين، ووجد أن عملهم ضروري، لكنه مُدمِّر في الأساس وبالتالي عقيم. كان هدم المعتقدات القديمة أمرًا أساسيًا في تقدم الإنسان. ولكن الآن سُوّيت تلك المباني القديمة أرضًا، أين يمكن للرجل العثور على مأوى في هذا المشهد البغيض؟ كيف يمكن لأي شخص أن يقرر بوضوح، أن تاريخ ما كانت عليه الأنواع منذ آلاف السنين الذي وافق على استدعاء الروح قد انتهى الآن؟ سيواصل البشر تطورهم، وبالتالي فإن كل ما بداخلهم يجب أن يتطور أيضًا. حتى الأخرق المتشكك يمكنه بالتأكيد رؤية ذلك.

بينما تأخذ توي نفسًا عميقًا من هواء الصحراء خارج القاهرة، قرأ آرثر تاريخ الحضارة المصرية، وزار مقابر الفراعنة. وخلص إلى أن قدماء المصريين رفعوا بلا شك الفنون والعلوم إلى مستوى جديد، إلا أن قوة منطقهم اتصفت بأنها مُزرية من نواح كثيرة. خاصة في موقفهم من الموت. إن الفكرة القائلة إن الجثة، هي معطف قديم ورثّ غلّف الروح مرة لفترة وجيزة، ينبغي الحفاظ عليها بأي ثمن، لم تكن مجرد مبالغة، إنها الكلمة الأخيرة في الفلسفة المادية. أما بالنسبة إلى سلال المؤونة الموضوعة في القبر لإطعام الروح في رحلتها: كيف يمكن لشعب بهذا التطور أن تكون عقولهم عقيمة؟ الإيمان الذي أقّرته المادية: لعنة مضاعفة. واللعنة ذاتها أصابت كل أمة وحضارة لاحقة، ترعرعت تحت حكم الكهنوت.

بالعودة إلى ساوث سي، لم يجد حجج الجنرال درايسون كافية. لكن الظواهر النفسية التي استنبطها علماء يتمتعون بدرجة عالية من الدقة والاستقامة الواضحة الآن، مثل ويليام كروكس وأوليفر لودغ وألفريد روسل والاس. هذه الأسماء تعني أن الرجال الذين فهموا العالم الطبيعي -علماء الفيزياء والأحياء العظماء- قد أصبحوا أيضًا مرشدينا للعالم الروحاني.

خُذ والاس مثلًا، شارك في اكتشاف نظرية التطور الحديثة، وهو الرجل الذي وقف إلى جانب داروين عندما أعلنا معًا فكرة الانتقاء الطبيعي للجمعية اللينيانية اللندنية - جمعية علمية. لقد استنتج الخائف ومن يعوزه الخيال أن والاس وداروين قد أوصلانا إلى عالم ميكانيكي بلا إله، تركنا وحدنا على السهل الداكن. لكن مع الأخذ بعين الاعتبار ما يؤمن به والاس بنفسه. أكد هذا أعظم الرجال المعاصرين أن الانتقاء الطبيعي لا يمثل إلا تطور الجسم البشري، وأن عملية التطور يجب أن تستكمل في مرحلة ما بتدخل خارق للطبيعة، عندما أُدخلت شعلة الروح في الحيوان النامي الهائج. الآن من تجرأ على ادعاء أن العلم هو عدو الروح؟

جورج وآرثر

كانت ليلة باردة وصافية من ليالي فبراير، انتصف قمرها وترصّعت سماؤها بالنجوم. من بعيد، بالكاد انتصبت معدات رأس منجم ويرلي أمام السماء. في الجوار، مزرعة جوزيف هولمز: المنزل والحظيرة والملحقات، مع انعدام الضوء في أي منها. غطّ البشر في النوم، والطيور لم تستيقظ بعد.

عندما نفذ الرجل عبر فجوة في الوشيع في الجانب البعيد من الحقل، كان الحصان مستيقظًا. حاملاً كيس علف على ذراعه. بمجرد أن أدرك أن الحصان قد تنبّه لوجوده، توقف وبدأ التحدث بأناة ورويّة. الحديث نفسه بمثابة ثرثرة من الترّهات. كانت لهجة تهدئة وحميمية، وهو ما يهم. بعد بضع دقائق، بدأ الرجل يتقدم ببطء. على بُعد بضع خطوات، هزّ الحصان رأسه، وعُرْف شعره قصير وأبقع. إلى هنا، توقف الرجل مرة أُخرى.

وواصل الثرثرة بكلام فارغ، ومع ذلك، تابع النظر مباشرة نحو الحصان. تصلّبت الأرض تحت قدميه بعد ليالٍ من الصقيع، ولم يترك حذاءه أي أثر على التربة. تقدم ببطء، بضع ياردات في كل مرة، وتوقف عند أدنى إشارة تدل على تذمر من الحصان. أمسى وجوده واضحًا في جميع الأوقات، وأمسك نفسه أطول فترة ممكنة. كيس العلف على ذراعه تفصيل غير مهم. ما شغله الثبات الهادئ في الصوت، واليقين في الأسلوب، والصراحة في النظرة، والدماثة في السيطرة.

استغرق عشرين دقيقة لعبور الحقل بهذه الطريقة. وقف الآن على بُعد بضعة أمتار فقط، وجهًا لوجه مع الحصان. لم يقم بأي حركة مفاجئة حتى الآن، لكنه استمر على حاله السابق، بين الهمهمة والتحديق والوقوف المباشر والانتظار. في النهاية، حدث ما توقعه: أخفض الحصان رأسه، على مضض في البداية، ولكن بشكل لا لبس فيه.

لم يصله الرجل فجأة حتى الآن. سمح لدقيقة أو دقيقتين من الزمن بالمرور، ثم عبر الياردات الأخيرة، وعلّق كيس العلف بلطف حول عنق الحصان. بينما أبقى الحيوان رأسه منخفضًا، شرع الرجل في تمسيده، مُتمتمًا طوال الوقت. مسّد الرجل شعر الحصان، وخاصرته، وظهره. في بعض الأحيان، أراح يده على الجلد الدافئ، والتأكد من أن التواصل

بينهما لم ينقطع.

استمر التمسيد والهمهمة، أنزل الرجل كيس الأعلاف عن رقبة الحصان، ورفعه على كتفه. تواصل التمسيد والهمهمة بلا انقطاع، ثم تحسس الرجل ما في معطفه. تابع التمسيد والهمهمة، إلى أن عبرت ذراع واحدة ظهر الحصان، حتى وصلت تحت بطنه.

بالكاد أعطى الحصان نقطة بداية، ثم كفّ الرجل أخيرًا عن هرائه، وفي صمت غريب، شق طريقه بخطى متأنية صوب فجوة في الوشيع.

جورج

يركب جورج في أول قطار كل صباح إلى برمنغهام. إنه يحفظ جدول مواعيد القطارات عن ظهر قلب، ويحب ذلك. ويرلي آند تشيرشبريدج في الساعة السابعة وتسع وثلاثين دقيقة. بلوكسويتش عند السابعة وثمان وأربعين دقيقة. بيرشيلز عند السابعة وثلاث وخمسين دقيقة. والسال عند السابعة وثمان وخمسين دقيقة. برمنغهام نيو ستريت عند الثامنة وخمس وثلاثين دقيقة. لم يعد يشعر بالحاجة للاختباء خلف جريدته. في الواقع، من وقت لآخر، يشك في أن بعض الركاب يعلمون أنه مؤلف قانون السكك الحديدية عن " ركّاب القطارات" (مئتين وسبع وثلاثين نسخة مباعة). يُحيِّي جامعي التذاكر، ومديري المحطات، وبدورهم يردّون تحيته. لديه شارب كبير، وحقيبة يد، وسلسلة ساعة جيب متواضعة، وقد عزّز قبعة الرامي بقبعة من القش للاستخدام الصيفي. لديه مظلة أيضًا. إنه فخور إلى حد ما بهذه الملكية الأخيرة، وغالبًا ما يأخذها معه في تحد مقياس الضغط الجوي.

يقرأ الجريدة في القطار، ويحاول تكوين وجهات نظر حول ما يحدث في العالم. ألقى السيد تشامبرلين خطابًا مهمًّا في قاعة مدينة برمنغهام الجديدة، حول المستعمرات والتعريفات التفضيلية في الشهر الماضي. موقف جورج -رغم أنه لم يطلب أي أحد رأيه في هذا الأمر- هو التأييد الحذر. من المقرر أن يحصل اللورد روبرتس في قندهار على حرية

المدينة في الشهر المقبل، وهو شرف لا يمكن لأي رجل عاقل أن يختلف عليه.

تخبره صحيفته بأخبار أخرى أكثر محلية وأكثر تفاهة: مُثّل بحيوان آخر في منطقة ويرلي. يتساءل جورج بإيجاز عن أي جزء من القانون الجنائي يغطي هذا النوع من الأفعال: هل تخريب الممتلكات يندرج تحت قانون السرقة، أو ربما أن بعض التشريعات ذات الصلة تغطي نوعًا أو آخر من أنواع الحيوانات المعنية؟ إنه سعيد لأنه يعمل في برمنغهام، وما هي إلا مسألة وقت فقط قبل أن يعيش هناك أيضًا. هو يعلم أن عليه اتخاذ القرار، يجب عليه أن يقف أمام عبوس الأب، ودموع الأم، وفزع مود الصامت المتنامي حتى الآن. كل صباح، حيث الحقول المحشوة بالماشية تفسح المجال للضواحي جيدة التنظيم، يشعر جورج بارتفاع ملحوظ في معنوياته. أخبره الأب قبل أعوام، أن فتية المزارع والمزارعين الذين أحبهم الرّب هم المتواضعون، ومن سيرثون الأرض. حسنًا، ربنا بعضهم فقط، وليس وفقًا لأي قاعدة من قواعد الوصايا التي أَلِفها.

غالبًا ما يكون تلاميذ في القطار، على الأقل حتى والسال، حيث يترجّلون إلى مدرسة القواعد. يذكّر وجودهم وزيهم المدرسي جورج بذاك الزمن المرعب الذي اتُهم فيه بسرقة مفتاح المدرسة أحيانًا. لكن مضى على ذلك سنوات، كان معظم الأولاد مهذبون للغاية. في بعض الأحيان، يصادف مجموعة في عربته، ويحفظ أسماءهم بوساطة السمع عرضًا: بيج وهاريسون وغريتوريكس وستانلي وفيريداي وكويبل. إنه على علاقة بالإيماء معهم، بعد ثلاثة أو أربعة أعوام.

ينفق معظم أيامه في 54 شارع نيوهول في العمل على قوانين نقل الملكية... العمل الذي وصفه أحد الخبراء القانونيين رفيع المستوى بأنه "خالٍ من الخيال والتنافس الحر للفكر". هذا الاستخفاف لم يزعج جورج أبدًا. فهو يرى مثل هذا النوع من العمل دقيقًا وجادًا وضروريًا. وقد صاغ بعض الوصايا أيضًا، وبدأ مؤخرًا في كسب عملاء نتيجة لعمله على كتيب قانون السكك الحديدية. الحالات غير المبررة المرتبطة بفقدان الأمتعة أو تأخر القطارات، وحالة انزلقت فيها سيدة، والتوى معصمها في محطة سنو هيل، بعد أن سكب موظف السكك الحديدية الوقود بإهمال بالقرب من محرك القطار. وقد تعامل مع العديد من الحالات المستعجلة أيضًا. يبدو أن فرص إصابة مواطن في برمنغهام بالدراجة أو الخيل

أو السيارات أو الترام أو حتى القطار أعلى بكثير مما توقّع. ربما يُعْرَف جورج إدالجي المحامي، بأنه الرجل الذي يجب الاتصال به، عندما يفاجأ جسم الإنسان بوسيلة من وسائل النقل الطائشة.

يغادر قطار جورج من نيو ستريت الساعة الخامسة وخمس وعشرين دقيقة. في رحلة العودة، نادرًا ما يوجد تلاميذ. بدلًا من ذلك، يعثر جورج في بعض الأحيان على مُكوّن أكبر وأكثر فظاظة ينظر إليه بقلق. تُمرر له الملحوظات التي لا لزوم لها في بعض الأحيان: عن مُبيّض الغسيل، ونسيان والدته حمض الكاربوليك، والاستعلام حول ما إذا ذهب إلى المنجم في ذاك اليوم. إنه يتجاهل في الغالب مثل هذه الكلمات، على الرغم من أن شابًا هائجًا اختار أن يجعل من نفسه عدوانيًا على نحو خاص، فقد يضطر جورج إلى تذكيره بمن يتعامل معه. إنه ليس قويًا جسديًا، لكنه في مثل هذه الأوقات يشعر بالهدوء المثير للدهشة. إنه يعرف قوانين إنجلترا، كما يعرف أنه يستطيع الاعتماد على دعمهم.

برمنغهام نيو ستريت عند الخامسة وخمس وعشرين دقيقة، ووالسال في الساعة الخامسة وخمس وخمسين دقيقة. هذا القطار لا يتوقف في بيرتشيلز، لأسباب لم يكن جورج قادرًا على التحقق منها. إنه في بلوكويتش عند السادسة ودقيقتين، وفي السادسة وتسع دقائق ويرلي آند تشيرشبريدج. يومئ إلى السيد ميريمان مدير المحطة في تمام الساعة السادسة وعشر دقائق -وهي اللحظة التي غالبًا ما تذكره بحكم حضرة القاضي بيكون في عام ألف وثمانمئة وتسعة وتسعين، في محكمة مقاطعة بلومزبري بشأن الاحتفاظ غير القانوني بتذاكر الموسم منتهية الصلاحية- ويضم مظلته إلى معصمه الأيسر؛ ليرجع مشيًا لبيت الكاهن.

كامبل

التقى المفتش كامبل مع كبير المفتشين آنسون في عدة مناسبات، منذ تعيينه في شرطة مقاطعة ستافوردشاير قبل عامين، لكن لم يحدث من قبل أن استدعي إلى غرين هول. يقع

منزل قائد الشرطة على أطراف المدينة، بين المروج المائية على الجانب الآخر من نهر سو، وقد اشتهر بأنه أكبر مسكن بين ستافورد وشغبورو. بينما كان يمشي في الطريق المفروش بالحصى قبالة طريق ليشفيلد، والقاعة تكشف عن نفسها تدريجيًا، وجد كامبل نفسه يتساءل عن مدى كِبر شغبورو. كان ذلك من ممتلكات الأخ الأكبر لكبير المفتشين آنسون. اضطر قائد الشرطة، كونه مجرد ابن ثانٍ، إلى الاكتفاء بهذا القصر الأبيض المتواضع: على ارتفاع ثلاثة طوابق، سبع أو ثمان نوافذ واسعة، مع مدخل شرفة ضخم تدعمه أربعة أعمدة. هناك على الجانب الأيمن شرفة وحديقة غارقة في الورد، وعلى الجانب الآخر منزل صيفي وملعب تنس.

استغرق كامبل في كل هذا دون انقطاع في خطواته. حين أذن له الخادم بالدخول، حاول إيقاف عاداته المهنية الطبيعية: التفكير في احتمالات أمانة ودخل قاطنيه، والالتزام بالقطع التذكارية التي تستحق السرقة.. في بعض الحالات تلك ربما سُرقت تلك القطع التذكارية بالفعل. كان إهمالاً متعمدًا، وعلى الرغم من ذلك على دراية بخشب الماهوغاني المصقول، والجدران المكسوة بألواح بيضاء، ومنصة قاعة فاخرة، وإلى يمينها سُلّمًا ذي أعمدة درابزين مُلتفّة وغريبة.

برز مباشرة في غرفة على يسار الباب الأمامي. كما يبدو في مكتب آنسون: مقعدين جلديين عاليين على جانبي المدفئة، فوقهما يلوح رأس أيل أو موظ في الأفق. شيء ذو قرن على أي حال. لم يصطده كامبل، ولم يَتُق إليه من قبل. كان رجلاً من برمنغهام قَدَّم على مضض للانتقال؛ حين سئمت زوجته من المدينة، وتاقت إلى بطء وفضاء طفولتها. خمسة عشر ميلاً أو نحو ذلك، لكن بالنسبة لكامبل شعر أنه نفي في أرض أخرى. تجاهلتك طبقة النبلاء المحلية، وانكفأ المزارعون على أنفسهم، أما عمال المناجم ومصنعو الحديد قساة كثيرًا حتى بمعايير الأحياء الفقيرة. أية أفكار غامضة بأن الريف رومانسي أُخمدت بسرعة. وبدا أن الناس هنا يكرهون الشرطة أكثر مما فعلوا في المدينة. لقد تاه في حساب المرات التي شعر فيها أنه لا لزوم له. قد تُحفظ الجريمة وحتى تلك التي أُبلغ عنها، لكن ضحاياها كان لديهم وسيلة لإعلامك أنهم يفضلون تطبيق مفهومهم عن العدالة، على أي مفتش لا يزال يرتدي بدلة من ثلاث قطع، ويعتمر قبعة الرامي التي تفوح منها رائحة برمنغهام.

حثّ الخطى آنسون، وصافح زائره وأجلسه. كان رجلاً بسيطًا وضئيل الحجم في منتصف الأربعينيات من عمره، مع بدلة أنيقة وشارب، لم يسبق لكامبل أن رأى مثيلاً له في الترتيب: بدا أن طرفيه مجرد امتدادات لأنفه، وناسب توسط الشفة العليا تمامًا كما لو أنه ابتاعه من كتالوغ بعد القياس الدقيق. عقدت ربطة عنقه في مكانها مع دبوس ذهبي على شكل عقدة ستافورد . أشار هذا إلى ما يعرفه الجميع بالفعل: أن القائد المحترم جورج أوغستس آنسون، قائد الشرطة منذ عام ألف وثمانمئة وثمان وثمانين، ونائب ملازم المقاطعة منذ عام ألف وتسعمئة، بدا رجلاً من ستافوردشاير بكل ما تحمله الكلمة من معنى. كونه واحدًا من الجيل الجديد من رجال الشرطة المحترفين، لم يدرك كامبل السبب وراء كون قائد الشرطة هو غير الكفء الوحيد في القوة، ولكن بعد ذلك، تبين أن الكثير من أفعال المجتمع استبدادًا قائمًا على التحيز القديم أكثر من المعنى الحديث. ومع ذلك، حظي آنسون باحترام من عملوا تحت قيادته، كما عُرف باسم الرجل الذي دعم رجاله.

"كامبل، ربما خمنت لماذا طلبت منك الحضور"

"أفترض أنها حوادث التشويه يا سيدي"

"بالتأكيد. كم لدينا الآن؟"

مع أن كامبل تدرب على هذا الجزء، لكنه مدّ يده إلى دفتر ملاحظاته.

"في الثاني من فبراير، حصان ثمين للسيد جوزيف هولمز. وفي الثاني من إبريل، مُثّل بحصان قصير القوائم للسيد توماس بالطريقة نفسها تمامًا. وفي الرابع من مايو، عوملت بقرة السيدة بونغاي بالمثل. بعد أسبوعين، في الثامن عشر من مايو، شُوّه حصان السيد بادجر على نحو مفزع، وكذلك خمسة خراف في الليلة نفسها. ثم في الأسبوع الماضي، السادس من يونيو، بقرتين ملكًا للسيد لوكيير"

"هل جميعها في الليل؟"

"جميعها في الليل"

"هل وجدت أي نمط واضح للحوادث؟"

"حدثت جميع الهجمات داخل دائرة نصف قطرها ثلاثة أميال من ويرلي.. و.. لا أعلم ما إذا كان هذا نمطًا، لكن حدث كل ذلك في الأسبوع الأول من الشهر. باستثناء

تلك الحادثة التي وقعت في الثامن عشر من مايو، والتي لم تكن كذلك" أدرك كامبل أن عين آنسون عليه، وعجّل خطاه. "مع ذلك، طريقة التمثيل، ثابتة إلى حد كبير من هجوم إلى هجوم"

"بانتظام مثير للاشمئزاز، بلا شك"

نظر كامبل إلى قائد الشرطة، وهو غير متأكد إذا رغب أو لم يرغب في سماع التفاصيل. استغرق في الصمت المشوب بالأسف.

"هناك تمزيق أسفل البطن بالعرض، في قطع واحد عمومًا. الأبقار... كما شوهت ضروع الأبقار. ولحقت أضرار.. في الأعضاء التناسلية، سيدي"

"إنه أمر لا يصدق يا كامبل، أليس كذلك؟ هذه القسوة التي لا معنى لها مع بهائم لا حول لها ولا قوة؟"

أقنع كامبل نفسه أنهما لا يجلسان تحت العين الزجاجية، ورأس مقطوع لأيل أو موظ. "نعم يا سيدي"

"لذا نحن نبحث عن بعض المجانين ممن يحملون السكاكين"

"ربما ليست سكينًا يا سيدي. تحدثت إلى الجراح البيطري الذي شهد عمليات التمثيل اللاحقة - جرى التعامل مع حصان السيد هولمز كحادث منعزل في ذلك الوقت – وكان في حيرة تجاه الأداة المستخدمة. لا بد أنها أداة حادة جدًا، لكنها من ناحية أخرى تقطع الجلد، والطبقة الأولى من العضلات لا أكثر"

"فلماذا لا تكون سكينًا؟"

"لأن السكين -لنقل إنها سكين الجزار- قد تذهب أعمق. في مرحلة ما، على أي حال. السكين ستشق الأحشاء. لم يُقتل أي من الحيوانات في الهجمات فعلًا. ليس في ذلك الوقت. إما أنها نزفت حتى الموت أو تُركت في حالة قريبة من هذه الحالة، حين اكتشفوا أنه يتعين عليهم قتلها القتل الرحيم"

"إذن لم تكن سكينًا؟"

"إنه شيء يقطع بسهولة لكن دون عمق. مثل شفرة الحلاقة، لكنه أكثر حدة منها. يمكن أن تكون أداة من تجارة الجلود. أو أداة من أدوات الفلاحة. أفترض أن الرجل معتاد

على التعامل مع الحيوانات"

"رجل أو رجال. فرد خسيس أو عصابة من الأفراد الوضيعين. وجريمة دنيئة. هل صادفتها من قبل؟"

"ليس في برمنغهام، سيدي"

"لا، في الحقيقة" كشف كامبل عن ابتسامة باهتة، وسكت لفترة قصيرة. سمح كامبل لنفسه بالتفكير في خيول الشرطة في إسطبلات ستافورد: كيف أنها متيقظة وسريعة الاستجابة، ومدى حرارتها ورائحتها الكريهة والفرو يكسو شعرها، كيف رفّت آذانها ووضعت رؤوسها في وجهك، وكيف نفخوا أنوفها بطريقة تذكره بفوران غلاّية. ما هي طبيعة البشر التي يمكن أن تلحق مثل هذا الضرر بالحيوان؟

"يتذكر الرقيب باريت قبل عدة سنوات، حالة بائسة لشخص تورط في الديون، وقتل حصانه من أجل التأمين. لكن فورة قاتلة مثل هذه... تبدو غريبة جدًا. في إيرلندا، بطبيعة الحال، يعتبر تقطيع القوائم الخلفية للحيوانات من عرقوبها (هوفينغ) في منتصف الليل جزءًا من التقويم الاجتماعي. لكن بعد ذلك، لن يفاجئني أي شخص من الفينيان"

"نعم يا سيدي"

"يجب وضع حد لها. هذه الاعتداءات المشينة تشوّه سمعة المقاطعة بأسرها"

"نعم، الصحف.."

"أنا لا أكترث بالصحف يا كامبل. ما يهمني هو شرف ستافوردشاير. لا أريد أن يعتبر ذلك مطاردة للهمج"

"لا يا سيدي" مع ذلك، اعتقد المفتش كامبل أن قائد الشرطة يجب أن يكون قد اطّلع على بعض المقالات الافتتاحية مؤخرًا، التي لا إطراء منها، وبعضها شخصي.

"أود أن أقترح عليك أن تبحث في تاريخ الجريمة في غريت ويلي وضواحيها في السنوات الأخيرة. وقعت فيها بعض... غريبة عني. وأقترح عليك العمل مع أولئك الذين خَبِروا المنطقة جيدًا. هناك رقيب جيد جدًا، لا يمكنني تذكر اسمه. كبير، رجل محمر الوجه..."

"أبتون يا سيدي؟"

"أبتون، هذا يكفي. إنه رجل يولي كل ما حوله الاهتمام"

"جيد جدًا يا سيدي"

"وسحبت عشرين عنصرًا من عناصر تحري الشرطة أيضًا. يمكنهم تقديم تقرير إلى الرقيب بارسونز"

"عشرون!"

"عشرون، ولتقنين النفقات سأنفق من جيبي إذا لزم الأمر. أريد شرطيًا تحت كل وشيع وخلف كل شجيرة إلى أن يقبض على هذا الرجل"

لم يكن كامبل قلقًا بشأن النفقات. تساءل كيف يمكن أن تخفي عشرين فردًا من أفراد التحرّي في المنطقة التي تنتقل فيها أبسط شائعة أسرع من التلغراف. عشرون رجلاً من رجال التحري، معظمهم ليسوا على دراية بالأرض، ضد رجل من سكان المنطقة قد يختار البقاء في المنزل ويسخر منهم فقط. وعلى أي حال، كم عدد الحيوانات التي يمكن أن يحميها عشرون شرطياً؟ أربعون، ستون، ثمانون؟ وكم عدد الحيوانات الموجودة في المنطقة؟ المئات، وربما الآلاف.

"هل هناك أسئلة إضافية؟"

"لا يا سيدي. إلا... إذا جاز لي أن أطرح سؤالاً غير مهني؟"

"ابدأ"

"الشرفة الخارجية. مع الأعمدة. هل لها اسم؟ الطراز، أقصد؟"

بدا لآنسون أن هذا أغرب سؤال يطرحه مسؤول في الخدمة.

"الأعمدة؟ ليس لدي أدنى فكرة. إنه من النوع الذي تعرفه زوجتي"

في الأيام التالية، استعرض كامبل تاريخ الجريمة في غريت ويرلي وضواحيها المجاورة. وجدها كما توقعها. عددًا محدودًا من السرقات، معظمها بين الماشية وحالات اعتداء متباينة. مع شيء من التعدي على الممتلكات، والسّكر العام، ومحاولة انتحار واحدة. عوقبت فتاة لكتابتها ألفاظًا بذيئة على جدار أحد المباني الزراعية. خمس حالات إحراق ممتلكات متعمدة، ورسائل تهديد وسلع واردة غير مرغوب فيها في بيت كاهن ويرلي، واعتداء جنسي واحدٍ، وسلوكين اثنين مشينين. لم تكن هناك هجمات سابقة على الحيوانات في الأعوام العشرة الماضية، على حد علمه.

كما لم يستطع الرقيب أبتون، الذي عمل على حراسة أمن المنطقة مرتين في ذلك الزمن، تَذكُّر أي حادثة. لكن هذا السؤال ذكّره بمُزارع، انتقل الآن إلى عالم أفضل -ما لم يتضح أنه أسوأ من ذلك يا سيدي- دارت حوله الشبهات بسبب تعلّقه بإوزة له أكثر من اللازم، إذا فهمت ما أعنيه. قطع كامبل هذا اللغو، وسرعان ما ميّز أبتون كشخص باقٍ في وقت رغبت الشرطة فيه بتجنيد أي شخص تقريبًا باستثناء من يبدو أعرجًا بوضوح أو مُقعدًا أو مُختلاً عقليًا. يمكنك استشارة أبتون عن شائعات وضغائن المجتمع المحلي، لكنك بالكاد يمكن أن تثق في يده على الكتاب المقدس.

"إذن لقد تدبرت الأمر، يا سيدي؟" أطلق الرقيب زفرة.

"هل هناك شيء محدد يجب أن تخبرني به، أبتون؟"

"لم أقل ذلك. ولكن معرفة أمر واحد سيقود لمعرفة الآخر. وتحديد أمر واحد سيؤدي للإمساك بالآخر. أنا متأكد من أنك ستصل إلى هناك في النهاية، حضرة المفتش. ماذا عن كونك مفتشًا من برمنغهام. آه نعم، ستصل إلى هناك في النهاية"

تسبب أبتون وبعض عمال المزرعة في إصابة كامبل بمزيج من التملق الخبيث والعرقلة الغامضة. شعر كامبل بالراحة أكثر مع لصوص برمنغهام؛ لأنهم على الأقل يكذبون صراحة.

في صباح يوم السابع والعشرين من يونيو، استدعي المفتش إلى منجم كوينتون، حيث مُثّلَ بخيول الشركة الثمينة أثناء الليل. لقد نزف أحدها حتى الموت، والآخر فرس عانت من تشويه إضافي في طريقها للموت الرحيم. أكد الجراح البيطري أنها الأداة نفسها -أو على الأقل، أداة لها التأثير ذاته بالضبط- المستخدمة سابقًا. بعد يومين، أحضر الرقيب بارسونز رسالة إلى كامبل موجهة إلى "الرقيب في مركز الشرطة في هيدنسفورد، ستافوردشاير" أُرسِلت عن طريق البريد من والسال، ومُوقّعة من وليام غريتوريكس.

أملك وجهًا جريئًا جسورًا ويمكنني الركض جيدًا؛ لذا عندما شكّلوا تلك العصابة في ويرلي دعوني للانضمام إليهم. خبرت كل شيء عن الخيول، والحيوانات، وكيفية اصطيادها بأفضل الطرق. قالوا إنهم سيسدون لي معروفًا، جَبنت ففعلت. أمسكت بهما مستلقيين عند الثالثة إلا عشر دقائق. ثارا ثم أمسكت أسفل بطن كلٍّ منهما، لكن لم تنفجر الكثير من الدماء. فرّ

أحدهما، ولكن الآخر سقط. الآن سأخبرك من هم أفراد هذه العصابة، لكن لا يمكنك إثبات ذلك دوني. أحدهم يحمل اسم شيبتون من ويرلي، والآخر عتّال يُدعى لي، واضطر للبقاء بعيدًا، بالإضافة إلى إدالجي المحامي. الآن لن أخبركم من وراءهم جميعًا، ولن أطلب ذلك إلا إذا وعدت بعدم اتخاذ أي إجراء ضدي. ليس صحيحًا أننا نفعل ذلك دائمًا، حين يكون القمر محاقًا، أما في الحادي عشر من إبريل، حين نفّذ إدالجي فعل القتل كان القمر بدرًا. لم أُسجن مطلقًا حتى اللحظة، ولا أعتقد أن أيًا من الآخرين احتُجِز مسبقًا، باستثناء الزعيم، لذا أعتقد أنهم بعيدون عن الأضواء.

أعاد كامبل قراءة الرسالة. أمسكت أسفل بطن كلٍّ منهما، لكن لم تتفجر الكثير من الدماء، فرّ أحدهما، ولكن الآخر سقط، كل هذا بدا معروفًا. ولكن أي عدد من الأشخاص تفحص الحيوانات النافقة. بعد الحالتين الأخيرتين، اضطرت الشرطة لتعيين حراسة، وإبعاد المتجمهرين إلى أن قام الجراح بعمله. لا تزال الثالثة إلا عشر دقائق... هناك دِقّة غريبة حول هذه النقطة.

"هل نعرف هذا المدعو غريتوريكس؟"

"أنا أعتبره ابن السيد غريتوريكس من مزرعة ليتلوورث"

"أي علاقة؟ أي سبب يجعله يكتب إلى الرقيب روبنسون في هيدنسفورد؟"

"لا شيء على الإطلاق"

"وما رأيك في مسألة القمر هذه؟"

كان الرقيب بارسونز رجلًا ممتلئ الجسم، وذا شعر أسود، ويميل إلى تحريك شفتيه أثناء التفكير. "هذا ما قاله بعض الناس. القمر الجديد، والطقوس الوثنية وما شابه ذلك. لا أعلم. لكني أعلم أنه لم يُقتل أي حيوان هناك في الحادي عشر من أبريل. ليس في غضون أسبوع من ذلك التاريخ، إن لم أكن مخطئًا"

"لم تخطئ" كان شخص بارسونز أقرب للمفتش بكثير من شخص مثل أبتون. فهو من الجيل التالي، تلقى تدريبًا أفضل ليس سريعًا لكنه مدروس.

أثبت وليام غريتوريكس أنه تلميذ في الرابعة عشرة من عمره، لم يتطابق خطّه بأي

شكل من الأشكال مع خط الرسالة. لم يسمع قط عن لي أو شيبتون، لكنه أقرّ بمعرفة إدالجي، الذي كان في بعض الأحيان يستقل القطار ذاته صباحًا. لم يسبق له أن ذهب إلى مركز شرطة هيدنسفورد، ولم يعرف اسم الرقيب فيه.

فتّش بارسونز وخمسة من رجال تحري الشرطة مزرعة ليتلوورث ومبانيها الخارجية، لكنهم لم يعثروا على شيء حاد غير طبيعي أو ملطخ بالدماء أو ممسوحة من الدماء حديثًا. أثناء مغادرتهم، سأل كامبل الرقيب عما يعرفه عن جورج إدالجي.

"حسنًا سيدي، إنه هندي، أليس كذلك؟ نصف هندي، هذا هو. رجل شاب. يبدو غريبًا قليلاً. محام، يمضي وقته في البيت، يذهب إلى برمنغهام كل يوم. ينأى بنفسه عن حياة القرية تمامًا، إذا فهمتني"

"إذن، من غير المعروف عنه التسكع مع عصابة؟"

"على العكس من ذلك"

"هل له أي أصدقاء؟"

"غير معروف عنه. إنهم أسرة واحدة. أعتقد أن هناك خطأ ما في الأخت. شيء ما فيها معتل، ساذجة. ويقولون إنه يمشي في الأزقة كل مساء. هذا لا يعني أن لديه كلبًا أو أي شيء. شُنَّت حملة ضد الأسرة قبل بضع سنوات"

"لقد قرأت هذا في الصحيفة. ما السبب وراء ذلك؟"

"من يعرف سبب حملة الكراهية هذه؟! شاع شعور بالاستياء عندما كُلّف الكاهن بالوظيفة لأول مرة. يُعرِب الناس عن عدم رغبتهم في أن يعتلي رجل أسود المنبر؛ ليخبرهم عن الآثام التي ارتكبوها، وأمور من هذا القبيل، ولكن هذه سنوات عصيبة مضت. أنا نفسي جوقة ترتيل. وبرأيي نحن أكثر ترحيبًا بالآخرين."

"هذا الشخص -الابن- هل يبدو لك كسفّاح خيول؟"

عضّ بارسونز شفتيه قبل الرد. "حضرة المفتش، اسمح لي أن أصف الأمر بهذه الطريقة. بعد أن خدمتَ هنا كما فعلت طوال فترة عملي، ستجد أن لا شيء يشبه أي شيء. أو في هذا الصدد، ليس مثل أي شيء. هل تتصور الأمر؟"

جورج

يُبرز ساعي البريد لجورج العلامة الرسمية على الظرف: **رسوم البريد ناقصة**. تصل الرسالة من والسال. كُتب اسمه وعنوان مكتبه بخط واضح ولائق، لذا يقرر جورج فك الرسالة. تكلفه بنسين، تجاهلها البريد مرتين. تغمره السعادة عندما تعرف على محتواها: نموذج طلب قانون السكك الحديدية. لكن ليس هناك شيك أو حوالة بريدية مرفقة معه. طلب المرسِل ثلاثمئة نسخة، وملأ مكان اسمه باسم بعل زبوب.

تعود الرسائل من جديد بعد ثلاثة أيام. ترتيب الرسائل ذاته، تشهيرية وتكفيرية وجنونية. تصل إلى مكتبه، مما يشعره أنه تدخل وقح. هذا هو المكان الذي يمنحه شعورًا بالأمان والاحترام، إذ الحياة منظمة. يرمي الأولى غريزيًا، ثم يضع البقية في قاع درج ليحتفظ بها كدليل. لم يعد جورج المراهق القلق من الاضطهادات السابقة. هو الآن شخص موضوعي، محامٍ مقيم منذ أربعة أعوام. وهو قادر على تجاهل هذه الأشياء إذا اختار ذلك، أو التعامل معها بأسلوب ملائم. ولا شك أن شرطة برمنغهام أكثر كفاءة وحداثة من شرطة ستافوردشاير.

أعاد جورج بطاقة اشتراكه في القطار إلى جيبه، وضمّ مظلته إلى جانب ذراعه، عندما أدرك أن شخصًا ما إلى جانبه، ذات مساء بعد الساعة السادسة وعشر دقائق بقليل.

"نبدو بصحة جيدة، هل نحن كذلك يا سيدي الشاب؟"

إنه أبتون، أكثر سمنة وحمرة وجه بعد كل تلك الأعوام، وربما أكثر غباءً أيضًا. لا يوقف جورج خطوته.

"مساء الخير"، يجيب في عجالة.

"تستمتع بالحياة، أليس كذلك؟ هل نمت جيدًا؟"

ربما شعر جورج في وقت من الأوقات بالقلق، أو توقف في انتظار وجهة نظر أبتون. لكنه لم يعد كذلك.

"لا سير أثناء النوم، آمل ذلك على أية حال" يغذ جورج الخطى عن عمد، عندها بات الرقيب مضطرًا الآن إلى أن ينفخ ويلهث للحاق به. "فقط كما ترى، لقد أغرقنا المنطقة

برجال التحري. أغرقناها. لذا حتى بالنسبة لـ م..حا..مٍ يسير نائمًا، نعم، ستكون هذه فكرة سيئة" يُلقي جورج نظرة ازدراء بلا توقف أثناء سيره، تجاه الأحمق الفارغ المتبجّح. "آه نعم م..حا..مٍ. أتمنى أن تجدها مفيدة يا سيدي الشاب. لقد أعذر من أنذر كما يقولون، ما لم يكن العكس هو الصحيح"

لم يخبر جورج والديه بالحادثة. هناك قلق أكثر إلحاحًا: لقد وصلت بعد الظهر رسالة من كانوك بخط يد مألوف. إنها موجهة إلى جورج وموقعة باسم "عاشق العدالة":

أنا لا أعرفك، لكنني شاهدتك في محطة السكك الحديدية في بعض الأحيان، ولا أحسب أني سأحبك كثيرًا إن عرفتك؛ لأنني لا أحب السكان المحليين. لكن أظن أن الجميع يجب أن يعاملوا معاملة عادلة، ولهذا السبب أكتب إليك؛ لأنني لا أعتقد أن لديك أي علاقة بالجرائم البشعة التي يتحدث عنها الجميع. الجميع قال إن الأمر لم يخرج من يدك؛ لأنهم لا يعتقدون أنك شخص جيد، ولديك نزعة للقيام بذلك. لذا وضعتك الشرطة تحت المراقبة، لكنهم لم يتمكنوا من رؤية أي شيء مريب، وهم الآن يراقبون شخصًا آخر... لو قُتل حصان آخر سيقولون إنك أنت الفاعل، لذا غادِر لقضاء عطلتك، وكن بعيدًا حين يقع الاعتداء التالي. تقول الشرطة إنها ستأتي في نهاية الشهر كما حدث الشهر الفائت. ارحل بعيدًا قبل ذلك.

جورج هادئ جدًا. يقول: "تهمة تشهير. في الواقع، من الواضح أني سأحكم بأنها تشهير إجرامي"

"بدأ من جديد"، تقول والدته، ويمكنه أن يقول إنها على وشك ذرف الدموع. "لقد بدأ كل شيء من جديد. لن يختفوا أبدًا حتى يخرجونا"

"شارلوت"، يقول شابورجي بحزم، "ليس هناك أدنى شك في ذلك. لن نترك بيت الكاهن أبدًا حتى نرحل لنستريح عند العم كومبسون. إذا كانت مشيئة الرّب هي أن نعاني في رحلتنا إلى هناك، فليس لنا أن نستجوب الرّب"

في هذه الأيام، هناك لحظات يجد فيها جورج نفسه قريبًا من استجواب الرّب. على سبيل المثال: لماذا يجب أن تعاني والدته بهذه الطريقة، إنها تجسّد الفضيلة، وتعين فقراء

الرعية ومرضاها؟ وإذا كان الرّب، كما يؤكد والده، مسؤولاً عن كل شيء، فإن الرّب مسؤول عن شرطة ستافوردشاير وعجزها الشهير. لكن جورج لا يستطيع التفوّه بذلك. هناك أمور أكثر وأكثر، لا يستطيع حتى أن يلمح إليها.

كما بدأ يدرك أنه يفهم العالم أفضل من والديه قليلاً. ربما بلغ السابعة والعشرين من عمره فقط، لكن الحياة العملية لمحامي برمنغهام تقدم رؤى ثاقبة عن الطبيعة البشرية، قد لا تتوفر لكاهن بلدة ريفية. لذا يعترض جورج عندما يقترح والده تقديم شكوى مرة أخرى لقائد الشرطة. وقف آنسون ضدهم في المرة السابقة. الرجل الذي يجب مخاطبته هو المفتش المكلّف بالتحقيق.

يقول شابورجي: "سأكتب له"

"لا يا أبي، أعتقد أن هذه هي مهمتي. سأذهب لرؤيته بنفسي. إن ذهب كلانا، فقد يشعر بأننا وفد لمفاوضته"

فوجئ الكاهن، لكنه مسرور. يحب توكيدات الرجولة في ابنه، ويسمح له أن يشق طريقه.

يكتب جورج لطلب مقابلة... ويفضل ألا يكون في بيت الكاهن لكن في أي مركز شرطة من اختيار المفتش. هذا أصاب كامبل بشعور غريب قليلاً. يرشّح هيدنسفورد، ويطلب من الرقيب بارسونز الحضور.

"شكرا لمقابلتي حضرة المفتش. أنا ممتن لوقتك. لدي ثلاث نقاط على أجندتي أعتزم نقاشها. لكن بداية، أود منك أن تقبل هذا"

كامبل رجل ذو شعر بني، ورأس تنبعث منه الروائح، يبلغ من العمر حوالى أربعين عامًا، ويبدو جالسًا أطول منه واقفًا. يمد يده إلى الطاولة ويتفحص هديته: نسخة من قانون السكك الحديدية لـ "ركّاب القطارات" يقف على مهل عند بعض الصفحات.

يقول جورج: "النسخة مئتان وثمانية وثلاثون". تخرج العبارة كأنها عبثية أكثر مما يقصد.

"لطف منك يا سيدي، لكنني أخشى أن لوائح الشرطة تمنع قبول الهدايا من عامة الناس" يعيد كامبل الكتاب مرة أخرى فوق المكتب.

يقول جورج باستخفاف: "آه، إنها بالكاد رشوة، حضرة المفتش. ألا يمكنك اعتبارها إضافة إلى المكتبة؟"

"المكتبة. هل لدينا مكتبة، أيها الرقيب؟"

"حسنًا، يمكننا أن نبدأ بتأسيس واحدة سيدي"

"إذن في هذه الحالة، سيد إدالجي اعتبرني ممتنًا"

يتساءل جورج هل يعتبر هذا سخرية منه.

"إنها تلفظ آيدلجي. وليس إ..دال..جي"

"آيدلجي" يُسدّد المفتش طعنة قاسية، ويكفهرّ وجهه. "إذا لم تمانع، سأكتفي بمناداتك بالسيّد"

يتنحنح جورج. "النقطة الأولى في أجندتي هي هذه" وأخرج رسالة من مجموعة "عاشق العدالة"، قائلاً: "وصلت خمس رسائل أخرى معنونة بمكان عملي"

يقرأها كامبل، ويمررها إلى الرقيب، ويرجعها، ويقرأها مرة أخرى. يتساءل عما إذا كانت هذه رسالة تنديد أم دعم أم متنكّرة في ثياب الأخيرة. إذا اعتُبِرت تنديدًا، فلماذا يقدمه أحدهم إلى الشرطة؟ وإذا عُدّت دعمًا، فلماذا أحضرها ما لم يكن متهمًا بالفعل؟ يجد كامبل أن دافع جورج مثير للاهتمام تقريبًا مثل الرسالة نفسها.

"هل هناك أي فكرة عن المُرسِل؟"

"إنها غير مُوقَّعة"

"أستطيع أن أرى ذلك يا سيدي. هل لي أن أسأل إذا نويت أن تأخذ بنصيحة الشخص المُرسِل؟ غادر لقضاء عطلتك وكن بعيدًا ؟"

"حقًا، حضرة المفتش، يبدو أنك تمسك العصا بطريقة خاطئة. ألا تعتبر هذه الرسالة تشهيرًا جنائيًا؟"

"لأكن صادقًا معك، لا أعلم يا سيدي، المحامون أمثالك هم من يقرر ما هو القانوني وما هو غير ذلك. من وجهة نظر الشرطة، أود أن أقول إن شخصًا ما يعبث على حسابك"

"يعبث؟ ألا تعتقد أنه فيما لو نُشِرت هذه الرسالة، مع ادعاء يتظاهر بالإنكار، فلن تشكل خطورة عليّ من السكان المحليين من المزارعين وعمال المناجم؟"

"لا أعلم يا سيدي. كل ما يمكنني قوله هو، أنني لا أذكر رسالة مجهولة أدت إلى اعتداء في هذه المنطقة منذ أن كنت هنا. هل تذكر يا بارسونز؟" يهز الرقيب رأسه. "الآن ما رأيك بهذه العبارة، في منتصفها... لا يعتقدون أنك شخص جيد؟"

"ما الذي تفهمه من هذا؟"

"حسنًا، كما ترى، إنه شيء لم أُواجَه به من قبل"

"جيد جدًا حضرة المفتش، ما "أفهمه" من ذلك أنه من المؤكد أنها إشارة إلى حقيقة أن والدي من أصل بارسي"

"نعم، أعتقد أنها يمكن أن تشير إلى ذلك" يميل رأس كامبل الأصهب نحو الرسالة مرة أخرى، كما لو أنه يتفحصها بحثًا عن مغزى إضافي. إنه يحاول أن يحسم أمره حيال هذا الرجل وشكواه. سواء أكانت شكوى مباشرة، أم شيئًا أكثر تعقيدًا.

"يمكن؟ يمكن؟ ما الذي قد يعنيه ذلك؟"

"حسنًا، قد يعني هذا أنك شخص غير مناسب"

"تقصد أنني لا ألعب مع فريق كريكت غريت ويرلي؟"

"ألست كذلك يا سيدي؟"

يشعر جورج بحنقه يتصاعد. "ولا أقوم بالتردد الحانات في هذا الصدد"

"ألست كذلك يا سيدي؟"

"ولا أدخّن التبغ أيضًا"

"ألست كذلك يا سيدي؟ جيد، سيتعين علينا الانتظار وسؤال كاتب الرسالة عما يقصده. في حال قبضنا عليه. قلت إن هناك شيئًا آخر؟"

النقطة الثانية في أجندة جورج هي تسجيل شكوى ضد الرقيب أبتون، سواء لطريقته أو تلميحاته. فعندما يكررها المفتش مرة أخرى، تتوقف بطريقة ما عن كونها تلميحات. يحولها كامبل إلى تصريحات بطيئة مملة من عضو غير بارز في الشرطة إلى مدّعٍ متعالٍ وحساس أكثر.

جورج الآن في حالة من الارتباك. جاء متوقعًا الامتنان على الكتاب، وصدم بالرسالة، والاهتمام بمأزقه. المفتش على صواب، لكنه بطيء، وكياسته المدروسة تصيب جورج بنوع

من النفور. حسنًا، مع ذلك يجب عليه الضغط على نقطته الثالثة.

"لدي اقتراح. بالنسبة لاستفسارك" توقف جورج، كما خطط من أجل جذب انتباههم الكامل. "الكلاب البوليسية الضخمة"

"عذرًا؟"

"لديهم كلاب بوليسية ضخمة. كما أنا على يقين من أنك تدرك حاسة الشم الممتازة التي تتمتع بها. إذا حصلت على زوج من الكلاب البوليسية المدربة، فستقودك بالتأكيد من مشهد التشويه المقبل إلى المجرم مباشرة. يمكن تتبع الرائحة بإحكام غير عادي، وفي هذه المنطقة لا توجد جداول مياه أو أنهار كبيرة يمكن للمجرم أن يخوضها لإرباكهم"

يبدو أن شرطة ستافوردشاير غير معتادة على تلقي الاقتراحات العملية من أفراد المجتمع.

"كلاب بوليسية"، يكرر كامبل. "في الواقع، زوج منها. يبدو وكأنه شيء من وقع إثارة رواية مروعة. "سيد هولمز، لقد كانت آثار أقدام كلب صيد ضخم!" ثم يبدأ بارسونز بالضحك ضحكة خافتة، ولا يطلب منه كامبل أن يصمت.

لقد سارت الأمور كلها على نحو فظيع، لا سيما الجزء الأخير، الذي فكر فيه جورج كجزئية لصالحه، ولم يناقشه حتى مع الأب. إنه مكتئب. يقف شرطيان على العتبة يراقبانه، أثناء مغادرته مركز الشرطة. تناهى إليه صوت الرقيب وهو يقول، "ربما يمكننا الاحتفاظ بالكلاب البوليسية في المكتبة"

يظهر أن الكلمات ترافقه طوال طريق عودته إلى بيت الكاهن، إذ يعطي والديه ملخصًا عن الاجتماع. يقرر أنه إذا رفضت الشرطة اقتراحاته، فسيساعدهم بكل الأحوال. يضع إعلانًا في صحيفة ليتشفيلد ميركوري المحلية وصحف أخرى يصف حملة الرسائل المتجددة، ويقدم مكافأة بقيمة خمسة وعشرين جنيهاً إسترلينياً تُدفع في حالة الإدانة الجنائية. يتذكر أن إعلان والده كل تلك السنوات الماضية أثّر تأثيرًا تحريضيًا فقط. لكنه يأمل أن يسفر إعلان المكافأة هذه المرة عن نتائج. ويعلن أنه محام قانوني.

بعد خمسة أيام، استُدعي المفتش للعودة إلى غرين هول. هذه المرة وجد نفسه أقل خجلاً من النظر حوله. لاحظ الساعة الطويلة تظهر فيها أطوار القمر، ونقش تظليلي من مشهد توراتي، وسجادة تركية باهتة، ومدفأة محشوّة بالحطب تحسبًا للخريف. في المكتب، شعر بانزعاج أقل من الموظ ذي العين الزجاجية، ومجلدات جلدية مربوطة من مجلة بانش آند فيلد. يحمل البوفيه الجانبي مجسمًا لسمكة كبيرة محشوة في علبة زجاجية، وثلاث أواني على حامل التانتالوس (المقفل المخصص للخمر).

بينما وجّه كبير المفتشين آنسون المفتش كامبل إلى كرسي، ظلّ هو واقفًا: حيلة من الرجال قصار القامة بحضور طويلي القامة، كما يدرك المفتش ذلك جيدًا. ولكن لم يكن لديه الوقت للتفكير في حيل السلطة. لم تكن الحالة المزاجية هذه المرة لطيفة.

"بدأ رجلنا الآن بالسخرية منا. هذه رسائل غريتوريكس. كم لدينا حتى الآن؟"

"خمس، يا سيدي"

"وقد وصلت للسيد رولي في محطة بريدج تاون مساء أمس"، وضع آنسون نظارته وبدأ في القراءة:

> سيدي، الطرف الذي ستخمن الأحرف الأولى له، سيجلب خطّاف صيد جديد إلى البيت في القطار من والسال مساء الأربعاء، وسيضعه في جيبه تحت معطفه، وإذا تمكنت أنت أو أصدقاؤك من سحب معطفه قليلاً فستلاحظه، إذ يبلغ طوله بوصة ونصف أطول من ذاك الذي رماه بعيدًا عن الأنظار، عندما سمع شخصًا ينحدر وراءه هذا الصباح. بذلك سيأتي بعد الخامسة أو السادسة، أو إن لم يرجع إلى المنزل غدًا، فسيرجع الخميس بالتأكيد، وقد ارتكبتَ خطأ بعدم إبقاء جميع ملابس الرجال المدنية في متناول اليد. لقد أرسلتَها بعيدًا جدًا. فكّر فقط، لماذا فعلها في مكان قريب حيث اختبأ اثنان منهم قبل أيام قليلة؟! ولكن يا سيدي، لديه عينا نسر، وأذناه حادتان مثل شفرة الحلاقة، وهو سريع الخطى مثل ثعلب وبلا ضجة،

يزحف على الأربعة إلى البهائم الفقيرة، ويدللها قليلاً، ثم يسحب خطّافه بذكاء عليها، ويطيّر أحشاءها قبل أن تفترض أنها تأذت. أنت في حاجة لمئة تحرٍّ، لضبطه متلبسًا بالجرم المشهود؛ لأنه يفر بسرعة، ويعرف كل زاوية وركن. أنت تعرف من هو، ويمكنني إثبات ذلك، ولكن إلى أن تُعرض مكافأة قدرها مئة جنيه إسترليني لتقديم الإدانة، لن أُفصّل بعد الآن أكثر.

نظر آنسون إلى كامبل، في دعوة له للتعليق. "لم يرَ أي من رجالي أي شيء مُلقىً بعيدًا يا سيدي. ولم يُعثر على أي أداة تشبه الخطّاف. قد تُشوّه الحيوانات أو لا، لكن الأحشاء لا تطير، كما نعلم. هل تريدني أن أراقب قطارات والسال؟"

"أعتقد بعد هذه الرسالة أنه بالكاد سيظهر شخص في معطف طويل في منتصف الصيف، مع دعوة للبحث"

"لا يا سيدي. هل تعتقد أن مبلغ مئة جنيه استرليني المعروضة هي رد متعمد على عرض المحامي للمكافأة؟"

"ربما. كان ذلك جزءًا فاضحًا من الوقاحة" توقف آنسون، وانتقى ورقة أخرى من مكتبه. "لكن الرسالة الأخرى -إلى الرقيب روبنسون في هيدنسفورد - أسوأ. حسنًا، احكم بنفسك" سلّم آنسون الرسالة.

ستكون هناك أوقات ممتعة في نوفمبر في ويرلي، حين يبدؤون في الفتيات الصغيرات؛ لأنهم سيفعلون بعشرين فتاة ريفية مثل فعلتهم في الخيول قبل مارس المقبل. لا تحسب أنك من المحتمل أن تقبض عليهم يقطّعون البهائم، إنهم هادئون للغاية، وقادرون على الاختفاء لساعات، حتى يرحل رجالك... السيد إدالجي، قيل إنه احتُجِز، وفي طريقه إلى بروم ليلة الأحد لرؤية الزعيم، بالقرب من نورثفيلد، حول كيفية الاستمرار في ذلك مع العديد من المحققين، وأعتقد أنهم سيولون بعض الأبقار اهتمامهم في النهار بدلاً من الليل... وقريبًا أعتقد أنهم سيقتلون البهائم الأقرب من هنا، وأنا أعلم أن مزرعة كروس كيز ومزرعة ويست كانوك هما على رأس القائمة... أنت أيها المنتفخ بالغرور الوغد، سأطلق النار على رأسك السميك ببندقية

والدك، إن اعترضت طريقي أو تسللت إلى أي من أصدقائي.

"هذا سيء يا سيدي. سيء جدًا. من الأفضل عدم الخروج. سيسود هلع في كل قرية. عشرون فتاة ريفية... في الواقع الناس قلقون بما يكفي على ماشيتهم"

"لديك أطفال يا كامبل؟"

"صبي وبنت صغيرة"

"نعم. الشيء الجيد الوحيد في هذه الرسالة هو التهديد بإطلاق النار على الرقيب روبنسون"

"هل هو شيء جيد يا سيدي؟"

"حسنًا، ربما ليس للرقيب روبنسون نفسه. لكن هذا يعني أن رجلنا تخطّى حدوده. التهديد بقتل ضابط شرطة. ضع ذلك على لائحة الاتهام، وسنكون قادرين على الحصول على الأشغال الشاقة مدى الحياة"

إذا استطعنا العثور على كاتب الرسالة، فكّر كامبل. "نورثفيلد، هيدنسفورد، والسال... إنه يحاول تشتيتنا"

"بلا شك أيها المفتش، دعني ألخص، إن لم يكن لديك اعتراض، وأخبرني إذا لم توافقني التفكير"

"نعم سيدي"

"أنت ضابط مُتمكّن للغاية... لا، لن نختلف على ذلك" دفع آنسون بأخف ابتسامة لديه. لكن هذا التحقيق عمره الآن ثلاثة أشهر ونصف، بما فيها ثلاثة أسابيع مع عشرين عنصرًا من عناصر التحرّي تحت إمرتك. لم توجّه أي تهمة لأحد، ولم يُقبض على أحد، ولا حتى استُبعد أحد بجدية وألقوا نظرة عليه. واستمرت عمليات التشويه. تتفق معي؟"

"أوافقك، سيدي"

"التعاون المحلي، الذي أعلم أنك تقارنهِ مقارنة سلبية بما واجهته في مدينة برمنغهام العظيمة، تبيّن أنه أفضل من المعتاد. هناك لمرة واحدة اهتمام أشمل من المعتاد لمساعدة الشرطة. لكن أفضل الشبهات التي توصلنا إليها حتى الآن جاءت من إدانات مجهولة المصدر. هذا "الزعيم" الغامض، على سبيل المثال، لا يناسبه العيش على الجانب الآخر

من برمنغهام. هل عليه أن يختبرنا؟ لا أعتقد ذلك. ما هي المنفعة المحتملة لزعيم على بُعد أميال في تشويه حيوانات لأشخاص لم يلتق بهم قط؟ رغم ذلك عدم القيام بزيارة إلى نورثفيلد سيعني أن تقصّي المحققين سيئ"

"أتفق معك"

"لذا نحن نبحث عن السكان المحليين، كما افترضنا دائمًا. أو شخص محلي. أنا أؤيد فكرة أكثر من فاعل. ربما ثلاثة أو أربعة. سيكون منطقيًا أكثر. تصورت كاتبًا واحدًا للرسائل، وآخر لنقل الرسائل إلى مدن مختلفة، وشخص واحد ماهر في التعامل مع الحيوانات، وواحد خطّط لإرشادهم جميعًا. وبعبارة أخرى، هم عصابة. أعضاؤها ممن يتجنبون التعامل مع الشرطة. في الواقع، إنهم يستمتعون بمحاولة تضليلنا ويميلون للتباهي.

"هم يطلقون أسماء لإرباكنا. بكل تأكيد. لكن مع ذلك، يظهر اسم واحد مرارًا وتكرارًا. إدالجي. إدالجي الذي سيلتقي الزعيم. إدالجي الذي قالوا إنه مُحتجَز. إدالجي المحامي عضو في العصابة. كانت لدي شكوكي دائمًا، مع ذلك شعرت أنه من المناسب الاحتفاظ بها لنفسي حتى الآن. أخبرتك أن تبحث عن الملفات. هناك حملة كتابة رسائل سابقة، وبشكل رئيسي ضد الأب. الحِيل والخدع والسرقات الصغيرة. نحن على وشك الإمساك به مع الوقت. في نهاية المطاف وجهت إلى الكاهن تحذيرًا شديد اللهجة بأننا نعرف من يقف وراءها، ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى توقفت. وهو المطلوب إثباته كما يمكنك القول، على الرغم من أنه للأسف لا يكفي للإدانة. ومع ذلك، إذا لم يعترف، فعلى الأقل وضعتُ حدًا له. لـ -ماذا؟- سبعة أو ثمانية أعوام.

"الآن عادت القضية للظهور مرة أخرى، وفي المكان ذاته. واسم إدالجي ظلّ يتردد. تشير رسالة غريتوريكس الأولى إلى ثلاثة أسماء، لكن الاسم الوحيد من بينها الذي يعرفه الشابَ نفسه هو إدالجي. بناء على ذلك، إدالجي يعرف غريتوريكس. وفعل الشيء نفسه في المرة الأولى... لم يستثنِ نفسه من الإدانة. لكن هذه المرة هو أكبر سنًا، وغير راض عن اصطياد طيور الشحرور وليّ رقابها. وهذه المرة يسعى وراء أشياء أكبر حرفيًا: الأبقار والخيول. ولا يمتلك إلا القليل من قدرته الجسدية، لذا جنّد آخرين لمساعدته على أداء المهمة. وهو الآن يرفع التحدّي، ويهددنا بعشرين فتاة ريفية. عشرون فتاة ريفية يا كامبل"

"في الواقع يا سيدي. هل تسمح لي بطرح سؤال أو سؤالين؟"

"تفضل"

"كبداية، لماذا يجب أن يدين نفسه؟"

"يدرج اسمه بقصد في قوائم الأشخاص الذين نعرف أنهم لا يمكن أن يكون لهم أي علاقة بالموضوع؛ لتضليلنا"

"لذا فهو يقدم مكافأة مقابل القبض عليه أيضًا؟"

"وبهذه الطريقة يضمن ألا أحد يطالب بها سواه" ضحك آنسون ضحكة مكتومة، لكن النكتة بدا أنها ضاعت عند كامبل. "وبالطبع، هذا استفزاز إضافي للشرطة. انظر كيف يقترف رجال الشرطة أخطاء فادحة، في حين أن المواطن المسكين النزيه عليه أن يقدم الكثير؛ لحل لغز الجريمة. تعال لنفكر في الأمر، قد يترجم هذا الإعلان على أنه تشهير بالقوة.."

"لكن -معذرة يا سيدي- لماذا ينبغي على محامي برمنغهام جمع عصابة من السكان المحليين العنيفين من أجل تشويه الحيوانات؟"

"لقد التقيت به يا كامبل. ما الانطباع الذي خلّفه لديك؟"

أعاد المفتش النظر في انطباعاته. "ذكي. عصبي. مُتلهف لينال الرضا في البداية. ثم يُعجّل في الإساءة قليلاً. قدّم لنا بعض النصائح ولم يظهر علينا الحماس. اقترح أن نحاول استخدام كلاب بوليسية"

"كلاب بوليسية؟ هل أنت متأكد من أنه لم يذكر أي شيء عن مقتفي الأثر المحليين؟"

"لا يا سيدي، الكلاب البوليسية. الشيء الغريب هو أنني حين استمعت إلى صوته -كان صوتًا مثقفًا، صوت محامٍ- وجدت نفسي أفكر عند نقطة ما، أنك إن أغمضت عينيك، فستعتقد أنه رجل إنجليزي"

"في حين أنك لو تركتهما مفتوحتين، لن تخطئه كعضو في لواء الحرس بالضبط؟"

"يمكنك أن ترى الأمر بهذه الطريقة، يا سيدي"

"نعم. يبدو الأمر -بعينين مفتوحتين أو بعينين مغمضتين- كما لو أن انطباعك عن شخص يشعر أنه بمرتبة أسمى. كيف يمكنني أن أفترض؟ شخص يعتقد أنه ينتمي إلى طبقة أعلى؟"

"ربما. لكن لماذا يرغب مثل هذا الشخص في التمثيل بالخيول؟ بدلاً من إثبات أنه ذكي ومتفوق، عبر اختلاس مبالغ كبيرة من المال على سبيل المثال؟"

"من الذي يقول إنه لم يصل لذلك أيضًا؟ بصراحة كامبل، لماذا تهمّني أقل بكثير من كيف ومتى وماذا؟"

"نعم يا سيدي. لكن إذا طلبت مني أن أعتقل هذا الشخص، فقد يكون من المفيد الحصول على فكرة عن دوافعه"

كره آنسون هذا النوع من الأسئلة، والذي برأيه طُرِح مرارًا في الوقت الحاضر في كثير من الأحيان عن عمل الشرطة. سيطر شغف بالحفر عميقًا في ذهن المجرم. ما قمتَ به هو الإمساك برجل واعتقاله وتوجيه الاتهام إليه وإبعاده لبضع سنوات قابلة للزيادة. لم يكن من المفيد كثيرًا التحقق من القدرات العقلية لمجرم أفرغ مسدسه أو حطّم نافذتك. أوشك قائد الشرطة على أن يقول الكثير عندما حثّه كامبل.

"بعد كل شيء، يمكننا استبعاد الكسب كدافع. لا يبدو الأمر كما لو أنه دمر ممتلكاته بهدف رفع دعوى ضد التأمين"

"الرجل الذي أشعل النار في كومة قش جاره لا يفعل ذلك من أجل الكسب. يفعل ذلك بدافع الحقد. يفعل ذلك من أجل أن يستمتع برؤية اللهب في السماء، والخوف على وجوه الناس. في قضية إدالجي، ربما تكون هناك بعض الكراهية العميقة للحيوانات. ستقوم بالتحقيق في ذلك بلا شك. أو أن نمطًا معينًا هناك نوعًا ما في توقيت الهجمات، إن حدثت معظمها في أول الشهر، فقد يكون شيء من التورط في مبدأ القرابين. ربما الأداة الغامضة التي نبحث عنها هي سكين طقس شعائري من أصل هندي. سكين كوركي أو شيء من هذا. والد إدالجي هو بارسي، كما فهمت. ألا يعبدون النار؟"

اعترف كامبل بأن الأساليب الاحترافية لم تسفر عن شيء حتى الآن؛ لكن لا توجد رغبة في رؤية مثل هذه التكهنات الفضفاضة تحل محلها. وإن كان البارسي يعبد النار، ألا تتوقع أن يقترف الرجل جرم حرق الممتلكات عمدًا؟

"بالمناسبة، أنا لا أطلب منك إلقاء القبض على المحامي"

"لا يا سيدي؟"

"لا. ما أطلبه منك –آمرك به– هو أن تُكرّس قدراتك له. راقب بيت الكاهن في سرية تامة خلال النهار، وعليك تتبعه إلى المحطة، وخصّص رجلاً لبرمنغهام -في حالة تناول الغداء مع الزعيم الغامض- ثم حاصر المنزل بعد حلول الظلام. تمكّن منه كي لا يستطيع التسلل من الباب الخلفي والبصق دون التعرض لأي تحرٍّ من عناصر الشرطة. سيفعل شيئًا، أعلم أنه سيفعل شيئًا"

جورج

يسعى جورج لمواصلة حياته كالمعتاد: هذا حقه كرجل إنجليزي حر، بعد كل شيء. لكن يصعب الأمر حين تشعر بأنك تتجسس عليه. عندما تنتهك الشخصيات الخبيثة أراضي بيت الكاهن في الليل، وحين يجب إخفاء الأمور بعيدًا عن مود وحتى عن والدته في بعض الأحيان. يتلفظ الأب بالصلوات بقوة كما دائمًا، وتكررها النساء بقلق. تتزعزع ثقة جورج بحماية الرّب أكثر من أي وقت مضى. اللحظة الوحيدة في اليوم التي يعتبرها آمنة هي حين يقفل والده باب حجرة النوم.

في بعض الأحيان يرغب في سحب الستائر وفتح النافذة، وإلقاء الكلمات الساخرة على المتلصصين الذين يعلم أنهم هناك. ويفكر أنه يا له من تبذير للمال العام مثير للسخرية. ولإثارة استغرابه، وجد أنه أصبح صاحب مزاج حاد. ولمضاعفة استغرابه، يشعر بالنضج إلى حد ما. بينما يتسكع في الأزقة ذات مساء كالمعتاد، تبعه شرطي من العناصر الخاصة خلفه من بعيد. يتلفّت جورج وراءه بغتة ويواجه المُتعقِّب، وهو رجل ذو وجه ماكر يرتدي بدلة تويد من الصوف الخشن، يبدو كأنه في حانة وضيعة.

"هل أنت في حاجة مساعدتي لأدلّك على الطريق؟" يسأل جورج بالكاد تمسكًا بالذوق العام.

"يمكنني أن أعتني بنفسي، شكرًا لك"

"لست من سكان الجوار؟"

"والسال، بما أنك تسأل"

"هذه ليست طريق والسال. لماذا تسير في أزقة غريت ويرلي في هذا الوقت؟"

"قد يتبادر إلى ذهني أن أسألك السؤال نفسه"

إنه رجل وقح، كما يعتقد جورج. "أنت تتعقبني بناء على تعليمات المفتش كامبل. إنه أمر مفهوم جدًا. هل تحسبني أبله؟ النقطة الوحيدة المثيرة للاهتمام هي ما إذا أمرك كامبل بأن تجعل نفسك مرئيًا في كل الأوقات، وفي هذه القضية قد يرقى سلوكك إلى عرقلة الطريق العام، أو ما إذا أمرك بالبقاء مُتخفيًا، في هذه القضية أنت تحرٍّ خاص غير كفء أبدًا"

يكشف الرجل عن ابتسامة، قائلًا: "هذا بيني وبينه، ألم تقل ذلك؟"

"أود أن أقول هذا، أيها الرجل الطيب"، -والغضب الآن تعاظم وغدا مثل خطيئة- "أنت ومن هم على شاكلتك هدر كبير للميزانية العامة. لقد بلغت القرية بعد جيد جهيد منذ أسابيع وليس لديك شيء، لا شيء على الإطلاق، لتظهره"

يعاود الشرطي الابتسام مرة أخرى ببساطة، ويقول: "بهدوء، بصوت منخفض"

في ذلك الوقت المتأخر، يقترح الكاهن أن يأخذ جورج مود إلى آبريستويث في نزهة ليوم واحد. لكن جورج يرفض رفضًا قاطعًا، ويقول بنبرة آمرة إن لديه عمل كثير، ولا يرغب في عطلة. لن يتراجع إلى أن تشارك مود في التبرير، ثم يوافق على مضض. وفي يوم الثلاثاء، يغيبان من الفجر حتى آخر الليل. تشرق الشمس على رحلة قطار - كل مئة وأربعة وعشرين ميلًا من جي دبليو آر - ممتعة وبلا حوادث. يشعر الأخ والأخت بإحساس الحرية على غير العادة. يسيران على الواجهة البحرية، ويتفحصان واجهة الكلية الجامعية، ويتنزهان حتى نهاية الرصيف (رسوم الدخول، بنسان). إنه يوم من أيام أغسطس الجميلة مع نسائم لطيفة، وهما متفقان تمامًا على أنهما لا يرغبان في ركوب قارب للنزهة حول الخليج، كما أنهما لن ينضما إلى جامعي الحصاة على الشاطئ. بدلًا من ذلك، يأخذان الترام من الطرف الشمالي للمنتزه حتى حدائق كليف على تل كونستيتيوشن. بينما يصعدان الترام، ثم يهبطان بعدئذ، أخذا يستعيدان الذكريات الجيدة للمدينة وخليج كارديغان. كل من يتحدثا إليه في المنتجع مدنيًا، بما في ذلك الشرطي بزيه الرسمي الذي يقدم المشورة لتناول طعام الغداء في فندق ذا بيل فيو، أو في واترلو إن لم يكونا معتدلين في معاقرة الخمور قطعًا. يناقشان مواضيع

آمنة، مثل هوراس والخالة الكبيرة ستونهام، والأشخاص على الطاولات الأخرى، إلى جانب الدجاج المشوي وفطيرة التفاح. بعد الغداء، يصعدان إلى القلعة، التي يصفها جورج بحس فكاهي لطيف بأنها جريمة بموجب قانون بيع السلع، تتكون من عدد قليل من الأبراج والأجزاء المهدمة. يشير أحد المارة هناك، إلى يسار تل كونستيتيوشن حيث قمة سنودون. شعرت مود بالسرور، لكن جورج لم يتمكن من التظاهر بذلك على الإطلاق. في أحد الأيام، وعدته بأنها ستشتري له زوجًا من المناظير. تسأل عما إذا ترام آبريستويث تحكمه القوانين ذاتها التي تحكم السكك الحديدية في القطار المؤدي للبيت. ثم تتوسل جورج أن يضع لها لغزًا آخر، كما اعتاد أن يفعل في حجرة الدراسة. يبذل قصارى جهده؛ لأنه يحب أخته، التي تبدو فرحة في هذه اللحظة ولكن قلبه ليس معه.

في اليوم التالي، تُسلَّم بطاقة بريدية إلى شارع نيوهول. إنها دفقة أحاسيس خسيسة تتهمه بعلاقة آثمة مع امرأة في كانوك: "سيدي. هل تعتقد أن من المناسب لشخص في منصبك أن يتواصل مع الأخت ----- ----- كل ليلة ترى أنها ستتزوج من فرانك سميث الاشتراكي" لا حاجة للقول، أنه لم يسمع بأي من الطرفين. ينظر إلى الرمز البريدي: ولفرهامبتون، الثانية عشرة ونصف ظهرًا. في الرابع من أغسطس لعام ألف وتسعمئة وثلاثة. حين جلس هو ومود لتناول الغداء في فندق ذا بيل فيو، فكّر في هذا التشهير المثير للاشمئزاز.

قادته البطاقة البريدية إلى أفكار حاسدة عن هوراس، الذي أصبح الآن سعيدًا محظوظًا بضريبة الدخل في مانشستر. يبدو أن هوراس يمضي في الحياة بلا أذى. ينتقل من يوم لآخر، ويصل طموحه إلى ما لا يزيد عن تسلق بطيء للسلم، ورضاه مستمد من رفقة النساء، التي يسقطها بتلميحات غير مفهومة. الأهم من ذلك كله، أن هوراس أفلت من غريت ويرلي. يشعر جورج كما لم يحدث من قبل أنها لعنة المولود البِكر، وأن تُعلَّق عليه الآمال، ولعنة أنه قد حظي بذكاء أكثر أيضًا، وثقة أقل بنفسه من شقيقه. يملك هوراس كل الأسباب للشك في نفسه، لكنه لا يفعل. بينما جورج على الرغم من نجاحه الأكاديمي ومؤهلاته المهنية، فإنه يعاني من الخجل. حين يجلس خلف المكتب، شارحًا القانون، يمكنه أن يكون واضحًا وحتى حازمًا. ولكنه لا يملك القدرة على التحدث باستخفاف أو سطحية. كما أنه لا يعرف كيف يريح الناس. وهو يدرك أن البعض يعتبره غريب المظهر.

يأخذ جورج في السابعة وتسع وثلاثين دقيقة طريقه إلى نيو ستريت كالمعتاد، في يوم الاثنين الموافق للسابع عشر من أغسطس لعام ألف وتسعمئة وثلاثة، ثم يعود بحلول الخامسة وخمس وعشرين دقيقة كالعادة، يصل إلى بيت الكاهن قبل السادسة والنصف بقليل. يعمل لفترة من الوقت، ثم يرتدي معطفًا ويمشي ليلتقي الإسكافي، السيد جون هاندز. يعود إلى بيت الكاهن قبل التاسعة والنصف بقليل، ويتناول العشاء، ويرجع إلى الحجرة حيث ينام مع والده. أبواب بيت الكاهن مقفلة ومغلقة، وباب حجرة النوم مقفل، وينام جورج نومًا متقطعًا كما حدث في الأسابيع الأخيرة. في صباح اليوم التالي، يستيقظ في السادسة، وباب حجرة النوم مفتوح في السادسة وأربعين دقيقة، وفي السابعة وتسع وثلاثين يركب إلى نيو ستريت.

لم يدرك أن هذه هي آخر أربع وعشرين ساعة طبيعية في حياته.

كامبل

هطلت أمطار غزيرة في ليلة السابع عشر، مع هبوب رياح عاصفة. لكن مع بزوغ الفجر، انجلت العاصفة. بينما انطلق عمال المناجم في نوبة عمل مبكرة إلى منجم غريت ويرلي، هبّت طراوة في الهواء بعد أمطار الصيف. يقطع فتى المنجم المدعو هنري غاريت حقلًا في طريقه إلى العمل، عندما لاحظ أن أحد مهور المنجم في حالة كرب. اقترب أكثر، فرأى أنه بالكاد قادر على الوقوف، وينزف بغزارة.

تجلب صرخات الفتى مجموعة من عمال المناجم الخائضين في الوحل، كي يعبروا الحقل ليفحصوا الشق الطويل عبر بطن المهر، وتناثر الطين المُخضّب بالدم تحته. في غضون ساعة، وصل كامبل مع ستة من عناصر الشرطة، واستُدعي السيد لويس الجراح البيطري. سأل كامبل عن مسؤول الدوريات في هذا القطاع. ردّ الشرطي كوبر بأنه عبر الحقل حوالى الساعة الحادية عشرة، وبدا أن المهر على ما يرام. لكن حِلكة الليل، حالت بينه وبين الاقتراب من المهر.

إنها القضية الثامنة خلال ستة أشهر، والحيوان السادس عشر الذي مُثّل به. فكّر كامبل قليلاً في المهر، والإشفاق الذي غالبًا أظهره حتى أقسى عمّال المناجم تجاه مثل هذه البهائم، فكّر قليلاً في كبير المفتشين آنسون وقلقه على سمعة ستافوردشاير الحسنة، ولكن أغلب ما جال في رأسه وهو ينظر إلى الجرح النازف ويشاهد ترنّح المهر، هي الرسالة التي أظهرها له قائد الشرطة. وأشار إلى أن هناك أوقاتًا ممتعة في ويرلي في نوفمبر. ومن ثم سيفعلون بعشرين فتاة ريفية ما فعلوه مع الخيول قبل مارس المقبل. وكلمتين إضافيتين: الفتيات الصغيرات.

عمل كامبل كشرطي كفؤ، وكما ذكر آنسون، اتصف بأنه مطيع ورزين. لم يحمل تصورات مسبقة عن هذا النوع الإجرامي. كما أنه لم يقدم النظرية المتسرعة أو الحدس المتساهل. ومع ذلك، يقع الحقل الذي وقع فيه الفعل المشين مباشرة بين المنجم وويرلي. إذا رسمتَ خطًا مستقيمًا من الحقل إلى القرية، المنزل الأول الذي ستصل إليه هو بيت الكاهن. المنطق المشترك وكذلك قائد الشرطة، جعلا الزيارة حتمية.

"هل شوهد أي شخص هنا في بيت الكاهن الليلة الماضية؟"

عرّف الشرطي جاد عن نفسه، وتحدث عن الطقس الشيطاني والمطر الذي يهطل في عينيه كثيرًا، وهو ما قد يعني أنه قضى نصف الليل محتميًا تحت شجرة. لم يتخيل كامبل ألا يكون لدى رجال الشرطة شيء من الضعف البشري. لكن على أي حال، لم يشاهد جاد أحدًا يأتي ولا أحدًا يذهب. أُطفئت الأضواء في تمام الساعة العاشرة والنصف، كما هو معتاد دائمًا. حتى الآن، كانت ليلة من تلك الليالي الخوالي الجامحة، حضرة المفتش...

ظهر كامبل عند السابعة وخمس عشرة دقيقة. أَرسل ماركو، الذي يعرف المحامي، ليحتجزه في المركز. طلب من كوبر وجاد انتظار الجرّاح، وإبعاد الفضوليين، ثم أرشد بارسونز وعناصر الشرطة الباقين إلى أكثر الطرق مباشَرة إلى بيت الكاهن. شقّوا الطريق عبر زوجٍ من الوشيع، وخط السكة الحديدية لاجتياز ممر تحت الأرض، لكنهم تمكنوا من ذلك بلا صعوبة في أقل من خمس عشرة دقيقة. قبل الساعة الثامنة، نشر كامبل شرطيًا في كل ركن من أركان البيت في حين قرع هو وبارسونز مطرقة الباب. لم يكن الخطر على الفتيات الريفيات العشرين فقط، بل خطر إطلاق النار على رأس روبنسون بمسدس

شخص ما أيضًا.

أرشدت الخادمة الشرطيين إلى المطبخ، حيث زوجة الكاهن وابنته تكملان فطورهما. بدت الأم من وجهة نظر بارسونز خائفة، وابنتها الهجينة متوعكة.

"أود أن أتحدث إلى ابنك جورج"

كانت زوجة الكاهن ضئيلة وهزيلة البنية، غزا الشيب معظم شعرها. تحدثت بهدوء، وبلكنة أسكتلندية واضحة. "غادر للتو إلى مكتبه. سيأخذ قطار السابعة وتسع وثلاثين. إنه محام في برمنغهام"

"أنا على علم بذلك يا سيدتي. وبعد يجب أن أطلب منك أن تريني ملابسه. كل ملابسه، بلا استثناء"

"اذهبي يا مود، وأحضري والدك"

التفت بارسونز سائلاً إذا وجب عليه أن يتبع الفتاة، لكن كامبل أشار ناهيًا. بعد دقيقة أو نحوها، ظهر الكاهن: شخص قصير، وقوي، وذو بشرة فاتحة، وخاليًا من أي غرابة. فكّر كامبل شعر أبيض لكن حسن المظهر بهيئة هندوسية نوعًا ما.

وكرّر المفتش طلبه.

"يجب أن أسألك عن الموضوع الذي تحقق فيه، وما إذا كان لديك أمر تفتيش"

"عُثر على مهر صغير.." تردد كامبل لفترة وجيزة، نظرًا لوجود النساء، "... في حقل قريب... شخص ما آذاه"

"وأنت تشك أن ابني جورج من فعلها"

تحيط الأم ابنتها بذراعها.

"دعنا نقول إنه سيكون من المفيد للغاية استبعاده من التحقيق إن أمكن" ذاك الاتهام الكاذب القديم، كما يعتقد كامبل، يكاد يخجل من إثارته مرة أخرى.

"لكن ليس لديك مذكرة تفتيش؟"

"ليست معي الآن يا سيدي"

"جيد جدًا. شارلوت، اعرضي ملابس جورج عليه"

"شكرًا لك. ولن تعترض إذا طلبت من عناصري تفتيش المنزل والأراضي المجاورة"

"لن أمانع، إن ساعد هذا في استبعاد ابني من تحقيقاتك"

كل شيء جيد إلى الآن، كما اعتقد كامبل. في الأحياء الفقيرة في برمنغهام، كان سيطلب من والده السير معه للّعب بورق البوكر، وسط زعيق الوالدة، ومحاولة الابنة خمش عينيه. على الرغم من أن ذلك أسهل بطريقة ما، إلا أنه عُدّ بمثابة اعتراف بالذنب تقريبًا.

طلب كامبل من رجاله البحث عن أي سكاكين أو شفرات حلاقة أو أدوات زراعية أو أدوات بستنة، ربما استُخدمت في الهجوم، ثم صعدوا إلى الطابق العلوي مع بارسونز. وُضعت ملابس المحامي على سرير، بما في ذلك، حسب الطلب، القمصان والملابس الداخلية. بدت نظيفة وجافة الملمس.

"هذه كل ثيابه؟"

ترددت الأم قبل الإجابة. قالت: "نعم". وبعد ذلك، بعد بضع ثوان، "بصرف النظر عما لديه"

حسنًا بالطبع، فكّر بارسونز، لا أعتقد أنه ذهب للعمل عاريًا. يا له من تصريح غريب. قال بفتور: "أحتاج إلى رؤية سكّينه"

"سكّينه؟" نظرت إليه بتعجب. "أتقصد، السكّين التي يأكل بها؟"

"لا، سكّينه. كل شاب لديه سكّين"

قال الكاهن بحدة: "ابني محام. إنه يعمل في مكتب. لا يجلس مُحاطًا بالعصي المَبْرِيّة"

"لا أعلم كم مرة قيل لي أن ابنك محام. إنني أدرك ذلك جيدًا. كما أدرك أن كل شاب لديه سكين"

بعد بعض الهمس، اختفت الابنة، وعادت بشيء قصير، وغليظ سلّمته بتحد. قالت: "هذه هي حفّارة نباتاته"

لمح كامبل بنظرة واحدة أن الأداة لم تكن من الممكن أن تلحق نوع الضرر الذي شهده مؤخرًا. ومع ذلك تظاهر باهتمامه الكبير، وأخذ الحفّارة إلى النافذة وقلّبها في الضوء.

"لقد وجدنا هذه يا سيدي" قالها شرطي حاملاً حقيبة تحتوي على أربع شفرات. تبدو إحداها مبللة. وأخرى ملطخة ببقع حمراء على ظهرها.

"إنها شفراتي" ردّ الكاهن سريعًا.

"واحدة منها مبللة"

"لا شك، لأني حلقت فيها قبل ساعة بالكاد"

"وابنك... بماذا يحلق؟"

ساد الصمت لفترة قصيرة. "يحلق بواحدة منها"

"إذن هي ليست شفراتك بالمعنى الدقيق للكلمة يا سيدي؟"

"على العكس. لطالما كانت هذه مجموعة شفراتي. فقد امتلكتها لأكثر من عشرين عامًا، وعندما حان الوقت لكي يحلق ابني، سمحت له باستخدام واحدة"

"وهل ما يزال يستخدمها؟"

"نعم"

"أنت لا تثق بتخصيص شفرات حلاقة له؟"

"إنه ليس في حاجة إلى تخصيص شفرات حلاقة"

"الآن لماذا لا يُسمح له باقتناء شفرات حلاقة له وحده؟" هذا ما صرّح به كامبل على أنه نصف سؤال، في انتظار لمعرفة ما إذا اختار أي شخص الرد عليه. لا، لم يعتقد. هناك أمر غريب بعض الشيء في هذه الأسرة، ولا يمكن أن يضع إصبعه عليه. لا يمكنه وصفها بأنها غير متعاونة، مع ذلك في الوقت نفسه شعر بها غير صريحة.

"لقد خرج ابنك في الليلة الماضية"

"نعم"

"كم من الوقت أمضى خارجًا؟"

"لست متأكدًا حقًا. ساعة، ربما أكثر. شارلوت؟"

مرة أخرى، بدا أن الزوجة استغرقت وقتًا غير مقبول للتفكير في سؤال بسيط. "ساعة ونصف، ساعة وثلاثة أرباع الساعة"، همست أخيرًا.

كما أثبت كامبل للتو، إنه الوقت الكافي وأكثر للوصول إلى الحقل والعودة. "ومتى كان ذلك؟"

"بين حوالى الثامنة والتاسعة والنصف"، أجاب الكاهن على الرغم من أن سؤال

بارسونز كان موجهًا إلى زوجته. "ذهب إلى الإسكافي"

"لا، قصدت بعد ذلك"

"بعد ذلك، لا"

"لكني سألت إن خرج في الليل، وقلت إنه خرج"

"لا، أيها المفتش، سألت إذا خرج في الليلة الماضية، وليس ليلاً"

أومأ كامبل، فهو ليس أحمقًا، إنهم رجال الدين. "حسنًا، أود أن أرى جزمته"

"جزمته؟"

"نعم، الجزمة التي خرج بها. وأرني البنطال الذي ارتداه"

إنها جافة، ولكن الآن بعد أن تفحصها كامبل مرة أخرى، رأى الطين الأسود في باطنها. غطّى الطين الجزمة عند إخراجها، التي مازالت رطبة.

"لقد وجدت هذا أيضًا يا سيدي"، قال الرقيب الذي أحضر الجزمة. "أشعر أنه رطب" وسلّمه معطف صوف أزرق.

"أين وجدت هذا؟" مرّر المفتش يده على المعطف. "نعم، إنه رطب"

"مُعلّق خلف الباب فوق الجزمة مباشرة"

قال الكاهن: "دعني أتحسسه"، مرّر يده على الكم، وقال: "إنه جاف"

"إنه رطب"، كرّر كامبل مفكرًا، بل أكثر من ذلك، أنا شرطي. "إذن لمن هذا؟"

"لجورج"

"لجورج؟ طلبت منك أن تريني كل ثيابه. بلا استثناء"

"وقد فعلنا" ...تقول والدته هذه المرة: "هذا كل ما أعتقد أنها ثيابه. هذا مجرد روب بيت قديم لا يرتديه أبدًا"

"أبدًا؟"

"أبدًا"

"هل يرتديه أي شخص آخر؟"

"لا"

"يا لهذا الغموض الشديد! معطف لا أحد يرتديه، ومع ذلك معلّق خلف الباب على

نحو مفيد. دعني أبدأ مرة أخرى. "هذا معطف ابنك. متى ارتداه آخر مرة؟"

تبادل الوالدان النظرات. في النهاية قالت الوالدة: "ليست لدي فكرة. إنه رثّ للغاية كي يخرج به، وليس لديه سبب لارتدائه في المنزل، ربما لبسه للبستنة"

"الآن دعني أرى" قال كامبل، وهو يحمل المعطف قرب النافذة. "نعم، هناك شَعر هنا. و... أيضًا. و... نعم، آخر. بارسونز؟"

ألقى الرقيب نظرة، وأومأ برأسه.

"سأرى أيها المفتش" سُمح للكاهن بتفقد المعطف. "هذا ليس شعر. لا أرى أي شعر"

انضمت الأم وابنتها الآن، وهما تسحبان المعطف الأزرق بقوة، كما هو الحال في البازار. لوّح لهما ووضع المعطف على الطاولة. قال: "هناك" مشيرًا إلى كومة الشعر الأكثر وضوحًا.

"إنها لفّة للغزل"، قالت الابنة: "إنه ليس شعرًا، إنها لفّة للغزل"

"ما هي لفّة الغزل؟"

"إنها لفّة خيوط مفكوكة. يمكن لأي شخص أن يفهم ذلك، أي شخص حاك أي شيء في أي وقت مضى"

لم يسبق لكامبل أن خاط في حياته أبدًا، ولكن أمكنه التعرف على الذعر في صوت امرأة شابة.

"وانظر إلى هذه البقع، أيها الرقيب" هناك بقعتان متفرقتان على الكم الأيمن، واحدة تميل إلى البياض، وأخرى داكنة. لم ينطق أي منهما، لا هو ولا بارسونز، لكنهما فكّرا بالشيء نفسه. المائلة للبياض، لعاب المهر، والداكنة دم المهر.

"قلت لك، إنه معطفه البيتي القديم فقط. لن يخرج فيه أبدًا. وبالتأكيد لن يذهب بِهِ للإسكافي"

"إذن لماذا هو رطب؟"

"إنه ليس رطبًا"

جاءت ابنته بتفسير آخر مفيد لأخيها. "ربما تشعر به رطبًا لأنه مُعلّق خلف الباب"

جمع كامبل المعطف، والجزمة، والبناطيل، والملابس الأخرى التي حُدد أنه ارتداها

في مساء اليوم السابق، كما أخذ شفرات الحلاقة أيضًا. صدرت تعليمات للعائلة بعدم التواصل مع جورج حتى الحصول على إذن من الشرطة. تمركز رجل خارج بيت الكاهن، والآخرين أمرهم بالانتشار على الأرض. ثم عاد مع بارسونز إلى الحقل، حيث أكمل السيد لويس فحصه، وطلب إذنًا للمغادرة لينهي حياة المهر بالموت الرحيم. سيكون تقرير الجرّاح بين يدي كامبل في اليوم التالي. وطلب منه المفتش أن يقطع عينة من جلد الحيوان الميت. تعيّن على الشرطي كوبر أن يأخذ هذه العينة مع الملابس إلى دكتور باتر في كانوك.

أفاد ماركو أن المحامي رفض بفظاظة طلبه بالانتظار في محطة ويرلي. بناء على ذلك، أخذ كامبل وبارسونز أول قطار متاح –قطار التاسعة وثلاث وخمسين دقيقة - إلى برمنغهام.

"أسرة غريبة" قال المفتش، فيما كانا يعبران القناة بين بلوكويتش والسال.

"غريبة جدًا" يعضّ الرقيب شفته لبعض الوقت. "إن لم تعترض على حديثي يا سيدي، فقد تبيّن أنهم صادقون بما يكفي مع أنفسهم"

"أدرك ما تعنيه. إنه شيء من الأفضل أن يُدرّس في الصفوف الجنائية"

"ما هذا يا سيدي؟"

"الكذب ليس هو أكثر ما تحتاج إليه"

"لن يحدث هذا أبدًا" ضحك بارسونز ضحكة خافتة. "ومع ذلك، يجب أن تشعر بالأسف عليهم نوعًا ما. يحدث لهذا النوع من الأسر. إنه الخارج عن الأسرة، إذا سمحت لي بهذا التعبير"

"حتمًا سأفعل"

قدّم شرطيان نفسيهما في 54 شارع نيوهول بعد الساعة الحادية عشرة بقليل. مكتب صغير مكون من غرفتين، مع سكرتير يحرس باب المحامي. جلس جورج إدالجي مستسلمًا خلف مكتبه، وبادٍ عليه المرض والإنهاك.

قال كامبل، وهو في حالة تأهب لأي حركة مفاجئة من الرجل، "لا نريد البحث عنك هنا، لكن يجب أن تسلّمني مسدسك"

نظر إليه إدالجي بجمود. "ليس لدي مسدس"

"ما هذا إذن؟" أشار المفتش إلى شيء طويل ولامع أمامه على المكتب.

بدا المحامي مُنهكًا للغاية أثناء حديثه. أجاب كامبل: "ذاك أيها المفتش، هو مفتاح باب عربة سكة حديد"

"أمازحك" لكنه فكّر: مفاتيح. مفتاح مدرسة والسال بعد كل تلك الأعوام الماضية، والآن لدينا مفتاح آخر. هناك شيء غريب للغاية يحيط هذا الشخص.

"أستخدمه كثقّالة الورق،" أوضح المحامي. "ربما لديك سبب لتتذكّر، أنا سلطة في قانون السكك الحديدية"

أومأ كامبل برأسه. ثم حذر الرجل واعتقله. في سيارة أجرة في طريقهم إلى سجن نيوتن ستريت، قال إدالجي للضباط: "لست مندهشًا من هذا. توقعته منذ فترة"

اختلس كامبل النظر إلى بارسونز، وكتب ملاحظة متزامنة مع هذه الكلمات.

جورج

صادروا أمواله وساعته ومطواة صغيرة في نيوتن ستريت. حاولوا أيضًا أخذ منديله، في حال سعى لخنق نفسه. احتج جورج على أنه غير مناسب أبدًا لهذا الغرض؛ لذا سُمح له بالاحتفاظ به.

وضعوه في زنزانة مضيئة ونظيفة لمدة ساعة، ثم اقتادوه بحلول الساعة الثانية عشرة وأربعين دقيقة من نيو ستريت إلى كانوك. مغادرة والسال في الواحدة وثماني دقائق كما يعتقد جورج. بيرشيلز في الواحدة واثنتي عشرة دقيقة. بلوكسويتش في الواحدة وست عشرة دقيقة. ويرلي آند تشيرشبريدج عند الواحدة وأربع وعشرين دقيقة. وكانوك في الواحدة وتسع وعشرين. صرّح الشرطيان أنهما لن يُقيداه في الرحلة، وهو ما امتنّ له جورج. مع ذلك، عندما توقف القطار في ويرلي، طأطأ رأسه ورفع يده إلى خده في حال اكتشف السيد ميريمان أو العتّال الزي الرسمي لضابطي الشرطة، وانتشرت الأخبار.

نُصب له كمين، واقتيد إلى مركز الشرطة في كانوك. هناك أخذوا قياس طوله وتفاصيله. فُحصت ملابسه من بقع الدم. طلب منه أحد الضباط أن يسمح بنزع أصفاده،

ثم فتش معصميه. قال: "هل ارتديت هذا القميص في الحقل الليلة الماضية؟ لابد أنك قمت بتغييره لا دماء عليه"

لم يُجِب جورج. ولم يرَ أي جدوى لذلك. إذا أجاب "لا" على السؤال، سيعود الضابط لسؤاله: "أنت تعترف بوجودك في الحقل الليلة الماضية. أي قميص ارتديت؟" شعر جورج أنه متعاون جدًا إلى الآن، من الآن فصاعدًا سيقدم إجابات كافية على الأسئلة الضرورية وغير المهمة.

وضعوه في زنزانة صغيرة مع القليل من الضوء والهواء الشحيح، تنبعث منها رائحة المرافق العامة. حتى أنها تفتقر إلى الماء لأغراض الغسيل. لقد أخذوا ساعته لكنه تصور أن الوقت حوالى الثانية والنصف. فكّر قبل أسبوعين، قبل أسبوعين فقط، أنا ومود تناولنا الدجاج المشوي وفطيرة التفاح في فندق ذا بيل فيو، وسِرنا على طول الواجهة البحرية نحو أراضي قلعة آبريستويث، وأشرت بملحوظة خفيفة حول قانون بيع السلع وحاول أحد المارة الإشارة إلى قمة جبل سنودون. جلس على سرير منخفض في زنزانة الشرطة الآن، وأخذ أقل الأنفاس التي أمكنه أخذها، وانتظر ما سيحدث تاليًا. بعد ساعتين نُقل إلى غرفة الاستجواب حيث ينتظره كامبل وبارسونز.

"إذن سيد إدالجي، أنت تعرف ما نحن هنا لأجله"

"أعرف لماذا أنت هنا. واسمي آيدلجي، وليس إ.. دال.. جي"

تجاهل كامبل هذا. فكّر قائلًا: سأناديك كما أحب من الآن فصاعدًا حضرة المحامي. "وأنت تفهم حقوقك القانونية؟"

"أعتقد ذلك، أيها المفتش. أفهم قواعد إجراءات الشرطة. أدرك قوانين الأدلة وحق المتهم في التزام الصمت. أعلم التعويض المتاح في حالات الاعتقال غير المشروع والاحتجاز الظالم. أفهم في هذا الشأن، قوانين التشهير. وأعلم متى يجب عليك توجيه الاتهام لي أيضًا، ومتى بعد ذلك يجب أن تحضرني للمثول أمام القضاة"

توقع كامبل استعراض تحدي، على الرغم من أنه ليس من النوع العادي، الذي يتطلب في كثير من الأحيان رقيبًا وعدة ضباط لإخضاعه.

"حسنًا، هذا يسهل الأمر علينا أيضًا. ستخبرنا بلا شك إن تجاوزنا الحدود. لذا أنت

تدرك سبب وجودك هنا"

"أنا هنا لأنك قبضت عليّ"

"سيد إدالجي، لا جدوى من أن تتذاكى معي. لقد تعاملت مع حالات أصعب بكثير منك. الآن، أخبرني لماذا أنت هنا؟"

"أيها المفتش، أنا لا أنوي الإجابة على ذاك النوع من الملاحظات العامة التي توظفها بلا شك عند السعي إلى خداع المجرمين العاديين. ولا أعتزم الرد إذا انطلقت مما قد ترفضه سلطتنا القضائية على اعتبار أنه تصيد للمعلومات. سأجيب بأكبر قدر ممكن من الصدق على أية أسئلة محددة وذات صلة تختار طرحها"

"هذا جيد جدًا بالنسبة لك. ثم أخبرني عن الزعيم"

"أي زعيم؟"

"أنت أخبرني"

"أنا لا أعرف أي شخص يدعى الزعيم. إلا إذا عنيت كبير المفتشين آنسون"

"لا تحاول أن تتواقح معي، جورج. نعلم أنك تزور الزعيم في نورثفيلد"

"لم أذهب إلى نورثفيلد في حياتي أبدًا، بقدر ما أعلم. في أي تواريخ يفترض أني زرت نورثفيلد؟"

"أخبرني عن عصابة غريت ويرلي"

"عصابة غريت ويرلي؟ الآن أنت تتحدث بإثارة كرواية مروعة، حضرة المفتش. لم أسمع أبدًا أي شخص يتحدث عن مثل هذه العصابة"

"متى التقيت شيبتون؟"

"لا أعرف أحدًا يدعى شيبتون"

"متى قابلت لي العتّال؟"

"لي العتّال، عتّال المحطة، هل هو من تقصده؟"

"دعنا نسميه عتّال المحطة، إذا كان هذا ما تخبرني به"

"لا أعرف أي عتّال اسمه لي. برغم علمي أنني ربما صادفت العتّالين الذين أجهل أسماءهم، وربما أحدهما يدعى لي. جاينس هو العتّال في ويرلي آند تشيرشبريدج"

"متى التقيت ويليام غريتوريكس؟"

"لا أعرف أحدًا... اسمه غريتوريكس؟ هذا الصبي في القطار؟ الذي ذهب إلى مدرسة غرامر والسال؟ ما علاقته بهذا؟"

"أنت أخبرني"

صمت.

"إذن، هل شيبتون ولي عضوان في عصابة غريت ويرلي؟"

"أيها المفتش، إجابتي على ذلك بالكامل ضمن إجاباتي السابقة. من فضلك لا تُهِن ذكائي"

"ذكاؤك أولويتك، أليس كذلك، سيد إدالجي؟"

صمت.

"يهمك أن تكون أكثر ذكاء من الآخرين، أليس كذلك؟"

صمت.

"ولإثبات ذلك الذكاء العظيم"

صمت.

"هل أنت الزعيم؟"

صمت.

"أخبرني بالضبط، كيف كانت تحركاتك البارحة؟"

"البارحة. ذهبت للعمل كالمعتاد. تواجدت في مكتبي في شارع نيوهول طوال اليوم، باستثناء الوقت الذي قضيته في التهام شطائري في منطقة سانت فيليب. عدت كالعادة حوالى السادسة والنصف. ثم أنجزت بعض المهمات..."

"ما هي هذه المهمات؟"

"بعض المهمات القانونية التي أحضرتها من المكتب. قوانين نقل ملكية صغيرة"

"وبعد ذلك؟"

"ثم غادرت المنزل، وسرت لألتقي السيد هاندز الإسكافي"

"لماذا؟"

"لأنه يصنع لي زوجًا من الجزمات"

"هل لهاندز يد في هذا أيضًا؟"

صمت.

"و؟"

"وتحدثت إليه وهو يقوم بتجهيز الجزمة. ثم تجولت سيرًا على الأقدام لفترة قصيرة ثم عدت قبل التاسعة والنصف بقليل من أجل العشاء"

"أين تجولت؟"

"في الأرجاء، في أرجاء الأزقة. أمشي كل يوم. حقًا أنا لا أبالي أبدًا"

"إذن، لقد مشيت صوب منجم الفحم؟"

"لا، لا أعتقد ذلك"

"هيا جورج، يمكنك أن تتذكر أفضل من هذا. قلت إنك مشيت في كل اتجاه، ولكنك لا تذكر أيًا منها. أحد الاتجاهات من ويرلي نحو منجم الفحم. لماذا لم تختر السير في هذا الاتجاه؟"

"إذا منحتني لحظة"، ضغط جورج بأصابعه على جبهته. "أتذكر الآن. مشيت على طول الطريق إلى تشيرشبريدج. ثم اتجهت يمينًا نحو طريق شارع واتلينغ، ثم إلى ووك ميل، ثم على طول الطريق حتى مزرعة غرين"

حَسِب كامبل أن هذا مثير للإعجاب جدًا لشخص لا يتذكر مكان مشيه. "ومن قابلت في مزرعة غرين؟"

"لا أحد. لم أدخل. لا أعرف هؤلاء الناس"

"ومن التقيت في نزهتك؟"

"السيد هاندز"

"لا. أنت التقيت بالسيد هاندز قبل أن تمشي"

"لست متأكدًا. ألم تعين تحرٍّ من الشرطة كي يتبعني؟ ما عليك إلّا استشارة الرجل للحصول على كشف كامل لتحركاتي"

"آه، سأفعل، سأفعل. وليس فقط معه. ثم تناولت عشاءك، وخرجت مرة أخرى"

"لا. بعد العشاء ذهبت إلى الفراش"

"ثم استيقظت في وقت لاحق وخرجت؟"

"لا، لقد أخبرتك، عندما خرجت"

"ماذا ارتديت؟"

"ماذا ارتديت؟ جزمة وبنطال وجاكيت ومعطف"

"أي نوع من المعاطف؟"

"معطف صوف أزرق"

"ذاك المُعلّق خلف باب المطبخ حيث تترك جزمتك؟"

قطّب جورج حاجبيه. "لا، ذاك روب بيت قديم. ارتديت المعطف الذي أحتفظ به على حامل الصالة"

"إذن لماذا كان معطفك رطبًا خلف الباب؟"

"لا أملك أي فكرة. لم ألمس هذا المعطف لأسابيع وربما لأشهر"

"لقد ارتديته الليلة الماضية. يمكننا أن نثبت ذلك"

"ومن الواضح أن هذا أمر يخص المحكمة"

"الملابس التي ارتديتها الليلة الماضية عليها شعر حيوانات"

"هذا غير ممكن"

"هل تصف والدتك بالكاذبة؟"

يسود الصمت.

"طلبنا من والدتك أن ترينا الملابس التي ارتديتها الليلة الماضية. وفعلت ذلك. بعضها عليها شعر حيواني. كيف تفسر ذلك؟"

"حسنًا، أنا أعيش في هذه البلاد أيها المفتش. بسبب خطاياي"

"بسبب خطاياك؟ ولكنك لا تحلب الأبقار ولا تحدو الأحصنة، أليس كذلك؟"

"هذا أمر بديهي. ربما اتكأتُ على بوابة حقل فيه أبقار"

"لقد أمطرت الليلة الماضية وجزمتك مُبتلة هذا الصباح"

صمت.

"هذا سؤال يا سيد إدالجي"

"لا، حضرة المفتش، هذا تصريح متحيز. لقد فحصت جزمتي. إذا كانت رطبة، فلن يفاجئني. الأزقة مبللة في هذا الوقت من العام"

"لكن الحقول أكثر بللاً، وقد أمطرت الليلة الماضية"

صمت.

"إذن، أنت تنكر أنك غادرت بيت الكاهن بين الساعة التاسعة والنصف مساءً والفجر؟"

"أغادر المنزل في وقت متأخر من الفجر. في الساعة السابعة وعشرين دقيقة"

"ولكن لا يمكنك إثبات ذلك"

"على العكس تمامًا. أنام وأبي في الحجرة نفسها. يُقفِل الباب كل ليلة"

توقف المفتش عن متابعة مسار التحقيق. نظر في اتجاه بارسونز، المُستمِّر في تدوين الكلمات الأخيرة. لقد سمع بعض الحجج الواهية في حياته، لكن في الحقيقة... "أنا آسف، لكن هل يمكنك تكرار ما قلته للتو؟"

"أنام وأبي في الحجرة نفسها. يُقفِل الباب كل ليلة"

"منذ متى هذا... النظام سارٍ؟"

"منذ أن كنت في العاشرة"

"وأنت تبلغ الآن؟"

"سبعة وعشرون"

"فهمت" لم يفهم كامبل على الإطلاق. "ووالدك -عندما يُقفِل الباب- هل تعرف أين يضع المفتاح؟"

"لا يضعه في أي مكان. يتركه في قفل الباب"

"لذا من السهل عليك مغادرة الحجرة؟"

"لست بحاجة إلى مغادرة الحجرة"

"نداء الطبيعة؟"

"هناك وعاء تحت السرير. لكني لا أستخدمه أبدًا"

"أبدًا؟"

"أبدًا"

"عظيم. المفتاح في القفل دائمًا. لذلك لن تضطر للبحث عنه؟"

"نوم أبي خفيف جدًا، وهو يعاني من ألم أسفل الظهر حاليًا. فهو يستيقظ بسهولة. يصدر المفتاح صريرًا عاليًا للغاية عندما يدور"

هذا كل ما استطاع كامبل فعله كي لا يضحك في وجه الرجل. لمن أخذها؟

"يبدو كل هذا مريحًا ولافتًا للنظر، إذا لم تمانع في قولي يا سيدي. ألم تفكر أبدًا في تشحيم القفل؟"

صمت.

"كم عدد شفرات الحلاقة التي تملكها؟"

"كم عدد شفرات الحلاقة؟ أنا لا أملك شفرة حلاقة"

"لكنك تحلق، أفترض هذا؟"

"أنا أحلق بواحدة من شفرات والدي"

"لِم لا تثق في إمكانية اقتنائك لشفرات تخصك؟"

صمت.

"كم عمرك يا سيد إدالجي؟"

"لقد أجبت بالفعل على هذا السؤال ثلاث مرات اليوم. أقترح أن تراجع ملاحظاتك"

"رجل في السابعة والعشرين من العمر لا يُسمح له بامتلاك شفرة حلاقة، ويُقفل والده عليه في حجرة نومه كل ليلة، ووالده خفيف النوم. أتدرك أي شخص نادر بصفة استثنائية أنت؟"

صمت.

"نادر بصفة استثنائية، أود أن أقول. و... أخبرني عن الحيوانات"

"هذا ليس سؤالاً، إنها رحلة تقصٍّ للمعلومات" أدرك جورج التناقض في ردّه، ولم يتمكن من التبسّم.

"اعتذاراتي" بدأ حنق المفتش يتصاعد. لقد تسامح مع الرجل حتى الآن. حسنًا، لن

يتطلب الأمر الكثير لتحويل محام مغرور إلى تلميذ بكّاء وتافه. "لدي سؤال هنا، إذن ما رأيك بالحيوانات؟ هل تحبها؟"

"ما رأيي في الحيوانات؟ هل أحبها؟ عمومًا لا، أنا لا أحبها"

"ربما خمنت ذلك"

"لا، أيها المفتش، دعني أشرح" شعر جورج بصلابة في موقف كامبل، واعتقد أنه نهج جيد للتخفيف من حدة النقاش. "عندما كنت في الرابعة من عمري، أخذوني لرؤية بقرة. تلوّث نفسها. تقريبًا هذه ذاكرتي الأولى"

"بقرة تلوّث نفسها؟"

"نعم. أعتقد أني بت من ذلك اليوم أرتاب من الحيوانات"

"ترتاب؟"

"نعم. ما الذي يمكن أن تفعله. لا يمكن الوثوق بها"

"فهمت. وهذه هي ذاكرتك الأولى كما تقول؟"

"نعم"

"ومنذ ذلك الحين لم تعد تثق في الحيوانات. جميع الحيوانات"

"حسنًا، ليس القط الذي لدينا في المنزل. أو كلب الخالة ستونهام. أنا مغرم به للغاية"

"فهمت. لكن الحيوانات الكبيرة مثل الأبقار"

"نعم"

"وماذا عن الخيول؟"

"الخيول غير جديرة بالثقة، نعم"

"الأغنام؟"

"الأغنام غبية فحسب"

"والشحرور؟" يسأل الرقيب بارسونز. إنها أول كلمة ينطقها.

"الشحارير ليست حيوانات"

"قرود؟"

"لا يوجد قرود في ستافوردشاير"

"متأكد تمامًا من ذلك، صحيح؟"

يشعر جورج بغضبه يتصاعد. انتظر عمدًا قبل الرد. "حضرة المفتش، هل لي أن أقول إن نهج رقيبك مبني على أسس خاطئة تمامًا؟"

"آه، لا أظن أن هذا نهج يا سيد إدالجي. الرقيب بارسونز صديق جيد للرقيب روبنسون في هيدنسفورد. هدّد أحدهم بإطلاق النار على رأس الرقيب روبنسون"

صمت.

"وشخص ما هدّد بتقطيع عشرين فتاة ريفية في القرية التي تقطن فيها أيضًا"

صمت.

"حسنًا، لا يبدو أن هناك صدمة من أي من هذه التصريحات، حضرة الرقيب. إذن، لا بد أنها ليست مفاجأة كبيرة"

صمت. يفكر جورج: أنه من الخطأ تقديم أي شيء له. أي شيء من قبيل إجابة مباشرة على سؤال مباشر يمنحه شيئًا. لذا لم يفعل.

وراجع المذكرة التي أمامه. "عندما اعتقلناك، قلت: "لست مندهشًا من ذلك. لقد توقعته منذ مدة" ماذا عنيت بذلك؟"

"عنيت ما قلته"

"حسنًا، دعني أخبرك ما فهمته مما قلته، وما فهمه الرقيب مما ذكرته، وماذا سيفهم الشخص في حافلة كلافام منه. في النهاية قُبِض عليك، وأنت تشعر بالارتياح في القبض عليك"

صمت.

"لماذا تعتقد أنك هنا؟"

صمت.

"ربما تظن أن السبب هو أن والدك هندوسي"

"والدي في الواقع بارسي"

"جزمتك عليها وحل"

صمت.

"وهناك دماء على شفرتك"

صمت.

"ومعطفك عليه شعر حصان"

صمت.

"كما أنك لم تندهش من إلقاء القبض عليك"

صمت.

"لا أعتقد أن أيًا من ذلك له علاقة فيما إذا كان والدك هندوسيًا أو بارسيًا أو خويخويًا"

صمت.

"حسنًا، يبدو أنه استنفد كل الكلمات، أيها الرقيب. لا بد أنه سيدّخرها لقضاة كانوك"

أُعيد جورج إلى زنزانته حيث وجد في انتظاره طبق من الفوضى الباردة. مع ذلك، تجاهله. سمع جرجرة فتحة المراقبة كل عشرين دقيقة. كل ساعة -أو هكذا خمّن- يُفتح الباب ويتفقده شرطي.

قال الشرطي في زيارته الثانية، من الواضح أنه تحدث مُرتجلاً: "حسنًا سيد إدالجي، أنا آسف لرؤيتك هنا، لكن كيف تمكنت من مناورة جميع عناصرنا؟ ومتى تعرّضت للحصان في حضورهم؟"

لم يلتق جورج بالشرطة من قبل، لذلك لم يكن للتعبير عن التعاطف تأثير يُذكر، ولم يتلق أي رد.

قال الشرطي، بعد ساعة: "نصيحتي يا سيد بصراحة، أن تتخلى عن الاستعراض. لأنك إذا لم تفعل، فإن شخصًا آخر سيلزمك"

سأل جورج في الزيارة الرابعة، عما إذا استمرت التحقيقات المتواصلة طوال الليل.

"الأوامر أوامر"

"والأوامر الصادرة لك هي إبقائي مستيقظًا؟"

"آه، لا يا سيدي. الأوامر الصادرة لي هي إبقاؤك على قيد الحياة. إنها مشكلتي إذا تسببت في أي أذىً لنفسك" أدرك جورج أنه لا يمكن لأي احتجاج أن يوقف انقطاعات

النوم كل ساعة. تابع الشرطي: "بالطبع، سيكون من الأسهل على جميع الأطراف المعنية، بمن فيهم أنت، إذا حبست نفسك"

"حبست نفسي؟ أين؟"

حَوَّر الشرطي قوله قليلاً. "في مكان آمن"

"آه، فهمت" قال جورج، يعود انفعاله فجأة: "أنت تريد مني أن أعترف أنني معتوه" استخدم الكلمة عمدًا في ذكرى رفض والده.

"غالبًا ما يكون الأمر أسهل على الأسرة من جميع النواحي. فكّر في الأمر يا سيد. فكّر في كيفية تأثير ذلك على والديك. فهمت أنهما مُسنّان بعض الشيء"

أُغلق باب الزنزانة. استلقى جورج للنوم على سريره مُنهكًا وحانقًا جدًا. هرع عقله نحو بيت الكاهن لطَرْق الباب، والبيت ممتلئ برجال الشرطة. والده ووالدته ومود. مكتبه في شارع نيوهول، مقفل ومهجور الآن، أرسل سكرتيره إلى المنزل حتى إشعار آخر. تصفح شقيقه هوراس صحيفة في صباح اليوم التالي. تناقل زملاؤه المحامين الواحد تلو الآخر الأخبار في برمنغهام.

اكتشف جورج شعورًا آخر، لكن تحت وطأة الإرهاق والغضب والخوف: هو الراحة. لقد وصل الأمر إلى هنا أخيرًا: وهو أمر أفضل بكثير. كان لديه القليل مما يمكن أن يفعله ضد المحتالين والمضطهدين وكُتّاب البذاءة المجهولين، وعندما تخبّطت الشرطة لم يملك الكثير أيضًا... باستثناء تقديم النصائح المعقولة المرفوضة بازدراء. لكن أولئك المُعذِّبين وهؤلاء المُتخبِّطين سلّموه إلى مكان آمن: إلى وطنه الثاني، قوانين إنجلترا. عرف أين هو الآن. على الرغم من أن عمله نادرًا ما قاده إلى قاعة المحكمة، إلا أنه عرفها كجزء من مجال عمله. حضر عدة قضايا مرات كافية ليشاهد أفراد من الحضور، وأفواههم جافة من الذعر، بالكاد قادرين على الإدلاء بالشهادة حين يواجهون عظمة القانون المهيبة. في البداية، يتقلّص بريق الأزرار النحاسية والثقة بالذات، حين يحولهم محامي دفاع غير لائق إلى حمقى كاذبين. وقد لاحظ - لا، لم يلاحظ فقط، أحس، أنه بالكاد قادر على لمس - تلك الخيوط غير المرئية، وغير القابلة للقطع التي ربطت الأطراف بعضهم ببعض. عمله هو القانون. القضاة، وقضاة الصلح، ومحامو المرافعات، ومحامو الإجراءات، والكَتَبة،

وحُجّاب المحكمة: كانت هذه مملكتهم، حيث تحدثوا إلى بعضهم بلغة مشتركة تعذّر على الآخرين فهمها.

بالطبع لن يصل الأمر إلى حد القضاة ومحامي المرافعات. بينما لم تملك الشرطة أي دليل ضده، امتلك هو أوضح إثبات على ذريعة من الممكن الحصول عليها. سيقسم رجل دين من كنيسة إنجلترا على الكتاب المقدس بأن ابنه غطّ في النوم في حجرة نوم مقفلة وقت ارتكاب الجريمة. وعندئذٍ، سيتبادل قضاة الصلح النظر بعضهم إلى بعض، ولن يكلفوا أنفسهم عناء النظر أكثر في القضية. سيكون المفتش كامبل مع الطرف المُتلقي للّوم الصارم من القضاة، وهذا ما سيحدث. وبطبيعة الحال، سيحتاج إلى إشراك المحامي المناسب، واعتقد أن السيد ليتشفيلد ميك هو الرجل المناسب لهذه المهمة. ستُرفع القضية، وتُدفع تكاليفها، ويُطلق سراحه دون وصمة عار لشخصه، وستُنتقد الشرطة بشدة.

لا ، لقد أُصيب بالدّوار. قفز في ذهنه إلى الأمام كثيرًا، مثل بعض الأفراد الساذجين من العامة. ولا يجب أن يتوقف عن التفكير كمحامٍ. توجّب عليه أن يتوقع ما قد تزعمه الشرطة، وما الذي سيحتاج محاميه إلى معرفته، وما الذي ستُقِرّه المحكمة. يجب عليه أن يتذكر بيقين مطلق، أين كان وما فعله وقاله وما قيل له وممن، طوال فترة النشاط الإجرامي المزعوم.

تحرّك خلال اليومين الماضيين على نحو نظامي، وأعدّ نفسه ليثبت بما لا يدع مجالاً للشك الحدث الأبسط والأقل إثارة للجدل. أدرج الشهود الذين قد يحتاجهم: سكرتيره، والسيد هاندز الإسكافي، والسيد ميريمان مدير المحطة. وكل من شاهده يقوم بأي شيء. مثل ماركو. إذا عجز ميريمان عن إثبات حقيقة أن قطار السابعة وتسع وثلاثين دقيقة أقلّه إلى برمنغهام، فعندئذ يعرف مع من يتواصل. كان جورج واقفًا على رصيف المحطة حين دنا منه جوزيف ماركو، واقترح أن يستقلّ القطار التالي إذ رغب المفتش كامبل في التحدث إليه. يمتلك ماركو الشرطي السابق حانة حاليًا، أُمكن جدًا أن يُقبل كتحرٍّ خاص، لكنه لم يقل الكثير. سأل جورج عما يريده كامبل، لكن ماركو قال إنه لا يعلم. قرّر جورج ما يجب القيام به، وتساءل عما فعله الركّاب الآخرون عند تبديل القطارات، حين اعتمد ماركو نغمة التنبيه وقال شيئًا مثل... لا ، ليست مثل، لأن الكلمات المناسبة عادت الآن

لجورج. قال ماركو: "أوه، هيا يا سيد إدالجي، ألا يمكنك أن تمنح نفسك عطلة ليوم واحد؟" في الواقع، فكّر جورج رجلي الطيب، أخذتُ عطلة منذ أسبوعين تقريباً في مثل هذا اليوم بالذات، ذهبتُ إلى آبريستويث مع أختي، ولكن إذا تعلّق الأمر بمسألة العطلات، فسآخذ برأيي أو برأي والدي مع نصيحة شرطة ستافوردشاير، التي بالكاد اتّسم سلوكها في الأسابيع الأخيرة بأكبر قدر من الكياسة. لكنه لم يقل ذلك، بل اكتفى بإيضاح أن عملاً عاجلاً ينتظره في شارع نيوهول، وعند اقترب قطار السابعة وتسع وثلاثين دقيقة، غادر ماركو رصيف المحطة.

راجع جورج حوارات عِدّة، حتى أكثرها بساطة بدقة متناهية. في النهاية، غطّ في النوم. أو بالأحرى أصبح أقل وعيًا بجرجرة عين الباب السحرية واختراقات الشرطي. أحضروا له دلو ماء، وقطعة كبيرة من الصابون المُرقّش، وجزءًا من خرقة لتكون بمثابة منشفة في الصباح. سُمح له برؤية والده، الذي أحضر له وجبة الإفطار من بيت الكاهن. كما أُتيح له كتابة رسالتين موجزتين يشرح فيهما للعملاء لماذا يجب أن يتوقعا بعض التأخير في معاملاتهم.

بعد ساعة أو نحو ذلك، وصل شرطيان لأخذه إلى محكمة القضاة. أثناء عملية الانتظار للانطلاق، تجاهلاه وتحاورا أعلى رأسه عن قضية من الواضح أنها عنتهما أكثر بكثير منه. تتعلق باختفاء غامض لطبيبة جرّاحة في لندن.

"خمسة أقدام وعشر بوصات"

"ليس من الصعب تحديد ذلك"

"أتظن، أليس كذلك؟"

رافقاه عبر حشود فضوليّة على بُعد مئة وخمسين ياردة من مركز الشرطة. صرخت امرأة عجوز بعبارات مبهمة ومسيئة ، لكنها أُخذت بعيدًا. كان السيد ليتشفيلد ميك في انتظاره في المحكمة: محامٍ من الطراز القديم، نحيل وأشيب الشعر، معروف بلطفه وتعنّته على حد سواء. وعلى نقيض جورج، لم يتوقع رفضًا للدعوى مقتضبًا.

حضر القضاة: السيد جاي. ويليامسون، والسيد جاي. تي. هايتون والعقيد آر. إس. ويليامسون. وُجّهت لجورج إرنست تومبسون إدالجي تهمة قتل حصان بصورة غير

مشروعة، المملوك لشركة منجم غريت ويرلي، في السابع عشر من أغسطس. وقد دُفِع بالتماس طلب البراءة، واستُدعي المفتش كامبل لتقديم أدلة الشرطة. تحدّث واصفًا استدعاءه إلى حقل بالقرب من منجم الفحم في حوالي الساعة السابعة صباحًا، والعثور على المهر البائس الذي وجب إطلاق النار عليه فيما بعد. انتقل من الحقل إلى بيت السجين، حيث وجد سترة عليها بقع دم على أطراف الأكمام، وبقعًا تميل للبياض على الأكمام، وشعرًا على الأكمام والصدر. هناك عُثِر على صُدْرة عليها بقعة لعاب. يحمل جيب السترة منديلاً عليه علامة SE به لطخة مائلة للون البني في زاوية واحدة، التي قد تكون دماء. ثم ذهب مع الرقيب بارسونز إلى مقر عمل السجين في برمنغهام، وألقى القبض عليه، وأحضره إلى كانوك لاستجوابه. أنكر السجين أن الملابس التي نُسِبت له لبسها في الليلة السابقة، لكن حين قيل إن والدته أكدت هذه المسألة، اعترف بالحقيقة. ثم سئل عن الشعر على ثيابه. في البداية نفى أي شيء، لكنه أشار بعد ذلك أنها ربما علقت به عبر الاتكاء على بوابة.

نظر جورج إلى السيد ميك: هذا بالكاد فحوى حديثه مع المفتش بعد ظهر أمس. لكن السيد ميك لم يكن مهتمًا بلفت نظر مُوكّله. وبدلاً من ذلك، نهض وسأل كامبل بعض الأسئلة، بدت جميعها غير مؤذية لجورج، إن لم تكن ودية إلى أبعد حد.

ثم اتصل السيد ميك بالكاهن شوبارجي إدالجي، الموصوف بأنه "كاتب الأوامر المقدسة". راقب جورج الخطوط العريضة في شهادة والده بِدقّة، لكن مع فترات توقف طويلة إلى حد ما: ترتيبات النوم في بيت الكاهن، عادته في قَفْل باب حجرة النوم دائمًا، وصعوبة تدوير المفتاح وصوت صريره، ونومه الخفيف جدًا، ومعاناته من آلام أسفل الظهر في الأشهر الأخيرة، ومن أن المفتاح إذا دار فمن المؤكد أنه سيستيقظ، وكيف أنه بكل الأحوال لم ينم بعد الخامسة صباحًا.

أبلغ المشرف العام باريت، وهو رجل ممتلئ الجسم، وذو لحية بيضاء قصيرة، وقبعته الصامدة في مواجهة بطنه المنتفخ، المحكمة أن قائد الشرطة أمره بالاعتراض على إطلاق سراحه بكفالة. وبعد مشاورات قصيرة، أعاد القضاة حبس السجين حبسًا احتياطيًا حتى المثول أمامهم مرة أخرى في يوم الاثنين القادم، عند سماع براهين الإطلاق بكفالة. سيُرحّل

في هذه الأثناء إلى ستافورد غول. وهو ما حدث. وعد السيد ميك بزيارة جورج في اليوم التالي، ربما في فترة ما بعد الظهر. طلب منه جورج إحضار صحيفة برمنغهام. كان في حاجة لمعرفة ما قيل لزملائه. فضّل الحصول على الصحيفة الرسمية (غازيتة)، لكن هذه الصحيفة تفي بالغرض.

في ستافورد غول، سُئل عن الدين الذي ينتمي إليه، وما إذا يمكنه القراءة والكتابة. ثم طُلِب منه أن يتجرّد من ثيابه، وتلقى تعليمات أن يحطّ نفسه في وضع مهين. واقتيد لرؤية مأمور السجن، النقيب سينغ الذي أخبره أنه سيوضع في جناح المستشفى حتى تصبح الزنزانة متاحة. ثم وضّح امتيازاته كسجين في الحبس الاحتياطي: سيُسمح له بارتداء ملابسه الخاصة، وممارسة الرياضة، وكتابة الرسائل، واستلام الصحف والمجلات. سيمكنه إجراء محادثات خاصة مع محاميه تحت أنظار سجّان خلف باب زجاجي. سيتم الإشراف على جميع اللقاءات الأخرى.

أُلقي القبض على جورج في بزّته الصيفية الخفيفة، وغطاء رأسه الوحيد قبعة من القش. طَلب الإذن أن يسمحوا له أن يُبدّل ثيابه. وقيل له إن هذا مخالف للقواعد. لقد كان امتيازاً للسجين في الحبس الاحتياطي الاحتفاظ بملابسه الخاصة، لكن هذا لا يجب أن يُفهم على أنه يعطيه الحق في إنشاء خزانة ملابس خاصة في زنزانته.

قرأ جورج بعد ظهر اليوم التالي، **ضجة كبيرة في ويرلي. ابن كاهن في المحكمة**. "إن الضجة التي أثارها الاعتقال في جميع أنحاء منطقة كانوك تشايز قد ظهرت في الحشود الكبيرة التي تواترت بالأمس على الطرق المؤدية إلى بيت الكاهن في غريت ويرلي، حيث يقيم المتهم، ومحكمة الشرطة ومركز الشرطة، في كانوك" فزع جورج من فكرة محاصرة بيت الكاهن. "سُمح للشرطة بالتفتيش دون أمر قضائي. ما يمكن التحقق منه في الوقت الحاضر، أن نتيجة البحث هي كمية من الملابس الملطخة بالدماء، وعدد من شفرات الحلاقة، وزوج من الأحذية، ووجد هذا الأخير في حقل قريب من موقع التشويه الأخير"

"عُثِر عليه في الحقل"، كرّر للسيد ميك. "عُثِر عليه في الحقل؟ هل تعمّد شخص ما وضع حذائي في الحقل؟ كم عدد الملابس الملطخة بالدماء؟ كم؟"

بدا ميك هادئًا جدًا حول كل هذا. لا، لم يكن ينوي سؤال الشرطة عن الاكتشاف

المزعوم لزوج من الأحذية في أحد الحقول. لا، ولم يقترح أن يطلب من جريدة برمنغهام الرسمية اليومية نشر تراجع عن تصريحها عن عدد الملابس الملطخة بالدماء.

"إذا جاز لي تقديم اقتراح، سيد إدالجي"

"بالطبع"

"لدي كما قد تتصور، العديد من العملاء الذين لديهم قضايا مشابهة لقضيتك، ويصرّون في الغالب على قراءة مقالات الصحف الخاصة بقضاياهم التي تؤججهم أكثر مما يلزم في بعض الأحيان. عندما يحدث ذلك، أنصحهم بقراءة المقال التالي دائمًا، ويبدو مفيدًا على الأغلب"

"المقال التالي مباشرة؟" حوّل جورج نظره إلى اليسار بمقدار بوصتين. كان العنوان **الطبيبة المفقودة**. وأسفله: **لا دليل على اختفاء هيكمان.**

قال السيد ميك: "اقرأه بصوت مرتفع"

"لم يظهر أي دليل على اختفاء الآنسة صوفي فرانسيس هيكمان، وتعمل طبيبة جرّاحة في مستشفى رويال فري، إلى الآن..."

دفع ميك جورج لقراءة المقال بأكمله. استمع باهتمام، وهو يتنهّد ويهزّ رأسه، وحتى أنه يسحب أنفاسه من وقت لآخر.

قال جورج في النهاية: "لكن سيد ميك، كيف لي أن أقول إن أيًا من هذا صحيح أيضًا، نظرًا لما يقولونه عني؟"

"هذه هي وجهة نظري"

"حتى مع ذلك..." انجذبت عينا جورج أوتوماتيكيًا إلى مقاله. "حتى مع ذلك. "المتهم، كما يوحي اسمه، من أصل شرقي. إنهم يجعلونني هنا أبدو مثل رجل صيني"

"أعدك سيد إدالجي، إذا قالوا إنك صيني، فسأوعز بكلمة إلى المحرر بهدوء"

نُقل جورج من ستافورد إلى كانوك في يوم الاثنين التالي. هذه المرة بدا الحشد في طريقه إلى المحكمة أكثر اضطرابًا. ركض الرجال إلى جانب سيارة الأجرة، يقفزون ويحدقون، بعضهم ارتطم بالأبواب ولوّح بالعصي في الهواء. تنامى قلق جورج، لكن الشرطة المرافقة تعاملت كما لو أن كل هذا طبيعيّ تمامًا.

هذه المرة تواجد كبير المفتشين آنسون في المحكمة. أصبح جورج على دراية بشخصية أنيقة ورسمية تُحدّق فيه بحدة. وأعلن القضاة أنهم سيطلبون ثلاث كفالات منفصلة، بالنظر إلى خطورة التهمة. شكّك والد جورج في أن يجد الكثير. بناء على ذلك، أرجأ القضاة الجلسة إلى بينكريدغ في ذلك اليوم أسبوعًا.

حدّد القضاة في بينكريدغ شروط الكفالة الخاصة بهم. كانت الكفالات المطلوبة كما يلي: مائتا جنيه إسترليني من جورج، ومئة جنيه إسترليني من والده ووالدته، ومئة جنيه إسترليني أخرى من طرف ثالث. لكن هذه أربع كفالات، وليست الثلاث التي أعلنوا عنها في كانوك. شعر جورج أن الأمر كله خدعة. لم ينتظر السيد ميك، وقف بنفسه وقال للقضاة: "لم أطلب كفالة. لقد تلقيت عدة عروض، لكنني أفضل عدم دفع الكفالة"

ثم حددت إجراءات الإحالة إلى يوم الخميس التالي، الثالث من سبتمبر، في كانوك. جاء السيد ميك لرؤيته ومعه أخبار سيئة يوم الثلاثاء.

"إنهم يضيفون تهمة ثانية، وهي التهديد بقتل الرقيب روبنسون في هيدنسفورد بإطلاق النار عليه"

"هل عثروا على مسدس إلى جوار حذائي في الحقل؟" سأل جورج بارتياب. "إطلاق النار عليه؟ إطلاق النار على الرقيب روبنسون؟ لم ألمس مسدسًا في حياتي أبدًا، وعلى حد علمي لم تقع عيني على الرقيب روبنسون أبدًا. سيد ميك، هل ذهبت حواسهم في إجازة؟ ما الذي يمكن أن يعنيه هذا؟"

"ما الذي يعنيه،" ردّ السيد ميك، كما لو أن نوبة غضب موكّله بدت تساؤلًا بسيطًا ومدروسًا، "ما الذي يعنيه أن القضاة مصرّون؟ رغم ضعف الأدلة، فإنه من غير المرجح أن يفرجوا عنك الآن"

في وقت لاحق، جلس جورج على سريره في جناح المستشفى. ما يزال عدم التصديق يشتعل فيه مثل داء. كيف يمكنهم فعل هذا به؟ كيف يظنون ذلك؟ كيف يمكنهم أن يأخذوا في تصديق ذلك؟ اختبر جورج شعور الغضب للمرة الأولى لدرجة لم يعرف عندها ضد من يوجهه... كامبل أو بارسونز أو آنسون أو محامي الشرطة أو القضاة؟ حسنًا، سيصبّه على القضاة بداية. قال ميك إنهم على يقين من ارتكابه... كما لو أنهم بلا قدرات عقلية،

وكما لو أنهم دمى قفّاز قماشية أو آليّين. لكن بعد ذلك، من هم أولئك القضاة على أية حال؟ هم نادرًا ما كانوا مؤهلين كأعضاء في مهنة المحاماة. معظمهم مجرد هواة مختالين في ثوب القليل من السلطة القضائية موجزة.

انتابه شعور بالإثارة من كلماته المهينة، ومن ثم غمره العار الفوري على حماسه. لذا غدا السّخط خطيئة: تودي إلى الكذب. لا شك أن القضاة في كانوك ليسوا أفضل ولا أسوأ من القضاة في أي مكان آخر. ولا يمكنه أن يتذكرهم ينطقون بكلمة من التي يمكنه أن يعترض عليها إلى حد ما. وكلما أمعن التفكير بهم، بدأت شخصيته المهنية في تولي المسؤولية مرة أخرى. تقهقر وهن الشك إلى مجرد خيبة أمل حية، ثم إلى التسليم العملي. من الواضح أنه كان من الأفضل أن تُرفع قضيته إلى محكمة أعلى. طُلب من محامو المرافعات ومحيطهم الأكثر خطورة أن يقدموا العدالة المناسبة والتوبيخ الملائم. إن محكمة قضاة كانوك هي المكان الخطأ تمامًا. كبداية، هي بالكاد أكبر من حجرة الدراسة في بيت الكاهن. لم يكن هناك حتى قفص اتهام مناسب: اضطر السجناء للجلوس على مقعد في وسط المحكمة.

هذا هو المكان الذي وضع فيه صباح يوم الثالث من سبتمبر، شعر أنه مراقَب من جميع الجهات، غير متأكد ما إذا جعله مكان جلوسه يبدو أكثر مثل علاّمة الفصل أو الطالب الضعيف فيه. قدّم المفتش كامبل أدلة بحث مستفيضة، لكنه لم يبتعد عما قاله سابقًا. جاءت أول شهادة جديدة للشرطة من الشرطي كوبر، الذي وصف كيف أنه في الساعات التي تلت اكتشاف الحيوان المصاب، قد استحوذ على حذاء السجين ذي الكعب المهترئ على نحو غريب. وقد قارن هذا مع آثار الأقدام في الحقل حيث عُثر على المهر، وبعلامات على مقربة من جسر مشاة خشبي بالقرب من بيت الكاهن أيضًا. عندما غار كعب إدالجي في الأرض الرطبة ووجد أنه حين رفع الحذاء، تطابقت الطبعات.

ثم أقرّ الرقيب بارسونز بأنه كان مسؤولاً عن الفرقة المكونة من عشرين عنصرًا من عناصر تحرّي الشرطة التي انتشرت لتعقّب عصابة المخربين. وأخبرنا كيف كشف تفتيش حجرة نوم إدالجي عن علبة فيها أربع شفرات حلاقة. واحدة منها عليها بقع رطبة وبنية، وشعرة واحدة أو شعرتين عالقتين في شفرة الحلاقة. وأشار الرقيب إلى والد إدالجي، الذي بدأ بمسح الشفرة بإبهامه.

وصاح الكاهن قائلاً، وانتصب على قدميه: "هذا ليس صحيحا!"

قال المفتش كامبل، قبل أن يتمكن القضاة من الرد، "يجب ألا تُقاطع"

تابع الرقيب بارسونز تقديم شهادته، ووصف اللحظة التي وُضع فيها السجين في سجن نيوتن ستريت في برمنغهام. التفت إدالجي إليه، وقال: "هذا جزء من عمل السيد لوكستون، كما أظن. سأجعله يستوي جالسًا قبل أن أنتهي"

كتبت جريدة برمنغهام الرسمية اليومية عن جورج، في صباح اليوم التالي:

> يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عامًا، لكنه يبدو أصغر سنًا. ارتدى بذلة رسمية باللونين الأبيض والأسود، كان هناك القليل من المحامي النموذجي بوجهه الأكمد وبعينيه الواسعتين الداكنتين وفمه البارز وذقنه الصغير المستدير. مظهره الشرقي أساس في ثباته، ولا توجد إشارة إلى عاطفة تفرّ منه إلى ما وراء ابتسامة خافتة إذ تكشفت القصة غير العادية للادعاء. حضر والده الهندوسي المسن ووالدته ذات الشعر الأبيض في المحكمة، وتابعا الإجراءات في اهتمام مثير للشفقة.

"أنا في الثامنة والعشرين من عمري، لكنني أبدو أصغر سنًا" قال مُعلّقًا للسيد ميك، وأكمل: "ربما هذا لأنني في السابعة والعشرين. والدتي ليست إنجليزية، إنها أسكتلندية ووالدي ليس هندوسيًا"

"لقد حذرتك من قراءة الصحف"

"لكنه ليس هندوسيًا"

"إنها قريبة بما يكفي من الجريدة الرسمية"

"لكن سيد ميك، ماذا لو قلت إنك ويلزيّ؟"

"لن أجعلك مخطئًا؛ لأن والدتي تحمل دماءً ويلزية"

"أم إيرلنديّ؟"

تبسّم السيد ميك له ابتسامة خالية من المهانة، حتى أنه ربما بدا إيرلنديًا بعض الشيء.

"أو فرنسيّ؟"

"الآن سيدي، أنت تذهب بعيدًا جدًا. أنت تستفزني"

"وأنا مُتبلّد المشاعر بطبعي"، تابع جورج وهو ينظر إلى الجريدة الرسمية مرة أخرى. "ألا يجب أن يُعدّ هذا شيئًا جيدًا؟ أليس تبلّد المشاعر ما يجب أن يتصف به المحامي العادي؟ ومع ذلك فأنا لست محاميًا عاديًّا. أنا شرقي تقليدي، مهما عنى ذلك. مهما بدوتُ طبيعيًا، أليس كذلك؟ مهما عُرف أنني سريع الانفعال، سأظل شرقيًا تقليديًا، أليس كذلك؟"

"تبلّد المشاعر جيد، سيد إدالجي. وعلى الأقل لم يصفوك بالغامض أو الماكر"

"ماذا يعني ذلك؟"

"آه، مليء بالمكر الشيطاني التافه. نود أن نتجنب الشيطانيّ والشرير أيضًا. سيكتفي الدفاع بتبلّد المشاعر"

ابتسم جورِج لمحاميه. "أعتذر يا سيد ميك. وأشكرك على حِسّك الجيد. أخشى أنني في حاجة إلى المزيد منه، على الأرجح"

في اليوم الثاني من المداولات، قدّم ويليام غريتوريكس، الأستاذ منذ أربعة عشر عامًا في مدرسة والسال غرامر، دليلًا. عُرِضت العديد من الرسائل المكتوبة بتوقيعه في المحكمة. أنكر تأليفها ومعرفته بها، وأمكنه أن يثبت أنه كان في جزيرة مان عندما أُرسلت بالبريد اثنتين منها. قال إنه اعتاد أن يركب في القطار كل صباح من هيدنسفورد إلى والسال، حيث كان في المدرسة. والصبية الآخرون سافروا معه عمومًا هم ويستوود ستانلي نجل وكيل عمال المناجم المعروف، وكويبل ابن كاهن هيدنسفورد، وبيج وهاريسون وفريدي. ورد اسم هؤلاء الصبية في الرسائل التي قُرأت علنًا للتو.

صرح غريتوريكس أنه عرف السيد إدالجي شكلًا لمدة ثلاثة أعوام أو أربعة. "لقد سافر في كثير من الأحيان إلى والسال في المقصورة نفسها مثل أولادنا. أعتقد عشرات المرات. سُئل متى آخر مرة سافر فيها السجين معه". في صباح اليوم التالي قُتل اثنان من خيول السيد بليويت. وقع ذلك في الثلاثين من يونيو، على ما أعتقد. أمكننا رؤية الخيول ملقاة في الحقل أثناء مرورنا في القطار". سُئل الشاهد عما إذا قال السيد إدالجي له أي شيء في ذلك الصباح. "نعم، سألني إذا كانت الخيول التي قُتلت تخص بليويت. ثم نظر من النافذة". وسئل الشاهد عما إذا جرت هناك محادثة سابقة مع السجين عن التشويه. أجاب: "لا، لا أبدًا".

أقرّ توماس هنري غورين أنه خبير خطوط يدوية منذ عدة أعوام. وقدّم تقريره عن الرسائل التي عُرضت في المحكمة. وجد في أسلوب الكتابة المُتخفّية عددًا من الخصائص المميزة للغاية. عُثِر على السمات ذاتها بالضبط في رسائل السيد إدالجي، وسُلمت له للمقارنة.

ذكر الدكتور باتر جرّاح الشرطة الذي فحص البقع على ملابس إدالجي، أنه أجرى اختبارات كشفت عن آثار دم لثدييات. وجد على المعطف والصُدْرة تسعًا وعشرين شعرة قصيرة وبنية. وقارنها بالشعر على جلد مهر المنجم الذي شُوّه في المساء قبل اعتقال السيد إدالجي. أقرّوا أنها متشابهة تحت المجهر.

اصطحب السيد غريبتون شابة بالقرب من كوبيس لين في غريت ويرلي، في تلك الليلة، وقدم دليلاً على أنه رأى السيد إدالجي، وتجاوزه في حوالى الساعة التاسعة. لم يكن غريبتون متأكدًا تمامًا من البقعة التي رآه فيها.

"إذن" سأل محامي الشرطة، "أعطنا اسم أقرب حانة إلى البقعة التي شاهدته فيها"

ردّ غريبتون بمرح: "مركز الشرطة القديم"

أوقفت الشرطة بصرامة الضحك الذي استقبلت به هذه الملحوظة.

شاهدت الآنسة بيدل التي رغبت في توضيح أنها كانت مخطوبة للسيد غريبتون السيد إدالجي، وكذلك عدد من الشهود الآخرين.

ومن ثم عُرضت تفاصيل التشويه: فقد وصف جرح مهر شركة المنجم بأن طوله يصل إلى خمس عشرة بوصة.

كما قدّم والد السجين كاهن غريت ويرلي الهندوسي دليلاً.

أعلن السجين: "أنا بريء تمامًا من التهمة، وأحتفظ بحق الدفاع عن نفسي"

تم تقديم جورج إدالجي للمحاكمة في يوم الجمعة الموافق للرابع من سبتمبر، في محكمة ستافورد للجلسات الفصلية بتهمتين. نزل العنوان التالي في جريدة برمنغهام الرسمية اليومية، في صباح اليوم التالي:

بدا إدالجي منتعشًا ومبتهجًا، وجلس في كرسيه وسط المحكمة، وتحدث بسرعة مع محاميه مع قدرة قوية على ملاحظة الأدلة، انطلاقًا من التدريب

القانوني الشامل. في الغالب، جلس بذراعين مطويتين وساقين متقاطعتين، وراقب الشهود في اهتمام راسخ، ورُفعت فردة حذاء واحدة وظهر بوضوح التآكل الغريب لكعب واحدة من فردتي الحذاء، وهي واحدة من أقوى الروابط في سلسلة الأدلة الحالية ضده.

سُرّ جورج لأنه لا يزال يُعد متماسكًا، وتساءل عما إذا أمكنه إحداث تغيير في الأحذية أمام محكمة الجلسات الفصلية.

أشار إلى وصف صحيفة أخرى أيضًا لوليام غريتوريكس بأنه "فتى إنجليزي يتمتع بصحة جيدة، ووجه واضح سفعته الشمس بطريقة مُرضية"

كان السيد ليتشفيلد ميك واثقًا من البراءة المحتملة.

مازالت الآنسة صوفي فرانسيس هيكمان، الطبيبة الجرّاحة، مفقودة.

جورج

أمضى جورج الأسابيع الستة بين إجراءات الإحالة والجلسات الفصلية في جناح المستشفى في ستافورد غول. لم يكن مستاء، اعتقد أن رفض الكفالة هو القرار الصائب. بالكاد أمكنه أن يستمر في عمله مع هذه التّهم التي تُخيّم عليه، وفي حين افتقد أسرته، رأى أنه من الأفضل لهم جميعًا أن يبقى تحت الإقامة الجبرية الآمنة. أثارت ذعره تلك الحشود التي تحاصر بيت الكاهن وأشار إليها التقرير. وتذكّر قبضات اليد التي تدق أبواب العربة فيما يُقاد إلى المحكمة في كانوك. لن يمكنه أن يعتبر نفسه في أمان إذا فتش عنه هؤلاء المِتعصبون بين ممرات غريت ويرلي.

لكنه وجد أن هناك سببًا آخر جعله يفضل أن يكون في السجن. عرف الجميع مكان وجوده؛ لذا تلصّصوا عليه وحاسبوه في كل لحظة من اليوم. لذا إذا وقعت ضحية فعل فاضح أخرى، فسيتبين أن نمط الأحداث بأكمله لا علاقة له به. وإذا افترضنا أن التهمة الأولى ضده لا يمكن الدفاع عنها، فإن التهمة الثانية -الافتراض المضحك بأنه هدّد بقتل

رجل لم يقابله من قبل - يجب سحبها أيضًا. من الغريب أن يجد نفسه، وهو محام قانوني، يأمل في الواقع في حدوث تشويه حيوان آخر. لكن بدا له أن وقوع جريمة أخرى هي أسرع وسيلة للحرية.

ومع ذلك، حتى لو أحيلت القضية للمحاكمة، فلا شك في النتيجة. لقد استعاد رباطة جأشه وتفاؤله. لم يكن عليه أن يُمثّل مع السيد ميك أو مع والديه. يمكنه تخيل العناوين الرئيسة بالفعل. **تبرئة رجل غريت ويرلي. محاكمة مخزية للمحامي المحلي. شهود الشرطة المُعلَن عنهم غير أكفاء. بل ربما يتنحى قائد الشرطة.**

أقنعه السيد ميك بشكلٍ أو بآخر أنه لا يهم كثيرًا كيف تصوره الصحف. بدا الأمر أقل أهمية في الحادي والعشرين من سبتمبر، حين عُثر على حصان في مزرعة تابعة للسيد غرين ممزقًا ومنزوع الأحشاء. استقبل جورج الأخبار بنوع من الابتهاج الحذر. أمكنه سماع مفاتيح تدور في الأقفال، وأن يشم هواء الصباح الباكر، وبودرة والدته عندما احتضنها.

"الآن هذا يثبت أنني بريء، يا سيد ميك"

"ليس تمامًا، سيد إدالجي. لا أعتقد أننا يمكن أن نذهب إلى هذا الحد"

"لكن أنا هنا في السجن.."

"وهو ما يثبت فقط، من وجهة نظر المحكمة، أنك بريء ويجب أن تكون بريئًا تمامًا من تهمة التمثيل بحصان السيد غرين"

"لا، أكّد هذا أن هناك نمطًا من الأحداث، قبل وبعد حادثة مهر المنجم، وهو ما أثبت الآن أنه لا علاقة لي بها على الإطلاق"

"أعلم ذلك، سيد إدالجي" أراح المحامي ذقنه على كفّه.

"لكن؟"

"لكنني أجد دائمًا أنه من المفيد في هذه اللحظات أن أتخيل ما قد يقوله الادعاء في هذه الظروف"

"وماذا يمكن أن يقول؟"

"إذن في ليلة السابع عشر من أغسطس، كما أتذكر، حين سار المُدّعى عليه عائدًا من الإسكافي، ذهب بعيدًا إلى مزرعة السيد غرين"

"نعم، لقد فعلت ذلك"

"السيد غرين هو جار المُدّعى عليه"

"هذا صحيح"

"إذن، ما الذي يمكن أن يكون أكثر فائدة للمُدّعى عليه في ظروفه الحالية من تشويه حصان في بقعة أقرب إلى بيت الكاهن من أي حادثة سابقة أخرى؟"

شاهد ليتشفيلد ميك جورج وهو يحقق في الأمر.

"تقصد أنه بعد أن ألفيت نفسي مقبوضًا عليّ بسبب كتابة رسائل مجهولة تدينني بجرائم لم أقترفها، ثم أخذت في تحريض شخص آخر على ارتكاب جريمة أخرى لتبرئتي؟"

"هذا يتعلق بمدى طولها وقصرها، سيد إدالجي"

"إنه أمر مثير للسخرية تمامًا. ولا أعرف من هو غرين"

"أنا أخبرك كيف قد يختار الادعاء رؤيتها فقط. إذا امتلك عقلاً"

"وهو ما يقومون به بلا شك. لكن على الشرطة أن تلاحق المجرم على الأقل، أليس كذلك؟ تلمّح الصحف علانية إلى أن هذا يلقي بظلال من الشك على قضية الادعاء. إذا وجدوا الرجل، واعترف بسلسلة الجرائم، فعندئذ هذه حريتي؟"

"إذا حدث ذلك سيد إدالجي، إذًا نعم سأوافقك"

"فهمت"

"وهناك تطور آخر. هل يعني اسم داربي أي شيء لك؟ الزعيم داربي؟"

"داربي. داربي. لا أعتقد ذلك. سألني المفتش كامبل عن شخص يسمى الزعيم. ربما هذا هو. لماذا؟"

"وصلت المزيد من الرسائل للجميع ومتنوعة كما يبدو. حتى إن إحداها لوزير الداخلية. جميعها موقعة باسم "داربي، زعيم عصابة ويرلي" واصفًا كيف ستستمر عمليات التَشويه". رأى السيد ميك النظرة في عين جورج. "لكن لا يا سيد إدالجي، هذا يعني فقط أن الادعاء يجب أن يقبل منك بالتأكيد أنك لم تكتبها"

"يبدو أنك مصمم على أن تثبط عزيمتي هذا الصباح، سيد ميك"

"هذا ليس من اهتماماتي. لكن يجب أن تقبل بأننا ذاهبون إلى المحاكمة. ومع أخذ

ذلك في الاعتبار، قمنا بتأمين خدمات السيد فاشيل"

"آه، هذه أخبار ممتازة"

"أعتقد أنه لن يخذلنا. وسيكون السيد غاودي إلى جانبه"

"وماذا عن الادعاء؟"

"السيد ديستيرنل، أنا خائف منه. والسيد هاريسون"

"هل السيد ديستيرنل سيئ معنا للغاية؟"

"لأكن صريحًا معك، تمنيت شخصًا آخر"

"سيد ميك، حان دوري الآن لأثير عاطفتك. محامي المرافعات، مهما كان مؤهلاً، لا يمكنه صنع الطوب بلا قش"

أعطى ليتشفيلد ميك جورج ابتسامة مُحنّك. "على مدى سنوات عملي في المحاكم، يا سيد إدالجي، رأيت الطوب مصنوعًا من جميع أنواع المواد. مواد لم تعرف حتى بوجودها. لذا لن يكون عدم وجود قش صعبًا على السيد ديستيرنل"

على الرغم من هذه اللهجة التي تقترب من التهديد، أمضى جورج الأسابيع المتبقية في ستافورد غول في حالة ذهنية هادئة. عومل باحترام ومضت أيامه في نظام هناك. استلم الصحف والبريد، وتأهّب للمحاكمة مع السيد ميك. انتظر التطورات في قضية غرين. وسُمح له بالكتب. أحضر له والده كتابًا مقدسًا، ووالدته مجلدًا واحدًا لشكسبير وآخر لألفريد تنيسون. قرأ الأخيرين. ثم بعيدًا عن الفراغ، وبعض خدع أفلام الإثارة المنقولة له من السجّان، أعاره زميله نسخة رخيصة ممزقة من رواية كلب آل باسكرفيل أيضًا. رآى جورج أنها ممتازة.

تصفح الصحيفة كل صباح بقلق أقل؛ لأن اسمه غاب مؤقتًا من صفحاتها. وعوضًا عن ذلك، تابع باهتمام أخبار تعيينات وزارية جديدة في لندن، وتقديم أحدث التراتيل الدينية للدكتور إلغار في مهرجان برمنغهام الموسيقي، وجولة بافالو بيل في إنجلترا.

قبل أسبوع من المحاكمة، التقى جورج بالسيد فاشيل، وهو محامي مرافعات مرح وبدين وعشرة أعوام من الخدمة في ميدلاند سيركيت.

"ما رأيك في قضيتي، سيد فاشيل؟"

"إنها واضحة وقضية جيدة جدًا سيد إدالجي. وهذا يعني أنني أعتبر الدعوى القضائية افتراء ومجردة إلى حد كبير من أي فضيلة. بالطبع لن أقول ذلك. سأركز فقط على ما يبدو لي أنه نقاط قوية في قضيتك"

"وما الذي تبدو عليه بالنسبة لك؟"

"أود أن أعرض الأمر على هذا النحو سيد إدالجي" أعطاه محامي المرافعات ابتسامة أقرب ما تكون إلى تكشيرة. "لا يوجد دليل على أنك ارتكبت هذه الجريمة. ولا دافع لديك لارتكاب هذه الجريمة. ولم تكن لديك الفرصة لارتكابها. سألخص بعضها للقاضي وهيئة المحلفين، لكنه سيكون جوهر قضيتي"

"ربما يكون من المؤسف، أننا في المحكمة (ب)"، كما علّق السيد ميك. أثارت نبرته نشوة جورج المؤقتة.

"لماذا هذا مؤسف؟"

"يدير المحكمة (أ) اللورد هيثرتون المُدَرَّب قانونيًا على الأقل"

"هل تقصد أن يحاكمني شخص لا يعرف القانون؟"

اعترض السيد فاشيل. "لا تفزعه يا سيد ميك. لقد مثلتُ أمام كلتا المحكمتين في ما مضى. من لدينا في المحكمة (ب)؟"

"السير ريجينالد هاردي"

اسم لم يُثِر تعابير وجه السيد فاشيل. "تمامًا معك كل الحق. من ناحية أخرى، أعتبرها ميزة ألا يحكم شخص مُتسلط ممن يطمحون للوصول إلى المحكمة العليا. يمكنك الابتعاد مع الحصول على المزيد. في كثير من الأحيان، لن تتوقف من أجل المظاهر المبهرة للمعرفة الإجرائية. على العموم، أود أن أقول إنها ميزة للدفاع"

شعر جورج أن السيد ميك لم يوافقه الرأي، لكنه أعجب بالسيد فاشيل، سواء أخلص كمحامي مرافعات فعلًا أم لا.

"أيها السادة، لدي طلب واحد". التفت السيد ميك والسيد فاشيل وتبادلا النظر لفترة وجيزة. "إنه عن اسمي. اسمي آيدلجي. آيدلجي. يلفظها السيد ميك صحيحة إلى حد ما، لكن وجب أن أذكر الأمر في وقت سابق، سيد فاشيل. يبدو لي أن الشرطة قد بذلت

قصارى جهدها لتجاهل أي تصويب عرضته عليهم. قد أقترح أن يحضّر السيد فاشيل إعلانًا في بداية القضية عن كيفية نطق اسمي. لإخبار تلك المحكمة أنه ليس إ-دال-جي بل آيدلجي"

أومأ محامي المرافعات لمحامي الإجراءات موعزًا، واستجاب السيد ميك.

"جورج، كيف يمكنني صياغة هذا بأسلوب أفضل؟ بالطبع هو اسمك، وبالطبع سنسعى أنا والسيد فاشيل إلى نطقه صحيحًا. عندما نكون هنا معك. لكن في المحكمة... في المحكمة ... أعتقد أن الحُجّة ستكون: عندما تكون في روما، افعل كما يفعل الرومان. كنا سنقع في الموقف الخاطئ مع السير ريجينالد هاردي إذا قمنا بهذا الإعلان. من المستبعد أن ننجح في إعطاء دروس نطق للشرطة. وفي ما يتعلق بالسيد ديستيرنل، أعتقد أنه سيستمتع بشدة بالارتباك"

نظر جورج إلى الرجلين. "لست متأكدًا أني أفهمك"

"ما أقوله يا جورج، هو أنه يجب أن نعترف بحق المحكمة في تحديد كيفية نطق اسم السجين. لم يُكتب في أي مكان، لكن هذه هي حقيقة الأمر إلى حد ما. ما تسميه خطأً في النطق، أود أن أسميه... ما يجعلك إنكليزيًا أكثر"

أخذ جورج نفسًا. "وشرقيًا أقل؟"

"شرقيًا أقل، نعم جورج"

"إذن أطلب من كليكما أن تخطئا في لفظ اسمي في جميع المناسبات، حتى أعتاد عليه"

"من المقرر أن تبدأ المحاكمة في العشرين من أكتوبر. في التاسع عشر، عثر أربعة صبية يلعبون بالقرب من مزرعة سيدموث في ريتشموند بارك بالصدفة على جثة في حالة تحلّل متقدمة. ثبت أنها للآنسة صوفي فرانسيس هيكمان، الطبيبة من مستشفى رويال فري. مِثل جورج، في أواخر العشرينات من عمرها. وقد أشار أنها على بُعد رتل واحد فقط.

في صباح اليوم العشرين من أكتوبر لعام ألف وتسعمئة وثلاثة، جُلِب جورج من ستافورد غول إلى شاير هول. اقتيد إلى الطابق السفلي وعُرض في زنزانة الاحتجاز حيث يوضع السجناء عادة. سيُسمح له بشغل غرفة كبيرة منخفضة السقف مع طاولة بسيطة

ومدفأة كامتياز، هنا تحت أنظار الشرطي دوبس، سيتمكن من التشاور مع السيد ميك. جلس على الطاولة لمدة عشرين دقيقة في حين تجنب دوبس، وهو ضابط ذو عضلات مع ذقن بلحية ومظهر كئيب، تجنبًا صارمًا النظر في عينيه. ثم عند الإشارة، قاد جورج عبر ممرات معتمة وملتوية ومصابيح غاز غير كافية بعيدة إلى باب يُفضي إلى قعر درج ضيق. أعطاه دوبس دفعة لطيفة، وصعد نحو الضوء والضوضاء. حين ظهر في قاعة المحكمة (ب)، استحالت الضوضاء صمتًا. وقف جورج بوعي ذاتي في قفص الاتهام، ودُفع عنصر دون قصد إلى خشبة المسرح عبر باب سري.

ثم تمت قراءة لائحة الاتهام أمام مساعد رئيس الجلسة ريجينالد هاردي، وقاضيين مرافقين، وكبير المفتشين آنسون، وأعضاء هيئة المحلفين الإنجليزية، وممثلي الصحافة، وممثلي الجمهور، وثلاثة من أفراد عائلته. اتهم جورج إرنست تومبسون إدالجي بجرح حصان مُلك شركة منجم غريت ويرلي في السابع عشر أو الثامن عشر من سبتمبر، وبإرسال رسالة في الحادي عشر من يوليو إلى الرقيب روبنسون في كانوك، مهدّدًا بقتله أيضًا.

كان السيد ديستيرنل طويل القامة، أنيق الهيئة، وذا انفعالات سريعة. استدَعى المفتش كامبل بعد خطاب افتتاحي قصير، وبدأت الحكاية بأكملها مرة أخرى: اكتشاف المهر المُشوّه، وتفتيش بيت الكاهن، والملابس الملطخة بالدماء، والشعر على المعطف، والرسائل المجهولة، واعتقال السجين والتصريحات اللاحقة. عرف جورج أنها كانت مجرد قصة، شيئًا مؤلفًا من قصاصات ومصادفات وفرضيات. عرف أنه بريء أيضًا. لكن شيئًا حول تكرار قصة سلطة الشعر المستعار والمعطف جعلها تأخذ المزيد من المصداقية.

اعتقد جورج أن أدلة كامبل انتهت، عندما أخرج ديستيرنل أول مفاجأة له.

"المفتش كامبل، قبل أن نخلص إلى ذلك، هناك قضية القلق العام الكبير، أعتقد أنك قادر على تنويرنا بشأنها. في الحادي والعشرين من سبتمبر، أفهم أنه عثر على حصان مُثّل به في مزرعة السيد غرين"

"هذا صحيح يا سيدي"

"مزرعة السيد غرين قريبة جدًا من بيت الكاهن في غريت ويلي؟"

"إنها كذلك"

"وأجرت الشرطة تحقيقًا في هذا الفعل المشين؟"

"بالتأكيد. بوصفها مسألة عاجلة ولها الأفضلية"

"وهل نجح هذا التحقيق؟"

"نعم، نجح يا سيدي"

لم يكن السيد ديستيرنل في حاجة إلى الفترة المدروسة التي ألقى بها الآن. كانت قاعة المحكمة كلها في حالة ترقب كطفل فاغرًا فاهه.

"وهل ستبلغ المحكمة بنتيجة تحقيقك؟"

"جون هاري غرين، وهو نجل المزارع الذي وقع الفعل المشين على أرضه، ومن أفراد الحرس الوطني البريطاني في سن التاسعة عشرة، اعترف بارتكاب الفعل ضد حصانه. لقد وقّع اعترافًا بهذا المعنى"

"اعترف بالمسؤولية الكاملة والوحيدة؟"

"اعترف"

"واستجوبته عن أي صلة محتملة بين هذا الفعل المشين والفعل السابق في المنطقة؟"

"نعم، فعلنا. على نطاق واسع يا سيدي"

"وماذا قال؟"

"كان هذا حدثًا منفصلاً"

"وهل أكدت تحقيقاتك أن الفعل الفاضح في مزرعة غرين ليس له أي علاقة على الإطلاق بأي فعل فاضح آخر في المنطقة المجاورة؟"

"أكدت"

"لا يوجد رابط على الإطلاق؟"

"لا يوجد رابط على الإطلاق يا سيدي"

"وهل جون هاري غرين في المحكمة اليوم؟"

"نعم، إنه هنا سيدي"

بدأ جورج، مثل أي شخص آخر في المحكمة المكتظة، يبحث حوله عن شرطي خيّال عمره تسعة عشر عامًا اعترف بتشويه حصانه دون إمداد الشرطة على ما يبدو بأي سبب

وجيه لفعلته تلك. ولكن في تلك اللحظة، قرر السير ريجينالد هاردي أن الوقت قد حان لغدائه.

كانت واجبات السيد ميك الأولى مع السيد فاشيل. عندها فقط حضر إلى الغرفة التي احتُجِز فيها جورج أثناء التأجيل. واتّسم سلوكه بأنه فظ.

"لقد حذرتنا يا سيد ميك من ديستيرنل. علمنا أننا في انتظار شيء ما. وعلى الأقل سنتمكن من الذهاب إلى غرين بعد ظهر هذا اليوم"

هزّ المحامي رأسه بتجهّم. "لا فرصة لذلك"

"لم لا؟"

"لأنه شاهِدُهم. إذا لم يَحْمِلوه على ذلك، فلا يمكننا استجوابه. ولا يمكننا المخاطرة بنعته بالضرير؛ لأننا لا نعرف ما قد يقوله، يمكن أن يكون مُدمِّرًا. ومع ذلك، يُبرِزونه في المحكمة، لذا يبدو الأمر كما لو أنهم منفتحين على الجميع. هذا ذكاء. إنه ديستيرنل المثالي. وجب أن أفكر في الأمر، لكني لم أعرف شيئًا عن هذا الاعتراف. إنه أمر سيئ"

شعر جورج أن من واجبه فقط أن يُهلّل لمحاميه. "أستطيع أن أرى أنه أمر مخيب للآمال سيد ميك، ولكن هل هناك أي ضرر حقيقي؟ قال غرين – كما قالت الشرطة - لا علاقة له بأي فعل فاضح آخر"

"هذه هي النقطة فقط. ليس هذا ما يقولونه -بل هكذا يبدو- لماذا يجب على الرجل أن ينزع أحشاء الحصان -حصانه- بلا سبب واضح؟ الجواب: لمساعدة صديق وجار متهم بجريمة مماثلة"

"لكنه ليس صديقي. وحتى أنني أشك في قدرتي على تمييزه بين آخرين"

"نعم، أعلم. وعندما نأخذ بعين الاعتبار المخاطر من وضعك في القفص، ستخبر السيد فاشيل بذلك. لكن من المحتم أن تبدو كما لو أنك تنكر ادعاء لم يُقدّم في الواقع. إنه ذكي. سيهاجم السيد فاشيل المفتش بعد ظهر هذا اليوم بعنف، لكنني لا أعتقد أننا يجب أن نكون متفائلين"

"السيد ميك، لم أستطع ملاحظة ذلك في دليل كامبل، حيث ذكر إن ثيابي التي وجدها -المعطف الذي لم أرتديه منذ أسابيع- كانت رطبة. كرّر رطبة مرتين. اكتفى بوصفها

في كانوك بأنها ملابس رطبة"

ابتسم ميك ابتسامة ناعمة. "إنه لمن دواعي سروري العمل معك، سيد إدالجي. هذا نوع من الأشياء التي نلحظها، ولكننا لا نميل إلى ذكرها للمُوكّل في حالة استبدت الكآبة بنفسه. لا شك في أن الشرطة ستجري بعض التعديلات الإضافية على هذا النوع"

حصل السيد فاشيل على تقدير ضئيل من المفتش، الذي عرف طريقه لمنصة الشهود بعد ظهر ذلك اليوم. صُدِم جورج خلال مواجهته الأولى مع كامبل في مركز شرطة هيدنسفورد، إنه بطيء التفكير وغامض إلى حد ما. بينما في شارع نيوهول وفي كانوك، كان أكثر يقظة وعدائية بكل صراحة، إن لم يكن ذا فكر متماسك دائمًا. الآن أسلوبه محسوب وكئيب، في حين بدا أن طوله وزيه العسكري يضفيان عليه المنطق والسلطة أيضًا. فكّر جورج مليًا أن قصته إذا تبدّلت بعض الشيء من حوله، فإن بعض الشخصيات قد تتغير كذلك.

حقق السيد فاشيل المزيد من النجاح مع الشرطي كوبر، الذي وصف كما فعل في محكمة الصلح، تطابق كعب حذاء جورج مع الطبعات في الوحل.

"الشرطي كوبر"، بدأ السيد فاشيل: "هل لي أن أستفسر من أعطاك التعليمات للمضي قدمًا كما فعلت؟"

"لست متأكدًا تمامًا يا سيدي. أعتقد أنه المفتش، لكن ربما كان الرقيب بارسونز"

"وأين قيل لك أن تنظر بالتحديد؟"

"في أي مكان على الطريق، ربما سلك الجاني دربه بين الحقل وبيت الكاهن"

"على افتراض أن الجاني جاء من بيت الكاهن؟ وهل عاد إلى هناك؟"

"نعم يا سيدي"

"في أي مكان؟"

"في أي مكان يا سيدي" لم ينظر كوبر في عين جورج لأكثر من عشرين عامًا: صبي أحمر الأذنين ومُحرَج يحاول تقليد ثقة رؤسائه.

"وهل افترضت أن الجاني، كما أشرت إليه، سلك الطريق الأكثر مباشرة؟"

"نعم، أعتقد أنني افترضت ذلك يا سيدي. هذا ما يفعلونه عادة عند مغادرة مسرح

الجريمة"

"فهمت، أيها الشرطي. لذا لم تنظر إلى أي مكان آخر غير الطريق المباشر؟"

"لا يا سيدي"

"وكم من الوقت استغرقت عملية البحث؟"

"ساعة أو أكثر، كما أقدّر"

"ومتى حدث ذلك؟"

"أفترض أنني بدأت البحث في حوالي التاسعة والنصف"

"واكتُشِف المهر في السادسة والنصف تقريبًا؟"

"نعم يا سيدي"

"قبل ثلاث ساعات في ذلك الوقت أمكن لأي شخص السير عبر هذا الطريق. عمال المناجم في الطريق إلى منجم الفحم، والمتفرجون الذين جذبتهم أنباء الفعل الفاضح، ورجال الشرطة بالتأكيد"

"هذا ممكن يا سيدي"

"ومن الذي رافقك أيها الشرطي؟"

"كنت بمفردي"

"فهمت. ووجدت بعض العلامات التي تطابق من وجهة نظرك، الجزمة التي أمسكتها في يدك"

"نعم يا سيدي"

"ثم عدت وأبلغت عن اكتشافك؟"

"نعم، سيدي"

"ثم ماذا حدث؟"

"ماذا تقصد يا سيدي؟"

ابتهج جورج لملاحظة تغير طفيف في نبرة كوبر. كما لو أنه أدرك أنه سيقاد إلى مكان ما لكنه لم يتمكن بعد من تحديد الوجهة.

"أعني أيها الشرطي، ماذا حدث بعد أن أبلغت عما وجدته؟"

"عُيّنت للتنقيب في أراضي بيت الكاهن، سيدي"

"فهمت. لكن في مرحلة ما أيها الشرطي، عدت وعرضت لشخص من رتبة أعلى العلامات التي اكتشفتها"

"نعم يا سيدي"

"ومتى هذا؟"

"في منتصف فترة ما بعد الظهيرة"

"في منتصف فترة ما بعد الظهيرة. ما تقصده، الساعة الثالثة، الساعة الرابعة؟"

"في ذلك الوقت، يا سيدي"

"فهمت" عبس السيد فاشيل، ومنح نفسه إلى حد ما فسحة للتأمل بشكل استعراضي، برأي جورج.

"بعد ست ساعات، بعبارة أخرى"

"نعم يا سيدي"

"في أي وقت خضعت المنطقة للحراسة والتطويق لمنع المزيد من الأقدام أن تطأ الأرض؟"

"ليس تمامًا"

"ليس تمامًا. هل هذا يعني نعم أم لا، أيها الضابط؟"

"لا، سيدي"

"الآن، أفهم أنه غالبًا ما يكون إجراءً عاديًا في مثل هذه الحالات. أن تأخذ قالب جبس من باريس لعلامات الكعب المميزة المعنية في القضية. هل يمكنك إخباري إذا حدث ذلك؟"

"لا سيدي، لم يكن كذلك"

"أفهم أن تقنية أخرى تتمثل في تصوير مثل هذه العلامات. هل قمت بذلك؟"

"لا يا سيدي"

"أفهم أن تقنية أخرى تتمثل في نبش طبقة العشب ذات الصلة، وإحضارها لتحليل الطب الشرعي. هل تم ذلك؟"

"لا يا سيدي. كانت الأرض طرية للغاية"

"منذ متى وأنت شرطي، سيد كوبر؟"

"خمسة عشر شهرًا"

"خمسة عشر شهرًا. شكرًا جزيلًا"

أحس جورج بالبهجة. نظر إلى السيد فاشيل، كما فعل من قبل، لكنه فشل في جذب انتباهه. ربما هذه آداب المحكمة، أو ربما فكّر السيد فاشيل في الشاهد التالي فقط.

بدا أن بقية فترة ما بعد الظهر تسير على ما يرام. قُرِأت عدد من الرسائل المجهولة، وكان من الواضح لجورج أنه لا يمكن لأحد بكامل قواه العقلية أن يتخيل أنه قد كتبها. الشخص الذي قدمه كامبل، على سبيل المثال، من "عاشق العدالة": "جورج إدالجي... أنا لا أعرفك، لكنني شاهدتك أحيانًا في محطة القطارات، ولا أتوقع أن أحبك كثيرًا إن عرفتك، لأني لا أحب السكان المحليين". كيف بحق السماء يمكن أن يكتب ذلك؟ وأعقب ذلك إسناد أكثر غرابة للتأليف. عُرِضت رسالة تصف سلوك ما تسمى بـ "عصابة ويرلي"، والتي ربما جاءت من أكثر رواية مبتذلة: "جميعهم يقسمون قسمًا مخيفًا سريًا، ويكررونه بعد الزعيم، ويردد كلٌّ منهم: "فليُصبني الموت إن انشققت يومًا ما". اعتقد جورج أنه يمكن الاعتماد على هيئة المحلفين ليستنبط أن هذه ليست الطريقة التي يُعبّر بها المحامون عن أنفسهم.

قدّم السيد هودسون التاجر دليلًا على أنه شاهد جورج في طريقه إلى السيد هاندز من بريدجتاون، وأن المحامي ارتدى معطفه البيتي القديم. لكن السيد هاندز نفسه، الذي أمضى مع جورج مدة نصف ساعة أو نحو ذلك، جزم أن زبونه لم يكن يرتدي المعطف المذكور. أفاد شاهدان آخران برؤيته، لكنهما لم يتذكرا ملابسه.

"أشعر أنهم يغيّرون مواقفهم" قال السيد ميك، بعد أن رُفِعت الجلسة لهذا اليوم. "أشعر أنهم قادرون على فعل شيء ما"

سأل جورج: "أي نوع من الأفعال؟"

"كانت قضيتهم في كانوك، أنك ذهبت إلى الحقل أثناء مشيك قبل العشاء. لهذا السبب اتصلوا بالعديد من الشهود الذين التقوا بك حول الحقل وفيه. هل تذكر ثنائي

العشّاق؟ لم يؤت على ذكرهما هذه المرة، وهما ليسا الوحيدان. والشيء الآخر هو أن التاريخ الوحيد المذكور في إحالة الدعوى هو السابع عشر. الآن تُقرأ لائحة الاتهام في السابع عشر أو الثامن عشر. لذا هم مراوغون في رهاناتهم. أشعر أنهم ينتقلون إلى خيار الليل. قد يكون لديهم شيء لا نعرف عنه"

"السيد ميك، لا يهم ما يذهبون إليه، أو لماذا يذهبون إليه. إذا أرادوا المساء، ليس لديهم شاهد واحد رآني في أي مكان بالقرب من الحقل. وإذا أرادوا الليل، فلديهم دليل والدي ليتعاملوا معه"

تجاهل السيد ميك موكّله وواصل التفكير بصوت عالٍ. "بالطبع، ليس عليهم الذهاب في اتجاه أحدهما أو الآخر. يمكنهم فقط طرح احتمالات أمام هيئة المحلفين. لكنهم سلّطوا المزيد من الضغط على آثار الجزمة هذه المرة. ولن يحدث أي تلاعب في آثار الجزمة إلا إذا اختاروا الخيار الثاني بسبب المطر في الليل. وقال جورج: "إذا تحوّل معطفك البيتي من رطب إلى مبلل، فهذا يعزز فرضيتي أيضًا"

قال جورج: "كان ذلك أفضل بكثير. لم يتبق شيء مع الشرطي كوبر بعد أن انتهى السيد فاشيل منه ظهر اليوم. وإذا رغب السيد ديستيرنل المتابعة في هذا الخط، فسيتعين عليه أن يدّعي أن كاهن كنيسة إنجلترا لا يقول الحقيقة"

"سيد إدالجي، إن جاز لي... يجب ألا ترى كل ذلك واضحًا تمامًا"

"لكنه واضح تمامًا"

"هل تقول إن والدك سليم؟ من وجهة نظر عقلية أعني؟"

"إنه أقوى رجل أعرفه. لماذا تسأل؟"

"أظن أنه سيحتاج أن يكون كذلك"

"ستندهش من مدى قوة الهندوس"

"ووالدتك؟ وأختك؟"

بدأ صباح اليوم الثاني بشهادة جوزيف ماركو، صاحب حانة وشرطي سابق. ووصف كيف أرسله المفتش كامبل إلى محطة سكة حديد غريت ويرلي آند تشيرشبريدج، وكيف

رفض السجين طلبه بأن يستقِلّ القطار التالي.

سأل السيد ديستيرنل: "هل أخبرك، ما هو العمل المهم للغاية الذي تطلب منه تجاهل الطلب العاجل لمفتش الشرطة؟"

"لا، سيدي"

"هل كررت طلبك؟"

"فعلت يا سيدي. اقترحت عليه أنه ربما أخذ يوم عطلة لمرة واحدة. لكنه رفض تغيير رأيه"

"فهمت. والسيد ماركو، هل حدث شيء في هذه المرحلة؟"

"نعم سيدي. جاء رجل على منصة الشهود، وقال إنه سمع أن حصانًا آخر مُزّق في تلك الليلة"

"وعندما قال الرجل هذا، أين كنت تنظر؟"

"تمعّنت في تقاسيم وجه السجين"

"وهل يمكنك أن تصف ردة فعله في المحكمة"

"نعم يا سيدي. ابتسم"

"ابتسم. ابتسم أمام الأخبار التي تذكر أن حصانًا آخر مُزّق. هل أنت متأكد من ذلك يا سيد ماركو؟"

"آه نعم يا سيدي. متيقّن تمامًا أنه ابتسم"

فكّر جورج: لكن هذا ليس صحيحًا. أعلم أن هذا غير صحيح. يجب أن يثبت السيد فاشيل أن هذا غير صحيح.

عرف السيد فاشيل سبيلاً أفضل من مهاجمة الإفادة مباشرة. ركّز بدلًا من ذلك على هوية الرجل الذي زعم أنه جاء إلى ماركو وجورج. من أين أتى، أي نوع من الرجال كان، إلى أيَن ذهب؟ (وضمنًا، لماذا لم يمثُل في المحكمة؟) نجح السيد فاشيل في التعبير، من خلال التلميحات والصمت وأخيرًا عن طريق تقديم الإفادة المباشرة، عن دهشة كبيرة من صاحب حانة وشرطي سابق، مع دائرة معارف واسعة في أنحاء المنطقة كلها، يجب ألا يكون قادرًا على تمييز الغريب بل والمفيد والغامض القادر على تأكيد ادعائه الخيالي والمُغرِض. لكن

هذا ما أمكن الدفاع الحصول عليه مع ماركو.

ثم كرّر السيد ديستيرنل للرقيب بارسونز تصريحات السجين حول توقع اعتقاله، وتصريحه المزعوم في زنزانة برمنغهام المؤقتة عن جعل السيد لوكستون ينهض قبل أن يفعل. لم يسعَ أحد لتوضيح من هو لوكستون المذكور. عضو آخر في عصابة ويرلي؟ كما هدد جورج شرطيًا بإطلاق النار عليه؟ تُرك الاسم معلقًا، لتقوم هيئة المحلفين بعمل اللازم. نوّه الشرطي ميريديث، الذي لم يتذكر وجهه واسمه جورج، بما أخبره جورج عن شيءٍ غير ضار عن الكفالة، لكنه نجح في جعله يبدو مجرمًا. ثم كرر ويليام غريتوريكس، الصبي الإنجليزي الشاب الأصغر بطريقة مرضية، قصته عن جورج وهو ينظر من نافذة عربة النقل ويبدي اهتمامًا غير قابل للتفسير بخيول بليويت الميتة.

وصف السيد لويس الطبيب البيطري حالة مهر المنجم، والطريقة التي يقطر بها الدم، وطول وطبيعة الجرح، والحاجة المؤسفة لإطلاق النار على الحيوان. سأله السيد ديستيرنل عن الاستنتاجات التي قد يتمكن من استخلاصها فيما يتعلق بالوقت الذي حدث فيه التشويه. أعلن السيد لويس رأيه المهني، أن الإصابة، الإصابة قد وقعت في غضون ست ساعات من فحصه للمهر. وبعبارة أخرى، ليست قبل الثانية والنصف في صباح يوم الثامن عشر.

مثّل هذا الشعور لجورج أول خبر سار في هذا اليوم. الجدل حول الملابس التي ارتداها في زيارته للإسكافي أصبح الآن غير ذا صلة بالموضوع بتاتًا. وحجب الادعاء لتوه إحدى سُبله الخاصة. لقد حاصروا أنفسهم.

لكن إذا كان الأمر كذلك، فإنه لم ينعكس على سلوك السيد ديستيرنل. عنى موقفه برمته ضمنًا أن بعض الغموض الأولي في القضية قد انجلى الآن بفضل الجهود الحثيثة للشرطة والادعاء. لم نعد نزعم أنه في وقت ما في فترة اثنتي عشرة ساعة... يمكننا الآن أن ندعي أن الوقت اقترب جدًا من الثانية والنصف صباحًا... وبطريقة ما جعل السيد ديستيرنل هذه الدقة المتنامية تعني الثقة المتزايدة بالقدر نفسه مع وجود السجين في قفص الاتهام للأسباب المذكورة في لائحة الاتهام.

تخلّى عن الجزء الأخير من اليوم إلى توماس هنري غورين، الذي وافق على وصف نفسه كخبير خطوط له خبرة تسعة عشر عامًا في التعرف على الخط المزيف والمجهول.

وأكد أنه كثيرًا ما تورط مع وزارة الداخلية، وأن آخر ظهور مهني له هو كشاهد في محاكمة جريمة مزرعة اللحوم. لم يكن جورج يعلم ما يبدو عليه خبير الخطوط. ربما هو شخص مضجر وواسع الاطلاع، وصوته كصرير قلم خشن. من الممكن أن يكون غورين، بوجهه المُتورّد وشعيرات السبلتين الخديتين، شقيق السيد غرينسيل، الجزار في ويرلي.

تولى السيد غورين الجلسة، بِغض النظر عن ملامح الوجه. جُهزت عينات من خط يد جورج في صورة فوتوغرافية مكبرة. كما تم إنتاج عينات من الحروف المجهولة في صورة فوتوغرافية مكبرة. وُصفت الوثائق الأُصلية ومررت إلى أعضاء هيئة المحلفين، الذين أخذوا ما بدا لجورج وقتًا لا نهاية له في فحصها، ينقطع باستمرار للتحديق مطولًا في السجين. وأشار السيد غورين لدوائر وحِيَل وتقاطعات مميزة معينة بمؤشر خشبي. وانتقل الوصف بطريقة أو بأخرى إلى الاستدلال، ثم إلى الاحتمال النظري ومن ثم إلى اليقين المطلق. وأخيرًا، مع الأخذ برأي السيد غورين الفني والخبير، عُدّ السجين مسؤولًا عن الرسائل المجهولة كما ظهر جليًا في خطّه عند توقيعه.

"كل هذه الرسائل؟" سأل السيد ديستيرنل، وهو يلوح بيده هنا وهناك في المحكمة، التي يبدو أنها تحولت إلى مَنْسَخ.

"لا يا سيدي، ليست كلها"

"برأيك أن بعضًا منها لم يكتبه السجين؟"

"نعم يا سيدي"

"كم عددها؟"

"واحدة سيدي"

أشار السيد غورين إلى الرسالة الوحيدة التي لم تُنسب كتابتها إلى جورج. أدرك جورج كاستثناء، أن لها أثر المصادقة على تأكيدات غورين حول الآخرين جميعهم. لقد تبيّن أنها قطعة من الخبث المتخفي كتحذير.

ثم أنفق السيد فاشيل بعض الوقت في الفارق بين الرأي الشخصي والدليل العلمي، وبين التفكير في شيء ما والدراية به؛ لكن السيد غورين أظهر نفسه كشاهدٍ عنيدٍ. لقد اختبر الوضع ذاته عدة مرات من قبل. لم يكن فاشيل أول محامٍ للدفاع يشير إلى أن

إجراءاته لم تكن أكثر صرامة من تلك التي يتبعها مراقب الكرة البلورية أو قارئ الأفكار أو الوسيط الروحاني.

بعدئذ، أكد السيد ميك لجورج أن اليوم الثاني بدا على الأغلب هو الأسوأ بالنسبة للدفاع. لكن في اليوم الثالث، عندما يقدموا دليلهم الخاص، سيكون الأفضل. تأمل جورج ذلك. عانى من الشعور بأن قصته سُلبت منه، رويدًا رويدًا ولكن بشكل لا رجعة فيه. خشي أنه بمجرد عرض مرافعة الدفاع، سيكون قد فات الأوان. سيستجيب الناس -وخصوصًا هيئة المحلفين- عن طريق التفكير، ولكن لا، لقد قيل لنا بالفعل ما حدث. لماذا يجب أن نغير فكرنا الآن؟

في صباح اليوم التالي، طبّق عن طيب خاطر نهج براءة السيد ميك لوضع قضيته في منظورها الصحيح. **جريمة قتل في منتصف الليل. مأساة القناة في برمنغهام. القبض على اثنين من المواطنين.** فشلت الحيلة لمرة واحدة في إحداث تأثيرها المعتاد. انتقل إلى صفحة **مأساة حب في مدينة تيبتون**، عن أحد الشياطين الفقراء الذي انتهى به حب امرأة سيئة إلى إلقاء نفسه في القناة. مع ذلك فشلت المقالات في جذبه، وظلت عينه تنجذب إلى العناوين الرئيسة. وجد نفسه مستاء من حقيقة أن القتل القذر على القناة **مأساويًا**، وكذلك اتّسم الانتحار البائس بأنه **مشين** أيضًا. في حين أن قضيته ظلت منذ البداية **فعلًا فاضحًا**.

وبعد ذلك، غلبه الارتياح حين تعثّر بخبر **وفاة طبيبة**. رأى أن من واجبه الاجتماعي مجاراة الآنسة هيكمان، التي لا تزال جثة متحللة حُجبت أسرارها. إنها رفيقته في سوء الحظ منذ بدء إجراءات إحالة الدعوى. أمس، وفقًا لصحيفة بوست، اكتُشِف سكين طبي أو مِشرط مُقوّس بالقرب من مزرعة سيدموث في ريتشموند بارك. وتوقعت الصحيفة أنها وقعت من ملابس المرأة أثناء نقل جسدها. تساءل جورج عن مدى مصداقية هذا. هل عُثر على جثة الجرّاحة المفقودة، وأثناء تحريكها سقطت الأشياء من جيوبها، ولم يُلحظ ذلك؟ لم يكن جورج متأكدًا من أنه سيصدق هذا لو أنه طبيب شرعي في هيئة التحقيق.

كما أشارت الصحيفة أن السكين أو المِشرط المُقوّس ملكًا للمتوفاة، وربما استُخدمت لقطع الشريان، مما أدى إلى أن تنزف حتى الموت. بعبارة أخرى، حادثة انتحار، أي **مأساة** أخرى. حسنًا، حَسِب جورج، أن ذلك أحد التفسيرات المحتملة. لو كان بيت كاهن

ويرلي في مقاطعة سَري بدلاً من ستافوردشاير، فستتبنّى الشرطة نظرية أكثر إقناعًا: أن ابن الكاهن قد كسر قفل حجرة مقفلة، واستحوذ على مِشرط مُقوّس، لم يسبق له أن شاهده من قبل في حياته، تبع المرأة المسكينة حتى وصلت إلى المزرعة ومن ثم لأنه افتقر إلى أي دافع محتمل ذبحها.

أحيته هذه الضربة المريرة. كما أن تصوره لمظهره الخيالي في قضية هيكمان ذكّره بالضمانات التي قدمها له فاشيل في اجتماعهما الأول. دفاعي، سيد إدالجي؟ لا دليل على أنك ارتكبت الجريمة، ولا دافع لديك لارتكاب الجريمة، ولا فرصة للتنفيذ. بالطبع سأغطيها للقاضي وهيئة المحلفين، لكن هذا سيكون أساس قضيتي.

أولاً، مع ذلك، يجب التعامل مع دليل الدكتور باتر. الدكتور باتر لا يشبه السيد غورين، الذي بدا لجورج دجالاً في ثياب محترف. كان جرّاح الشرطة رجلاً ذو شعر رمادي، هادئًا وحذرًا، جاء من عالم أنابيب الاختبار والمجاهر، تعامل مع التفاصيل فقط. أوضح للسيد ديستيرنل إجراءاته عند فحص شفرات الحلاقة والسترة، والصُّدرة، والجزمات، والبناطيل، ومعطف البيت. ووصف البقع المتباينة الموجودة على الملابس المختلفة، وحدد ما يمكن تصنيفه على أنه دم حيوان ثديي. أحصى الشعر الذي التُقِط من الكُم وصدر السترة الأيسر: في المجموع تسع وعشرون منها، وجميعها قصيرة وحمراء. وقارنها مع الشعر على قطعة الجلد المقطوعة من مهر المنجم الميت. هي أيضًا قصيرة وحمراء اللون. لقد فحصها تحت المجهر وأعلن أنها: "متشابهة في الطول واللون والشكل"

تميّز أسلوب السيد فاشيل مع الدكتور باتر بمنح كفاءته ومعرفته الاحترام الكامل، من ثم السعي لتحويلها لمصلحة الدفاع. ولفت الانتباه إلى البقع البيضاء على السترة التي خلصت الشرطة إليها، وهي اللعاب والزبد من الحيوان المصاب. هل حصل أي تأكيد على ذلك من التحليل العلمي للدكتور باتر؟

"لا"

"من وجهة نظرك، ممّ تتكون البقع؟"

"النشا"

"وكيف يمكن أن تكون مثل هذه البقايا على الملابس، حسب تجربتك؟"

"على الأغلب، أود أن أقول إنها بقايا خبز وحليب من الإفطار"

عند هذه النقطة، سمع جورج ضجيجًا كاد ينسى وجوده تقريبًا: إنه الضحك. ساد الضحك أرجاء المحكمة على فكرة الخبز والحليب. تراءى له صوت العقل. نظر إلى هيئة المحلفين مع استمرار مرح الجمهور الصاخب. ابتسم واحد أو اثنان منهم، لكن معظمهم احتفظوا بملامح رصينة. حكم جورج على كل هذا على أنه إشارة مشجعة.

انتقل السيد فاشيل الآن إلى بقع الدم على كم سترة المدعى عليه.

"هل تقول إن هذه البقع دم ثدييات؟"

"نعم"

"لا شك في ذلك دكتور باتر؟"

"لا شك على الإطلاق"

"فهمت الآن، دكتور باتر، الحصان حيوان ثديي؟"

"بالفعل"

"كذلك بالنسبة إلى الخنزير والخروف والكلب والبقرة؟"

"بالتأكيد"

"في الواقع، كل شيء في مملكة الحيوانات ليس طائرًا أو سمكة أو زواحف يمكن تصنيفه على أنه ثدييات؟"

"نعم"

"أنت وأنا من الثدييات، وكذلك أعضاء هيئة المحلفين؟"

"بالتأكيد"

"إذن يا دكتور باتر، عندما تحدد أن الدم ثديي، فأنت تشير فقط أنه يمكن أن ينتمي إلى أي من الأنواع المذكورة أعلاه؟"

"هذا صحيح"

"أنت لا تدّعي إثبات، أو أنك قادر على إثبات، أن بقع الدم الصغيرة على سترة المُدّعى عليه مصدرها حصان أو مهر؟"

"لن يكون من الممكن تقديم مثل هذا الإثبات، لا"

"وهل يمكن أن نحدد من الفحص زمن وجود بقع الدم؟ هل يمكنك القول، على سبيل المثال، أن هذه البقعة قد وُجدت اليوم، أو بالأمس، أو أنها قبل أسبوع، أو قبل عدة أشهر؟"

"حسنًا، إذا مازالت رطبة..."

"هل كانت أي من بقع الدم على سترة جورج إدالجي مبللة عندما قمت بفحصها؟"

"لا"

"كانت جافة؟"

"نعم"

"لذا، بناءً على شهادتك، يمكن أنها وُجدت هناك منذ أيام أو أسابيع أو حتى أشهر؟"

"هذا هو الحال"

"وهل يمكن أن نقول من بقع دم ما إذا أنها ربما نتجت عن دماء حيوان حي أو ميت؟"

"لا"

"أو فعلًا من مفصل من اللحم؟"

"لا هذا ولا ذاك"

"لذا دكتور باتر، لا يمكنك عن طريق فحص بقع الدم، التمييز بين تلك التي تسبب بها رجل يُمثِّل بحصان وتلك التي ربما وصلت إلى ملابسه سابقًا قبل عدة أشهر، حين على سبيل المثال، لنقل إنه كان يُقطّع اللحم المشوي يوم الأحد... أو في الواقع يأكله؟"

"أود أن نتّفق"

"وهل يمكنك تذكير المحكمة، بعدد بقع الدم التي وجدتها على طرف كُم سترة السيد إدالجي؟"

"بقعتان"

"وأعتقد أنك قلت إن حجم كل منها بحجم ثلاث بنسات؟"

"فعلت"

"دكتور باتر، إذا كنت ستمزق حصانًا بعنف حدّ النزف حتى الموت، وأصبح لزامًا عليك أن تطلق النار عليه، فهل تتخيل أنه يمكنك فعل ذلك مع ترك القليل من الدماء على

ملابسك أكثر مما يمكن العثور عليه إذا كنت ممن يأكل بإهمال؟"

"لا أود التفكير..."

"وأنا بالتأكيد لن أضغط عليك للتفكير في ذلك دكتور باتر. بالتأكيد لن أضغط عليك"

نتيجة لهذا النقاش، افتتح السيد فاشيل قضية الدفاع بتصريح قصير، ثم استدعى جورج إرنست تومبسون إدالجي.

"تقدّم بسرعة في قفص الاتهام وواجه المحكمة المكتظة بهدوء تام" هذا ما قرأه جورج في اليوم التالي في برمنغهام ديلي بوست، جملة جعلته يشعر بالفخر دائمًا. بغض النظر عن الأكاذيب التي قيلت، وبصرف النظر عن حملة الإشاعات، والافتراءات على أسلافه، والتحريف المتعمد للشرطة والشهود الآخرين، سيواجه وواجه مُتَّهِميه برباطة جأش.

بدأ السيد فاشيل بأخذ مُوكّله من خلال تحركاته الدقيقة مساء يوم السابع عشر. كلاهما يعلم أن هذا غير ضروري على الإطلاق، نظرًا لتأثير شهادة لويس على التوقيت المعروف للأحداث. لكن السيد فاشيل أراد أن تألف هيئة المحلفين صوت جورج ومصداقية شهادته. بالكاد مرت ست سنوات منذ أن سمح للمتهمين بالإدلاء بشهاداتهم، ولا يزال وضع عميلك في قفص الاتهام يُعدّ إثارة خطيرة.

لذلك أعيد سرد زيارة السيد هاندز الإسكافي مرة أخرى، وتتبع مسار ذلك المساء أمام هيئة المحلفين... على الرغم من ردّه على تلميح سابق من السيد فاشيل، لم يذكر جورج الذهاب إلى مَزرعة غرين. ثم وصف العشاء العائلي وترتيبات النوم وباب حجرة النوم المقفل ونهوضه، ووجبة الإفطار والمغادرة إلى المحطة.

"الآن، في المحطة، هل تذكر التحدث إلى السيد جوزيف ماركو؟"

"نعم، بالفعل. وقفت على رصيف المحطة في انتظار قطاري المعتاد -قطار السابعة وتسع وثلاثين- عندما اقترب مني"

"هل تذكر ما قاله؟"

"نعم، قال إن لديه رسالة من المفتش كامبل. كدت أن أفوت قطاري وأنتظر في المحطة حتى يحين الوقت الذي يمكنه فيه التحدث إلي. لكنني أتذكر أكثر نبرة صوت ماركو"

"كيف تصف نبرة الصوت هذه؟"

"حسنًا، لقد كان وقحًا جدًا. كما لو أنه يعطيني أمرًا، أو يمرر طلبًا بأقل قدر ممكن من الكياسة. سألت عن السبب الذي يرغب المفتش في رؤيتي لأجله، قال ماركو إنه لا يعرف ولن يخبرني بأي حال من الأحوال"

"هل عرّف نفسه بأنه شرطي من العناصر الخاصة؟"

"لا"

"إذن لم ترَ سببًا للتغيّب عن العمل؟"

"في الواقع، كان لدي ضغط عمل في مكتبي، وأخبرته بذلك. ثم تغير أسلوبه. أصبح مثيرًا للاشمئزاز واقترح أن أنفق يومًا واحدًا في حياتي لقضاء عطلة ليوم واحد"

"وكيف كان رد فعلك على ذلك؟"

"اعتقدت أنه لا يملك أدنى فكرة عن ماهية المحامي، وعن مسؤوليات المهنة. إن الأمر ليس مثل أن تكون صاحب حانة وأن تأخذ إجازة وتجعل شخصًا آخر يسحب الجعة "

"في الواقع لا. وعند هذه النقطة هل أتى إليك رجل بخبر أن حصانًا آخر قد مُزِّق في المنطقة؟"

"أي رجل؟"

"أشير إلى شهادة السيد ماركو، فقد قال إن رجلًا حضر إلى كليكما وأفاد أن حصانًا تعرّض للتمزيق"

"هذا غير صحيح أبدًا. لم يأت إلينا أحد"

"ومن ثم ركبت في القطار؟"

"لم أجد سببًا يمنعني من ذلك"

"إذن لا شك في ابتسامتك للأخبار التي تشير إلى التمثيل بحيوان؟"

"لا شك على الإطلاق. لم يأت إلينا أي رجل. بالكاد سأبتسم لمسألة كهذه. المرة الوحيدة التي ربما ابتسمت فيها هي عندما اقترح ماركو أن آخذ عطلة. إنه معروف جيدًا في القرية بأنه شخص كسول لا يعمل، لذا ناسبه التفوّه بهذا الاقتراح بسهولة"

"فهمت. الآن، ننتقل إلى وقت لاحق في الصباح، عندما جاء المفتش كامبل والرقيب

بارسونز إلى مكتبك واعتقلوك. في طريقهم إلى السجن، يزعمون أنك قلت: "أنا لست متفاجئًا بهذا. إنما توقعته منذ وقت طويل" هل قلت هذه الكلمات؟"

"نعم، لقد فعلت"

"هل ستشرح ما تعنيه بها؟"

"بالتأكيد. إنها حملة من الشائعات ضدي منذ مدة. تلقيت رسائل مجهولة، عرضتها على الشرطة. من الواضح تمامًا أنهم كانوا يتابعون تحركاتي ويراقبون بيت الكاهن. أشارت تعليقات أدلى بها شرطي أن لديهم عداء ضدي. وقد سمعت إشاعة عن اعتقالي قبل أسبوع أو أسبوعين. بدت الشرطة مصممة على إثبات شيء ضدي. لذا لا، لم أفاجأ"

بعد ذلك، عرض عليه السيد فاشيل الملحوظة المزعومة حول السيد لوكستون الغامض، نفى جورج تقديم إفادة، وأنه عرف أي شخص يدعى لوكستون.

"دعنا ننتقل إلى إفادة أخرى تزعم أنك أدليت بها. في محكمة الصلح في كانوك، عرض عليك الإفراج بكفالة لكنك رفضتها. هلّا أخبرت المحكمة لماذا؟"

"بالتأكيد. كانت الشروط مرهقة للغاية، ليس فقط على نفسي ولكن على أسرتي. إلى جانب ذلك، كنت في مستشفى السجن في ذلك الوقت، وعولجت دون عناء. ورضيت بالبقاء هناك حتى محاكمتي"

"فهمت. قدّم ضابط الشرطة ميريديث دليلًا على أنه أثناء احتجازك، قلت له: "لن أقبل بكفالة، وعند الاعتداء على الحصان التالي، لن أكون أنا"، هل قلت هذه الكلمات؟"

"نعم"

"وماذا تقصد بها؟"

"فقط ما قلته. أن اعتداءات وقعت على الحيوانات لأسابيع وشهور قبل اعتقالي، ولأنه لا علاقة لهم بي، توقعت أن تستمر. وإذا استمروا في فعل ذلك، فإن ذلك سيثبت الأمر"

"أنت ترى يا سيد إدالجي، ألمحوا ولا شك أنهم سيشيرون مرة أخرى، أن رفضك الكفالة يرجع لسبب خبيث. الفرضية هو أن عصابة غريت ويرلي، التي يُشار إلى وجودها باستمرار مع أنه غير مثبت تمامًا، هي أنها ستهبّ لإنقاذك عن طريق تشويه حيوان آخر عن عمد لإثبات براءتك"

"كل ما يمكنني قوله في ردّي هو إذا كنتُ ذكيًا بما فيه الكفاية للتفكير في مثل هذه الخطة الماكرة، لكنت أيضًا ذكيًا بما يكفي لعدم الاعتراف بها مقدمًا لضابط الشرطة"

"بالتأكيد، سيد إدالجي، بالتأكيد"

كما توقع جورج، طغى التهكم وقلة الاحترام على استجواب السيد ديستيرنل. طَلب من جورج أن يشرح العديد من الأمور التي سبق أن شرحها بالفعل، فقط من أجل إبداء تشكيك استعراضي. بنى استراتيجيته على إظهار أن السجين كان ماكرًا ومراوغًا للغاية، ومع ذلك يدين نفسه باستمرار. أدرك جورج أن عليه أن يتيح للسيد فاشيل توضيح ذلك. عليه ألا يسمح باستفزازه، يجب أن يأخذ وقته في الإجابة، ولا بد له أن يحافظ على تماسكه.

لم يغفل ديستيرنل بالطبع ذكر حقيقة أن جورج قد مشى حتى مزرعة غرين مساء يوم السابع عشر، وسمح لنفسه بالتساؤل عن السبب الذي دفع عقل جورج إلى نسيان هذا أثناء الإدلاء بشهادته. أظهر محامي الادعاء نفسه قاسيًا عندما يتعلق الأمر، كما حدث لا محالة، بمسألة الشعر على ملابس جورج.

"سيد إدالجي، لقد قلت في شهادة اليمين الدستورية أن الشعر الموجود على ملابسك قد وصلك عبر الانحناء على بوابة في حقل حيث تكدّست الأبقار"

"قلت إنها هكذا ربما وصلت إلى هناك"

"إلى الآن، التقط الدكتور باتر تسعًا وعشرين شعرة من ملابسك، ثم فحصها تحت الميكروسكوب ووجد أنها متطابقة في الطول واللون والبنية مع الشعيرات المقطوعة من المُهر الميت"

"لم يقل إنها متطابقة. قال متشابهة"

"هل قال؟"، أُحبِط ديستيرنل لفترة وجيزة، وتظاهر بمراجعة أوراقه. "بالفعل "متشابهة في الطول واللون والشكل" كيف تفسر هذا التشابه، سيد إدالجي؟"

"لا يمكنني ذلك. أنا لست خبيرًا في شعر الحيوانات. يمكنني فقط أن أقترح كيف يمكن أن تظهر مثل هذه الشعرات على ملابسي"

"الطول واللون والبنية سيد إدالجي. هل تطلب من المحكمة بجدية أن تصدق أن الشعر الموجود على معطفك جاء من بقرة في مرعى، يعود الطول واللون والبنية إلى المهر

المُمزّق الذي بالكاد على بُعد ميل من منزلك في ليلة السابع عشر؟"

لم يكن لدى جورج أيّ ردّ ليقدمه.

استدعى السيد فاشيل السيد لويس إلى منصة الشهود. كرر الطبيب البيطري تصريحه بأن المهر في رأيه، لم يكن قد أصيب قبل الساعة الثانية والنصف صباحًا، ثم سُئل عن نوع الأداة التي قد تلحق هذا النوع من الضرر. سلاح مقوس ذو أطراف جوفاء. هل اعتقد لويس أن الجرح نتج بفعل استخدام ماكينة حلاقة شخصية؟ لا، لم يعتقد السيد لويس أن الجرح نتج بفعل استخدام ماكينة حلاقة.

ثم استدعى السيد فاشيل، شابورجي إدالجي كاتب الأوامر المقدسة، كرر شهادته حول ترتيبات النوم، والباب، والمفتاح، وألم الظهر، ووقت استيقاظه. اعتقد جورج أن علامات التقدم في السن بدأت تظهر على والده للمرة الأولى. بدا صوته أقل إقناعًا، لكن من الواضح أن يقينه لا يمكن دحضه.

أصبح جورج متلهفًا عندما صعد ديستيرنل لاستجواب كاهن غريت ويرلي. أبدى محامي الادعاء الكياسة، مؤكدًا للشاهد أنه لن يحتجزه لفترة طويلة. ومع ذلك، تبين أن هذا وعد زائف إلى حدٍّ كبير. أخذ السيد ديستيرنل كل التفاصيل الدقيقة عن حجة جورج ورفعها أمام هيئة المحلفين، كما لو أنها محاولة لتقدير أهميته وقيمته للمرة الأولى.

"هل تقفل باب حجرة النوم ليلاً؟"

بدا والد جورج مندهشًا، عندما سُئل مرة أخرى عن سؤال سبق أن أجاب عليه. توقف لفترة أطول مما بدا طبيعيًا. ثم قال: "أفعل"

"وتفتحه صباحًا؟"

مرة أخرى، يتوقف وقفة غير طبيعية. "أفعل"

"وأين تضع المفتاح؟"

"المفتاح يبقى في القفل"

"أنت لا تخفيه؟"

نظر الكاهن إلى السيد ديستيرنل كما لو أنه مع تلميذ وقح. "لماذا عليّ إخفاؤه؟"

"أنت لا تخفيه أبدًا؟ ولم تخفه قطعًا؟"

بدا والد جورج في حيرة شديدة. "أنا لا أفهم لماذا تسألني هذا السؤال"

"أنا أحاول فقط معرفة ما إذا بقي المفتاح دائمًا في القفل"

"لكن هذا ما قلته"

"على مرأى ومسمع من الجميع؟ لا تُخفي شيئًا؟"

"لكن هذا ما قلته"

عندما أدلى والد جورج شهادته في كانوك، كانت الأسئلة مباشرة، وربما منصة الشهود منبرًا للوعظ، مع الكاهن الذي يؤمن بوجود الرّب ذاته. الآن، في ظل استجواب ديستيرنل، بدا -والعالم معه- كأنه غير معصوم عن الخطأ.

"لقد قلت إن المفتاح يطقطق وهو يدور في القفل"

"نعم"

"هل هذا تغير حديث؟"

"ما هو التغير الحديث؟"

"صرير المفتاح في القفل" كان موقف محامي الادعاء هو مساعدة رجل عجوز على بُعد ميل. "هل فعلت ذلك دائمًا؟"

"لطالما أتذكر أني فعلت"

ابتسم السيد ديستيرنل للكاهن. لم يحب جورج شكل تلك الابتسامة. "و... طوال كل هذا الوقت -طالما يمكنك أن تتذكر- لم يخطر ببال أحد من قبل أن يُزيّت القفل؟"

"لا"

"هل لي أن أسألك يا سيدي، قد يبدو هذا سؤالًا ثانويًا لك، أود معرفة إجابتك على الرغم من ذلك... لماذا لم يقم أحد بتزييت القفل؟"

"أعتقد أنه لم يكن مهمًا أبدًا"

"ليس بسبب نقص في الزيت؟"

سمح الكاهن بلا حذر في إثارة غضبه. "من الأفضل أن تسأل زوجتي عن مخزوننا من الزيت"

"قد أفعل ذلك يا سيدي. وهذا الصرير، كيف تصفه؟"

"ماذا تقصد؟ إنه صرير"

"هل هو صرير صاخب حاد أم صرير خافت؟ هل يمكن مقارنته على سبيل المثال، بصرير الفأر أو صرير باب الحظيرة؟"

بدا شابورجي إدالجي وكأنه قد تعثر في وكر من التفاهات. "أعتقد أني سأصفه بالصرير الصاخب الحاد"

"ربما كان من المدهش أكثر، أن القفل لم يُزيّت. لكن كونه على هذا النحو. يطقطق المفتاح بصوت صارخ، مرة في المساء، ومرة في الصباح. وماذا عنه في المناسبات الأخرى؟"

"عفوًا لم أنتبه"

"أعني يا سيدي، عندما تغادر أنت أو ابنك حجرة النوم ليلاً"

"لكن لا أحد منا يفعل ذلك على الإطلاق"

"لم يسبق لأيٍ منكما أن فعل.. أفهم هذا... يوجد ترتيب للنوم منذ ستة عشر أو سبعة عشر عامًا. أنت تقول إنه طوال هذا الوقت لم يغادر أيًا منكما حجرة النوم خلال الليل؟"

"لا"

"هل أنت متأكد تمامًا مما تقول؟"

مرة أخرى، توقف وقفة طويلة، كما لو أن السنين مرت في رأس الكاهن ليلة إثر ليلة.

"يمكنني أن أؤكد ذلك"

"لديك ذكرى عن كل ليلة؟"

"أنا لا أفهم الهدف من هذا السؤال"

"سيدي، أنا لا أطلب منك أن تفهم الهدف. أنا أطلب منك أن تجيب عليه فقط. هل تتذكر كل ليلة؟"

نظر الكاهن في جميع أرجاء المحكمة، كما لو أنه توقع من شخص ما أن ينقذه من هذا الوعظ السخيف. "ليس أكثر من أي شخص آخر"

"بالضبط. لقد قدمت شهادة أن نومك خفيف"

"نعم، خفيف جدًا. استيقظ لأبسط سبب"

"ويا سيدي، لقد شهدت أن المفتاح إذا دار في القفل، فسيوقظك؟"

"نعم"

"ألا ترى التناقض في تلك الإفادة؟"

"لا، لم أفعل" يستطيع جورج أن يرى والده في حيرة من أمره. لم يعتد على تحدّي كلمته، حتى لو بطريقة مهذبة. بدا عجوزًا، وسريع الانفعال، وأدنى من سيد الموقف.

"إذن دعني أوضح لك. لم يغادر أحد الحجرة خلال سبعة عشر عامًا. لذا -وفقًا لك- لم يسبق لأحد أن أدار المفتاح أثناء نومك. فكيف يمكنك أن تجزم أن المفتاح إذا دار فسيوقظك؟"

"هذه هي الملائكة التي ترقص على رأس دبوس. أعني من الواضح، أن أدنى ضجيج يوقظني". لكنه بدا أكثر حِدّةً من السلطة.

"لَم يوقظك صوت دوران المفتاح مطلقًا؟"

"لا"

"لذا لا يمكنك أن تُقسم على أن هذا الصوت قد يوقظك؟"

"يمكنني فقط تكرار ما قلته للتو. أدنى ضجيج يوقظني"

"ولكن إذا لم يسبق لك أن استيقظت على صوت دوران المفتاح، فهل من غير الممكن أبدًا أن يكون المفتاح قد دار ولم تستيقظ؟"

"كما قلت، لم يحدث قط"

كان جورج يرى والده بعيني الابن البار وبقلق، وكمحامٍ محترف وسجين متوتر أيضًا. لم يكن والده بخير. أراحه السيد ديستيرنل بطريقة أولًا ثم بأخرى.

"سيد إدالجي، ذكرت في شهادتك أنك استيقظت في الخامسة ولم تعد للنوم حتى نهضت أنت وابنك في السادسة والنصف؟"

"هل تشكّك في أقوالي؟"

لم يظهر على السيد ديستيرنل الرضا عن هذا الرد، لكن جورج أدرك أنه سيشعر بذلك.

"لا، أنا أطلب تأكيد ما قلته بالفعل فقط"

"إذًا أنا أؤكد ذلك"

"ربما لم تغفُ مرة أخرى بين الخامسة والسادسة والنصف وتستيقظ لاحقًا؟"

"لقد قلت لا"

"هل حلمت يومًا أنك تستيقظ؟"

"لم أنتبه"

"هل تحلم عندما تنام؟"

"نعم. في بعض الأحيان"

"وهل تحلم في بعض الأحيان أنك تستيقظ؟"

"لا أعلم. لا أتذكر"

"لكن أتصدق أن الناس يحلمون أحيانًا أنهم يستيقظون؟"

"لم أفكر في ذلك أبدًا. لا يهمني ما يحلم الآخرون به"

"هل ستسلّم برأيي أن الآخرين لديهم مثل هذه الأحلام؟"

بدا الكاهن الآن مثل ناسك في الصحراء يُقاد إلى غوايات لا يمكنه فهم طبيعتها تمامًا. "إن قلت ذلك" احتار جورج في أسلوب السيد ديستيرنل. ولكن سرعان ما أصبحت نية المدعي العام أوضح.

"إذن أنت على يقين أن لديك القابلية إلى حد ما على أن تبقى مُتيقظًا بين الخامسة والسادسة والنصف؟"

"نعم"

"وهكذا أنت مُتيقّن بالقدر نفسه أنك تخلد للنوم في الفترة ما بين الحادية عشرة والخامسة؟"

"نعم"

"ألا تتذكر الاستيقاظ في تلك الفترة؟"

بدا والد جورج كما لو أن كلمته موضع شك مرة أخرى.

"لا"

أومأ السيد ديستيرنل. "هكذا إذًا، كنتَ نائمًا عند الواحدة والنصف، مثلاً. في..." بدا

أنه ينتزع الوقت من الهواء "... في الثانية والنصف، على سبيل المثال. في الثالثة والنصف، مثلاً. نعم شكرًا لك. الآن، ننتقل إلى مسألة أخرى..."

وهكذا تكرر الأمر مرارًا وتكرارًا، مع تحوّل والد جورج أمام عيني المحكمة، إلى شخص خرِف مُتردّد وهو من حظي بالتقدير بلا شك، ورجل مساعيه الاستثنائية في الأمن الداخلي يمكن أن يتفوق عليها بسهولة ابنه الذكي الذي وقف قبل فترة وجيزة، واثقًا جدًا في منصة الشهود. أو ربما شيئًا أسوأ من ذلك: الأب، الذي ربما اشتبه في مشاركة ابنه في الاعتداء المشين، قلقًا ولكنه عدّل شهادته تعديلاً بغير اقتدار كما قَدّمها.

بعد ذلك حضرت والدة جورج؛ لتدلي بشهادتها وهي أكثر قلقًا؛ لأنها شاهدت خطأ زوجها غير المسبوق. بعد أن أخذ السيد فاشيل بشهادتها، استلمها السيد ديستيرنل بنوع من الكياسة الخاملة عبر كل شيء مرة أخرى.

بدا مهتمًا نوعًا ما بردودها. لم يعد المدعي العام عديم الرحمة، بل الجار الجديد الذي يقوم بزيارة سريعة للحصول على شاي رفيع.

"لقد كنتِ فخورة بابنك على الدوام، سيدة إدالجي؟"

"آه نعم، فخورة جدًا"

"وكان صبيًا ذكيًا وشابًا فطنًا دائمًا؟"

"نعم، ذكي جدًا"

قدّم السيد ديستيرنل ادعاءً مبدئيًا بقلق عميق تجاه الكرب الذي لا بد أنه يراود السيدة إدالجي عند إيجاد نفسها وابنها في ظروفهما الحالية.

لم يكن هذا سؤالاً، لكن والدة جورج أخذته تلقائيًا على هذا النحو، وبدأت في الثناء على ابنها. "لقد عُرِف عنه أنه صبي مثابر دائمًا. نال العديد من الجوائز في المدرسة. درس في كلية ماسون في برمنغهام، وحاز على ميدالية جمعية القانون. استقبلت العديد من الصحف والمجلات القانونية كتابه عن قانون السكك الحديدية استقبالاً جيدًا. نُشِر كما تعلمون، كواحد من كتب ويلسون القانونية المفيدة"

شجع السيد ديستيرنل دفقة المشاعر هذه من فخر الأمهات. وسألها إذا رغبت في إضافة أي شيء آخر.

"أود أن أضيف" نظرت السيدة إدالجي إلى ابنها في قفص الاتهام. "لقد اتصف باللطف والطيبة معنا على الدوام، ومنذ طفولته عُرف بلطفه مع أي كائن أبكم. من المستحيل عليه أن يشوّه أو يجرح أي شيء، حتى لو أننا نجهل إذا لم يكن خارج المنزل"

كنت على الأرجح ستعتقد أن السيد ديستيرنل هو نفسه ابنها من الأسلوب الذي شكرها فيه. الابن، الذي تماهى مع طيبة القلب العمياء لوالدته العجوز ذات الرأس الأبيض وبساطتها.

استُدعِيت مود بعد ذلك، لتقدم روايتها عن حالة ملابس جورج. اتّصف صوتها بالثبات، ودليلها بالوضوح. ومع ذلك، شعر جورج بأنه تسمّر في مكانه عندما نهض السيد ديستيرنل وأومأ برأسه.

"إن شهادتك آنسة إدالجي، هي ذاتها تمامًا، وصولاً إلى أدق التفاصيل، كما هو الحال مع والديك"

نظرت مود إليه بهدوء في انتظاره لمعرفة ما إذا عُدّ هذا سؤالاً، أو مقدمة لهجوم قاتل. عندئذ جلس ديستيرنل مرة أخرى وتنفس الصعداء.

في ما بعد، على طاولة الاتفاق في الطابق الأرضي من محكمة شاير هول، شعر جورج بالإنهاك والإحباط. "سَيّد ميك، أخشى أن والديّ لم يظهرا كشاهدين جيدين"

"لن أقول ذلك، سيد إدالجي. بل بالأحرى إن أفضل الأشخاص ليسوا بالضرورة أفضل الشهود. وكلما اتسمت ضمائرهم بأنها حية أكثر، أصبحوا أكثر صدقًا، وزاد التركيز على كل كلمة من السؤال وشكّوا في أنفسهم بدافع التواضع، ومن ثم تمكن محام مثل ديستيرنل من التلاعب أكثر. هذه ليست المرة الأولى التي يحدث فيها هذا، يمكنني أن أؤكد لكم. كيف يمكنني صياغتها؟ إنها مسألة إيمان. ما نؤمن به، ولماذا نؤمن به. من وجهة النظر القانونية البحتة، فإن أفضل الشهود هم أولئك الذين تؤمن بهم هيئة المحلفين أكثر من غيرهم"

"في الواقع، كانا شاهدين سيئين". لم يكن أمل جورج بأن شهادة والده ما سيجلب له تبرئة فورية طوال المحاكمة بل يقينه. سيتهشّم هجوم محامي الادعاء على صخرة نزاهة والده، وسيُوبّخ ديستيرنل مثل ابن أبرشية فاسد بسبب زعمه الفارغ. لكن الهجوم لم يأت أبدًا، أو بالأحرى ليس بالشكل الذي توقعه جورج، وقد خذله والده وأخفق في الكشف عن نفسه باعتباره إلهًا أولمبيًا

قَسَمه غير قابل للنقض. وبدلاً من ذلك، أظهر نفسه مولعًا بالتفاصيل وصعبًا وأحيانًا مرتبكًا. أراد جورج أن يشرح للمحكمة أنه لو ارتكب كصبي أدنى جنحة، لأرغمه والده على السير إلى مركز الشرطة، وطالب بعقوبة رادعة: كلما كانت المسؤولية أكبر، زادت الخطيئة. ولكن بدلاً من ذلك برز الانطباع المعاكس: أن والديه حمقاوان متساهلان يمكن خداعهما بسهولة. "لقد كانا شاهدين سيئين"، كرر على نحو كئيب.

"لقد نطقا بالحقيقة" أجاب السيد ميك. "وما كان ينبغي أن نتوقع منهما أن يقوما بغير ذلك، أو بغير طريقتهما الخاصة. يجب أن نثق في أن هيئة المحلفين ستتمكن من رؤية ذلك. السيد فاشيل واثق من المستقبل. لذا يجب أن نثق أيضًا"

وفي صباح اليوم التالي، عندما نُقِل جورج من ستافورد غول إلى شاير هول للمرة الأخيرة، وفيما استعد لسماع قصته الموضوعة في شكلها النهائي والمتشعّب، شعر في قرارة نفسه بانشراح في صدره مرة أخرى. صادف يوم الجمعة الموافق الثالث والعشرين من أكتوبر. عاد إلى بيت الكاهن بحلول الغد. صلّى يوم الأحد مرة أخرى تحت عارضة القديس مارك المقلوبة. وأعاده قطار السابعة وتسع وثلاثين دقيقة من يوم الاثنين إلى شارع نيوهول حيث مكتبه وعمله وكتبه. احتفى بحريته عبر بدء اشتراك في موسوعة قوانين هالسبري في إنجلترا.

بينما خرج للعيان من الدرج الضيق إلى قفص الاتهام، بدت قاعة المحكمة أكثر ازدحامًا مما هي عليه في الأيام السابقة. كانت الإثارة ملموسة ومرعبة لجورج: لم تبد وكأنها ترقب خطير للعدالة، بل توقع لمسرحية مبتذلة. نظر فاشيل إلى وجهه وابتسم له، وهي المرة الأولى التي يقوم فيها بمثل هذه البادرة علانية. لم يعلم جورج ما إذا توجب عليه أن يرد التحية بالأسلوب نفسه، لكنه اكتفى بإمالة رأسه ميلاً طفيفًا. نظر إلى هيئة المحلفين، اثنا عشر رجلاً جيدًا وحقيقيًا من ستافوردشاير، عدّوه منذ البداية شخصًا محترمًا رصينًا. وانتبه إلى وجود كبير المفتشين آنسون والمفتش كامبل، الثنائي الذي أجمع على اتهامه. على الرغم من أنهما ليسا من اتهماه حقيقة... ربما كانا خارج كانوك تشايز، شامِتين بما اقترفاه، وحتى الآن يشحذان ما في نظر لويس سلاحًا مقوسًا مع أطراف جوفاء.

بناء على دعوة السير ريجينالد هاردي، بدأ السيد فاشيل خطابه الأخير. وطالب أعضاء هيئة المحلفين بتجاهل الجوانب المثيرة للقضية -عناوين الصحف، والهستيريا

العامة، والشائعات، والمزاعم- وتركيز أذهانهم على الحقائق البسيطة. لم يجد أدنى دليل يثبت أن جورج إدالجي غادر بيت الكاهن -وهو المبنى الذي راقبه عن كثب طاقم شرطة ستافوردشاير لأيام سابقة- من الليلة السابعة عشرة إلى الثامنة عشرة من أغسطس. لم يُعثَر على أدنى دليل لربطه بالجريمة التي اتهم بها: بقع الدم الضئيلة التي وُجِدت يمكن أن تأتي من أي مصدر، وتتعارض تمامًا مع الأضرار العنيفة التي لحقت بمهر منجم الفحم، أما الشعر الذي يُفترض وجوده على ثيابه، فقد تبين أن في الأدلة تناقضًا كاملًا، وحتى لو وُجد الشعر، فإن لوجوده تفسيرات بديلة. ثم الرسائل المجهولة التي تدين جورج إدالجي، والتي أكد الادعاء أن المدعى عليه كتبها بنفسه، وهو افتراض مثير للسخرية لا يتماشى مع المنطق والعقل الإجرامي، أما بالنسبة لشهادة غورين، فلم يكن الأمر أكثر من مجرد مسألة رأي، إذ يحق لهيئة المحلفين، ومن المتوقع بالفعل، أن تنأى بنفسها.

ثم تعامل السيد فاشيل مع مختلف التلميحات المقدمة ضد موكله، ورفضه قبول الكفالة بدافع من المشاعر المعقولة، ناهيك عن الإعجاب: رغبة البنوّة في تخفيف العبء عن والديه الضعيفين والمُسنّين. ثم موضوع جون هاري غرين الغامض للنظر فيه. وقد سعى الادعاء لتشويه سمعة جورج إدالجي بالتبعية. ومع ذلك، لم تنشأ أدنى صلة بين المدعى عليه والسيد غرين، الذي تحدّث غيابه عن منصة الشهود الكثير. من هذا، كما هو الحال في أمور أخرى، لم تصل قضية الادعاء إلى أكثر من خِرق وبقع، وإشارات وتلميحات وإيحاءات، جميعها لا يرتبط بعضه ببعض. "ماذا تركنا؟" سأل محامي الدفاع في خاتمة خطابه. "ماذا تركنا بعد أربعة أيام هنا في قاعة المحكمة هذه، باستثناء نظريات الشرطة المتداعية والمحطمة؟"

سُرّ جورج باستعادة السيد فاشيل مقعده. لقد كان واضحًا ومُحاجِجًا جيدًا، مع عدم وجود مناشدات عاطفية زائفة من النوع الذي ذهب إليه بعض المدافعين، والأمر أكثر احترافًا -أي أن جورج قد لاحظ الأماكن التي أخذ فيها السيد فاشيل المزيد من خيارات الصياغة والاستدلال أكثر مما سُمح به في المحكمة "أ" تحت حكم اللورد هيثرتون.

لم يكن السيد ديستيرنل في عجلة من أمره. وقف وانتظر، كما لو أن أثر الكلمات الختامية للسيد فاشيل تبدد. ثم بدأ في أخذ تلك الخِرق والبقع التي ألمح إليها خصمه،

وحاكها بصبر مرة أخرى معًا، وصنع منها معطفًا يُعلق حول كتفيْ جورج. طلب من هيئة المحلفين النظر أولاً في سلوك السجين والتفكير فيما إذا كان سلوكه بريئًا أم لا. رفض انتظار المفتش كامبل والابتسامة في محطة القطارات. عدم استغرابه عند اعتقاله والسؤال عن خيول بليويت الميتة والتهديد الغامض للوكستون. رفض الكفالة والتكهن الراسخ بأن عصابة غريت ويرلي ستشن هجومًا مرة أخرى وتؤثر على إطلاق سراحه. سأل ديستيرنل هل كان هذا سلوك رجل بريء عندما أعاد ربط كل من هذه الروابط بذاكرة هيئة المحلفين.

بقع الدم وخط اليد ومن ثم الملابس مرة أخرى. كانت ملابس السجين مبللة ومعطفه البيتي وحذاؤه على وجه الخصوص. وقد صرحت الشرطة بهذا، وأقسمت عليه. كما شهد كل شرطي فحص معطفه بأنه رطب. إذا كان الأمر كذلك، وإذا لم تكن الشرطة مخطئة تمامًا -وكيف يمكن أو ينبغي أن تكون؟- فهناك تفسير واحد فقط. كما أكد الادعاء، تسلل جورج إدالجي خلسة خارجًا من بيت الكاهن في ليلة عاصفة من السابعة عشرة إلى الثامنة عشرة من أغسطس.

لكن رغم ذلك، بصرف النظر عن الأدلة الدامغة على تورط السجين الغامض في الجريمة، سواء بمفرده أو مع آخرين، أقرّ السيد ديستيرنل، بسؤال واحد يجب الإجابة عليه. ما هي دوافعه؟ لقد كان سؤالاً يحق لهيئة المحلفين طرحه. وهنا تأهب السيد ديستيرنل للمساعدة في الرد.

"إذا رغبت أن تسأل نفسك، كما فعل الآخرون في قاعة المحكمة خلال الأيام الماضية، لكن ما هو دافع السجين؟ لماذا وجب على شاب محترم ظاهريًا أن يرتكب مثل هذا العمل الشنيع؟ ربما تُقدِّم التفسيرات المختلفة نفسها لعقل المراقب المعتدل. هل نبعت تصرفات السجين من حقد وخبث معين؟ من الممكن، على الرغم من أنه من غير المحتمل، نظرًا لأن عددًا كبيرًا جدًا من الضحايا قد تورطوا في اعتداءات غريت ويرلي وحملة التشهير المجهولة الّتي رافقتها. هل تصرف بدافع الجنون؟ قد تحكم على ذلك، عندما تواجه بربرية أفعاله التي تعجز عن وصفها. ومع ذلك، فإن هذا لا يقدم أي تفسير، لأن الجريمة خُطّط لها تخطيطًا جيدًا للغاية، وأُنجزت بذكاء شديد، إذ نفّذها شخص مجنون. لا: يجب علينا كما أقترح أن نبحث عن الدافع في العقل غير المريض، بل تَكوّن بطريقة مختلفة عن الرجال والنساء

العاديين. لم يكن الدافع تحقيق مكاسب مادية، أو الانتقام من شخص ما، بل الرغبة في الشهرة والزهو بالذات المجهولة الهوية، وخداع الشرطة عند كل منعطف، والسخرية في وجه المجتمع، وإثبات الأنا العليا. حظي مثلك أعضاء هيئة المحلفين، بلحظات مختلفة من المحاكمة، مقتنعًا كما أنا وكما ستقتنعون أن السجين مذنب، وجدت نفسي أتساءل، لكن لماذا، لكن لماذا؟ وهذا ما أود قوله لهذا السؤال. يبدو بالفعل أنه يشير إلى شخص قام بهذه الاعتداءات المشينة بشيء من الدهاء الشيطاني الموجود في ركن من دماغه"

استمع جورج برأس مائل قليلاً، من أجل التركيز على كلمات السيد ديستيرنل، أدرك أن الخطاب انتهى. رفع عينيه، ووجد أن المدعي العام يحدق جيدًا في وجهه كما لو أنه الآن فقط، رأى أخيرًا السجين في ضوء الحقيقة الكامل. كما تفحصته علانية هيئة المحلفين، التي أذن بها السيد ديستيرنل، وفعل السير ريجينالد هاردي، وقاعة المحكمة كلها باستثناء أسرته. ربما يتفحص الشرطي دوبس والشرطي الآخر الواقف خلفه في قفص الاتهام الآن سترة بدلته بحثًا عن بقع دماء.

بدأ رئيس الجلسة موجزه في الساعة الواحدة إلا ربعًا، واصفًا الاعتداءات المشينة بأنها "وصمة عار على اسم المقاطعة" أنصت جورج، لكنه أدرك باستمرار أن اثني عشر رجلاً صالحًا وحقيقيًا يقومون بتقييم مظاهر الدهاء الشيطاني فيه. لا شيء يمكنه القيام به حيال ذلك، باستثناء محاولة أن يبدو متماسكًا قدر الإمكان. هكذا وجب أن يظهر في الدقائق القليلة الماضية قبل أن يتقرر مصيره. تماسك، قال لنفسه: كن متماسكًا.

صرف السير ريجينالد هيئة المحلفين في الساعة الثانية، وجرى ترحيل جورج إلى الطابق الأرضي. وقف الشرطي دوبس على أهبة الاستعداد، كما فعل في الأيام الأربعة الماضية، مع الجو المُحيّر قليلاً لشخص عرف أن جورج بالكاد من النوع الذي يفكر بالفرار. لقد عامل سجينه باحترام، ولم يتعامل معه بخشونة مرة واحدة. فقد أشركه جورج في المحادثة؛ لأنه لا فرصة الآن ليُساء تفسير كلماته.

"حضرة الشرطي، من تجربتك، هل هو أمر جيد أم سيئ إذا استغرقت هيئة المحلفين وقتًا طويلاً لتقرر؟"

أمعن دوبس التفكير في ذلك لفترة من الوقت. "من تجربتي يا سيدي، يمكنني القول

إنه يمكن أن يكون شيئًا جيدًا أو سيئًا. هذا أو ذاك. إنه يعتمد على الظروف فعلاً"

قال جورج: "أفهم"، لم يعتد قول: "أفهم"، وأدرك أنه يجب أن يكون قد التقط التكلّف من محامي المرافعات. "ومن تجربتك، ماذا لو أصدرت هيئة المحلفين حكمها بسرعة؟"

"آه، الآن يا سيدي، يمكن أن يكون هذا أمرًا جيدًا أو سيئًا. يعتمد الأمر على الظروف حقًا"

سمح جورج لنفسه بابتسامة، وكان بإمكان دوبس أو أي شخص آخر أن يصنع بها ما يشاء. بدا له أن هيئة المحلفين لو عادت بسرعة - نظرًا لخطورة القضية وضرورة موافقة الاثني عشر - فيجب أن يكون ذلك جيدًا له. كما أن العودة البطيئة لن تكون سيئة أيضًا، لأنه كلما طالت الفترة التي ينظرون فيها في المسألة، برز جوهرها على السطح، وستظهر الإلهاءات الغاضبة لـديستيرنل على حقيقتها.

أبدى الشرطي دوبس اندهاشه مثل جورج حين جاء الاستدعاء بعد أربعين دقيقة فقط. قطعا المسافة القصيرة للمرة الأخيرة معًا على طول الممرات المعتمة وصعدا السّلم إلى قفص الاتهام. عرض كاتب المحكمة على رئيس هيئة المحلفين كلمات مألوفة منذ فترة طويلة لجورج في الثالثة إلا ربعًا.

"هل توصلتم أيها السادة المحلفون، إلى قرار أجمعتم عليه؟"

"نعم، سيدي"

"هل تجد السجين، جورج إرنست تومبسون إدالجي، مذنبًا أو بريئًا من تهمة تشويه حصان تعود ملكيته لشركة منجم غريت ويرلي؟"

"مذنب يا سيدي"

لا، هذا خطأ، هذا ما اعتقده جورج. نظر إلى رئيس هيئة المحلفين، وهو أشيب الشعر ورجل مدير مدرسة بلكنة ستافوردشايرية خفيفة. لقد تفوهت للتو بالكلمات الخاطئة. أقول لهم. أردت أن تقول، ليس مذنبًا. هذا هو الجواب الصحيح للسؤال. كل هذا تسارع في عقل جورج، حتى أدرك أن رئيس هيئة المحلفين مازال على رأيه وعلى وشك التحدث. نعم بالطبع، كان سيصحح خطأه.

"حين تصل لجنة التحكيم إلى حكمها فإن لديها توصية بالرحمة"

"على أي أساس؟" سأل السير ريجينالد هاردي، وهو يختلس النظر إلى رئيس هيئة المحلفين.

"مركزه"

"مركزه الشخصي؟"

"نعم"

انزوى رئيس الجلسة والقاضيان الآخران للنظر في الحكم. بالكاد أمكن جورج النظر إلى أسرته. كانت والدته تضغط بمنديل على وجهها. حدّق والده بفتور أمامه. فاجأته مود، التي توقع أن تبكي. استدارت بجسدها كله في اتجاهه وحدّقت به بجدية وحنان. شعر أنه إن تمكن من الاحتفاظ بهذه النظرة في ذاكرته، فقد تغدو أسوأ الأمور محتملة.

لكن قبل أن يتمكن من التفكير أكثر، خاطب رئيس الجلسة جورج، الذي لم يستغرق إلا بضع دقائق لاتخاذ قراره.

"جورج إدالجي، قرار هيئة المحلفين صحيح. لقد أوصوا بأخذك بعين الرحمة نظرًا إلى المنصب الذي تشغله. علينا أن نحدد العقوبة التي يجب إقرارها. كما يجب أن نأخذ بعين الاعتبار وضعك الشخصي، وما تعنيه أي عقوبة لك. من ناحية أخرى، علينا أن ننظر إلى حالة مقاطعة ستافورد، ومنطقة غريت ويرلي، والعار الذي لحق في الحي في هذه الحالة. عقوبتك هي الأشغال الشاقة مدة سبع سنوات"

مرت الجلسة بنوع من اللغط، إنه ضجيج أجوف لكنه بلا معنى. فكر جورج: لا، سبع سنوات، لا أستطيع أن أصمد سبع سنوات، حتى نظرة مود لا يمكن أن تدعمني فترة طويلة. يجب أن يشرح السيد فاشيل، عليه أن يقول شيئًا على سبيل الاحتجاج.

بدلًا من ذلك، ديستيرنل هو الذي نهض. الآن بعد أن أُقرّت الإدانة، حان وقت الشهامة. لن تُتابع بعد الآن تهمة إرسال رسالة تهديد إلى الرقيب روبنسون.

"خُذه"... وكانت يد الشرطي دوبس على ذراعه، وقبل أن يتاح له الوقت لتبادل آخر نظرات مع أسرته، نظرة أخيرة حول نور قاعة المحكمة حيث توقع بثقة أن تحقق العدالة، دُفع إلى أسفل عبر باب الطابق الأرضي، نزولًا على مصباح الغاز الوامض في الطابق الأرضي

شفقي الضوء. أوضح دوبس بتهذيب أنه بالنظر إلى الحكم، فقد طُلب منه الآن وضع السجين في زنزانة الاحتجاز في انتظار نقله إلى السجن. جلس جورج خاملًا، وعقله لا يزال في قاعة المحكمة، ويفكر مليًا في أحداث الأيام الأربعة الماضية: الأدلة المقدمة والإجابات المعطاة في مواجهة الشهود واستجوابهم والتكتيكات القانونية. لم يكن لديه أي شكوى في اجتهاد محاميه أو فاعلية محامي المرافعات. أما بالنسبة للادعاء: فقد صاغ السيد ديستيرنل دعواه بذكاء وعداء، لكن هذا كان متوقعًا. ونعم، السيد ميك على صواب بشأن مهارة الرجل في صنع الطوب على الرغم من عدم توفر القش.

نفدت قدرته على التحليل المهني الهادئ. لقد شعر بالتعب الشديد ولكنه تحمّس للغاية أيضًا. فقدت أفكاره المتتابعة وتيرتها الثابتة، ترنّحت، واندفعت إلى الأمام، وتبعت جاذبية العاطفة. فجأة ظهر عليه أنه حتى دقائق قليلة مضت، عدد قليل من الناس -معظمهم من رجال الشرطة، وربما بعض الأفراد الجهلة الحمقى من الجمهور، من النوع الذي سيضرب على أبواب سيارة أجرة عابرة- قد افترضوا بالفعل أنه مذنب. ولكن الآن – والخزي حطّمه عند الإدراك– في هذه اللحظة يعتقد الجميع أنه كذلك. أولئك الذين قرأوا الصحف، وزملاؤه المحامون في برمنغهام، والركاب في القطار الصباحي الذين وزع عليهم منشورات قانون السكك الحديدية. بعد ذلك بدأ في تخيل أفراد محددين يعتقدون أنه مذنب: مثل السيد ميريمان مدير المحطة، والسيد بوستوك معلم المدرسة، والسيد غرينسيل الجزار الذي سيذكّره دائمًا بغورين خبير الخطوط اليدوية، والرجل الذي حكم عليه بأنه قادر على كتابة الكفر والفحش. وليس غورين فقط... سيعتقد السيد ميريمان والسيد بوستوك وغرينسيل أنه بالإضافة إلى بقر بطون الحيوانات، فإن جورج مؤلف للكفر والفحش أيضًا. وكذلك الأمر بالنسبة للخادمة في بيت الكاهن، ووكيل الكنيسة، وكذلك هاري تشارلزورث، الذي ادّعى صداقته. حتى دورا شقيقة هاري -لو كانت حقيقية- لنفرت منه.

تخيل كل هؤلاء الناس يحدقون به... والآن انضم إليهم السيد هاندز الإسكافي. سيعتقد السيد هاندز أن جورج بعد أن أعدّ نفسه ببراعة لزوج جديد من الأحذية، عاد بهدوء إلى المنزل، وتناول عشاءه، وتقوقع في الفراش مخادعًا، ثم تسلل خارجًا، وأغار على الحقول وشوّه المهر. وعندما تخيل جورج كل هؤلاء الشهود والمتهمين، شعر بحزن يغمر

روحه على ما حدث لحياته، لدرجة أنه أراد السماح له بالبقاء في هذه العتمة التحت أرضية إلى الأبد. ولكن قبل أن يتمكن حتى من التمسك بهذا المستوى من البؤس، انشغل بعيدًا مرة أخرى، لأنه بطبيعة الحال لن ينظر إليه كل هؤلاء الناس من ويرلي بنظرة اتهامية... على الأقل، ليس لعدة سنوات. لا، سينظرون إلى والديه: إلى الأب على منبر الوعظ، وإلى الأم بينما تتجول بين رعايا الأبرشية. راقبوا مود حين دخلت متجرًا، وهوراس حين عاد من مانشستر... إذا عاد إلى المنزل مرة أخرى، نظرًا لسقوط شقيقه. نظر الجميع وأشاروا وقالوا: ابنهم، شقيقهم من نفّذ اعتداء ويرلي المشين. وقد تسبب هذا في المهانة والإذلال العلني والمستمر لأسرته، التي تمثل له كل شيء. عرفوه بريئًا. لكن هذا ضاعف شعورهم بالذنب تجاهه.

هل عرفوه بريئًا؟ ثم أثقله اليأس ودفعه إلى مزيد من الكآبة. لقد عرفوه بريئًا، ولكن كيف أمكنهم إيقاف التفكير بما شاهدوه وسمعوه خلال الأيام الأربعة الماضية؟ ماذا لو بدأ إيمانهم به يتداعى؟ عندما قالوا إنهم عرفوه بريئًا، ماذا يعني ذلك حقًا؟ معرفة أنه بريء، لا بد أنهم إما جلسوا طوال الليل وراقبوا نومه، أو شاهدوه في حقل منجم الفحم أيضًا عندما وصل مزارع مجنون بأداة شريرة في جيبه. هكذا فقط يمكن أن يعرفوا حقًا. لذا ما فعلوه أنهم صدقوا، صدقوا فعلاً. وماذا لو بمرور الوقت، بدأت بعض كلمات السيد ديستيرنل، أو شيء من يقين الدكتور باتر، أو بدأ بعض الشك الذي ثار منذ مدة طويلة حول جورج يقوّض إيمانهم به؟

وهذا شيء آخر أراد فعله لهم. فقد ساقهم في رحلة كئيبة من التساؤل الذاتي. اليوم: نعرف جورج ونعرف أنه بريء. ولكن ربما في غضون ثلاثة أشهر: نعتقد أننا نعرف جورج ونصدق أنه بريء. ثم بعد عام: ندرك أننا لم نعرف جورج، ومع ذلك مازلنا نعتقد أنه بريء. على من نلقي اللوم في هذا الانحطاط؟

لم يكن هو من حُكم عليه فحسب، بل أسرته أيضًا. إذا كان مذنبًا، فبعضهم خَلُص إلى أن والديه لا بد أنهما قد أقسما يمين زور. لذا عندما ألقى الكاهن خطابًا دينيًا بالفرق بين الصواب والخطأ، هل تعتقد رعيته أنه إما منافقًا أو مخدوعًا؟ عندما زارت والدته المضطهدين، ربما لم يخبروها أنها ستكون أفضل حالاً لو وفرت تعاطفها لابنها المجرم في

سجنه البعيد؟ كان هذا شيئًا آخر فَعله: لقد أصدر حكمًا على والديه. ألا توجد نهاية لهذه التخيلات الأليمة، لهذه الدوامة الأخلاقية القاسية؟ انتظر انحدارًا أكثر وإبادة وغرقًا. ولكنه بعد ذلك فكر مرة أخرى في مود. جلس على كرسيه الصلب خلف القضبان الحديدية، في مكان ما في تلك الكآبة، يصفر الشرطي دوبس بلا كلل، وهو انشغل في التفكير بمود. اعتقد أنها منبع أمله، وحصنه المنيع من السقوط. آمن بمود. علم أنها لن تتعثر، لأنه رأى النظرة التي أعطتها له في المحكمة. لم تحتج نظرتها إلى تأويل، لا يمكن أن تتآكل بفعل الزمن أو النيّة الخبيثة، كانت نظرة حب وثقة ويقين.

عندما تفرقت الحشود خارج قاعة المحكمة، أعيد جورج إلى ستافورد غول. هنا واجه إعادة تنظيم لعالمه مرة أخرى. بعد أن عاش في السجن منذ اعتقاله، بدا من الطبيعي أن يعتبر جورج نفسه سجينًا. ولكن في الحقيقة أودِع في أفضل زنزانة بالمستشفى. استلم الصحف كل صباح، والطعام من أسرته، وسُمح له بكتابة مراسلات تجارية. افترض بلا تفكير، أن ظروفه مؤقتة ومُلازمة ومُطهِّرة من الإثم لفترة وجيزة.

من الآن فصاعدًا أصبح سجينًا فعلاً، ولإثبات ذلك صودرت ملابسه. كان هذا في حد ذاته مثيرًا للسخرية، لأنه لأسابيع شعر بالأسف والامتعاض من بدلة الصيف غير المناسبة وقبعة القش الفائضة عن الحاجة. هل جعلته البدلة يبدو أقل رصانة في المحكمة، وبالتالي أضرّت بقضيته؟ لم يستطع أن يخمّن. على أي حال، صودرت البدلة والقبعة، واستُبدلت بلباس السجن اللبادي الخشن ثقيل الوزن. تعلو السترة كتفيه، والبنطال انتفخ عند ركبتيه وكاحليه. لم يهتم. كما أعطوه صُدرة وقبعة وزوجًا من الأحذية.

قال السجّان، وهو يجمع البدلة الصيفية: "ستجدها صادمة بعض الشيء. لكن معظمهم اعتادوا عليها. حتى من هم على شاكلتك، إن لم تشعر بالمهانة"

أومأ جورج برأسه. ولاحظ بامتنان، أن الضابط قد تحدث إليه بالنبرة ذاتها، وبقدر من الكياسة، كما فعل على مدى الأسابيع الثمانية الماضية. جاء ذلك بمثابة مفاجأة. توقع بطريقة ما أن يُبصَق عليه ويساء إليه عند عودته إلى السجن، وهو رجل بريء وُصف الآن علنًا بأنه مذنب. ولكن ربما كان التغيير المروع في ذهنه فقط. بقيت طريقة ضباط الشرطة كما هي لسبب بسيط ومثبط: منذ البداية افترضوا أنه مذنب، وقرار هيئة المحلفين مجرد

تأكيد لهذا الافتراض.

في صباح اليوم التالي، على سبيل المحاباة، جُلِبت صحيفة، كي يتيقن لمرة واحدة أخيرة، أن حياته تصدرت عناوين الأخبار، ولم تعد قصته متباينة ولكنها الآن تبلورت في حقيقة قانونية، ولم تعد شخصيته من تأليفه الخاص ولكن حددها الآخرون.

سبع سنوات أشغال شاقة.

على قاتل الماشية في ويرلي.
السجين اللامبالي

نظر جورج إلى باقي الصفحة بفتور وتلقائية. بدا أن قصة الآنسة هيكمان الطبيبة، قد وصلت إلى نهايتها، وهمدت في صمت وغموض. أشار جورج إلى أن بافالو بيل، بعد موسم لندن وجولة محلية استمرت مئتين وأربعة وتسعين يومًا، أنهى برنامجه في مدينة بيرتون أون ترينت قبل أن يعود إلى الولايات المتحدة. وبقدر أهميته في الجريدة الرسمية، فإن الحكم على "قاتل الماشية" من ويرلي، هي المقال المجاور له مباشرة:

حادث في محطة قطار يوركشاير

تحطم قطارين في نفق،
قتيل وثلاثة وعشرين جريحًا
تجربة رجل برمنغهام المثيرة

احتُجز في ستافورد لمدة اثني عشر يومًا آخر، سُمح خلالها لوالديه بالزيارات اليومية. وجد هذا أكثر إيلامًا مما لو اقتيد في شاحنة صغيرة مندفعة إلى أبعد جزء في المملكة.

في هذا الوداع الطويل، تصرف كل منهم كما لو أن مأزق جورج الحالي خطأ بيروقراطي قريب ليعالَج عبر مناشدة إلى المسؤول المناسب. تلقى الكاهن العديد من خطابات الدعم وتحدث بالفعل بحماس عن حملة عامة لجورج بدا أن هذه الحماسة تحد من الهستيريا، وأن جذورها تكمن في الشعور بالذنب. لم يشعر جورج أن وضعه مؤقت، وخطط والده لم تجلب له أي راحة. بدا أنهم يُعبّرون عن المعتقد الديني أكثر من أي شيء آخر.

بعد اثني عشر يومًا نقل جورج إلى سجن لويس. هنا حصل على زي جديد من الكتان الخشن سُكّري اللون. خطّان عموديان عريضان من الأمام والخلف، وسهام سميكة مطبوعة بشكل أخرق. أعطوه ملابس داخلية غير لائقة، وجوارب سوداء وجزمة. أوضح له ضابط السجن أنه كان نجمًا، وبالتالي سيبدأ عقوبته بثلاثة أشهر معزولاً... قد تمتد لفترة أطول، ولن تكون أقصر. العزلة تعني الحبس الانفرادي. هذا ما استهلّ به كل النجوم عقوبتهم. لقد أساء جورج فهمه في البداية: اعتقد أنه سُمي نجم السجن، لأن قضيته أثارت سمعة سيئة، ربما أُبعد مرتكبو الجرائم الشنيعة تحديدًا عن عمد عن السجناء الآخرين، الذين قد ينفّسون عن غضبهم بمُشوِّه الخيول. ولكن لا: كان نجم السجن ببساطة عبارة عن المجرم الأول. قيل له، إن عدت للسجن ستصنّف كمجرم متوسط، ولو تكررت عودته، سواء بطريقة عادية أو احترافية. قال جورج إنه لا ينوي العودة.

أُخذ لمأمور السجن، وهو رجل عسكري مُتقدم في السن، فاجأه بالتحديق في الاسم المعروض عليه، وسأله بأدب عن كيفية نطقه.

"آيدلجي يا سيدي"

"آيـ.. دل.. جي" كرر مأمور السجن. "لا يعني أنك ستكون مميزًا باستثناء أنك رقم هنا"

"لا، سيدي"

"كنيسة إنجلترا، تقول"

"نعم. أبي كاهن"

"في الواقع. أمك..." يبدو أن مأمور السجن لم يعلم كيف يطرح السؤال.

"أمي أسكتلندية"

"آه"

"والدي بارسي بالولادة"

"الآن أنا معك. عرفت بومباي في الثمانينيات. مدينة جميلة. أنت تعرف ذلك جيدًا، يا آيـ.. دلـ.. جي؟"

"أخشى أني لم أغادر إنجلترا أبدًا يا سيدي. على الرغم من أني عشت في ويلز"

"ويلز" قال مأمور السجن متأملًا. "أنت تختلف عني. كما يقول المحامي"

"نعم يا سيدي"

"نحن بالأحرى لدينا نقص في عدد المحامين في الوقت الحالي"

"أستميحك عذرًا؟"

"محامون... لدينا نقص في عـــ... في الوقت الحالي. عادة لدينا واحد أو اثنان. أتذكر أنه في عام واحد عمل لدينا أكثر من نصف دزينة كما أذكر. لكننا تخلصنا من محامينا الأخير قبل بضعة أشهر. لا يعني ذلك أنك كنت ستستطيع التحدث إليه كثيرًا. ستجد القواعد هنا صارمة، ومطبقة بالكامل، سيد آيـ.. دلـ.. جي"

"نعم يا سيدي"

"ومع ذلك، لدينا اثنان من سماسرة البورصة، ومصرفي أيضًا. أُبلغ الناس، إذا أرادوا أن يشاهدوا شريحة عريضة حقيقية من المجتمع، يجب عليهم زيارة سجن لويس" لقد اعتاد على قول هذا، وتوقف مؤقتًا للتأثير المعتاد. "ليس لدينا أي نزلاء من الطبقة الأرستقراطية، وأُردف سريعًا بالقول. أو... "-بإلقاء نظرة على ملف جورج-"... أي قس كنيسة في إنجلترا في الوقت الحاضر. على الرغم من أن لدينا واحدًا في بعض الأحيان. البذاءة، وما شابهها من أشياء"

"نعم يا سيدي"

"الآن لن أسأل بالضبط ماذا فعلت، أو لماذا فعلت ذلك، أو ما إذا فعلت ذلك، أو ما إذا لديك أي التماس قد تحيله لوزير الداخلية لديه فرصة أكبر من فأر مع نمس، لأنه من تجربتي كل هذا مضيعة للوقت. أنت في السجن. اقضِ عقوبتك، والتزم بالقوانين، ولن تواجه أي مشكلات أخرى"

"كمحامٍ، أنا معتاد على القوانين"

نطق جورج هذا بحيادية، لكن مأمور السجن بدا كما لو أنه قطعة من الوقاحة. في النهاية، استقر ليقول، "تمامًا"

عدد كبير من القوانين بالفعل. وجد جورج أن ضباط السجن هم أشخاص محترمون، لكنهم مُلزمون بشريط أحمر على اليد والقدم. لا أحاديث مع السجناء الآخرين. كما لا يسمح بوضع الساق فوق الساق أو ثني الذراعين في المصلّى الكنسي. الاستحمام مرة كل أسبوعين، والتفتيش الذاتي للسجين وممتلكاته كلما دعت الضرورة.

جاء أحد الحرّاس إلى زنزانة جورج في اليوم الثاني، وسأل عما إذا كان لديه بطانية الفراش.

اعتقد جورج أن هذا سؤال غير ضروري. بدا من الواضح تمامًا أن لديه بطانية سرير متعددة الألوان وثقيلة نسبيًا، ولا يمكن أن يفوتها الشرطي.

"نعم لدي، شكرًا جزيلاً"

"ماذا تقصد بقولك شكرًا جزيلاً؟" سأل السجّان بأكثر من لمسة عدوانية.

تذكر جورج تحقيقات الشرطة. ربما نبرته متعجلة. قال: "أعني، أني أمتلك واحدة"

"إذن يجب إتلافها"

في هذه اللحظة ضاع تمامًا. لم تُشرح له هذه القاعدة. حرص على الرد المناسب، وخصوصًا في نبرته.

"أعتذر، لكني لم أمكث هنا لأمدٍ طويل. لماذا يجب أن تتلف بطانية فراشي. وهي في الوقت نفسه مريحة، وأتصور أنها في الأشهر الأكثر قسوة، ضرورة؟"

نظر إليه السجّان وبدأ يضحك شيئًا فشيئًا. ضحك كثيرًا لدرجة أن زميلاً له اقتحم الزنزانة لتفقده ما إذا كان بخير.

"ليست بطانية الفراش رقم مئتين وسبعة وأربعون، أنا أتحدث عن بق الفراش[48]"

في المقابل، ابتسم جورج نصف ابتسامة، غير متأكد مما إذا كان يُسمح للسجناء بذلك بموجب لوائح السجن. ربما فقط إذا مُنح الإذن. على أي حال، انتقلت القصة إلى

---

48 (Bed-rug) بطانية الفراش، (Bed-bug) بق الفراش.

قصص السجن التقليدية، وتبعته في الأشهر التالية. أن هندوسيًا عاش مثل هذه الحياة الآمنة لم يكن يميز حتى ما هو بق الفراش.

اكتشف المضايقات الأخرى، بدلًا من ذلك. لا وسائل راحة مناسبة، ونقص في الخصوصية عندما كان في أمسّ الحاجة لذلك. كان الصابون رديء النوع. يوجد نظام أحمق لأن كل عملية حلاقة ذقن وشعر يجب أن تتم في الهواء الطلق أيضًا، مما تسبب في إصابة العديد من السجناء -بمن فيهم جورج- بنزلات البرد.

اعتاد بسرعة على الإيقاع المتغير في حياته. الاستيقاظ عند الخامسة وخمس وأربعين دقيقة. في السادسة وخمس عشرة دقيقة تفتح الأبواب، ثم تُجمع الفضلات من بول وغائط، وتُعلق أغطية السرير في الهواء. تُوزع أدوات الطعام في السادسة والنصف، ثم بدء الأشغال. في السابعة والنصف الفطور. طي الفراش في الثامنة والربع. أما الصلاة في الثامنة وخمس وثلاثين. العودة في التاسعة وخمس دقائق. الذهاب إلى التمرين في التاسعة وعشرين دقيقة. والعودة في العاشرة والنصف. جولات مأمور السجن وبقية الروتين. الغداء في الثانية عشرة. تجمع علب الغداء في الواحدة والنصف، ثم الأشغال. العشاء في الخامسة والنصف، ثم تجمع الأدوات وتوضع في الخارج لليوم التالي. في الثامنة الخلود للنوم.

كانت الحياة أكثر قسوة وبرودة ووحدة مما عرفها، ولكن هذا الهيكل الصلب ساعده إلى اليوم. لقد عاش دائمًا وفقًا لجدول زمني صارم، مع عبء عمل ثقيل أيضًا، سواء كان تلميذًا أو محاميًا. حظي بعدد قليل جدًا من الإجازات في حياته –تُعدّ النزهة إلى آبريستويث مع مود استثناءً نادرًا– وعدد أقل من ترف الحياة، باستثناء تلك الكامنة في العقل والروح.

قال القسيس، في أول زياراته الأسبوعية: "إن أكثر الأشياء التي يفتقدها مشاهير السجن من غيرها هي البيرة. حسنًا، ليس فقط المشاهير. الأشخاص من الطبقة الوسطى والعاديون أيضًا"

"لحسن الحظ، أنا لا أشرب"

"والشيء الثاني هو السجائر"

"ومرة أخرى، أنا محظوظ في هذا الصدد"

"والثالث هو الصحف"

هزّ جورج رأسه. "اعتبرُ هذا حرمانًا شديدًا بالفعل، أعترف. اعتدت على قراءة ثلاث صحف يوميًا"

"إذا أمكنني القيام بأي شيء للمساعدة..." قال القسيس. "لكن القوانين..."

"ربما من الأفضل الاستغناء تمامًا عن شيء ما، بدلًا من تأمل الحصول عليه"

"أتمنى أن يكون للآخرين موقفك. لقد رأيت الرجال يتصرفون بجنون بسبب سيجارة أو مشروب. وبعضهم يفتقدون حبيباتهم بشدة أو ملابسهم، وآخرون يفتقدون أشياء لم يعرفوا أنهم مغرمون بها، مثل الرائحة خارج الباب الخلفي في ليلة صيف. الجميع يفتقد شيئًا"

أجاب جورج: "لست راضيًا. أنا قادر على التفكير تقريبًا في مسألة الصحف فقط. وأنا متأكد من نواحٍ أخرى"

"وما أكثر ما تفتقده؟"

أجاب جورج: "آه. أفتقد حياتي"

تراءى للقسيس أن يتخيل أن جورج كابنٍ لرجل دين، يستمد راحته وسلواه الرئيسيتين من ممارسة دينه. لم يُحرّر جورج من الوهم، وحضر الصلاة أكثر من معظمهم راغبًا لكنه ركع وأنشد وصلّى بالروح ذاتها التي أخرج فيها فضلاته، وطوى فراشه، وعمل في الأشغال الشاقة، كشيء يساعده على تمضية اليوم. ذهب معظم السجناء للعمل في الحظائر، حيث صنعوا الحُصر والسلال. وجب على النجم أن يمكث في الحبس الانفرادي ثلاثة أشهر يعمل في زنزانته. أعطي جورج لوحًا وحزَمًا من خيوط الغزل الثقيلة. علّموه كيفية تضفير خيوط الغزل، باستخدام اللوح كنمط. أنتج ببطء وجهد كبير، مستطيلات من مادة سميكة مضفّرة بحجم محدد. عندما أنهى السادسة، أخذوها بعيدًا. ثم بدأ في دفعة ثانية وأخرى.

بعد أسبوعين، سأل أحد ضباط السجن عن الغرض من هذه الأشكال.

"آه، يجب أن تعرف يا نزيل رقم مئتين وسبعة وأربعين، يجب أن تعرف"

حاول جورج أن يفكر في المكان الذي ربما صادف مثل هذه الأشكال من قبل. عندما اتضح أنه في حيرة من أمره، التقط السجّان شكلين مستطيلي الشكل مُنجَزين، وضغط

عليهما معًا. ثم حملهما حتى أسفل ذقن جورج. عندما فعل هذا لم يبدِ أي رد، أمسكهما أسفل ذقنه وبدأ في فتح وإغلاق فمه بأسلوب شخص مخمور وصاخب.

وقع جورج في حيرة من هذه التمثيلية التحزيرية. "لا أظن ذلك"

"هيا تعال. يمكنك الحصول عليها" أصدر السجّان أصواتًا مضطربة وأكثر ضجيجًا.

"لا يمكنني أن أخمن"

"مِخلاة الخيل يا مئتين وسبعة وأربعين، كيس علف يعلّق في عنقها. يجب أن تكون ملائمة، إذ إنك رجل على دراية بالخيول"

شعر جورج بخدر مفاجئ. عندها عرف أن جميعهم عرفوا، تحدثوا وأطلقوا النكات حول هذا الموضوع. "هل أنا الشخص الوحيد الذي يفعل هذا؟"

ابتسم السجّان. "لا تعد نفسك مميزًا جدًا، أنت تغزل مع ستة آخرين يا مئتين وسبعة وأربعين. بعضهم يحيكون معًا. وبعضهم يصنع الحبال لربط رؤوس الخيل، وآخرون يجمعونها معًا، ومنهم من يحزمها لإرسالها"

لا، لم يكن مميزًا. تلك سلواه. إنه مجرد سجين بين السجناء، عمل كما عملوا، شخص جريمته ليست أكثر إثارة للقلق من جريمة الكثير من الأشخاص الآخرين، شخص يمكن أن يختار أن يُحسن السلوك أو يُسيء التصرف، ولكن ليس لديه خيار بشأن جريمته الأصلية. حتى كونك محاميًا هنا ليس أمرًا غير اعتيادي، كما أشار مأمور السجن. قرر أن يظل طبيعيًا قدر الإمكان، نظرًا للظروف.

عندما بلغه أنه سيقضي ستة أشهر معزولًا بدلًا من ثلاثة فقط، لم يتذمر جورج أو حتى يسأل عن السبب. الحقيقة هي أنه اعتقد أن ما وصفته الصحف والكتب بـ "أهوال الحبس الانفرادي" مبالغ فيه جدًا. إنه يفضل أن يحظى بعدد محدود من الرفاق على أن يرافق الكثير من الصنف السيئ. مازال يُسمح له بتبادل الأحاديث مع الحراس والقسيس ومأمور السجن في جولاته، حتى لو فُرض عليه الانتظار حتى يبادروا بالحديث معه أولًا. يمكنه أن يصدح بصوته في المصلّى الكنسي، وأن يردد التسابيح وينضم لغناء الترانيم. وأثناء التمارين، عادة ما يُمنح الإذن ليتحدث، على الرغم من أن إيجاد أرضية مشتركة مع شخص يمشي إلى جانبك ليس أمرًا بسيطًا على الدوام.

علاوة على ذلك، هناك مكتبة العاصمة في لويس، يتصل أمين مكتبتها مرتين في الأسبوع؛ لأخذ الكتب التي أنهاها وتجديد رفّه. سُمح له باستعارة عمل واحد ذي طبيعة تعليمية، وكتاب واحد من "المكتبة" أسبوعيًا. من خلال كتاب "المكتبة"، توجب عليه استيعاب أي شيء من رواية واسعة الانتشار إلى مجلد كلاسيكيات. عقد جورج العزم مع نفسه على قراءة جميع الأعمال الرائعة للأدب الإنجليزي، وتاريخ الأمم المهمة. كما سُمح له بطبيعة الحال باقتناء كتاب مقدس في زنزانته، على الرغم من أنه وجد على نحو متزايد أنه بعد أربع ساعات من الصراع مع الألواح والغزل بعد ظهر كل يوم، لم تكن إيقاعات الكتاب المقدس ما يشتاق إليه، ولكنه الفصل التالي من رواية السير والتر سكوت. شعر جورج بإحساس النظام الذي اتجه إلى ما يقرب من الرضا في بعض الأحيان، فهو حبيس في زنزانته، وقارئ رواية، وآمن من بقية العالم، وبطانية فراشه ذات الألوان الزاهية جاذبة لطرف عينه.

علم من رسائل والده أن هناك احتجاجًا عامًّا على الحكم الصادر ضده. وقد تناول السيد فولس قضيته في صحيفة تروث، ورفع السيد آر. دي. يلفيرتين، رئيس قضاة جزر الباهاما السابق، التماسًا الآن في معبد محكمة بامب. جُمعت التوقيعات، وقدّم العديد من المحامين بالفعل في برمنغهام ودودلي ولفرهامبتون دعمهم. تأثر جورج باكتشافه أن من بين الموقعين غرينواي وستينتسون. لقد عرف هذين الاثنين من أفضل الأصدقاء دائمًا. أجريت مقابلات مع الشهود، وجمعت إشادات بشخص جورج من معلمي المدرسة والزملاء المحترفين وأفراد عائلته. تلقى السيد يلفيرتين رسالة من السير جورج لويس، أعظم محامٍ جنائي في ذاك الزمن، عبّر عن رأيه المدروس بأن إدانة جورج تنطوي على مثالب خطيرة.

اتضح أن بعض الإدانات الرسمية قُدمت نيابة عنه؛ لأنه سُمح لجورج بتلقي مزيد من الاتصالات بشأن قضيته أكثر مما يُسمح به عادة. قرأ بعض الإشادات. هناك نسخة كربونية أرجوانية لرسالة من شقيق والدته، الخال ستونهام من البيت الريفي، متش وينلوك. "كلما رأيت أو سمعت عن ابن أختي (حتى هذه الأشياء البغيضة تحدثوا عنها) الذي أجده لطيفًا على الدوام، وسمعت عن كونه لطيفًا وذكيًا أيضًا". وجد أن هناك شيئًا حول ما وُضع تحته خط وهو ما دخل مباشرة إلى قلب جورج. ليس الثناء عليه، ما وجده محرجًا، ولكن وضع

خط تحت شيء. هنا كان مرة أخرى. "التقيت أولاً بالسيد إدالجي عندما اعتاد تلقي الأوامر على مدار خمسة أعوام، وحصل على توصيات جيدة للغاية من رجال دين آخرين. شعر أصدقاؤنا في ذلك الوقت أيضًا، كما فعلنا بأن البارسيين سلالة غارقة في القِدم ومثقفة، وتتصف بالكثير من الصفات الجيدة" ثم مرة أخرى، ملحوظة في الحاشية. "منح أبي وأمي موافقتهما الكاملة على الزواج رغم تعلّقهما بأختي".

كابن وسجين، لم يتمكن جورج من المساعدة في ذرف الدموع بهذه الكلمات كمحامٍ، شكك في مدى تأثيرها على أي موظف في وزارة الداخلية قد يُكلَّف في نهاية المطاف بمراجعة قضيته. وشعر في الوقت نفسه بتفاؤل شديد واستسلامٍ كلي. أراد جزءًا منه البقاء في زنزانته، ونَسْج أكياس العلف وقراءة أعمال السير والتر سكوت، والإصابة بنزلات البرد عند قص شعره في الفناء المتجمد، وسماع النكتة القديمة حول بق الفراش مرة أخرى. لقد أراد ذلك؛ لأنه علم أنه من المحتمل أن يكون هذا مصيره، وأفضل طريقة للاستسلام لمصيرك هي الرغبة فيه. الجزء الآخر منه، أراد أن يكون حرًا غدًا، ورغب في احتضان والدته وشقيقته، وأراد اعترافًا رسميًا بالظلم الكبير الذي وقع عليه... هذا هو الجزء الذي لم يستطع أن يطلق العنان له بالكامل؛ لأنه يمكن أن ينتهي بإلحاق أكبر قدر من الألم به.

لذا حاول أن يبقى متبلد الإحساس حين علم أن عشرة آلاف توقيع قد جُمِعت حتى الآن، برئاسة السير جورج لويس رئيس جمعية القانون المتحدة، والسير جورج بيرشوود، قائد الفرسان في الهيئة الطبية العليا. وَقّع المئات من المحامين، ليس فقط من منطقة برمنغهام. ومستشار الملك أيضًا، وأعضاء البرلمان -بمن فيهم أولئك من ستافوردشاير- والمواطنون من كافة الأطياف السياسية. جُمعت إفادات تحت القسم من الشهود الذين رأوا عمالاً ومتفرجين يطؤون الأرض حيث اكتشف الشرطي كوبر في وقت لاحق طبعات الجزمة. كما حصل السيد يلفيرتين على إفادة إيجابية من إدوارد سيويل، وهو جرّاح بيطري، استشاره الادعاء ولم يستدعه للشهادة. يُشكّل الالتماس والتصريحات القانونية والشهادات معًا "طلب الالتماس"، الذي وُجّه إلى وزارة الداخلية.

حدث أمران في فبراير. في اليوم الثالث عشر من الشهر، أفاد مُعلِن كانوك أن حيوانًا آخر قد اعتُدِي عليه بالطريقة ذاتها تمامًا كما هو الحال في الاعتداءات السابقة. كما قدّم

السيد يلفيرتين طلب الالتماس لوزير الداخلية السيد آكرز دوغلاس بعد أسبوعين. سمح جورج لنفسه بأن يغمره الأمل كليًا. حدث أمران آخران في مارس: رُفِض الالتماس، وأُبلِغ جورج أنه عند الانتهاء من فترة الستة أشهر الحبس الانفرادي، سيُنقل إلى بورتلاند.

لم يُبلّغ بسبب النقل، وبدوره لم يَسأل. افترض أنه أسلوب لقول: الآن ستتواءم وتقضي عقوبتك. بما أن جزءًا منه توقع حدوث ذلك دائمًا، فإن جزءًا منه -وإن لم يكن جزءًا كبيرًا- يمكن أن يكون رابط الجأش في الأخبار. حدّث نفسه أنه استبدل عالم تطبيق القانون بعالم القواعد، وربما هما ليسا عالمين مختلفين. اتّسم السجن أنه بيئة أبسط، لا تمنح القوانين حرية للتأويل، ولكن من المرجح أن التغيير بالنسبة له أقل إزعاجًا من أولئك الذين اعتادوا أن يعيشوا خارجين على القانون في حياتهم السابقة دائمًا.

لم تثر الزنازين في بورتلاند إعجابه. فهي مصنوعة من الحديد المموج (الشينكو)، وفي نظره تشبه بيوت الكلاب. التهوية سيئة أيضًا، وتحققت من خلال قطع فتحة في الجزء السفلي من الباب. لم تكن هناك مكالمات للسجناء، وإذا رغبت في التحدث إلى السجّان، فإنك تضع قبعتك تحت الباب. هذا هو النظام الذي من خلاله يجري تفقد قائمة الأسماء. عند صرخة "القبعات في الأسفل!" تضع قبعتك في فتحة التهوية. هناك أربعة نداءات من هذا النوع كل يوم، ولكن نظرًا لأن عدّ القبعات أثبت أنها أقل دقة من عدّ الأجساد، فقد تعين تكرار العملية الشاقة.

حصل على رقم جديد هو د462. يشير الحرف إلى العام الذي أُدين فيه. بدأ هذا النظام من القرن: ألف وتسعمئة هو عام أ، لذلك أدين جورج في العام د، وهو عام ألف وتسعمئة وثلاثة. وُضعت شارة تحمل هذا الرقم، ومدة عقوبة السجين على السترة، وكذلك على القبعة. استُخدمت الأسماء هنا مرارًا أكثر من سجن لويس، ولكن لا مازال هنا ميل إلى تعريف الرجل من خلال شارته. لذلك شارة جورج هي د462-7.

هناك الحديث المعتاد مع مأمور السجن. هذا المرء على الرغم من أنه مدني تمامًا، إلا أنه من كلماته الأولى أقل دعمًا في الأسلوب من زميله في لويس. "عليك أن تعلم أنه من العبث محاولة الهرب. لم يسبق لأحد أن فرّ من بورتلاند بيل. ستفتقد مجرد الهدوء وتكتشف مباهج الحبس الانفرادي"

"أعتقد أنني ربما آخر شخص في السجن بأكمله قد يحاول الهرب"

قال المأمور: "لقد سمعت ذلك من قبل. بالتأكيد، لقد سمعت كل شيء من قبل"

طأطأ ونظر إلى ملف جورج. "الديانة. كما تقول كنيسة إنجلترا"

"نعم، والدي..."

"لا يمكنك تغييرها"

لم يفهم جورج هذه الملحوظة. "ليست لدي الرغبة في تغيير ديانتي"

"جيد. حسنًا، لا يمكنك على أي حال. لا تعتقد أنه يمكنك أن تتملق القسيس. إنها مضيعة للوقت. اقضِ عقوبتك، وأطِع السجّان"

"هذا ما عقدت العزم عليه دائمًا"

"إذن إما أن تكون أكثر حكمة أو أكثر حماقة من معظم الآخرين" مع هذه الملحوظة المبهمة، لَوّح المأمور لأخذ جورج بعيدًا.

اتّصفت زنزانته أنها أصغر حجمًا وأكثر وضاعة من نظيرتها في لويس، على الرغم من أن أحد الحراس الذين خدموا في الجيش أكدوا له أنها أفضل من الثكنات. سواء أكان ذلك صحيحًا أم قصد به المواساة التي لا يمكن التحقق منها، لم يكن لدى جورج وسيلة للتحقق. لأول مرة في حياته المهنية في السجن، تؤخذ بصمات أصابعه. خشي اللحظة التي خضع فيها لتقييم الطبيب عن قدرته على العمل. عرف الجميع أن أولئك الذين أُرسِلوا إلى بورتلاند حصلوا على مِعول، وأُمِروا بكسر الصخور في المحجر. ومما لا شك فيه أن الأصفاد قد دخلت في الحساب أيضًا. لكن تبين أن مخاوفه قد أسيء فهمها: نسبة صغيرة من السجناء عملوا في المحاجر، ولم يرسل مشاهير السجن إلى هناك. علاوة على ذلك، حدد بصر جورج أنه مناسب للأعمال البسيطة فقط. كما اعتبر الطبيب أنه من غير الآمن له أن يصعد وينزل الدرج. لذا تمركز في العنبر رقم واحد في الطابق الأرضي.

عمل في زنزانته. انتقى ليف جوز الهند لحشو الأسِرّة والشعر لحشو الوسائد. يجب أن تُمشط ألياف جوز الهند لأول مرة على اللوح الخشبي، ثم تُنتقى جيدًا مثل الخيط: بهذه الطريقة فقط قيل له أنه سيكون مناسبًا لصنع أنعم الأسِرّة. ولم يقدم أي دليل على هذا الادعاء، لم يشاهد جورج أبدًا المرحلة التالية من العملية، ومن المؤكد أن فراشه لم يُحشَ

بليف جوز الهند المُنتقى بدقة.

زاره القسيس في منتصف أسبوعه الأول في بورتلاند. أوحى أسلوبه المرِح إلى أنهما مجتمعان في مجلس الكنيسة في غريت ويرلي بدلًا من بيت كلب مع فتحة تهوية قُصّت من أسفل الباب.

سأل بمرح: "هل تكيّفت؟"

"يبدو أن مأمور السجن يتخيل أن أفكاري تنحصر في الهروب"

"نعم، نعم، أبلَغ الجميع بذلك. أعتقد أنه يستمتع بالفرار الاستعراضي، أقول هذا لك فقط. رُفع العلم الأسود، ودوّى المدفع، وأُطفئت الثكنات. وهو يفوز باللعبة دائمًا... إنه يفضل ذلك أيضًا. لا أحد ينجو من الحساب مطلقًا. إذا لم يقبض الجنود عليه، فإن المواطنين سيفعلون. هناك مكافأة قدرها خمسة جنيهات لتسليم السجين الفارّ من العدالة، لذلك ليس هناك حافز للنظر في الاتجاه الآخر. ثم إنها تعويذة الحبْس وخسارة الغفران. فقط لا يستحق ذلك"

"والشيء الآخر الذي أخبرني به المأمور هو أنه لا يُسمح لي بتغيير ديني"

"صحيح إلى حد ما"

"لكن لماذا قد أرغب في ذلك؟"

"آه، أنت نجم مميز بطبيعة الحال. لا أعرف التفاصيل الدقيقة إلى الآن. كما ترى، بورتلاند لديها البروتستانت والكاثوليك فقط. النسبة حوالي ستة إلى واحد. لكن لا يوجد يهود على الإطلاق. إذا كنت يهوديًا، فستُرحّل إلى سجن باركهورست"

"لكني لست يهوديًا" نفى جورج بإصرار.

"لا. في الواقع لا. ولكن إذا كنت سجينًا مخضرمًا -عاديًا- وقررت أن باركهورست كسِجن أسهل من بورتلاند، فقد يُطلق سراحك من بورتلاند هذا العام كعضو متحمس في كنيسة إنجلترا، ولكن مع الوقت تقبض الشرطة عليك في المرة القادمة، ربما اخترت أن تصبح يهوديًا. ثم ستُرسل إلى باركهورست. لكنهم أقروا عُرفًا أنه لا يمكنك تغيير ديانتك في منتصف العقوبة. وبخلاف ذلك، تبادل السجناء مسؤوليات المهمات كل ستة أشهر، لمجرد القيام بشيء ما"

"يجب أن يحصل الحاخام في باركهورست على بعض المفاجآت"

يضحك القسيس ضحكة خافتة. "غريب كيف يمكن لحياة الجريمة أن تحول الرجل إلى يهودي"

اكتشف جورج أن اليهود ليسوا فقط من يُرسَلون إلى باركهورست، يُرسل المعاقون والمعروفون أنهم بعيدون قليلاً عن القمة أيضًا. قد لا تغير دينك في بورتلاند، ولكنك إذا انهرت جسديًا أو عقليًا، قد تُنقل. قيل إن بعض السجناء تعمدوا وضع المعاول الخشبية بين أقدامهم، أو تظاهروا بأنهم بعيدون قليلاً عن القمة –عووا مثل الكلاب واقتلعوا شعورهم وفتّتوها في أكوام- في محاولة لكسب خطوة. بدلاً من ذلك، انتهى بهم المطاف في الحبْس، بضعة أيام كوفئوا فيها بالخبز والماء فقط.

كتب جورج لوالديه: "الوضع الصحي في بورتلاند جيد في الغالب. الهواء نشط ومنعش جدًا، وليس هناك الكثير من الأسقام" ربما كتب بطاقة بريدية من آبريستويث أيضًا. لكن ذلك صحيح أيضًا، ويجب عليه أن يجد الراحة التي يستطيع تقديمها لهم.

سرعان ما اعتاد على سكنه الضيق، وقرر أن بورتلاند مكانًا أفضل من لويس. هناك عدد أقل من ذوي الشريط الأحمر، ولا وجود لنظام أحمق عن حلاقة الذقن والشعر في الهواء الطلق. القواعد التي تحكم المحادثات بين السجناء أكثر تخففًا أيضًا. والطعام أفضل أيضًا. تمكن من إبلاغ والديه أن هناك عشاء مختلفًا كل يوم، ونوعين من الحساء. الخبز من الدقيق الكامل... "أفضل من خبز الخباز"، كما كتب، ليس كمحاولة للتهرب من الرقابة أو السعي لنيل حظوة، ولكن كتعبير حقيقي عن الرأي. توفرت هناك الخضراوات جميعها. الكاكاو ممتاز، على الرغم من أن الشاي سيئ. ومع ذلك، إن لم ترغب في الشاي، فلديك حساء الشعير أو العصيدة، وقد فوجئ جورج بأن كثيرًا منهم أصر على الحصول على شاي رديء بدلاً من شيء مغذٍ.

استطاع أن يبلغ والديه أن لديه الكثير من الملابس الداخلية الدافئة. لديه قمصان قطنية وسراويل داخلية وقفازات أيضًا. المكتبة أفضل مما هي عليه في لويس، وشروط الاستعارة أكثر سخاء: بإمكانه أخذ كتابين من "المكتبة"، إضافة إلى أربعة ذات طابع تعليمي، كل أسبوع. كل المجلات الرئيسة متاحة في هيئة مجلد، على الرغم من أن مقص

رقيب سلطات السجن قد أزال المواد غير المرغوب فيها من جميع الكتب والمجلات. استعار جورج كتابًا عن تاريخ الفن البريطاني الحديث، فقط ليكتشف أن جميع رسومات أعمال السير لورينس ألما-تديما قد أزالتها شفرة الحلاقة الرسمية بدقة. في القسم الأمامي من المجلد، وُجد التحذير المكتوب في كل كتاب مستعار من المكتبة: "لا تثنِ الصفحات"، تحتها كُتب على سبيل الدعابة: "ولا تمزيق للصفحات".

لم تكن النظافة أفضل حالاً، وإن لم تكن أسوأ من لويس. إن احتجت إلى فرشاة أسنان، عليك التقدم بطلب إلى مأمور السجن، الذي بدا أنه يجيب بنعم أو لا وفقًا لنظام خاص غريب الأطوار.

احتاج جورج إلى مُلمّع معادن ذات صباح، فسأل أحد الحراس عما إذا توفرت هناك أي فرصة للحصول على بعض لبِنات الطوب للحمّام.

"لبِنات الطوب، يا د462!" أجاب الضابط وحاجباه يتقافزان في اتجاه القبعة. "لبِنات الطوب! ستدمّر النظام الصارم - ستطلب الفطائر المحلاة بالسكر في المرة التالية"

وكان هذا نهاية ذلك.

انتقى جورج الليف والشعر يوميًا. مارس الرياضة حسب التعليمات، على الرغم من افتقاره للحماس الكبير. استعار من المكتبة العدد المسموح له من الكتب كاملاً. لقد اعتاد في لويس على تناول الطعام بسكين من الصفيح وملعقة خشبية، وللأمانة السكين غالبًا ما كانت غير كافية للحم البقر والضأن في السجن. لم يفتقد استخدام الشوكة، أكثر من شوقه للصحف. في الواقع، رأى أن عدم توفر صحيفة يومية ميزة: بسبب افتقاره إلى وجود هذا الحافز اليومي من العالم الخارجي، فقد تأقلم بسهولة أكبر مع مرور الوقت. هذه الأحداث مثلما وقعت في حياته تقع الآن داخل أسوار السجن. في صباح أحد الأيام، نجح السجين جـ183، الذي أمضى هناك ثماني سنوات بسبب السرقة... في الصعود إلى السطح، ثم أعلن للعالم أنه ابن الرب. عرض القسيس صعود السلم ومناقشة الآثار اللاهوتية، لكن المأمور قرر أنها مجرد محاولة أخرى للانتقال إلى باركهورست. في النهاية جوّعوه وأرسلوه إلى الحبْس. اعترف جـ183 في النهاية أنه ابن ساقي حانة وليس نجارًا.

بعد أن قضى جورج أشهرًا قليلة في بورتلاند، حدثت هناك محاولة للهروب. تمكن

رجلان –هما جـ 202 وب-178 من إخفاء عتلة في زنزانتهما. اخترقا السقف، وبلغا الفناء بواسطة حبل، وتسلقا الجدار. في المرة التالية التي نودي فيها "القبعات في الأسفل!"، وقع هرج ومرج: هناك قبعتان ناقصتان. تلاه عدٌّ آخر للقبعات، ثم عدٌّ للأجساد. رُفع العلم الأسود، وأُطلق المدفع، وحُبس السجناء لفترة مؤقتة. لم يمانع جورج ذلك، حتى إن فاتته المشاركة في الصخب السائد أو الانضمام إلى وضع الرهان على النتيجة.

تبقى للرجلين بضع ساعات لبدء المهمة، ولكن بحكم المعتاد سيختفيان عن الأنظار حتى حلول الليل، وعندها فقط حاولا النجاة من قبضة القانون. ولكن عندما أُطلقت الكلاب في أرض السجن، اكتُشف ب178 بسرعة، المُختبئ في ورشة العمل ولاعنًا كاحله الذي كُسر عند القفز من السطح. استغرق جـ202 وقتًا أطول للعثور عليه. انتشر الحرّاس على جميع مرتفعات شاطئ تشيسيل. انطلقت القوارب في حال قرر الهارب السباحة فيها، سدّ العساكر طريق وايماوث. فُحصت المحاجر، وأجريت عمليات بحث في الأراضي المحيطة. لكن العساكر وحرّاس السجن لم يعثروا على جـ202، جلبه صاحب النزل الذي لجأ إلى قبوه، وأخضعه بمساعدة سائق عربة بضائع وقيّده بالحبال. أصر جاني الضرائب على تسليمه إلى ضابط الاستقبال في السجن، والحصول على سند إذني (كمبيالة) بمبلغ خمسة جنيهات إسترلينية للقبض عليه.

تحول الصخب بين السجناء إلى خيبة أمل، وتضاعف تفتيش الزنازين أكثر لفترة قصيرة. هذا أحد جوانب الحياة التي وجدها جورج الأكثر إرباكًا مما كانت عليه في لويس. لا سيما أن عمليات البحث في قضيته لم تُجدِ نفعًا في قضيته. أولًا سيأتي الأمر بـ"فك الأزرار"، ثم يقوم الضباط "بالتفتيش الجسدي" للسجين للتأكد من عدم إخفاء أي شيء في ملابسه. تحسّسوا كل جسده، وتفحصوا جيبه، بل حتى أرخوا منديله. أحرج هذا السجين، وظنّ جورج أنه لا بد أن يكون بغيضًا للضباط؛ لأن ملابس العديد من السجناء قذرة ومشحمة من عملهم. أخذ بعض الضباط حذرهم بشدة أثناء عمليات التفتيش، فيما لم يلحظ آخرون ما إذا أخفى السجين مطرقة وإزميلًا في جيبه.

ثم هناك "انقلاب" بدا أنه عبارة عن تحطيم للزنزانة تحطيمًا منهجيًا، ودفع للكتب من الأسطح، وفك للسرير، وبحث في أماكن الإخفاء المحتملة التي لن يسبق لجورج

أبدًا أن خمنها. لكن الأسوأ من ذلك هو البحث عن "الحمّام الجاف". نقلك إلى الحمّام العام وإجبارك على الوقوف على الشرائح الخشبية. ونزع كل غرزة من ملابسك باستثناء قميصك. فتّش الضباط كل نقطة بدقة. ثم تُجبر على الخضوع للإذلال... رفع ساقيك، والانحناء، وفتح فمك، وإخراج لسانك. نُظمت عمليات البحث الجافة في بعض الأحيان نظاميًا، وأحيانًا على أساس عشوائي. خمّن جورج أنه عانى من هذه المهانة على أقل تقدير مثل السجناء الآخرين. ربما، عندما أعرب عن نفوره من فكرة الفرار، اعتبروه مخادعًا.

وهكذا مرت الشهور، ثم السنة الأولى ثم معظم السنة الثانية. قام والداه برحلة طويلة من ستافوردشاير كل ستة أشهر، وسمح لهما بقضاء ساعة معه تحت أعين الحارس. أوجعت جورج هذه الزيارات: ليس لأنه لا يحب والديه، ولكن لأنه يكره أن يرى معاناتهما. بدا والده منكمشًا في الوقت الحاضر، ولم تستطع والدته إقناع نفسها على النظر إلى المكان الذي سُجِن فيه ابنها. وجد جورج صعوبة في أن يختار معهما النبرة المناسبة: إذا ابتهج، فسيعتقدان أنه مُدّعٍ وإذا وجداه مكفهرًا، سيجعلهما أكثر كآبة. وبدلًا من ذلك، وجد نفسه يتبنى طريقة محايدة ومفيدة ولكنها خالية من المعنى، مثل موظف مكتب الحجز.

تعاملت مود في البداية مع هذه الزيارات بحساسية كبيرة. ولكن في غضون سنة بلغت نظرة والدتها. لم تملك فرصة تذكر لقول أي شيء، ولكن عندما نظر إليها جورج، واجه تلك النظرة الثابتة والقوية التي تذكرها في قاعة المحكمة في ستافورد. بدا الأمر كما لو أنها حاولت منحه القوة، لنقل شيء من عقلها إلى عقله دون وساطة الكلمة أو النظرة. في وقت لاحق، وجد نفسه يتساءل عما إذا أخطأ هو- هم - بشأن مود وهشاشتها المفترضة.

لم يتنبه الكاهن. لقد انشغل جدًا في إخبار جورج كيف في ضوء تغيير الحكومة التي لا تعرف الكلل -الأمر الذي نادرًا ما أدركه جورج- أن السيد يلفيرتين الذي لا يعرف الكلل أوشك على تجديد حملته. وضع السيد فولس مخططًا لسلسلة جديدة من المقالات في صحيفة تروث. بينما نوى الكاهن إصدار كتيب خاص به حول القضية. قدم جورج عرضًا مشجعًا، لكنه على نحو خاص حكم على تعصب والده الديني بأنه حماقة. ربما يكون قد كسب المزيد من التوقيعات، لكن جوهر قضيته لم يتغير، فلماذا يتغير رد المسؤولين؟ إنه كمحامٍ، يمكن أن يرى ذلك.

وصله أن وزارة الداخلية كانت غارقة بالالتماسات من كل سجن في البلاد أيضًا. أُرسِل أربعة آلاف طلب التماس سنويًا، ووصلت آلاف الطلبات الأخرى من مصادر أخرى نيابة عن السجناء. لكن وزارة الداخلية ليست مجهزة ولا مخولة لإعادة النظر في القضية، لم تستطع مقابلة الشهود أو الاستماع إلى محام. كل ما أمكن القيام به هو فحص الأوراق وتقديم المشورة للتاج وفقًا لذلك. وهذا يعني أن العفو المجاني نادر إحصائيًا. قد يكون الأمر مختلفًا إذا وُجدت هناك محكمة استئناف، قادرة على القيام بدور أكثر نشاطًا في قلب الظلم. ولكن كما هو الحال قائم، فإن اعتقاد الكاهن بإعادة تأكيد البراءة مدعومًا بقوة الصلاة، سيؤدي إلى إطلاق سراح ابنه جورج مأخوذًا بأنه بريء.

لقد أحزنه أن يعترف بالحقيقة، لكن جورج وجد أن زيارات والده غير مُجدية. لقد أقلقوا نظامه وسكون حياته، ودون نظام أو هدوء لم يعتقد أن بإمكانه أن ينجو من عقوبته. يحسب بعض السجناء كل يوم حتى الإفراج عنهم في المستقبل. لم يكن بإمكان جورج أن يتعايش مع حياة السجن إلا من خلال تعامله معها على أنها الحياة الوحيدة التي عاشها أو أمكنه أن يعيشها. لقد أقلقت هذه الصورة الخادعة والديه، وكذلك ثقة والده التي تأملها في السيد يلفيرتين. ربما لو سُمح لمود بزيارته وحدها فستملؤه بالقوة، في حين أن والديه ملآه بالقلق والخجل. لكنه علم أن هذا لن يستمر للأبد.

استمرت عمليات البحث والتمسيد والحمّامات الجافة. لقد قرأ تاريخًا أكثر مما علم بوجوده، وأنهى قراءة جميع المؤلفين الكلاسيكيين، وتقدم الآن نحو المؤلفين الأصغر منهم. وفي رحلته في عالم القراءة، قرأ سلسلة كاملة من مجلة كورنهيل وستراند. وبدأ يتسلل إليه القلق بشأن استنفاد موارد المكتبة.

في صباح أحد الأيام، نُقل إلى مكتب القسيس، والتقطت له صورًا جانبية ولكامل وجهه، ثم فُرض عليه إطلاق لحيته. قيل له إنه في غضون ثلاثة أشهر ستؤخذ له صورٌ فوتوغرافية مرة أخرى. يمكن أن يعمل جورج بنفسه على الغرض من هذا السجل: ستُحفظ للشرطة إذا قدّم لهم سببًا مستقبليًا للبحث عنه.

لم يكن يحب إطلاق لحيته. أطال شاربه منذ أن سمحت الطبيعة بذلك، ولكن فُرض عليه حلقه في لويس. اليوم فقد متعة الوخز اليومي الذي انتشر عبر خديه وتحت

ذقنه. افتقد شعوره بالشفرة. كما أنه لم يعجب بهيئته مع اللحية: فقد أضفت عليه ملامح إجرامية. قدّم السّجّانون هناك ملحوظات عن وجود مخبأ جديد له. استمر في اختيار الليف وقراءة أوليفر غولدسميث. تبقت أربع سنوات من عقوبته.

ثم فجأة أصبحت الأمور مربكة. أُخذ لالتقاط صورة فوتوغرافية جانبية وكاملة لوجهه. ثم أُرسل ليُحلق له. أخبره الحلاّق أنه محظوظ لأنه لم يكن في منطقة سترانجوايز، إذ سيدفع ثمانية عشر بنسًا مقابل الخدمة. عندما عاد إلى زنزانته، أُمر بجمع أمتعته القليلة معًا والاستعداد للانتقال. اقتيد إلى المحطة ووضع في قطار مع مرافقة. بالكاد استطاع حثّ نفسه على النظر إلى الريف، الذي بدا في حضوره ساخرًا منه، كما فعل كل حصان وبقرة داخل الريف. لقد فهم كيف يصاب الرجال بالجنون من فقدان الأشياء العادية.

عندما وصل القطار إلى لندن، وُضع في سيارة أجرة، ونُقل إلى بنتونفيل. قيل له هناك إنه يستعد لإطلاق سراحه. أمضى يومًا حبيسًا بمفرده... اليوم الأكثر بؤسًا، طوال السنوات الثلاث كاملة في السجن. أدرك أن عليه أن يبتهج. بدلاً من ذلك، انتابته الحيرة من أمر إطلاق سراحه مثلما شعر عند اعتقاله. جاء اثنان من المحققين وزوّداه بالأوراق، أُمر بإبلاغ شرطة سكوتلاند يارد لتلقي المزيد من التعليمات.

في العاشرة والنصف من صباح يوم التاسع عشر من أكتوبر من عام ألف وتسعمئة وستة، غادر جورج إدالجي بنتونفيل في سيارة أجرة مع يهودي أُطلق سراحه أيضًا. ولم يسأل عما إذا كان الرجل يهوديًا حقيقيًا أم مجرد يهودي في السجن. أنزلت سيارة الأجرة الرجل اليهودي عند جمعية مساعدة السجناء اليهود، وأقلته إلى جمعية مساعدة جيش الكنيسة. والسجناء الذين انضموا إلى هذه الجمعيات مؤهلون لمكافأة مزدوجة عند الإفراج عنهم. تسلّم جورج تسعة وعشرين جنيهًا إسترلينيًا وعشرة بنسات. ثم نقله ضباط الجمعية إلى شرطة سكوتلاند يارد، حيث وضحوا له شروط الإفراج عنه بتصريح. وجب عليه أن يقدم العنوان الذي سيقيم فيه، كما تعيّن عليه أن يقدّم تقريرًا مرة واحدة في الشهر إلى سكوتلاند يارد، وإبلاغهم مسبقًا بأي خطط لمغادرة لندن.

أرسلت إحدى الصحف مصورًا إلى بنتونفيل؛ للحصول على لقطة لجورج إدالجي خارجًا من السجن. عن طريق الخطأ صور الرجل سجينًا أُطلق سراحه قبل نصف ساعة

من الإفراج عن جورج، وهكذا طبعت الصحيفة صورة الرجل الخطأ.

اقتيد من سكوتلاند يارد للقاء والديه.

أضحى حرًا.

آرثر

ثم التقى جاين.

أمامه أشهر قليلة ليتم الثامنة والثلاثين من عمره. رسمه سيدني باغيت[49] في ذلك العام. جلس مستقيم الظهر على كرسي منجّد بذراعين، وارتدى سترة سوداء من نوع فراك نصف مفتوحة، وظهرت سلسلة ساعة جيب وفي يده اليسرى دفتر، وفي يمينه قلم رصاص فضي. ينحسر شعره الآن فوق صدغه، ولكن هذه الخسارة لا صلة لها بمجد تعويض الشارب: فهو يحتل وجهه فوق الشفة العلوية وخارجها، ويمتد إلى ما وراء خط شحمة الأذن... يضفي على آرثر سِحنة القيادي للمدعي العام العسكري، الشخص الذي أُقرت سلطته من خلال شعار النبالة المقسّم إلى أرباع في الزاوية العلوية من الصورة.

آرثر هو أول من اعترف بأن معرفته بالنساء هي معرفة رجل نبيل وليس نذلاً. جرّب بعض المغازلات الصاخبة في حياته المبكرة... حتى تلك الحادثة التي تتعلق بالسمك الطائر. عرف هناك إلمور ويلدون التي إن لم تكن ملحوظة غير لائقة، فإنها تزن أحد عشر ستونًا. وهناك توي التي أصبحت على مر السنين، أختًا رفيقة له، ثم فجأة أختًا غير صالحة. وهناك بالطبع أخواته الحقيقيات. وإحصائيات الدعارة التي يقرأها في ناديه. وقصص رويت عبر بوابة الدخول، يرفض سماعها أحيانًا، قصصًا تضم على سبيل المثال، غرفًا خاصة في مطاعم سرية. هناك حالات الأمراض النسائية التي رآها، والولادات التي شهدها، وحالات المرض بين بحارة بورتسموث وغيرهم من الرجال فاقدي الأخلاق. إن فهمه للفعل الجنسي مختلف، على الرغم من أنه مرتبط بعواقبه المؤسفة أكثر من بهجته وأفعاله الأولية.

---

49 Sidney Paget رسام بريطاني من العصر الفيكتوري ولد في أكتوبر1860، وتوفي في 28 يناير1908، اشتهر برسوماته التوضيحية التي رافقت قصص وروايات شيرلوك هولمز التي كتبها السير آرثر كونان دويل.

والدته هي المرأة الوحيدة التي على استعداد أن يخضع لحكمها. الجنس مع أفراد آخرين بدا مختلفًا، أخًا كبيرًا، وأبًا بديلاً، وزوجًا مهيمنًا، وطبيبًا مُشخّصًا، وكاتبًا سخيًا للشيكات على بياض وبابا نويل. إنه راضٍ تمامًا عن الانفصال والتمييز بين الجنسين كما طوره المجتمع بحكمته عبر القرون. إنه يعارض بحزم فكرة التصويت للنساء: عندما يعود الرجل إلى المنزل من العمل، فإنه لا يرغب في أن يجلس مقابل سياسي عند الموقد. معرفة نساء أقل، يجعله قادرًا على أن يوليهن اهتمامًا أكبر. هذا ما يعتقد أنه يجب أن يحدث.

لذلك تأتي جاين بمثابة صدمة له. لقد مضى وقت طويل منذ أن نظر إلى امرأة شابة كما يفعل الشباب عادة. النساء -الشابات تحديدًا- يتضح له أنه من المفترض أن يكنّ غير مُشَكّلات، إنهن طيّعات ومرنات، ينتظرن تشكيلهن من خلال انطباع الرجال الذين يتزوجونهن. يخبئن أنفسهن؛ ليراقبن وينتظرن وينغمسن في عرض اجتماعي لائق (والذي يجب ألا يرقى دائمًا إلى الغنج) حتى الوقت الذي يبدي فيه الرجل اهتمامه، ثم اهتمامه الأكبر، ثم اهتمامه الخاص، في ذلك الوقت الذي يمشيان فيه بمفردهما، وقد اجتمعت العائلتان، وأخيرًا يطلب يدها، وأحيانًا في آخر عملية كتمان، تجعله ينتظر ردّها. هذه هي الطريقة التي تطور بها كل شيء، والتطور الاجتماعي له قوانينه وضروراته تمامًا مثل التطور البيولوجي. لن يبدو الأمر كذلك إذا لم يكن هناك سبب وجيه لوجودها على هذا النحو.

عندما يتم تقديمه إلى جاين -في حفلة شاي بعد الظهر في منزل سكوتسمان الشهير في لندن، وهو نوع الحدث الذي يتجنبه عادة - ينتبه في الحال أنها شابة مذهلة. إنه يعرف من الخبرة الطويلة ما يمكن توقعه: ستسأله الشابة المذهلة عن الموعد الذي سيعاود فيه كتابة قصة شيرلوك هولمز أخرى، وهل مات حقًا في شلالات رايشنباخ، وربما من الأفضل إذا تزوج المحقق المستشار، وكيف خطرت له مثل هذه الفكرة في المقام الأول؟ وأحيانًا يجيب بسأم رجل يرتدي خمسة معاطف، وأحيانًا يبتسم ابتسامة خافتة ويجيب، "سؤالك أيتها الشابة، يذكرني بالسبب الذي جعلني أشعر بوجوب إسقاطه من فوق الشلالات في المقام الأول"

لكن جاين لم تفعل أي شيء من هذا. إنها لم تقدم بداية مقبولة باسمه، أو تُقرّ على استحياء بأنها قارئة مخلصة. تسأل عما إذا حضر معرض صور رحلة الدكتور نانسن إلى

أقصى الشمال.

"ليس بعد. على الرغم من أني حضرت إلى قاعة ألبرت الملكية الشهر الماضي، عندما ألقى محاضرة في الجمعية الجغرافية الملكية، وحصل على ميدالية من أمير ويلز"

"أنا كنت هناك" أجابت. هذا غير متوقع.

يخبرها كيف أنه بعد قراءة قصة نانسن قبل بضعة أعوام من عبور النرويج على الزلاجات، وحصل على زوج منها، وكيف تزلج من دافوس على المنحدرات العالية مع الأخوة برانغر، وكيف كتب توبياس برانغر "الرياضي" في دفتر التسجيل للفندق. ثم يبدأ قصة أخرى، وغالبًا ما يرويها كمادة مساعدة لهذه، عن فقدان زلاجاته في أعلى سطح الجبل المغطى بالثلوج والاضطرار إلى النزول دونها، وكيف ضغط على مقعد مقابضه مصنوعة من التويد النسيج الصوفي الخشن... وهي حقًا واحدة من أفضل قصصه، على الرغم من أنه ربما في الظروف الحالية، سيعدل الاستنتاج حول كونه أكثر سعادة لبقية اليوم، عندما يقف مع مقعد رديء يستند إلى الحائط... ولكن يبدو أنها توقفت عن الاهتمام. تعجّب، ثم صمت.

"أود أن أتعلم التزلج"، تقول.

هذا أيضًا غير متوقع.

"لدي اتزان ممتاز. لقد امتطيت الخيل منذ أن كنت في الثالثة من عمري"

يشعر آرثر بالحنق إلى حد ما؛ لعدم السماح له بإنهاء قصته حول تمزّق المقعد، والتي تشمل تقليد توكيدات خيّاطه حول متانة قماش هاريس تويد. لذلك يخبرها بحزم أنه من غير المرجح أن تتعلم النساء -وهو ما يقصد به نساء المجتمع، على عكس الفلاحات السويسريات- التزلج على الإطلاق، بالنظر إلى القوة البدنية المطلوبة، والأخطار المصاحبة لهذه الرياضة.

"آه، أنا قوية بما يكفي" ردّت. "وأتصور أن لدي توازنًا أفضل منك، نظرًا لحجمك. لا بد أنها ميزة أن مركز الجاذبية أقل. وكوني أخف وزنًا بكثير، لا ينبغي أن أتسبب في الكثير من الضرر إذا وقعت"

أقالت "أخف وزنًا" ربما شعر بالمهانة من هذه الناحية؛ لأنها تقول "أخف وزنًا بكثير"،

ينفجر ضاحكًا ويَعِدها أن يعلمها التزلج يومًا ما.

"أتوقع منك أن تفي بوعدك لي"، ردّت عليه.

شكّل كل ذلك لقاءً استثنائيًا إلى حد ما، وهو ما انعكس عليه في الأيام التالية. الطريقة التي امتنعت فيها عن الاعتراف بشهرته ككاتب، وحددت موضوع المحادثة، وقاطعت إحدى أكثر قصصه شعبية، وأظهرت طموحًا قد يصفه بعضهم بأنه لا يليق بسيدة نبيلة، وضحكت -تمامًا، ضحكة جيدة كما يجب- من وزنه. ومع ذلك، تمكنت من القيام بكل شيء بخفة وجدية وبأسلوب ساحر. يهنئ آرثر نفسه على عدم الإساءة، حتى لو لم يكن المقصود. يشعر بشيء لم يشعر به منذ أعوام: الرضى الذاتي عن الغزل الناجح. ومن ثم نسيها.

دخل مسرحية موسيقية بعد الظهر بعد ستة أسابيع، وهي تغني إحدى أغاني بيتهوفن الأسكتلندية في حين يرافقها شاب جاد في ربطة عنق بيضاء. يجد صوتها رائعًا، وعازف البيانو متكلفًا ومختالاً. تراجع آرثر إلى الوراء؛ حتى لا تراه يراقبها. التقيا بعد وصلتها الغنائية في حضور الآخرين، وتصرف بنوع من الأدب مما يجعل من الصعب الحكم على ما إذا تذكرته أم لا.

افترقا بعد بضع دقائق، مع عازف التشيللو المروع الذي يئن في الخلفية، والتقيا مرة أخرى، لكن هذه المرة وحيدين. تقول في الحال: "أرى أني يجب أن أنتظر تسعة أشهر على الأقل"

"لأجل ماذا؟"

"لدرس التزلج الخاص بي. لا يوجد احتمالية لتساقط الثلج الآن"

لم يجد في هذا تقدمًا أو غزلاً، على الرغم من أنه يدرك أن عليه أن يحرز تقدمًا.

يسأل: "هل تخططين لزيارة هايد بارك؟ أو القديس جيمس؟ أو ربما منحدرات هامبستيد هيث؟"

"لم لا؟ أينما تريد. أسكتلندا أو النرويج أو سويسرا"

يبدو أنهما مرّا، دون أن ينتبه، عبر بعض النوافذ الفرنسية والشرفة، وهما يقفان الآن تحت تلك الشمس ذاتها التي طالما نفت كل أمل في تساقط الثلج. لم يمتعض يومًا أكثر

من هذا اليوم الرائع.

ينظر إلى عينيها ذات اللون العسلي المخضر. "هل تغازلينني، أيتها الشابة؟"

تنظر إليه مباشرة. "أنا أتحدث إليك عن التزلج" لكن تلك الكلمات كما يبدو شكلية فقط.

"لأنك إذا كنت كذلك، احذري فأنا لن أقع في حبك"

بالكاد يعرف ما قاله. نصفه يعني ذلك تمامًا والنصف الآخر لا يستطيع تخيل ما حدث معه.

"آه، أنت بالفعل مغرم بي. وأنا معك. ليس لدي أدنى شك في ذلك. لا شك على الإطلاق"

وهذا ما قيل. ولا حاجة لمزيد من الكلمات، أو نطقها لفترة من الوقت. كل ما يهم هو كيف يراها مرة أخرى، وأين ومتى، ويجب ترتيب ذلك قبل أن يقاطعهما أحد. لكنه لم يكن أبداً شخصًا مغرورًا أو زير نساء، ولم يعرف كيف يقول تلك الأشياء الضرورية للوصول إلى مرحلة ما وراء المرحلة التي يقف فيها حاليًا أبدًا... ولا يعرف حقًا ما هي تلك المرحلة الإضافية، بما أن مكانه في الوقت الحالي يبدو بطريقته الخاصة يُعتبر نهائيًا. كل ما يمكن أن يشعر به في رأسه هي الصعوبات، والمحظورات، والأسباب التي ستحول دون لقائهما مرة أخرى أبدًا، ربما باستثناء مرور عقود بعد ذلك بشكل عابر، عندما يتقدمان في السن ويخطّ الشيب رأسيهما، سيقدران على المزاح عن تلك اللحظة التي لا تنسى على العشب المشمس لحديقة شخص ما. من المستحيل أن يجتمعا في مكان عام بسبب سمعتها وشهرته. ومن المستحيل عليهما أن يجتمعا في مكان خاص بسبب سمعتها و... كل ما يشكل حياته. يقف هناك، رجل يقترب من الأربعين، رجل آمِن في حياته وشهير في العالم، عاد تلميذًا مرة أخرى. يشعر كما لو أنه تعلم أجمل خطاب حب من شكسبير، والآن يحتاج إلى إلقائه لكن فمه جاف وذاكرته فارغة. كما لو أنه مزق المقعد ذي المقابض الصوفية ويجب عليه أن يجد على الفور جدارًا يسند ظهره عليه.

ومع ذلك، يلتقيان بطريقة أو بأخرى، دون دراية منه بأسئلتها وإجاباته غالبًا. وهو ليس لقاء غراميًا، أو بداية مكيدة، إنها المرة التالية التي سيلتقي كل منهما الآخر فقط، وفي الأيام الخمسة التي يضطر فيها إلى الانتظار يتعذّر عليه العمل، وبالكاد يمكنه التفكير،

وحتى لو لعب جولتين من الغولف في يوم واحد، في ثوانٍ بين التصدي للكرة وخفض رأس المضرب قبالة الكرة، يظهر وجهها في رأسه، ولعبته في ذلك اليوم كلها تصير انحناءات وتسديد للضربات المنحرفة، وتعريض الحياة البرية للخطر. عندما يدفع الكرة مباشرة من حفرة رملية إلى أخرى، يسترجع لعبة الغولف في فندق مينا هاوس فجأة، ويشعر بعد ذلك أنه عاش في مخبأ دائم. الآن لا يستطيع أن يقول ما إذا لا يزال هذا صحيحًا، بالفعل أكثر واقعية من أي وقت مضى، تدفن كرته وتختفي داخل رمال أكثر عمقًا، أو ما إذا بقيت على نحو ما على الأخضر إلى الأبد.

إنه ليس لقاءً غراميًا، على الرغم من أنه يجد نفسه يخرج من سيارة الأجرة على ناصية الشارع. إنه ليس لقاء غراميًا، على الرغم من وجود امرأة من فئة عمرية غير محددة ومن الطراز الذي يفتح الباب ويختفي. إنه ليس موعدًا غراميًا، على الرغم من أنها في النهاية تجلس وحيدة على أريكة مغطاة بقطعة قماش من الساتان. إنه ليس موعدًا غراميًا؛ لأنه يقول لنفسه إنها لا تخصني.

يمسك بيدها وينظر إليها. نظرتها ليست خجولة ولا جريئة. إنها واضحة وثابتة. إنها لا تبتسم. إنه يعلم أن أحدهما يجب أن يتحدث، لكن يبدو أنه فقد حصيلته اليومية من الكلمات. لكن لا يهم. ثم أفرجت عن نصف ابتسامة، وهي تقول: "لا يمكنني الانتظار حتى تثلج"

"سأقدم لك أزهار الثلج في كل ذكرى سنوية لليوم الذي التقينا فيه"

"الخامس عشر من مارس" قالت.

"أعلم. أعلم لأنه محفور في قلبي. إذا شقّوني فسيتمكنون من قراءة ذلك التاريخ"

يخيّم صمت آخر. يجلس هناك، مستريحًا على حافة الأريكة، يتوق للتركيز على كلماتها ووجهها والتاريخ المحدد وفكرة أزهار الثلج. لكنهما معًا مدفوعان بالوعي بأن لديه أكبر انتصاب هائل في حياته كلها. إنه ليس التضخم اللائق بفارس نقي القلب، إنه حضور صاخب ولا مفر منه، شيء صاخب، شيء بعيد عن الرذيلة، شيء يرقى إلى تلك الكلمة التي لم ينطق بها بنفسه أبدًا، ولكنها تلحّ في رأسه. الفكرة الأخرى الوحيدة هي ارتياحه أن بنطاله ذو قصّة فضفاضة. يتحرك قليلًا لتخفيف الانقباض، وبقيامه بذلك يقترب منها

عن غير قصد بضع بوصات. يحسبها ملاكًا، تبدو بمظهرها بريئة جدًا، وبشرتها جذابة للغاية، لكنها اعتبرت حركته علامة على أنه يعتزم تقبيلها، وهكذا يدنو وجهها من وجهه بثقة، وكونه نبيلًا لا يمكنه أن يتجاهلها، وبصفته رجلًا لا يمكنه منع نفسه من تقبيلها. يميل برعونة على الأريكة، لأنه ليس زير نساء أو غَوِيًّا بل هو رجل قوي وموقر في منتصف العمر، ويحاول ألا يفكر في شيء عدا الحب والشهامة فيما تصل شفتاها إلى شاربه الذي تسعى تحته لبلوغ فمه بلا خبرة، مازال متماسكًا، لكنه بدأ الآن في الضغط على اليد التي أمسك بها منذ لحظة وصوله، أصبح مدركًا لتسرب كبير وشديد داخل بنطاله. ومن المؤكد أن الآنسة جاين ليكي أساءت فهم ما كشف عنه من تأوّه، كما هو الحال في الأسلوب الذي ينأى بنفسه فجأة بعيدًا عنها كما لو ضربه رمح بين لوحيْ كتفيه.

تحضر صورة في رأس آرثر، صورة من عقود سابقة. ليلًا في ستونيهرست، مع تسيير الراهب اليسوعي لجولة تفقدية بهدوء في عنابر النوم لمنع الهمجية بين الأولاد. نجح الأمر. ما يحتاجه الآن، وطوال الوقت يمكنه التنبؤ به، هو قيامه بجولات تفقد يسوعية. ما حدث للتو في تلك الغرفة يجب ألا يتكرر مرة أخرى. كونه طبيبًا، قد يجدها لحظة ضعف يمكن تفسيرها، وبصفته رجلًا إنجليزيًا نبيلًا، يراها مخزية ومقلقة. إنه لا يعرف من غرّر به أكثر: جاين أو توي أو هو نفسه. الثلاثة مجتمعون إلى حد ما، بالتأكيد. ويجب ألا يحدث ذلك مرة أخرى.

المفاجأة هي التي قضت عليه والفجوة بين الحلم والواقع أيضًا. في الروايات الرومانسية عن الفروسية، يحب الفارس حبًا مستحيلًا -زوجة اللورد، على سبيل المثال- ويقوم بأفعال شجاعة باسمها، شجاعته يقابلها نقاؤها. لكن جاين ليست كائنًا مستحيلًا، وآرثر ليس نبيلًا غامضًا أو فارسًا أعزبًا. بل هو رجل متزوج فُرضت عليه عفّته على مدى السنوات الثلاث الماضية بناء على أوامر الطبيب. إنه يزن خمسة عشر ستونًا - لا، ستة عشر - لائق صحيًا ومفعم بالحيوية، وبالأمس أفرغ ما فيه في ملابسه الداخلية من الكتّان.

لكن الآن بعد أن برزت هذه المعضلة بوضوح كامل وفظاعة، بإمكان آرثر معالجتها. يبدأ دماغه العمل على الجوانب العملية للحب كما عمل مرة على الجوانب العملية للمرض.

يعرف المشكلة - المشكلة! الوجع والفرح المدمّر والعذاب! - على هذا النحو. من المستحيل عليه ألا يحب جاين، وهي ألا تحبه. من المستحيل عليه أن يطلّق توي، أم طفليه، اللذين لا يزالان ينظران إليه بحنان واحترام، إلى جانب ذلك، النذل فقط من يرحل ويهجر إنسانًا مريضًا. أخيرًا، من المستحيل تحويل القضية إلى مؤامرة بجعل جاين عشيقته. كل طرف من الأطراف الثلاثة لديه ما يميزه، حتى لو لم تعرف توي ما يميزها فإنها تعتبر غائبة. لهذا هناك شرط أساسي: يجب ألا تعرف توي.

في المرة القادمة التي يلتقي فيها جاين، سيتولى المسؤولية. يجب أن يفعل ذلك: إنه الرجل الأكبر سنًا، وهي الشابة، ربما المتهورة ولا يسمح بتشويه سمعتها. في البداية تبدو قلقة، كما لو أنه سيخرجها من حياته، لكن عندما يتضح أنه يقوم بتنظيم شروط علاقتهما فقط، فإنها ترتاح. وفي بعض الأحيان يبدو أنها لا تستمع تقريبًا. تشعر بالقلق مرة أخرى عندما يشدد على مدى الحذر الذي يجب أن يكونا عليه.

تتساءل: "لكن هل يُسمح لنا بتبادل القُبل؟"، كأنها تتحقق من شروط العقد الذي وقعته وهي معصوبة العينين سعيدة.

تذيب نبرتها قلبه وتُشوّش دماغه. تأكيدًا للعقد تبادلا القُبل. إنها تفضل بدلاً من ذلك أن تقبّله قبلة سريعة بعينين مفتوحتين، في هجمات حماسية تشبه العصافير. أما هو فيفضل الالتصاق الطويل للشفتين، مع عينين مغمضتين. لا يستطيع أن يصدق أنه يُقبّل شخصًا ما مرة أخرى، ناهيك عنها. يحاول منع نفسه من التفكير بأي شكل يختلف عن تقبيل توي. ومع ذلك بعد حين، يبدأ القلق في التسلل مرة أخرى، ويتراجع.

يلتقيان وحدهما معًا لفترات محدودة، يُسمح لهما بالقُبل، على ألا تأخذهما الحماسة لينغمسا أكثر. وضعهما في غاية الخطورة. لكن مرة أخرى، يبدو أنها نصف مستمعة له فقط.

وتقول: "لقد حان الوقت لترك المنزل. يمكنني مشاركة السكن في شقة مع نساء أخريات. حينئذ قد تأتي لرؤيتي بحرية"

إنها تختلف كليًا عن توي: مباشِرة وصريحة ومنفتحة. لقد عاملته بالمثل منذ البداية. وهي مكافئة له في حبهما بالطبع. لكنه يتحمل مسؤوليتهما ومسؤوليتها. يجب أن

يعي ألا تقودها صراحتها إلى سوء السمعة.

بدأ يتساءل في الأسابيع التالية عما إذا كانت لديها توقعات في أن يجعلها عشيقة له. اللهفة لقبلاتها وخيبة الأمل عند تراجعه. الطريقة التي تضغط بها على نفسها لمقابلته، والشعور الذي تولّد في بعض الأحيان من أنها تعرف بدقة ما الذي يمر به. ومع ذلك فإنه لا يمكنه التفكير في هذا. إنها ليست من ذلك النوع من النساء. إن افتقارها إلى ادعاء الاحتشام هو علامة على أنها تثق به تمامًا، وستثق به حتى لو لم يكن الرجل ذا المبادئ الذي هو عليه.

لكن لا يكفي هذا لحل العقبات الفعلية أمام علاقتهما، إنه في حاجة إلى الموافقة الأخلاقية أيضًا. يركب آرثر قطار ليدز من سانت بانكراس في حالة تخوّف. لا يزال القرار النهائي للأم. تقرأ كل الكلمات التي يكتبها قبل نشرها. وقد فعلت بالمثل في حياته العاطفية. وحدها الأم من يمكنها أن تؤكد أن مسار التصرف الذي يقترحه صحيح.

في ليدز، أقلّه قطار كارنفورث، وغيّر في كلافام إلى انغلتون. وهي تنتظر في المحطة في عربتها التي يجرها مهر وحيد. ترتدي معطفًا أحمر، وقبعة قطنية بيضاء كما اعتادت التأثير في الأعوام الأخيرة. يبدو أن ميلَيْ التنزّه في العربة لا نهاية لهما عند آرثر. تذعن الأم باستمرار لمهرها المُسمى موي غريب الأطوار، مثل رفض تجاوز المحركات البخارية. هذا يعني أنه يجب تجنب أعمال الطرق، وكل نزوة خيليّة هي لامبالاة تزيدها جاذبية. أخيرًا، يصارح آرثر الأم بكل شيء مباشرة داخل منزل ماسونغيل. بكل شيء فورًا. كل شيء، على الأقل ما يهم. كل شيء ضروري لها لإعطائه النصيحة حول هذا الحب العالي والمرسَل من السماء. كل شيء عن التعجب المفاجئ واستحالة حياته المفاجئة. كل شيء عن مشاعره، وإحساسه بالفخر وشعوره بالذنب. كل شيء عن جاين، طبيعتها المباشرة الحلوة، ذكاؤها الحاد واستقامتها. كل شيء. تقريبًا كل شيء.

يتراجع. يبدأ مرة أخرى، يذهب إلى تفاصيل مختلفة. يشدد على أصل جاين، أسكتلنديتها، سلالة مصممة لإغواء أي عالم أنساب هاوٍ. ينحدر أصلها من ماليس دي لاغي في القرن الثالث عشر، وسلالة أخرى من روب روي نفسه (الخارج عن القانون). تعيش حاليًا مع الآباء الأثرياء في بلاكهيث. عائلة ليكي المحترمة والدينية، التي كسبت

أموالها من الشاي. عمرها واحد وعشرون عامًا. صوتها الميزو الرائع، تدربت في درسدن وسرعان ما أصبحت محترفة في فلورنسا. قدرتها العالية كفارسة التي لم يراها بعد. سرعة تعاطفها وصدقها وقوة شخصيتها. ثم مظهرها الشخصي الذي يجعل آرثر في حالة نشوة. جسدها الممشوق، يداها وقدماها الصغيران، وشعرها ذهبي داكن، وعيناها خضراوان عسليتان، ووجهها الطويل بلطف، وبشرتها البيضاء الرقيقة.

"ألديك صورة لها يا آرثر"

"أتمنى لو لدي واحدة. سألتها، لكنها تقول إن صورها رديئة. تحجم عن الابتسام للكاميرا؛ لأنها تخجل من أسنانها. أخبرتني صراحة. تعتبرها كبيرة. بالطبع هي ليست كذلك. إنها كالملاك"

لا تهمل الأم وهي تستمع إلى رواية ابنها، ملاحظة التوازي الغريب الذي تسببت فيه الحياة. تزوجت لأعوام من رجل اختار المجتمع - بأدب - اعتباره غير صالح، سواء أعاده سائقو مركبات الأجرة إلى المنزل أو حبسه تحت ستار الصرع. وجدت الراحة في حضور بريان والر في غيابه وعجزه. في ذلك الوقت، تجرأ ابنها المُتجهم والعدواني على الانتقاد. وفي بعض الأحيان، طعن شرفها بالصمت تقريبًا. والآن اكتشف طفلها المفضل، والأكثر قربًا إلى قلبها، أن تعقيدات الحياة لا تنتهي عند المذبح. قد يقول أحدهم إن هذا هو المكان الذي يبدؤون فيه.

تصغي الأم وتتفهم، بل تتقبل. ما فعله آرثر هو الصواب ومتوائم مع الشرف. وتود أن تتعرف على الآنسة ليكي.

التقيا ووافقت الأم، كما وافقت على عودة توي إلى ساوث سي في أيام. هذا ليس تأييدًا بلا تفكير للابن المنغمس في الملذات. من وجهة نظر الأم، توي سلسة ولطيفة، إنها بالضبط الزوجة المناسبة لطبيب شاب طموح لكنه مرتبك، وفي حاجة إلى تقبل نوع المجتمع الذي من شأنه أن يوفر له المرضى. لكن إذا تزوج آرثر الآن، فسيكون في حاجة إلى امرأة مثل جاين، تتميز بقدرات مختلفة، وذات طبيعة واضحة وصريحة. تُذكّر الأم بنفسها إلى حدٍ ما أحيانًا. تنتبه مع نفسها، أنها أول صديقة حميمة لم يمنحها ابنها لقبًا.

ينتصب هاتف من ماركة غاور-بيل مع مكبر صوت، على شكل شمعدان على طاولة القاعة في أندرشو. لها رقم خاص بها -رمز هندهيد -237 وبفضل اسم وسمعة آرثر، لا تشترك كما يفعل آخرون كثر، في خط الهاتف مع منزل مجاور. ومع ذلك، لم يستخدمه آرثر أبدًا في الاتصال بجاين. لا يستطيع أن يتخيل استخدامه حين يخلو بيت أندرشو من الخدم، والأطفال في المدرسة، وتوي تستريح وورد ينطلق في طريقه، يقف هو في الصالة وظهره مستندًا إلى الدرج بصوته الخفيض: يقف تحت الزجاج المعشّق الذي يحوي أسماء ودروع أسلافه. لا يستطيع أن يتخيل نفسه يفعل ذلك، سيكون برهانًا على المؤامرة، ليس تجاه أي شخص قد يراه في هذا الموقف، بل لنفسه. الهاتف هو الأداة المختارة للزوج الخائن.

لذا يتواصل برسالة ومذكرة وبرقية، كما يتواصل بالكلمة والهدية. انتقلت جاين بعد بضعة أشهر، لتبيّن أن الشقة التي تشغلها لا تحتوي إلا على مساحة محددة فقط، وعلى الرغم من أنها تشاركها مع أصدقاء موثوقين، أصبح الاتصال بصبي التوصيل محرجًا. يُفترض أن النساء اللواتي يحصلن على الكثير من الهدايا من الرجال - أو بصيغة أدقّ، من رجل معيّن - أنهن عشيقات أو على الأقل، عشيقات محتملات. عندما تشير إلى ذلك، يوبّخ آرثر نفسه على أنه أحمق.

تقول جاين: "إلى جانب ذلك. لستُ في حاجة إلى توكيدات. أثق في حبك"

في الذكرى السنوية الأولى للقائهما، أعطاها زهرة ثلج واحدة. تخبره أن هذا يغريها بمزيد من المتعة أكثر من أي كمية من المجوهرات أو الفساتين أو أصص النباتات أو الشوكولاتة باهظة الثمن أو أي شيء يقدمه الرجال للنساء. لديها القليل من الاحتياجات المادية، ويمكن تلبيتها بسهولة عبر مخصصاتها. في الواقع، إن حقيقة عدم تلقي الهدايا هي طريقة للإشارة إلى أن علاقتهما تختلف عن الترتيبات الرتيبة للآخرين في العالم.

ولكن هناك مسألة الخاتم. يريدها آرثر أن تضع شيئًا، مهما كان غير ظاهر، في إصبعها -لا يهم أي شيء- لإرسال رسالة سرية عندما يمضيان الوقت بصحبة بعضهما. لا تحبذ جاين هذه الفكرة. يقدم الرجال الخاتم لثلاث فئات من النساء: زوجة أو عشيقة أو خطيبة. إنها ليست أي واحدة منهن، ولن ترتدي مثل هذا الخاتم. لن تكون أبدًا عشيقة. ولدى آرثر بالفعل زوجة. ولا يمكنها أن تكون خطيبته. أن تصبح خطيبته يعني أنها تقول:

أنتظر أن تموت زوجته. عرفت مثل هذه الاتفاقات بين الأزواج، لكن هذا لا يجب أن يحدث بينهما. حبهما مختلف. ليس له ماض ولا مستقبل يمكن التفكير فيه. لديه الحاضر فقط. يقول آرثر إنها في ذهنه زوجته الروحية. توافق جاين، لكنها تقول إن الزوجات الروحانيات لا يضعن خواتم.

بطبيعة الحال، فإن الأم هي من تتولى حل المسألة. تدعو جاين إلى انغلتون، مقترحة أن يحضر آرثر في اليوم التالي. مساء وصول جاين، تخطر للأم فكرة مفاجئة. تسحب من إصبع يدها اليسرى الصغير خاتمًا صغيرًا، وتضعه في نفس إصبع يد جاين. إنه ياقوت أصفر مصقول يرجع إلى خالة الأم الكبرى.

تنظر جاين إليه، وتُدوّره في يدها، وتنزعه على الفور. "لا يمكنني قبول المجوهرات التي تعود ملكيتها لعائلتك"

"خالتي أهدته لي؛ لأنها اعتقدت أنه يناسب ذائقتي. وبالفعل راق لي، لكنه لم يعد كذلك. إنه يلائمك أنت أكثر. وأنا أفكر بك كجزء من العائلة. فعلت ذلك منذ اليوم الأول الذي التقيتك فيه"

لا يمكن لجاين أن تصد الأم إلا قليلًا. عندما يصل آرثر، يبطئ كثيرًا في الانتباه للخاتم. وأخيرًا، يشار إليه. حتى في ذلك الوقت يخفي المتعة التي يشعر بها، معلقًا أنه ليس واسعًا جدًا، ويعطي النساء فرصة للضحك عليه. الآن لا تضع جاين خاتم آرثر بل خاتم دويل، وهذا جيد أيضًا. ربما أفضل. يتخيل أنه يراه قبالته على قماش مائدة طعام مزدحمة وعلى مفاتيح بيانو، وعلى ذراع المقاعد الأمامية لمسرح ما وعلى رسن حصان. يعتبره رمزًا لما يربطها به. إنها زوجته الروحية.

يُسمح للرجل النبيل بنوعين من الأكاذيب البيضاء: من أجل حماية امرأة، ومن أجل الدخول في معركة غايتها نصرة الحق. الأكاذيب البيضاء التي يخبرها آرثر لتوي هي أكثر بكثير مما تصور. في البداية، افترض أنه بطريقة ما بين صخب نشاطات أيامه وأسابيعه ومشاريعه وحماسه ورياضاته ورحلاته، لن تنشأ الحاجة إلى اختلاق الأكاذيب. ستختفي جاين في فراغات المواعيد. لكن بما أنها لا يمكن أن تختفي من قلبه، فلا يمكنها أن تختفي بالقدر نفسه من عقله وضميره. لذا تجد أن كل لقاء وخطة وملحوظة ورسالة

مرسلة، وكل تفكيره بها محاط بأكاذيب من نوع ما. غالبًا ما تكون أكاذيب إهمال، رغم أنها أحيانًا، بالضرورة أكاذيب تكليف تقع على أي حال على كل منهما. وتوي تثق تمامًا فهي تقبل، كما تقبل دائمًا، تغييرات آرثر المفاجئة في الخطة، دوافعه، قراراته بالبقاء أو الذهاب. يدرك آرثر أنها لا تشك في أمره، وهذا ما يثير أعصابه أكثر. لا يستطيع أن يتخيل كيف يمكن للخونة العيش مع ضمائرهم. كيف يجب أن يكونوا بدائيين أخلاقيًا لمجرد الحفاظ على الكذب الضروري.

لكن إلى جانب الصعوبات العملية، والمأزق الأخلاقي والإحباط الجنسي، هناك شيء أكثر قتامة، وشيء يصعب مواجهته مباشرة. كانت اللحظات الرئيسة في حياة آرثر مظللة بالموت دائمًا، وهذه لحظة أخرى. الحب المفاجئ والرائع الذي وُلد لا يمكن تحقيقه والاعتراف به للعالم إلا إذا توفيت توي. ستموت. يعرف ذلك، وكذلك جاين؛ يطالب السّل دائمًا بضحاياه. لكن عزْم آرثر على محاربة الشيطان أدى إلى وقف إطلاق النار. حالة توي مستقرة؛ لم تعد في حاجة إلى تغيير جو في دافوس. تعيش برضا في هيندهيد، ممتنة لما لديها، ويتضح هذا بتفاؤل مصابي السل اللطيف. لا يمكن أن يتمنى لها الموت. وبالمثل، لا يمكنه أن يتمنى استمرار موقف جاين المستحيل إلى ما لا نهاية. إذا آمن في إحدى الديانات الراسخة، لكان بلا شك سيضع كل شيء في يد الرّب؛ لكنه لا يستطيع القيام بذلك. يجب أن تستمر توي في تلقي أفضل رعاية طبية وأقوى دعم منزلي حتى تستمر معاناة جاين لأطول فترة ممكنة. إذا قام بأي فعل، فإنه ظالم. إذا أخبر توي، فإنه ظالم. إذا انقطع عن جاين، فإنه ظالم. إذا جعلها عشيقته، فإنه ظالم. إذا لم يفعل شيء، فإنه مجرد ظالم سلبي منافق يتمسك عبثًا بأكبر قدر ممكن من الشرف.

ومع ذلك، رويدًا رويدًا وبسرّية، يتم الاعتراف بالعلاقة. قُدمت جاين إلى لوتي. كما تعرّف آرثر على والديْ جاين، الذين قدّما له دبوسًا مرصّعًا بالماس واللؤلؤ في عيد الميلاد. حتى أن جاين تعرفت على والدة توي، السيدة هوكينز، التي تتقبل العلاقة. أُطلع كلًا من كوني وهورننغ أيضًا، على الرغم من أنهما في الوقت الحاضر يوليان اهتمامهما الكبير للزواج ولابنهما أوسكار آرثر وللحياة في كنسينغتون ويست. يقدم آرثر توكيدات للجميع بأنه سيحمي توي بأي ثمن من معرفة الحقيقة والوجع والخزي.

تصريحات رفيعة المستوى وواقع يومي، هذا ما كان. على الرغم من موافقة العائلة، فإن كلًا من آرثر وجاين عرضة لنوبات تنخفض فيها المعنويات. تصبح جاين عرضة للصداع النصفي أيضًا. يشعر كل منهما بالذنب لجرّه الآخر إلى وضع مستحيل. ربما الشرف ثمين كالفضيلة، لكنه في بعض الأحيان لا يكفي. على الأقل، يمكن لليأس الذي يبثه أن يصبح حادًا مثل أي تعظيم. يصف آرثر لنفسه مجموعة أعمال المؤرخ والكاتب الفرنسي رينان كعلاج. إنها قراءة صعبة، ومع الكثير من لعبة الغولف والكريكت، ستدفع الرجل للشعور بالهدوء، وتحفظ جسده وعقله.

لكن هذه العلاجات فحسب يمكن أن تفعل الكثير. يمكنك سحق لاعبي الجانب الآخر في جميع الأشواط، ثم ضرب ضلوع رماة الكرة، ويمكنك أن تأخذ مضرب غولف، وتُعاقِب كرة الغولف بإرسالها إلى أبعد مسافة. لا يمكنك استبعاد الأفكار إلى الأبد، الأفكار والمفارقات الطاردة ذاتها دائمًا. رجل نشط محكوم عليه بالخمول. والحب محرّم على العُشّاق، والموت تخشاه وتخجل من أن يبدأ.

يسير موسم الكريكت مع آرثر كما يجب، تحققت النتائج من الويكيت المرسلة إلى الأم بفخر الأبناء. في المقابل، تستمر في منحه مزايا آرائها: حول قضية دريفوس، وعن التنمر الكهنوتي، والتعصب في الفاتيكان، وعن الموقف البغيض تجاه فرنسا من تلك الورقة الكئيبة صحيفة ديلي ميل. ذات يوم، يلعب آرثر في ملعب لورد الدولي للكريكت مع نادي مرليبون للكريكت. دعا جاين لمشاهدته، ويعلم عندما يخرج لضرب الكرة، أنها ستجلس في مقاعد جمهور الفئة "أ". إنه أحد تلك الأيام التي لا يخفي فيها الرماة أسرارًا عنه، مضربه منيع، ونادرًا ما يترك أثرًا، وهو يضرب الكرة ويوجهها حول الملعب. يرفعها مرة أو مرتين مباشرة إلى الجمهور، ولديه الوقت للتأكد مسبقًا من عدم وجود خطر السقوط بالقرب منه مثل قذيفة. ينادي باسم سيدته. كان يجب أن يطلب تأييدها في أن تعتمر قبعته.

يأتي للبحث عنها بين الجولات. لا يحتاج إلى كلمات المديح، يرى الفخر في عينيها. إنها تحتاج إلى المشي قليلًا بعد الجلوس على مقعد مضلّع لفترة طويلة. يدوران حول الملعب وخلف المدرجات، وتنبعث رائحة البيرة الخفيفة في الهواء الحار. يشعران بين الحشود الخاملة والمجهولة كأنهما بمفردهما معًا أكثر منهما تحت أعين رفقة ودية على

مائدة العشاء. يتحدثان كما لو أنهما قد التقيا للتو. يقول آرثر كيف تمنى لو أمكنه أن يتلقى تأييدها في أن تعتمر قبعته. تنفلت -تتحرر- ذراعها من ذراعه، وهما يمشيان بصمت في سعادة بالغة.

"مرحبًا، هناك ويلي وكوني"

يتجهان صوبهما، أحدهما يتأبّط ذراع الآخر. لا بد أنهما تركا أوسكار الصغير مع مربيته في كنسينغتون. يشعر آرثر الآن بفخر أكبر بأدائه مع المضرب. ثم يدرك شيئًا. لا يبطئ ويلي وكوني من وتيرتهما، بدأت كوني تنظر بعيدًا، كما لو أن الجزء الخلفي من المقصورة أصبح شيئًا ذا أهمية يتعذر اختزاله. لا يبدو أن ويلي ينكر وجودهما، لكن مع مرور المُتحابّين، يرفع حاجبًا على صهره وعلى جاين، وعلى ذراعيهما المتعانقين.

أصبح لعب آرثر للبولينغ أسرع وأكثر جموحًا من المعتاد بعد تغيير الأدوار. إنه يأخذ دورة ويكيت واحدة فقط، وذلك بفضل تمريرة شديدة الأنانية في إحدى القفزات الطويلة. عندما يُرسل إلى الملعب بعيدًا، يستمر في البحث عن جاين، لكن لا بد أنها تحركت. لا يمكنه تحديد مكان ويلي وكوني أيضًا. تسببت رميته في المزيد من القلق غير المعتاد لحارس الويكيت، وجعلته يعدو في جميع الاتجاهات.

بعد ذلك، بدا من الواضح أن جاين قد غادرت. إنه الآن في حالة غضب عارم. يرغب في أن يستقل سيارة أجرة مباشرة إلى شقة جاين، ويسارع بها إلى الرصيف، ويعانقها، ويمشيان إلى جانب قصر باكنغهام، وكنيسة وستمنستر ومجلس العموم البريطاني. وهو لا يزال في ملابس الكريكت. ويصيح قائلاً: "أنا آرثر كونان دويل، وأنا فخور بحب هذه المرأة جاين ليكي" إنه يتخيل المشهد. يتوقف عن فعل ذلك، ويعتقد أنه يتصرف بجنون.

يهمد الغيظ والجنون، تاركًا له غضبًا عنيدًا مستمرًا. بينما يأخذ دشًا ويبدّل ملابسه، يشتم في نفسه ويلي هورننغ. كيف يجرؤ ذاك الرامي المصاب بالربو قصير النظر، الذي يعمل بدوام جزئي على رفع حاجبه الكثيف عليه وعلى جاين. هورننغ الصحفي، كاتب قصص المناطق النائية في أستراليا. لم يسمع به أحد حتى سرق – بعد أن أخذ الإذن - فكرة هولمز وواتسون، قلبها رأسًا على عقب وجعلهما زوجًا من المجرمين. أذِن له آرثر فعل ذلك. حتى أنه قدم اسم ما يسمى بطله رافلز، كما هو الحال في روايته أفعال رافلز هاو. كما سمح

بتخصيص الكتاب الملعون له. "إلى آيه سي دي، هذا شكل من الإطراء".

منحه ما هو أكثر من أفضل أفكاره، قدّم له زوجته. حرفيًا: سار بها على الممشى وسلمها له. أعطاهما إذنًا للبدء. حسنًا، أعطى مصروفًا لكوني، لكن ويلي هورننغ لم يقل إنها وصمة عار على شرفه كرجل قبِل هذه المساعدة، ولم يقل إنه سيخرج ويعمل بجد ليحافظ على زوجته الشابة، لا، لا شيء من ذلك. وهو يعتقد أن ذلك يمنحه الحق في رفع حاجبه مُتزمّتًا.

يستقل آرثر سيارة أجرة مباشرة من لورد إلى كنسينغتون ويست. رقم تسعة، شارع بيت. يبدأ غضبه في الانحسار عندما يعبر طريق هارو. يمكنه أن يسمع في رأسه جاين تخبره أنه ذنبها، هي التي دسّت ذراعها في ذراعه. إنه يعرف تمامًا نبرة اللوم الذاتي التي ستستخدمها، وكيف سيقودها على الأرجح إلى الصداع النصفي البائس. يُحدِّث نفسه أن كل ما يهم، هو الحد من معاناتها. تتطلب كل غرائزه، ورجولته أن يكسر باب هورننغ، ويجره إلى الرصيف، ويضربه على رأسه بمضرب كريكت. ومع ذلك، في الوقت الذي تقترب فيه سيارة الأجرة، يعرف كيف يتصرف.

إنه هادئ تمامًا كما يقر ويلي هورننغ. يقول: "لقد جئت لرؤية كونستانس". هورننغ عاقل على الأقل بما يكفي لعدم الدخول في أي عنف مجنون، أو الإصرار على تقديم نفسه. يصعد آرثر إلى غرفة جلوس كوني. يشرح لها بعبارات مباشرة، كما لم يفعل -لم يكن بحاجة للقيام بذلك- من قبل، حول ما يستلزمه مرض توي. عن حبه المفاجئ والمطلق لجاين. حول كيف سيظل هذا الحب عذريًا. ومع ذلك، كيف ملأت جزءًا كبيرًا من حياته، ظل شاغرًا لفترة طويلة. وعما يعانيه كلاهما من الإجهاد والاكتئاب بصورة متقطعة. حول كيفية رؤية كوني لهما معًا، والتي توضح أنهما في حالة حب؛ لأنهما تخليا عن حذرهما، وكيف يكون عذابًا ألا يكونا قادرين أبدًا على إظهار حبهما أمام الآخرين. وكيف يجب أن تقاس وتُقنّن كل ابتسامة، وكل ضحكة، وكل رفقة تُمتحن. كيف لا يعتقد آرثر أنه يستطيع البقاء على قيد الحياة، إذا لم تدرك عائلته - العزيزة عليه كما يعزّ العالم عليه - محنته وقدمت دعمها له.

إنه سيلعب في لورد مرة أخرى غدًا، ولا يطلب بل يتوسل كوني المجيء، وهذه المرة

سيلتقي جاين على نحو ملائم. إنها الطريقة الوحيدة. ما حدث اليوم يجب أن ينحّى جانبًا، ويُرمى خلفه دفعة واحدة، وإلا فإن الأمر سيتفاقم. ستحضرين غدًا، وتتناولين الغداء مع جاين، وتتعرفين عليها بأسلوب أفضل. أليس كذلك؟

توافق كوني. يقول ويلي، كما سمح له بالخروج: "آرثر، أنا مستعد لدعم تعاطيك مع أي امرأة في الأفق وبلا نقاش". يشعر آرثر في سيارة الأجرة، كما لو أنه تفادى شيئًا رهيبًا للتو. إنه مرهق للغاية، ومصاب بالدوار قليلاً. يعلم أنه يمكنه الاعتماد على كوني، كجميع أفراد عائلته. وهو يشعر بالخجل بعض الشيء مما ضبط نفسه يفكر فيه عن ويلي هورننغ. مزاجه اللعين لا يتحسن. يُنسب لكونه نصف إيرلندي. أما نصفه الأسكتلندي لديه وظيفة شيطان له اليد العليا.

لا، ويلي شخص جيد، وسيدعمه بلا شك. يمتلك ويلي دماغًا جيدًا وحاذقًا، وهو حارس ويكيت لطيف جدًا. قد لا يحب الغولف، ولكن على الأقل يعطي أفضل سبب سمع به آرثر حتى الآن لمثل هذا التحيز: "أعتقد أن ضرب كرة ثابتة على الأرض ليست رياضة" كان ذلك جيدًا، حتى تلك المتعلقة بخطأ العدّاء. وحسب تقدير ويلي لصهره المحقق المستشار، فإن آرثر معروف على نطاق واسع: "على الرغم من أنه قد يبدو أكثر تواضعًا، لا يوجد رجال شرطة مثل هولمز" لا يوجد رجال شرطة مثل هولمز! يرمي آرثر نفسه على المقعد في ذكرى الراحل.

في صباح اليوم التالي، وصلته برقية فيما يستعد للمغادرة إلى لورد. يجب أن تعفي كونستانس هورننغ نفسها من المشاركة في دعوة الغداء اليوم؛ لأنها تعاني من وجع الأسنان، ومضطرة للذهاب إلى طبيب الأسنان.

يرسل ملحوظة إلى جاين، واعتذاراته إلى لورد - "شأن عائلي عاجل" ليس تعبيرًا لطيفًا هذه المرة - ويستقل سيارة أجرة إلى شارع بيت. سينتظرونه. إنهم يعرفون أنه ليس الرجل المناسب للتآمر أو الصمت اللبق. إنك تنظر لشخص في عينيه، وتقول الحقيقة، وتتحمل العواقب: هذه هي عقيدة دويل. سمح للنساء بقواعد مختلفة، بالطبع، أو بالأحرى يبدو أن النساء قد طوّرن مبادئ مختلفة لأنفسهن بغض النظر عن ذلك، لكن حتى مع هذا، لا يظن أن كثيرًا من علاجات الأسنان الطارئة عذر مقبول. إنها شفافية عالية تثير غضب

آرثر. قد تعرف هذا. ربما اختلقته كأبسط توبيخ، مثل هذا الذي قلب رأسها. حسب تقدير كوني، فإنها لا تراوغ أكثر منه.

إنه يدرك أن عليه أن يحافظ على أعصابه. ما يهم أولاً هي جاين، ثم وحدة الأسرة. يتساءل عما إذا غيّرت كوني رأي هورننغ، أو هورننغ هو من أثّر على كوني. "أنا على استعداد لدعم تعاطيك مع أي امرأة تراها مناسبة ودون سؤال"، لا شيء يدعو للريبة. ولكن لم يكن هناك أي شيء عن فهم كوني الواضح لوضعه. إنه مسبقًا، يبحث عن أسباب. ربما أصبحت كوني امرأة متزوجة محترمة بسرعة أكبر مما حسب. ربما شعرت بالغيرة من أن لوتي هي أخته المفضلة على الدوام. أما بالنسبة إلى هورننغ: لا شك أنه يحسد صهره على شهرته. أو ربما دار في رأسه نجاح رافلز. شيء ما أثار هذا الكشف المفاجئ للاستقلال والتمرد. حسنًا، سيكتشف آرثر قريبًا.

يقول هورننغ وهو يفتح الباب: "كوني في الطابق العلوي، تستريح" عادي بما يكفي. لذا سيتحدثان رجلاً لرجل، وهو ما يفضله آرثر.

يشترك كلٌّ من ويلي هورننغ الصغير وآرثر في الطول نفسه، وهي حقيقة يغفل عنها أحيانًا. وهورننغ في منزله يختلف عن هورننغ الذي يعمل على استثارة غضب آرثر، ويختلف أيضًا عن المُداهِن، والساعي لرضى ويلي الذي اندفع عبر ملعب التنس في ويست نوروود، وجلب ملحوظات ظريفة إلى الطاولة من باب التملّق. يشير إلى كرسي بذراعين من الجلد في الصالون الأمامي، وينتظر حتى يجلس آرثر، إلا أنه يظل واقفًا. عندما همّ بالتحدث، بدأ في التبختر في كافة أرجاء الغرفة. إنه مثير للأعصاب بلا شك، وله تأثير محامي الادعاء في التباهي أمام هيئة محلفين غير موجودة.

"آرثر، هذا لن يكون سهلاً. أخبرتني كوني ما قلته لها الليلة الماضية، وقد ناقشنا الأمر"

"وغيرتَ رأيك. أو أنك غيرتَ رأيها. أو أنها مسؤولة منك. قلت أمس أنك ستدعمني دون سؤال"

"أعرف ما قلته. ولا يتعلق الأمر بتغيير رأي كوني أو تغيير رأيي. لقد ناقشنا ذلك، واتفقنا"

"أهنئك"

"آرثر، دعني أوضح الأمر على هذا النحو. بالأمس تحدثنا معك بقلوبنا. أنت تعرف كم تحبك كوني، كما هي دائمًا، وتعرف إعجابي الكبير بك، ومدى فخري بأن أقول إن آرثر كونان دويل هو صهري. لهذا السبب ذهبنا إلى لورد البارحة، لمشاهدتك بكل فخر ودعمك"

"وهو ما قررت عدم القيام به بعد الآن"

"لكننا اليوم نفكر ونتحدث بعقولنا"

"وما الذي أخبركما به عقليكما؟" يكبح آرثر غضبه مرة أخرى إلى مجرد السخرية. إنه أفضل ما يستطيع فعله. يشغل أربع مربعات على كرسي، ويراقب ويلي يتحنجل، ويراوغ في حين هو يتحنجل ويسوق حجته.

"عقولنا -عقلانا- تخبرنا ما تراه أعيننا وتمليه على ضمائرنا. سلوكك... مشبوه"

"لمن؟"

"لعائلتك. لزوجتك. لـ. . . رفيقتك. لنفسك"

"ولا ترغب في أن تضيف نادي مرليبون للكريكت أيضًا؟ وقرّاء كتبي؟ وموظفي شركة متجر غاماجز؟"

"آرثر، إذا لم تتمكن من رؤية الأمر على حقيقته، فيجب أن يرشدك الآخرون"

"وهو ما يبدو أنك تستلذّ به. اعتقدت أني اكتسبت مجرد صهر. لم أكن أدرك أن العائلة اكتسبت ضميرًا. لم أعلم أننا في حاجة إلى واحد. يجب أن تُحضِر لنفسك رداء كاهن"

"لا حاجة لرداء كاهن، كي تخبرني أنك إن تجولت هنا في لورد مع ابتسامة على وجهك، وامرأة ليست زوجتك تتأبط ذراعك، فأنت تتنازل عن تلك الزوجة، وسلوكك ينعكس على عائلتك"

"ستبقى توي بمنأىً عن الألم والعار دائمًا. هذا هو مبدئي الأول، وسأحافظ عليه"

"من شاهدك بالأمس بعيدًا عنا؟ ما الذي قد يستنتجه أيضًا؟"

"وما الذي استنتجته أنت وكونستانس؟"

"أنك أرعن، وسمعة المرأة التي تتأبط ذراعك ليست جيدة. أنك ضحّيت بزوجتك وعائلتك"

"أنت خبير العائلة الواصل للتو بمحض الصدفة، "جاء جوني الآن وصار له بيننا مكان""

"ربما لأنني أمتلك رؤية ثاقبة"

"ربما لأنك أقل ولاءً. هورننغ، أنا لا أدعي أن الوضع ليس صعبًا، بل إنه أشبه بالمستحيل. لا أنكر ذلك. وفي بعض الأحيان لا يُحتمل. لستُ بحاجة لتكرار ما قلته لكوني أمس. نبذل قصارى جهودنا، كلانا، جاين وأنا. ارتباطنا لاقى القبول، وقد باركته الأم ووالديْ جاين ووالدة توي وأخي وأخواتي. وحتى الأمس، من قِبلك. متى فشلتُ في الانتماء لأي فرد من أفراد عائلتي؟ ومتى لجأتُ لأي منهم من قبل؟"

"وإذا سمعت زوجتك بموقف الأمس؟"

"لن تعلم. لا يمكن"

"آرثر. النميمة حاضرة دائمًا، والكثير من ثرثرة الخادمات والخدم. يكتب الناس رسائل مجهولة. يلقي الصحفيون تلميحات في الصحف"

"إذن سأقاضيهم. أو على الأرجح، سأوسعهم ضربًا"

"وهو ما سيكون تصرفًا طائشًا آخر. إلى جانب ذلك، لا يمكنك أن توسع رسالة مجهولة ضربًا"

"هورننغ، هذا الحوار عقيم. من الواضح أنك تضع نفسك في مرتبة أعلى شرفًا مني. في حال أصبح منصب رب الأسرة شاغرًا، سأنظر في طلبك"

"من سيحرس الحراس[50] يا آرثر؟ ومن يخبر رب الأسرة أنه مخطئ؟"

"هورننغ، للمرة الأخيرة. سأوضح الأمر بصراحة. أنا رجل شريف. اسمي واسم العائلة يعنيان كل شيء لي. جاين ليكي امرأة في غاية الشرف والعفة. العلاقة مثالية. وستظل كذلك دائمًا. سأبقى زوج توي، وأتعامل معها بشرف، إلى أن يُغلَق غطاء التابوت فوق أحدنا أو

---

50 (Quis custodiet) عبارة لاتينية وجدت في أعمال الشاعر الروماني جوفينال من تهكمه. تُترجم حرفيًا على أنها "من سيحرس الحراس؟"، على الرغم من أنها معروفة أيضًا من خلال ترجمات مختلفة، مثل "من يشاهد المراقبين".

الآخر"

دأب آرثر على الإدلاء بتصريحات حاسمة تنهي النقاشات. يعتقد أنه قام بعمل آخر، لكن هورننغ لا يزال يجر قدميه مثل ضارب الكرة عند خط ملعب الكريكت.

أجاب: "يبدو لي أنك تعلق أهمية كبيرة على ما إذا كانت هذه العلاقات أفلاطونية أم لا. لا أستطيع أن أرى أنه يحدث فرقًا كبيرًا. ما الفرق؟"

يقف آرثر، ويزمجر قائلاً: "ما الفرق؟". لا يحفل إذا كانت أخته تستريح، وما إذا أوسكار آرثر الصغير يأخذ قيلولة، وما إذا استرقت الخادمة السمع على الباب. "إنه كل الفرق الذي في العالم! إنه الفرق بين البراءة والذنب، هذا ما هو عليه"

"أختلف معك آرثر. ما تعتقده وما يفكر فيه العالم. ما تؤمن به وما يؤمن به العالم. ما تعرفه وما يعرفه العالم. الشرف ليس فقط مسألة شعور جيد داخلي، لكنه سلوك خارجي أيضًا"

يصرخ آرثر: "لن أستمع لمحاضرة في موضوع الشرف. لن أفعل. لن أفعل. لا سيما من رجل يكتب عن لص كبطل"

ينتزع قبعته من المشجب، ويحشر رأسه فيها وصولاً إلى أذنيه. حسنًا، هذا ما يقرره، هذا هو. العالم إما معك أو ضدك. ويجعل الأمر أكثر وضوحًا، على الأقل، لنرى كيف يذهب محامي الادعاء السابق إلى عمله.

على الرغم من هذا الرفض -أو ربما لإثبات سوء فهمه- يبدأ آرثر في تقديم جاين إلى الحياة الاجتماعية في أندرشو بحذر شديد. وقد تعرف في لندن على عائلة ليكي الفاتنة، التي تمتلك بيتًا ريفيًا في كروبورو. مالكوم ليكي الابن، شخص رائع له أخت تسمى... ما اسمها الآن؟ وهكذا يظهر اسم جاين في سجل زوار أندرشو، إلى جانب أخيها أو أحد والديها دائمًا. لا يمكن أن يدّعي آرثر أنه مرتاح تمامًا عند نطق عبارات مثل، "قال مالكوم ليكي أنه قد يذهب بسيارته مع شقيقته"، لكنها عبارة يجب أن تُلفظ كي لا يفقد عقله. وفي هذه المناسبات - حفل غداء كبير، وبعد ظهر اليوم للتنس - لم يكن متأكدًا تمامًا من أن سلوكه طبيعيًا. هل بالغ في الحرص على توي، وهل لاحظت؟ هل أصاب فعلاً مع جاين، وهل

شعرت بالمهانة؟ لكن المشكلة هي أن يأخذه بعين الاعتبار. لم تذكر توي أبدًا أنها عثرت على أي خطأ. وتتصرف جاين - باركها الرّب - بسلاسة ولباقة مما يطمئنه أنه لن يحدث أي خطأ. لم تسع له سرًا أبدًا، ولم تدس رسالة عشق في يده إطلاقًا. في بعض الأحيان، يعتقد أنها تقدم عرضًا لمغازلته فعلاً. ولكن عندما يفكر في ذلك بعدئذ، يتوصل إلى أنها تتصرف عمدًا كما كانت ستفعل إذا عرفا بعضهما ليس أفضل مما عملا على التظاهر به. ولعل أفضل طريقة لتثبت للزوجة أنه ليس لديك مخططات تجاه زوجها هي أن تغازله أمامها. إذا كان الأمر كذلك، فهذا تفكير ذكي لافت.

أمكنهما مرتين في العام، الفرار إلى ماسونغيل معًا. يصلان ويغادران في قطارات منفصلة، مثل ضيوف عطلة نهاية الأسبوع الذين حدث أن تزامنت مع حضورهم. بينما يقيم آرثر في منزل والدته الريفي، استقرت جاين مع السيد والسيدة ديني في مزرعة بار بانك. تعشّوا يوم السبت في منزل ماسونغيل. ترأست الأم طاولة والر، كما فعلت دائمًا، ويفترض دائمًا أن تفعل.

باستثناء ذلك، لم تعد الأشياء بسيطة كما هو معتاد حين جاءت الأم إلى هنا لأول مرة... ولا يعني هذا أنها اتسمت بالبساطة في ذلك الوقت. لقد تمكن والر من أن يتزوج بطريقة أو بأخرى. قدِمت الآنسة آدا أندرسون، ابنة رجل دين من بلدة سان أندروز، إلى بيت كاهن ثورنتون كمربية، وبالتالي، تأكدت النميمة في القرية، وعلى الفور وضعت عينها على سيد منزل ماسونغيل. نجحت في الزواج من الرجل، لتجد -وهنا أصبحت النميمة أخلاقية- أنها لا تستطيع تغييره. لم يكن للزوج الجديد أي نية في السماح لمجرد الزواج بتغيير طريقة الحياة التي أسسها. على وجه التحديد: واظب على زيارة الأم كما اعتاد أن يفعل، والجلوس معها على طاولة العشاء وجهًا لوجه. هناك جرس خاص مثبت في الباب الخلفي لمنزلها الريفي خصصته له، إذ يُسمح له بِقرعه فقط. لم يكلل زواج والر بالإنجاب.

لم تطأ السيدة والر منزل ماسونغيل الريفي، وبدورها تغيبت عند حضور الأم لتتعشّى في البيت. إذا رغب والر في أن تتزعم تلك المرأة فليكن، لكن سلطتها على الطاولة لن تعترف بها سيدة المنزل. انشغلت السيدة والر انشغالاً متزايدًا مع قططها السيامية، وحديقة الورود المعروضة بدقة في ساحة العرض أو قطعة أرض للخضروات. أظهرت نفسها خجولة

ومتحفظة، خلال لقاء قصير مع آرثر: حقيقة أنه جاء من إدنبرة وهي من سان أندروز لم يتوفر سبب للألفة، حسب ما ترى.

وهكذا، فإن الأربعة منهم -والر والأم وآرثر وجاين- يجلسون حول مائدة العشاء معًا. قُدّم الطعام وأُخذ بعيدًا، والكؤوس تلمع على ضوء الشموع، وحديث عن الكتب، ويتصرف الجميع كما لو أن والر مازال عازبًا. من وقت لآخر، تلتقط عين آرثر ظلًا لامرأة خبيثة ينزلق على طول الجدار ويبتعد واضعًا حدًّا للنحيب. يشق طريقه عبر الظلال المرسومة المتعرجة، مثل ذكرى زوجة اختارت أن تغيب سرًا. هل لكل زواج سرّه الخاص؟ ألا يوجد أي شيء مباشر في صميم كل هذا؟

ومع ذلك، سلّم آرثر منذ فترة طويلة أنه يجب أن يحتمل والر. وبما أنه لا يمكنه المكوث إلى جانب جاين طوال الوقت، فهو راضٍ عن لعب الغولف مع والر. بالنسبة لنوع الأشخاص قصيري القامة ومجتمع المثقفين الذي ينتمي له، فإن سيد منزل ماسونغيل يمتلك لعبة أنيقة بما يكفي. إنه يفتقر إلى المسافة بالطبع، لكن يجب الاعتراف أنه أكثر تنظيمًا من آرثر، ولا يزال يميل إلى إرسال الكرة في اتجاهات غير متوقعة. بعيدًا عن لعبة الغولف، هناك إطلاق نار لطيف في غابات والر... على طيور الحجل والطيهوج والغراب. وينطلق الرجلان أيضًا للبحث معًا. مقابل خمس شلنات، سيصل صبي الجزار مع ثلاثة من بنات مقرض. يعمل عليها طوال الصباح بما يرضي والر، ويجمع مكونات العديد من فطائر الأرانب[51].

ولكنه يكسب بحكم الواجب من هذا المسعى ساعات... ساعات وحده مع جاين. يأخذان عربة الأم ويقودانها إلى القرى المجاورة، يستكشفان سلاسل المناطق الجبلية والتلال والوديان المفاجئة شمال انغلتون. على الرغم من أن عودة آرثر هنا ليست معقدة أبدًا -فإن عار الخطف والخيانة سيستمر دائمًا- إلا أن يأتيه دور المرشد السياحي بصورة طبيعية وكاملة. استعرض مع جاين نهر تويس وشلالات بيكا، ومضيق شلالات دوي وبيزلي. يتأمل جاين بهدوء على جسر يرتفع ستين قدمًا فوق ممر يو تري. يتسلقان جبل إنجليبورو معًا، ولا يمكنه أن يمنع نفسه من الشعور بمدى روعة وجود امرأة شابة تتمتع بصحة جيدة

---

51 Rabbit Pie عبارة عن فطيرة تتكون من لحم الأرانب في مرق مع مكونات أخرى (عادةً البصل والكرفس والجزر) . فطيرة الأرنب هي جزء من المطبخ الأمريكي والإنجليزي التقليدي.

إلى جانبه. إنه لا يقوم بأي مقارنة، ولا يعترض أحدًا، ويشعر بالامتنان فقط؛ لأنهما ليسا مضطرين إلى التوقف لأخذ استراحة محبطة باستمرار. يلعب دور عالم آثار على القمة، ويشير إلى بقايا معقل بريغانتيان ثم عالِم تضاريس (طوبوغرافي) في الوقت الذي ينظران غربًا نحو موريكامب، وقناة سانت جورج وجزيرة مان، وفيما تظهر إلى الشمال الغربي جبال لايك وسلاسل جبال كمبريا تتبدى بِرويّة.

حتمًا، هناك قيود وحرج. ربما هما بعيدان عن المنزل، لكن لا يمكن التخلي عن السلوك اللائق. حتى هنا آرثر شخصية معروفة، في حين أن الأم لها مكانتها في المجتمع المحلي. لذا يلزم أحيانًا إلقاء نظرة سريعة لكبح نزعة معينة نحو الصراحة، والقدرة على التعبير من طرف جاين. وعلى الرغم من أن آرثر أكثر حرية في التعبير عن حبه الكبير، إلا أنه يتعذّر عليه أن يشعر كعاشق دائمًا... مثل رجل اختُرِع حديثًا. ذات يوم وهما يقودان عبر ثورنتون، وذراع جاين مطمئنة في ذراعه، والشمس تتوسط السماء، مع إمكانية أنهما معًا بعد الظهر، عندما تقول:

"يا لها من كنيسة جميلة يا آرثر. توقف، دعنا نذهب"

يتصرف كأصم للحظة، ثم يرد ردًّا صارمًا إلى حد ما، " إنها ليست جميلة. البرج هو الأصيل فقط. معظمها لا يزيد على ثلاثين عامًا. كل هذا ترميم مُضلِّل"

لا تضغط جاين لأجل مصلحتها، مراعاة لحكم آرثر القاسي بصفته المرشد السياحي الرئيس. إنه يسيطر على زمام الأمور في مقابل الشخصية الفاتنة المميزة، وهما يقودان. لا يبدو الوقت مناسبًا لإخبارها أن الكنيسة لم ترمم لأكثر من خمسة عشر عامًا حين سار في ممرها، وهو رجل متزوج حديثًا، ويد توي في ذراعه حيث جاين الآن.

عودته إلى أندرشو هذه المرة لا تخلو من الذنب.

تتمثل طريقة آرثر في أن يصبح أبًا في ترك الأطفال برعاية والدتهم ثم يحلّ ضيفًا من وقت لآخر مع خطط وهدايا مفاجئة. يبدو له أن كونك أبًا يشبه كونك أخًا مع مسؤولية أكبر قليلًا. أنت تحمي أطفالك، تقدم لهم ما يحتاجونه، تغدو قدوة لهم أبعد من ذلك، تجعلهم يفهمون ما هم عليه، أي الأطفال، وهذا يعني أن البالغين ناقصين أو حتى معيبين.

ومع ذلك فهو رجل سخي، ولا يعتقد أنه من الضروري أو من الناحية الأخلاقية أن يحرموا مما حرم منه عندما كان صبيًا. في هندهيد، كما في نوروود، هناك ملعب تنس. مضمار رماية خلف المنزل أيضًا؛ لتشجيع كينغزلي وماري على تحسين مهاراتهما في الرماية. ينصب القطار الكهربائي في الحديقة، الذي ينساب وينزل عبر الحفر والارتفاعات في فدادينه الأربعة. مدفوعًا بالكهرباء ويستقر بواسطة المدوار (الجيروسكوب)، القطار الكهربائي هو وسيلة نقل المستقبل. صديقه ويلز متأكد من هذا، ويوافقه آرثر.

يشتري لنفسه دراجة روك النارية وهو ما يثبت بقوة التمرد، وما لن تسمح توي للأطفال بالاقتراب منه، ثم ناقل الحركة ولسلي بقوة اثني عشر حصانًا، وهو أمر يلقى استحسانًا كبيرًا، ويلحق أضرارًا معتادة في البوابات. لقد جعلت آلة القيادة الجديدة هذه عربته وخيوله فائضة عن الحاجة، على الرغم من أنه عندما يذكر هذه الحقيقة الواضحة للأم، فإنها تستشيط غضبًا. لا يمكنك وضع شعار نبالة عائلي على مجرد آلة، كما تُجادل، ناهيك عن آلة تعاني من الإهانة المتمثلة في الانهيار.

الحريات الممنوحة لكينغزلي وماري لا يحظى بها معظم أصدقائهما. في الصيف يمشيان حافيين، وقد يتجولان في أي مكان داخل دائرة صغيرة في أندرشو طالما أنهما في المنزل لتناول الوجبات، نظيفين ومرتبين. ليس لدى آرثر أي اعتراض حين يتخذان من القنفذ حيوانًا أليفًا. في أيام الآحاد، غالبًا ما يعلن أن الهواء النقي أفضل للروح من القدّاس، ويجنّد أحدهما كحامل أدوات الغولف. رحلة في عربة الحصان المرتفعة إلى ملعب هانكلي للغولف، وتقدم بطيء مع حقيبة غولف ثقيلة، ثم مكافأة الخبز المحمص بالزبدة الساخن في النادي. سيشرح والدهما لهما الأشياء بسرور، على الرغم من أنها ليست دائمًا الأشياء التي يحتاجانها أو يرغبان في معرفتها، وهو يفعل ذلك من ارتفاع كبير، حتى عندما يجثم على ركبتيه إلى جانبهما. يشجع الاكتفاء الذاتي والرياضة وركوب الخيل. يهدي كينغزلي كتبًا عن المعارك الكبرى في تاريخ العالم، ويحذره من مخاطر عدم الاستعداد العسكري.

مصدر قوة آرثر هو حل القضايا، لكنه لا يستطيع حل قضايا أبنائه. لا يمتلك أيّ من أصدقائهما أو زملائهما في المدرسة قطارًا كهربائيًا، لكن كينغزلي، مع تهذيب مثير للغضب، جعلنا ننسى أنها لا تسير بالسرعة الكافية، وربما يجب أن تكون العربات أكبر. في غضون

ذلك، تتسلق ماري الأشجار بطريقة لا تتوافق مع احتشام الأنثى. إنهما ليسا طفلين سيئين بأي شكل من الأشكال. بقدر ما يستطيع تقييم الأمر، فإنهما طفلان جيدان. لكن حتى عندما يتصرفان بطريقة جيدة وصحيحة، فإن ما لم يلتفت له آرثر هو قسوتهما. يبدو الأمر كما لو أنهما ينتظران شيئًا على الدوام... على الرغم من أنه لا يمكنه معرفة ما هو، ويشك في إمكانية حدوثه أيضًا. إنهما ينتظران شيئًا لا يمكنه تقديمه.

يعتقد آرثر سرًا أن من واجب توي أن تعلمهما المزيد من الانضباط. لكن هذا لوم لا يمكنه قوله، إلا بدسّه في عبارات لطيفة. وهكذا يكبر الأطفال بين سلطته العشوائية وموافقتها اللطيفة. عند إقامة آرثر في أندرشو، يرغب في العمل، وعندما يتوقف عن العمل، يرغب في أن يلعب الغولف أو الكريكت، أو أن يكسب في هدوء مئتي نقطة مع وودي على طاولة البلياردو. وقد وفر للعائلة الراحة والأمن والمال.

في المقابل لم ينل السلام أو أقلّه منه في أعماقه. عندما لا يكون هناك فرصة لرؤية جاين لفترة من الوقت، يحاول أن يقترب منها عبر القيام بما تريده. ولأنها فارسة متحمسة، يوسّع اسطبله في أندرشو من حصان واحد إلى ستة، ويبدأ في قيادة كلاب الصيد. قرر آرثر تعلم العزف على آلة البانجو؛ لأن جاين موسيقية، وهو قرار تستقبله بتسامحها المعتاد. يلعب آرثر الآن على آلتيْ النفخ بومباردون توبا والبانجو، على الرغم من أن كلًا من هاتين الآلتين تشتهر بقدرتها على مرافقة صوت الميزو سوبرانو المدرَّب تدريبًا كلاسيكيًا. في بعض الأحيان يرتب هو وجاين لقراءة الكتاب ذاته حين يبتعدا عن بعضهما... ستيفنسون، وقصائد سكوت، وميريديث، كلٌّ منهما يرغب في أن يتخيل الآخر في ذات الصفحة والجملة والعبارة والكلمة والمقطع.

قراءة توي المفضلة هي تقليد المسيح[52]. لديها إيمانها وأطفالها ووسائل راحتها ومهنها الهادِئة. تكفل مسؤولية آرثر أن يتصرف تجاهها بأقصى درجات الاهتمام واللين. حتى عندما يبدو أن تفاؤلها المقدس البالغ حدود التهاون البشع، ويشعر بغضب يستعر في داخله، ويعلم أنه لا يستطيع أن يصيبها به. ومن خجله يصيب أبناءه والخدم وحاملي أدوات الغولف وموظفي السكة الحديد والصحفيين البلهاء. هو لا يزال وفيًا جدًا لتوي،

---

52 (The Imitation of Christ) هو كتاب تعبدي مسيحي من تأليف توماس كيمبيس (1380–1427).

وغارقًا في حالة حب مع جاين، ولكن في جوانب أخرى من حياته يصبح أصعب وأكثر نزقًا. يقرأ التذكير بإيشينيا فينسيت في الزجاج المُعشّق. ومع ذلك، يشعر أنه يُربّي درعًا صخريًا. يتحول تعبيره المعتاد إلى تحديق في المدعي العام. ينظر للآخرين بأصابع الاتهام؛ لأنه معتاد على النظر عبر نفسه.

بدأ يفكر في نفسه هندسيًا، حيث يتمركز في وسط المثلث. رؤوسه هي النساء الثلاث في حياته، وأضلاعه قضبان الواجب الحديدية. وبطبيعة الحال، وضع جاين في القمة، مع توي والأم في القاعدة. لكن في بعض الأحيان يبدو أن المثلث يدور حوله، ثم يدور رأسه.

لا تبدي جاين أدنى شكوى أو لوم أبدًا. أخبرته أنها لا تستطيع، ولن تستطيع، أن تحب شخصًا آخر أبدًا، وأن انتظاره ليس محنة بل منحة. إنها سعيدة تمامًا بأن الساعات التي يمضيانها معًا هي الحقيقة المركزية في حياتها.

يقول: "عزيزتي، هل تعتقدين أن هناك مثيلًا لقصة حبنا منذ أن بدأ الكون؟"

تشعر جاين بعينيها تغرورقان. في الوقت نفسه، هي مصدومة بعض الشيء. "عزيزي آرثر، إنها ليست منافسة رياضية"

يقبل التوبيخ. "ومع ذلك، كم عدد الأشخاص الذين اختبروا حبهم كما فعلنا؟ أعتقد أن حالتنا فريدة من نوعها"

"ألا يظن كل حبيبين أنهما حالة فريدة من نوعها؟"

"إنه وهم شائع. بينما نحن..."

"آرثر!" لا تؤمن جاين أن التباهي مناسب للحب، تميل إلى أن تجده مبتذلًا.

ويصرّ قائلًا: "حتى مع ذلك أشعر أحيانًا - بل في كثير من الأحيان - أن روح الملاك الحارس تحرسنا"

"وأنا كذلك" توافق جاين.

لا يرى آرثر فكرة روح الملاك الحارس خيالية أو حتى مبتذلة. بل يجدها معقولة وحقيقية.

ومع ذلك، فهو يحتاج إلى دليل مادي لعشقهما. إنه يحتاج لتقديم دليل. هو في حاجة لتحويل رسائل حب جاين إلى الأم. لا يطلب الإذن أو يعتبر ذلك خرقًا للثقة. إنه في

حاجة إلى أن يُعرف أن المشاعر التي يُكنّها كل منهما تجاه الآخر، لا تزال نقية كالسابق، وأن محاولتهما لم تذهب سُدى. يخبر الأم بإتلاف الرسائل، ويقترح أن تختار الطريقة. قد تحرقها، أو - يفضل - تمزّقها إلى قطع صغيرة وتنثرها بين الزهور في منزل ماسونغيل الريفي.

باقات ورد في كل عام بلا انقطاع، في الخامس عشر من مارس من كل عام، تتلقى جاين زهرة ثلج واحدة مع ملحوظة من حبيبها آرثر. زهرة بيضاء مرة واحدة في العام لجاين، وأكاذيب بيضاء تتوزع على مدار العام لزوجته.

ومع الوقت، تزداد شهرة آرثر. إنه رجل نوادٍ وسهرات، وشخصية عامة. يصبح سلطة في عوالم تتجاوز الأدب والطب. وهو يمثل البرلمان بصفته نقابيًا ليبراليًا في وسط إدنبرة، فقد تُقوَّض الهزيمة عبر الاعتراف بأن الكثير من السياسة حمّام طين. عُرضت وجهات نظره، المُعتَمِدة على دعمه. إنه ذائع الصيت. تزداد شعبيته أكثر كلما انصاع مرغمًا على مضض للإرادة المشتركة للأم وجمهور القراءة البريطاني: لقد أعاد إحياء شيرلوك هولمز وأرسله في أثر أقدام كلب ضخم.

تطوع آرثر كطبيب عند اندلاع حرب جنوب إفريقيا. تقوم الأم بكل شيء لثنيه: تعتقد أن جسده الكبير هدف أكيد لطلقات البوير[53]. علاوة على ذلك، فإنها لا ترى في الحرب إلا التدافع المخزي على الذهب. لا يوافقها آرثر. من واجبه أن يذهب. من المسلم به أن يكون له التأثير الأقوى على الشباب -وخصوصًا الشباب الرياضيين- من أي شخص في إنجلترا عدا (الكاتب) كيبلينغ. كما يعتقد أن هذه الحرب تستحق كذبة بيضاء أو اثنتين: الأمة مُقدِمة على معركة عادلة.

يغادر بلدة تيلبري شرقًا. اعتنى كليف كبير الخدم من أندرشو بما ترك وراءه أثناء مغامرته. ملأت جاين مقصورته الخاصة بالورود، لكنها لم تحضر لوداعه. لا يمكنها أن تواجِه فراقًا وسط البهجة المحتشدة والهائلة في وسيلة النقل. عندما تُسمع الصافرة، على الزوار مغادرة السفينة. تودعه الأم وداعًا مقتضبًا.

قال: "أتمنى لو جاءت جاين"، كصبي صغير يرتدي بدلة ضخمة.

ترد الأم: "إنها بين الحشود. في مكان ما. مختفية. قالت إنها لن تثق في عواطفها"

---

53 Boer جماعة من المستوطنين المسيحيين الهولنديين، الذين توغلوا في أفريقيا من الجنوب باتجاه الشمال.

ومع هذا تذهب. يندفع آرثر إلى درابزين السفينة حانقًا وعاجزًا. يشاهد قبعة والدته البيضاء كما لو أنها ستقوده إلى جاين. يُسحب سلّم السفينة، وتُشدّ الحبال. يتراجع الشرق مبتعدًا مع دويّ الصافرة، وآرثر لا يستطيع رؤية شيء ولا أحد من خلال دموعه. يستلقي في مقصورته المزهرة والعبِقة. المثلث، المثلث بأضلاع حديدية، يدور داخل رأسه، حتى يتوقف مع توي في قمته. توي التي وافقت على هذا المشروع على الفور وبتفانٍ، مثل أي مشروع آخر قام به على الإطلاق. طلبت منه توي أن يكتب لها، ولكن متى ما أمكنه فقط، إنها توي التي لم تثر ضجة. عزيزتي توي.

أثناء الرحلة البحرية، يتحسن مزاجه ببطء، إذ يبدأ في فهم سبب مجيئه كاملًا. كواجب وقدوة بالطبع، لكن أيضًا لأسباب أنانية. لقد أصبح شخصًا مدللًا ومُقدّرًا، لذا فهو في حاجة إلى شيء من تطهير الروح. لقد عاش آمنًا لفترة طويلة جدًا، ووهنت عضلاته، ويحتاج لاستشعار الخطر. لقد عاش بين النساء لفترة طويلة ومشوشًا للغاية، ويتوق لعالم الرجال. عندما ترسو السفن الشرقية لأخذ الفحم في جمهورية الرأس الأخضر (جمهورية كابو فيردي)، تنظم كتيبة فرسان ميديلسكس يومانري المتطوعة على الفور مباراة كريكت على أول قطعة أرض مسطحة يمكن العثور عليها. يشاهد آرثر المباراة -ضد موظفي محطة التلغراف- يغمر قلبه الفرح. هناك قواعد للمتعة وقواعد للعمل. القواعد والأوامر المعطاة والمتلقاة، والغرض الواضح. هذا ما جاء لأجله.

تُنصب خيام المستشفى في ملعب الكريكت في بلومفونتين. الجناح الرئيس هو صيوان الخيمة. يرى الكثير من الموت. على الرغم من أن الأمراض المعوية تتسبب في فقد المزيد من الرجال أكثر من رصاص البوير. يأخذ إجازة لمدة خمسة أيام لمتابعة تقدم الجيش شمالًا، عبر نهر فيت باتجاه بريتوريا. أوقف رجل من شعب السوتو جماعته على جبل أجرد عند عودته من جنوب براندفورت؛ لإبلاغهم عن إصابة جندي بريطاني مُلقىً على بُعد حوالى ساعتين. يدفعون للرجل كي يعمل مرشدًا لهم بفلورين[54]. شقّوا طريقهم في رحلة طويلة عبر حقول الذرة ثم عبر حقول الرعي في جنوب إفريقيا. تبين أن الرجل الإنجليزي الجريح أسترالي قد فارق الحياة: قصير وذو عضلات ووجه أصفر شاحب جدًا. يحمل

---

54 Florin عملة بريطانية ووحدة نقدية سابقة تساوي شلن.

الرقم 410، من مشاة خيّالة نيو ساوث ويلز، وقع عن فرسه في تلك اللحظة، واختفى فرسه وبندقيته. نزف حتى الموت من جرح في المعدة. استلقى إلى جانبه ساعة جيبه أمامه، لا بد أنه رأى حياته تمر بعيدًا مع كل دقيقة. توقفت الساعة عند الواحدة صباحًا. زجاجة ماء فارغة إلى جانبه، يعلوها بتوازن بيدق شطرنج عاجي أحمر. أما بيادق الشطرنج الأخرى -التي يرجح أنها سُلِبت من مزرعة بوير أكثر منها لعبة لتسلية الجندي- فهي في حقيبة ظهره. يجمعون آثاره: حِزام الرصاص، وقلم مُنمّق، ومنديل حريري، ومدية جيب، وساعة ووتربيري، بالإضافة إلى ستة وعشرين شلنًا وستة بنسات من الجنيه الإسترليني في محفظة مهترئة. يتدلى الجسد اللزج فوق حصان آرثر، ويرافقه سرب من الذباب في رحلة مسافة ميلين إلى أقرب مركز تلغراف. هناك تركوا الجندي رقم 410، من مشاة خيالة نيو ساوث ويلز؛ لدفنه.

لقد شهد آرثر جميع الأسباب المؤدية للموت في جنوب إفريقيا، لكن هذه الميتة ستبقى في ذاكرته دائمًا. معركة عادلة في الهواء الطلق، وسبب عظيم... لا يمكنه أن يتخيل ميتةً أفضل.

تحصل رواياته الوطنية عن الحرب استحسان من أعلى مستويات المجتمع عند عودته. إنها الفترة الفاصلة بين وفاة الملكة العجوز، وتتويج الملك الجديد. دُعِي لتناول العشاء مع إدوارد السابع المستقبلي، وجلس إلى جانبه. من الواضح أن وسام الفروسية معروض في قائمة الشرف لتتويج الدكتور كونان دويل إن اهتم في قبوله.

لكن آرثر غير مهتم. وسام الفروسية هو شارة عمدة المدينة الإقليمية. الرجال الكبار لا يقبلون هذه الحُلي. تخيل قبول رئيس وزراء مستعمرة الكاب رودز أو الكاتب كيبلينغ أو رئيس وزراء بريطانيا تشامبرلين لمثل هذا الشيء. لا يعني أنه يعتبر نفسه مساوٍ لهم، ولكِن لماذا يجب أن تكون معاييره أقل من معاييرهم؟ وسام الفروسية هو نوع الأشياء التي يستحوذ عليها أشخاص مثل ألفريد أوستن وهول كاين... إن كانا محظوظين بما يكفي لمنحهما الفرصة.

تقلبت الأم بين مشاعر الشك والغضب. لماذا كل هذا، إن لم يكن لهذا؟ هنا هو الصبي الذي يرتدي الدروع الكرتونية بفخر في مطبخ أمه في إدنبرة، والذي درس كل

خطوة من خطى أسلافه حتى أسرة بلانتاجينت[55]. هذا هو الرجل الذي يستخدم شعار العائلة، ويحتفل رواقها بأسلافه في الزجاج المُعشّق. هذا هو الصبي الذي تعلم قواعد الفروسية والرجل الذي يمارسها، والذي ذهب إلى جنوب أفريقيا بسبب دماء الروح القتالية التي تسري فيه -دم بيرسي وباك ودويل وكونان. كيف يجرؤ على رفض أن يصبح فارسًا في المملكة، في حين حياته كلها تصبو إلى مثل هذا الإنجاز؟

أمطرته الأم بالرسائل. لكل حجة لدى آرثر حجة مضادة. يصر على التخلي عن الأمر. انقطعت الرسائل. يعلن ارتياحه كارتياح مدينة مافكنغ عند انتهاء حصارها. من ثم وصلت إلى أندرشو. البيت كله يعرف لماذا أتت، هذه الأم المتسلطة ذات الرأس الصغير الأبيض هي الأكثر هيمنة بلا حاجة إلى رفع صوتها أبدًا.

سمحت له بالانتظار. لم تأخذه جانبًا وتقترح المشي معه. لم تطرق باب مكتبه. تركته وحده ليومين، مع علمها كيف سيؤثر الانتظار على أعصابه. ثم في صباح اليوم الذي ستغادر فيه، تقف في الردهة مع تدفق النور عبر زجاج شعار النبالة الذي نسي بخجل لقب فوليز من ورسيسترشاير، وتطرح سؤالاً.

"ألم يخطر ببالك أن رفض وسام الفروسية سيُعدّ إهانة للملك؟"

"أخبرتك، لا يمكنني قبوله. إنها مسألة مبدأ"

تقول: "حسنًا"، تنظر إليه بعينين رماديتين تجردانه من السنين والشهرة. "إذا رغبت في إظهار مبادئك عبر إهانة الملك، فلا شك في أنك لا تستطيع"

ومع استمرار صدى أجراس التتويج لمدة أسبوع، اقتيد آرثر بِجرّة قلم مخملي إلى قصر باكنغهام. بعد الحفل وجد نفسه إلى جانب البروفيسور -الآن السير- أوليفر لودج. قد يناقشان الإشعاع الكهرومغناطيسي، أو الحركة النسبية للمادة والهواء المحيط، أو حتى إعجابهم المشترك بالملك الجديد. بدلاً من ذلك، يناقش الفارسان الإدوارديان الجديدان موضوع التخاطر والتحريك الذهني وموثوقية الوسائط. السير أوليفر مقتنع بأن الفيزيائي والنفسي متقاربان مثل الحروف المشتركة للكلمتين المقترحتين. في الواقع، بعد أن تقاعد مؤخرًا كرئيس للجمعية الفيزيائية، أصبح رئيس الجمعية النفسية الآن.

---

55 Plantagenets الأنجويون أسرة ملكية من أصل فرنسي حكمت إنجلترا في القرن الثاني عشر ومطلع القرن الثالث عشر.

يتحاوران عن المزايا النسبية للوسيطتين السيدتين بايبر ويوسابيا بالاديتو، وما إذا الوسيطة فلورنس كوك أكثر من مجرد محتالة بارعة. يصف لودج حضور جلسات كامبريدج، حيث خضعا لخطوات بالاديتو في ظل ظروف مشددة، مكونة من سلسلة من تسع عشرة جلسة تحضير أرواح. لقد رأى أنها تعرض نماذج إكتوبلازمية[56]. كما تعزف القيثارات بنفسها وهي تطفو في الهواء. لقد شاهد برطمانًا مليئًا بأزهار النرجس يُنقل من طاولة في الطرف البعيد من الغرفة، ويصمد، بلا أي وسائل دعم واضحة، أمام أعين الجالسين.

"إذا لعبتُ دور محامي الشيطان، سير أوليفر، افترض أن السحرة عرضوا إعادة إنتاج مآثرها، وفي بعض الحالات نجحوا فعلاً، كيف سيكون ردك؟"

"من الممكن أن تلجأ بالاديتو إلى الخداع أحيانًا. على سبيل المثال، هناك أوقات يكون فيها سقف توقعات الجالسين عظيمًا وتثبت الأرواح أنها غير جاهزة. الإغراء بَيِّن. لكن هذا لا يعني أن الأرواح التي تمر بها ليست حقيقية وصادقة". يتوقف. "أنت تعرف ما يقولون دويل، المُتهكمون؟ يقولون: من دراسة البروتوبلازم إلى دراسة الإكتوبلازم. ومن ثم أرد: إذًا تذكر كل أولئك الذين لم يؤمنوا بالبروتوبلازم في ذلك الوقت"

ضحك آرثر ضحكة خافتة. "وهل يمكنني أن أسأل أين تقف حاليًا؟"

"أين أقف؟ لقد قمت بالبحث والتجربة منذ ما يقرب من عشرين عامًا حتى الآن. لا يزال هناك الكثير من العمل الذي يتعين القيام به. لكنني سأستنتج، بناءً على نتائجي حتى الآن، أنه من المحتمل -بل من المحتمل فعليًا- أن ينجو العقل من التحلل الفيزيائي للجسد"

"أنت تمنحني إحساسًا عظيمًا"

"قد نتمكن قريبًا من إثبات،" يواصل لودج مع بريق تواطؤ، "ليس فقط السيد شيرلوك هولمز هو الذي يستطيع النجاة من الموت البيّن والواضح"

يبتسم آرثر بلطف. سيلازمه هذا الشخص إلى أبواب القديس بيتر، أو أيًا كان ما يعادله في العالم الجديد الذي بدأت ملامحه تتضح رويدًا رويدًا.

لا شيء في حياة آرثر بعيد المنال. إنه ليس رجلاً من النوع الذي يقضي فترة ما بعد

---

56 الإكتوبلازم هو مصطلح يستخدم في الروحية للإشارة إلى مادة أو طاقة روحانية «تتشكل خارجيًا» عبر وساطة روحية. صاغ هذا المصطلح الباحث النفسي شارل ريشه في عام 1894.

الظهر في الصيف مسترخيًا على كرسي مُخفيًا وجهه بقبعته، ومُصغيًا إلى النحل يقلق نبات الترمس. كان سيجعله يائسًا مثلما جعل توي ناجحة. إن اعتراضه على الخمول ليس أخلاقيًا إلى حد كبير –من وجهة نظره، يوفر الشيطان العمل للأيدي العاطلة والعاملة– بقدر ما هو مزاجي. تحتوي حياته على فترات كبيرة من النشاط العقلي، تليها فترات كبيرة من النشاط الجسدي بينهما يوائم بين حياته الاجتماعية والأسرية، وكلاهما يأخذ منه لحظة. ينام كما لو أن النوم شأنٌ من شؤون الحياة، وليس فاصلًا منها.

لذلك ليس لديه إلا القليل من وسائل الراحة، يلجأ إليها حين يتعب الإنسان فيه. إنه غير قادر على التعافي مع أسبوعين من الاسترخاء في البحيرات الإيطالية أو حتى بضعة أيام في السقيفة الزراعية. وبدلًا من ذلك، ينغمس في مزاج الاكتئاب والتعب الذي يسعى إلى إخفائه عن توي وجاين. يكتفي بإشراك الأم فقط.

تشتبه في أنه يشعر بالضيق أكثر من المعتاد عندما يقترح زيارة على حسابه الخاص، بدلًا من أن تكون طريقة للقاء جاين. يركب آرثر في قطار العاشرة والأربعين دقيقة من سانت بانكراس إلى ليدز. يجد نفسه يفكر أكثر فأكثر بوالده في عربة الغداء. يعترف الآن بقسوة آرائه الشبابية، ربما السن أو الشهرة جعلته أكثر تسامحًا. أو أنها أوقات يشعر فيها آرثر أنه على حافة الانهيار العصبي نفسه، عندما يبدو أن الحالة الطبيعية للإنسان هي أن يكون على حافة الانهيار العصبي، وأنه مجرد حظ جيد، أو بعض من ميزة التربية الفريدة التي تمنع أي شخص من السقوط؟ ربما لو لم تسرِ فيه دماء والدته، فقد يذهب -ربما ذهب بالفعل– في طريق تشارلز دويل. والآن بدأ آرثر في إدراك أمر ما للمرة الأولى: أن الأم لم تنتقد زوجها أبدًا في حياته أو حتى منذ وفاته. قد يقول أحدهم أنها ليست في حاجة إلى ذلك. ولكن حتى مع ذلك: هي التي تعبّر عن رأيها دائمًا، في المقابل لم يسمع منها أبدًا عن سوء حال الرجل الذي تسبب لها في الكثير من الإحراج والمعاناة.

لا يزال ضوء النهار حاضرًا عندما وصل إلى انغلتون. في وقت مبكر من المساء، صعدا عبر غابة براين والر وخرجا إلى المستنقع، وأطلقا بعض المهور البرية بهدوء. وجّه الابن الكبير والمعتدل والأنيق الكلمات لوالدته راسخة الخطى في معطفها الأحمر والقبعة البيضاء الأنيقة. ومن وقت لآخر تجمع العصي لإشعال النار. يجد أن عادتها هذه مزعجة...

كما لو أنه لا يستطيع أن يشتري لها كوردًا[57] من أفضل أنواع حطب الوقود كلما احتاجت إليه.

يقول: "درب هنا، وجبل إنجليبورو هناك، ونعلم أنه إذا تسلقنا إنجليبورو يمكننا أن نرى مدينة موركامب. وهناك أنهار يمكن أن نتبع مسارها، وهي تجري دائمًا في الاتجاه نفسه"

لا تعلم الأم ماذا تصنع بهذه البديهيات الطبوغرافية. إن معظمها تختلف عن آرثر.

"وإذا فوّتنا الطريق وضِعنا في القِفار، يمكننا استخدام بوصلة وخريطة نستطيع الحصول عليها بسهولة. وحتى في الليل هناك النجوم"

"هذا كله صحيح يا آرثر"

"لا، إنه عادي. لا يستحق أن يذكر"

"إذن أخبرني ما الذي تود قوله"

"أنت ربّيتني" أجاب. "لا يوجد أبدًا ابن أكثر ولاء لأمه. أقول هذا ليس كإشادة بذاتي، فقط كتوضيح للحقيقة. لقد شكّلتِني، ووهبتِني إحساسًا بنفسي، ومنحتني كبريائي وما أمتلك من ملكات أخلاقية. ولا يوجد حتى الآن ابن أكثر تفانٍ لأمه مني.

"لقد نشأت محاطًا بالأخوات. أنيت، عزيزتي المسكينة أنيت، لترقد روحها بسلام. لوتي وكوني وإيدا ودودو. أحبهن جميعًا على اختلافهن. أعرف دواخلهن. حين كنت شابًا، خبِرت رفقة الإناث. لم أحطَّ من قدر نفسي كما فعل آخرون كثر، لكنني لم أكن جاهلًا ولا متزمتًا.

"وبعد... ومع ذلك لقد أصبحت أميل إلى الاعتقاد بأن النساء - النساء الأخريات - يشبهن البلاد البعيدة. باستثناء ذلك، عندما ذهبت إلى بلاد بعيدة - إلى خارج حقول الرعي في أفريقيا - تمكنت من العثور على وجهتي دائمًا. ربما لا أبدو منطقيًا"

يتوقف. يحتاج إلى رد. "نحن لسنا بعيدين جدًا يا آرثر. نحن أشبه بمقاطعة مجاورة نسيتَ بطريقة ما استكشافها. وعندما تفعل ذلك، لستَ متأكدًا مما إذا كان المكان أكثر تحضرًا أو أكثر بدائية. آه نعم، أعرف كيف يفكر بعض الرجال. وربما كلاهما وربما لا.

---

57 Cord وحدة قياس الحطب.

لذا أخبرني بما تريد أن تقوله"

"تصاب جاين بنوبات تكون فيها معنوياتها منخفضة. ربما هذه ليست الطريقة المناسبة لوصفها. إنه ألم جسدي -لديها صداع نصفي- لكنه نوع من الاكتئاب المعنوي. تتصرف وتتحدث كما لو أنها فعلت شيئًا مروعًا. لم أحبها أبدًا كما أحببتها في مثل هذه اللحظات"

إنه يحاول أن يستنشق نفسًا عميقًا من هواء يوركشاير، لكنها تبدو مثل تنهيدة عظيمة. "وبعد ذلك أقع فريسة حالة مزاجية سوداء، لكنني أستنكف وأزدري ذاتي من أجلهم فقط"

"وفي مثل هذه اللحظات لا شك أنها تحبك بالقدر نفسه"

"لم أخبرها أبدًا. ربما هي تخمّن. ثم هذا ليس أسلوبي"

"لا أتوقع خلاف ذلك"

"في بعض الأحيان، أعتقد سيُجنّ جنوني" يقول ذلك بترو لكن بصراحة، مثل رجل يقدم تقريرًا عن الطقس. بعد خطوات قليلة، ترفع ذراعها وتفلتها من ذراعه. إنها ليست واحدة من إيماءاتها، وأخذته على حين غرة.

"أو إن لم تُجَن، تموت من السكتة الدماغية. تنفجر مثل مرجل باخرة، وتغرق تحت الأمواج برغم كل الأيدي"

لا تجيب الأم. ليس من الضروري رفض تشبيهه، أو حتى سؤاله عما إذا راجع طبيبًا لآلام الصدر.

"عندما تصيبني النوبة، أشك في كل شيء. أشك أنني أحببت توي في أي وقت مضى. أشك أنني أحب أطفالي. أشك في قدرتي الأدبية. أشك في أن جاين تحبني"

هذا يتطلب إجابة. "أنتَ لا تشك في حبك لها؟"

"أبدًا. لا أشك أبدًا. وهذا ما يجعل الأمر أسوأ. إذا وصلت إلى الشك في ذلك، فيمكن أن أشك في كل شيء، وأن أغرق بسعادة في البؤس. لا هذا موجود دائمًا، لقد جعلني في قبضة الوحش"

"جاين تحبك يا آرثر. أنا أكيدة من ذلك. أنا أعرفها. ولقد قرأت رسائلها التي أرسلتها"

"أعتقد أنها تحبني. أصدق أنها تحبني. كيف أعرف أنها تحبني؟ هذا هو السؤال الذي يمزقني حين يخيّم هذا المزاج. أعتقد ذلك، أصدّق هذا، ولكن كيف يمكنني معرفته؟ إذا استطعت إثباته فقط، إذا استطاع أي منا إثباته"

يتوقفان عند البوابة، وينظران أسفل منحدر أجمة صغيرة إلى سطح ومداخن ماسونغيل.

"ولكنك على ثقة من حبك لها، تمامًا كما أنها على يقين من حبها لك؟"

"نعم، ولكن هذا من طرف واحد، وهو شيء مجهول، وغير مُثبت"

"تثبت النساء حبّهن بأسلوب مكرر، عدة مرات على الأغلب"

يمرر آرثر نظرة خاطفة إلى أمه، لكنها تنظر إلى الأمام بحزم. كل ما يمكن أن يراه هو تقوس قبعة البونيه وطرف أنفها.

"لكن هذا ليس دليلاً. إنه مجرد بحث بائس للحصول على أدلة. إن اتخذتُ جاين عشيقة، فلن يكون ذلك برهانًا على أننا تبادلنا الحب"

"أؤيدك"

"قد يثبت العكس، أننا نضعف مع حبنا. يبدو أحيانًا أن الشرف والعار يدنوان جدًا من بعضهما، أقرب مما تخيلت يومًا"

"لم أعلمك أن سبيل الشرف يسير أبدًا. ما الذي يستحقه إذا كان هذا هو الحال؟ وربما الإثبات مستحيل على أي حال. ولعل أفضل ما يمكننا تدبره هو التفكير والإيمان. ربما نعلم حقًا في الآخرة فحسب"

"يعتمد الإثبات عادةً على الفعل. إن الشيء الوحيد الشاذ واللعين بشأن وضعنا هو أن الإثبات يعتمد على عدم القيام بأي فعل. حبنا هو شيء منفصل، بصرف النظر عن العالم، غير معروف له. إنه غير مرئي، غير محسوس بالنسبة للعالم، ولكن بالنسبة لي، بالنسبة لنا، مرئي تمامًا، واضح تمامًا. قد لا يوجد في الفراغ، ولكنه موجود في مكان يختلف فيه الجو: أخف أو أثقل، لست متأكدًا من ذلك أبدًا. وفي مكان ما خارج الزمن. لطالما بدا الأمر منذ البداية. هذا ما اعترفنا به على الفور. أن لدينا هذا الحب النادر، الذي يسندنا تمامًا"

"ومع ذلك؟"

"ومع ذلك. أنا بالكاد أجرؤ على التعبير عن الفكرة. تأتي في رأسي عندما أكون في أضعف حالاتي. أجد نفسي أتساءل... أجد نفسي أتساءل: ماذا لو لم يكن حبنا كما أعتقد، ليس شيئًا موجودًا خارج الزمن؟ ماذا لو كان كل ما آمنت به خطأ؟ ماذا لو أنه ليس مميزًا بأي شكل من الأشكال، أو على الأقل، مميزًا فقط في حالة عدم الإعلان عنه و... غير مستهلك؟ وماذا لو... ماذا لو توفيت توي، وتَحرّرنا أنا وجاين، وتمكنا من الإعلان عن حبنا وقدسيته، وإخراجه إلى العالم، وماذا لو اكتشفت في هذه المرحلة أن الزمن أدى عمله في غفلة مني بهدوء، عمله في أن يضايقني ويتلفني ويضعضعني؟ ماذا لو اكتشفت بعد ذلك -ماذا لو اكتشفنا بعد ذلك- أنني لا أحبها كما ظننت، أو أنها لا تحبني كما ظنت؟ ما الذي يمكن القيام به بعد ذلك؟ ماذا؟"

بمنطق واضح، لا ترد الأم.

يأتمن آرثر الأم على كل شيء: أعمق مخاوفه، وأعظم أفراحه، وجميع المحن المتوسطة، ومباهج العالم المادي. ما لا يمكنه أن يشير إليه أبدًا هو اهتمامه العميق بالروحانية أو استحضار الأرواح كما يفضل أن يسميها. أصبحت الأم عضوًا في كنيسة إنجلترا عبر حضورها المطلق، بعد تركها لإدنبرة الكاثوليكية وراءها. تزوج ثلاثة من أبنائها في كنيسة القديس أوزوالد: آرثر نفسه وإيدا ودودو. إنها تعارض العالَم النفسي معارضة غريزية، وهو ما يمثل لها الفوضى والخزعبلات. ترى أن الناس لا يمكنهم الوصول إلى أي فهم لحياتهم إلا إذا كشف لهم المجتمع حقائقه. علاوة على ذلك، يجب التعبير عن الحقائق الدينية عبر مؤسسة قائمة، سواء كانت كاثوليكية أو أنجليكية. ثم العائلة التي يجب مراعاتها. آرثر هو فارس من فرسان المملكة، تناول طعام الغداء والعشاء مع الملك. إنه شخصية عامة... تكرر له تباهيه بأنه يحتل المرتبة الثانية بعد كيبلينغ في تأثيره على الشباب الأصحاء والرياضيين في البلاد. ماذا لو اتضح أنه تورّط في عمليات تحضير الأرواح وما شابه؟ ستُقدّم كل فرصة للنبلاء.

عبثًا هل يحاول ربط حديثه مع السير أوليفر لودج في قصر باكنغهام. بالتأكيد يجب أن تعترف الأم أن لودج شخص متزن بالكامل وذو سمعة علمية، كما ثبتت حقيقة أنه

عُيّن للتو أول مدير لجامعة برمنغهام. لكن الأم لن تعترف بأي شيء. في هذا النطاق ترفض بإصرار أن تتساهل مع ابنها.

يخشى آرثر من طرح الموضوع على توي، في حال زعزع ذلك الهدوء غير الطبيعي. يعلم أن لديها ثقة بسيطة في مسائل الإيمان. تفترض أنها بعد وفاتها ستذهب إلى الجنة التي لا يمكن وصف طبيعتها بالضبط، وتبقى هناك في حالة لا يمكن تصورها، حتى يحين الوقت الذي ينضم فيه آرثر إليها، ويتبعه أطفالهما في الوقت المناسب، عندئذ سيقيمون جميعًا معًا في نسخة أفضل من ساوث سي. يعتقد آرثر أنه من غير العدل زعزعة أي من هذه الافتراضات.

من الصعب عليه ألا يمكنه التحدث إلى جاين، مع من يرغب في مشاركتها كل شيء، من آخر زر ياقة إلى آخر فاصلة منقوطة. لقد حاول، لكن جاين مرتابة - أو ربما خائفة - من أي شيء يمس العالم النفسي. علاوة على ذلك، تُعبّر عن كرهها بأساليب يجدها آرثر منافية لطباعها الرقيقة.

بمجرد محاولته إعادة سرد تجربته في جلسة استحضار الأرواح مع بعض التأمل، والكبح الواعي للحماس. يلاحظ لمرة واحدة نظرة من الرفض أكثر حدة تقريبًا، تأتي من تلك الميزات الجميلة.

"ما الأمر يا عزيزتي؟"

تجيب: "لكن آرثر، إنهم أناس عاديون"

"من هم؟"

"هؤلاء الناس. مثل النساء الغجريات اللاتي يجلسن في أكشاك أرض المعارض، ويقرأن حظك بالبطاقات وأوراق الشاي. إنهن فقط... منتشرات"

يجد آرثر مثل هذه الغطرسة، خصوصًا في من يحبها، مسألة غير مقبولة. يريد أن يقول إن الناس الرائعين من الطبقة الوسطى الدنيا هم الذين كانوا دائمًا الأقران الروحيين للأمة: لا تحتاج إلى النظر إلى أبعد من البيوريتانيين الذين يُساء إليهم بالطبع. يريد أن يقول إنه بلا شك حول بحيرة طبريا، هناك أصدر كُثُر حكمهم على الرب يسوع بأنه يمتلك القليل من المزايا المشتركة. لم يحظ تلاميذ المسيح، مثل معظم الوسطاء، إلا بالقليل من

التعليم الرسمي. بطبيعة الحال، لا يذكر شيئًا من هذا. يشعر بالخجل من ضيقه المفاجئ ويغير الموضوع.

وعليه أن يخرج من مثلّثه ذي الأضلاع الحديدية. لا يقترب من لوتي: إنه لا يرغب في المخاطرة بحبها بأي شكل من الأشكال، وأكثر من ذلك تساعد ممرضة توي. بدلًا من ذلك، يذهب إلى كوني. على ما يبدو، في ذلك اليوم فقط، سرّحت كوني شعرها المُنسدل على ظهرها مثل مِجسّات قنديل البحر البرتغالي وحطّمت القلوب في جميع أرجاء أوروبا القارية، كوني التي وطدت بقوة دورها كأم كنسينغتون، علاوة على ذلك، كوني التي تجرأت على معارضته ذلك اليوم في ملعب لورد. لم يحل أبدًا مسألة ما إذا كوني قد غيّرت فكر هورننغ، أو هورننغ من غيّر كوني، ولكن أيًا كان، فقد أُعجب بها.

يزورها بعد ظهر أحد الأيام عندما يكون هورننغ بعيدًا، يُقدّم الشاي في غرفة الجلوس الصغيرة في الطابق العلوي، حيث سمعته يتحدث لمرة واحدة عن جاين. من الغريب أن يدرك أن أخته الصغيرة تقترب الآن من الأربعين بدلًا من الثلاثين. لكن عمرها يناسبها. إنها ليست جذابة تمامًا كما كانت، فهي ضخمة وتتمتع بصحة جيدة وذات روح مرحة. لم يكن جيروم مخطئًا عندما أطلق عليها اسم برونهيلد عندما كانا في النرويج. يبدو الأمر، مع مرور الوقت، أنها أصبحت أكثر قوة في محاولة لموازنة اعتلال صحة هورننغ.

"كوني"، يبدأ بلطف، "هل وجدت نفسك يومًا تتساءلين عما يحدث بعد أن نموت؟"

تنظر إليه بحدة. هل هناك أخبار سيئة عن توي؟ هل الأم ليست على ما يرام؟

ويضيف مستشعرًا ذعرها: "إنه سؤال شائع"

أجابت: "لا، على الأقل سؤال نادر جدًا. أنا قلقة بشأن موت الآخرين وليس على نفسي. لقد فعلتها مرة واحدة، لكن هذا يتغير عندما تصبح أمًا. أنا أؤمن بتعاليم الكنيسة. كنيستي. كنيستنا. التي غادرتها أنت والأم. ليس لدي الوقت للإيمان بأي شيء آخر"

"هل تخشين الموت؟"

تفكر كوني في ذلك. تخشى وفاة ويلي -لقد عرفت شدة معاناته مع الربو حين تزوجته، وأدركت أنه سيكون متوعكًا دائمًا- ولكنه الخوف من غيابه، وفقدان رفقته. أجابت: "بالكاد يمكنني تقبل الفكرة. لكني سأعبر هذا الجسر عندما أصله. هل أنت متأكد من

أنك لا ترمي إلى شيء ما؟"

يهز آرثر رأسه لفترة وجيزة. "لذا يمكن تلخيص موقفك بـ انْتَظِر وأُشاهِد؟"

"أفترض ذلك. لماذا؟"

"عزيزتي كوني... موقفك من الأبدية إنجليزي للغاية"

"يا لها من فكرة غريبة"

تبتسم كوني، ويبدو أنه من المستبعد أن تخجل. ومع ذلك، لا يعرف آرثر تمامًا كيف يبدأ.

"عندما كنت فتى في ستونيهرست، كان لدي صديق يدعى بارتريدج، أصغر مني بقليل. صائد الزلّات. أحب أن يربكني بالحجة اللاهوتية. اختار أمثلة على أكثر مذاهب الكنيسة غير المنطقية وطلب مني تبريرها"

"إذن هو ملحد؟"

"لقد كان كاثوليكيًا أكثر مني في أي وقت مضى. لكنه حاول إقناعي بحقائق الكنيسة من خلال الجدل ضدها. اتضح أنه نهج غير صائب"

"أتساءل ما الذي حدث لبارتريدج"

ابتسم آرثر. "بالصدفة، هو ثاني رسام كاريكاتير في بانش"

توقف. لا، يجب أن يذهب مباشرة إلى الأمور. هذا هو نهجه، على أي حال.

"يرتعب الكثير من الناس -معظم الناس- من الموت، يا كوني. إنهم ليسوا مثلك في هذا الشأن. لكنهم مثلك في أن لديهم طباعًا إنجليزية. انتظري وشاهدي واعبري هذا الجسر عندما يصلون إليه. ولكن لماذا يجب أن يقلل ذلك من الخوف؟ لماذا يجب ألا تتنامى الريبة أكثر؟ وما الغاية من الحياة إلا إذا عرفت ما يحدث بعد ذلك؟ كيف يمكنك خِلق مغزى للبداية إذا لم تعرف ما هي النهاية؟"

تتساءل كوني إلى أين يتجه آرثر. إنها تحب شقيقها الكبير الكريم والصاخب. إنها تعتبره تطبيقًا عمليًا أسكتلنديًا مشوبًا بنيران مفاجئة.

"كما أقول، أؤمن بما تُعلّمه كنيستي"، أجابت. "لا أرى بديلًا. بصرف النظر عن الإلحاد، الذي هو مجرد خواء وإحباط شديد للكلمات، يفضي إلى الاشتراكية"

"ما رأيك في استحضار الأرواح؟"

إنها تعرف أن آرثر انخرط في المسائل الروحية لسنوات حتى الآن. قد ذُكِر ونصفه ذُكِر من وراء ظهره.

"أعتقد أني لا أثق به يا آرثر"

"لماذا؟" يأمل ألا تذهب كوني في إثبات أنها متعجرفة.

"لأني أعتقد أنه احتيال"

"أنت على حق" يجيبها إجابة مفاجئة. "الكثير منه. لطالما كان عدد الأنبياء الحقيقيّين أقل من المدّعين... كما كان يسوع المسيح نفسه. هناك نصب وخداع، وحتى سلوك إجرامي نشط. يصطاد بعض الأشخاص المشكوك بهم في المياه العكرة. ويؤسفني أن أقول ونساء أيضًا"

"إذن هذا ما أعتقده"

"وهو غير واضح أبدًا. أعتقد أحيانًا أن العالم ينقسم إلى أولئك الذين لديهم تجارب نفسية، ولكنهم لا يستطيعون الكتابة، وأولئك الذين يمكنهم الكتابة ولكنهم بلا تجارب نفسية"

لا ترد كوني، إنها لا تحب النتيجة المنطقية لهذه الجملة، التي تجلس على الجانب الآخر، جاعلة شايها يبرد.

"لكني قلت "الكثير منه" يا كوني. فقط "الكثير منه" هو احتيال. إذا قمتِ بزيارة منجم ذهب، هل ستجدين أنه مليء بالذهب؟ لا. الكثير منه -معظمه- هو جزء أساسي من المعادن المغروسة في الصخر. عليكِ أن تبحثي عن الذهب"

"أنا لا أثق في المجاز يا آرثر"

"وأنا كذلك، أنا أيضًا. لهذا السبب أنا أشكك في الإيمان، وهو أكبر مجاز على الإطلاق. لقد اكتفيت منه. لا يمكنني العمل إلا بنور المعرفة الأبيض الصافي"

تبدو كوني في حيرة من هذا.

ويشرح قائلًا: "إن الهدف الأساسي من البحث النفسي هو القضاء على النصب والخداع وفضحه؛ لإفساح المجال فقط لما يمكن تأكيده علميًا. إذا استبعدت المستحيل،

فإن ما تبقى، مهما كان غير محتمل، لابد أنه الحقيقة. استحضار الأرواح لا يتطلب منك أن تقفز في الظلام، أو أن تقطع جسرًا لم تصله بعد"

"إذن الأمر يشبه الثيوصوفيا[58]؟" تقترب كوني الآن من أقصى حدود معرفتها.

"ليس مثل الثيوصوفيا. في النهاية، الثيوصوفيا مجرد دين آخر. كما أقول، لقد اكتفيت من الإيمان"

"ومع الجنة والجحيم؟"

"تذكرين ما قالته لنا الأم... "ارتدي الفانيلا ملاصقة لبشرتك، ولا تؤمن أبدًا بالعقاب الأبدي""

"هل يذهب الجميع إلى الجنة؟ العصاة والصالحون على حد سواء؟ يا له من حافز..."

يقاطعها آرثر. يشعر كما لو أنه عاد يتجادل حول تولِلي. "أرواحنا ليست بالضرورة ستعيش في سلام بعد أن نموت"

"والرّب ويسوع؟ ألا تؤمن بهما؟"

"بالتأكيد. لكن ليس الرّب والمسيح اللذان تطالب بهما الكنيسة الفاسدة روحًا وفكرًا منذ قرون. والتي يطالب أتباعها بتعطيل قدرات المنطق والعقل"

تشعر كوني بالضياع الآن وتتساءل إذا توجب عليها أن تقبل الإساءة أيضًا. "إذن ما نوع المسيح الذي تؤمن به؟"

"إذا تأملت ما ورد بالفعل في الكتاب المقدس، وإذا تجاهلت الطريقة التي عُدّل فيها النص وتفسيره تفسيرًا خاطئًا بما يتناسب مع إرادة الكنائس المعمول بها، من الواضح تمامًا أن يسوع كان طبيبًا نفسيًا أو وسيطًا روحيًا. اختيرت الدائرة الداخلية لتلاميذ المسيح، وخصوصًا القديس بيتر والقديس جيمس والقديس جون، بعناية لقدراتهم الروحية. إن "معجزات" الكتاب المقدس –حسنًا، ليس فقط، كاملة- ليست إلا أمثلة على القوى الروحية ليسوع فقط"

"ماذا عن رفْع القديس لَعازر؟ وإطعام الخمسة آلاف؟"

---

58 Theosophy مصطلح ديني فلسفي. يعني الحكمة الإلهية ظهر في جذوره الأولى كممارسات روحية في الشرق الأقصى القديم بشكل خاص.

"هناك وسائط طبية تدعي أنها يمكنها أن تفحص من خلال جدران الجسم. وهناك وسائط متنوعة تدّعي نقل الأشياء عبر الزمان والمكان. وعيد الخمسين (العنصرة)، عندما نزلت ملائكة الرّب وتحدّثوا كلهم بلغات غير مفهومة نتيجة النشوة الدينية. ما هذا إلا جلسة تحضير أرواح؟ إنه الوصف الأكثر دقة للجلسة التي قرأتها!"

"لذا أصبحت مسيحيًا منذ طفولتك يا آرثر؟"

"ناهيك عن جان دارك[59]. من الواضح أنها كانت وسيطة رائعة"

"هي أيضًا؟"

يشك في أنها تسخر منه الآن... سيكون مثلها تمامًا، وهذا يسهل عليه، ولا يصعب عليه، شرح الأمور.

"كوني فكري في الأمر بهذه الطريقة. تخيلي أن مئة وسيط منهمكون في العمل. تصوري أن تسعة وتسعين منهم محتالون. هذا يعني، أن واحدًا منهم صادق أليس كذلك؟ وإذا صدق واحد، والظواهر النفسية الموجهة عبر هذا الوسيط جديرة بثقتنا، فقد أثبتنا قضيتنا. نحن في حاجة أن نثبت ذلك مرة واحدة فقط، وهو ما سيُثبَت للجميع وللأبد"

"إثبات ماذا؟" احتارت كوني بسبب استخدام شقيقها المفاجئ ضمير الجماعة "نحن"

"بقاء الروح بعد الموت. يجب أن نعثر على حالة واحدة، وعلينا أن نثبت ذلك للبشرية جمعاء. دعيني أخبرك عن شيء حدث قبل عشرين عامًا في ملبورن. وُثّق توثيقًا جيدًا في ذلك الوقت. أبحر شقيقان شابان إلى الخليج في زورقهما مع بحّار متمرس في التحكم بذراع الدّفة. كانت ظروف الإبحار جيدة، لكن للأسف لم يعودا أبدًا. كان والدهما وسيطًا روحانيًا، وبعد يومين من انقطاع الأخبار، استدعى حسّاسًا معروفًا -هو وسيط- لمحاولة تتبعهما. أُعطي الحسّاس بعض متعلقات الأخوين، وعالجها بالقياس النفسي لتقديم تقرير عن تحركاتهما. آخر ما استطاع أن يثبته أن قاربهما في وضع صعب للغاية، والارتباك سيد الموقف. وبدا أنهما فُقِدا إلى الأبد حتمًا.

أرى ذلك في عينك، كوني، وأعرف ما تفكرين فيه... أنك لست في حاجة إلى وسيط

---

59 Joan of Arc الملقبة بعذراء أورليان، ولدت لعائلة من الفلاحين في الوسط الشرقي من فرنسا عام 1412، وتُعدّ بطلة قومية فرنسية وقديسة في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

روحاني ليخبرك بذلك. لكن انتظري. بعد ذلك بيومين، عُقدت جلسة تحضير أخرى مع الحسّاس نفسه، وحضر الشابان اللذان تدربا على المعرفة الروحية في آن واحد. اعتذرا لوالدتهما، التي لم تكن ترغب في أن يُبحرا، وقدّما سردًا لانقلابهما، ووفاتهما غرقًا. أفادا بأنهما الآن في جو من البهجة والسعادة التي وعد بها والدهما. وقد أحضرا حتى البحّار الذي مات معهما لينطق بضع كلمات.

في نهاية الاتصال، أخبر أحد الشابين كيف مزقت سمكة ذراع الأخ الآخر. سأل الوسيط عما إذا كانت سمكة قرش، فأجاب الشاب أنها ليست مثل أي سمكة قرش رآها على الإطلاق. كُتب كل هذا في ذاك الزمن الآن، ونُشر بعض منه في الصحف. وُضعت علامة على التتمة. بعد بضعة أسابيع، نُقلت سمكة قرش كبيرة من الأنواع النادرة في أعماق البحار، وغير المألوفة للصيادين الذين اصطادوها، وغير معروفة تمامًا في المياه قبالة ملبورن، على بُعد حوالى ثلاثين ميلاً. عُثر في داخلها على عظم ذراع بشرية، وساعة يد، وبعض العملات المعدنية، ومقالات أخرى تخص الفتى أيضًا"، توقف فجأة. "الآن كوني، ما رأيك في ذلك؟"

تفكر كوني لبعض الوقت. ما تفهمه من ذلك هو أن شقيقها يخلط بين الدّين وحبه لإصلاح الأمور. يرى معضلة -الموت- ويبحث عن طريقة لحلها: هذه هي طبيعته. وتعتقد أيضًا أن فلسفة آرثر الروحانية لها صلة، على الرغم من أنها (أي الفلسفة) لا يمكنها أن تنجح، مع حبه للفروسية والرومانسية والإيمان في العصر الذهبي. لكنها تحصر اعتراضاتها على أساس أضيق.

"أستنتج من هذا يا أخي العزيز، أنها قصة رائعة، وأنت راوي قصص رائع، كما نعلم جميعًا. أعتقد أيضًا أنني لم أكن في ملبورن قبل عشرين عامًا، ولم تكن أنت كذلك"

لا يمانع آرثر في قبول صدّها. "كوني، أنت عقلانية عظيمة، وهذه هي الخطوة الأولى كَي تصبحي روحانية"

"أشك في أنك ستحولني يا آرثر" يبدو لكوني أنه روى لها للتو نسخة منقّحة من يونان (يونس) والحيتان -على الرغم من أن الضحايا كانوا أقل حظًا- ولكن أن تبني أي معتقدات على مثل هذه القصة سيكون فعل إيمان، كما حدث مع أولئك الذين سمعوا قصة يونان

لأول مرة. على الأقل الكتاب المقدس يرشّح المجاز. يتخيل آرثر الحكاية الرمزية، ويختار أن يأخذ بها حرفيًا؛ لأنه يكره المجاز. كما لو أن الحكاية الرمزية للحنطة والزوان مجرد نصائح للبستنة.

"كوني، ماذا لو مات شخص تعرفينه وتحبينه. وبعد ذلك تواصل هذا الشخص، وتحدث معك، وأخبرك بعض التفاصيل الحميمة التي لم يكن من الممكن كشفها عبر تحايل أي شخص؟"

"أعتقد يا آرثر أن هذا جسر آخر سأعبره إن بلغته في أي وقت"

"كوني، أنت الإنجليزية يا كوني. انتظري وشاهدي، انتظري وشاهدي ما سيحدث. ليس لي. أنا متأهب للعمل الآن"

"لطالما كنتَ كذلك يا آرثر"

"سنضحك. إنها قضية عظيمة، لكنها ليست معركة عادلة. يجب أن تتوقعي أن تري سخرية من أخيك. مع ذلك، تذكري دائمًا: حالة واحدة هي كل ما نحن في حاجة إليه. حالة واحدة وكل شيء سيثبت. إثباتًا لا يدع مجالاً للشك. إثبات بعد كل تفنيد علمي. فكري في الأمر يا كوني"

"شايُكَ بارد جدًا، الآن يا آرثر"

وهكذا تراكمت السنون تدريجيًا. مرت عشر سنوات منذ أن مرضت توي، وست منذ أن التقى جاين. مضت إحدى عشرة سنة منذ أن مرضت توي، وسبع منذ أن التقى جاين. مرت اثنتا عشرة سنة منذ أن مرضت توي، وثمان منذ أن قابل جاين. وتوي ما تزال مبتهجة وبلا ألم ومُغيّبة، إنه مُتيقِّن من المؤامرة اللطيفة التي أحاطت بها. تظل جاين في شقتها، وتدرب صوتها، وكلاب الصيد، وتقوم بزيارات مرافقة لأندرشو وزيارات بلا رفقة إلى ماسونغيل؛ إنها لا تحيد أبدًا عن الإلحاح على أن ما تملكه كافٍ لأنه كل ما يشتهيه قلبها، وتترك وراءها الإنجاب الآمن عامًا بعد عام. احتفظت الأم له بحجرته، وكاهن اعترافه، وطمأنينته. لا شيء يتحرك. ربما لن يتحرك شيء على الإطلاق، إلى أن ينقضّ التوتر على قلبه يومًا ما، وينفجر وينتهي ببساطة. لا يوجد مخرج، هذه هي قذارة

منصبه. أو بالأحرى، كل مخرج يشير إلى البؤس. قرأ في مجلة لاسكر للشطرنج وضعية تسمى زوغزوان، إذ لا يستطيع اللاعب نقل أي قطعة في أي اتجاه إلى أي مربع دون جعل حالته العرضة للخطر أسوأ بالفعل. هذا ما تبدو عليه حياة آرثر.

من ناحية أخرى حياة السير آرثر، والتي يراها معظم الناس، في هيئة ملكية. فارس المملكة، وصديق الملك، وبطل الإمبراطورية، ونائب ملازم في مقاطعة سَري. رجل تطلبه الجماهير باستمرار. طُلب منه في أحد الأيام التحكيم في منافسات الرجل القوي التي نظمها السيد ساندو لاعب كمال الأجسام في قاعة ألبرت الملكية. هو والنحّات لاوس المُقيِّمان، مع ساندو نفسه كحكم. يعرض ثمانون متنافسًا عضلاتهم في قاعة مكتظة على دفعات من عشرة. يبرز ثمانون في جلد النمر تقلصوا إلى أربعة وعشرين، وإلى اثني عشر، وإلى ستة، وأخيرًا إلى ثلاثة. من تبقى هم نماذج رائعة، لكن واحدًا منهم قصير بعض الشيء وآخر جسمه غير متناسق قليلاً، لذا يمنحون اللقب مع تمثال ذهبي ثمين لرجل من لانكشاير يدعى موراي. ثم يكافأ المحكّمون وبعض الشركات المختارة بعشاء شامبانيا متأخر. لاحظ السير آرثر عند السيْر في شوارع منتصف الليل، موراي وهو يمشي أمامه، والتمثال محشورًا بفتور تحت ذراع واحدة قوية. ينضم إليه السير آرثر، ويهنئه من جديد، ويدرك أنه شخص ريفي بسيط للغاية، ويسأل عن المكان الذي يعتزم المكوث فيه هذه الليلة. يقر موراي أنه لا يملك مالاً على الإطلاق، فقط تذكرة عودته إلى بلاكبيرن، ويخطط للسير في الشوارع المهجورة حتى يغادر قطاره في الصباح. لذا رافقه آرثر إلى فندق مورلي، وأمر الموظفين بالاعتناء به. في صباح اليوم التالي، وجد موراي يحتفل بمرح على سريره، وتتلألأ جائزته على الوسادة إلى جانبه أمام الخادمات والنُّدُل المذهولين. تبدو الصورة ذاتها نتيجة سعيدة، لكن هذه ليست الصورة التي تبقى في ذهن السير آرثر. إنه رجل يسير أمامه وحده. رجل حصل على جائزة عظيمة، وحظي بتقدير كبير، رجل مع تمثال من ذهب تحت ذراعه، ولا مال في جيبه، رجل يخطط للسير في الشوارع المضاءة بالغاز في عزلة حتى الفجر.

ثم هناك حياة كونان دويل، وهو حالة فريدة من نوعها أيضًا. إنه محترف للغاية ومفعم بالحيوية جدًا، على أن يعاني من حبسة الكاتب لأكثر من يوم أو يومين. إنه يحدد القصة ويبحث عنها ويخطط لها، ثم يكتبها. إنه واضح تمامًا بشأن مسؤوليات الكاتب: فهي أولاً

يجب أن تكون واضحة، وثانيًا ألا تخلو من الإثارة، وثالثًا أن تكون محبوكة بذكاء. إنه يعرف قدراته الخاصة، ويدرك أيضًا أن القارئ هو الملك في النهاية. لهذا السبب أُعيد السيد شيرلوك هولمز إلى الحياة، وسمح له بالنجاة من شلالات رايشنباخ بفضل معرفة المصارعة اليابانية، والقدرة على التسلق بين أسطح الصخور المطلقة. إذا أصر الأمريكيون على تقديم خمسة آلاف دولار لمجرد ست قصص جديدة - ومقابل حقوق النشر في أمريكا فقط - فماذا يمكن للدكتور كونان دويل أن يفعل عدا عن رفع يديه في استسلام، والسماح لنفسه بأن يُقيّد أمام المحقق المستشار في المستقبل القريب؟ وحصل الشخص على مكافآت أخرى: فقد منحته جامعة إدنبرة دكتوراه فخرية في الآداب. قد لا يكون أبدًا رجلاً ضخمًا مثل كيبلينغ، لكنه حين سار في موكب في المدينة التي ولِد فيها، شعر بالراحة في هذه الأردية الأكاديمية، أكثر من ذلك، عليه أن يعترف أكثر من زي نائب الملازم الجذّاب في مقاطعة سَري.

ثم هناك حياته الرابعة، لا يكون فيها آرثر، ولا السير آرثر، ولا الدكتور كونان دويل؛ الحياة التي يكون فيها اسمًا غير ذي صلة بالموضوع، مثل الثروة والمكانة والمظهر الخارجي والدرع الجسدي، إنه عالم الروح. تنامى لدية شعور بأنه ولد لشيء آخر مع كل عام. هذا ليس سهلاً. ولن يكون سهلاً أبدًا. إن الأمر ليس مثل الانخراط في إحدى الديانات الراسخة. إنه جديد وخطير ومهم للغاية. إذا نويت أن تصبح هندوسيًا، فسينظر إليك المجتمع على أنك غريب الأطوار، وليس مختلاً. ولكن إذا تهيأت للانفتاح على عالم استحضار الأرواح، فيجب أن تكون مستعدًا لتحمّل الفظائع، والمفارقات الضحلة التي تضلّل بها الصحافة الجمهور أيضًا. ومع ذلك، من هم المتهكمون والمتشائمون والصحفيون المأجورون مقارنة بكروكس ومايرز ولودج وألفريد راسل والاس؟

العلم هو رائد السبيل، وهو من سيقلل عدد المستهزئين كما هو الحال دائمًا. من آمن بموجات الراديو؟ من صدّق الأشعة السينية؟ من آمن بالآرغون والهيليوم والنيون والزينون، التي اكتُشفت كلها في السنوات الأخيرة؟ إن غير المرئي وغير الملموس ما يقع مباشرة تحت سطح الحقيقة وما تخفيه بشرة الكائنات فعلاً، أصبح مرئيًا وملموسًا أكثر فأكثر. في النهاية يتعلّم العالم، وسكانه المكفوفون أن يروا.

إليك كروكس. ماذا يقول كروكس؟ "إنه أمر لا يصدق لكنه صحيح" الرجل الذي

يحظى عمله في الفيزياء والكيمياء بالإعجاب في كل مكان لدقته وصدقه. الرجل الذي اكتشف الثاليوم، وقضى أعوامًا في دراسة خصائص الغازات المخلخلة، والمعادن الأرضية النادرة. من الأفضل أن ينطق في هذا العالم المخلخل بالقدر نفسه، هذه المنطقة الجديدة التي لا يمكن لذوي العقول البليدة والأرواح المكبلة الوصول إليها؟ إنه أمر لا يصدق، لكنه حقيقي.

ومن ثم ترحل توي. انقضت ثلاث عشرة سنة على مرضها، وتسعة أعوام منذ أن التقى جاين. الآن، في ربيع عام ألف وتسعمئة وستة، بدأت في الهذيان الطفيف تدريجيًا. حضر السير دوغلاس باول على الفور. شاحب الوجه، وأملس الرأس، مع ذلك لا يزال رسول الموت الأكثر لطفًا. هذه المرة، لا توجد فرصة للتأجيل، ويجب على آرثر أن يُعدّ نفسه لما تنبّأ به منذ فترة طويلة. بدأت طقوس اليقظة. لا يزال الخط الأحادي لسكة أندرشو المتصدع ساكنًا، ومضمار الرماية خارج الحدود، وشبكة التنس أُنزلت لهذا الموسم. ظلّت توي دون ألم، سَلِسة في تفكيرها، حيث تتبدّل أزهار الربيع في حجرتها إلى زهور أوائل الصيف. بدأت في التدهور نحو فترات أطول من الهذيان وشيئًا فشيئًا. وصلت الحُديبات[60] إلى دماغها، والشلل الجزئي إلى جانبها الأيسر ونصف وجهها. كتاب تقليد المسيح غير المفتوح، وآرثر الحاضر دائمًا.

حتى النهاية، ظلت تمُيّزه. قائلة: "ليباركك الرّب" و "شكرًا لك، يا عزيزي" وعندما يرفعها وهي في السرير، تُهمهِم: "هذا هو المطلوب". بمرور شهر يونيو إلى يوليو، بدا من الواضح أنها تحتضر. في اليوم نفسه، بقي آرثر إلى جانبها. نظرا ماري وكينغزلي إليها بخوف غريب، ممزوج بنصف حرج من وجه والدتهما المشلول. يترقبان بصمت. توفيت توي متشبثة بيد آرثر عند الساعة الثالثة صباحًا. إنها في التاسعة والأربعين، وآرثر في السابعة والأربعين. مكث في حجرتها بعد وفاتها. وقف إلى جانب جسدها، حدّث نفسه أنه بذل قصارى جهده. وهو يعلم أيضًا أن هذه القشرة المهجورة، المُسجّاة على السرير، ليس كل ما

---

60 يصف مصطلح "حديبة" في علم التشريح عُقيدَة دائرية أو بارزة صغيرة أو نمو ثؤلوي يوجد على العظم أو البشرة، ويوجد في الرئتين في الحالات المصابة بمرض السل.

تبقى من توي. الكائن الأبيض والشاحب هذا هو مجرد شيء خلّفته وراءها.

يشعر آرثر في الأيام التالية تحت وطأة كلمات المُقرّبين التي تُطري الفقيدة، بشعور راسخ بالواجب الذي عليه. دُفنت توي مثل السيدة دويل تحت صليب رخامي في غريشوت. تصل رسائل المواساة من العظيم والمتواضع، ومن الملك والخادم، ومن زملائه الكتّاب وقرائه المنتشرين، ومن أندية لندن والبؤر الاستيطانية للإمبراطورية. لمست التعازي آرثر في البداية وشرّفته، وبعد ذلك مع استمرارها، تزايد انزعاجه. ما الذي فعله بالضبط ليستحق هذه المشاعر القلبية الخالصة، ناهيك عن الافتراضات التي تقف وراءها؟

جعلته هذه التعابير عن المشاعر الحقيقية يشعر بأنه مُراءٍ. كانت توي هي الزوجة الوديعة التي يمكن أن يمتلكها الرجل.

يتذكر أنها عرضت عليه الجوائز العسكرية في شارع كلارنس إسبليناد، يراها تقضم بسكويت البحر بين شفتيها في فكتوالينغ يارد، يرقص معها الفالس حول طاولة المطبخ عندما كانت حُبلى مثقلة بماري. يسرع بها إلى فيينا المجمدة، يلف بطانية حولها في دافوس، ويلوح لشخصية مُستلقية على شرفة فندق مصري قبل أن يقذف كرة غولف عبر الرمال باتجاه أقرب هرم. يتذكر ابتسامتها وطيبة قلبها. لكنه يتذكر أيضًا أن سنوات مرت منذ أن وضع يده على قلبه، وأقسم أنه أحبها. ليس فقط منذ ظهور جاين، ولكن قبل ذلك أيضًا. لقد أحبها كأفضل ما يمكن للرجل، على اعتبار أنه لم يحبها.

هو يعلم أن عليه أن يقضي الأيام والأسابيع التالية مع أطفاله؛ لأن هذا ما يفعله الوالد المكلوم. كينغزلي في الثالثة عشرة وماري في السابعة عشرة: الأعمار التي تفاجئه الآن. جزء منه جمّد الزمن من اليوم، والعام الذي التقى فيه جاين... وهو اليوم الذي عاد قلبه فيه إلى الحياة، ووُضع في حالة حياة معلقة أيضًا. يجب أن يعتاد على فكرة أن أطفاله سيصبحون بالغين قريبًا.

إذا كان في حاجة إلى أي تأكيد على ذلك، فسرعان ما توفره ماري. في جلسة شاي بعد ظهر أحد الأيام القليلة التي تلت الجنازة، أخبرته ماري بصوت بالغ مثير للقلق: "أبي، عندما كانت أمي تحتضر، قالت إنك ستتزوج مرة أخرى"

على الأغلب كاد آرثر أن يختنق بقطعة الكعك. يمتقع لونه، ويضيق صدره. ربما هذا

هو الانقلاب الذي تنبأ بشيء منه. "هل فعلت... بحق الرّب؟" وبالتأكيد لم تذكر توي الموضوع أمامه.

"نعم. لا، ليس تمامًا. ما قالته كان..." وتتوقف ماري مؤقتًا فيما يشعر والدها بنشاز في رأسه، واضطراب في أحشائه "... ما قالته هو أني لا يجب أن أشعر بالصدمة إذا تزوجتَ مرة أخرى؛ لأن هذا ما تريده لك"

لا يعرف آرثر بم يفكر. هل نصب أحدهم فخًا له، أم لا وجود لفخ؟ هل توي بعد كل شيء مشتبه فيها؟ هل أمّنت ابنتهما على أسرارها؟ هل كانت ملحوظة عامة أم خاصة؟ لقد عاش مع الكثير من الشك الملعون على مدى السنوات التسع الماضية لدرجة أنه يشك في قدرته على تحمل المزيد.

"وهل لديها..." يحاول آرثر أن يكون خفيف الظل، حين يدرك أن هذه ليست النبرة الصحيحة -ولكن بعد ذلك لا توجد نبرة صحيحة- "وهل في بالها أي مرشحة معينة؟"

"أبي!" من الواضح أن ماري صدمت من الفكرة ذاتها، وكذلك من نبرته.

تمضي المحادثة إلى منطقة أكثر أمانًا. لكنها تبقى مع آرثر خلال الأيام التالية، حيث يأخذ الأزهار إلى قبر توي، يقف ذاهلًا في حجرتها الفارغة، يتجنب مكتبه، ويجد أنه لا يستطيع مواجهة رسائل التعزية، ورسائل المواساة الحقيقية، التي تستمر في الوصول. أفنى تسع سنوات في حماية توي من معرفة وجود جاين، تسع سنوات في محاولة النأي بها عن أي لحظة حزن. لكن ربما هاتان الرغبتان - كانتا دائمًا - متضاربتين. إنه يُسلّم بسهولة أن المرأة ليست مجال خبرته. هل تعلم المرأة حين تقع في حبها؟ إنه يتخيل ويعتقد ويعلم ذلك، لأن هذا هو ما اعترفت به جاين، في تلك الحديقة المشمسة، حتى قبل أن يدرك ذلك بنفسه. وإذا كان الأمر هكذا، فهل تعرف المرأة متى تتوقف عن حبها؟ وهل تعلم المرأة أيضًا عندما تقع في حب أخرى؟ قبل تسع سنوات، دبّر مغامرة غرامية متقنة لحماية توي، شملت جميع من حولها. لكنه في النهاية ربما هو مجرد مخطط لحماية نفسه وجاين. ربما يمكن اعتبارها أنانية بالكامل، وهو ما استشفّته توي عبر الخداع. ربما هي تعلم طوال الوقت. لا يمكن أن تشتبه ماري في العبء الكامل لفحوى رسالة توي عن الزواج مرة أخرى، لكنه يصيب آرثر الآن. ربما أدركت منذ البداية، وشاهدت إعادة ترتيبات آرثر المزرية للواقع من

فراش المرض، وفهمت وابتسمت على كل كذبة صغيرة أخبرها بها زوجها، وتخيلته في الطابق السفلي مشغولاً يهاتف العاهرة. لقد شعرت بالعجز عن الاحتجاج؛ لأنها لم تعد قادرة على أن تكون زوجة له بالمعنى الكامل. وماذا لو -أصبحت الآن شكوكه أكثر قتامة- ماذا لو علمت بأهمية جاين منذ البداية، واستمرت في التخمين؟ ماذا لو وجدت نفسها مجبرة على الترحيب بـجاين في أندرشو فيما تتخيلها عشيقة آرثر؟

تتعقب ذاكرة آرثر القوية والعنيدة المسألة أكثر. حواراته مع ماري لها تداعيات أكثر من تلك التي رآها لأول مرة. وهو يدرك الآن أن موت توي لن يضع حدًا لخداعه. يجب ألا يسمح أبدًا لماري أن تعلم أنه أحب جاين خلال تلك السنوات التسع الطويلة الماضية. ولا يجب أن يعلم كينغزلي. يقال إن الأولاد غالبًا ما يأخذون خيانة أمهم بصعوبة أكثر من الفتيات.

يتخيل إيجاد اللحظة المناسبة، والتدرب على الكلمات، ثم التنحنح ومحاولة أن يبدو -ماذا؟- وكأنه بالكاد قادر على تقدير ما هو على وشك قوله.

"عزيزتي ماري، هل تعرفين ما قالته أمك قبل وفاتها؟ عن أنه من الممكن أن أتزوج مرة أخرى في يوم من الأيام. حسنًا، يجب أن أبلغكم أنه لدهشتي الكبيرة، سيثبت صحة ما قالته"

هل سيجد نفسه يقول مثل هذه الكلمات؟ وإن كان الأمر كذلك، فمتى؟ قبل نهاية العام؟ لا، بالطبع لا. ولكن في العام القادم، بعد عام؟ ما مدى سرعة السماح للأرمل المكلوم بالوقوع في الحب مرة أخرى؟ إنه يدرك كيف يشعر المجتمع حيال المسألة، ولكن بماذا يشعر الأطفال... أطفاله على وجه الخصوص؟

ثم يتخيل أسئلة ماري. من هي يا أبي؟ آه، آنسة ليكي. التقيت بها حين كنت صغيرة، أليس كذلك؟ ثم توالت لقاءاتنا. ثم بدأت القيام بزيارات إلى أندرشو. في كثير من الأحيان حسبت أنها ستكون متزوجة. من حسن حظك أنها لا تزال غير مرتبطة. كم عمرها؟ واحد وثلاثون؟ هل انتظرت على الرف يا بابا؟ أنا مندهشة ألا يكون لها أحد. ومتى أدركت أنك تحبها يا أبي؟

ماري لم تعد طفلة. قد لا تتوقع أن يكذب والدها، لكنها ستلحظ أدنى تناقض في

قصته. ماذا لو ارتكب خطأ فادحًا؟ يزدري آرثر هؤلاء الأشخاص الذين يجيدون الكذب، وينظمون حياتهم العاطفية -حتى زيجاتهم- على أساس ما يمكن أن يتملّصوا منه، ويتفوهون بنصف حقيقة هنا، وكذبة كاملة هناك. لطالما دوّى صوت آرثر بأهمية قول الحقيقة عند أولاده. الآن يجب أن يلعب دور المنافق على أكمل وجه. يجب عليه أن يبتسم، وأن يبدو مسرورًا بخجل، وأن يتظاهر بالاندهاش، وأن يختلق قصة حب كاذبة عن كيف أحب جاين ليكي، وأن يسردها على طفليه، ثم يحفظها لبقية حياته. ويجب عليه أن يطلب من الآخرين أن يفعلوا الشيء نفسه نيابة عنه.

لم تحضر جاين الجنازة بالمعنى الصحيح، بعثت برسالة تعزية. وبعد أسبوع أو نحو ذلك قادها مالكوم من كروبورو. لم تكن اللقاءات أسهل. عندما وصلا، وجد آرثر أنه لا يستطيع عناقها أمام أخيها، وهكذا قبّل يدها بدافع الغريزة. بدت هذه بادرة خاطئة -هناك شيء ما طريف حول هذا الموضوع تقريبًا- وقد أرست انطباعًا محرِجًا لن يزول. أحسنت التصرف بلا شائبة تذكر، كما تيقن أنها ستفعل. لكنه شعر بالحيرة. حتى قرر مالكوم ببراعة تفقد الحديقة، وجد آرثر نفسه يتجول تجوّل اليائس، منتظرًا التوجيه. لكن مِن مَن؟ من توي المنصوبة خلف زاويتها لتقديم خدمة الشاي؟ لم يكن يعرف ماذا يقول، ولذلك استخدم حزنه كقناع أخرق، لقلة سعادته برؤية وجه جاين. شعر بالسعادة عندما عاد مالكوم من رحلته البستانية الزائفة. غادرا بعد ذلك بوقت قصير، وشعر آرثر بالتعاسة.

المثلث الذي عاش فيه -بشكل مثير للقلق ولكن بأمان- لفترة طويلة نقص الآن، والهندسة الجديدة تخيفه. انحسر حزنه العظيم، وتفوقت عليه البلادة. يتجول في أراضي أندرشو كما لو أن شخصًا غريبًا مدّها منذ فترة طويلة. يزور خيله لكنه لا يرغب في أن يثقلها بالسّرج. يذهب يوميًا إلى قبر توي، ويعود منهكًا. يتخيلها تشجعه، وتطمئنه أنه كيفما تكمن الحقيقة، فقد أحبته دائمًا وتغفر له الآن، ولكن يبدو أن هذا أمر عبثي وأناني ليطلبه من امرأة ميتة. يجلس في مكتبه لساعات طويلة، يدخن وينظر إلى الجوائز المتلألئة المجوفة التي حصل عليها بصفته رياضيًا وكاتبًا ناجحًا. تبدو كل حُليّه لا معنى لها إلى جانب حقيقة وفاة توي.

يترك جميع مراسلاته مع وود. لقد تعلم سكرتيره منذ فترة طويلة تقليد توقيع صاحب

العمل، وكتابته، وصياغته، وحتى آرائه. ليكن السير آرثر كونان دويل لفترة... صاحب الاسم ليس لديه الرغبة في أن يكون هو نفسه. قد يفتح وود كل شيء، ويتجاهل أو يجيب كما يشاء.

ليست لديه طاقة. يأكل قليلاً. من الفحش أن يكون جائعًا في مثل هذا الوقت. يستلقي في الفراش. لا يستطيع النوم. ليست لديه أعراض، فقط ضعف عام شديد. يستشير صديقه القديم ومستشاره الطبي تشارلز غيبس، الذي خدم معه منذ أيامه في جنوب إفريقيا. يخبره غيبس أنها أعراض كل شيء ولا شيء، بعبارة أخرى، إنها أعصاب.

قريبًا، ستغدو أكثر من أعصاب. تنهار أمعاؤه. على الأقل هذا ما يمكن أن يحدده غيبس، حتى لو كان لديه القليل مما يمكنه القيام به حيال ذلك. لا بد أن بعض الميكروبات دخلت إلى نظامه في بلومفونتين العاصمة أو في حقول الرعي في جنوب إفريقيا، وتكمن هناك، في انتظار أن تتفشى حين يكون في أضعف حالاته. يصف غيبس عقارًا منومًا. لكنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا حيال الميكروب الآخر في جسم مريضه، وهو ما لا يمكن القضاء عليه، إنه ميكروب الذنب.

على الدوام تخيل أن مرض توي الطويل سيعدّه بطريقة ما لموتها. تخيّل أن الحزن والشعور بالذنب إذا تعاقبا دائمًا، فإنهما سيكونان أكثر وضوحًا، وأكثر تحديدًا، وأكثر ثباتًا. وبدلاً من ذلك، إنهما يبدوان مثل حالة الطقس، مثل الغيوم التي يعاد تشكيلها باستمرار إلى أشكال جديدة، وتنفخها رياح مجهولة يصعب تعريفها.

يعلم أنه يجب أن يتحمس، لكنه يشعر بالعجز بعد كل شيء، هذا سيعني أن يتحمّس للكذب مرة أخرى. أولاً لإضفاء الطابع التاريخي على الكذبة القديمة عن حبه الصادق وإخلاصه في حياته الزوجية مع توي، والبدء في ترتيب كذبة جديدة، عن حضور جاين غير المتوقع لمواساة قلب الأرمل المكلوم. فكرة هذه الكذبة الجديدة تثير اشمئزازه. في حالة الفتور هذه، توجد حقيقة على الأقل: منهك، يعاني من أمعائه، ويجرجر نفسه من غرفة إلى غرفة، ولا يخدع أحدًا على الأقل. عدا ذلك: ينسب الجميع حالته لمجرد الحزن.

إنه مُراءٍ ومحتال. بطريقة أو بأخرى، شعر بأنه مُحتال دائمًا، وكلما أصبح أكثر شهرة، تضاعف شعوره بالخداع. لقد أُشيد به كرجل عظيم من هذا العصر، ولكن على الرغم من

أنه يقوم بدور فاعل في العالم، إلا أن قلبه يحس بخلل ما. إن أي رجل عادي في هذا العمر لم يكن ليتردد في جعل جاين عشيقته. هذا ما يفعله الرجال في الوقت الحاضر كما لاحظ، حتى في طبقات المجتمع الراقي. لكن مبادئه تنتمي لحسن الحظ إلى القرن الرابع عشر. وحياته الروحية؟ حكمت عليه كوني أنه مسيحي في وقت مبكر. إنه يفضل أن يحدد موقفه في المستقبل. في القرن الحادي والعشرين؟ الثاني والعشرين؟ كل هذا يتوقف على مدى سرعة استيقاظ البشرية النائمة، وتعلم كيفية استخدام عينيها.

ثم تتداعى أفكاره بالفعل إلى الأسوأ. بعد تسع سنوات من الرغبة -في محاولة عدم الاعتراف بالرغبة- يحصل على المستحيل، أصبح الآن حرًا. يمكنه أن يتزوج جاين صباح الغد، ويواجه جدالات القرويين الأخلاقية فحسب. لكن الرغبة في المستحيل تُقدّس المرغوب. الآن بعد أن أصبح المستحيل ممكنًا، إلى أي حد يرغب فيه؟ لا يمكنه حتى أن يفكر بهذا الآن. يبدو الأمر كما لو أن عضلات القلب، المنهكة لفترة طويلة، تحولت إلى مطاط مهترئ.

سمع ذات مرة قصة، رُوِيت على الميناء، لرجل متزوج احتفظ بعشيقة لأمد طويل. وُصِفت هذه المرأة أنها ذات مكانة اجتماعية جيدة، ومن المؤكد أنها مناسبة للزواج منه، وهو ما كان متوقعًا وواعدًا دائمًا. وفي النهاية توفيت الزوجة، وفي غضون أسابيع تزوج الأرمل حسب الأصول. لكن ليس عشيقته. بل امرأة شابة من طبقة اجتماعية أدنى التقى بها بعد أيام من الجنازة. في ذلك الوقت بدا لآرثر وكأنه نذل مرتين: نذل مع الزوجة، ثم نذل مع العشيقة.

إنه الآن يدرك مدى سهولة حدوث مثل هذه الأمور. في الأشهر الصعبة منذ وفاة توي، بالكاد تعاطى مع المجتمع، وأولئك الذين تعرّف عليهم لم يتركوا إلا انطباعًا بسيطًا. مع ذلك -ومع السماح بحقيقة أنه لا يفهم الجنس الآخر- عمل بعض أعضائه على التقرّب منه. لا، هذا مبتذل وغير عادل. لكن بالتأكيد، نظروا إليه نظرة مختلفة إلى هذا المؤلف الشهير، فارس من فرسان المملكة، الذي أصبح الآن أرمل. يمكنه أن يتخيل كيف يمكن للمطاط المهترئ أن يتقطّع فجأة، وكيف أن سذاجة فتاة صغيرة، أو حتى ابتسامة مِغناج عطرة، قد تخترق فجأة قلبًا مؤقتًا منيعًا على ارتباط طويل وسِرّي. إنه يفهم سلوك النذل المزدوج. أكثر

من فهمه هذا: إنه يرى الفائدة منه. إذا سمحت لنفسك بالاستسلام لمثل هذا الحب من أول نظرة، فهذه هي نهاية الكذب على الأقل: ليس عليك أن تُعلِن حبك السّرّي الطويل وأن تقدمها كزوجة جديدة. ليس عليك أن تكذب على أطفالك بقية حياتك. أما زوجتك الجديدة: نعم، أنت تقول، أعلم كيف تصدمك، ولا يمكنها أبدًا أن تحل محل ما لا يمكن تعويضه، لكنها جلبت القليل من البهجة والمواساة إلى قلبي. قد لا يكون الصفح المطلوب وشيكًا، ولكن على الأقل سيكون الوضع أقل تعقيدًا.

يلتقي جاين ثانية، مرة مع رفقة وأخرى بمفردهما، وفي كلتا الفرصتين يستمر الإحراج بينهما. يجد نفسه ينتظر أن ينبض قلبه مرة أخرى -لا، إنه يأمر قلبه بالنبض مرة أخرى- ويأبى تأدية مهماته. لقد اعتاد على إجبار أفكاره، والضغط عليها وتوجيهها إلى حيث يجب أن تكون، تأتي بمثابة صدمة أنه غير قادر على فعل الشيء نفسه مع العواطف الرقيقة. تبدو جاين رائعة كما هي دائمًا، باستثناء أن جاذبيتها لا تؤدي إلى الاستجابة الطبيعية. يبدو أن شيئًا من الضعف في ضربات القلب قد أصابه.

خفف آرثر من عذاب التفكير عبر المجهود البدني. لكنه لا يشعر بالرغبة في ركوب الخيل، أو الملاكمة أو ضرب الكرة في لعبة الكريكت أو التنس أو الغولف. ربما، إذا نقل على الفور إلى وادي جبال الألب المرتفع المغطى بالثلوج، فقد يتسبب نسيم جليدي في تبديد الهواء النَّتِن الذي يُخيّم على روحه. لكن ذلك يبدو مستحيلاً. الشخص الذي كان عليه من قبل، الرجل الرياضي الذي أحضر زلاجاته النرويجية إلى دافوس وعبر ممر فوركا مع الإخوة برانغر، يبدو أنه رحل منذ أمدٍ بعيد، بعيدًا عن الأنظار على الجانب الآخر من الجبل.

عندما يتوقف عقله عن الانحدار فترة طويلة، وحين يشعر بوطأة الحمّى تخف في عقله وأمعائه، يحاول أن يصفي عقله، ليؤسس مساحة صغيرة من التفكير البسيط. إذا لم يتمكن الرجل من أن يعبّر عمّا يريد القيام به، يجب عليه أن يكتشف ما يجب أن يفعله. إذا أصبحت الرغبة معقدة، إذن تمسك بالواجب. هذا ما فعله مع توي، وما يجب عليه فعله الآن مع جاين. لقد أُغرم بها بيأس وأمل على مدى تسعة أعوام. مثل هذا الشعور لا يمكن أن يتلاشى ببساطة، لذا عليه أن ينتظر عودته. حتى ذلك الحين، يجب

عليه أن يتفاوض بشأن مستنقع غريمبين ماير الكبير، حيث حُفَر الطحالب الخضراء المجمعة، والبِركة القذرة على كل جانب تهدد بسحب أيٍّ كان وابتلاعه إلى الأبد. يجب عليه الاستعانة بكل ما تعلمه حتى الآن، من أجل رسم مساره. في المستنقع هناك علامات خفية -حُزم من القصب والعصي المزروعة استراتيجيًا- لتوجيه الإنسان الجديد إلى أرض أكثر رسوخًا. والأمر نفسه يحدث عندما يضيع الإنسان أخلاقيًا. يكمن المسار حيث يُشير الشرف. أرشده الشرف كيف يتصرف في الأعوام الماضية، والآن الشرف يجب أن يرشده إلى وجهته. يربطه الشرف بجاين، كما ربطه بـتوي. لا يستطيع أن يحدد من على هذه المسافة ما إذا سيغدو سعيدًا حقًا مرة أخرى، لكنه يدرك أنه لا وجود للسعادة حين يغيب الشرف.

الأطفال بعيدون في المدرسة. المنزل صامت. الرياح تمزّق الأشجار العارية. نوفمبر يتحول إلى ديسمبر. إنه يشعر باستقرار أكبر، كما أشاروا عليه. ذات صباح، تجول في مكتب وود؛ ليتفحص مراسلاته. تصله ستون رسالة يوميًا في المتوسط. خلال الشهور الماضية، اضطر وود إلى تطوير نظام: يجيب بنفسه على أي شيء يمكن التعامل معه على الفور. أما العناوين التي تتطلب رأي أو قرار السير آرثر توضع في صينية خشبية كبيرة. إذا لم يكن لدى رب عمله بحلول نهاية الأسبوع، العاطفة أو الرغبة لتقديم أي توجيه، فإن وود يتخلص منها بأفضل ما يمكن.

اليوم توجد رزمة صغيرة فوق الصينية. قلّص آرثر نصف المحتويات. هناك غلاف رسالة مثبت في ملف قصاصات من صحيفة اسمها ذي أمباير. لم يسبق له أن سمع بها. ربما تتعامل مع لعبة الكريكت. لا، من ورق الصحيفة الوردي يمكنه أن يقول إنها صحيفة من الصحف الصفراء. يلقي نظرة خاطفة على توقيع الرسالة. يقرأ اسمًا لا يعني له شيئًا على الإطلاق: جورج إدالجي.

ثلاثة

نهاية البداية

آرثر وجورج

منذ أن حلّ شيرلوك هولمز قضيته الأولى، وردت الطلبات والمطالبات من جميع أنحاء العالم. إذا اختفى أشخاص أو بضائع في ظروف غامضة، إذا ارتبكت الشرطة أكثر من المعتاد، إذا أُجهضت العدالة، فعندئذ يبدو أن الغريزة البشرية تتجه للاستغاثة بهولمز ومبتكره. تعاد الرسائل المعنونة إلى ب221 شارع بيكر تلقائيًا الآن بواسطة مكتب البريد مختومة بعبارة **عنوان غير معروف**، وبالمثل عوملت تلك التي أُرسلت إلى هولمز لعناية السير آرثر. كثيرًا ما صُدم ألفريد وود على مر السنين، بالطريقة التي يفخر بها ربّ العمل في الوقت نفسه بخلق شخصية يؤمن القراء بوجودها الحقيقي بسهولة، وعندما يأخذون هذا الاعتقاد إلى نهايته المنطقية ينتابه الضيق.

في ذاك الوقت، وُجّهت مناشدات للسير آرثر كونان دويل لشخصه ذاته، مكتوبة على افتراض أن أي شخص لديه الذكاء والمكر لابتكار مثل هذه الجرائم الخيالية المعقدة، يجب أن يكون مجهزًا لحل تلك الجرائم الحقيقية. إذا لفتت نظر السير آرثر أو تأثر بها عاطفيًا، سيستجيب في بعض الأحيان، على الرغم من السلبيات. سيشرح أنه للأسف، ليس محققًا استشاريًا أكثر من كونه رامي نبالٍ إنجليزيًّا في القرن الرابع عشر أو ضابط سلاح فرسان لبقًا تحت قيادة نابليون بونابرت.

حين عرض وود ملف إدالجي عرضه مع سقف توقعات ضئيلة. مع ذلك، في هذه المرة، عاد السير آرثر إلى مكتب سكرتيره في غضون ساعة، في منتصف حالة الظلم تلك حتى عندما اقتحم الباب.

قائلًا: "إنها واضحة مثل موظف جمع العبوّات. الرجل ليس مذنبًا أكثر من آلتك الكاتبة. أسألك يا وودي! إنها دعابة. إنها مسألة الغرفة المقفلة بالمقلوب... السؤال هنا ليس كيف يدخل بل كيف يخرج؟ إنه بالٍ كما يمكن أن يكون باليًا"

لم ير وود ربّ عمله ساخطًا جدًا منذ شهور. "هل ترغب في الرد؟"

"الرد؟ سأقوم بأكثر من الرد. سأثير القضية. سأضرب بعض الرؤوس ببعضها. سأُشعِرهم بالأسف على اليوم الذي سمحوا فيه بوقوع هذا لرجل بريء"

لم يتأكد وود حتى الآن من "هم"، أو في الواقع ما هو "هذا" الذي "وقع". لاحظ القليل في الالتماس المُقدَّم إليه، بصرف النظر عن اسم العائلة الغريب، لتمييزه عن العشرات من حالات إخفاق العدالة المفترضة التي يُتوقع من السير آرثر أن يقلبها بمفرده. لكن وود ليس معنيًا في الوقت الحالي بحقوق أو أخطاء قضية إدالجي. إنه يشعر بالارتياح فقط لأن ربّ عمله يبدو أنه خلال ساعة، تجاهل ما أصابه من الخمول والقنوط في الشهور الماضية.

شرح جورج الموقف الشاذ الذي وجد نفسه فيه في رسالة توضيحية. ونَفّذ قرار الإفراج عنه السيد هربرت غلادستون وزير الداخلية الحالي بإذن من السيد آكرز-دوغلاس الوزير السابق، لكن أيًا منهما لم يقدم أي تفسير رسمي للأسباب. لم تُلغَ إدانة جورج، ولم يُقدّم أي اعتذار عن سجنه. اطلعت إحدى الصحف المتواطئة دون شك مع بعض البيروقراطيين بالإيماء والغمز على مأدبة غداء، وأفادت بلا خجل بأن وزارة الداخلية ليس لديها شك في ما يتعلق بثبوت إدانة السجين لكنها أفرجت عنه؛ لأن ثلاث سنوات اعتبرت العقوبة المناسبة للجريمة المعنية. أظهر السير ريجينالد هاردي لنفسه في قراره بشأن السبع سنوات، لمسة حماس في الدفاع عن شرف ستافوردشاير. وصوّب وزير الداخلية هذه النوبة من الحماس فقط.

وكل هذا يترك جورج في قنوط معنوي ونسيان عملي. هل يعتقدون أنه مذنب أم غير مذنب؟ هل يعتذرون عن إدانته أم يؤكدونها مجددًا؟ ما لم تُشطب الإدانة، فإنه من المستحيل أن يدخل مرة أخرى في القوائم الرسمية. ربما تتوقع وزارة الداخلية أن يُظهر جورج ارتياحه بالصمت، وامتنانه بالتسلل بعيدًا إلى مهنة أخرى، ويفضل في المستعمرات. ومع ذلك، فقد نجا جورج من السجن فقط بسبب التفكير والأمل في العودة إلى العمل -بطريقة أو بأخرى- كمحامٍ. وأنصاره، الذين وصلوا حتى الآن، ليس لديهم أي نية للاستسلام أبدًا. لقد منح أحد أصدقاء السيد يلفيرتين جورج وظيفة مؤقتة في مكتبه ككاتب. ولكن هذا ليس حلًا. الحل يمكن أن يأتي من وزارة الداخلية فقط.

تأخر آرثر عن موعده مع جورج إدالجي في فندق غراند، شارع تشارينغ كروس. حجزته بعض الأعمال التجارية مع مصرفه، لكنه الآن يحثّ الخطى، ويدخل البهو، وينظر حوله. ليس من الصعب تمييز ضيفه المُنتظِر: الوجه البني الوحيد الجالس جانبًا على بُعد

حوالى اثني عشر قدمًا منه. همّ آرثر في التقدم والاعتذار حين جعله شيء ما يتراجع. ربما يكون من غير اللائق أن يرقبه من بعيد، ولكن لم يكن ذلك من أجل لا شيء. ذات مرة عمل كموظف استقبال المرضى في العيادة الخارجية للدكتور جوزيف بيل.

لذلك: يكشف الفحص الأولي أن الرجل الذي يوشك على مقابلته صغير وهزيل، من أصل شرقي، ويصفف جزءًا من شعره على اليسار المقصوص حديثًا. ويضع نظارة، ويرتدي ملابس محترمة ومحافِظة لمحامٍ محلي. كل هذا صحيح بلا جدال، ولكن هذا لا يشبه تحديد هوية ماسح أحذية فرنسي أو إسكافي من الصفر. ومع ذلك، لا يزال آرثر يواصل المراقبة، وهو يرجع إلى الوراء، ليس إلى إدنبرة الدكتور بيل، ولكن إلى أعوامه التي أمضاها في ممارسة الطب. إدالجي، مثل العديد من الرجال الآخرين في الردهة، محصور بين الصحيفة وكرسي بذراعين مُجنّحٍ عالٍ. ومع ذلك، فهو لا يجلس فعلاً كالآخرين: إنه يتشبّث بورقة بقوة غير عادية، ولمسة جانبية، واضعًا رأسه موازيًا للصفحة. الدكتور دويل، الذي عمل سابقًا في ساوث سي وديفونشاير بلايس، واثق من تشخيصه. قِصَر النظر، ربما بدرجة عالية. ومن يدري، ربما مع مسحة من الاستجماتيزم أيضًا.

"السيد إدالجي"

الجريدة ليست مليئة بالإثارة، لكنها مطوية بعناية. لا يقف الشاب منتصبًا، ومعانقًا رقبة منقذه المحتمل. على العكس، يقف باهتمام، ينظر مباشرة إلى السير آرثر، ويمد يده. لا يوجد خطر من أن يبدأ هذا الرجل في الهذيان عن هولمز. وبدلاً من ذلك، يجبر نفسه على الانتظار، مهذبًا ومكتفيًا بذاته.

ينسحبان إلى غرفة غير مشغولة، والسير آرثر لديه المقدرة على فحص معارفه الجدد من كثب. عريض الوجه، ممتلئ الشفاه، غمازة واضحة في منتصف الذقن الحليق حلاقة نظيفة. لرجل قضى ثلاث سنوات في لويس وبورتلاند، يجب أن يكون قد اعتاد على حياة أسلس ممن سبقوه، فإنه لا يظهر إلا القليل من علامات ابتلائه. شعره الأسود مصبوغ باللون الرمادي، لكن هذا يمنحه بدلاً من ذلك هيئة شخص مفكر مثقف. يمكن أن يصلح محاميًا، باستثناء أنه ليس كذلك.

"هل تعرف درجة قِصر نظرك بالضبط؟ ستة، سبعة ديوبتر[61]؟ يمكنني أن أُخمّن بالطبع"

جفل جورج من هذا السؤال الاستفتاحي. يأخذ زوجًا من النظارات من جيبه العلوي، ويسلمهما له. يتفحصها آرثر، ثم يحول انتباهه إلى العينين التي يُصحح ضعفها. هذه الانتفاخات إلى حد ما تضفي على المحامي مظهر المُحملق الخالي من التعابير بعض الشيء. يُقيّم السير آرثر رجله بحكم أنه طبيب عيون سابق، لكنه يعرف أيضًا الاستدلالات الأخلاقية الكاذبة التي يميل عامة الناس إلى استخلاصها من خصوصية البصر.

يقول جورج: "أخشى أنني لا أملك أدنى فكرة. لقد حصلت مؤخرًا على نظارة فقط، ولم أستفسر عن مواصفاتها. ولا أتذكر أن أستخدمها دائمًا"

"لم تمتلك واحدة حين كنت طفلاً؟"

"في الواقع لا. عانيت من ضعف البصر على الدوام، ولكن عند استشارة طبيب عيون في برمنغهام، قال إنه من غير الحكمة وصفها لطفل. ثم -حسنًا- انشغلتُ للغاية. ولكن منذ إطلاق سراحي، للأسف بتّ أقل انشغالاً"

"كما أوضحت في رسالتك. الآن سيد إدالجي..."

""آيدلجي في الحقيقة هكذا يُلفظ اسمي، إذا لم تمانع" يقول جورج هذا غريزيًا.

"أعتذر"

"لقد اعتدت على ذلك. ولكن بما أنه اسمي... كما تلاحظ يحتاج المقطع الأول في جميع الأسماء البارسية إلى نبرة قوية عند لفظه"

يومئ السير آرثر. "حسنًا سيد آيدلجي، أود أن يتفحصك السيد كينيث سكوت من مانشستر سكوير جيدًا"

"إذا رغبت في هذا. لكن..."

"على حسابي بالطبع"

"سير آرثر، لم أتمكن من..."

"يمكنك، وستفعل ذلك" يقولها بهدوء، ويلتقط جورج لكنة أسكتلندية للمرة الأولى.

---

61 الديبوتر وحدة قياس قوة العدسة.

"أنت لا تستعين بي كمحقق، سيد إدالجي. أنا أعرض - أعرض - خدماتي عليك. وعندما نكسب ليس فقط العفو المجاني لكن مبلغًا كبيرًا كتعويض عن سجنك غير المشروع أيضًا، قد أرسل إليك فاتورة السيد سكوت. لكن مرة أخرى، قد لا أفعل ذلك"

"السير آرثر، لم أتخيل للحظة عندما كتبت إليك..."

"لا، ولم أفعل حين تلقيت رسالتك. لكن ها نحن. ها نحن ذا"

"المال ليس مهمًا. أريد أن أسترد سمعتي. أريد أن يعاد قبولي كمحامٍ. هذا كل ما أريده. أن أعود لممارسة مهنتي مرة أخرى. لعيش حياة هادئة وصالحة. حياة طبيعية"

"بالطبع. لكني لا أوافق. المال مهم جدًا. ليس فقط كتعويض عن ثلاث سنوات من حياتك. إنها مسألة رمزية. يحترم البريطانيون المال. إذا مُنحت عفوًا مجانيًا، فسيدرك العامة أنك بريء. لكن إن تم تعويضك بالمال أيضًا، فسيدرك العامة أنك بريء تمامًا. هناك فرق شاسع. سيثبت المال أيضًا أن الجمود الفاسد في وزارة الداخلية هو فقط ما أبقاك في السجن في المقام الأول"

أومأ جورج مع نفسه ببطء وهو يأخذ في الحجة. أُعجب السير آرثر بالشاب. يبدو أن عقله هادئ ومُتأنٍ. من والدته الأسكتلندية أو والده رجل الدين؟ أم من المزج اللطيف بين الإثنين؟

"سير آرثر، هل لي أن أسأل إن كنت مسيحيًا؟"

الآن حان دور آرثر ليجفل. لا يرغب في الإساءة لابن نشأ في بيت قس، فأجاب بنفسه على سؤاله. "لماذا تسأل؟"

"نشأت كما تعلم، في بيت كاهن. أنا أحب وأحترم والديّ، وبطبيعة الحال، عندما كنت صغيرًا، شاركتهما معتقداتهما. كيف يمكنني ألا أفعل؟ لم أكن لأصبح كاهنًا أبدًا، لكنني قبلت تعاليم الكتاب المقدس كأفضل دليل لعيش حياة حقيقية ومشرفة" ينظر إلى السير آرثر ليرى ردة فعله. عينان عطوفتان ورأس مائل بزاوية لتشجيعه. "ما زلت أعتقد أنها أفضل دليل. أعتقد أن قوانين إنجلترا هي أفضل دليل عن كيف يمكن للمجتمع عمومًا أن يحيا حياة حقيقية ومشرفة معًا. لكن بعد ذلك... بدأت محنتي. في البداية نظرت إلى المسألة كلها كمثال مؤسف على سوء إدارة القانون. لقد ارتكبت الشرطة خطأ، لكن ظننت

أن القضاة سيصوّبونه. ارتكب القضاة خطأ، لكن ظننت أن الجلسات الفصلية ستصوّبه. ارتكبت الجلسات الفصلية خطأ، لكن ظننت أن وزارة الداخلية ستصوّبه. وآمل أن تستمر وزارة الداخلية في تصويبه. إنها مسألة مؤلمة للغاية، وعلى أقل تقدير مزعجة، أن هذا قد حدث، لكن نهج القانون سيحقق العدالة في النهاية. هذا ما آمنت به، وما زلت أؤمن به.

ومع ذلك، فقد بدا الأمر أكثر تعقيدًا مما حسبته في البداية. لقد عشت حياتي تحت مظلة القانون... أي أن آخذ القانون كمرشد لي، في حين ظلّت المسيحية هي الداعم المعنوي وراء ذلك لأبي، مع ذلك..." وهنا يتوقّف جورج، لا كما يرتاب آرثر، لأنه لا يعلم ما هو على وشك قوله، لكن بفعل سيطرة تأثره العاطفي... "ينفق والدي كل حياته في الديانة المسيحية. كما تتوقع. لذا لا بد أنه يتفهم محنتي ضمن هذه الشروط. من منظوره - يجب أن يكون - هناك مبرر ديني لمعاناتي. يعتقد أن غاية الرّب هي تقوية إيماني وأن أكون مثالًا للآخرين. من المحرج أن أتفوّه بالكلمة، لكنه يتخيلني ضحية.

"أبي مسن الآن وأصبح ضعيفًا. ولا أود أن أعارضه. ذهبت إلى المصلّى الكنسي في لويس وبورتلاند بالطبع. ما زلت أذهب إلى الكنيسة كل يوم أحد. لكن لا يمكنني أن أدعي أن إيماني قد تعزز خلال سجني، ولن" - يكشف عن ابتسامة حذرة وساخرة - "ولن يستطيع والدي أن يدّعي أن عدد الرّعيّة في كنيسة القديس مارك والكنائس المجاورة قد زاد في السنوات الثلاث الماضية"

يتأمل السير آرثر الشكليات الغريبة لهذه الملحوظات الافتتاحية... كما لو أنهم مارسوها، حد الإفراط في ممارستها. لا، هذا قاسٍ للغاية. ماذا سيفعل الرجل خلال ثلاث سنوات من السجن أيضًا باستثناء تحويل حياته - حياته الفوضوية والمبتورة ونصف المفهومة - إلى ما يشبه تقديم إفادة شاهد؟

"والدك، على ما أظن، سيقول إن الضحايا لا يختارون مصيرهم، وربما لن يكون لديهم فهم للمسألة"

"لكن ربما ما قلته للتو هو في الواقع أقل من الحقيقة. سجني لم يعزز إيماني. بل على نقيض ذلك تمامًا. أعتقد أنه دمّره. معاناتي هناك بلا غاية فعلًا، سواء لي أو للآخرين كنوع من العِبرة. ولكن حين أخبرت والدي أنك وافقت على لقائي، رد فعله أن هذا كله جزء من

غاية الرّب الواضحة على الأرض. لهذا السبب، سير آرثر، سألتك إذا كنت مسيحيًا"

"سواء كنتُ مسيحيًا أم لا، لن أؤثر على غاية والدك. الرّب يختار بالتأكيد أي أداة في يده، سواء مسيحية أو وثنية"

"صحيح. لكن ليس عليك أن تكون لطيفًا معي"

"لا. ولن تجدني رجلًا يساوم، سيد آيدلجي. من وجهة نظري، لا يمكنني أن أتخيل كيف أن فترة سجنك في لويس وبورتلاند، وفقدان مهنتك ومكانتك في المجتمع، من الممكن أن يخدم غاية الرّب"

"يجب أن تفهم أن والدي، يعتقد أن هذا القرن الجديد سيجلب مزيجًا أكثر انسجامًا من الأجناس مما هو عليه في الماضي... هذه هي غاية الرّب، وأنا عازم على أن أكون رسولًا نوعًا ما أو ضحية أو كليهما"

"دون انتقاد لوالدك بأي شكل من الأشكال،" يقول آرثر بحذر، "أعتقد لو أن هذه نية الرّب، لكان من الأفضل تقديمها عبر التأكد من حصولك على مهنة ناجحة ورائعة كمحامٍ، وبالتالي تصبح قدوة للآخرين لمزج الأعراق"

يجيب جورج: "أنت تؤمن بما أؤمن به". راقت هذه الإجابة لآرثر. سيجيب آخرون: "أنا أتفق معك". لكن جورج نطقها بلا غرور. الأمر ببساطة أن كلمات آرثر أكدت ما فكر به بالفعل.

"ومع ذلك، أتفق مع والدك في أن هذا القرن الجديد من المرجح أن يحقق تطورات استثنائية في الطبيعة الروحية للإنسان. في الواقع، أعتقد أنه بحلول الألفية الثالثة، ستتلاشى الكنائس القائمة، وستختفي كل الحروب والنزاعات التي جلبها كيانها المنفصل إلى العالم أيضًا" أوشك جورج على الاحتجاج أن هذا ليس ما يعنيه والده على الإطلاق، لكن السير آرثر استمر في المضي قدمًا. "إن الإنسان على وشك توضيح حقائق القانون النفسي كما فعل منذ قرون في شرح حقائق القانون المادي. حين تُقبل هذه الحقائق، يجب إعادة النظر في طريقة حياتنا كاملة -والموت- من المبادئ الأولى. يجب أن نؤمن أكثر وليس أدنى من ذلك. يجب أن نتعمق في فهم مسارات الحياة. سندرك أن الموت ليس بابًا مغلقًا في وجوهنا، بل باب موارب. وبحلول الوقت الذي تبدأ فيه الألفية الجديدة، أعتقد أننا سنمتلك قدرة أكبر

على السعادة والإحساس أكثر من أي وقت مضى في الوجود البشري البائس في كثير من الأحيان" يمسك السير آرثر نفسه فجأة، خطيبًا على المنصة المؤقتة اللعينة. "أنا أعتذر. إن هذا الموضوع هوايتي الأثيرة. لا، إنه أكثر بكثير من ذلك. لكنك سألت"

"لا حاجة للاعتذار"

"بل هناك حاجة. لقد سمحت أن نبتعد عن المسألة التي بين أيدينا. لنباشر العمل مرة أخرى. هل لي أن أسأل إذا كان هناك أي شخص تشتبه في ارتكابه الجريمة؟"

"أي شخص؟"

"جميعهم. الاضطهاد. الرسائل المزيفة. التمزيق... ليس فقط من مهر كوليري، لكن كل الآخرين"

"لأكن صادقًا تمامًا معك، سير آرثر، على مدار السنوات الثلاث الماضية، كنت وأولئك الذين دعموني أكثر اهتمامًا بإثبات براءتي من تجريم أي شخص آخر"

"مفهوم. لكن كما هو متوقع لا بد من وجود ارتباط. فهل هناك أي شخص قد تشتبه فيه؟"

"لا. لا أحد. وقع كل شيء دون معرفة أحد. ولا يمكنني أن أتخيل من سيسعد بتشويه الحيوانات"

"هل كان لديك أعداء في غريت ويرلي؟"

"من الواضح. لكنهم مخفيون. حظيت بعدد قليل من المعارف، سواء كانوا أصدقاء أم أعداء. لم نعتد التواصل مع المجتمع المحلي"

"لم لا؟"

"لقد بدأت مؤخرًا في استيعاب السبب. في ذلك الوقت، حين كنت طفلاً، افترضت أن الأمر طبيعي. الحقيقة هي أن والديَّ امتلكا القليل من المال، وما بحوزتهما، أنفقاه على تعليم أبنائهما. لم أفتقد الذهاب إلى منازل الأولاد الآخرين. كنتُ طفلاً سعيدًا كما أظن"

"نعم". يبدو هذا أقل من الإجابة الكاملة. "لكن، أفترض، نظرًا لأصول والدك..."

"سير آرثر، أود أن أوضح شيئًا واحدًا بيّنًا. لا أعتقد أن التحيز العرقي له أي علاقة بقضيتي"

"يجب أن أقول إنك تفاجئني"

"يعتقد والدي أني لو كنت نجل كبير المفتشين آنسون لما عانيت مما عانيت. هذا صحيح بالتأكيد. لكن من وجهة نظري فإن المسألة هي تفصيل مُضلّل. اذهب إلى ويرلي، واسأل القرويين إن لم تصدقني. في جميع الأحوال، إذا وجد أي تحيز، فإنه يقتصر على فئة صغيرة جدًا من المجتمع. وُجد هناك في بعض الأحيان شيء طفيف، ولكن أي إنسان لا يعاني من ذلك، بشكل أو بآخر؟"

"أنا أفهم رغبتك في عدم لعب دور الضحية..."

"لا، ليس هذا يا سير آرثر" توقف جورج، وبدا محرجًا للحظة. "بالمناسبة، هل هذا ما ينبغي أن أناديك به؟"

"يمكنك أن تناديني به أو دويل إذا فضلته"

"أعتقد أني أفضل السير آرثر. كما قد تتصور، لقد فكرت كثيرًا في هذا الأمر. نشأت كرجل إنجليزي. ذهبت إلى المدرسة، درست القانون، أنجزت كتابة مقالاتي، أصبحت محاميًا. هل حاول أحد أن يعيقني عن هذا التقدم؟ على العكس. شجعني أساتذتي في المدرسة، ولاحظني الشركاء في سانغستر وفيكيري آند سبايت، وقد رددت أبرشية والدي كلمات الثناء عندما تأهلت. لم يرفض أي من العملاء نصيحتي في شارع نيوهول، على أساس أصولي"

"لا، ولكن..."

"اسمح لي أن أتابع. وجدت هناك كما قلت، الازدراء أحيانًا. كانت هناك مضايقات ونكات. لست ساذجًا لدرجة أني لا أعلم أن بعض الناس ينظرون إليّ بشكل مختلف. لكني محام سير آرثر. ما هو الدليل الذي بين يدي على أن أي شخص قد تصرف ضدي بسبب التحيز العرقي؟ حاول الرقيب أبتون إخافتي، ولكن لا شك أنه أخاف الفتية الآخرين أيضًا. من الواضح أن كبير المفتشين آنسون لا يفضلني، مع أننا لم نلتق. ما أقلقني أكثر من الشرطة هو افتقارها إلى الكفاءة. على سبيل المثال، لم يكتشفوا بأنفسهم، على الرغم من تغطية المنطقة بعناصر الشرطة الخاصة، حيوانًا واحدًا مشوَّهًا. أُبلغوا عن هذه الحوادث من المزارعين أو من الرجال المتوجهين إلى العمل دائمًا. لم أكن الشخص الوحيد الذي خلص

إلى أن الشرطة فزعت مما يسمى بالعصابة، حتى لو أنها غير قادرة تمامًا على إثبات وجودها.

"لذا إذا كنت تعزو أن محنتي سببها التحيز العرقي، فيجب أن أطلب منك الدليل. لا أتذكر السيد ديستيرنل ألمح إلى هذا الموضوع. أو السير ريجينالد هاردي. هل وجدتني هيئة المحلفين مذنبًا بسبب بشرتي؟ هذه إجابة سهلة للغاية. ويمكنني أن أضيف أنه خلال السنوات التي قضيتها في السجن، عوملت بعدالة من الموظفين والسجناء الآخرين إلى حد ما"

"إذا سمحت لي أن أقدم اقتراحًا،" ردّ السير آرثر.

"ربما يجب أن تحاول من حين لآخر ألا تفكر كمحامٍ. حقيقة أنه إن تعذّر تقديم أي دليل على ظاهرة ما، لا يعني أنها غير موجودة"

"أتفق معك"

"لذا عندما بدأ الاضطهاد ضد عائلتك، هل اعتقدت -هل تعتقد- أنكم ضحايا بالصدفة؟"

"على الأرجح، لا. لكن هناك ضحايا آخرون أيضًا"

"من كتابة الرسائل فحسب. لا أحد عانى كما عانيت"

"صحيح. ولكن غير صحيح أبدًا أن نستنتج من هذا غرض ودافع المتورطين. ربما قام والدي -الذي يمكن أن يكون حاد الطباع- بتوبيخ بعض فتية المزارع لسرقتهم التفاح أو التجديف"

"هل تعتقد أن شيئًا كهذا هو بداية الأمر؟"

"ليس لدي أي فكرة. لكني أخشى ألا أتوقف عن التفكير كمحامٍ. هذا ما أنا عليه. وبصفتي محامٍ، أحتاج إلى دليل"

"ربما يستطيع الآخرون رؤية ما لا يمكنك رؤيته"

"بلا شك. لكنه أيضًا سؤال عما هو مفيد. ليس من المفيد لي كمبدأ عام في الحياة، افتراض أن أولئك الذين أتعامل معهم يخفون كراهيتهم لي. وفي هذه المرحلة الحالية، لا فائدة من تصور أن وزير الداخلية إذا اقتنع فقط بأن التحيز العرقي يكمن في قلب القضية، فعندئذٍ سأتمتع بالعفو والتعويض الذي تشير إليه. أو ربما سير آرثر، هل تعتقد أن السيد

غلادستون نفسه يعاني من هذا التحيز؟"

"لا أملك... دليلاً مؤكدًا على ذلك. في الواقع، أشك في ذلك كثيرًا"

"إذن دعنا نضع هذه النقطة جانبًا"

"جيد جدًا". أثار إعجاب آرثر هذا الحزم... في الواقع، الصلابة. "أود مقابلة والديك. أختك أيضًا. ولكن بترو. غريزتي هي أن أذهب مباشرة إلى الأشياء دائمًا، ولكن تحضر أوقات تصبح فيها التكتيكات وحتى الخدع ضرورة. كما يحب ليونيل أميري القول، إذا قاتلت وحيد القرن، فأنت لا تريد ربط قرنه بأنفك" ارتبك جورج من هذه المقارنة، لكن آرثر لم ينتبه. "أشك في أن ذلك سيساعد قضيتنا إذا شوهدت أتجول في المنطقة معك أو مع أحد أفراد أسرتك. أحتاج إلى تواصل واطلاع على القرية. ربما يمكنك اقتراح أحدهم"

يجيب جورج تلقائيًا: "هاري تشارلزورث"، تمامًا كما لو أنه واجه خالته الكبيرة ستونهام أو غرينواي وستينتسون. "حسنًا، جلسنا متجاورين في المدرسة. تظاهرتُ بأنه صديقي. كنا الصبيين الذكيين. اعتاد والدي أن يوبخني؛ لأنني لم أكن أكثر ودًا مع فتية المزارع، ولكن بصراحة كان قليل من التواصل الممكن. تولى هاري تشارلزورث إدارة مزرعة ألبان والده. يتمتع بسمعة جيدة.

"أنت تقول إنك لم تحظ إلا بالقليل من الأصدقاء في القرية؟"

"وهم قلة معي. في الحقيقة، سير آرثر، نويت العيش في برمنغهام بعد التأهل دائمًا. لقد وجدت ويرلي –هذا الحديث بيننا- مكانًا مضجرًا ومتخلفًا. في البداية واصلت العيش في المنزل، خشية من نقل الأخبار إلى والديّ، وتجاهلت القرية باستثناء المسائل المُلحّة. بعد إصلاح الأحذية، على سبيل المثال. ثم وجدت نفسي شيئًا فشيئًا محاصرًا ولكن ليس تمامًا، لكني انغمست داخل أسرتي كثيرًا لدرجة أنه أصبح من الصعب التفكير في المغادرة. وأنا متعلق جدًا بأختي مود. لذا كان هذا موقفي حتى... حدث لي كل ما تعرفه. بعد أن أطلق سراحي من السجن، ارتأيت أنه من المستحيل أن أعود إلى ستافوردشاير. إلى الآن أنا في لندن، أسكن في غرفة مفروشة من غرف الآنسة غود في ماكلينبيرغ سكوير. أقامت والدتي معي في الأسابيع الأولى بعد إطلاق سراحي. لكن الوالد في حاجة إليها في المنزل. تزورني عند استطاعتها لترى كيف أُبلي. حياتي..." يتوقف جورج مؤقتًا للحظة، "حياتي،

كما ترى، معلّقة"

ينتبه آرثر مرة أخرى إلى مدى حذر ودقة جورج، سواء في وصف الأمور الكبيرة أو الصغيرة أو العواطف أو الحقائق. رجله شاهد من الطراز الأول. لا ذنب له إن لم يتمكن من رؤية ما يستطيع الآخرون رؤيته.

"سيد إدالجي..."

"جورج، من فضلك". يعود السير آرثر مجددًا إلى نطق إ-دال-جي، ولا بد من إعفاء قدّيسه الجديد من الحرج في نطق اسمه.

"أنت وأنا يا جورج، أنت وأنا، نحن... إنجليزيان غير رسميين"

لقد ذهل جورج من هذا التعليق. يحظى السير آرثر الرجل الإنجليزي الأصيل للغاية باحترامه: اسمه، وأسلوبه، وشهرته، وراحة مطلقة في هذا الفندق الكبير في لندن، حتى في الوقت الذي جعل جورج ينتظره. إذا لم يُمثّل السير آرثر جزءًا من إنجلترا الرسمية، لمَ كتب جورج إليه في المقام الأول. لكن يبدو من غير اللائق أن يشكك في تصنيف الرجل لنفسه.

بدلًا من ذلك، يتأمل في وضعه الخاص. لماذا هو أدنى من أي رجل إنكليزي كامل؟ إنه واحد منهم بالولادة والمواطَنة والتعليم والدين والمهنة. هل يعني السير آرثر أنهم عندما سلبوا حريته وأسقطوه من القوائم، فقد أسقطوه من قائمة الرجال الإنجليز أيضًا؟ إن كان الأمر كذلك، فليست لديه أرض أخرى. لا يمكنه العودة بالوراء إلى جيلين. بالكاد يستطيع العودة إلى الهند، وهو مكان لم يزره قط وليست لديه رغبة تُذكر لذلك.

"سير آرثر، عندما... بدأت مشكلاتي، اعتاد والدي أن يصحبني معه إلى مكتبه، ويحدثني عن إنجازات البارسيين الشهيرة. كيف أصبح هذا رجل أعمال ناجح، وهذا عضوًا في البرلمان. ذات مرة -على الرغم من أنني ليس لدي أدنى اهتمام بالرياضة- أخبرني عن الفريق البارسي للكريكت الذي جاء من بومباي وقام بجولة في إنجلترا. كان أول فريق من الهند يزور هذه الشواطئ"

"في عام ألف وثمانمئة وستة وثمانين على ما أعتقد، لعبوا حوالى ثلاثين مباراة، وفازوا في مباراة واحدة فقط، أنا متأسف. سامحني... في ساعات كسلي أنا تلميذ قارئ لويسدن. عادوا بعد ذلك بعامين، مع نتائج أفضل، كما أتذكر"

"كما ترى سير آرثر، أنت أكثر دراية مني. وأنا غير قادر على التظاهر بما ليس بي. لقد أنشأني والدي كرجل إنجليزي، ولا يمكنه عندما تصبح الأمور صعبة، أن يحاول مواساتي بأمور لم يشدد عليها سابقًا"

"جاء والدك من...؟"

"بومباي. غيّر دينه على يد المبشرين. كانوا أسكتلنديين، في الواقع. مثل والدتي"

"أفهم والدك"، كما يقول السير آرثر. يدرك جورج أنها عبارة لم يسمعها من قبل في حياته. "حقيقة عِرق المرء، وحقيقة دينه لا تكمن دائمًا في الوادي نفسه. في بعض الأحيان يكون من الضروري عبور سلسلة من التلال المرتفعة في ثلج الشتاء للعثور على الحقيقة الأعظم"

يفكر جورج في هذه الملحوظة كما لو أنها جزءًا من إفادة خطية مشفوعة بيمين. "ولكن بعد ذلك، انفطر قلبك وأصبح في منأىً عن أسلافك؟"

"كلا... فمن واجبك أن تخبر أسلافك عن الوادي خارج التلال. تنظر إلى الوراء إلى القرية من حيث أتيت، وتلاحظ أنهم أنزلوا رايات التحية؛ لأنهم تصوروا أن الوصول إلى التلال في حدّ ذاته هو الانتصار. لكن الأمر ليس كذلك. وهكذا تَرْفع عصا التزلج وتشير إليهم. نحو الأسفل، توجد الحقيقة حيث تشير هناك، بالأسفل في الوادي التالي. اتبعوني خارج التلال"

وصل جورج إلى فندق غراند متوقعًا إجراء فحص مكثف للأدلة في قضيته. اتخذت المحادثة العديد من المنعطفات غير المتوقعة. يشعر بالضياع إلى حد ما الآن. يشعر آرثر بارتباكٍ يشتعل داخل صديقه الشاب الجديد. ينتابه إحساس بالمسؤولية، من المفترض أن يكون مشجعًا. لتتوقف الأفكار الآن، حان وقت العمل والغضب أيضًا.

"جورج، أولئك الذين دعموك حتى الآن -السيد يلفيرتين والبقية- قاموا بعمل ممتاز. لقد ثابروا وكانوا على صواب جدًا. إذا كانت العظمة البريطانية مؤسسة عقلانية، فستعود الآن إلى مكتبك في شارع نيوهول. لكنها ليست كذلك. لذا فإن خطتي هي عدم تكرار فِعل السيد يلفيرتين، للتعبير عن الشكوك المعقولة وتقديم المطالبات المنطقية ذاتها. سأقوم بشيء مختلف. سأُحدِث الكثير من الضجة. اللغة الإنجليزية -اللغة الإنجليزية الرسمية-

لا تحب الجلبة. يعتقدون أنها سوقية. إنها تحرجهم. ولكن إذا لم ينجح المبرر الهادئ، فسأمنحهم مبررًا صاخبًا. لن أستخدم السلالم الخلفية بل الأمامية. سأقرع طبلة كبيرة. أنوي هزّ أكثر من بضعة أشجار يا جورج، وسنرى ما هي الفاكهة المتعفنة التي تسقط"

يقف السير آرثر مودعًا. ويعلو فوق كاتب المحكمة الصغير الآن. ومع ذلك لم يفعل ذلك في محادثتهما. يفاجأ جورج بأن مثل هذا الرجل الشهير يمكنه أن يستمع وينتقد بغضب أيضًا، وفي الوقت نفسه هو شخص لطيف وحازم. على الرغم من هذا التصريح الأخير، إلا أنه يشعر بالحاجة إلى بعض التوكيدات الأساسية.

"سير آرثر، هل لي أن أسأل... ببساطة... هل تظنني بريئًا؟"

يخفض آرثر عينيه ويحدّق فيه بنظرة واضحة وثابتة. "جورج، لقد قرأت مقالاتك الصحفية، والآن التقيت بك شخصيًا. لذا ردّي هو لا، لا أظن أنك بريء. ولا، لا أعتقد أنك بريء. بل إنني أعلم يقينًا أنك بريء". ثم يمد يده الرياضية الكبيرة، التي شدّتها العديد من الرياضات التي يجهلها جورج تمامًا.

آرثر

بمجرد أن اطّلع وود على الملف، أرسله بغرض الاستطلاع. وجب عليه مسح المنطقة، وتقييم مزاج السكان المحليين، والشرب باعتدال في الحانات، والتواصل مع هاري تشارلزورث. مع ذلك، لم يلعب دور المخبر، وابتعد عن بيت الكاهن. لم يقرر آرثر بعد خطته للحملة، لكنه علم أن أفضل طريقة لقطع مصادر المعلومات هي نصب كشك عام، والإعلان عن أنه و"وودي" قد جاءا لإثبات براءة جورج إدالجي، والبحث عن المذنب عند بعض السكان المحليين الآخرين ضمنًا. لم يرغب في إثارة انتباه ذوي المصالح الكاذبين.

عقد العزم على البحث في المكتبة في أندرشو. تبيّن أن رعية غريت ويرلي تضم عددًا من المساكن والمزارع جيدة البناء، وأن تربتها خصبة خفيفة، مع باطن تربة من الطين والحصى، ومن محاصيلها الرئيسة القمح والشعير واللفت والشمندر. تقع المحطة على بعد

ربع ميل إلى الشمال الغربي في فرع والسال، كانوك وروغيلي للسكك الحديدية في لندن والشمال الغربي. أما بيت الكاهن، الذي تبلغ قيمته السنوية الصافية مئتين وخمسة وستين جنيهًا إسترلينيًا، شاملاً محل الإقامة، احتفظ به الكاهن شوبارجي إدالجي من كلية القديس أوغستين في كانتربري منذ عام ألف وثمانمئة وستة وسبعين. تتسع كلية المجتمع التي تقع بالقرب من لانديوود، لمئتين وخمسين مقعدًا للمحاضرات أو الحفلات الموسيقية، ومزودة بما يكفي بالصحف اليومية والأسبوعية. بُنيت المدرسة الابتدائية الحكومية في عام ألف وثمانمئة واثنين وثمانين، وعُيّن صامويل جون ماسون مديرًا لها. شغل ويليام هنري بروكس مكتب البريد، كما عمل بقّالاً وتاجر قماش وحديد وخردوات معًا. تولّى المحطة ألبرت إرنست ميريمان، الذي ورث قبعة مدير المحطة من والده صامويل ميريمان. يوجد ثلاثة تجار تجزئة للبيرة في القرية: هنري بادجر، والسيدة آن كوربيت، وتوماس ياتس. أما الجزار فهو برنارد غرينسيل. مدير شركة منجم غريت ويرلي هو وليام برويل وسكرتيره جون بولت. أما ويليام وين فهو سباك ومصمم ديكور وفني غاز وتاجر عام. كل ذلك بدا طبيعيًا جدًا ومطلوبًا جدًا، حتى إنه إنجليزي جدًا.

قرر على مضض عدم القيادة: إن وصول سيارة وولسلي بقوة اثني عشر حصانًا، مع ناقل حركة بالسلاسل وتزن طنًا واحدًا في ممرات ستافوردشاير لن تجعله غير واضح أبدًا. من المؤسف أنه ذهب إلى برمنغهام قبل عامين فقط لاستلامها. كانت رحلة لغرض خفيف. وتذكر أنه اعتمر قبعة البحّارة التي بلغت موضتها ذروتها، وأصبحت في الآونة الأخيرة شارة الموضة لسائقي السيارات. ربما لم تُعرف حقيقتها على نطاق واسع بين المواطنين المحليين؛ لأنه حين سار على رصيف نيو ستريت منتظرًا مندوب مبيعات شركة وولسلي، دنت منه شابة مطالبة بمعرفة كيف وصلت القطارات إلى والسال.

ترك المركبة في الإسطبلات، واستقل قطار واترلو من هاسلمير. قطع رحلته في لندن؛ ليلتقي جاين كأرمل ورجل حر للمرة الرابعة فقط. وقد كتب لها وأخبرها أن تتوقع وصوله بعد ظهر ذلك اليوم، واختتمها مع أرق وداع. ومع ذلك، عندما انطلق القطار من هاسلمير وجد نفسه راغبًا في أن يكون في سيارته وولسلي أكثر من أي شيء آخر، وقبعة بحّارة محشو فيها رأسه حتى أذنيه، ونظارات حماية مُحكمة على عينيه، طاف عبر قلب إنجلترا نحو

ستافوردشاير. لم يستطع فهم رد فعله هذا، مما دفعه للشعور بالذنب والغضب. أدرك أنه يحب جاين، وأنه سيتزوجها وسيجعلها السيدة دويل الثانية. ومع ذلك لم يكن في شوق لرؤيتها بالطريقة التي تمناها. لو أن البشر ببساطة كالآلات.

ألفى آرثر نفسه على وشك إصدار همهمة ساخرة، قمعها مُراعاةً لرُكّاب الدرجة الأولى الآخرين. ذاك شيء بسيط مما كان يشغله... الأسلوب الذي أُجبِرتَ على العيش به. لقد كبتّ الهمهمة الساخرة، وكذبتَ بخصوص حبّك، وخدعتَ زوجتك الرسمية، ذاك كلّه باسم الشرف. غدت هذه هي المفارقة اللعينة: لكي تتصرف على نحو جيد، عليك أن تتصرف على نحو سيئ. لماذا لم يتمكن من دفع جاين إلى وولسلي، وأتى بها إلى ستافوردشاير، وحجز غرفة في فندق بصفة كزوج وزوجة، ونظر شزرًا إلى أي شخص يحاول رفع حاجبيه؟ لأنه لم يتمكن، ولن ينجح، وبدا بسيطًا لكنه لم يكن كذلك، لأنه، ولأنه... بينما كان القطار يمر على مشارف ووكينغ، فكر مرة أخرى بحسد في ذلك الجندي الأسترالي في حقول رعي جنوب إفريقيا. رقم 410، من نيو ساوث ويلز، ومن الخيّالة المُشاة، مستلقيًا مع بيدق شطرنج أحمر في زجاجة ماء. معركة عادلة في الهواء الطلق، سبب عظيم: لا أفضل من هذه الميتة. ينبغي أن تكون الحياة أكثر من ذلك.

يذهب إلى شقتها. تتزين مرتدية الحرير الأزرق. يتعانقان عناقًا من القلب. ليس هناك حاجة للانسحاب، ومع ذلك يدرك ألا حاجة؛ كي يبقى مضطربًا عند لم شملهما. يستفسر عن أسرتها في جلسة شاي. وبدورها تسأل عن سبب ذهابه إلى برمنغهام.

عندما لم يصل إلى أبعد من إجراءات إحالة الدعوى في كانوك بعد ساعة، تمسك يده قائلة:

"عزيزي آرثر، إنه لأمر رائع، أن أراك في مثل هذه المعنويات مرة أخرى"

"أنت أيضًا، عزيزتي" يردف ويواصل حديثه. كما توقعت، القصة التي يرويها مليئة بالألوان والتشويق. كما أنها تشعره بالحماس والارتياح؛ لأن الرجل الذي تحبه يتخلص من هموم الأشهر الأخيرة. ومع ذلك، في الوقت الذي تنتهي فيه قصته، وغايته توضَّحت، ومراقبته تراجعت، وأعيد تفقد الجدول الزمني للسكك الحديدية، وخيبة أملها تدنو من السطح.

"أتمنى يا آرثر أن آتي معك"

"سيكون حدثًا استثنائيًا فعلاً" ويبدو أن عينيه تتمعّنان فيها، كما ينبغي للمرة الأولى. "أتعلمين، فيما أنا في القطار، تخيلت أن أصل إلى ستافوردشاير وأنت إلى جانبي، كلانا مثل زوج وزوجة"

يهز رأسه لأجل هذا التوافق الفكري، وربما يمكن تفسيره عبر القدرة على تناقل الأفكار بين قلبين متقاربين للغاية. ثم يقف على قدميه، ويلمّ قبعته ومعطفه ويغادر.

لم تُجرح جاين بسبب سلوك آرثر -فعشقها له لا يُمحى لأجل ذلك- ولكن حين تضع يديها على إبريق الشاي الفاتر، تدرك أن موقفها، وموقعها المستقبلي، سيتطلبان شيئًا من التفكير العملي. إنها سنوات صعبة، صعبة للغاية. عاشت خلالها العديد من الترتيبات والتنازلات والخفايا. لماذا افترضتْ أن رحيل توي سيغير كل شيء، وأن عناقًا فوريًا في ضوء الشمس وسط هتافات وتصفيق الأصدقاء، في حين تعزف فرقة موسيقية بعيدة أنغامًا إنجليزية؟ لا يمكن أن يحدث مثل هذا التحول المفاجئ. وقد يثبت أن الكم الضئيل من الحرية الإضافية الممنوحة لهما، أكثر خطورة لا أقل.

تجد نفسها تفكر بتوي على نحو مختلف. لم تعد ذاك الشخص الذي لا يمكن المساس به ويجب حماية شرفه، المضيفة المتواضعة والزوجة والأم البسيطة واللطيفة والمُحِبة التي استغرقت وقتًا طويلاً حتى توفيت. ذات مرة أخبرها آرثر أن ما يميز توي الرائعة هي أنها دائمًا قالت نعم لأي شيء يقترحه. عندما توجب عليهم أن يحزموا أمتعتهم فعلاً ويغادروا إلى النمسا، فإنها أجابت على الفور بنعم، وبالإيجاب حين عزموا على شراء منزل جديد. وعند الذهاب إلى لندن بضعة أيام، أو جنوب أفريقيا لعدة أشهر، قالت نعم. كانت هذه طبيعتها. وثقت في آرثر ثقة عمياء، اتكلت عليه لاتخاذ القرارات الصائبة لها وله.

تثق جاين في آرثر أيضًا، إنها تعرف أنه رجل نبيل. وهي تدرك كذلك -وهذا سبب آخر كي تحبه وتعجب به- أنه دائم التنقّل، سواء ألّف كتابًا جديدًا أو دافع عن قضية ما أو اندفع في مغامرة حول العالم أو ألقى بنفسه في شغف جديد له. لن يكون أبدًا رجلاً من ذاك النوع من الرجال الطامحين إلى فيلا في الضواحي وخُفَّيْن وحديقة مُجرّفة، وممن يتوق للتسكع أمام البوابة الأمامية وينتظر موزّع الصحف؛ ليجلب له الأخبار من البلاد البعيدة.

وبالتالي، فإنه من السابق لأوانه اتخاذ قرار -وهو نوع من الوعي التحذيري- يبدأ في التشكل للتو في ذهن جاين. كانت فتاة آرثر التي انتظرته منذ الخامس عشر من مارس في عام ألف وثمانمئة وسبعة وتسعين، في غضون بضعة أشهر ستحل الذكرى العاشرة للقائهما. عشرة أعوام، عشر زَهْر ثلج ثمينة. فضّلت أن تنتظر آرثر على أن تكون زوجة مرتاحة مع أي رجل آخر على الكرة الأرضية. ومع ذلك، بعد أن كانت فتاته المنتظَرة، ليس لديها رغبة في أن تصبح زوجة منتظِرة. تتخيل أنهما متزوجان، ويعلن آرثر رحيله الوشيك -سواء إلى ستوك بوجيس أو تمبكتو- من أجل تصحيح خطأ كبير، وتتخيل نفسها تجيب بأنها ستطلب من وودي شراء تذاكرهما. ستقول تذاكرهما بهدوء. ستلازمه وستسافر معه، تجلس في الصف الأمامي عندما يلقي محاضرة. ستمهّد طريقه وتتأكد من الخدمة المقدمة له في الفنادق والقطارات والسفن. ستسافر معه من جهة إلى جهة أخرى، إن لم -نظرًا لسيطرتها الفائقة على الحصان- تتقدمه قليلاً. ربما تتعلم لعبة الغولف إذا استمر في ممارستها. لن تكون واحدة من الزوجات المشاكسات اللواتي يتعقبن أزواجهن حتى في خطواتهم للنادي؛ لكنها ستبقى إلى جانبه، تُلهِمه بالقول والفعل المتواصل، سيبقى هذا مكانها حتى يفرقهما الموت. هذا هو نوع الزوجة الذي تنوي أن تكون عليه.

في هذه الأثناء، جلس آرثر في قطار برمنغهام، مذكرًا نفسه بتجربته السابقة الوحيدة في لعب دور المخبر. وقد طلبت منه جمعية البحث النفسي المساعدة في التحقيق في منزل مسكون في تشارموث في دورسيتشاير. سافر مع الدكتور سكوت والمدعو السيد بودمور، وهو محترف ماهر في مثل هذه التحقيقات. اتخذوا جميع التدابير الاحترازية المعتادة للتغلب على الاحتيال: قُفلت الأبواب والنوافذ، ومُدّت الخيوط الصوفية عبر السلالم. ثم أطالوا السهر مع مضيفهم على مدى ليلتين متتاليتين. في البداية، أعاد ملء غليونه كثيرًا وقاوم الغفوة. لكن في منتصف الليلة الثانية تمامًا، فقدوا الأمل، جفلوا -وللحظة ارتعبوا- من صوت الأثاث القريب الذي ضُرِب بعنف. تبيّن أن الضجيج قادم من المطبخ، لكن عندما هرعوا هناك وجدوا الغرفة فارغة وكل شيء في مكانه. قاموا بتفتيش المنزل من القبو إلى العلّية، بحثوا عن الأماكن المخفية. لم يجدوا شيئًا. الأبواب مازالت مقفلة، والنوافذ محصّنة، والخيوط موصولة.

عارض بودمور فجأة ظهور الأشباح. شك في أن بعض مساعدي مضيفهم قد اختبأوا خلف الألواح. في ذلك الوقت، أيّد آرثر هذا الرأي. ومع ذلك، احترق المنزل بالكامل بعد بضع سنوات -والأهم من ذلك- كُشِف هيكل عظمي لطفل لا يزيد عمره عن عشرة أعوام دفن في الحديقة. غيّر هذا كل شيء بالنسبة لآرثر. في الحالات التي تُزهق فيها روح شابة بعنف، غالبًا ما يتوفر مخزون للنشاط غير المستغل. في مثل هذه الأوقات يمارس المجهول والرائع ضغطه علينا من كل الجهات. إنها تلوح في الأفق بأشكال غير مستقرة، تحذرنا من القيود المفروضة على ما نسميه المادة. بدا هذا التفسير الذي لا يمكن دحضه لآرثر. لكن بودمور رفض تعديل تقريره بأثر رجعي. في الواقع، تصرف الرجل طوال الوقت، وكأنه كافر مادي لعين أكثر من كونه خبيرًا مُكلفًا بتوثيق الظواهر النفسية. ومع ذلك، لماذا تشغل نفسك ببودمور في هذا العالم، عندما يكون لديك كروكس ومايرز ولودج وألفريد راسل والاس؟ كرر آرثر لنفسه الصيغة: إنه أمر لا يصدق، لكنه صحيح. عندما سمع الكلمات لأول مرة، بدت وكأنها متناقضة مرنة، الآن تحمّلوا المشاق بيقين صلب.

التقى آرثر بِوود في فندق امبريال فاميلي الكائن في شارع تيمبل. كان من غير الوارد أن يتعرفوا عليه هنا مقارنة بالغراند، حيث قد يقيم مؤقتًا عادة. وجب عليهم التقليل من فرص ظهور بعض العناوين المثيرة على صفحة المجتمع في الجريدة الرسمية أو البريد: **ما الذي يفعله شيرلوك هولمز في برمنغهام؟**

وُضِع مخطط كي يتمكنا من الدخول للمرة الأولى إلى غريت ويرلي في وقت متأخر بعد ظهر اليوم التالي. انتفعا من وقت الغسق في شهر ديسمبر، بشق طريقهما إلى بيت الكاهن في الخفاء قدر الإمكان، والعودة إلى برمنغهام بمجرد الانتهاء من عملهما. حرص آرثر على زيارة مصمم أزياء مسرحي وتجهيز نفسه بلحية زائفة للمهمة الاستكشافية. لكن وود أصيب بالإحباط. اعتقد أن هذا سيلفت الانتباه إليهما أكثر عوضًا عن تقليله. في الواقع، فإن أي زيارة إلى مصمم الأزياء ستضمن فقرات غير مرحب بها في الصحافة المحلية. وجود ياقة مقلوبة ووشاح إلى جانب صحيفة موضوعة على رف في القطار، كافية لإخراجهما سالمين من ويرلي، ثم تنزّها على امتداد بيت الكاهن في الممر المضاء إضاءة سيئة كما لو...

"كما لو كنا ماذا؟" سأل آرثر.

"هل نحن في حاجة إلى تمثيل دور؟" لم يفهم وود سبب إصرار ربّ عمله على التنكّر، بداية المادي ثم النفسي. من وجهة نظره، ارتأى أن من حق الإنجليزي غير القابل للتصرف إخبار الآخرين، وخصوصًا أولئك الذين لديهم نزعة تطفل للاهتمام بشؤونهم الخاصة.

"بالتأكيد. نحن في حاجة إليه لأنفسنا. يجب أن نفكر في أنفسنا كما... هممم... لدي... مبعوثون من مفوضي الكنيسة، يأتون للرد على تقرير الكاهن عن بنية كنيسة القديس مارك"

"إنها كنيسة ذات بنية متينة، بُنيت حديثًا نسبيًا"، أجاب وود. ثم ألقى نظرة على ربّ العمل. "حسنًا، إن ألححت بإصرار سير آرثر"

اختارا عربة تقلهما في نيو ستريت، في وقت متأخر من بعد ظهر اليوم التالي، إلى ويرلي آند تشيرشبريدج، بعيدًا عن مبنى المحطة قدر الإمكان. وبهذه الحيلة، خطّطا للهرب من النظرات المتطفلة للركاب الآخرين المُترجّلين من العربة. لكن في هذه الحالة، لم ينزل أحد من القطار، ونتيجة لذلك تعرّض المحتالان الكنَسيّان لتدقيق إضافي من مدير المحطة. شدّ شاله حول شاربه بحركة دفاعية، وسرت القشعريرة بآرثر. أنت لا تعرفني، كما أظن، لكني أعرفك: ألبرت إرنست ميريمان، ابن صامويل. يا لها من مغامرة!

تبع وود على طول الممر المعتم. في مرحلة ما، طافا حول حانة، ولكن العلامة الوحيدة على نشاطها كانت لرجل يستلقي بتثاقل على الدرج الأمامي، يلوك قبعته بجدية. بعد ثماني أو تسع دقائق، مع وجود مصباح غاز متقطع لإزعاجهم، وصلا إلى الجزء الأكبر من كنيسة القديس مارك بسقفها العالي المزدوج. أرشد وود رب عمله على طول جدارها الجنوبي، لدرجة أنه أمكن آرثر أن يلحظ الحجر الرمادي، المخطط بالأرجواني. عندما تجاوزا الرواق، ظهر مبنيان على بُعد حوالى ثلاثين ياردة ما وراء الطرف الغربي للكنيسة: إلى اليمين، غرفة مدرسية من الطوب الداكن، مع نمط ألماسي باهت تم انتقاؤه من الطوب الخفيف، وإلى اليسار بيت الكاهن الأساسي. بعد لحظات قليلة، وجد آرثر نفسه ينظر إلى عتبة الباب حيث وُضع مفتاح مدرسة والسال قبل خمسة عشر عامًا. بينما رفع المطرقة وحَسَبَ كيف ينبغي له أن يُسقطها بلطف، تخيل وصول المفتش كامبل الأكثر دويًا مع

فرقته الخاصة، والغليان الذي جلبه إلى تلك الأسرة الهادئة.

كان الكاهن وزوجته وابنته في انتظارهما. على الفور تمكن السير آرثر من التعرف على مصدر أخلاق جورج الحسنة البسيطة، وكذلك على اكتفائه بذاته. سُرّت الأسرة بوصوله، لكنها لم تكن مفعمة بالحيوية. كانوا واعين لشهرته، التي لم تفسد بعد. كما شعر بالارتياح لمرة واحدة حين وجد نفسه في حضور ثلاثة أشخاص، على استعداد أن يراهن أن أيًا منهم لم يقرأ كتابًا واحدًا من كتبه.

الكاهن ذو بشرة شاحبة أكثر من ابنه، مع رأس مسطح يتصدر الصلع جبهته، وأنف عريض، ووجه متغضن، ومظهر يتسم بالقوة. يشترك مع جورج في رسم الفم نفسه، لكن في عين آرثر بدا كلاهما أكثر وسامة وأكثر ميلاً للغرب.

أُعدّ ملفان سميكان. أخرج آرثر بندًا عشوائيًا: رسالة مطوية من ورقة واحدة، تتألف من أربع صفحات مكتوبة بإتقان.

قرأ: "عزيزي شابورجي، يسعدني أن أبلغك أن لدي النية لمراجعة اضطهاد الكاهن الآن! (عار على غريت ويرلي)". لقد كانت يدًا مختصة، على حد تعبيره، وليست أنيقة. "... ملاذ جنوني معين لا يبعد مئة ميل عن منزلك الملعون بالثلاثة... وأنك ستُستبعد قسرًا في حال أفسحت المجال لأي تعبير قوي عن الرأي" لا توجد أخطاء إملائية حتى الآن. "سأرسل عددًا مضاعفًا من أكثر البطاقات البريدية جحيمًا باسمك وباسم شارلوت في أقرب فرصة". من المفترض أن شارلوت كانت زوجة الكاهن. "الانتقام منك ومن بروكس..." كان هذا الاسم مألوفا في بحثه. "... أرسل رسالة باسمه إلى البريد بأنه لن يكون مسؤولاً عن ديون زوجته... أكرر أنه لا حاجة لأن يأخذك الجنون إلى تحمل المسؤولية، إذ من المؤكد أن هؤلاء الأشخاص قد يلقون القبض عليك". ومن ثم هناك وداع ساخر في أربعة أسطر نزولاً:

أتمنى لك عيد ميلاد مجيدًا وسنة جديدة،
أنا دائمًا
شيطانك
الرّب الشيطان

"سامّة" قال السير آرثر.

"أي واحدة؟"

"واحدة من الشيطان"

"نعم" قال الكاهن. "كاتب رسائل غزير الإنتاج"

تفقّد آرثر بعض البنود الأخرى. كانت من الأمور التي يمكن أن نسمع بها عن الرسائل المجهولة، حتى قراءة مقتطفات منها في الصحافة. بدت مثل المقالب الصبيانية. لكن إمساك واحدة في يدك، والجلوس مع مستلميها، أمر مختلف تمامًا. ذاك البند الأول قذر، مع الإشارة العلنية إلى زوجة الكاهن باسمها المسيحي. ربما هو عمل مجنون، على الرغم من أنه مجنون، وبيدٍ مرتاحة وجيدة التشكيل، كما يمتلك القدرة على التعبير بوضوح عن ضغينته الملتوية وخططه المجنونة. لم يفاجأ آرثر بأن الإدالجيز قد أقفلوا أبوابهم ليلاً.

قرأ آرثر بصوت مرتفع: "عيد ميلاد مجيدًا"، لا يزال نصفه غير مصدّق. "وليس لديك شك في من قد كتب أيًا من هذا الدفق الهدّام؟"

"شك؟ لا أحد"

"تلك الخادمة التي توجب عليك أن تطردها؟"

"غادرت المنطقة. رحلت منذ فترة طويلة"

"أسرتها؟"

"أسرتها محترمة. سير آرثر، كما يمكن أن تتخيل، لقد فكرنا بهذا الأمر منذ البداية. ولكن ليس لدي شكوك. أنا لا أستمع إلى القيل والقال والشائعات، وإن فعلت ذلك، فما هي نوع المساعدة المُقدَّمة؟ القيل والقال والشائعات هي سبب سجن ابني. نادرًا ما تمنيت أن يقع هذا مع شخص آخر"

"ما لم يكن هو الجاني"

"بالتأكيد"

"وهذا بروكس. هل هو البقال أم بائع الحديد؟"

"نعم. تلقى خطابات سامّة لفترة أيضًا. حافظ أكثر على رباطة جأشه حيال هذا. أو أكثر من ذلك تكاسل عن القيام بأي فعل. على أي حال، ليس لديه الرغبة في الذهاب إلى

الشرطة. وقعت بعض الحوادث على خط السكك الحديدية بين ابنه وصبي آخر... لم أعد أذكر التفاصيل. لم يكن بروكس ليصنع قضية مشتركة معنا. يجب أن أخبرك، أن الشرطة لا يتمتعون باحترام كبير في المنطقة. من المفارقات أن من بين جميع السكان المحليين، كنا الأسرة الأكثر ميلًا للثقة في الشرطة"

"باستثناء قائد الشرطة"

"موقفه... كان سلبيًا"

"سيد آيدلجي" -قام آرثر بجهد نوعي لنطق اسمه- "أخطط لمعرفة السبب. أعتزم العودة إلى بدايات القضية. أخبرني، بصرف النظر عن المضايقات المباشرة، هل عانيت من أي عمل عدائي آخر منذ مجيئك إلى هنا؟"

نظر الكاهن متشككًا إلى زوجته. وبدورها أجابت: "الانتخابات".

"نعم هذا صحيح. لقد قدمتُ في أكثر من مناسبة، غرفة الدراسة للاجتماعات السياسية. واجه الليبراليون مشكلة في الحصول على قاعات. أنا ليبرالي... هناك شكاوى من بعض رعايا الأبرشية المحافظين"

"أكثر من مجرد شكاوى؟"

"انقطع واحد أو اثنان عن القدوم إلى كنيسة القديس مارك، هذا صحيح"

"وما زلت مستمرًا في إعارتهم القاعة؟"

"بالتأكيد. لكني لا أريد أن أُغالي. أنا أتحدث عن احتجاجات شديدة اللهجة لكنها مدنية. لا أتحدث عن التهديدات"

أعجب السير آرثر بدقة الكاهن، وافتقاره إلى الشفقة على الذات أيضًا. وقد لاحظ الصفات ذاتها في جورج. "هل تورّط كبير المفتشين آنسون؟"

"آنسون؟ لا، لقد كانت المسألة محلية أكثر. فقط تورط في وقت لاحق. لقد ضمّنت رسائله لكي تطلع عليها"

ثم أخذ آرثر الأسرة عبر أحداث أغسطس إلى أكتوبر عام ألف وتسعمئة وثلاثة، متنبهًا لأي تباين أو تفاصيل غفل عنها أو أي أدلة متضاربة. "بالعودة إلى الوراء، آسف أنك لم ترسل المفتش كامبل ورجاله بعيدًا حتى سلّحوا أنفسهم بمذكرة تفتيش، وتأهبتْ نفسُك

لعودتهم بحضور محامٍ"

"لكن هذا من شأنه أن يكون سلوك المذنبين. لم يكن لدينا ما نخفيه. علمنا أن جورج بريء. كلما بحثت الشرطة أسرع، تمكنت من إعادة توجيه تحقيقاتها على نحو مثمر أكثر. على أي حال، كان المفتش كامبل ورجاله، مُحقّين في سلوكهم"

لم يكونوا مُحقّين طيلة الوقت، كما اعتقد آرثر. وجد أن هناك شيئًا مفقودًا في فهمه للقضية، وعلى صلة مع تلك الزيارة للشرطة.

"سير آرثر" قالت السيدة إدالجي، النحيلة، ذات الشعر الأبيض، هادئة الصوت. "هل يمكنني أن أقول شيئين لك؟ أولاً، كم هو لطيف سماع صوت أسكتلندي مرة أخرى في هذه الأرجاء. هل أجد لهجة إدنبرة في لغتك؟"

"أنت محقة يا سيدتي"

"والشيء الثاني يتعلق بابني. لقد قابلتَ جورج"

"تأثرت به كثيرًا. يمكنني أن أفكر في العديد من الذين ما كانوا ليظلوا ثابتي العقل والجسد بعد ثلاث سنوات في لويس وبورتلاند. إنه مفخرة لك"

ابتسمت السيدة إدالجي لفترة وجيزة من الإطراء. "ما يريده جورج أكثر من أي شيء هو السماح له بالعودة إلى عمله كمحام. هذا كل ما تمناه. ربما الأمر الآن أسوأ في نظره مما كان عليه في السجن. إذن اتضحت الأمور أكثر. هو في حالة توقف الآن. لا يمكن لجمعية القانون المتحدة أن تعيد قبوله حتى يغسل العار الذي لحق باسمه"

لم يكن هناك شيء حفّز آرثر أكثر من أن يستنجد به صوت أسكتلندي لطيف ومسنّ.

"اطمئني سيدتي، أخطط لإحداث ضجة هائلة. أنا ماضٍ في إثارة الأمور. سيتمكن عِدد قليل من الناس من الاستغراق في النوم في أسرّتهم حين يحين ذلك الوقت الذي أفرغ فيه منهم"

ولكن هذا لا يبدو أنه الوعد الذي طلبته السيدة إدالجي. "أتوقع ذلك، سير آرثر، ونشكرك عليه. ما أقوله مختلف إلى حد ما. جورج، كما لاحظت، إنه صبي -شاب، إلى حد ما- يتميز بشيء من المرونة. لنكن صادقين، فاجأ صموده كلًا منا. تخيلناه أكثر

هشاشة. وهو مصمم على قلب هذا الغبن. وهذا بالضبط كل ما يريده. لا يرغب في الأضواء. لا يريد أن يصبح مدافعًا عن أي قضية معينة، ولا أن يمثل أي شيء. إنه يرغب في العودة إلى العمل وفي عيش حياة عادية"

"يتمنى أن يتزوج" تضيف الابنة التي اكتفت بالصمت حتى هذه اللحظة.

"مود" فوجئ الكاهن أكثر مما شعر برغبة في توبيخها. "كيف يمكنه؟ منذ متى؟ شارلوت... هل تعلمين أي شيء عن هذا؟"

"يا أبي، لا تقلق. أعني، يرغب في أن يتزوج عمومًا"

"أن يتزوج عمومًا"، كرر الكاهن. نظر إلى ضيفه المرموق. "هل تعتقد أن ذلك ممكن سير آرثر؟"

أجاب آرثر بضحكة مكتومة، "أنا نفسي، تزوجت على وجه الخصوص. إنها المنظومة التي أفهمها، والمنظومة التي أوصي بها"

"في هذه الحالة" -وهنا ابتسم الكاهن للمرة الأولى- "يجب أن نمنع جورج من الزواج عمومًا"

بالعودة إلى فندق امبريال فاميلي، تناول آرثر وسكرتيره عشاءً متأخرًا وانزويا في غرفة تدخين غير مشغولة. أشعل آرثر غليونه، وشاهد وود يشعل نوعًا رخيصًا من السجائر.

"عائلة رائعة"، قال السير آرثر. "متواضعة، وتثير الإعجاب"

"بالفعل"

أثارت كلمات السيدة إدالجي بعض مخاوف آرثر المفاجئة. ماذا لو أثار وصولهما إلى مكان الحادث مضايقات جديدة؟ بعد كل شيء، الشيطان -بالتأكيد، الرّب الشيطان- مازال هناك يشحذ كلًا من قلمه وأداته المقوسة جوفاء الجوانب. الرّب الشيطان: إلى أي مدى كانت إساءات الدين المؤسسي مُنفّرة بمجرد أن بدأ تدهوره الذي لا رجعة فيه. كلما استُبعد النظام أسرع بعيدًا، كان أفضل.

"وودي، دعني أستخدمك كلوح صوتي، إن أمكن" لم ينتظر جوابًا، كما لم يظن سكرتيره أن أحدًا انتظر جوابه. "هناك ثلاثة جوانب في هذه القضية أخفقت في فهمها في الوقت الحاضر. إنها فراغات في انتظار ملئها. وأولها هو لماذا اتخذ آنسون موقفًا ضد جورج

إدالجي. لقد رأيت الرسائل التي كتبها إلى الكاهن. إنها تهديد لتلميذ بعقوبة الأشغال الشاقة"

"بالفعل"

"إنه شخص متميز. لقد بحثت عنه. الابن الثاني لإيرل ليتشفيلد الثاني. خدم في سلاح المدفعية الملكية البريطانية. قائد شرطة منذ عام ألف وثمانمئة وثمان وثمانين. لماذا على رجل كهذا كتابة مثل هذه الرسالة؟"

تنحنح وود فحسب.

"حسنا؟"

"أنا لست محققًا، سير آرثر. لقد سمعتك تقول إنه يجب في أعمال البحث والتحري، القضاء على المستحيل وما تبقى منه، مهما بدا بعيد الاحتمال، ولا بد أنها الحقيقة"

"ليست صياغتي مع الأسف. لكن أؤيدها"

"ولهذا السبب لن أكون محققًا. إذا سألني أحدهم سؤالاً، فأنا أبحث عن الإجابة الواضحة فقط"

"وماذا ستكون إجابتك الواضحة في حالة العلاقة بين كبير المفتشين آنسون وجورج إدالجي؟"

"إنه يكره الأشخاص الملونين"

"الآن هذا جليّ للغاية، ألفريد. من الواضح أنه لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا. بغض النظر عن أخطائه، آنسون رجل إنجليزي نبيل وقائد شرطة"

"أخبرتك أني لست محققًا"

"دعنا لا نتخلى عن الأمل بهذه السرعة. سنرى ما يمكنك القيام به مع الفراغ الثاني. والذي هو هذا. إذا نحّينا جانبًا تلك الحادثة المبكرة مع الخادمة، فإن اضطهاد الإدالجيز يَحدث في فترتين منفصلتين. تمتد الأولى من عام ألف وثمانمئة واثنين وتسعين إلى بداية عام ألف وثمانمئة وستة وتسعين، بطريقة مكثفة ومتزايدة. ثم فجأة تتوقف. لم يحدث شيء على مدى سبعة أعوام. ثم عاد الأمر من جديد، ومُزّق الحصان الأول في فبراير من عام ألف وتسعمئة وثلاثة. لماذا هذا الفارق الزمني؟ هذا ما لا أفهمه، لماذا الفارق الزمني؟

المحقق وود، ما رأيك؟"

لم يستمتع السكرتير بهذه اللعبة كثيرًا، يبدو أنها رُتّبت حتى يخسر فقط. "ربما لأن من كان مسؤولاً ليس هناك"

"أين؟"

"في ويرلي"

"أين ذهب؟"

"ذهب بعيدًا"

"إلى أين؟"

"لا أعرف، سير آرثر. ربما اعتُقِل في السجن. ربما ذهب إلى برمنغهام. ربما فرّ إلى البحر"

"أنا أشك في ذلك. مرة أخرى، الأمر واضح للغاية. لكان الناس في المنطقة قد لاحظوا ذلك. فالأقاويل انتشرت هناك"

"قال الإدالجيز إنهم لم يستمعوا إلى الأقاويل"

"همم. دعنا نرى ما إذا فعلها هاري تشارلزورث. الآن، الفراغ الثالث الذي لا أفهمه هي مسألة الشعر على الملابس. إذا تمكنا من التخلص مما هو بَيِّن في هذه المسألة..."

"شكرًا لك، سير آرثر"

"آه بحق السماء، وودي، لا تستاء. لا تشعر بالإساءة فأنت إلى حدٍ ما مفيد جدًا"

عَكَس وود أنه حمل دائمًا تعاطفًا مع شخصية الدكتور واتسون. "ما المشكلة يا سيدي؟"

"المشكلة هي أن الشرطة فحصت ملابس جورج في بيت الكاهن، وقالت إن عليها شعر. تفقّد الكاهن وزوجته وابنته الملابس وقالوا إنه لا وجود للشعر هناك. قدم طبيب الشرطة الجراح الدكتور باتر -جرّاحو الشرطة من تجربتي هم أكثر الأشخاص دقة- دليلاً على أنه وجد تسعًا وعشرين شعرة "متشابهة في الطول واللون والشكل" لشعر المهر المشوّه. لذا أرى تضاربًا واضحًا. وهل أقسم الإدالجيز زورًا لحماية جورج؟ يبدو أن هذا ما تعتقده هيئة المحلفين. كان تفسير جورج أنه ربما اتكأ على بوابة حقل صغير إلى جانب اصطبل

رعت فيه أبقار. لم أفاجأ من أن هيئة المحلفين لم تصدقه. تبدو أنها إفادة تشعرك بالذعر، وليس وصفًا لحدث ما. إلى جانب ذلك، لا يزال يجعل الأسرة كالمُدلين بشهادة زور في المحكمة. لو أن هناك شعر على ثيابه لرأوه، أليس كذلك؟"

استغرق وود وقته في هذا. منذ انضمامه للعمل موظفًا لدى السير آرثر، حصل على مهمات جديدة. سكرتير، ناسخ، مُزوّر تواقيع، مساعد سائق، شريك غولف، خصم بلياردو، والآن كلوح ترديد للصوت وشخص فاعل بوضوح. بالإضافة إلى أنه الشخص الذي يجب أن يكون متأهبًا للسخرية. حسنًا، فليكن. "إذن لم يكن الشعر على معطفه عندما تفحصه الإدالجيز..."

"نعم ..."

"وإن لم يوجد مسبقًا؛ لأن جورج لم يتكئ على أي بوابة..."

"نعم..."

"إذن لابد أنها وصلت هناك بعد ذلك"

"بعد ماذا؟"

"بعد أن تَركت الملابس بيت الكاهن"

"هل تقصد أن الدكتور باتر وضعها هناك؟"

"لا. لا أدري. ولكن إذا أردت الإجابة الواضحة، فهي أنها وصلت بعد ذلك. بطريقة ما. وإن كان هذا ما حدث، فإن الشرطة تكذب فحسب. أو بعض رجال الشرطة"

"حدث غير مستحيل. أتعلم يا ألفريد، لستَ مخطئًا بالضرورة، سأقولها لك"

إطراء فكّر وود أن الدكتور واتسون ربما يكون فخورًا بتلقيه.

في اليوم التالي، عادا إلى ويرلي بأقل قدر من التخفي، ودعيا هاري تشارلزورث إلى قاعة الحَلْب التي يمتلكها. خاضوا في وحل قطيع من الأبقار إلى سدّة صغيرة ملحقة بالجزء الخلفي من المزرعة. وجدوا ثلاثة كراسي متقلقلة، ومنضدة صغيرة، وحصيرة رافية موحِلة، وتقويمًا للشهر الفائت بزاوية على الحائط. كان هاري شابًا أشقر، وذا وجه يتسم بالصدق والإخلاص، وبدا أنه يرحب بهذا الانقطاع أثناء عمله.

"إذن لقد حضرت لأجل جورج؟"

نظر آرثر حانقًا إلى وود الذي هزّ رأسه في حالة إنكار.

"كيف عرفت؟"

"ذهبتَ إلى بيت الكاهن في الليلة الماضية"

"هل ذهبنا؟"

"حسنًا على أي حال، شوهد غريبان يتجهان إلى بيت الكاهن بعد أن حلّ الظلام، أحدهما رجل طويل القامة يشدّ وشاحه كي يخفي شاربه، والآخر أقصر في قبعة سوداء مستديرة"

"يا للعجب"، قال آرثر. ربما وجب عليه الذهاب إلى متجر بيع الأزياء المسرحية في نهاية المطاف.

"والآن السيدان نفسهما، إذا تنكّرا تنكّرًا غير لافت، فقد جاءا لرؤيتي في شأن قيل لي إنه سِرّي ولكن سرعان ما سيكشف عنه" كان هاري تشارلزورث مستمتعًا بنفسه كثيرًا، وفرحًا لاستغراقه في الذكريات أيضًا.

"نعم، درسنا في المدرسة معًا، عندما كنا صغارًا. عُرف عن جورج بأنه هادئ جدًا على الدوام. لم يقع في مشكلة أبدًا، ليس مثلنا جميعًا. إنه ذكي أيضًا. أذكى مني، مع أني كنت ذكيًا في ذلك الوقت. ليس هذا ما ستعرفه الآن. إن التحديق في مؤخرة بقرة طوال اليوم يمحو ذكاءك، كما تعلم"

لقد تجاهل آرثر هذا التحول المبتذل في السيرة الذاتية. "ولكن هل لدى جورج أي أعداء؟ هل كان مكروهًا... بسبب لونه مثلًا؟"

أمعن هاري التفكير في ذلك لفترة من الوقت. "لا حسب ما أذكر. لكنك تعرف ما عليه الأولاد... يفضلون ويبغضون لأسباب مختلفة عن البالغين. وتختلف من شهر لآخر. إن كرهوا جورج، ربما لأنه بدا أكثر ذكاءً، أو لأن والده الكاهن، ولم يوافق على الطرق التي شبّ عليها الأولاد، أو ربما لأنه عانى من قصر النظر. أجلسه المعلم في المقدمة كي يتمكن من رؤية السبورة. ربما ارتؤوا في ذلك محاباة. أكثر من سبب لكرهه وأكثر من كونه ملونًا"

لم يكن تحليل هاري لاعتداءات ويرلي معقدًا. القضية ضد جورج سخيفة. والشرطة تصرفت فيها بسخافة. وفكرة أن هناك عصابة غامضة تتنقل سرًا بعد حلول الليل تحت

أوامر زعيم غامض، تبين أنها الأسخف على الإطلاق.

"هاري، سنحتاج إلى مقابلة الشرطي الخيّال غرين. بالنظر إلى أنه هو الشخص الوحيد في العالم الذي اعترف بالفعل بتمزيق مهر"

"رغب في رحلة طويلة، أليس كذلك؟"

"إلى أين؟"

"جنوب أفريقيا. آه، أنت لا تعلم. حصل هاري غرين على تذكرة سفر إلى جنوب أفريقيا بعد أسبوعين فقط من انتهاء المحاكمة. حتى أنها كانت تذكرة ذهاب فحسب"

"مثير للاهتمام. هل لديك أي فكرة عمّن دفع ثمنها؟"

"حسنًا، ليس هاري غرين هذا أمر مؤكد. شخص مهتم بإبعاده عن دائرة الخطر"

"الشرطة؟"

"ممكن. لكن هذا لا يعني أنهم شعروا بارتياح كبير في الوقت الذي غادر فيه. عاد عن اعترافه. نفى كليًا قيامه بفعل التمزيق، وقد انتقدت الشرطة الاعتراف الخارج منه"

"هل فعلها بواسطة إله الرومان جوبيتير؟ ما رأيك في هذا وودي؟"

لقد بيّن وود بصدق ما هو واضح. "حسنًا، أود أن أقول إنه كذب إما في المرة الأولى أو الثانية. أو" أضاف مع مسحة بِنيّة الأذى، "ربما في المرتين"

"هاري، هل يمكنك معرفة ما إذا كان السيد غرين يعرف عنوانًا لابنه في جنوب إفريقيا؟"

"يمكنني بالتأكيد المحاولة"

"وأمر آخر. هل هناك أقاويل في ويرلي عمن فعل ذلك، على اعتبار أن جورج لم يفعلها؟"

"هناك أقاويل دائمًا. ما أكثرها ودون أهمية. كل ما أود قوله هو أنه يجب أن يكون شخص يعرف كيفية التعامل مع الحيوانات. لا يمكنك فقط الذهاب إلى حصان أو خروف أو بقرة، وتقول اثبت يا حبيبي إلى أن أمزق أحشاءك. أود أن أرى جورج إدالجي يذهب إلى القاعة ويحاول أن يحلب إحدى أبقاري..." شغل هاري نفسه لفترة وجيزة في اللهو بهذه الفكرة. "سيُرفس حتى الموت أو يقع في القرف قبل أن يجلس على كرسي تحتها"

انحنى آرثر إلى الأمام. "هاري، هل ستكون مستعدًا لمساعدتنا في تنظيف اسم صديقك وزميل دراستك؟"

لاحظ هاري تشارلزورث الصوت المنخفض ونبرة التملق، لكنه ارتاب في ذلك. "لم يكن يومًا صديقي" ثم أشرق وجهه. "بالطبع، سأضطر إلى أخذ إجازة من مزرعة الألبان..."

عزا آرثر الطبيعة الأكثر شهامة في البداية لهاري تشارلزورث، لكنه قرر ألا يشعر بخيبة أمل. أشار هاري بمُسمّاه الجديد كمساعد مخبر استشاري، بمجرد الاتفاق على مُقدَّم الأتعاب والرسوم، إلى الطريق الذي من المفترض أن يسلكه جورج في تلك الليلة الرطبة من أغسطس قبل ثلاث سنوات ونصف. انطلقوا عبر الحقل خلف بيت الكاهن، وتسلقوا سياجًا، وشقوا طريقهم عبر الوشيع الشجيري، وعبروا السكك الحديدية عبر ممر تحت الأرض، وتسلقوا وشيعًا آخر، وعبروا حقلاً ثانيًا، وتحدّوا اللبلاب العالق، والسياج النباتي الشائك، واجتازوا مرعى آخر، ووجدوا أنفسهم على حافة حقل منجم الفحم. ثلاثة أرباع ميل بتخمين تقريبي.

أخرج وود ساعة جيبه. "ثماني عشرة دقيقة ونصف"

"نحن رجال صالحون" علّق آرثر، وهو مازال ينتف الأشواك من معطفه، ويكشط الطين عن حذائه. "وها هو نور الشمس، والجو صحو وغير ماطر، ونتمتع بقوة إبصار ممتازة"

سأل آرثر عن النمط السائد للجريمة في المنطقة بالعودة إلى مزرعة الألبان، بعد أن استبدلت الأموال الأيدي العاملة، فيما يلوح أنه أمر روتيني: سرقة الماشية، والسُّكْر في الأماكن العامة، وإشعال النيران في أكوام القش. هل وقعت هناك أي حوادث عنف باستثناء الهجمات على المَزارع؟ بالكاد تذكّر هاري واحدة في الوقت الذي حكم فيه على جورج. اعتداء على أم وصغيرتها. شخصان يحملان سكينًا. تسبب في إثارة شيء من الضجة، لكنها لم تصل إلى المحكمة. نعم، سيكون سعيدًا بالنظر في المسألة.

تصافحوا وقادهم هاري إلى تاجر الحديد والخردوات، الذي كان بمثابة البقّال وتاجر الأقمشة وساعي البريد.

كان ويليام بروكس رجلاً قصيرًا وبدينًا، مع شعيرات ذقن بيضاء كثيفة مُعوّضة الجمجمة الصلعاء. مرتديًا مريلة خضراء ملطخة عبر السنوات. لم يكن مُرحّبًا علنًا ولا

مرتابًا علنًا. أوشك على نقلهم إلى غرفة خلفية عندما أعلن السير آرثر، وهو يدفع سكرتيره برفق، أنه في حاجة ماسّة إلى ماسحة أحذية. لقد اهتم اهتمامًا كبيرًا بالخيار المعروض، وعندما اكتملت عملية الشراء والتغليف، تصرف كما لو أن ما بقي من زيارتهم مجرد مرحلة لاحقة سعيدة.

أمضى بروكس في المستودع فترة طويلة في التنقيب في الأدراج والتمتمة مع نفسه، لدرجة أن السير آرثر تساءل عما إذا اضطر إلى شراء حمّام الزنك المُكلفن[62] وممسحتين لتعجيل الأمور. لكن تاجر الحديد وجد في النهاية حزمة صغيرة من الرسائل المجعدة بشدة والمربوطة بخيط. تَعرّف آرثر مباشرة على الورقة التي كُتبت عليها، وهو الدفتر الرخيص المُستَخدم لكتابة الرسائل الموجّهة إلى بيت الكاهن.

يسترجع بروكس قدر ما أمكنه، المحاولة الفاشلة للابتزاز في تلك السنوات. من المفترض أن ابنه فريدريك وصبي آخر بصقا على امرأة عجوز في محطة والسال، وقد أُوعِز له بإرسال أموال إلى مكتب البريد إذا أراد تجنب محاكمة ابنه.

"أنت لم تفعل شيئًا حيال ذلك؟"

"بالطبع لا. انظر إلى الرسائل بنفسك. تمعّن في خط اليد. إنها مجرد مقلب"

"لم تفكر أبدًا في الدفع؟"

"لا"

"هل فكرت في الذهاب إلى الشرطة؟"

أعطى بروكس نفحة ازدراء من خديه. "ولا للحظة واحدة. ولا أقل من عُشر اللحظة. تجاهلت ذلك، وانتهى الآن. في الوقت نفسه، شعر الكاهن أن كل شيء مشوّش، لذا توجّه لتقديم شكوى، وكتب إلى قائد الشرطة وما إلى ذلك، ومن أين حصل عليها؟ فقط جعل الأمر أسوأ، أليس كذلك؟ له ولعامل إسطبله. هذا لا يعني أنني ألومه على ما حدث، تفهمني. إنه فقط عدم فهمه لهذا النوع من القرى. إنها قليلة أيضًا... مَزّقها وجفّفها، إذا فهمت ما أعنيه"

لم يعلّق آرثر. "ولماذا تظن أن المُبتز اختار ابنك والصبي الآخر؟"

---

62 الجلفنة، أو الكلفنة أو الغلفنة: هو عملية وضع طبقة واقية من الزنك إلى الصلب أو الحديد، لمنع الصدأ.

نفخ بروكس خدّيه مرة أخرى. "لقد مضت أعوام الآن يا سيدي، كما أقول. عشرة؟ ربما أكثر. يجب أن تسأل ابني، حسنًا إنه رجل الآن"

"هل تذكر من هو هذا الصبي الآخر؟"

"إنه ليس أحدًا يجب أن أذكره"

"هل مازال ابنك يعيش في الجوار؟"

"فريد؟ لا، لقد رحل فريد منذ أمدٍ بعيد. إنه في برمنغهام الآن. يعمل في القناة. لا بل في تولي مسؤولية المحل". توقف تاجر الحديد والخردوات مؤقتًا، ثم أضاف بحدة مفاجِئة، "الوغد الصغير"

"وربما تحتفظ بعنوان له؟"

"ربما. وربما تريد أي شيء لتأخذه مع ماسحة الأحذية تلك؟"

امتلأ آرثر بحس الفكاهة في القطار إلى برمنغهام. كثيرًا ما ألقى نظرة خاطفة على الطرود الثلاثة التي إلى جانب وود، حيث كلٌّ منها ملفوف بورق بني مزيّت ومربوط بخيط، وابتسم في الطريق للحالة التي كان العالم عليها.

"إذن ما رأيك في إنجاز اليوم يا ألفريد؟"

ما الذي تفكر فيه؟ ما هي الإجابة الواضحة؟ حسنًا، ما هي الإجابة الصحيحة؟ "لكي نكون صادقين تمامًا، أعتقد أننا لم نحرز تقدمًا كبيرًا"

"لا، بل أكبر من ذلك. لم نحرز تقدمًا كبيرًا في عدة اتجاهات مختلفة. واحتجنا إلى ماسحة أحذية"

"هل فعلنا؟ ظننت أن لدينا واحدة في أندرشو"

"لا تكن مفسد البهجة يا وودي. لا يمكن أن توجد في المنزل الكثير من ماسحات الأحذية. سنذكرها في الأعوام القادمة على أنها ماسحة إدالجي، وفي كل مرة نمسح فيها أحذيتنا عليها، سنفكر في هذه المغامرة"

"كما تشاء"

ترك آرثر وود للحالة المزاجية التي كان عليها، وحدّق بعيدًا في الحقول العابرة والوشيع الشجيري. حاول تخيّل جورج إدالجي في هذا القطار، ثم متوجهًا إلى كلية ماسون، ثم إلى

سانغستر وفيكيري آند سبايت، ثم إلى مكتبه في شارع نيوهول. حاول أن يتخيل جورج إدالجي في قرية غريت ويرلي، يتسكع في الممرات، ويزور الإسكافي، ويتعامل مع بروكس. المحامي الشاب -المتحدث اللبق وحسن الهندام على الرغم من أنه- أعطى انطباعًا بأنه شخصية غريبة حتى في هندهيد، ولا شك أنه الشخص الأغرب في براري ستافوردشاير. من الواضح أنه شخص رائع، ولديه ذهن صاف وشخصية مرنة. ولكن إذا نظرت إليه فقط... نظرت إليه، علاوة على ذلك، بعين مزارعٍ أُمّي، أو شرطي قرية غبي، أو مُحلَّف إنجليزي ضيّق الأفق، أو رئيس مشبوه للجلسات الفصلية... قد لا تتجاوز البشرة البنية، وخصوصية البصر. سيبدو غريب الأطوار. وبعد ذلك، إذا بدأت بعض الأمور الغريبة في الحدوث، فإن ما حدث من منطق في قرية غير مستنيرة من شأنه أن يعزو الأحداث إلى الشخص مباشرة.

وبمجرد ترك السبب -السبب الحقيقي- وراءه، كلما تركه بعيدًا أصبح ذلك أفضل لأولئك الذين يغادرون. تتحول مناقب الرجل إلى عيوبه. يقدم ضبط النفس نفسه على أنه سر، والذكاء على أنه دهاء. وهكذا يصبح المحامي المحترم، كفيفًا كخفاش وذا بنية هزيلة، وفاسدًا ينتقل سرًا عبر الحقول في آخر الليل، متجنبًا مراقبة عشرين شرطيًا من العناصر الخاصة، من أجل الخوض في دماء الحيوانات المشوهة. إنها فوضى كبيرة تظهر وكأنها منطقية. وفي رأي آرثر، كل ذلك يتلخص في هذا العيب البصري الفردي الذي لاحظه على الفور في بهو فندق غراند، شارع تشارينغ كروس. هنا يكمن اليقين الأخلاقي لبراءة جورج إدالجي، وسبب وجوب أن يصبح كبش فداء.

تعقبوا فريدريك بروكس إلى مسكنه بالقرب من القناة في برمنغهام. قيّم السّيّدان، اللذان تفوح منهما رائحة لندن، وتعرّف على تغليف الطرود الثلاثة تحت ذراع الرجل الأقصر، وأعلن أنه ثمّن المعلومات بنصف كراون. درّب السير آرثر نفسه على طُرق السكان المحليين، اقترح تسعيرة حسب الطلب، ترتفع من شلن وثلاثة بنسات إلى اثنين وستة بنسات، اعتمادًا على جدوى الإجابات. وافق بروكس.

وقال إن اسم رفيقه هو فريد وين. نعم، كان له صلة قرابة مع السبّاك وعامل تركيب الغاز في ويرلي. ابن أخ أو ربما ابن عم ثانٍ. ذهبا إلى المدرسة معًا في والسال. لا، فُقد الاتصال به تمامًا. بالنسبة لتلك الحادثة قبل كل تلك الأعوام، الرسالة وفعل البصق... هو ووين

واثقان جدًا في ذلك الوقت مما فعل الصبي حين كسر نافذة عربة القطار ثم حاول إلقاء اللوم عليهما. وبدورهما ألقى كلٌّ منهما اللوم عليه مرة أخرى، واستجوب ضباط من شركة السكك الحديدية ثلاثتهم ووالد وين ووالد بروكس أيضًا. لكنهم لم يتمكنوا من معرفة من نطق بالحقيقة لذا في النهاية أُعطي الجميع تحذيرًا. وكانت تلك نهاية المسألة. اسم الصبي الآخر هو سبيك. لقد عاش في مكان ما بالقرب من ويرلي. لكن لا، بروكس لم يره منذ أعوام.

لاحظ آرثر كل هذا مع قلمه الفضي. كما حكم على المعلومات أنها تستحق شيلنين وثلاث شلنات. وفريدريك بروكس لم يعترض.

بالعودة إلى فندق امبريال فاميلي، تسلّم آرثر رسالة من جاين.

عزيزي آرثر،

أكتب إليك لمعرفة كيف تسير تحقيقاتك العظيمة. أتمنى أن أكون إلى جانبك أثناء جمع الأدلة ومقابلة المشتبه فيهم. كل ما تقوم به مهم لي كحياتي الشخصية. أفتقد وجودك ولكني سعيدة بالتفكير فيما تسعى لتحقيقه لصديقك الشاب. عجِّل في الإبلاغ عن كل ما اكتشفته.

حُبّك وعشقك،

جاين.

وجد آرثر نفسه مندهشًا. لقد بدت رسالة حب مباشرة على نحو غير معهود. ربما لم تكن رسالة حب. نعم بالطبع هي كذلك، لكن مختلفة بطريقة أو بأخرى. حسنًا، اختلفت جاين... اختلفت عما عهده من قبل. فاجأته حتى بعد عشرة أعوام. غمره الفخر بها، والفخر بمفاجأتها.

بينما أعاد آرثر قراءة الرسالة للمرة الأخيرة في تلك الليلة في وقت لاحق، استيقظ ألفريد وود في حجرة نوم أصغر في طابق أعلى. أمكنه في العتمة فقط رؤية الطرود الثلاثة التي باعها تاجر الحديد الماكر، ملفوفة على منضدة الزينة. كما جعل بروكس السير آرثر يدفع له "تأمينًا" لِيُعيره الرسائل المجهولة التي في حوزته. لم يعلّق وود عمدًا سواء حينها أو

بعد ذلك، وهذا هو السبب على الأرجح في أن ربّ عمله اتهمه بالعبث في القطار.

أدّى اليوم دور مساعد المحقق: شريكًا وصديقًا تقريبًا للسيد آرثر. بعد العشاء في الفندق وعلى طاولة البلياردو ساوى التنافس بين الرجلين. سيعود إلى منصبه المعتاد غدًا كسكرتير وناسخ يأخذ ما يُملى عليه مثل أي كاتبة اختزال. هذا التنوع في الوظائف والسجل العقلي الذهني لم يزعجه. مُكرِّسًا نفسه لصاحب العمل، وخدمته بعناية وكفاءة بأي وظيفة ضرورية. حين طلب منه السير آرثر أن يذكر ما هو واضح، فعل. وحين طلب منه السير آرثر عدم الإفصاح عما هو واضح، بقي صامتًا.

كما كان متوقعًا أنه لن يلحظ ما هو واضح. عندما هرع أحد الموظفين إليهما في الردهة برسالة، لم يلحظ الكيفية التي ارتعشت بها يد السير آرثر عند أخذها، ولا أسلوب التلاميذ الصبياني في دسّها في جيبه. كما أنه لم ينتبه للهفة ربّ العمل في الوصول إلى حجرته قبل العشاء، أو مرحه اللاحق أثناء تناول الطعام. لقد كانت مهارة مهنية مهمة -لرصدها دون انتباه- وعلى مدى الأعوام الأخيرة زادت فائدتها.

اعتقد أن الأمر قد يستغرق بعض الوقت ليتكيف مع الآنسة ليكي... على الرغم من شكوكه في أنها ستستمر في استخدام لقبها قبل الزواج قبل نهاية العام الحالي. خدم السيدة الثانية كونان دويل باجتهاد كما خدم الأولى، وإن كان بإلحاح أقل. لم يكن متأكدًا من مدى حبه لجاين ليكي. كما علم، أن هذا غير مهم على الإطلاق. ليس عليك كمعلم، أن تحب زوجة مدير المدرسة. ولن يُطلب منه إبداء رأيه أبدًا. لذا لا يهم. ولكن على مدى الأعوام الثمانية أو التسعة التي وصلتْ فيها إلى أندرشو، كثيرًا ما ضبط نفسه يتساءل عما إذا اكتشف أن هناك شيئًا زائفًا عنها. في وقت من الأوقات، أدركت أهمية وودي في إدارة حياة السير آرثر اليومية، وعندئذ حرصت على أن يتقبلها. أكثر من تقبلها. وضعت يدها على ذراعه، حتى إنها حاكت السير آرثر في مناداته وودي. حَسِب أن هذه مودة فشل في كسبها. حتى السيدة دويل -كما ظنّها دائمًا- لم تناده بذلك. لعبت الآنسة ليكي دورًا رائعًا في كونها عن طبيعتها، وتبدو في بعض الأحيان كأنها تكبح بصعوبة دفئًا غريزيًا عظيمًا. لكنها أُخذت ببرود كنوع من الغنج. أي شخص كان سيضع مئة نقطة في البداية لن يرى السير آرثر الأمر على هذا النحو. أحب ربّ العمل أن يؤكد أن لعبة الغولف لعبة غنج ودلال. على

الرغم من أنه تبيّن لوود أن هذه الرياضة لعبت معه دورًا أكثر استقامة من معظم النساء.

مرة أخرى لا يهم. إذا حصل السير آرثر على ما يريد وجاين ليكي أيضًا، وهما سعيدان معًا، أين الضرر؟ لكنه جعل ألفريد وود أكثر ارتياحًا؛ لأنه لم يقترب من الزواج. إنه لم يجد فائدة من نظام الزواج، إلا من وجهة نظر صحية. إذا تزوجت امرأة حقيقية، وشعرت بالملل معها، وتزوجت واحدة كاذبة، ولم تلحظ وجود الدوائر المحيطة بك. ويبدو أن هذين الخيارين متاحان للرجل.

اتهمه السير آرثر أحيانًا بتقلّب المزاج. بالأحرى شعر أنه يمتلك صمته... وأفكاره الجلية. على سبيل المثال، عن السيدة دويل: عن أيام ساوث سي السعيدة، وأيام لندن المزدحمة، وتلك الشهور الحزينة الطويلة في النهاية. الأفكار عن سيدة كونان دويل المستقبلية أيضًا، وتأثيرها الممكن على السير آرثر والأسرة. أفكار حول كينغزلي وماري، وكيف سيكون رد فعلهما على زوجة الأب... أو بالأحرى على زوجة الأب هذه تحديدًا. سيتجاوز كينغزلي الأمر بلا شك: ورث رجولة والده المرحة بالفعل. لكن خشي وود بعض الشيء على ماري، الفتاة صعبة المراس والطامحة.

حسنًا، هذا ما سيحدث الليلة. باستثناء: أنه فكّر في الصباح قد يخلّف وراءه ماسحة الأحذية، والطرود الأخرى عن طريق الخطأ.

انزوى آرثر في مكتبه في أندرشو، وملأ غليونه وشرع في التفكير في خطة. من الواضح أن هناك هجومًا متواصلاً ذا شقين. الشق الأول سيفرض مرة وإلى الأبد، أن جورج إدالجي بريء. ليس فقط مدانًا بالخطأ بناءً على أدلة مضللة، بل بريء تمامًا، بريء مئة في المئة. الشق الثاني سيحدد الجاني الحقيقي، ويلزم وزارة الداخلية بالاعتراف بأخطائها، ويقود إلى محاكمة جديدة.

عندما شرع آرثر في العمل، شعر بالعودة إلى مكان مألوف. بدا الأمر أشبه ببدء كتاب: لديك قصة ولكن ليس كلها، معظم الشخصيات ولكن ليس جميعها، بعض وليس جميع الروابط السببية. لقد كانت بدايتك ونهايتك. ستكون لديه الكثير من الموضوعات التي يجب الاحتفاظ بها في رأسه في الوقت نفسه. بعضها متحرك، وأخرى ساكنة، وبعضها يهرول بعيدًا، وأخرى تقاوم كل الطاقة العقلية التي يمكن أن ترميها بها. حسنًا، لقد اعتاد

على ذلك. وكما هو الحال مع الرواية، جدول الأمور الأساسية وشرحها بإيجاز.

1. المحاكمة

يلفيرتين. استخدام إضبارة (مجعدة)، بناء، مشحوذ. تحذير - محام.
فاشيل؟ لا - تجنب التكرار. حالة دفاع. من المؤسف عدم وجود نسخة رسمية
(حملة من أجل هذا؟). حسابات صحفية موثوقة؟ (إلى جانب الحكم).
شعر/ باتر. ويرلي. ربما على حق! ليس قبل (موجة/ شهداء الزور الإدالجيز الحصيفين)
... وبعد. غير مقصود، مُتعمّد؟ من؟ متى؟ كيف؟ باتر؟؟
مقابلة. أيضًا: وجود الشعر، مجال الحركة/ التباس؟ أو هل يجب أن يعود لمهر؟
رسائل. تفحّص: الورق/المواد، ضبط التهجئة، الأسلوب، المحتوى،
علم النفس. غورين، احتيال. قضية بيك. اقتراح خبير
أفضل (تكتيك جيد/سيئ؟). من؟ رجل دريفوس؟ أيضًا: كاتب واحد،
أكثر؟ أيضًا، الكاتب = السفّاح؟ الكاتب X السفّاح؟
ارتباط/تداخل؟
قوة البصر. تقرير سكوت. كافٍ؟ الآخرون؟ شهادة الأم. تأثير
الظلام/الليل على قوة إبصار جورج إدالجي؟
غرين. من تنمّر؟ من دفع؟ تتبّع/لقاء.
آنسون. لقاء. تحيّز؟ دليل مع/احتجاز؟ التأثير على الشرطة.
انظر كامبل. اسأل عن سجلات الشرطة؟

أقرّ آرثر أن إحدى مزايا المشاهير هي أن اسمه يفتح الأبواب. سواء احتاج إلى عالم حرشفيات أجنحة أو خبير في تاريخ القوس الطويل أو جرّاح الشرطة أو قائد الشرطة، فإن

طلبه لإجراء مقابلة عادة ما يقابل بابتسامة. حدث ذلك إلى حد كبير بفضل هولمز -على الرغم من أن شكر هولمز لم يجل بخاطر آرثر بسهولة. عندما اخترع شخصية هولمز، لم يكن يعلم إلا القليل عن كيف سيتحول المحقق المستشار إلى مفتاح لكل الأبواب.

أشعل غليونه وانتقل إلى الجزء الثاني من جدوله ذي العلاقة بالفكرة الرئيسة.

2. المذنب

رسائل الجاني. انظر لما سبق.

الحيوانات. الذابحون؟ الجزارون؟ المزارعون؟ راجع. الحالات في مكان آخر.

طريقة نمطية/ غير نمطية؟ الخبير... من؟ الشائعات/ الريبة (هاري تشارلزوورث).

الأداة. ليست شفرة حلاقة (المحاكمة)... ماذا؟ باتر؟ لويس؟ "مقوّس الأطراف

من الجانبين" سكين؟ أداة زراعية؟ الغاية؟ أداة مناسبة؟

فاصل زمني. صمت سبع سنوات من 96–03. لماذا؟؟ مقصود/ غير مقصود/ مفروض؟

من الغائب؟ من يدري؟

والسال. مفتاح. مدرسة. غريتوريكس. الأولاد الآخرون. النافذة/ البصق.

بروكس. وين. سبيك. متصل؟ غير متصل؟ عادي؟ أي

عمل عام/ اتصال هناك (اسأل). مدير المدرسة؟

السابق/ اللاحق. تشوهات أخرى. فارينغتون.

وكان هذا عن ذلك حتى اللحظة. نفخ آرثر غليونه، وبعينه ألقى نظرة أعلى وأسفل القوائم، متسائلًا عن العناصر: أيها قوية وأيها ضعيفة. فارينغتون، على سبيل المثال. عمل فارينغتون كعامل منجم فظ في منجم غريت ويرلي، وأدين في ربيع ألف وتسعمئة وأربعة -في الوقت الذي نُقل فيه جورج من لويس إلى بورتلاند تقريبًا- بتشويه حصان وخروفين وحَمَل.

وأكدت الشرطة بطبيعة الحال أن الشخص، على الرغم من كونه وقحًا، وأُمّيًا مُتسكّعًا في الحانات، شارك المجرم المعروف إدالجي. رفقاء الروح الواضحين، كما اعتقد آرثر ساخرًا. هل سيقوده فارينغتون إلى مكان ما أو في أي مكان؟ هل ارتكب جريمته بدافع التقليد؟

ربما المرتزق بروكس، والغامض سبيك سيحققان شيئًا. كان هذا اسمًا غريبًا، سبيك... هذا الاسم قاد دماغه في الاتجاه الوحيد إلى جنوب إفريقيا في الوقت الحالي. حين هناك أكل الكثير من لحم الخنزير المقدد المسمى سبيك، كما أطلقوا على شكله الاستعماري من لحم الخنزير المقدد. على عكس النسخة البريطانية، يمكن استخراجه من أي نوع من الحيوانات... في الواقع، تذكر أنه أكل مرة واحدة لحم فرس النهر المقدد. الآن أين حدث هذا؟ بلومفونتين أم في رحلة الشمال؟

الآن عقله مشتت. وفي تجربة آرثر، كانت الطريقة الوحيدة للتركيز هي تصفيته أولًا. ربما عزف هولمز على كمانه، أو ربما استسلم لهذا التساهل الذي منحه إياه مبتكره في الوقت الحاضر، وأشعره بالحرج من هذه المكافأة. لا حقنة كوكايين لآرثر: لقد وضع ثقته في كيس مليء بمضارب الغولف.

اعتبر اللعبة دائمًا من الناحية النظرية، مصممة بإتقان له. تطلبت اللعبة مزجًا بين العين والعقل والجسد: ملائمة بما يكفي لطبيب العيون الذي تحول إلى كاتب لا يزال يحتفظ بقوته البدنية. كانت هذه النظرية على الأقل. من الناحية العملية، تستدرجك الغولف ثم تفرّ منك دائمًا. يا لها من رقصة أدّتها معه في جميع أنحاء العالم.

أثناء توجهه إلى نادي هانكلي، تذكر ملعب الغولف البدائي أمام فندق مينا هاوس. إذا ضربت الكرة بانحراف فقد تجد كرتك التي ضربتها مغمورة في قبر رمسيس أو تحتمس الأثريين. بعد ظهر أحد الأيام، قام أحد المارّة بتقييم مباراة آرثر القوية ولكن غير المنتظمة، ولاحظ قطعًا كما فهم، أن هناك ضريبة خاصة للتنقيب في مصر. ولكن حتى هذه الجولة تفوق فيها بغرابة في لعب الغولف من منزل كيبلينغ في فيرمونت. كان وقت عيد الشكر، مع تساقط الثلوج الكثيف بالفعل على الأرض، لم تكد أن تُضرب الكرة حتى أصبحت غير مرئية. لحسن الحظ، اقترح أحدهم -ومازالوا يتنازعون حولها- فكرة تلوين الكرات باللون الأحمر. ومع ذلك، لم تتوقف الغرابة عند هذا الحد، لأن القشرة الجليدية للثلج

منحت مسارًا خياليًا لأدنى ضربة لائقة. في مرحلة ما، انطلق هو ورودي‌ارد في رحلتهما على منحدر، لم يكن هناك سبب لتوقف الكرات المبهرجة على الإطلاق، التي انزلقت مسافة ميلين كاملين إلى نهر كونيكتيكت. ميلين: هذا ما آمن به هو ورودي‌ارد دائمًا، وآثرا الشك في بعض النوادي.

كانت السيدة المِغناج لطيفة معه في ذلك اليوم، ووجد نفسه في الممر الثامن عشر لا يزال لديه فرصة لكسر الثمانين. إذا تمكن من كسب رمية بعصا الغولف من مسافة قريبة... عندما فكر في الضربة، أدرك فجأة أنه لن يلعب في هذا الملعب عدة مرات. لسبب بسيط هو أنه سيتعين عليه مغادرة أندرشو. مغادرة أندرشو؟ أجاب تلقائيًا مستحيل. نعم، ولكن مع ذلك إنه أمر لا مفر منه. قام ببناء المنزل لتوي، عشيقته الأولى والوحيدة. كيف يمكن أن يعيد جاين إلى هناك كعروس؟ لن يكون الأمر معيبًا فحسب، بل سيُعدّ غير لائق بالتأكيد. إضافة لأمر واحد لتوي بكل قداستها، هو التلميح أنه قد يتزوج مرة أخرى، وهو شيء آخر تمامًا عن إحضار زوجة ثانية إلى المنزل، للاستمتاع معها بالسعادة التي حُرم منها هو وتوي في كل ليلة من حياتهما معًا تحت هذا السقف.

بطبيعة الحال، بدا هذا غير وارد. ومع ذلك، ما مدى لباقة جاين وذكائها، في عدم التلميح لهذا، لكن بالسماح له بالعثور على أسلوبه الخاص للوصول إلى هذا الاستنتاج. إنها حقًا امرأة غير عادية. وقد أثّرت فيه عاطفيًا، أنها ورطت نفسها في قضية إدالجي أيضًا. بينما من غير اللائق إجراء مقارنات، لكن توي أثناء الموافقة على مهمته، ستسعد بالقدر نفسه سواء فشل أو نجح. لذا، من المؤكد أن اهتمام جاين بدّل الأمور. لقد جعلته عازمًا على النجاح لأجل جورج، ومن أجل العدالة، ولأجل -أن يضعها في مرتبة أعلى- شرف بلاده، ولكن لفتاته العزيزة أيضًا. سيكون تذكارًا يوضع عند قدميها.

أطلق آرثر بهذه العواطف المتأججة أول ضربة غولف رقيقة له على بُعد خمسة عشر قدمًا بعد الحفرة، وترك التالية مسافة ستة أقدام، وتمكن من تفويتها أيضًا. اثنان وثمانون بدلًا من تسع وسبعين: نعم في الواقع، يجب أن تظل النساء خارج ملعب الغولف. ليس فقط خارج الممرات ومنطقة حفر الغولف، ولكن خارج رؤوس اللاعبين، وإلا ستحدث الفوضى، كما حدث للتو. ذات مرة، ناقشت جاين ممارسة لعبة الغولف، وفي ذلك الوقت

رد بحماس معقول. ولكن من الواضح أنها بدت فكرة سيئة. لم يقتصر الأمر على حجرة التصويت التي يجب من خلالها منع الجنس المُنصِف لصالح التناغم المدني.

بالعودة إلى أندرشو، وجد أن بريد بعد الظهر جلب رسالة من السيد كينيث سكوت من مانشستر سكوير.

"ها قد حصلنا عليها!"، صرخ وهو يركل باب مكتب وود المفتوح. "ها قد حصلنا عليها!"

نظر سكرتيره إلى الورقة الموضوعة أمامه. قرأ:

العين اليمنى: قوة الإبصار 8.75 ديوبتر.

1.75 ديوبتر محور أسطواني 90°

العين اليسرى: قوة الإبصار 8.25 ديوبتر.

"كما ترى، أخبرت سكوت أن يوقف التكيف مع دواء الأتروبين، إذ تصبح النتائج مستقلة تمامًا عن المريض. فقط في حال حاول شخص ما الادعاء بأن جورج تظاهر بالعمى. هذا بالضبط ما تمنيته. دليل قوي كالصخر! دليل قاطع لا جدال فيه!"

"هل يمكنني أن أسأل" قال وود، الذي وجد دور واتسون أسهل في ذلك اليوم، "ماذا يعني ذلك بالضبط؟"

"هذا يعني، يعني... على مدى الأعوام التي مارست مهنتي كطبيب عيون، لم أتذكر مرة واحدة تصحيح درجة عالية من قصر النظر اللابؤري (الاستجماتيزم). هنا، استمع إلى ما يكتبه سكوت" لقد وضع يده على الرسالة. "مثل جميع المصابين بقصر النظر، لا بد أن السيد إدالجي يجد صعوبة في رؤية أي شيء بوضوح أبعد من بضع بوصات دائمًا، وعند الغسق سيكون من المستحيل عمليًا أن يجد طريقه إلى أي مكان ما لم يكن على دراية به"

"بعبارة أخرى، ألفريد، بعبارة أخرى، أيها السادة في هيئة المحلفين، إنه أعمى كالخفاش المضروب به المثل. عدا بالطبع أن الخفاش سيكون قادرًا على إيجاد طريقه إلى الحقل في ليلة داكنة، على عكس صديقنا. أنا أعلم ما سأقوم به. سأنشر تحديًا. سأقترح أن

تكون النظارات مصممة وفق هذا الفحص، وإذا قام أي مناصر للشرطة بوضعها في الليل، فسأضمن أنه لن يتمكن من شق طريقه من بيت الكاهن إلى الحقل والعودة في أقل من ساعة. سأراهن بسمعتي على ذلك. لماذا تبدو مريبًا حضرة عضو هيئة المحلفين؟"

"أستمع، سير آرثر"

"لا، بدوت متشككًا. يمكنني أن أميز الشكوك حين أراها. هيا، اطرح السؤال بوضوح"

تنهد وود. "تساءلت فقط أن بصر جورج ربما لم يتدهور في غضون ثلاث سنوات من الأشغال الشاقة"

"آها! حسبت أنك قد تفكر في ذلك. ليس هكذا أبدًا. عمى جورج هو حالة بنيوية دائمة. أصبح رسميًا. لذلك غدا الأمر سيئًا في عام ألف وتسعمئة وثلاثة كما هو الآن. ولم يكن لديه حتى نظارات. هل هناك أي أسئلة أخرى؟"

"لا، سير آرثر"، على الرغم من أن لديه ملحوظة كامنة، لم يعتقد أنه من المناسب طرحها. ربما لم يسبق لربّ العمل أن التقى بمريض مع هذه الدرجة من قصر النظر اللابؤري طوال فترة عمله كطبيب عيون. من ناحية أخرى، سمعه وود عدة مرات وهو يتغنّى على مائدة عشاء بقصة عن مدى فخره بغرفة الانتظار الفارغة في ديفونشاير بلايس، وكيف منحه افتقاده الهائل للمرضى الوقت لكتابة كتبه.

"أظنني سأطلب ثلاثة آلاف"

"ثلاثة آلاف ماذا؟"

"جنيهًا يا رجل، جنيه. استندت في حسابي إلى قضية بيك"

كان تعبير وود جيدًا مثل أي سؤال.

"قضية بيك، هل تتذكر قضية بيك بالتأكيد؟ حقًا لا؟" هزّ السير آرثر رأسه في استنكار زائف. "أدولف بيك، من أصل نرويجي على ما أذكر. مُدان بالاحتيال على النساء. لقد اعتقدوا أنه سجين سابق من اسمه -هل تصدق ذلك؟ - جون سميث، قضى وقتًا في ما مضى في جرائم مماثلة. حُكم على بيك بالأشغال الشاقة لمدة سبع سنوات. أُطلق سراحه منذ حوالى خمس سنوات. بعد ثلاث سنوات، أعيد اعتقاله مرة أخرى. أدين مرة أخرى. وجد

القاضي نفسه ممتلئًا بالظنون، وماطل في إصدار حكم في غضون ذلك، مَن يجب أن يحضر إلا المحتال الأصلي السيد سميث. أذكر تفصيلة من تفاصيل القضية. كيف علموا أن بيك وسميث ليسا الشخص ذاته؟ أحدهما مختون والآخر لا. على مثل هذه التفاصيل يتعطل العدل في بعض الأحيان.

"آه. أنت تبدو أكثر حيرة من البداية. مفهوم تمامًا. نقطة. نقطتان. أولاً، أدين بيك على خطئه في التعرف على عدد من الشهود الإناث. عشر أو إحدى عشرة منهن، بالفعل. لا أدلي بأي تعليق. لكنه أدين أيضًا بناءً على أدلة واضحة من خبير معين في الكتابة اليدوية المزورة والمجهولة. صديقنا القديم توماس غورين. إنه ملزم بتقديم نفسه إلى لجنة بيك للتحقيق، والاعتراف بأن شهادته أدانت مرتين رجلاً بريئًا. وبالكاد قبل عام من هذا الاعتراف بالعجز، أقسم على نفسه بالكدمات ذات اللونين الأسود والأزرق ضد جورج إدالجي. من وجهة نظري لا بد من منعه من الوقوف في منصة الشهود، ويجب إعادة النظر في كل حالة تورط فيها.

"على أي حال، النقطة الثانية. بعد تقرير اللجنة، صدر عفو عن بيك وحصل على خمسة آلاف جنيه من الخزانة. خمسة آلاف جنيه عن خمسة أعوام. يمكنك عمل تعرفة جمركية. سأطلب ثلاثة آلاف"

كانت الحملة تتقدم. كتب إلى الدكتور باتر يطلب إجراء مقابلة، وإلى مدير مدرسة والسال للاستفسار عن الصبي سبيك. إلى كبير المفتشين آنسون لسجلات الشرطة في القضية، وجورج للتحقق مما إذا قام بأي عمل مثير للجدل في والسال. بحث عن تقرير بيك للتأكد من مدى إذلال غورين، وطالب رسميًا وزير الداخلية بإجراء تحقيق جديد ونهائي في المسألة بأكملها.

خطط لتكريس اليومين المقبلين للرسائل المجهولة، محاولاً جعلها مجهولة المصدر بقدرٍ أقل قدر الإمكان، سعيًا للتقدم من علم الخطوط إلى علم النفس إلى الهوية المحتملة. ثم أحال الملف إلى الدكتور ليندسي جونسون لمقارنة احترافية مع أمثلة بخط جورج. عُرِف جونسون أنه أفضل رجل في أوروبا، بعد أن استدعته مايتري لابورتي في قضية دريفوس. نعم، فكّر: مع الوقت الذي انتهيت فيه، سأثير ضجة كبيرة حول قضية إدالجي كما فعلوا

مع دريفوس هناك في فرنسا.

جلس على مكتبه مع حزم من الرسائل وعدسة مكبرة ودفتر وقلم رصاص. أخذ نفسًا عميقًا ثم ببطء وحذر، كما لو أنه يراقب فرار روح شريرة، فكّ أشرطة طرود الكاهن، وخيوط بروكس المُلتفّة. أُرِّخت رسائل الكاهن بالقلم الرصاص ورُقِّمت بترتيب الاستلام، في حين لم تكن تلك التي تخص تاجر الحديد والخردة مرتبة في تسلسل واضح.

قرأها بكل ما فيها من حقدهم المسموم واطلاعهم المشوب بنظرة خبث، وتَبجُّحِهم ودُنوّهم من الجنون، وادعاءاتهم الكبرى وتفاهتهم. أنا الرّب أنا الرّب الجبّار، أنا أحمق كاذب وناشر فضائح وواشٍ، آه سأجعله مثيراً لساعي البريد. أثار الأمر السخرية ومع ذلك، فإن السخرية هنا ترقى إلى حد القسوة من النوع الشيطاني، والتي ربما تحت وطأتها انهارت عقول الضحايا. واصل آرثر القراءة، بدأ غضبه واشمئزازه يهدأ، وحاول ترك العبارات تتغلغل فيه. أنت واشٍ قذر تحتاج للأشغال الشاقة لاثني عشر شهراً... أنا صارم كما يجب أن تكون الصرامة... أنت يا بذيء اللسان أيها الأسود الضخم سأتكفل بإصلاح نذالتك وقذارتك أيها الوغد كقرد متوحش... أنا أعرف كل التفاصيل، وإذا كان لدي وجه شيطان جسور فهو ليس بأسوأ من وجهك... من سرق ذاك البيض ليلة الأربعاء لماذا فعلت ذلك أنت أو رجلك ولكن لا أعتقد أنهم سيشنقونني...

قرأ وأعاد القراءة، وفرز وأعاد الفرز، وحلّل وقارن وذيّل شروحات. تحولت التلميحات إلى شكوك ثم إلى فرضيات تدريجيًا. كبداية، سواء وُجِدت هناك عصابة من السفّاحين أم لا، بالإضافة إلى عصابة من الكُتّاب بلا شك. ثالثًا، افترض: شابان وصبي. تبيّن أن الشابين يلتقيان في بعض الأحيان، ولكن حسب رأيه، يجب التفريق بينهما. بينما كان أحدهما خبيثًا فقط، أصابت الآخر هبّات من الهوس الديني تحوّل على إثرها من الورع الهستيري إلى الكفر الفاضح. هذا هو الشخص الذي قدّم نفسه على أنه الشيطان والرّب وارتباطهما اللاهوتي، الرّب الشيطان. أما الصبي، فقد طغت الفظاظة عليه، وخمّن آرثر عمره بين الثانية عشرة والسادسة عشرة. تباهى الكبار بسلطاتهم في التزييف أيضًا. "هل تعتقد أننا لا نستطيع محاكاة الأسلوب الذي يكتب به طفلك؟" كتب أحدهم إلى الكاهن في عام ألف وثمانمئة واثنين وتسعين. ولإثبات ذلك، اطلع على صفحة كاملة مغطاة بالتفصيل بتوقيعات

مقبولة ظاهريًا لجميع أفراد أسرة إدالجي، ومن أسرة بروكس وآخرين في الحي.

كُتبت نسبة كبيرة من الرسائل على الورق ذاته، ووصلت في ظروف متشابهة. في بعض الأحيان يبدأ كاتب واحد ثم يفسح المجال لآخر: سيتبع الخربشة الفظة والرسومات الوقحة -وقحة بكل معنى الكلمة- للصبي، تدفق مشاعر الرّب الشيطان على الصفحة ذاتها. وهذا يشير بقوة إلى أن الثلاثة عاشوا تحت سقف واحد. أين قد يكون هذا السقف؟ نظرًا لأن عددًا من الرسائل سُلمت باليد إلى ضحاياهم في ويرلي، كان من المعقول افتراض أنهم على مسافة لا تزيد على ميل أو ميلين.

ثم ما هو نوع السقف الذي قد يحمي ثلاثة من هؤلاء الكُتّاب؟ بعض المؤسسات مأوى للشباب الذكور من مختلف الأعمار؟ مدرسة مزدحمة، ربما؟ استشار آرثر مديري التعليم، لكنه لم يجد أي شيء ضمن أي مسافة معقولة. هل يمكن أن يكون الأشرار ثلاثة كُتّاب في المكتب، أو ثلاثة مساعدين في العمل؟ كلما فكر في الأمر أكثر، اندفع أكثر لاستنتاج أنهم أفراد من أسرة واحدة، شقيقان كبيران وأخ أصغر سنًا. اتسمت بعض الرسائل بطولها، حاججت أسرة من العاطلين عن العمل مع مرور الوقت.

احتاج إلى المزيد من التفاصيل. على سبيل المثال، بدت مدرسة والسال كعامل ثابت في هذه الحالة، ولكن ما مدى أهمية هذا العامل؟ ثم ماذا عن هذه الرسالة؟ أشار المهووس الديني بوضوح إلى الشاعر الإنجليزي جون ميلتون. الكتاب الأول، الفردوس المفقود: سقوط الشيطان وبحيرة الجحيم المحترقة، التي أعلن عنها الكاتب كوجهته النهائية. سيتحقق بالتأكيد فيما لو شق آرثر طريقه. لذا، هناك سؤال آخر للمدير: هل سبق أن أُقِّر كتاب الفردوس المفقود ضمن المناهج في المدرسة، إذا حدث هذا فعلًا متى، وكم عدد الفتيان الذين درسوه، وهل كان أثيرًا على قلب أي منهم؟ هل كان مثل الغريق الذي يتعلق بقشة أو استكشاف لكل الاحتمالات؟ من الصعب معرفة ذلك.

قرأ الرسائل مرارًا وتكرارًا. قرأها من البداية إلى النهاية ومن النهاية إلى البداية، وقرأها في تسلسل عشوائي. خلطها مثل مجموعة من أوراق اللعب. ثم التقطت عينه شيئًا، وبعد خمس دقائق قرع سكرتيره مفصّلات الباب الخلفي.

"أهنئك يا ألفريد. لقد فعلت الصواب تمامًا"

"هل فعلت؟"

دفع آرثر برسالة على مكتب وود. "انظر هناك. وهناك وهناك" اتبع السكرتير نقر إصبع آرثر بلا تفسير.

"أي صواب فعلت؟"

"انظر يا رجل، هناك: لا بد أن صبياً أُرسل بعيداً إلى البحر. وهنا: تغمرك الأمواج. هذه رسالة غريتوريكس الأولى، ألا ترى؟ وهنا أيضًا: لا أعتقد أنهم شنقوني، ولكنهم أرسلوني إلى البحر"

لقد أوضح تعبير وود ما هو واضح وفرّ منه.

"الفاصل الزمني يا وودي، الفاصل الزمني. السبع سنوات. اسأل لماذا الفاصل الزمني، لماذا الفاصل الزمني؟ وأنت أجبت لأنه لم يكن هناك. وأنا قلت، أين ذهب، أنت أجبت، ربما فرّ إلى البحر. وهذه هي أول رسالة مجهولة المصدر بعد تلك الفترة التي امتدت إلى سبع سنوات. سأتحقق مرة أخرى، لكني سأراهن على راتبك أنه لا إشارة واحدة إلى البحر في جميع رسائل الاضطهاد السابقة"

قال وود: "حسنًا"، مما سمح لنفسه بلمسة من الرضا الذاتي، "لقد بدا وكأنه تفسير محتمل"

"وما الذي يحسمه، في حال وجود أدنى شك،" -على الرغم من أنه هنأ السكرتير للتو على تميزه، لم يتجه على الفور للشك- "من أين جاءت الخدعة الأخيرة"

"أخشى أن عليك أن تُذكِّرني، سير آرثر"

"في ديسمبر عام ألف وثمانمئة وخمسة وتسعين، أتذكر؟ إعلان في صحيفة بلاكبول يعرض كامل محتويات بيت الكاهن للبيع بالمزاد"

"نعم؟"

"هيا يا رجل، هيا. بلاكبول، ما هي بلاكبول؟ منتجع المتعة لليفربول. هذا هو المكان الذي استقل منه السفينة، ليفربول. إنه واضح كالنهار"

- ظلّ ألفريد وود مشغولاً بعد ظهر ذلك اليوم. وصلت رسالة إلى مدير مدرسة والسال تستفسر عما إذا دُرِّس ميلتون. واحدة لهاري تشارلزورث تأمره بتتبع إن كان أي من السكان

المحليين قد غادر البحر بين عامي ألف وثمانمئة وستة وتسعين وألف وتسعمئة وثلاثة، وأيضًا بتعقب صبي أو رجل يدعى سبيك، وواحدة للدكتور ليندسي جونسون تطلب منه مقارنة عاجلة بين الرسائل الموجودة في الملف المرفق وتلك الموجودة بين يدي جورج إدالجي بالفعل. في هذه الأثناء كتب آرثر إلى الأم وجاين لإبلاغهما بتقدمه في القضية.

تضمن بريد الصباح التالي رسالة في مظروف مألوف. الرمز البريدي كانوك:

سيدي الفاضل،

هذا سطر لنبلغك أننا جواسيس من المحققين، ونعلم أن إدالجي قتل الحصان وكتب تلك الرسائل. لا فائدة من محاولة إلقاء اللوم على الآخرين. إنه إدالجي وسوف يثبت أنه ليس من نوعِ الأشخاص الصالحين ولا...

قلب آرثر الصفحة، واصل القراءة، وأطلق صيحة:

... لم يكن هناك تعليم يمكن تلقيه في والسال عندما شغل الحقير اللعين آلديس منصب مدير المدرسة الثانوية. لقد تلقى الطلقة المميتة بعد أن أُرسلت رسائل عنه لمسؤولي الحكومة. ها ها.

أُرسِل طلب إضافي مستعجل إلى مدير مدرسة والسال، سُئل فيه عن ظروف رحيل سلفه، ثم أُرسِل الدليل الأخير إلى الدكتور ليندسي جونسون.

عمّ الهدوء أندرشو. كان كُلٌّ من طفلي آرثر بعيدين: كينغزلي في النصف الأول له في مدرسةِ إيتون كوليج، وماري في مدرسة بريورز فيلد، غودالمينغ. كان الطقس كئيبًا. تناول آرثر طعامه منفردًا والنار تستعر داخله. في المساء لعب البلياردو مع وودي. أمكنه رؤية عيد ميلاده الخمسين يلوحِ في الأفق... هذا الأفق القريب على بُعد عامين فقط تقريبًا. مازال يحضر لعبة الكريكت، وفي كل مرة تغطية قيادته أثبتت شيئًا من الجمال؛ لأن رؤساء الفرق المنافِسة (الكباتِن) لطيفون بما يكفي للتعليق. لكن في كثير من الأحيان وقف عند

خط ملعب الكريكت، يشاهد راميًا بغيضًا يصل في دوامة من الأذرع، ويشعر بخبطة مكتومة على وسادة ركبته، ويرمق بعينين ساخطتين الرمية في الملعب عند الحَكَم، ويسمع من مسافة اثنين وعشرين ياردة، إصدار الحكم المؤسف، "آسف جدًا، سير آرثر"، قرار لم يتم استئنافه.

حان الوقت للاعتراف بأن أيام مجده قد ولّت. سبعة مقابل واحد وستين ضد كامبردجشاير في موسم واحد، والويكيت من نصيب اللاعب دبليو. جي. غرايس التالي. في الحقيقة أن هذا الرجل العظيم سجل هدفًا بالفعل، عندما جاء آرثر كبديل للتغيير الخامس وأبعده خارج نطاق النظرية، تلك خدعة اللاعب ضعيف المِراس. ولكن على الرغم من ذلك: دبليو. جي. غرايس المُلتقط وليام ستورر الرامي آيه. آي. كونان دويل 110. في الاحتفال كتب قصيدة بطولية تجريبية من تسعة عشر مقطعًا. لكن لا مقاطع الشعر ولا النصر الذي سجله كانا كافيين لإدخاله إلى ويسدن. كابتن إنجلترا، كما تنبأ بارتريدج ذات مرة؟ كابتن المؤلفين ضد الممثلين في صيف لورد الماضي كانت بصمته الأكثر. في ذلك اليوم من شهر يونيو، افتتح اللعب مع وودهاوس، ليجد نفسه يضرب بخفة هزلية والنتيجة صفر. صنع آرثر بنفسه اثنتين، ولم يحصل هورننغ على دور. ربح هوراس بليكلي أربعة وخمسين. ربما كلما كان الكاتب أفضل، أصبح لاعب الكريكت أسوأ.

وتكرر الأمر نفسه مع لعبة الغولف، فقد تتسع الفجوة بين الحلم والواقع مع كل عام. لكن البلياردو... الآن البلياردو لعبة لم يكن التراجع التلقائي في لاعبيها سمة سائدة. استمر اللاعبون دون أي تراجع واضح في أدائهم ببلوغهم الخمسينيات من أعمارهم أو الستينيات أو حتى السبعينات. القوة لم تكن ذات أهمية فيها. الخبرة والتكتيكات هي المهمة. إصابات الملامسة، وإصابات الارتداد، وضربات المدافعين، وإصابات الاصطدام على طول بطانة حافة طاولة البلياردو... يا لها من لعبة. هل هناك أي سبب يمنعه من الدخول إلى بطولة الهواة الإنجليزية مع القليل من التدريب، وربما بعض النصائح من أحد المحترفين؟ سيحتاج إلى تحسين طاولته البلياردو الطويلة بالطبع. وجب عليه أن يُحدّث نفسه في كل مرة: رتِّب الكرات في وضعية السكون (على طول الربع الأول للطاولة) للحصول على كرة نصف سهلة في جيب البلياردو العلوي، ثم العبها ككرة نصف ثابتة

بقدر ما يمكنك التحكم في جانب الجيب. عانى وود من مشكلات بسيطة مع طاولة البلياردو الطويلة. على الرغم من أنه مازال لديه شيطان المسافة ليقطعها مع صُدرته المزدوجة، كما أشار إليها آرثر باستمرار.

يقترب من الخمسين: النصف الثاني من حياته على وشك أن يبدأ، ولو أنه تأخر. خسر توي ووجد جاين. لقد تخلى عن المادية العلمية التي تبنّاها، وعثر على وسيلة لفتح الباب العظيم إلى ما وراء المتعة. أحب المتحاذقين تكرار أن الإنجليز يفتقرون إلى أي غريزة روحية، لذا اخترعوا لعبة الكريكت من أجل منح أنفسهم شعورًا بالخلود. تخيل المراقبون متبلدو الذهن أن البلياردو ما هي إلا التسديدة ذاتها التي تُنفذ مرارًا وتكرارًا. كلا المفهومين هراء. لم يكن الإنجليز عِرقًا عاطفيًا، لكنه أصيل -ليس إيطاليًا- ولكن لديه الطبيعة الروحانية ذاتها كالقبيلة التالية. ولم يحدث أن تشابهت ضربتا بلياردو، أكثر من أي روحين بشريتين متشابهتين.

زار قبر توي في غريشوت. وضع الأزهار وذرف الدموع، وعندما استدار ليذهب وجد نفسه يتساءل متى سيأتي مرة أخرى. هل سيأتي الأسبوع القادم أم في غضون أسبوعين؟ وبعد ذلك؟ وبعد ذلك؟ عند نقطة معينة ستنقطع الأزهار، وستصبح زياراته نادرة. سيبدأ حياة جديدة مع جاين، ربما أكثر في كروبورو، بالقرب من والديها. ستصبح... زيارة توي غير مريحة. حدّث نفسه أن التفكير فيها يكفي. ستكون جاين -بمشيئة الرّب- قادرة على إنجاب أطفال له. من سيزور توي بعد ذلك؟ هزّ رأسه لمسح هذه الفكرة. لا جدوى من ترقب ذنب مستقبلي. يجب أن تتصرف وفقًا لأفضل ما لديك من مبادئ، ثم تتعامل مع ما سيأتي وفقًا لشروطه.

ومع ذلك، عاد إلى أندرشو -في منزل توي الفارغ- ضبط نفسه منجذبًا إلى حجرة نومِها. لم يعط أي تعليمات لإعادة ترتيبها أو تجديد ديكورها... كيف يمكنه ذلك؟ لذا هناك السرير الذي توفيت فيه تمام الساعة الثالثة صباحًا مع رائحة بنفسج تنبعث في الهواء، ويدها الرقيقة تستريح في يده الخشنة الكبيرة. جلس كلٌّ من ماري وكينغزلي بأدب مرهقين ومذعورين. ترفع توي نفسها بالكاد مع آخر أنفاس لها تقريبًا، وتطلب من ماري الاعتناء بكينغزلي... تنهّد آرثر عبر النافذة. قبل عشرة أعوام، اختار لها هذه الحجرة؛ لأنها

تتمتع بأفضل إطلالة، وموصولة بالحديقة وواديها الضيق حيث تلتقي الأيكة. حجرة نومها، حجرة مرضها، حجرة موتها... حاول دائمًا جعلها سعيدة وغير موجوعة قدر استطاعته.

هذا ما حدّث به نفسه... حدّث نفسه والآخرين كثيرًا بما انتهى به الأمر إلى تصديقه. هل خدع نفسه دائمًا؟ لهذا هذه هي الحجرة التي أخبرت فيها توي ابنتهما قبل وفاتها ببضعة أسابيع أن والدها سيتزوج مرة أخرى. حين أبلغته ماري عن المحادثة، حاول توضيح الأمر... أدرك الآن أنه قرار أحمق. احتاج أن ينتهز الفرصة ليثني على توي، وللتمهيد لارتباطه من جديد أيضًا، وبدلًا من ذلك فقد أصيب بالذعر حد المزاح وسألها شيئًا مثل، "هل وضعت أي مرشحة معينة في الاعتبار؟" وحينها أجابته ماري: "أبي!" ولم يكن هناك شك في الرفض مع ذاك الأسلوب في تقديم الموضوع.

واصل النظر من نافذة حجرة النوم، مرورًا بملاعب التنس المهملة إلى الوادي الذي في لحظة سخرية غريبة، يذكرنا بالحكاية الشعبية الألمانية. الآن لم تعد تبدو أكثر من جزء من مقاطعة سري التي كانت عليها. بالكاد يمكنه إعادة فتح الحديث مع ماري. لكن هناك شيء واحد مؤكد: إذا علمت توي، فقد دُمّرت حياته. إذا عرفت توي وماري، فقد دُمّرت حياته تدميرًا مضاعفًا. إن علمت توي، فإن هورننغ على حق. إن عرفت توي، فإن الأم أخطأت. إذا علمت توي، فقد لعب دور أعظم منافق مع كوني، وتلاعب تلاعبًا مخجلًا بالسيدة العجوز هاوكينز. إذا علمت توي، فإن مفهومه الكامل للسلوك المشرف كان زائفًا. على المناطق الجبلية فوق ماسونغيل، قال للأم إن الشرف والعار متشابهان لدرجة أنه من الصعب التمييز بينهما، وقد ردت الأم بأن هذا هو ما جعل الشرف مهمًا للغاية. ماذا لو مضى في طريق العار طوال الوقت، خادعًا نفسه لا أحد غيره إلى الآن؟ ماذا لو قاده العالم لعاهرة... وعلى الرغم من أنه لم يكن كذلك، ربما هو كذلك؟ ماذا لو كان هورننغ على حق وليس هناك فرق بين الذنب والبراءة؟

جلس بثقله على السرير وفكر في تلك الرحلات غير المشروعة إلى يوركشاير: كيف كان يصل هو وجاين بقطارات مختلفة، ويغادران بقطارات متعددة، كي يتمكنا من التظاهر بالبراءة. تبعد انغلتون مائتين وخمسين ميلًا عن هيندهيد. هناك كانا آمنين. لكنه خلط بين الأمان والشرف. لا بد أن المسألة أصبحت واضحة للجميع بمرور الأعوام. ما القرى

الإنجليزية إلا دوامات من الشائعات. ومع ذلك، ربما رافق جاين، لكن من الواضح أنه وجاين لم يظللهما السقف ذاته أبدًا، هنا كان آرثر كونان دويل الشهير، الذي تزوج في كنيسة الرعيّة، ومشى في القفر، ووقع مع امرأة أخرى إلى جانبه.

ثم هناك والر. كل هذا الوقت، في صلفه المُبهِج، لم يسأل نفسه أبدًا عما جناه والر من كل ذلك. وافقت الأم على نهجه، وكان هذا كافيًا. لا يهم ما يعتقده والر. وكونه شخصًا سلسًا وسهلاً، لم يكن فجًا أبدًا. لقد تصرف كما لو أنه صدق تمامًا أي قصة تعرض أمامه. كون عائلة ليكي أصدقاء قديمين لعائلة دويل؛ تعلّقت الأم بابنتهم. لم يتفوه والر مطلقًا بأكثر أو أقل من المجاملة، والحصافة المعروفة المفروضة. كما لم يحاول إبعاد آرثر عن ضربات الغولف مع بعض التعليقات عن جاين ليكي كونها شابة جميلة. لكن والر فهم الحيلة على الفور. ربما -لا سمح الله- ناقش الأمر مع الأم من وراء ظهر آرثر. لا، لم يحتمل التفكير الكثير في هذا الأمر. لكن على أي حال، فهم والر وعرفه. وتمكّن والر - كما أدرك آرثر الآن، مثّل الجزء الأصعب - من النظر إليه بارتياح كبير. بينما خرجا لمطاردة طائر الحجل والبحث عنه سويًا، تذكر تلميذ المدرسة القادم من النمسا، نظر إليه كوقواق في العش، وتسمّر هناك جاهلاً، وممتلئًا بالتكهنات الشديدة والحرج. ثم تعاقبت الأعوام، وبدأ آرثر في المجيء إلى ماسونغيل لسرقة بضع ساعات بمفرده مع جاين. والآن تمكن والر بصمت، دون أدنى همهمة -مما جعل الأمر أسوأ بالطبع، وأكثر تفوقًا من الانتقام المعنوي. هل تجرأت على النظر في وجهي والرفض؟ هل تجرأت على التفكير في أنك فهمت الحياة؟ هل تجرأت على الطعن في شرف والدتك؟ والآن أتيت إلى هنا، واستخدمت والدتك وأنا والقرية بأكملها كتمويه لعقد لقاء؟ تأخذ عربة والدتك التي يجرّها مهر وتقود مارًا بسانت أوزوالد وعشيقتك إلى جانبك. تعتقد أن القرية لا تراك؟ هل تتخيل أن أفضل رجالها فاقد للذاكرة؟ تقول لنفسك -وللآخرين- أن سلوكك مشرّف؟

لا، يجب أن يتوقف. لقد خبر هذه الدوامة جيدًا بالفعل، وعرف إغراءاتها الهابطة، وإلى أين تؤدي بالضبط: الخمول والقنوط والازدراء. لا، يجب أن يلتزم بالحقائق المعروفة. وقد وافقت الأم على أفعاله. هكذا فعل الجميع باستثناء هورننغ. لم يتفوّه والر بشيء. حذرت توي ماري من الصدمة إذا تزوج مرة أخرى فقط... خرجت الكلمات من زوجة وأم

محبة وعطوفة. لم تنطق توي بأي شيء أكثر من ذلك، وبالتالي لم تعرف أكثر. لم تعرف ماري شيئًا. لا الأحياء ولا الأموات سيفيدهم تعذيب نفسه. ويجب أن تستمر الحياة. أدركت توي ذلك ولم تمتعض منه. يجب أن تستمر الحياة.

وافق الدكتور باتر على لقائه في لندن. لكن المراسلين الآخرين كانوا أقل تشجيعًا. لم يقم جورج بأي فعل من أي نوع في والسال. أبلغه السيد ميتشل مدير مدرسة والسال، أنه لم يكن هناك تلميذ باسم سبيك ضمن قوائمهم في العشرين عامًا الأخيرة: إضافة إلى ذلك، فإن سلفه السيد آلديس قد خدم ببراعة مدة ستة عشر عامًا، وفكرة أن أحدًا ندّد به أو نبذه بدت هراء واضحًا. قدّم وزير الداخلية، السيد هربرت غلادستون، ثناءه واحترامه للسير آرثر، وبعد عدة بنود من الهراء والثرثرة رفض للأسف أي مراجعة أخرى لقضية إدالجي التي تم تداولها بالفعل كثيرًا. كانت الرسالة الأخيرة على ورق الكتابة لشرطة مقاطعة ستافوردشاير. "سيدي العزيز"، هكذا بدأ الأمر، "سأكون مهتمًا جدًا بتدوين ما قاله شيرلوك هولمز عن قضية في الحياة الواقعية..." لكن الدعابة لا تشير إلى التعاون: لم يكن كبير المفتشين آنسون يميل إلى مساعدة السير آرثر بأي شكل من الأشكال. لم تكن هناك سابقة لتسليم سجلات الشرطة إلى أحد أفراد الجمهور، مهما عُرِف بتميّزه، لا سابقة للسماح لهذا العضو بمقابلة ضباط القوة تحت قيادة كبير المفتشين. في الحقيقة، بما أن نية السير آرثر الواضحة هي تشويه سمعة شرطة ستافوردشاير، لم يستطع قائد الشرطة أن يرى في التعاون مع العدو أمرًا مستحسنًا استراتيجيًا أو تكتيكيًا.

فضل آرثر فظاظة ضابط المدفعية السابق العدوانية على فم السياسي المراوغ. قد يكون من الممكن الفوز بجولة آنسون. على الرغم من أن استخدامه للاستعارة العسكرية جعلت آرثر يتساءل عما إذا كان بدلًا من الرد المُتحضّر على خصومه الذين أطلقوا النار - خبرته مقابل خبرتهم - لا ينبغي له أن يطلق عليهم وابلًا من المدفعية، وأن يفجر مواقعهم ويحولها إلى حطام. نعم لم لا؟ إذا كان لديهم خبير خطوط، فسيعرض الكثير في المقابل: ليس فقط الدكتور ليندسي جونسون، لكن ربما السيد غوبرت والسيد دوغلاس بلاكبيرن أيضًا. وفي حالة شك أي شخص في السيد كينيث سكوت من مانشستر سكوير، فسيجعل جورج يستشير العديد من أخصائيي العيون. لقد فضل يلفيرتين الاستنزاف، الذي أدى إلى نتائج

مرضية حتى الوصول لطريق مسدود في النهاية. الآن سيكرّس آرثر أقصى جهده ويتقدم على كافة الجبهات.

التقى بالدكتور باتر في فندق غراند في شارع تشارينغ كروس. هذه المرة لم يصل متأخرًا لأنه قدِم من شارع نورثمبرلاند. كما أنه لن يتباطأ ليراقب خلسة جرّاح الشرطة. على أي حال، أمكنه استنتاج شخصية الرجل مقدمًا من شهادته: لقد درسها واحترس منها ولم يسلم لأي تخمينات جامحة أو تافهة. لم يُطالب في المحاكمة بأكثر مما يمكن أن يدعم مشاهداته: أفاد هذا في الدفاع عن بقع الدم، ولم يلائم مع الشعر. لقد كان دليل باتر، حتى أكثر من دليل الدجّال غورين، الذي أدان جورج في لويس وبورتلاند.

"من الجيد أن تخصص لي الوقت يا دكتور باتر" لقد كانا في الغرفة الشاغرة ذاتها، حيث كوّن انطباعاته الأولى عن جورج إدالجي قبل أسبوعين فقط.

ابتسم الجرّاح الرجل الوسيم ذو الشعر الرمادي، والذي بدا أكبر بعشر سنوات من آرثر. "أنا سعيد بذلك. يسعدني أن أتيحت لي الفرصة لشكر الرجل الذي كتب"... وهنا يبدو أن هناك وقفة لثانية، ما لم تكن فقط داخل دماغ آرثر نفسه... "رفقة الأبيض"

ابتسم آرثر في الرد. لقد وجد دائمًا أن رفقة جرّاح الشرطة مقبولة بقدر ما وجدها مفيدة.

"دكتور باتر، أتساءل عما إذا رغبت في التحدث بصراحة. هذا يعني أني أكنّ تقديرًا كبيرًا لشهادتك، لكن لدي أسئلة مختلفة وتكهنات أطرحها عليك. كل ما تقوله سيتم التعامل معه بسرية، ولن أكرر كلمة واحدة دون أن أعطيك الفرصة لتأييدها أو تصحيحها أو التراجع عنها بالكامل. هل هذا مقبول؟"

وافق الدكتور باتر، وقاده آرثر في البداية، عبر الأجزاء الأقل إثارة للجدل من شهادته، أو على أي حال لا يمكن للدفاع دحضها. شفرات الحلاقة والجزمات والبقع بمختلف أنواعها.

"هل فاجأتك دكتور باتر بأنه لم يكن هناك إلا بضع قطرات من الدماء على الملابس، بالنظر إلى ما اتُّهم جورج إدالجي بفعله؟"

"لا أو بالأحرى، أنت تطرح سؤالًا كبيرًا جدًا. إذا قال إدالجي نعم، أنا من شوّه المهر،

وهذه هي الأداة التي استخدمتها، وهذه هي الملابس التي ارتديتها، وأنا من فعلها، عندئذ سأصبح مؤهلاً لتقديم رأي. وفي هذه الظروف، أود أن أقول لك نعم، سأغدو مذهولاً، مندهشًا فعلاً"

"لكن؟"

"لكن دليلي كما هو الحال دائمًا، عما وجدته: هذه الكمية من دم الثدييات على هذا الثوب، وهكذا. كان ذلك دليلي. إن لم أتمكن من معرفة كيف أو متى وصلت، فلن أتمكن من الإدلاء بمزيد من التفاصيل"

"على منصة الشهود، بالطبع لا. لكن فيما بيننا..."

"فيما بيننا، أعتقد أنه في حال قام رجل بشقّ حصان، فسيغرق المكان في دماء كثيرة، ولن يتمكن من التحكم في مكان سقوطه، خاصة إذا تمت الفعلة في ليلة مظلمة"

"إذن أنت معي؟ لا يملك القدرة على هذه الفعلة؟"

"لا، سير آرثر، أنا لست معك. أنا بعيد جدًا عنك. هناك فارق كبير بين الموقفين. على سبيل المثال، أي شخص يخرج متعمدًا لتمزيق حصان سيدرك أن عليه أن يرتدي نوعًا من المريلة، كما يفعل الجزّارون تمامًا. سيكون إجراءً وقائيًا واضحًا. لكن قد تقع بعض القطرات في مكان آخر، وتفر دون أن تُرى"

"لم يقدم أي دليل على أي مريلة في المحكمة"

"هذه ليست وجهة نظري. أنا أقدم لك وجهة نظر مختلفة عن تفسيرك فقط. ربما عُرضت أدلة أخرى هناك. إن وُجدت عصابة، كما افترِض، ربما لم يقم الشاب بعملية التمزيق بنفسه، لكن ربما وقف إلى جانب من فعلها، وعندئذ سقطت بضع قطرات من الدم على ملابسه أثناء هذه العملية"

"مرة أخرى، لم يُقدّم مثل هذا الدليل"

"ولكن كان هناك اقتراح قوي بخصوص وجود عصابة، أليس كذلك؟"

"هناك ذكر متعمد لوجود عصابة. لكن بلا دليل"

"الرجل الآخر الذي مزق حصانه؟"

"غرين. ولكن حتى غرين لم يزعم أن هناك عصابة"

"سير آرثر، أنا أتبع حجتك ورغبتك في العثور على دليل لدعمه. أنا فقط أقول، هناك احتمالات أخرى، سواء عُرضت أمام المحكمة أم لا"

"أنت محق تمامًا". قرر آرثر التوقف عن مواصلة الضغط على هذه النقطة. "هل يمكننا التحدث بدلاً من ذلك عن الشعر؟ قلت في شهادتك أنك التقطت تسعًا وعشرين شعرة من الملابس، وعندما فحصتها تحت المجهر، كانت -أذكر جيدًا كلماتك- "متشابهة في الطول واللون والشكل" عن قطعة الجلد المقطوعة من مهر منجم الفحم"

"هذا صحيح"

""متشابهة" لم تقل "تمامًا مثل""

"لا"

"لأنها لم تكن ذاتها بالضبط؟"

"لا، لأن هذا استنتاج وليس شيئًا ملحوظًا. لكن ذِكر أنها متشابهة في الطول واللون والشكل، من منظور الشخص العادي، يعني أنها متشابهة تمامًا"

"لا شك في رأيك؟"

"سير آرثر، في منصة الشهود، أخطئ دائمًا في أخذ جانب الحيطة والحذر. فيما بيننا ووفقًا للظروف التي اقترحتَها لهذه المقابلة، أود أن أؤكد لك أن الشعر الموجود على الملابس من الحيوان عينه الذي قمت بفحص جلده تحت المجهر"

"ومن الجزء ذاته أيضًا؟"

"أنا لا أفهمك"

"البهيمة نفسها، لكن الجزء ذاته من البهيمة أيضًا، وبالتحديد البطن؟"

"نعم، هذا صحيح"

"الآن، الشعر في أجزاء مختلفة من الحصان أو المهر متباين في الطول، وربما في السُّمك والبُنية. الشعر من الذيل أو العُرف، على سبيل المثال، سيكون مختلفًا؟"

"هذا صحيح تمامًا"

"ومع ذلك، فإن جميع الشعرات التسعة والعشرين التي فحصتها متشابهة تمامًا، ومن الجزء نفسه من المهر بالضبط؟"

"صحيح"

"هل يمكننا أن نتخيل شيئًا معًا، دكتور باتر؟ مرة أخرى بثقة تامة، داخل هذه الجدران المجهولة. دعنا نتخيل - ما قد يكون مقيتًا - أنك أنت أو أنا نخرج لنزع أحشاء حصان"

"إذا جاز لي أن أصحح لك، لم تُنزع أحشاؤه"

"لا؟"

"أقر الدليل الذي قُدّم أنه مُزّق تمزيقًا، ونزف، وكان لا بد من إطلاق النار عليه. لكن لم تتدلى الأحشاء من الجرح؛ لأن هذا سيحدث لو تعرض المهر لهجوم مختلف"

"شكرًا لك. إذن تخيل أننا نرغب في تمزيق مهر. علينا أن نقترب منه ونهدئه. نمسّد خطمه، ربما نتحدث إليه، ونربت على خاصرته. ثم تَخيَّل كيف يمكن أن نكبح جماحه حتى نمزقه. إذا أردنا بقر البطن، فقد نقف إلى جانبه، وربما نضع ذراعًا على ظهره، ونمسكه حتى نصل بأي أداة نستخدمها إلى قاع بطنه"

"لا أدري. لم يسبق لي أن حضرت مثل هذا المشهد البشع قط"

"لكنك لا تجادل في أن هذه هي الطريقة التي يمكن القيام بها؟ أملك خيولاً، لذا أعلم أنها مخلوقات ذات طبيعة عصبية في أفضل الأحوال"

"لم نكن في الحقل. وهذا لم يكن حصانًا من اسطبلاتك، سير آرثر. هذا مهر صغير. أليست المهور الصغيرة معروفة بسوء انصياعها؟ هل عمال المناجم لا يجيدون التعامل معها؟ هل هي لا تثق بمن يقترب منها؟"

"أنت على حق، لم نكن في الحقل. ولكنني منغمس في هذه اللحظة. تخيل أن الفعل وقع كما وصفته أنا"

"جيد جدًا. على الرغم من أنه ربما نُفّذ بأسلوب مختلف تمامًا. على سبيل المثال، إذا تواجد هناك أكثر من شخص واحد"

"أوافقك دكتور باتر. ويجب أن توافقني في المقابل أنه إذا حدث الفعل كما وصفتُه تقريبًا، فمن غير المعقول أن الشعر الوحيد الذي انتهى على ملابس الشخص كان من الجزء نفسه أي البطن، وهو على أي حال ليس المكان الذي تلمس فيه الحيوان لتهدئته.

من ناحية أخرى، عُثِر على الشعر نفسه في أجزاء مختلفة من الملابس... على كل من الأكمام والصدر الأيسر للسترة. ألا تتوقع على أقل تقدير، بعض الشعر من جزء آخر من المهر؟"

"ربما، إن كان وصفك للأحداث صحيحًا. لكن كما سبق لك أن قدمت تفسرين محتملين فقط... تفسير الادعاء، وتفسيرك. فرق شاسع بينهما. على سبيل المثال، قد تكون بعض الخصلات الطويلة على الملابس، لكن الجاني لاحظها ونزعها. لن يكون ذلك مفاجئًا، أليس كذلك؟ أو ربما طارت في مهب الريح. أو مرة أخرى، وربما توجد عصابة..."

ثم انتقل آرثر، بحذر شديد، نحو الحل "الواضح" الذي اقترحه وود.

"أنت تعمل في كانوك، على ما أظن؟"

"نعم"

"لست أنت من شقّ قطعة الجلد؟"

"لا، إنه السيد لويس الذي اهتم بالحيوان"

"وتم إيصالها إليك في كانوك؟"

"نعم"

"كما وصلتك الملابس؟"

"نعم"

"قبل أو بعد ذلك؟"

"ماذا تقصد؟"

"هل وصلت الملابس قبل قطعة الجلد، أو قطعة الجلد قبل الملابس؟"

"آه، فهمت. لا، لقد وصلتا معًا"

"في الوقت نفسه؟"

"نعم"

"سلّمها ضابط الشرطة ذاته؟"

"نعم"

"في الطرد نفسه؟"

"نعم"

"من هو ضابط الشرطة؟"

"ليس لدي أي فكرة. لقد شهدت في قضايا كثيرة. إلى جانب ذلك، هم جميعًا يبدون شُبّانًا بالنسبة لي في الوقت الحاضر، لذا كلهم متشابهون"

"هل تتذكر ما قاله؟"

"سير آرثر، حدث ذلك قبل أكثر من ثلاثة أعوام. ليس هناك أدنى سبب يجعلني أحفظ أي كلمة قالها. أخبرني أن الطرد مُرسَل من المفتش كامبل فقط. وربما ذكر أمامي محتوياته. ربما ذكر إن القطع أُخذت للفحص، لكنني بالكاد احتجت لذكر ذلك، أليس كذلك؟"

"وخلال الوقت الذي احتفظت فيه بهذه الأشياء، فُصلت عن بعضها بدقة، الجلد والملابس؟ أنا لا أنوي أن أبدو كمستشار"

"أنت تبدو هكذا فعلاً، إذا جاز لي أن أقول هذا. وبطبيعة الحال يمكنني أن أرى إلى أين تريد أن تصل. لم يكن هناك أي احتمال للعبث في مختبري، يمكنني أن أؤكد لك"

"لم أكن أُلمّح بذلك للحظة يا دكتور باتر. اعتزمت السير في اتجاه مختلف. هل يمكنك أن تصف لي الطرد الذي تلقيته؟"

"سير آرثر، يمكنني أن أتصور بالضبط إلى أين ستصل. لم أقف أمام محامي دفاع ليستجوبني طيلة هذه السنوات العشرين الماضية دون الاعتراف بهذا النهج، أو دون الحاجة إلى الرد على إجراءات الشرطة. تأملت أن أقول إن الجلد والملابس معًا كلها طُويت في كيس قديم من الخيش، وقامت الشرطة بحشوها في أسلوب يعوزه الكفاءة. في هذه الحالة، أنت تطعن بنزاهتي ونزاهتهم أيضًا"

كانت الصرامة تعلو على كياسة دكتور باتر، وهو شاهد ترغب أن يبقى إلى جانبك دائمًا.

"لن أفعل شيئًا كهذا" قال آرثر مهدئًا.

"عليك ألا تفعل سير آرثر. لقد فهمت ضمنيًا أنني ربما تجاهلت إمكانية العبث. لُفّت القطع وأُحكِم غلق كلٍّ منها على حدة، ولا يمكن لأي قدْر من هزّها أن يجعل الشعر

يطير من رزمة إلى أخرى"

"أنا ممتن لك دكتور باتر، لاستبعاد هذا الاحتمال" وبالتالي ترك الأمر أمام خيارين: عدم كفاءة الشرطة قبل أن تحزم كل القطع على حدة، أو سوء نية الشرطة أثناء حدوث ذلك. حسنًا، لقد ضغط على باتر بما يكفي. إلا... "هل يمكنني طرح سؤال واحد؟ إنها مجرد أسئلة واقعية"

"بالطبع. اعذر غضبي"

"هذا أمر مفهوم. كثيرًا ما تصرفت كمحامٍ للدفاع، كما لاحظت"

"لم يكن ذلك كثيرًا. هذا هو. لقد عملت مع شرطة ستافوردشاير على مدى عشرين عامًا وأكثر. عشرون عامًا من الذهاب إلى المحكمة والاضطرار إلى الإجابة على أسئلة ماكرة بناءً على افتراضات أعلم أنها زائفة. عشرون عامًا من رؤية التلاعب بجهل هيئة المحلفين. عشرون عامًا من تقديم الأدلة الواضحة التي لا لبس فيها قدر استطاعتي، وتستند إلى تحليل علمي صارم، ثم التعامل معها، وإن لم يكن احتيالاً، إذن كشخص يقدم مجرد رأي، هذا الرأي ليس أكثر قيمة من رأي الرجل التالي. إلا أن الرجل التالي لا يمتلك مجهرًا، وإن لم يكن مختصًا للتركيز عليه. أصرح بما لاحظته - ما أعرفه - ووجدت نفسي في وضع يقال لي فيه باستخفاف أن هذا ما أفكر به فحسب"

"أتفهم تمامًا" قال السير آرثر.

"أنا أتعجب. على أي حال، من سؤالك"

"في أي وقت من اليوم تلقيت طرد الشرطة؟"

"في أي وقت؟ في حوالي الساعة التاسعة"

دُهش آرثر من هذه السرعة. اكتُشِف المهر في حوالي السادسة وعشرين دقيقة، ولا زال كامبل في الحقل في الوقت الذي غادر فيه جورج المنزل ليركب في السابعة وتسع وثلاثين دقيقة، وصل إلى بيت الكاهن مع بارسونز وفرقته من القوات الخاصة في وقت ما قبل الثامنة. ثم فتّشوا المكان، وجادلوا الإدالجيز...

"أنا أعتذر منك دكتور باتر، دون أن أبدو كمستشار قانوني مرة أخرى، بالتأكيد في وقت لاحق بعد ذلك؟"

"لاحقًا؟ بالتأكيد لا. أعلم وقت وصول الطرد. أتذكر الشكوى. ألحّوا بإصرار على وضع الطرد في يدي ذلك اليوم. أخبرتهم أني لا أستطيع البقاء إلى ما بعد التاسعة. كانت لدي محاذيري عند وصوله في التاسعة"

"إنه خطئي بالكامل. اعتقدت أنك قصدت الساعة التاسعة صباحًا"

الآن حان دور الجرّاح ليظهر دهشته. "سير آرثر حسب خبرتي الشرطة كفوءة وكادحة وصادقة أيضًا. لكنهم ليسوا صانعي معجزات"

وافق السير آرثر، وافترق الرجلان بشروط ودية. لكن فيما بعد، وجد نفسه يفكر بالضبط في ذلك: رجال الشرطة صانعو معجزات. إنهم قادرون على نقل تسع وعشرين شعرة حصان من رزمة محكمة الإغلاق إلى أخرى بمجرد قوة الفكر. ربما عليه أن يكتب لجمعية الأبحاث النفسية.

نعم، قد يقارنها بالوسائل التي يفترض أنها امتلكت القدرة على إخفاء الأشياء ثم إعادة تصنيعها، مما يجعل القطع النقدية القديمة تتساقط على طاولة جلسة تحضير الأرواح، ناهيك عن الألواح الآشورية الصغيرة والأحجار شبه الكريمة. إنه أحد فروع استحضار الأرواح التي ظل آرثر متشككًا فيه بشدة. في الواقع، اعتاد معظم المحققين الهواة على تتبع العملات القديمة حتى أقرب هاوٍ تجميع قطع نقدية. أما الأشخاص الذين تعاملوا مع الثعابين والسلاحف والطيور الحيّة، فقد اعتقد آرثر أنهم ينتمون أكثر إلى السيرك أو كشك الساحر أو شرطة ستافوردشاير.

انتابه شعور بالقلق صاحبه نوع من النشوة. اثنتا عشرة ساعة... تكمن فيها الإجابة. ظلّت الأدلة بحوزة الشرطة لمدة اثنتي عشرة ساعة قبل تسليمها للدكتور باتر. أين كانت، من المسؤول عنها، كيف تم التعامل معها؟ هل هناك عبث طارئ، أو فعل معين بقصد محدد هو تجريم جورج إدالجي؟ من المؤكد تقريبًا أنهم لن يكتشفوا ذلك أبدًا، لا يخلو من اعتراف على فراش الموت... وكثيرًا ما شكّك آرثر في الاعترافات على فراش الموت.

ازدادت بهجته أكثر حين وصل تقرير الدكتور ليندسي جونسون إلى أندرشو، الذي دُعِم بدفترين مليئين بتحليل الرسوم البيانية التفصيلي لجونسون. اعتبر الرجل الأبرز في أوروبا أن أيًا من الرسائل المقدمة إليه، سواء كتبها متآمر حاقد أو مهووس دين أو فتى

فاسق، لم يكن فيها أي انسجام ملموس مع الوثائق الحقيقية التي كتبها جورج إدالجي. وُجِد نوع من التشابه المضلِّل في أمثلة محددة. لكن هذا لم يكن أكثر مما تتوقعه من مزوّر اعترف بمحاولة تزوير خط شخص آخر. تتوقع منه أن يقدر على الوصول إلى نسخة طبق الأصل مقبولة في بعض الأحيان، ومع ذلك، عُثر على إشارات كاشفة دائمًا لإثبات أن جورج -حرفيًا- لم يكن له يد في ذلك.

أصبح الآن أكثر من نصف الجزء الأول من قائمة آرثر مُحدّدًا بعلامة صح: يلفيرتين - الشعر - الرسائل - قوة الإبصار. ثم هناك غرين - لا يزال يعمل على الأمر - وآنسون. سيواجه قائد الشرطة مباشرة. "سأكون مهتمًا للغاية بتدوين ما قاله شيرلوك هولمز عن قضية في الحياة الواقعية..." ظهر رد فعل آنسون مشوبًا بروح التهكّم. حسنًا إذًا سيتعامل آرثر معه بجدية؛ لذا استعرض بالتفصيل نتائجه التي توصّل إليها حتى الآن، وأرسلها إلى آنسون، ودعاه للتعليق.

حين جلس على مكتبه لبدء مسودته، شعر لأول مرة منذ وفاة توي، بإحساس عن مدى اتساق الأوضاع. أصبح في المكان الذي ينتمي إليه بعد الاكتئاب والشعور بالذنب والفتور والتحدي والدعوة إلى العمل: رجل في مكتب مع قلم في يده، حريصًا على رواية قصة، وجَعْل الناس يرون الأمور من منظور مختلف أثناء وجوده في لندن، وجد في انتظاره -على الرغم من أنه لم يمكث لفترة طويلة- المرأة، من الآن فصاعدًا، هي وحدها ستكون أول قارئ له وأول شاهد من حياته. شعر أنه مشحون بالطاقة، ورأسه مكتظ بالمعلومات وهدفه واضح. بدأ بجملة عمل عليها في القطارات والفنادق وسيارات الأجرة، وهو أمر درامي وتوضيحي:

> اللحظة الأولى التي وقع فيها بصري على السيد جورج إدالجي كفتني في حد ذاتها، كي أقتنع بعدم إمكانية ارتكابه الجريمة التي أدين بها مطلقًا، ولاقتراح بعض الأسباب التي أدت إلى الاشتباه به على الأقل.

ومن هذه النقطة انطلق في السرد، مثل سلسلة كبيرة بلا قيود، صاغ روابطها بصلابة قدر استطاعته. كتب خمس عشرة ألف كلمة في يومين. ربما لا يزال ما يجب إضافته، وقتما تصل التقارير الإضافية من أطباء العيون وخبراء الكتابة اليدوية. تعامل باستخفاف

مع ما اعتبره دور آنسون في القضية أيضًا: لا جدوى من توقع ردٍّ مُجدٍ من شخص، إذا تعاملت معه بطريقة فجة قبل أن تقابله. ثم كتب وود التقرير، وأرسل نسخة بالبريد المسجل إلى قائد الشرطة.

وصل رد من غرين هول في ستافورد بعد يومين، دعوة السير آرثر لتناول العشاء مع كبير المفتشين آنسون والسيدة آنسون في أحد أيام الأسبوع التالي. وبطبيعة الحال، سيكون مرحبًا به للبقاء طيلة الليل. لم يكن هناك أي تعليق على الإطلاق على تقرير آرثر، فقط حاشية غريبة: "يمكنك إحضار السيد شيرلوك هولمز معك إذا رغبت في ذلك. وستسعد السيدة آنسون بلقائه. أعلمني إن رغب في توفير محل إقامة"

سلّم السير آرثر الرسالة إلى سكرتيره. "ابقَ متيقظًا وكن حذرًا وواجه الخصم"

أومأ وود موافقًا، وفهم عدم التعليق على الملحوظة.

"أفترض يا وودي، أنك لا تود أن تأتي معي مثل هولمز؟"

"سأرافقك إن رغبت سير آرثر، لكنك تعرف أفكاري عن التأنق" أحس بذلك أيضًا، بعد أن اختير لدور واتسون، ولعب دور هولمز كذلك سيكون أبعد عن مرونته الدرامية. "قد أكون أكثر نفعًا لك في ممارسة البلياردو"

"صحيح تمامًا، ألفريد. أنت تنوب عني. ولا تهمل الاعتراضات المزدوجة. سأرى ما صنعه آنسون"

بينما يخطط آرثر لرحلته إلى ستافوردشاير، تفكر جاين في أبعد من ذلك. حان الوقت لعنونة تحولها من الفتاة المُنتظِرة إلى الزوجة غير المنتظِرة. إنه الآن شهر يناير. توفيت توي في يوليو الماضي. من الواضح أن آرثر لن يتمكن من الزواج على مدى عام كامل. لم يتحدثا بعد عن موعد، لكن حفل زفاف في الخريف ليس فكرة مستحيلة. خمسة عشر شهرًا... قلة قليلة قد تصدم بفاصل زمني كهذا. العاطفة تفضل زفاف الربيع، لكن الخريف يناسب زواجًا ثانيًا في رأي جاين ثم شهر عسل أوروبي في إيطاليا بالطبع، وشعرت كثيرًا بأنها تتوق للقسطنطينية أيضًا. حفل الزفاف يعني إشبينات، لكن هذا ما استقرت عليه منذ فترة طويلة: ليزلي روز وليلي لودر سيموندس اختيرتا لهذه المهمة.

لكن الزفاف يعني الكنيسة أيضًا، والكنيسة تعني الدين. ربّت الأم آرثر ككاثوليكي،

لكن كلاهما هجر الإيمان منذ ذلك الحين: الأم للأنغليكانية، وآرثر لغولف يوم الأحد. حتى أن اسم آرثر الأوسط إغناتيوس اختفى. إذن هناك فرصة ضئيلة، أن تتزوج كاثوليكيًا من المهد. هذا قد يزعج والديها وخصوصًا والدتها. لكن إذا كان هذا هو الثمن، فستدفعه جاين.

هل سيكون هناك ثمن إضافي؟ إن عزمت على الوقوف إلى جانب آرثر في كل شيء، فعليها مواجهة ما فرّت منه إلى الآن. في المناسبات القليلة التي ذكر فيها آرثر اهتمامه بالمسائل النفسية، ابتعدت. ارتعدت في داخلها من ابتذال وحماقة ذلك العالم: رجال مسنون سخيفون يتظاهرون بالنقاش في هدوء، وعجائز شمطاوات في الباروكات المخيفة يحدّقن في كرات الكريستال، وأشخاص يمسكون أيديهم في الظلام ويقفزون قفزة واحدة معًا. ولا علاقة لهم بالدين، وهو ما يعني الأخلاق. وفكرة أن هذه... الطلاسم تروق لحبيبها آرثر مزعجة وبالكاد موثوقة. كيف يمكن لشخص مثل آرثر بقوته المنطقية التي لا يُعلى عليها، أن يسمح لنفسه بالانخراط مع مثل أولئك الناس؟

صحيح أن صديقتها العظيمة ليلي لودر سيموندس مفعمة بالحماس لقلب الطاولة، لكن جاين تعتبر ذلك أمرًا مرتبطًا بالنزوة. إنها تقطع أي حديث عن جلسة تحضير الأرواح، على الرغم من أن ليلي تؤكد لها أنها مليئة بالناس المحترمين. ربما يجب عليها أن تتحدث مع ليلي أولًا، كوسيلة للتغلب على نفورها. لا، سيُعدّ ذلك جبنًا. إنها تتزوج آرثر، بعد كل شيء، ليس ليلي.

لذا عندما وصل في طريقه إلى الشمال، جلس واستمع بصرامة لأخبار التحقيق، ثم قالت لمفاجأته بجدّية: "أود كثيرًا أن أقابل هذا الشاب الذي يعنيك"

"حقًا يا حبيبتي؟ إنه رجل محترم للغاية، وشُهِّر به تشهيرًا فظيعًا. أنا متأكد من أنه سيُكرَّم ويسعد"

"أعتقد أنك قلت إنه بارسيّ؟"

"حسنًا، ليس تمامًا. والده..."

"بماذا يؤمن البارسيّ يا آرثر؟ هل هم هندوس؟"

"لا، إنهم زرادشتيون" يستمتع آرثر بأسئلة كهذه. يمكن حصر اللغز الأساسي للمرأة، وإبقائه بعيدًا ما دام يُسمح له بشرح الأمور لهن. يصف بثقة ثابتة، الأصول التاريخية

للبارسيّين، ومظهرهم المميز، وأغطية الرأس، وموقفهم الليبرالي (المتحرر) تجاه النساء، وتقاليدهم في أن يولدوا في الطابق الأرضي من المنزل. تجاوز مراسم التطهير؛ لأن هذا ينطوي على الوضوء ببول البقر، لكنه أسهب في الحديث عن مكانة علم التنجيم المركزية في حياة البارسي، ويتجه نحو أبراج الصمت[63] وبعد وفاته تعتني به النسور، عندها ترفع جاين يدها لإيقافه. تدرك أن هذه ليست الطريقة الملائمة للقيام بالأشياء. إن تاريخ الزرادشتية لا يساعد في الانتقال السلس الذي تأملت فيه بطريقة أو بأخرى. كما تشعر بأنها محتالة، عكس نظرتها لذاتها.

"آرثر عزيزي" قاطعته. "هناك شيء أود التحدث فيه"

يبدو مندهشًا ومزعوجًا انزعاجًا طفيفًا. قدّر صراحتها دائمًا، لكن بداخله بقايا شك في أنه حين تقول امرأة إن شيئًا يجب التحدث عنه، فنادرًا ما يكون شيئًا لراحة الرجل أو مصلحته.

"أريدك أن تشرح لي مشاركتك في... هل تسميها استحضار الأرواح أم الروحانية؟"

"استحضار الأرواح هو المصطلح المفضل لدي، لكن يبدو أنه بدأ يفقد قيمته. ومع ذلك، أظن أن الموضوع لم يرق لك بأكمله" إنه يعني أكثر من هذا: إنها تخشى وتزدري الموضوع بأكمله... ومن باب أولى مناصريه.

"آرثر، لا يمكنني أن أكره أي شيء تهتم به" إنها تعني أقل من هذا: هي تأمل ألا تستطيع أن تكره أي شيء يوليه اهتمامه.

وهكذا يبدأ في شرح تورطه، من التجارب في تحويل الفكر مع مهندس أندرشو المعماري المستقبلي لإجراء محادثات داخل قصر باكنغهام مع السير أوليفر لودج. في جميع المراحل يشدد على الأصول والإجراءات العلمية للبحث النفسي. يسير بحذر شديد، مما يجعل الأمر يبدو معتبرًا وغير مهدد قدر استطاعته. نبرته بقدر كلماته بدأت في طمأنتها نوعًا ما.

"صحيح آرثر، ليلي تحدثت معي قليلًا عن قلب الطاولة، لكنني أفترض أن قلب

---

63 هي أبراج ذات شكل دائري على قمة تلة أو جبل منخفض في منطقة صحراوية نائية بعيدًا عن التجمعات السكانية عادة تستخدم لدى أبناء الديانة الزرادشتية عند الوفاة، يوضع جسد المتوفى في أعلى البرج حتى تأتي الطيور الجارحة وتأكله، إذ أنه وحسب تعاليم الزرادشتية فإن الجسد نجس لذا يجب أن لا يختلط مع عناصر الحياة الثلاثة الأخرى: الماء والتراب والنار.

الطاولة دائمًا ضد تعليم الكنيسة. أليست هرطقة؟"

"إنه يتعارض مع مؤسسات الكنيسة، هذا صحيح. لأسباب ليس أقلها إنه يستبعد الوسيط"

"آرثر! بالكاد هذه طريقة مناسبة للتحدث عن رجال الدين (رجال الإكريلوس)".

لكن تاريخيًا هذا حالهم الذي كانوا عليه. الوسطاء والمُوفّقون. ناقلو الحقيقة بداية، لكن تحكّمهم يتعاظم في الحقيقة بالمشوِّشين والسياسيّين. كان الكاثوليك على الخط الصحيح، أي أنهم يصلون مباشرة إلى الربّ غير مقيدين بطبقات من التسلسل الهرمي. وبطبيعة الحال، قضت روما عليهم"

"لذا -هل أسميها معتقدات أم لا؟- إنها تجعلك مُعاديًا لكنيستي" وبالتالي هي تقصد لجميع أعضائها. لعضو واحد محدد.

"لا يا عزيزتي. ولن أسعى أبدًا لثنيك عن الذهاب إلى كنيستك. لكننا نتجاوزها. قريبًا - قريبًا جدًا من الناحية التاريخية - ستصبح من الماضي. انظري إليها بهذه الطريقة: هل هي وحدها المجال الفكري غير التقدمي؟ ألن يكون ذلك شيئًا غريبًا؟ هل ستتم إحالتنا إلى الأبد إلى معيار وُضِع منذ ألفي عام؟ ألا يستطيع الناس أن يروا أنه مع تطور دماغ الإنسان، يجب أن تتّسع النظرة؟ يشكّل نصف الدماغ المكتمل نصف إله مكتمل، ومن سيجرؤ على الحكم حتى أن أدمغتنا لم تكتمل بعد؟"

تصمت جاين. إنها تعتقد أن المعايير الموضوعة منذ ألفي عام هي معايير حقيقية يجب الالتزام بها. بينما قد يتطور الدماغ ويحقق كل أنواع التقدم العلمي، فإن الروح التي هي الروح المقدسة، هي شيء منفصل تمامًا وغير قابل للتغيير، وغير قابل للتطور.

"هل تذكرين حين حكّمت في منافسات الرجل القوي؟ في قاعة ألبرت الملكية؟ كان اِسم الفائز موري. تعقّبته في الليل. شاهدت تمثالاً ذهبيًا تحت ذراعه، وهو أقوى رجل في بريطانيا. ومع ذلك فقد تاه في الضباب..."

لا ، غدا المجاز النهج الخاطئ. وما لبثت الاستعارات في الأديان المنظمة (المؤسسية)، أن تبدّلت.

"ما نقوم به يا جاين، هو أمر بسيط. نحن نأخذ جوهر الأديان العظيمة، وهي حياة

الروح، ونجعلها أكثر وضوحًا وبالتالي يمكن فهمها أكثر"

تبدو هذه كلمات مُغرية لها، ونبرتها واضحة. "عبر جلسات استحضار الأرواح وقلب الطاولة؟"

"وهو ما يبدو غريبًا لغير المنتمي للمجموعة، أعترف بصراحة. كما ستبدو مراسم كنيستك غريبة عن الزائرين الزرادشتيين. جسد ودم المسيح على طبق وفي فنجان... قد يعتقد أن ذلك مجرد هراء. أصبحت الكنيسة غارقة في الطقوس والاستبداد. نحن لا نقول تعالوا وصلّوا في كنيستنا واتبعوا تعاليمنا، وربما في يوم من الأيام ستكافَؤون في الآخرة. هذا يشبه مساومة بائعي السجاد. بدلًا من ذلك، سأُوضح لك الآن، وأنتِ ما زلتِ حيّة، حقيقة بعض الظواهر النفسية، التي ستثبت لك بُطلان الموت المادي"

"إذن أنت لا تؤمن ببعث الجسد؟"

"أن تُوارى أجسادنا تحت الثرى ونتعفّن، ثم في وقت ما في المستقبل نجمع مرة أخرى معًا؟ لا. الجسد مجرد قشرة، إنه الوعاء الذي نستبدله. صحيح أن بعض الأرواح تهيم في الظلام لفترة بعد الموت، ولكن هذا فقط لأنها غير مستعدة للانتقال إلى الجانب الأبعد. إن الروحاني الحقيقي مَن يفهم العملية سيَعبُر بسهولة وبلا ألم. وسيصبح قادرًا على التواصل بسرعة أكبر مع العالم الذي خلّفه وراءه أيضًا"

"هل شهدت هذا؟"

"آه نعم. وآمل أن أفعل ذلك مرارًا كما أفهم إلى حد بعيد"

تسري بجاين قشعريرة مفاجئة. "لن تفعل، آمل أن تصبح وسيطًا عزيزي آرثر". تحمل صورة عن زوجها الحبيب كمُساوِم مُسن يدخل في نشوة، ويتحدث بأصوات مضحكة. واشتهرت السيدة دويل الجديدة بأنها زوجة المُساوِم.

"آه لا، لا أحمل مثل تلك السلطات. الوسطاء الحقيقيون نادرون جدًا جدًا. غالبًا ما يتصفون بالبساطة والتواضع. مثل يسوع المسيح على سبيل المثال"

تتجاهل جاين هذه المقارنة. "وماذا عن الأخلاق آرثر؟"

"الأخلاق لم تتغير. الأخلاق الحقيقية، تلك... التي تنبع من ضمير الفرد ومحبة الرّب"

"أنا لا أعنيك يا آرثر. أنت تعرف ما أعنيه. إذا لم يكن لدى الناس -الناس العاديين-

الكنيسة لإخبارهم بكيفية التصرف، فإنهم سيتخلّفون إلى حالة من الانحطاط الوحشي والمصلحة الشخصية"

"لا أرى ذلك كبديل. الروحانيون، الروحانيون الحقيقيون، هم رجال ونساء يتمتّعون بمستوى أخلاقي رفيع. يمكنني أن أسمي لك كثيرًا منهم. وأخلاقهم هي الأعلى؛ لأنهم أقرب إلى فهم الحقيقة الروحية. إذا شاهد الشخص العادي المُشار إليه دليلًا على عالم الروح مباشرة، وإذا أدرك مدى قربه منا في جميع الأوقات، حينها ستفقد الوحشية والمصلحة الشخصية جاذبيتها. أظْهِر الحقيقة، وستعتني الأخلاق بنفسها"

"آرثر، أنت تشرح بسرعة كبيرة بالنسبة لي" إضافة إلى ذلك، تشعر جاين ببداية صداع، في الواقع إنها تخشى الصداع النصفي.

"بكل تأكيد. أمامنا حياتنا بأكملها ومن ثم الخلود معًا"

ابتسمت جاين. تتساءل ما الذي ستفعله توي بكل الخلود الذي عاشته هي وآرثر معًا. على الرغم من أنها ستواجه المشكلة ذاتها بالطبع، سواء تبيّن أن كنيستها تقول الحقيقة أو أولئك الوسطاء الصغار الذين يثيرون إعجاب زوجها.

آرثر نفسه بعيد عن الصداع. تتحرك الحياة مرة أخرى: أولًا قضية إدالجي، والآن اهتمام جاين المفاجئ بالأشياء التي لها أهمية حقًا. سيعود قريبًا إلى كامل حيويته. يعانق فتاته المُنتظِرة على عتبة الباب، وللمرة الأولى منذ وفاة توي، يجد نفسه مُستجيبًا مثل عريس مُحتَمل.

آنسون

أخبر آرثر سائق سيارة الأجرة أن ينزله عند السجن القديم بجوار فندق وايت ليون. يقع الفندق قبالة أبواب غرين هول مباشرة. كان الوصول على الأقدام تكتيكًا غريزيًا. واصل التقدم صعودًا برويّة من طريق ليتشفيلد، في محاولة للمشي حذرًا بحذائه الجلدي على الحصى، وفي يده حقيبة لليلة واحدة. توقف عند ظل شجرة، عندما أضاءت أشعة

الشمس الضعيفة في وقت متأخر من بعد الظهر زاوية من المنزل برزت أمامه. لماذا لا تقنع أساليب الدكتور جوزيف بيل في الهندسة المعمارية بإفشاء الأسرار، تمامًا كما فعل علم وظائف الأعضاء؟ لذلك: افترَض في عشرينيات القرن التاسع عشر، واجهة يونانية زائفة من الجص الأبيض، رواق صلب مع زوجين من الأعمدة الأيونية الضخمة، ثلاث نوافذ على كلا الجانبين. ثلاثة طوابق... ومع ذلك، إلى الآن في نظره، عثر هناك على شيء مريب حول الطابق الثالث. نعم، بداية راهَن وود على أربعين نقطة أنه لا توجد غرفة عليّة واحدة خلف هذا الصف من النوافذ السبعة: مجرد خدعة معمارية لجعل المنزل أطول وأكثر إثارة للإعجاب. لا يمكن لوم الساكن الحالي على هذا التضليل. عند إمعان النظر خارج المنزل، على الجانب الأيمن، يمكن أن ينشئ دويل حديقة غارقة في الورود، وملعب تنس، وبيتًا صيفيًّا مُطوّقًا بزوجٍ من أشجار الشرد المطعمة.

ما القصة التي يرويها ذاك كلّه ؟ المال والتربية والذوق والتاريخ والسلطة. صنع آنسون الملّاح اسم العائلة في القرن الثامن عشر، كما خصّص ثروته الأولى... جائزةً ماليّةً للاستيلاء على سفينة غاليون شراعية كبيرة إسبانية. مُنح ابن أخيه لقب فيكونت في عام ألف وثمانمئة وستة، وترفّع إلى لقب إيرل في عام ألف وثمانمئة وواحد وثلاثين. إذا عُرِف هذا أنه مسكن الابن الثاني، وامتلك شقيقه الأكبر منزل شغبورو الفخم، فإن الآنسون عرفوا كيف يعززون تَرِكتهم.

على بعد بضعة أقدام من نافذة في الطابق الثاني، استدعى كبير المفتشين آنسون زوجته بهدوء.

"بلانش، المخبر العظيم على وشك الوصول إلينا. باحثًا في الممر عن آثار أقدام كلب ضخم"، نادرًا ما سمعته السيدة آنسون يرفع صوته متململاً. "عندما يصل الآن، لا يجب أن تثرثري عن كتبه"

"أنا، أثرثر؟" تظاهرت بالاستياء أكثر مما يجب.

"انتشرت الحماقات عنه عبر طول البلاد وعرضها. فيما أزعجه أنصاره حتى الموت. يجب أن نُحسن الضيافة، لكن لسنا مُتملّقين"

تزوجت السيدة آنسون منذ فترة كافية، لتعلم أن هذا كان كناية عن الأعصاب،

ولا وجود لأي مخاوف حقيقية بشأن سلوكها. "لقد طلبت حساءً صافيًا، وسمكًا مشويًا، وشرْحات من لحم الضأن"

"مع؟"

"كرنب بروكسل وكروكيت البطاطا بالطبع. لم يكن عليك أن تسأل، ثم سوفليه السميد وبيض الأنشوجة"

"إنها قائمة مثالية"

"بالنسبة للإفطار، هل تفضل لحم الخنزير المقدد والبيض أو الرنجة المشوية ولفائف اللحم البقري؟"

"في مثل هذا الطقس... أعتقد أن الخيار الأخير هو الأنسب. وتذكري يا بلانش، لا نقاش عن القضية خلال العشاء"

"لن يكون ذلك صعبًا بالنسبة لي جورج"

على أي حال، أثبت دويل نفسه بصفته ضيفًا مهذبًا، توّاق ليريه حجرته، ومتحمس بالدرجة نفسها للنزول منها في الوقت المناسب للقيام بجولة في الأراضي قبل أن يتلاشى الضوء. بصفته مالك عقار لمالك آخر، أبدى قلقًا بشأن غمر نهر سو مروج المياه، ثم سأل عن التلة الترابية الغريبة التي توارى نصفها في المنزل الصيفي. أوضح آنسون أنه كان بيتًا جليديًا قديمًا، وأصبح خارج الخدمة بسبب التثليج. تساءل عما إذا أمكنه ألا يسلمها إلى تخزين النبيذ. بعد ذلك نظروا في كيفية نجاة العشب في ملعب التنس في فصل الشتاء، وأعربوا عن أسفهم جميعًا لقصر الموسم الذي فرضه المناخ الإنجليزي. قبِل آنسون ثناء دويل وتقديره، بعد أن افترض أنه مالك غرين هول. في الحقيقة، لقد استأجره فقط، لكن لماذا عليه أن يخبر المحقق العظيم بذلك؟"

"أرى أن أشجار الشرد قد طُعِّمت"

"لا تفوتك خدعة يا دويل"، عقّب قائد الشرطة مع ابتسامة. إنها أخف الإشارات لما هو قادم.

"لقد أمضيت أعوامًا أغرس الأشجار بنفسي"

على العشاء، شغل الآنسون كلًا من طرفي الطاولة، مع منح دويل إطلالة النافذة

المتوسطة للخارج على حديقة الورود الخاملة. أظهر نفسه مهتمًا جيدًا لأسئلة السيدة آنسون، حتى إنها ظنّت في بعض الأحيان، أنه بالغ في التفكير.

"أنت على دراية تامة بستافوردشاير، سير آرثر؟"

"ليس كما يفترض أن أكون. مع ذلك، أتواصل مع عائلة والدي. كان دويل الأصلي فرعًا من ستافوردشاير دويلز، والذي كما تعلمان، أنجب السير فرانسيس هاستينغز دويل ورجالًا مميزين آخرين. شارك هذا الفرع في اجتياح إيرلندا، وحصل على ممتلكات في مقاطعة ويكسفورد"

ابتسمت السيدة آنسون مشجعة، ولم يكن ذلك ضروريًا. "ومن طرف والدتك؟"

"آه، الآن هذا مهم للغاية. والدتي بارعة في علم الآثار، وبمساعدة السير آرثر فيكارز - ملك السلاح في أولستر ونسله من الأقارب - تمكنت من معرفة أصولها على مدى خمسة قرون. إنها تفخر بها - نفخر بها - أن لدينا شجرة عائلة استقر فيها العديد من عظماء الأرض. عم جدتي السير دينيس باك، مَن قاد اللواء الأسكتلندي في واترلو"

"بالتأكيد" عُرِفت السيدة آنسون أنها من أشد المؤمنين بالنظام الطبقي وواجباته والتزاماته كلها. لكن ما يُثبت النبالة هي التربية والمواقف، لا الوثائق.

"ومع ذلك، تعود الرومانسية الحقيقية للعائلة إلى زواج المُبجّل ريتشارد باك من ماري بيرسي، وريثة الفرع الإيرلندي في بيرسيز من نورثمبرلاند في منتصف القرن السابع عشر. من هذه اللحظة ارتبطنا معًا إلى ما يصل إلى ثلاث زيجات مختلفة مع عائلة بلانتاجينت. لذا لدى المرء بعض السلالات الغريبة في دمائه والنبيلة في الأصل، ولكن لا يسع المرء إلا أن يأمل أن تكون نبيلة النزعة"

"لا يسع المرء إلا أن يأمل" كررت السيدة آنسون. هي نفسها ابنة السيد جي. ميللر من برينتري، في مقاطعة غلوسترشير، وليس لديها فضول يذكر بشأن أسلافها البعيدين. بدا لها أنك إن دفعت لباحث كي يضع شجرة عائلتك، فسينتهي بك الأمر إلى الارتباط مع بعض أفراد العائلة العظيمة دائمًا. عمومًا، لم يرسل باحثو الأنساب فواتير مرفقة لتأكيد أنك تنحدر من مُربّي الخنازير من أحد طرفي العائلة ومن الباعة المتجولين من الطرف الآخر.

"برغم ذلك،" تابع السير آرثر قائلًا: "في الوقت الذي حملت فيه كاثرين باك -ابنة

أخ السير دينيس- لقب أرملة في إدنبرة، فإن ثروة العائلة باتت مهددة في ظروف محفوفة بالمخاطر. في الواقع، أُجبرت على استقبال مستأجر. بهذه الطريقة جاء والدي -المستأجر- للقاء والدتي"

"ساحر"، علّقت السيدة آنسون. "ساحر جدًا. والآن أنت مشغول باستعادة ثروة العائلة"

"عندما كنت صغيرًا، تألمت كثيرًا من العوز الذي آلت إليه أمي. شعرت أنه ضد ما جُبِلت عليه طبيعتها. هذه الذاكرة هي جزء مما دفعني للأمام دائمًا"

"ساحر" رددتها السيدة آنسون، بمعنى أقل هذه المرة. الدماء النبيلة، الأوقات الصعبة، استعادة الثروة. كانت سعيدة بما يكفي لتصديق مثل هذه المواضيع في رواية في مكتبة، لكن عندما واجهتها نسخة حية مالت إلى أن تجدها غير قابلة للتصديق وعاطفية. وتساءلت إلى متى ستستمر هيمنة العائلة هذه المرة. ماذا قالوا عن الثروة السريعة؟ جيل يجمعها، وجيل يستمتع بها، وجيل يُبدّدها.

لكن السير آرثر امتلك أكثر من مجرد لمسة فخر بأسلافه، كان رفيق مائدة مجتهد. أظهر شهية وفيرة للطعام، حتى أنه تناول الطعام بلا أدنى تعليق على ما هو مُقدَّم أمامه. لم تستطع السيدة آنسون أن تقرر ما إذا اعتقد أنه من المبتذل أن يشيد بالطعام، أو أنه ببساطة يفتقر إلى براعم التذوق. كما لم يذكر على الطاولة قضية إدالجي، ووضع العدالة الجنائية، تحت إدارة السير هنري كامبل بانرمان، ومآثر شيرلوك هولمز. لكنهم تمكنوا من إدارة دفّة الحوار، مثل ثلاثة مُجدّفين بلا قائد تجديف، يُجدّف السير آرثر بقوة من جانب، ويغمس الآنسون مجاديفهم بما يكفي على الجانب الآخر للحفاظ على القارب مستويًا.

وُزّع بيض الأنشوجة، وبإمكان بلانش آنسون أن تشعر بتذمّر الرجلين بعيدًا عن الطاولة. كانا متحمسين للمكتب ذي الستائر، والنار المضرمة، والسيجار المشتعل، وكأس البراندي، والفرصة لتقطيع قطع اللحم الكبيرة بأكبر قدر ممكن بأسلوب حضاري. يمكنها أن تشم فوق روائح الطاولة، شيئًا بدائيًا ووحشيًا في الهواء. نهضت وودّعت المحاربين متمنية لهما ليلة سعيدة.

انتقل السيدان إلى مكتب كبير المفتشين آنسون، حيث اندلعت النيران. أمعن النظر

دويل في لمعان الفحم الطازج في الدلو النحاسي، والحواف المصقولة في المنشورات الدورية المجلدة، وحامل التانتالوس المتلألئ بثلاث زجاجات فوارة، وبطن سمكة منتفخة مطلية في علبة زجاجية. كل شيء لامع: حتى هذا الزوج من قرون الوعل من النوع غير المحلي -افترض أنه أيل من النوع الإسكندنافي- قد جذب انتباه الخادمة.

حَرَّر سيجارًا من العلبة الموضوعة أمامه، ولفه بين أصابعه. مرّر له آنسون مدية وعلبة أعواد ثقاب للسيجار.

وصرّح قائلًا: "أستنكر استخدام قاطع السيجار، وأفضل عليه السكين اللطيفة دائمًا"

أومأ دويل، وانكبّ على مهمته ثم نفض عقب السيجار المقطوع في النار.

"أفهم أن تقدّم العلم قد جلب لنا الآن اختراع ولاعة السيجار الكهربائية؟"

أجاب دويل: "إن بدا الأمر على هذا النحو، فإنه لم يصل إلى هيندهيد" رفض أي فاتورة لأن العاصمة ترعى المقاطعات. لكنه لمس حاجة في مضيفه لتأكيد تمكنه من بحثه. حسنًا، إذا كان الأمر كذلك، فسيقدم له العون.

اقترح قائلًا: "الأيائل، ربما تكون من جنوب كندا؟"

"السويد" سارع قائد الشرطة للرد في عجالة. "ليس خطأ سيقترفه مُخبرك"

آه، لذا يجب أن نحظى بها أولًا، أليس كذلك؟ شاهد دويل آنسون يشعل سيجاره. مع توهّج عود الثقاب لمعت عقدة ستافورد من دبوس ربطة عنقه للحظة.

قال قائد الشرطة: "قرأت بلانش كتبك"، أومأ برأسه قليلًا كما لو أن ذلك قد حسم الأمر. "إنها أيضًا متحيزة جدًا للسيدة برادون"

انتاب دويل ألم مفاجئ مماثل لداء النقرس. وجاءته هناك طعنة أخرى، في حين واصل آنسون حديثه: "أنا أميل أكثر للكاتب ستانلي وايمان"

"العظيم"، أجاب دويل: "العظيم". مما يعني أنه عظيم من النوع الذي تفضله كما يبدو بقدر اهتمامي.

"أترى يا دويل -أنا متأكد من أنك لا تمانع إذا تحدثت بصراحة؟- قد لا أكون ممن يمكن أن تسميه شخصًا أديبًا، لكن بصفتي قائدًا للشرطة، فأنا حتمًا أتبنى نظرة أكثر احترافية للمسائل أكثر من معظم القراء كما أتخيل. إن ضباط الشرطة الذين تعرضهم في

حكاياتك غير المناسبين لمهامهم هو أمر كما أفهم تمامًا، ضروري لمنطق اختراعاتك. وإلا كيف يبرز مخبرك إن لم يكن محاطًا بالمغفلين؟"

إنه لا يستحق هراء الجدل. "المغفلون" بالكاد وصف المفتش ليستراد وغريغسون وهوبكينز و... آه، لم يكن...

"لا، أفهم أسبابك جيدًا دويل. لكن في العالم الحقيقي..."

توقف دويل عن الاستماع إلى حد ما عند هذه النقطة. على أي حال، علِق عقله عند عبارة "العالم الحقيقي" ما مدى سهولة أن يفهم الجميع ما هو حقيقي وما هو غير حقيقي. العالم الذي حُكم فيه على محام شاب مُغفّل بالأشغال الشاقة في بورتلاند... العالم الذي كشف فيه هولمز لغزًا آخر يتجاوز فيه سلطات ليستر وزملائه... أو ما وراء العالم، العالم وراء الباب المغلق، الذي من خلاله غابت توي دون عناء. يؤمن بعض الناس بواحد من هذه العوالم فقط، بعضهم في اثنين، وقليل منهم يؤمن في ثلاثة. لماذا تخيل الناس أن التقدم يقوم على الإيمان بالقليل، بدلاً من الإيمان بالمزيد، وفي الانفتاح على المزيد من الكون؟

"... لهذا السبب يا صديقي الطيب، لن أقوم بنشر مفتشي حقن الكوكايين والرقباء وضباط الشرطة حسب توجيهاتي بلا أوامر من وزارة الداخلية"

أمال دويل رأسه، كما لو أنه أقر بتصويبة ملموسة. لكنه اكتفى من التمثيل وحسن الضيافة.

"إلى القضية التي بين أيدينا. قرأت تحليلي"

"قرأت... القصة" أجاب آنسون. "يجب أن يقال إنها قصة مؤسفة. سلسلة من الأخطاء. كان يمكن أن يتم إيقافها في وقت مبكر جدًا"

فوجئ دويل بصراحة آنسون. "يسرني أن أسمعك تقول ذلك. ما الأخطاء التي فكرت فيها؟"

"العائلة. هذا هو المكان الذي سارت فيه الأمور سيرًا خاطئًا. عائلة الزوجة. ما الذي أخذ يجول في رؤوسهم؟ أيًا كان ما جال في رؤوسهم؟ دويل، حقًا: تصرّ ابنة أخيك على الزواج من بارسي -لا يمكن إقناعها بالعدول عن الفكرة- وماذا تفعل؟ أنت تمنح الرجل فرصة العيش... هنا. في غريت ويرلي. يمكنك ربما تعيين رجل فينياني قائدًا للشرطة في

ستافوردشاير أيضًا، وقد فعلت"

"أنا أميل إلى الاتفاق معك"، أجاب دويل. "لا شك في أن راعيه سعى لإثبات عالمية الكنيسة الأنغليكانية. الكاهن في تقديري، رجل لطيف ومخلص، خدم الرعيّة بأفضل ما يملكه. لكن إقحام رجل دين ملون في مثل هذه الرعيّة الفظة والبدائية لا بد أن يتسبب في وضع مؤسف. إنها بالتأكيد تجربة لا يجب أن تتكرر"

نظر آنسون إلى ضيفه باحترام مفاجئ... حتى إنه سمح له بالتهكم "فظ وبدائي" وجد أن هناك أرضية مشتركة أكثر مما توقع. لزم عليه أن يعلم أن السير آرثر من غير المرجح أن يثبت أنه راديكالي تمامًا.

"ثم تقديم ثلاثة أطفال نصفهم هجين إلى الحي"

"جورج وهوراس ومود"

"ثلاثة أطفال نصفهم هجين" ردّد آنسون.

"جورج وهوراس ومود" كرّر دويل.

"جورج وهوراس ومود إي دا لجي"

"هل قرأت تحليلي؟"

"لقد قرأت... تحليلك" -قرر آنسون التنازل عن الكلمة هذه المرة- "وأنا معجب سير آرثر بكل إصرارك وشغفك. أعدك بأن أحتفظ بتخميناتك الأولية لنفسي. إن بثّها ليس جيدًا لسمعتك"

"أعتقد أنك يجب أن تسمح لي بأن أحكم على ذلك"

"كما ترغب، كما ترغب. قرأت لي بلانش قبل أيام، مقابلة أجريتها في ذا ستراند قبل عدة أعوام، حول أساليبك. أنا واثق من أنك لم تُسئ على نحو فادح؟"

"لا أذكر ذلك. لكنني لست معتادًا على القراءة بالروح الباحثة عن الحقيقة"

"لقد وصفت الكيفية، حين كتبت حكاياتك، النتيجة أولًا هي ما شغل فكرك دائمًا"

"بداية النهاية. لا يمكنك معرفة المسار الذي يجب أن تسلكه إلا إذا عرفت الوجهة أولًا"

"بالضبط. وقد وصفتها في... تحليلك كيف أنك عندما قابلت الشاب إدالجي للمرة الأولى -في بهو الفندق، على ما أظن- راقبته لفترة من الوقت، وحتى قبل مقابلته اقتنعت

ببراءته؟"

"بالتأكيد. للأسباب المذكورة بوضوح"

"للأسباب التي استشعرتها بوضوح، أُفضّل أن أقول. كل شيء كتبته يعود لهذا الشعور. بمجرد أن تصبح مقتنعًا ببراءة الشاب البائس، كل شيء يصبح مفهومًا"

"في حين أنك إن اقتنعت بذنب الشاب، كل شيء يصبح مفهومًا"

"لم يكن استنتاجي قائمًا على حدسي في بهو الفندق، بل على نتائج رصد الشرطة وتقاريرها على امتداد عدة أعوام"

"لقد جعلتَ الصبي هدفًا منذ البداية. كتبت تتوعده بالأشغال الشاقة"

"كتبت محاولاً أن أحذر كلًا من الصبي ووالده من عواقب الإصرار على المسار الإجرامي الذي تقدّمت به بوضوح. أعتقد أني لست مخطئًا في اعتقادي بأن مهمة الشرطة ليست عقابية فحسب بل وقائية أيضًا"

أومأ دويل برأسه الذي اشتبه في أنها عبارة أُعدّت خصيصًا له. "لقد نسيت أنني قبل لقاء جورج، قرأت مقالاته البديعة في ذي أمبير"

"لم ألتق بعد بأي شخص محتجز حسب رغبة جلالة الملك لم يمتلك تفسيرًا مقنعًا لسبب عدم إدانته"

"من وجهة نظرك أرسل جورج إدالجي خطابات متهمًا فيها نفسه؟"

"من بين مجموعة كبيرة ومتنوعة من الخطابات الأخرى. نعم"

"برأيك زعيم العصابة من قام بتقطيع أوصال البهائم؟"

"من يمكنه أن يحكم؟ العصابة كلمة ذُكرت في الصحافة. ليس لدي أدنى شك في أن هناك آخرين متورطين. ولا يساورني شك أيضًا في أن المحامي كان أذكاهم"

"برأيك والده، كاهن الكنيسة الإنجليزيّة، أدلى بشهادة زور في المحكمة؛ لمنح ابنه ذريعة؟"

"دويل سؤال شخصي، إن سمحت لي. هل لديك ابن؟"

"نعم. يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا"

"وإذا تورّط في مشكلة، ستساعده"

"نعم. لكن إذا ارتكب جريمة ما، فلن أحنث بقسمي"

"لكنك ما زلت تساعده وتحميه، باختصار"

"نعم"

"إذن ربما مع خيالك، يمكنك تخيل شخص آخر يقوم بأكثر من هذا"

"لا يمكنني أن أتخيل كاهن كنيسة إنجليزية، يضع يده على الكتاب المقدس، ويحنث بيمينه"

"إذن حاول أن تتخيل هذا بدلًا من ذلك. تخيل أن أبًا بارسيًا يضع الولاء لعائلته البارسية فوق الولاء لأرض ليست ملكه، حتى لو أعطته المأوى والتشجيع. يريد إنقاذ لون بشرة ابنه يا دويل. لون البشرة"

"ومن وجهة نظرك، حنثت الأم والأخت بيمينهما أيضًا؟"

"دويل، أنت تقول من وجهة نظري. "وجهة نظري"، كما تسميها، هي رأي لا يمثلني وحدي بل شرطة ستافوردشاير، ومحامي الادعاء، وهيئة محلفين إنجليزية لائقة، وقضاة محاكم الجلسات الفصلية السنوية. لقد حضرت كل يوم من أيام المحاكمة، ويمكنني أن أؤكد لك شيئًا واحدًا سيكون موجعًا لك لكن لا يمكنك تجنبه. لم تصدق هيئة المحلفين شهادة عائلة إدالجي... بالتأكيد ليس من الأب والابنة. ربما حظِيت شهادة الأم بأهمية أقل. هذا ليس بالأمر الهيّن. تجلس هيئة محلفين إنجليزية حول مائدة مستديرة على اعتبار أن حكمها هو شأن رسمي. يفكرون مليًا في الأدلة. يدرسون الشخصية. لا يجلسون هناك في انتظار إشارة من فوق مثل... أن يأتي أحدهم لقلب الطاولة في جلسة استحضار للأرواح"

نظر دويل صوبه بحدّة. هل هذه عبارة عشوائية، أم محاولة لزعزعته؟ حسنًا، سيستغرق الأمر أكثر من ذلك.

"نحن نتناقش يا آنسون، ليس عن ابن الجزّار، بل عن رجل إنجليزي محترف، محام في أواخر العشرينات من عمره، المعروف بالفعل كمؤلف لكتاب عن قانون السكك الحديدية"

"إذن ما لبثت أن تعاظمت جنحته. إذا تخيلت أن المحاكم الجنائية تستقبل فئات المجرمين فقط، فأنت أكثر سذاجة مما توقعت. حتى المؤلفين يقفون أحيانًا في قفص الاتهام،

وهو ما يجب أن تكون على دراية به. ولا شك في أن العقوبة عكست خطورة القضية، الذي أدّى اليمين الدستورية لدعم القانون وتفسيره لذا استهان به بشدة"

""سبع سنوات" أشغال شاقة. حتى وايلد نال عامين فقط"

"لهذا السبب يكون الحكم للمحكمة وليس لك أو لي. ربما لم أكن لأحكم على إدالجي بأقل من هذه العقوبة، ورغم ذلك كنت سأحكم على وايلد بعقوبة أكبر. لقد بدا مذنبًا تمامًا... وحنث باليمين أيضًا"

قال دويل: "لقد تناولت العشاء معه مرة واحدة". كانت الخصومة تتصاعد الآن كالضباب في نهر سو، وحدّثته جميع غرائزه أن يتراجع قليلاً. "كان يمكن أن يكون في عام تسعة وثمانين، على ما أعتقد. هذه أمسية ذهبية لي. توقعت أنه أحادي ومغرور، لكني وجدته رجلاً نبيلاً ذا أخلاق عالية. كنا أربعة أشخاص، وعلى الرغم من أن طوله يفوق أطوال الثلاثة الآخرين، إلا أنه لم يُباهِ أبدًا. مهما ظهر رجلك رجل المونولوج ذكيًا، لا يمكن أن يكون رجلاً نبيلاً بصدق. مع وايلد، فإن الأمر أخذ وعطاء، وهو من امتلك مهارة أن يبدي اهتمامه بكل شيء قد نقوله. حتى أنه قرأ مايكا كلارك.

"أذكر أننا ناقشنا كيف أن الحظ الجيد للأصدقاء قد يجعلنا أحيانًا مستاءين استياء غريبًا. أخبرنا وايلد قصة الشيطان في الصحراء الليبية. هل تعرفها؟ لا؟ حسنًا، كان الشيطان يطوف في إمبراطوريته، عندما صادف عددًا من الأشرار الصغار يُعذّبون ناسكًا ورِعًا، مُوظِّفين الإغراءات والاستفزازات ذات الطبيعة الروتينية، التي قاومها الرجل القديس بلا صعوبة تُذكر. قال زعيمهم: "ليس هذا أفضل ما يمكن القيام به. سأريكم. راقبوا بدقة" عندها دنا الشيطان من خلف الناسك الورِع، وبنبرة خافتة معسولة همس في أذنه: "لقد عُيّن أخوك للتو أسقف الإسكندرية" وعلى الفور اكفهرّ وجه الناسك حانقًا غيرة. قال الشيطان: "هذا هو أفضل ما يمكن القيام به".

شارك آنسون دويل الضحك، وإن كان ليس نابعًا من قلبه. لم تكن الفلسفة التشاؤمية (الكلبية) الضحلة اللوطية لسكان المدن على ذوقه. "أيًا كان الأمر"، قال: "وجد الشيطان وايلد نفسه فريسة سهلة بالتأكيد"

"يجب أن أضيف"، استرسل دويل قائلاً: "لم ألحظ أبدًا في محادثة وايلد أثرًا واحدًا

لفظاظة الفكر، ولا يمكنني ربطه في ذلك الوقت بفكرة من هذا القبيل"

"بعبارة أخرى، إنه رجل محترف"

تجاهل دويل النبرة. "التقيت به مرة أخرى، بعد أعوام قليلة، في أحد شوارع لندن، كما تعلم، وبدا لي أنه غاضب جدًا. سألني إن ذهبت لحضور مسرحيته. قلت له مع الأسف لا. "آه، يجب أن تذهب"، قال لي بأشد العبارات. "إنها رائعة! إنها عبقرية!" لا شيء يمكن أن يكون أبعد من موهبته النبيلة السابقة. فكرت في ذلك الوقت، وما زلت أعتقد، أن التطور الوحشي الذي حطّمه مرضيًا، وأن المستشفى بدلًا من محكمة الشرطة هو المكان المناسب للنظر فيه"

"ليبراليتك ستُفرغ السجن" علّق آنسون بفظاظة.

"أنت لا تفهمني، يا سيدي. لقد انخرطت مرتين في الأعمال الدنيئة للحملات الانتخابية، لكنني لست رجل حزب. أنا فخور بنفسي لكوني رجلًا إنجليزيًا غير رسمي"

انبعثت العبارة بينهما –الأمر الذي أصاب آنسون بالرضا عن النفس- مثل خيط دخان من سيجار. قرر أن الوقت قد حان للضغط.

"ذلك الشاب الذي طرحت قضيته بشرف كبير، سير آرثر... إنه ليس، يجب أن أحذرك، تمامًا كما تحسبه. هناك مسائل مختلفة لم تطرح في المحكمة..."

"لا شك أن الأدلة منعتهم لسبب وجيه للغاية. أو أن هناك مزاعم واهية جدًا لدرجة أن الدفاع من الممكن أن يدمّرها"

"سأخبرك فيما بيننا أن الشائعات انتشرت..."

"هناك شائعات دائمًا"

"شائعات عن ديون القمار، وشائعات عن إساءة استخدام أموال الزبائن. قد تسأل صديقك الشاب عما إذا واجه أي مشكلة خطيرة في الشهور التي سبقت القضية"

"ليس لدي أي نية للقيام بأي شيء من هذا القبيل"

نهض السيد جورج ببطء، وسار إلى مكتبه، وأخذ مفتاحًا من الجارور، وفتح آخر، واستخرج مجلدًا.

"أعرض هذا عليك بسرية تامة. وهو موجّه إلى السير بنيامين ستون. لا بد أنه واحد

من عدة مجلدات"

الخطاب مؤرّخ بتاريخ التاسع والعشرين من ديسمبر من عام ألف وتسعمئة واثنين. في أعلى اليسار طُبعت العناوين المهنية والبرقية لجورج إدالجي، وفي أعلى اليمين، "غريت ويرلي، والسال". لم يتطلب ذلك شهادة من غير النزيه غورين؛ لإقناع دويل بأن خط اليد لجورج.

سيدي العزيز، لقد انقلب حالي من وضع مريح نوعًا ما إلى فقر مدقع، في المقام الأول بسبب الاضطرار إلى دفع مبلغ كبير من المال (ما يقرب من مئتين وعشرين جنيهًا إسترلينيًا) كفالة لصديق. لقد اقترضت من ثلاثة مرابين على أمل تصحيح وضعي، لكن الفائدة باهظة الثمن زادت الأمور سوءًا، وقدم اثنان منهم عريضة إفلاس ضدي، لكنهما أبديا استعدادهما للانسحاب إذا تمكنت من جمع مئة وخمسة عشر جنيهًا استرلينيًا دفعة واحدة. ليس لدي أصدقاء مثل هؤلاء يمكنني أن أستنجد بهم؛ ولأن الإفلاس من شأنه أن يدمرني ويمنعني من التدريب لفترة طويلة سأفقد خلالها جميع موكّليني، وأنا أستعطف قلة من الغرباء كملاذ أخير.

يمكن لأصدقائي إقراضي ثلاثين جنيهًا إسترلينيًا فقط، ولديّ حوالى واحد وعشرين جنيهًا إسترلينيًا، وسأكون ممتننًا للغاية لأي مساعدة، بغض النظر عن صغر حجمها؛ لأنها ستساعدني على تحمل مسؤولياتي الثقيلة.

أعتذر عن إزعاجك وأثق في أنك قد تساعدني قدر استطاعتك.

أنا،

المخلص باحترام،

جي. إبي. إدالجي.

شاهد آنسون دويل وهو يقرأ الرسالة. لا حاجة للإشارة إلى أنها كُتبت قبل خمسة أسابيع من التشويه الأول. أصبحت الكرة في ملعبه الآن. نقر دويل الرسالة وأعاد قراءة بعض عباراتها. في نهاية المطاف، قال:

"بلا شك قمت بالتحقيق؟"

"بالتأكيد لا. إنها ليست مسألة تخص الشرطة. إن التسول على الطريق السريع العام جريمة، لكن التسول بين الطبقات المهنية لا يقلقنا"

"لا أرى أي إشارة هنا إلى ديون القمار أو إساءة استخدام أموال الموكّلين"

"إنه بالكاد كان السبيل إلى قلب السير بنيامين ستون. حاوِل القراءة بين السطور"

"أنا أرفض. يبدو لي هذا استغاثة يائسة من شاب شريف خذله سخاؤه مع صديقه. اشتهر البارسيين بأعمالهم الخيرية"

"آه، فجأة أصبح بارسيًا؟"

"ماذا تعني؟"

"لا يمكنك أن تتعامل معه على أنه رجل انجليزي محترف تارة وتارة أخرى كرجل بارسي، كما يروق لك. هل من الحكمة أن يتعهد الشاب الشريف بمثل هذا المبلغ الضخم، وأن يضع نفسه في أيدي ثلاثة مرابين مختلفين؟ كم عدد المحامين الذين تعرفهم يفعلون ذلك؟ اقرأ بين السطور يا دويل. اسأل صديقك عن ذلك"

"ليس لدي أي نية لسؤاله. ومن الواضح أنه لم يفلس"

"في الحقيقة، أظن أن والدته ساعدته"

"أو ربما هناك آخرون في برمنغهام أظهروا له الثقة ذاتها التي أظهرها للصديق الذي كفله"

وجد آنسون دويل عنيدًا بقدر سذاجته. "أنا أشيد... بِحسّك الرومانسي، سير آرثر. لك الفضل في ذلك. ولكن سامحني إذا وجدت أنه غير واقعي. كما هي حملتك. أُطلِق سراح رجلك من السجن. إنه رجل حر. ما الفائدة من إثارة الرأي العام؟ تطلب من وزارة الداخلية إعادة النظر في القضية؟ بحثت وزارة الداخلية في القضية مرات لا تحصى. تريد لجنة؟ ما الذي يجعلك متأكدًا من أنها ستمنحك ما تريد؟"

"سنحصل على لجنة. سنحصل على عفو عام. سنحصل على تعويض. أضف إلى ذلك، سنحدد هوية المجرم الحقيقي الذي عانى جورج إدالجي بدلًا منه"

"آه، هذا أيضًا؟" استشاط آنسون غضبًا الآن. من المؤكد أنها يمكن أن تكون أمسية

ممتعة: رجلان من العالم، كل منهما يقترب من الخمسين، أحدهما ابن لورد والآخر فارس من فرسان المملكة، وكلاهما حدث أن شغل منصب نائب ملازم في مقاطعته. جمعتهما الكثير من القواسم المشتركة أكثر مما يفرقهما... وبدلاً من أن يقرّبهما ما بينهما تحول إلى ضغينة.

"دويل، دعني أوضح لك نقطتين، إن سمحت لي. أنت تتصور بوضوح أن هناك نهجًا متواصلاً من الاضطهاد يعود إلى أعوام مضت - الخطابات والخدع والتشويه والتهديدات الإضافية. أنت تعتقد أن الشرطة تلقي اللوم على صديقك في كل ما حدث أيضًا. بينما أنت تضع اللوم في كل ذلك على المجرمين المعروفين أو غير المعروفين، إنهم المجرمون ذاتهم في كلا الحالتين. أين المنطق في أيٍّ من هاتين المقاربتين؟ لقد اتهمنا إدالجي بجريمتين فقط، ولم تُتابع التهمة الثانية على أي حال. أحسبه بريئًا من مسائل عديدة. مثل هذه الفورة الإجرامية نادرًا ما يكون لها مصدر واحد للتأليف. قد يكون زعيم العصابة، وربما هو مجرد تابع. ربما رأى تأثير رسالة مجهولة وقرر تجربتها بنفسه. وربما شهد تأثير خدعة وقرر أن يلعب دور المخادع. أو سمع عن عصابة تقطع أوصال الحيوانات وقرر الانضمام إليها.

"نقطتي التالية هي هذه. على مدى حياتي، رأيت فيها أشخاصًا ربما أذنبوا وُجِدوا بريئين، وأشخاصًا ربما أبرياء وُجِدوا مذنبين. لا تندهش. لقد اطلعت على أمثلة تُهم وإدانات جائرة. لكن في مثل هذه الحالات، نادرًا ما يكون الضحية سهلاً كما يود المدافعون عنه. على سبيل المثال، دعني أقدم لك اقتراحًا. التقيتَ جورج إدالجي للمرة الأولى في ردهة الفندق. تأخرت عن الاجتماع، أفهم. رأيته في وضعية معينة، منها استنتجت براءته. دعني أطرح هذا أمامك. وصل جورج إدالجي هناك قبلك. كان في انتظارك. ويعلم أنك ستراه. جهّز نفسه وفقًا لذلك"

لم يرد دويل، فقط برز ذقنه وسحب نفسًا من سيجاره. وجده آنسون شخصًا عنيدًا لعينًا، هذا الأسكتلندي أو الأيرلندي أو أيًا كان ما يدّعيه.

"أنت تتمنى لو أنه بريء تمامًا، أليس كذلك؟ ليس بريئًا فحسب، بل بريئًا تمامًا؟ من تجربتي يا دويل، لا أحد بريء تمامًا. قد يثبت أنه غير مذنب، لكن هذا يختلف عن كونه بريئًا. لا أحد بريء تمامًا"

"ماذا عن يسوع المسيح؟"

آه، لأجل الرّب، فكّر آنسون. ولستُ بونتيوس بيلاتس[64] كذلك. "حسنًا، من وجهة نظر قانونية بحتة، قال بأسلوب لطيف بعد العشاء، يمكنك أن تجادل بأن ربنا ساهم في رفع الدعوى القضائية ضده"

الآن دويل هو من شعر أنهما ابتعدا عن القضية التي بين أيديهما.

"إذن دعني أسألك هذا. ما الذي حدث بالفعل؟"

ضحك آنسون، بصراحة أكثر من اللازم. "هذا ما أخشاه، سؤال من الخيال البوليسي. هذا ما التمسه قراؤك وما تقدمه تقديمًا رائعًا. أخبرنا بما حدث بالفعل.

"معظم الجرائم، دويل -معظم الجرائم في الواقع- تقع بلا شهود. ينتظر السارق حتى يصبح المنزل فارغًا. والقاتل ينتظر حتى تصبح الضحية وحيدة. والرجل الذي مزّق الحصان ينتظر غطاء الليل. إذا كان هناك شاهد، فإنه في كثير من الأحيان شريك، أي مجرم آخر. أنت تقبض على مجرم يكذب دائمًا. أنت تفرّق بين متواطئيْن. كل منهما يتفوّه بأكاذيب على حدة. يمكنك الحصول على واحد لتحويل شهادة الملك[65]، التي تحكي نوعًا جديدًا من الكذب. يمكن تخصيص الموارد الكاملة لـشرطة ستافوردشاير لقضية ما، ولن ننتهي أبدًا بمعرفة ما حدث حقًّا، كما افترضتها. أنا لا أفرض بعض الحجج الفلسفية، فأنا شخص عملي. ما نعرفه، وما ينتهي بنا الأمر إلى معرفته... يكفي لضمان الإدانة. سامحني لإلقاء محاضرة عن العالم الحقيقي"

تساءل دويل إن كَفّ عن القسوة عند اختراعه لشخص شيرلوك هولمز. التصويب والنصح والوعظ والمجاملة... متى ستتوقف؟ ومع ذلك، يجب عليه أن يستمر. يجب أن يحافظ على أعصابه مهما بلغ الاستفزاز.

"ولكن دع كل هذا جانبًا يا آنسون. علينا الاعتراف - كما أخشى أنه يحتّم علينا أن نعترف - أنه بحلول نهاية المساء ربما لن يُغيّر أي منا موقف الآخر مقدار ذرة واحدة أو أقل. ما أطلبه هو هذا. أنت تعتقد أن محاميًا شابًا محترمًا، لم يبدر منه أي إشارة سابقة

---

64 (Pontius Pilatus) ولد في 10 قبل الميلاد. كان الحاكم الروماني لمقاطعة يهودا.

65 (King's evidence) لتقديم معلومات (مثل أسماء المجرمين الآخرين) إلى المحكمة من أجل تخفيف العقوبة على المرء عند اتهامه بجريمة - تُستخدم عند حكم الملك لبريطانيا.

تدل على طبيعة عنيفة، يخرج فجأة ذات ليلة ويهاجم مهرًا صغيرًا بأسلوب شرير وعنيف. أنا أسألك ببساطة، لماذا؟"

تأوّه آنسون ممتعضًا. الدافع. العقل الإجرامي. ها نحن نعيد الكَرّة مرة أخرى". نهض وأعاد ملء كأسيهما، "أنت الشخص ذو الخيال مدفوع الأجر يا دويل"

"ومع ذلك أعتقد أنه بريء. وأنا غير قادر على تحقيق النقلة التي حققتها. أنت لست على منصة الشهود. نحن سيدان من سادة الإنجليز نتحلّق حول البراندي الفاخر، وإن جاز لي أن أقول ذلك، حتى مع السيجار الأفخر في منزل جميل وسط هذه المقاطعة الرائعة. كل ما تقوله سيبقى داخل هذه الجدران الأربعة، أعدك بذلك. أنا أسأل فقط: وفقًا لك، لماذا؟"

"عظيم جدًا. دعنا نبدأ بالحقائق المعروفة. قضية إليزابيث فوستر، القائمة بكل المهام. إذ تدّعي أنت أن كل شيء بدأ. وبطبيعة الحال، بحثنا في القضية لكن لم نجد ببساطة ما يكفي من الأدلة لرفع دعوى قضائية"

نظر دويل إلى قائد الشرطة مشدوهًا. "أنا لا أفهم. هناك محاكمة. اعترفت فيها بأنها مذنبة"

"رُفعت دعوى خاصة هناك... تقدم بها الكاهن. تنمّر المحامون على الفتاة لتقرّ بالذنب. ليس بهذا النوع من الإشارات يحبّك رعاياك"

"لذا فشلت الشرطة في دعم الأسرة حتى ذلك الحين؟"

"دويل، حين تتوفر الأدلة نرفع دعوى قضائية. رفعنا دعوى عندما كان المحامي نفسه ضحية اعتداء. آه، أرى أنه لم يخبرك بذلك"

"هو لا يبحث عن الشفقة"

"إنه قريب من هذا" أخذ آنسون ورقة من ملفه. "في نوفمبر ألف وتسعمئة. اعتدى عليه شابان من ويرلي. دفعاه عبر الوشيع الشجيري في لانديوود، وأتلف أحدهما مظلته أيضًا. كلاهما أقرّ بأنه مذنب. فرض قضاة كانوك غرامة مع النفقات.. ألا تعلم أنه تواجد هناك من قبل؟"

"هل يمكنني الاطلاع على الملف؟"

"أخشى أنه لا. إنها سجلات الشرطة"

"إذن، أعطني على الأقل أسماء المدانين" وعندما تردد آنسون، أضاف: "يمكنني جلب كلابي البوليسية لهذه المسألة"

أبدى آنسون لمفاجأة دويل، نوعًا من صيحة بروح الدعابة. "إذن أنت رجل الكلاب البوليسية أيضًا؟ آه حسنًا، المُسمّاة ووكر وغلادوين". رأى أنهم لا يقصدون دويل. "على أي حال، دعنا نسلّم أن هذا لم يكن حدثًا منفصلاً. ربما اعتُدِي عليه قبل أو بعد، وربما بطريقة أكثر لُطفًا. إنها إهانة بلا شك أيضًا. إن شباب ستافوردشاير بعيدون كل البُعد عن القديسين"

"قد يفاجئك أن تعلم أن جورج إدالجي يرفض التحيز العرقي تحديدًا كسبب لسوء حظه"

"هذا أفضل بكثير. إذن قد نتغافل لحسن الحظ عن جانب واحد"

أضاف دويل: "على الرغم من أنني بالطبع، لا أتفق مع تحليله"

"حسنًا، هذا حقك"، رد آنسون برضا.

"ولماذا يُعد لهذا الاعتداء صلة؟"

"لأنك يا دويل، لا يمكنك فهم النهاية حتى تعرف البداية" بدأ آنسون الآن في إمتاع نفسه. أصابت ضرباته الهدف واحدًا تلو الآخر. "كان لدى جورج إدالجي سببًا وجيهًا لكره مقاطعة ويرلي. أو يعتقد أنه كذلك"

"فانتقم بقتل الماشية؟ أين الرابط؟"

"أفهم أنك من المدينة دويل. البقرة والحصان والخروف والخنزير أكثر من ماشية. إنها مصدر رزق. وهي تسمى... غاية اقتصادية"

"هل يمكنك إثبات وجود صلة بين أي من مهاجمي جورج في لانديوود وأي من الماشية التي شوّهت لاحقًا؟"

"لا، لا يمكنني. لكن لا يجب أن تتوقع من المجرمين أن يتبعوا المنطق"

"حتى الأذكياء منهم؟"

"من تجربتي، حتى أقل من ذلك. على أي حال، لدينا شاب مُدلّل والديه، في الوقت الذي حلّق أخوه الصغير بعيدًا، هو لا يزال عالقًا في المنزل. شاب مُحمّل بالضغينة ضد

الحي الذي يشعر بأنه متفوق عليه. يجد نفسه مثقلاً بالديون. يُهدّده المقرضون بمحكمة الإفلاس، والخراب الذي احترف التحديق في وجهه. كل شيء عمل من أجله في حياته على وشك الاختفاء..."

"وهكذا؟"

"إذن... ربما جن جنونه مثل صديقك السيد وايلد"

"برأيي يعود فساد وايلد إلى نجاحه. بالكاد يمكن للمرء أن يقارن تأثير التصفيق الليلي في ويست إند مع الاستقبال النقدي لإحدى الأطروحات حول قانون السكك الحديدية"

"لقد قلت إن حالة وايلد ما هي إلا تطور مَرضيّ. لماذا لا ينطبق هذا على إدالجي أيضًا؟ أعتقد أن المحامي بلغ ذروة ارتباكه لأشهر. لا بد أن الضغوط بلغت درجة عالية، حدّ أنها لا تُحتمل. أنت بنفسك وصفت رسالة التسول التي أرسلها بأنها "يائسة" ربما حدثت بعض التطورات المَرضية، ونزعة إلى الشر نوعًا ما قد تظهر في الدماء حتمًا"

"نصف دمه أسكتلندي"

"بالتأكيد"

"والنصف الآخر بارسي. أكثر الطوائف الهندية تعليمًا ونجاحًا تجاريًا"

"لا أشك في ذلك. لم يطلق عليهم يهود بومباي عبثًا. وبالمثل، لا أشك في أن اختلاط الدماء هذا هو سبب جزئي في كل هذا نوعًا ما"

"دمائي أنا خليط من أسكتلندا وإيرلندا"، قال دويل: "هل هذا يجعلني أمثّل بالماشية؟"

"أنت تستخدم حجتي ضدي. أي إنكليزي - أي رجل أسكتلندي - أي نصف رجل أسكتلندي - سيحمل شفرة لحصان أو بقرة أو خروف؟"

"نسيت عامل منجم فارينغتون، الذي فعلها أثناء وجود جورج في السجن. لكنني أسألك في المقابل: ما الذي سيفعله الهنود في الوضع نفسه؟ ألا يُبَجّلون الماشية كآلهة؟"

"مؤكد. لكن عندما تختلط الدماء، هنا تبدأ المشكلة. نشأ انقسام غير قابل للتسوية. لماذا يمقت المجتمع البشري في كل مكان الشخص الهجين؟ لأن روحه ممزقة بين الدافع للحضارة والجاذبية للبربرية"

"وهل تعتبر الدماء الأسكتلندية أو البارسية مسؤولة عن البربرية؟"

"انت تسخر يا دويل. أنت نفسك تؤمن بالسلالات، وتؤمن بالعرق. لقد أخبرتني خلال العشاء كيف اقتفت والدتك أثر أصولها بفخر إلى خمسة قرون. سامحني إن أخطأت في حقك، لكني أذكر أن العديد من عظماء الأرض قد استقروا في شجرة عائلتك"

"أنت لم تسئ لي. هل تقول إن جورج إدالجي شق بطون الخيل؛ لأن هذا هو ما فعله أسلافه قبل خمسة قرون في بلاد فارس أو في أي بقعة استوطنوها؟"

"ليس لدي أي فكرة عما إذا تورطوا هناك في ممارسات بربرية أو طقسية. وربما كذلك. قد يكون إدالجي نفسه لم يعرف ما الذي دفعه إلى التصرف كما فعل. إنها رغبة شديدة منذ قرون مضت، ظهرت على السطح عبر اختلاط الأجناس هذا المفاجئ والمُزري"

"أنت تعتقد حقًا أن هذا ما حدث؟"

"شيء من هذا القبيل، نعم"

"ثم ماذا عن هوراس؟"

"هوراس؟"

"هوراس إدالجي. ولد من خليط الدماء ذاته. الموظف المحترم في حكومة صاحب الجلالة حاليًا. في مصلحة الضرائب. أنت لا تلمح أن هوراس كان جزءًا من العصابة؟"

"لا لم أفعل"

"لم لا؟ لديه أوراق اعتماد جيدة"

"مرة أخرى، أنت تلجأ للسخرية. بداية هوراس إدالجي في مانشستر. إلى جانب ذلك، أقترح فقط أن مزج الدماء ينتج نزعة، قابلة في ظل ظروف معينة قاسية للعودة إلى البربرية. من المؤكد أن العديد من السلالات الهجينة تعيش حياة محترمة تمامًا"

"ما لم يثرها شيء ما هناك..."

"كما أن اكتمال القمر قد يؤدي إلى إثارة الجنون عند بعض الغجر والإيرلنديين"

"لم يكن لهذا أي تأثير عليّ مطلقًا"

"الإيرلندي متواضع الأصل، عزيزي دويل. لا وجود لشيء شخصي مقصود"

"فما الفرق بين جورج وهوراس؟ لماذا حسب اعتقادك، لجأ أحدهما إلى البربرية

والآخر لم... أو ليس بعد؟"

"هل لديك أخ دويل؟"

"طبعًا، أصغر مني. إينيس. إنه ضابط"

"لماذا لم يكتب قصصًا بوليسية؟"

"لست أنا واضع النظرية الليلة"

"لأن الظروف تختلف حتى بين الإخوة"

"مرة أخرى، لماذا ليس هوراس؟"

"كان الدليل يُحدّق في وجهك، دويل. قدمت الأسرة كل شيء في المحكمة بنفسها. أنا مندهش لأنك أغفلت ذلك"

اعتقد دويل أن من المؤسف أنه لم يحجز في فندق وايت ليون على الطريق. قد يحتاج إلى ركل بعض قطع الأثاث قبل انتهاء المساء.

"تبدو مثل هذه الحالات محيرة وكذلك مثيرة للاشمئزاز للغريب، غالبًا ما تتحول من تجربتي، إلى مسائل لا تُناقش في المحكمة لأسباب واضحة. مسائل يقتصر تداولها عادة على غرفة التدخين. لكنك كما أشرت مع حكاياتك عن السيد أوسكار وايلد، الرجل صاحب الخبرة الحياتية الواسعة. تلقيتَ تدريبًا طبيًا أيضًا، على ما أذكر. وأعتقد أنك سافرت لدعم جيشنا في حرب جنوب أفريقيا، على ما أعتقد"

"كل هذا صحيح"، إلى أين قاده الرجل؟

"صديقك السيد إدالجي يبلغ من العمر ثلاثين عامًا أعزب"

"كما هو الحال مع العديد من الشباب في عمره"

"ومن المرجح أن يبقى كذلك"

"خاصة بعد الحكم عليه بالسجن"

"لا دويل، ليست هذه هي المشكلة. هناك دائمًا نوع معين من النساء ينجذب إلى هواء بورتلاند العليل. العائق هو الآخر. العائق هو أن رجلك هجين ترصده الأعين. ليس هناك الكثير من المتقدمين وليس في ستافوردشاير"

"وجهة نظرك؟"

لكن لم يبد آنسون حريصًا بالفعل على الوصول إلى وجهة نظره.

"لكن المتهم، كما لوحظ في الجلسات الفصلية، لم يكن لديه أي أصدقاء"

"ظننت أنه عضو في عصابة ويرلي الشهيرة؟"

تجاهل آنسون هذا الرد الانفعالي. "ليس له رفاق من الذكور، في هذا الشأن، ولا من الجنس الناعم. لم يُشاهد قط مع فتاة في ذراعه. ولا حتى خادمة"

"لم أكن أدرك أنك تتعقبه عن كثب"

"كما أنه لا يشارك في الأنشطة الرياضية. هل تنبهت لهذا؟ الرياضات الإنجليزية العظيمة التي يمارسها الرجال – الكريكت وكرة القدم والغولف والتنس والملاكمة - كلها غريبة تمامًا عنه. حتى الرماية" وأضاف قائد الشرطة، بعد ذلك في وقت لاحق: "الجمباز"

"تنتظر من رجل يعاني من قصر النظر بدرجة ثمانية ديوبتر دخول حلقة الملاكمة، وإلا فإنك سترسله إلى السجن؟"

"آه قوة إبصاره هي الإجابة على كل شيء" يمكن أن يشعر آنسون بتعاظم سخط دويل، وسعى لإثارته أكثر. "نعم، فتى فقير، مولع بالكتب، فتى منعزل بعينين جاحظتين"

"إذن؟"

"أنت تدربت، على ما أعتقد، كطبيب عيون؟"

"حجزت غرف استشارة في ديفونشاير بلايس لفترة قصيرة"

"وهل فحصت العديد من حالات جحوظ العين؟"

"ليس عددًا كبيرًا. لأكن صادقًا معك، فحصتُ عددًا قليلًا من المرضى. لم يحفلوا بي لدرجة مكّنتني من تخصيص وقت للإنتاج الأدبي. لذا أثبت غيابهم فائدته غير المتوقعة"

لاحظ آنسون طقوس الاستعراض لإرضاء الذات، لكنه مضى قدمًا. "وما هي الحالة المقترنة بجحوظ العين؟"

"يحدث نتيجة السعال الديكي أحيانًا. وباعتباره أحد الآثار الجانبية للاختناق"

"يرتبط جحوظ العين عادة بدرجة غير صحية من الرغبة الجنسية"

"هراء!"

"بلا شك سير آرثر، أن المرضى في شارع ديفونشاير بلايس تحسنوا تمامًا"

"إنه أمر سخيف". هل انحدروا إلى مستوى التقاليد الشعبية وحكايا الزوجات القديمة؟ هذا من قائد شرطة؟

"إنها ليست ملحوظة ستُطرح كدليل بالطبع. ولكن مُعلن عنها عمومًا بين أولئك الذين يتعاملون مع فئة معينة من المجرمين"

"لا يزال هذا كلامًا فارغًا"

"كما يحلو لك. علاوة على ذلك، نحن في حاجة إلى النظر في ترتيبات النوم الغريبة في بيت الكاهن"

"وهذا دليل قاطع على براءة الشاب"

"لقد اتفقنا على أن كلًا منا الليلة لن يغير وجهة نظر الآخر مقدار ذرة واحدة أو أقلّ. لكن حتى مع ذلك، دعنا نفكر في ترتيبات النوم هذه. الصبي - ماذا؟ عشرة؟ - عندما مرضت أخته الصغيرة. منذ تلك اللحظة، تنام الأم وابنتها في الحجرة نفسها، فيما يشترك الأب والابن الأكبر في مهجع واحد. أما هوراس له حجرة تخصّه"

"هل تفترض... هل تفترض أن شيئًا ما حدث في هذه الحجرة بخبث؟" إلى أين وصل آنسون بتفكيره؟ هل فقد عقله تمامًا؟

"لا يا دويل. العكس. أنا متأكد تمامًا أنه لم يحدث أي شيء في تلك الحجرة. لا شيء إلا النوم والصلاة. لم يحدث شيء. لا شيء. لم ينبح الكلب[66]، إذا سمحت لي"

"إذن...؟"

"كما قلت، جميع الأدلة أمامك. ينام صبي في سن العاشرة، في الحجرة المقفلة نفسها مع والده. مرورًا بسن البلوغ وحتى الرجولة المبكرة، ليلة تلو ليلة تلو أُخرى. شقيقه يغادر المنزل... وماذا يحدث؟ هل يرث حجرة نوم أخيه؟ لا، يستمر هذا الترتيب الاستثنائي. إنه صبي وحيد، ومن ثم هو شاب وحيد ذو مظهر غريب. لم يشاهَد في صحبة إحداهن من الجنس الآخر أبدًا. ومع ذلك، قد نُسلِّم أن لديه الرغبة والشهوات الطبيعية. وإذن على الرغم من شكوكك، إذا صدّقنا دليل جحوظه، وأنه ضحية للرغبة والشهوات أكثر من

---

66 تعبير يعني أن الحدث المتوقع لم يحدث، وبالتالي يمثل دليلًا. ورد هذا التعبير في قصة من المجموعة القصصية "مذكرات شيرلوك هولمز" لآرثر كونان دويل وهي أن الكلب لم ينبح لأنه اعترف بالدخيل كصديق.

المعتاد. نحن رجال يا دويل، ندرك هذا الجانب من الأمور. نحن على دراية بمخاطر المراهقة والشباب. كيف يكمن الاختيار غالبًا بين الانغماس بالملذات الجسدية التي تؤدي إلى الضعف المعنوي والمادي، وحتى إلى السلوك الإجرامي، والإلهاء الصحي، وبين الرغبات الأساسية إلى الأنشطة الرياضية الرجولية. مُنع إدالجي لحسن الحظ بحكم أوضاعه، من اتخاذ المسار السابق، واختار ألا يمضي بنفسه مع هذا الأخير. وبينما أُقِرّ أن الملاكمة بالكاد كانت ستصبح موطن قوته، فقد وُجدت هناك، على سبيل المثال الجمباز، والثقافة البدنية، والعِلم الأمريكي الجديد في كمال الأجسام"

"هل تقترح أن في ليلة الغضب تلك انطوت على... بعض الأهداف أو الدلالات الجنسية؟"

"ليس مباشرة لا. لكنك تسألني ما أعتقد أنه حدث ولماذا. دعنا نعترف في الوقت الحاضر، بالكثير مما تدّعونه عن الشاب. عُرِف عنه أنه طالب جيد، وهو ابن شرّف والديه، وصلّى في كنيسة والده، ولم يدخن أو يشرب، وعمل بجد في مهنته. ومع ذلك يجب أن تقبل في المقابل احتمالية وجود جانب آخر له. كيف لا تكون هناك خصوصية لتربيته، وعزلته وحجزه المُشدَّد، ودوافعه المفرطة؟ في النهار هو عضو مثابر في المجتمع. ثم في الليل، في كثير من الأحيان، يخضع لشيء بربري، شيء دفين بعمق في روحه الخبيثة، شيء ربما حتى هو لا يفهمه"

"إنها مجرد تخمينات" قال دويل، على الرغم من وجود شيء في صوته - شيء أكثر هدوءًا وأقل ثقة - أصاب آنسون.

"لقد شجعتني على التخمين. ستعترف أني شهدت أمثلة على السلوك والهدف الإجرامي أكثر منك. وأنا أتكهن على هذا الأساس. أنت مُصرٌّ على حقيقة أن إدالجي من طبقة المهنيين. كم مرة تساءلت ضمنيًا عن إمكانية ارتكاب الطبقات المهنية للجرائم؟ أكثر مما ظننت جاءت إجابتي. ومع ذلك، أود أن أعيد طرح السؤال عليك بأسلوب مختلف سير آرثر. كم مرة عثرت على رجال متزوجين سعداء، تنطوي سعادتهم طبيعيًا على إشباع جنسي منتظم، وارتكاب جرائم ذات طبيعة عنيفة ومنحرفة؟ هل تعتقد أن جاك السفاح رجل متزوج سعيد؟

"لا، لا نظن ذلك. سأذهب أبعد من ذلك. أود أن أفترض أنه إذا كان الرجل السليم الطبيعي محرومًا باستمرار من الإشباع الجنسي، لأي سبب من الأسباب وتحت أي ظرف من الظروف، ربما – أنا أقول ربما فقط، لا أصيغها بأسلوب أقوى - ربما يبدأ في التأثير على تفكيره. أعتقد أن هذا ما حدث مع إدالجي. شعر بنفسه في قفص رهيب محاط بقضبان حديدية. متى سيفر؟ متى يمكنه تحقيق أي نوع من الإشباع الجنسي؟ من وجهة نظري، يمكن أن تبدأ فترة متواصلة من الإحباط الجنسي، عامًا إثر عام إثر عام، في تغيير فِكْر الرجل دويل. يمكن أن ينتهي به الأمر بعبادة آلهة غريبة، وأداء طقوس غريبة"

لم يكن هناك رد من ضيفه الشهير. في الواقع، بدا وجه دويل في غاية الهدوء. ربما هذا هو تأثير البراندي. وربما تصنّع الرجل الحياء على الرغم من كل أجوائه الدنيوية. أو ربما - ويبدو أن هذا الأكثر احتمالاً - رأى تنوع القوة الغالبة للجدل ضده. على أي حال، ركزت عيناه على منفضة السجائر عند سحْقه للطول المثالي للتدخين لسيجار لائق جدًا. انتظر آنسون، لكن ضيفه حوّل نظراته إلى النار، غير راغب أو غير قادر على الرد. حسنًا، يبدو أن هذه هي النهاية. حان الوقت للانتقال إلى المسائل العملية.

"أثق في أنك ستحظى الليلة بنوم عميق يا دويل. لكن احذر من أن بعضهم يعتقد أن غرين هول مسكونة"

"حقًا" جاء الرد. لكن آنسون أمكنه أن يلحظ أن عقل دويل بعيد.

"من المفترض وجود فارس مقطوع الرأس[67]. تكسير عجلات المركبة لحصى الطريق أيضًا، وبلا علم إلى الآن. رنين الأجراس الغامض أيضًا، ومع ذلك لم يعثر على أي أجراس. كلام فارغ بالطبع، سفاهة محضة" ألفى آنسون نفسه يشعر بإيجابية مرحة. "لكن أشك في أنك عرضة للأشباح والزومبي والأرواح الشريرة"

"أرواح الموتى لا تزعجني" قال دويل بصوت خفيض ومتعب: "في الواقع، أرحب بهم"

"الإفطار في الثامنة، إذا ناسبك ذلك"

حين انزوى دويل فيما اعتبره آنسون هزيمة، جرف قائد الشرطة أعقاب السيجار

67 الفارس مقطوع الرأس هو شخصية أسطورية ظهرت في الفولكلور في جميع أنحاء العالم وبالذات في التراث الشعبي الأوروبي منذ العصور الوسطى. يصور الفارس مقطوع الرأس بشكل تقليدي كرجل على ظهور الخيل يفقد رأسه.

في النار وشاهدها وهي تتوهج لفترة وجيزة. عندما أوى إلى الفراش، وجد بلانش لا تزال مستيقظة، وتعيد قراءة السيدة برادون. في غرفة تبديل الملابس الجانبية، ألقى زوجها سترته على مِشجب الملابس، وصاح بها: "شيرلوك هولمز حائر! سكوتلاند يارد تحلّ الأحجية!"

"جورج، لا ترفع صوتك"

جاء كبير المفتشين آنسون على رؤوس أصابعه في روب نومه المعقود مع ابتسامة عريضة على وجهه. "أنا لا أهتم إذا جثم المخبر العظيم؛ ليتنصّت بأذنه عبر ثقب الباب. لقد علمته شيئًا أو شيئين عن العالم الحقيقي الليلة"

نادرًا ما رأت بلانش آنسون زوجها متهورًا للغاية، وقررت مصادرة مفتاح حامل التانتالوس المقفل على ما فيه لبقية الأسبوع.

آرثر

تصاعد غضب آرثر منذ اللحظة التي أغلق فيها باب غرين هول خلفه. لم تخفف المحطة الأولى من رحلته إلى هندهيد الكثيرِ من حدّته. خط والسال وكانوك وروغيلي في سكة حديد لندن والشمال الغربي، بلغ سلسلة من الاستفزازات المستمرة: من ستافورد حيث أدين جورج، عبر روغيلي التي التحق فيها بالمدرسة، إلى هيدنسفورد حيث من المفترض أنه هدد بإطلاق النار على رأس الرقيب روبنسون، وكانوك التي اقترف فيها هؤلاء القضاة الحمقى ما اقترفوه، وفي ويرلي آند تشيرشبريدج البقعة التي بدأ كل شيء فيها، ثم ما وراء الحقول التي رعت ما يمكن أن يكون ماشية بليويت، عبر والسال حيث يجب العثور على مصدر المؤامرة بالتأكيد إلى برمنغهام حيثما قُبض على جورج. لكل محطة على الطريق رسالتها، وهي ذاتها التي كتبها آنسون: أنا ومن هم على شاكلتي ممن نملك الأرض هنا والشعب والعدالة.

لم تر جاين آرثر أبدًا في مثل هذا الانفعال. في منتصف الظهيرة، وهو يدور حول أدوات مائدة الشاي يخبطها بيده فيما يقص حكايته.

"وهل تعلمين ماذا قال أيضًا؟ لقد تجرأ على التأكيد أن ذلك لن يفيد سمعتي إن كان من... من المفترض أن تبث تخميناتي الأولية على نطاق واسع. لم أُعامل بمثل هذا التعالي منذ أن كنت طبيبًا معدمًا في ساوث سي، محاولًا إقناع مريض ثري بأنه بصحة جيدة عندما أصر على أن الموت على الباب"

"وماذا فعلت؟ أعني في ساوث سي"

"ماذا فعلت؟ كررت أنه قوي ويتمتع بصحة جيدة، فأجاب أنه لم يدفع لطبيب كي يخبره بذلك، لذا أبلغته أن يجد طبيبًا أخصائيًا آخر يمكنه تشخيص أي مرض يجد أنه من السهل عليه تخيله"

تضحك جاين على المشهد، لكن تسليتها مشوبة قليلًا بالندم على أنها لم تكن هناك، لم يكن من الممكن أن تكون هناك. المستقبل في انتظارهما، هذا صحيح، لكن فجأة لم تعد تمانع ألا تعلم إلا القليل عن الماضي أيضًا.

"ماذا ستفعل بالضبط؟"

"أعرف بالضبط ما سأفعله. يعتقد آنسون أنني أعددت هذا التقرير بنية إرساله إلى وزارة الداخلية، حيث سيُجمع الغبارِ، وسيشار إليه باستخفاف في بعض المراجعات الداخلية التي قد ترى النور في النهاية عندما نموت جميعًا. ليس لدي أي نية للعب هذه اللعبة. سأنشر استنتاجاتي على أوسع نطاق ممكن. فكرت في هذا في القطار. سأقدم تقريري إلى ديلي تلغراف، التي سأجرؤ على القول إنه يسعدني أن تطبعه. لكن سأقوم بأكثر من ذلك. سأطلب منهم أن يُعنونِوه "لا حقوق طبع ونشر"، إذ يمكن إعادة نسخ الأوراق الأخرى -وخصوصًا أوراق ميدلاند- كاملة ومجانية"

"رائع. وسخي للغاية"

"هذا من جانب. إنها مسألة ما هو الأكثر تأثيرًا. علاوة على ذلك، سأحدد الآن موقف كبير المفتشين آنسون في القضية، مشاركته المتحيزة من البداية والمسموعة بسهولة ووضوح. إذا أراد تخميناتي الأولية عن أنشطته، سيحصل عليها. يجب أن تُعرض في محكمة القذف والتشهير إن رغب. ومن الممكن جدًا أن يجد أن مستقبله المهني ليس كما يتخيله بعد أن أفْرغ من العمل معه"

"آرثر، ربما..."

"نعم يا عزيزتي؟"

"ربما من المستحسن عدم تحويل ذلك إلى ثأر شخصي ضد كبير المفتشين آنسون"

"لا أفهم لِمَ لا. الكثير من الشر له أصوله"

"أعني يا عزيزي آرثر، أنه يجب ألا تدع كبير المفتشين آنسون يشغلك عن هدفك الأساسي؛ لأنه إن فعل فإنه أي كبير المفتشين آنسون سيكون أول من يشعر بالرضا"

ينظر آرثر بفخر وسعادة إليها. ليس مجرد اقتراح مفيد، لكنه اقتراح ذكي لعين في المساومة.

"أنت محقة تمامًا. لن أنتقد آنسون بشدة وهو أكثر من سيخدم مصالح جورج. ومع ذلك، لا يجوز له أن يستمر في النقد بقسوة. وسأخضعه هو وكامل قوة الشرطة التي يقودها للعار في الجزء الثاني من تحقيقي. أصبحت الأمور أكثر وضوحًا فيما يتعلق بالجاني، وإذا تمكنت من إثبات أنه كان تحت أنظار آنسون منذ بداية القضية، وأنه لم يفعل شيئًا حيال ذلك. فما هو المسار الذي سيُترك له غير الاستقالة؟ سأعيد تنظيم شرطة ستافوردشاير من أولها لآخرها بحلول الوقت الذي أنهي فيه هذا العمل. آتٍ بكل قوتي!"

يلمح ابتسامة جاين، التي تبدو له أنها تتسم بالإعجاب والتسامح، في مزيج قوي.

"وبالحديث عن ذلك يا عزيزتي، أعتقد حقًا أنه يجب علينا تحديد موعد الزفاف. وإلا قد يأخذ عليك الناس أنك مفرطة في الغزل"

"أنا يا آرثر؟ أنا؟"

يضحك ضحكة مكتومة، ويمد يده إلى يدها. يعتقد أنه قادم بكل قوته، وإلا فإن غرفة التدفئة بأكملها قد تنفجر.

بالعودة إلى أندرشو، أخذ آرثر قلمه واستقر في محاولة التوصل إلى حل آنسون. تلك الرسالة إلى الكاهن -"أنا على ثقة من أنني سأتمكن من جعل الجاني يتجرّع مرارة الأشغال الشاقة"- هل سبق لمسؤول رسمي أن أصدر مثل هذا الحكم المسبق الجسيم؟ شعر آرثر أن غضبه يتنامى عندما أعاد نسخ الكلمات، وبفتور في نصيحة جاين أيضًا. يجب أن يقوم بما هو أكثر تأثيرًا لجورج. كما يجب أن يتجنب القذف والتشهير، بالتساوي مع جعل قرار

المحكمة على آنسون حاسمًا. لقد مر وقت طويل منذ أن تساهلوا معه. حسنًا، سيكتشف آنسون كيف يبدو ذاك الشعور.

الآن، ليس لدي أي شك في أن كبير المفتشين آنسون بدا صادقًا تمامًا في كراهيته لجورج إدالجي، وعقله اللاواعي المتحيز. سيكون من الحماقة التفكير بطريقة أخرى. لكن الرجال في موقعه ليس لديهم الحق في مثل هذه المشاعر. إنهم أقوياء للغاية، والآخرون ضعفاء جدًا، والعواقب رهيبة للغاية. عندما أتتبع مسار الأحداث، تتراجع هذه الكراهية لقائدهم حتى وصل الأمر إلى أن تسود القوة كاملة، وعندما كان لديهم جورج إدالجي لم يمنحوه العدالة الأساسية على الأغلب. قبل القضية وخلالها، ولكن بعد ذلك أيضًا: اتّسمت غطرسة آنسون أن لا حدود لها مثل تحيزه.

لا أعرف ما هي التقارير اللاحقة من كبير المفتشين آنسون التي حالت دون تحقيق العدالة في وزارة الداخلية، لكن إليك ما أعرفه: أنه بدلًا من ترك الرجل المنهار بمفرده، بُذل كل جهد ممكن بعد الإدانة لتشويه سمعته وسمعة والده، وذلك لتخويف أي شخص قد يميل إلى التحقيق في القضية. عندما تناولها السيد يلفيرتين لأول مرة، حصل على رسالة تنتهي بتوقيع كبير المفتشين آنسون، في موعد أقصاه الثامن من نوفمبر لعام ألف وتسعمئة وثلاثة، قائلًا فيها: "من الصواب أن أخبرك أنك ستجدها مضيعة للوقت محاولة إثبات أن جورج إدالجي، أدين لمكانته وحسن خلقه المزعوم، مذنبًا بكتابة رسائل عدوانية ومقيتة. يدرك والده إدراكًا تامًا ميله إلى الكتابة المجهولة، والعديد من الأشخاص الآخرين لديهم معرفة شخصية بالموضوع نفسه".

الآن شهد كل من إدالجي ووالده بحلف اليمين، أن الأول لم يكتب أبدًا رسالة مجهولة الهوية في حياته، وعند التقدم بطلب من السيد يلفيرتين للحصول على أسماء "العديد من الأشخاص الآخرين" لم يصل أي رد. ضع

في اعتبارك أن هذه الرسالة كُتبت بعد الإدانة مباشرة، وكان القصد منها أن تقضي على الحراك في اتجاه الرحمة في مهدها. إنه بالتأكيد مثل ركل أحدهم وهو في قمة ضعفه.

إذا لم يربك ذلك آنسون، فإن آرثر يعتقد ألا شيء قادر على إرباكه. تخيل افتتاحيات الصحف، والتساؤلات في البرلمان، وبيانًا مُلتبسًا من وزارة الداخلية، وربما جولة خارجية طويلة قبل العثور على مسكن مريح وبعيد لقائد الشرطة السابق. قد تكون جزر الهند الغربية هي المكان. سيجلب الحزن للسيدة آنسون، التي وجدها آرثر رفيقة مفعمة بالحياة. ولكن من المؤكد أنها ستنجو من الإذلال الحقيقي لزوجها أفضل من والدة جورج التي تمكنت من الصمود أمام الإذلال الجائر على ابنها.

نشرت ديلي تليغراف نتائج بحث آرثر على مدار يومين، الحادي عشر والثاني عشر من يناير. عرضتها الصحيفة جيدًا، وقام مُنضدو حروف الطباعة بأفضل أداء لهم. قرأ آرثر كلماته مرة أخرى، وصولاً إلى ختامها المدوّي:

سُدّ الباب في وجوهنا. الآن ننتقل إلى آخر محكمة على الإطلاق، وهي محكمة لا تخطئ أبدًا عند عرض الحقائق أمامها إلى حد ما، ونسأل جمهور بريطانيا العظمى ما إذا كان هذا الأمر سيستمر.

غدت الردود على المقالات رائعة. وسرعان ما وجد فتى البرقيات طريقه إلى أندرشو معصوب العينين. وجد هناك دعم من باري وميريديث وآخرين في مهنة الكتابة. تمتلئ صفحة المراسلات في التلغراف بالنقاش حول قوة إبصار جورج، وتقصير الدفاع في عدم عرضه. أضافت والدة جورج شهادتها:

تحدثت كالمعتاد إلى المحامي الموكّل للدفاع عن قصر نظر ابني، الذي عانى منه مذ كان طفلاً. اعتبرت ذلك دليلاً كافيًا على الفور، إذا لم يُعثَر هناك

على أي دليل آخر، على أنه لم يتمكن من الذهاب إلى الحقل، إلى ما يسمى "الطريق" مستحيل حتى على الأشخاص الذين يتمتعون بقوة إبصار جيدة في الليل. شعرت بهذا حدّ الجزع لأنه لم تتح لي الفرصة عند الإدلاء بشهادتي للتحدث عن عيب بصره. كان الوقت الذي سمح لي به قصيرًا جدًا، وأفترض أن المواطنين سئموا من القضية... عانى ابني من عِلّة في بصره على الدوام لدرجة أنه ينحني ملتصقًا بالورقة عند الكتابة، ويحمل كتابًا أو ورقة قريبة جدًا من عينيه، وعندما يخرج أثناء المشي لا يميز المارّة بسهولة. عندما أصادفه في أي مكان أشعر أنني يجب أن أبحث عنه، لا أن يبحث هو عني.

تطالب رسائل أخرى بالبحث عن إليزابيث فوستر، وتحليل شخصية العقيد آنسون، وتوسيع نطاق انتشار العصابات في ستافوردشاير. وأوضح أحد المراسلين مدى سهولة أن يسقط شعر الخيل من داخل بطانة المعطف. وصلت رسائل من أحد الركاب المرافقين لجورج في قطار ويرلي، ومن شاهد من هامبستيد شمال غرب ومن صديق بارسي -زرادشتي-. أراد السيد أرون تشندر دات (طبيب خرّيج كامبريدج)، أن يشير إلى أن تشويه الماشية جريمة غريبة تمامًا عن طبيعة الشرقيين. وذكّر تشاوري موتو الطبيب من شارع نيو كافنديش القراء بأن الهند قاطبة أصبحت تراقب القضية، وأن اسم إنجلترا وشرفها بات على المحك.

بعد ثلاثة أيام من ظهور مقال تلغراف الثاني، استقبل السيد غلادستون والسير ماكينزي تشامبرز والسيد بلاكويل كلًا من آرثر والسيد يلفيرتين في وزارة الداخلية. واتفقوا على تقييم الإجراءات تقييمًا سريًّا. دامت المحادثة ساعة. فيما بعد، ذكر السير آرثر كونان دويل أنه هو والسيد يلفيرتين التقيا في استقبال ودّي ولطيف، وأنه واثق من أن وزارة الداخلية ستبذل كل ما في وسعها لتوضيح الأمر.

ساهم التنازل عن حقوق النشر والطبع في نشر القصة ليس فقط في ميدلاند، ولكن في جميع أنحاء العالم. كانت وكالة قصاصات آرثر مثقلة بالأعباء، واعتاد على استخدام العناوين المتكررة، التي علمته الفعل ذاته في العديد من اللغات المختلفة: **شيرلوك هولمز يتقصى الحقيقة**. وصلت عبارات الدعم -والمعارضة العرضية- مع كل مشاركة. قُدِّمت

حلول رائعة للقضية: على سبيل المثال، أن الإدالجيز اضطهدهم بارسيون آخرون كعقاب على ارتداد شوبارجي عن دينه. وبالطبع هناك رسالة أخرى بخط اليد أصبحت مألوفة الآن:

> أعلم من أحد محققي سكوتلاند يارد أنك إذا راسلت غلادستون وقلت إنك تجد إدالجي مذنبًا بعد كل شيء، فستنال لقب لورد في العام المقبل. أليس من الأفضل أن تكون لوردًا من أن تخاطر بفقدان الكلى والكبد. فكّر في جميع جرائم القتل الدنيأة[68] التي ارتُكبت، فلماذا الهرب؟

لاحظ آرثر الخطأ الإملائي، الذي حكم أنه أفلت من رجله، وقلب الصفحة:

> الدليل على ما أقول لكم، هو في الرسالة التي صاغها في الصحف، عندما أطلقوا سراحه، وجب أن يُحتجز مع والده وجميع اليهود من ذوي الوجوه السود والصفر. لا أحد يستطيع نسخ رسائله بهذه الطريقة، أيها الأحمق الأعمى.

وأكد مثل هذا التحريض الصريح مدى الحاجة إلى المضي قدمًا على جميع الجبهات. يجب ألا يكون هناك تراخٍ في الجهود. كتب السيد ميتشل ليؤكد أن الشاعر جون ميلتون أُقِرّ بالفعل ضمن المنهاج الدراسي في مدرسة والسال خلال الفترة التي أثارت اهتمام السير آرثر، على الرغم من التوسلات أن يضاف أن الشاعر العظيم دُرِّس في مدارس ستافوردشاير طالما أن أقدم معلم يمكنه تذكّر ذلك، وأنه لا زال يُدرَّس بالفعل. أفاد هاري تشارلزورث أنه تتبع أثر فريد وين، الذي كان زميل دراسة الصبي بروكس، وهو الآن دهّان منازل في تشيسلين باي، وسأله عن سبيك. بعد ثلاثة أيام، وصلت برقية بصيغة متفق عليها: دعوة عشاء في هيدنسفورد مع تشارلزورث يوم الثلاثاء.

التقى هاري تشارلزورث بالسير آرثر والسيد وود في محطة هيدنسفورد ومشى بهم إلى

---

68 في النص الأصلي كتبت كلمة ghoolish بدلًا من ghoulish؛ لذا كتبت دنيأة بدلًا من دنيئة.

حانة رايزينغ صن. قدّمهما في الحانة إلى شاب طويل نحيل مع ياقة من السيليلويد وطرف كُمٍ مهترئ. وبعض البقع الضاربة للبياض على كُمٍ واحدٍ من سترته، والتي استبعد آرثر أن تخص إما لعاب حصان أو حتى خبزًا وحليبًا.

"أخبرهم بما قلته لي"، قال هاري.

تأمل وين الغريبين على مهل ونقر على كأسه. أرسل آرثر وودَ بعيدًا؛ لأجل التشجيع اللازم لحنجرة المخبر.

استهلّ حديثه قائلًا: "كنت في المدرسة مع سبيك. حصل على أقل العلامات في الفصل دائمًا. كما اعتاد التورط. ووضع كومة قش على النار في الصيف. أحب مضغ التبغ. ذات مساء، كنت في القطار مع بروكس حين دخل سبيك إلى المقصورة نفسها مصادفة، وتوجّه مباشرة إلى نهاية العربة وعلِق رأسه عبر النافذة مهشمًا إياها إلى شظايا. بدأنا في الضحك للتو على ما فعله. ثم انتقلنا جميعًا إلى عربة أخرى.

"بعد ذلك بيومين وصل بعض رجال شرطة السكك الحديدية، وأبلغونا أن علينا أن نتحمل مسؤولية تهشيم النافذة. كلانا قال إن سبيك من فعلها، لذا عليه أن يدفع ثمنها، فقبضوا عليه وهو يقطع سير النافذة أيضًا، وعليه أن يدفع مقابل ذلك أيضًا. ثم بدأ والد بروكس في تلقي رسائل تفيد أنني وبروكس بصقنا على سيدة عجوز في محطة والسال. تعمّد سبيك الأذى دائمًا. ثم شطبته المدرسة من سجلاتها. لا أتذكر بالضبط متى فُصِل، ولكن إلى حدٍ ما"

"وماذا حدث له؟" سأل آرثر.

"بعد عام أو عامين سمعت أنه أُرسِل إلى البحر"

"إلى البحر؟ هل أنت واثق؟ واثق تمامًا؟"

"حسنًا، هذا ما قالوه. على أي حال، اختفى"

"متى كان هذا؟"

"كما قلت، بعد عام أو عامين. ربما أود أن أقول، أنه أشعل النار في حوالى عام اثنين وتسعين"

"لذا ربما أنه أبحر مع نهاية عام خمسة وتسعين، وبداية عام ستة وتسعين؟"

"هذا ما لا يمكنني تحديده"

"تقريبًا؟"

"لا يمكنني أن أقول أقرب للصحة مما قلته بالفعل"

"هل تذكر من أي ميناء غادر؟"

هزّ وين رأسه نافيًا.

"أو متى عاد؟ إذا عاد؟"

هزّ وين رأسه نافيًا مرة أخرى. "قال تشارلزورث أنك ستهتم". نقر بأصابعه على كأسه مرة أخرى. هذه المرة تجاهل آرثر اللفتة.

"أنا مهتم يا سيد وين، لكنك ستسامحني إذا قلت إني أجد مشكلة في روايتك"

"هل تجد فحسب؟"

"هل ذهبت إلى مدرسة والسال؟"

"نعم"

"وكذلك فعل بروكس؟"

"نعم"

"وبالمثل فعل سبيك؟"

"نعم"

"إذن كيف تفسر حقيقة أن السيد ميتشل، المدير الحالي، يؤكد لي أنه لم يكن هناك فتى بهذا الاسم في المدرسة في العشرين عامًا الماضية؟"

"آه، فهمت" قال وين. "سبيك هو الاسم الذي أطلقناه عليه. كان زميل دراسة صغير مثل لطخة. ربما هذا هو السبب. لا، كان اسمه الحقيقي شارب"

"شارب؟"

"رويدن شارب"

التقط آرثر كأس وين وسلّمه إلى سكرتيره. هل من شيء عن هذا يا سيد وين؟ شراب خفيف بعد الويسكي، ربما؟"

"الآن سيكون ذلك نبلًا كبيرًا منك سير آرثر. نبل كبير. وتساءلت عما إذا رغبتُ

في المقابل أن أطلب منك معروفًا" لقد مدّ يده إلى حقيبة الظهر الصغيرة، وغادر آرثر حانة رايزينغ صن مع نصف دزينة من المخططات الوصفية للحياة المحلية -"فكرت في تسميتها بـ (قصص افتراضية)"- التي وعد بتقييمها على أساس استحقاقها الأدبي.

"رويدن شارب. الآن هذا اسم جديد في القضية. كيف سنبدأ في تعقبه؟ هل لديك أي فكرة يا هاري؟"

"آه، نعم" قال هاري. "لم أكن أرغب في ذكره أمام وين في حال خلا المنزل من الكحول. يمكنني أن أعطيك زمام السيطرة عليه. اعتاد أن يكون في حماية السيد غريتوريكس"

"غريتوريكس!"

"والي ورويدن شقيقا شارب. أحدهما كان في المدرسة مع جورج ومعي، على الرغم من أني لا أذكر أيًا منهما في هذا البون الشاسع. لكن السيد غريتوريكس يمكن أن يخبرك عنهما"

أخذا القطار محطتين للعودة لخط ويرلي آند تشيرشبريدج، ثم سارا إلى مزرعة ليتل وورث. اتّصف السيد والسيدة غريتوريكس أنهما زوجان مريحان وسَلِسان في أواخر منتصف العمر، ومضيافان ومستقيمان. لمرة واحدة، شعر آرثر، أنها لن تكون مسألة بيرة أو ماسِحات أحذية، لحساب ما إذا كان تسعير المعلومات السليم هو شيلنان وثلاثة بنسات أو شيلنان وأربعة بنسات.

"ويلي ورويدن شارب هما ابنا المزارع المقيم عندي، بيتر شارب"، بدأ السيد غريتوريكس. "لقد كانا فتيَيْن همجيين إلى حد ما. لا، ربما يكون هذا غير منصف. بل رويدن هو الصبي الهمجي. أتذكر أن والده أجبره ذات مرة أن يدفع ثمن كومة قش أشعل النار فيها. ظهر والي أكثر غرابة من الحياة البرية. "طُرد رويدن من المدرسة... في والسال. كلا الولدين ارتادها.

لقد عُرف عن رويدن أنه خامل ومُدمِّر، حسب ما جمعت من معلومات، على الرغم من أني لم أحظ مطلقًا بالقصة الكاملة. أرسله بيتر إلى مدرسة ويسبك، لكن ذلك لم يجعله أفضل. لذا علّمه كجزّار، باسم قرية ميلدون على ما أعتقد، في كانوك. ثم في نهاية عام ثلاثة وتسعين، أصبحت مُتورطًا. مات والد الصبيين، وسألني قبلها إذا رغبت في أن

أصبح وَصيًّا على رويدن. هذا أقل ما أمكنني فعله، وبطبيعة الحال قدمت ما أمكنني القيام به لبيتر. لقد بذلت قصارى جهدي، لكن رويدن لا يمكن السيطرة عليه ببساطة. لا شيء غير المتاعب. السرقة، وتحطيم الأشياء، والكذب باستمرار... لم يلتزم بأي عمل. توصلت في النهاية إلى أن أمامه خياران. فإما أن أكف عن التماس الأعذار له وأبلغ عنه للشرطة، أو يمكنه الذهاب إلى البحر"

"نحن على علم بالخيار الذي اختاره"

"لذا حصلت له على فرصة للعمل كمتدرب في شركة جنرال روبرتس، التابعة إلى لويس ديفيس وشركاه"

"متى كان هذا؟"

"في نهاية عام ألف وثمانمئة وخمسة وتسعين. آخر العام. أعتقد أنها أبحرت في الثلاثين من ديسمبر"

"ومن أي ميناء، سيد غريتوريكس؟" سبق أن عرف آرثر الجواب، لكنه مازال مائلاً إلى الأمام سلفًا.

"ليفربول"

"وكم من الوقت بقي مع جنرال روبرتس؟"

"حسنًا، لمرة واحدة تمسك بشيء ما. أنهى تدريبه المهني بعد ذلك بأربعة أعوام، وحصل على شهادة زمالة ثالثة، ثم عاد إلى المنزل"

"هل هذا يأخذنا إلى عام ألف وتسعمئة وثلاثة؟"

"لا، لا. قبل ذلك. نعود لعام ألف وتسعمئة وواحد، أنا متأكد. لكنه عاد إلى المنزل لفترة وجيزة، ثم حصل على وظيفة على متن قارب للماشية بين ليفربول وأمريكا. خدم عليه عشرة أشهر. وبعد ذلك رجع إلى البيت ليستقر فيه على الدوام. من الممكن أن يكون هذا في عام ألف وتسعمئة وثلاثة"

"سفينة الماشية، مؤكد. وأين هو الآن؟"

"في المنزل نفسه الذي امتلكه والده. لكنه تغير كثيرًا. بداية تزوّج"

"هل اشتبهت في أنه أو إخوته تورطوا في كتابة رسائل باسم ابنك؟"

"لا"

"لم لا؟"

"لم تكن هناك أسباب. وحكمت عليه بأنه تافه للغاية، وربما ليس مبدعًا بما يكفي"

"و-اسمح لي أن أخمن- هل كان لديهما أخ أصغر... ربما صبي بذيء إلى حد ما، كما أظن؟"

"لا، لا. لم يكن سواهما الاثنان"

"أو رفيق شاب من ذاك النوع الذي لازمهما على الأغلب؟"

"لا. لا على الإطلاق"

"فهمت. وهل استاء رويدن شارب من الوصاية؟"

"نعم، مرارًا. لم يفهم سبب رفضي تسليم كل الأموال التي تركها له والده. لم تكن كثيرة وهي الحقيقة التي جعلتني أكثر تصميمًا على عدم السماح له بتبديدها"

"الصبي الآخر -والي- هو الأكبر؟"

"نعم، سيكون في الثلاثين من عمره الآن"

"إذن هو من كان معك في المدرسة يا هاري؟" أومأ تشارلزورث برأسه. "قلت إنه غريب الأطوار. ما الذي قصدته؟"

"غريب. لا بأس به بهذا العالم. لا يمكنني أن أكون أكثر تحديدًا"

"أي دلالات على هوس ديني؟"

"ليس هذا ما أنا على دراية به. لقد تميّز والي بذكائه. بدا شديد الذكاء"

"هل درس ميلتون في مدرسة والسال؟"

"لستُ على دراية بهذا"

"وبعد المدرسة؟"

"تلقى تعليمه كمهندس كهربائي لفترة من الوقت"

"ما الذي سيمنحه الإذن بالسفر إلى البلدات المجاورة؟"

ظهر الارتباك على غريتوريكس من السؤال. "بالطبع. مثل العديد من الرجال"

"و... هل مازال الشقيقان يعيشان معًا؟"

"لا، رحل والي عن الريف قبل عام أو اثنين"

"إلى أين ذهب؟"

"جنوب إفريقيا"

التفت آرثر إلى سكرتيره. "لماذا يذهب الجميع إلى جنوب أفريقيا فجأة؟ هل لديك عنوان له هناك سيد غريتوريكس؟"

"ربما لدي إلا أننا سمعنا أنه مات مؤخرًا، في نوفمبر الماضي"

"آه. مع الأسف. والمنزل الذي عاشا فيه معًا، حيث لا يزال رويدن يعيش..."

"يمكنني أن آخذك إلى هناك"

"لا، ليس بعد. سؤالي هو... هل هو معزول؟"

"إلى حد ما. مثل العديد من المنازل الأخرى"

"حتى إنك قد تتمكن من الدخول أو المغادرة دون أن يراقبك الجيران؟"

"آه، نعم"

"ومن السهل الوصول إلى البلد؟"

"بالتأكيد. يعود ذلك إلى الحقول المفتوحة. بل إلى العديد من المنازل أيضًا"

"سير آرثر" هذه هي المرة الأولى التي تحدثتْ فيها السيدة غريتوريكس. عندما التفت إليها، لاحظ أن اللون تصاعد في وجهها، وأكثر اضطرابًا حين وصلا. "أنت تشتبه به، أليس كذلك؟ أو في كليهما؟"

"إن الأدلة تتكدّس، على أقل تقدير يا سيدتي" أعد آرثر نفسه لبعض الاعتراضات الموالية من السيدة غريتوريكس، ولرفض قبول شكوكه وافتراءاته.

"إذن كان من الأفضل أن أخبرك بما أعرفه. منذ حوالى ثلاثة أعوام ونصف -حدث في يوليو على ما أذكر، في يوليو قبل أن يقبضوا على جورج إدالجي- مررت بمنزل آل شارب بعد ظهر أحد الأيام وناديت. كان ويلي بالخارج لكن رويدن هناك أيضًا. بدأنا نتحدث عن تشويه الحيوانات... هذا ما تحدث عنه الجميع في ذلك الوقت. بعد فترة ذهب رويدن إلى خزانة في المطبخ وعرض أمامي... أداة. أمسك بها. قال: "هذا ما يقتلون به الماشية". جعلني أشعر بالغثيان لمجرد النظر إليها، لذا طلبت منه أن يبعدها عني. قلت: "أنت لا تريدهم أن

يعتقدوا أنك الرجل المنشود، أليس كذلك؟" ثم أعادها إلى خزانة الصحون"

"لماذا لم تبلغيني؟" سألها زوجها.

"اعتقدت أن هناك ما يكفي من الشائعات التي تحوم، ولا رغبة لي في إضافة المزيد إليها. وكل ما أردته فقط أن أنسى الحادثة بأكملها"

كبح آرثر رد فعله وسأل بحيادية، "لم تفكري في إبلاغ الشرطة؟"

"لا. بعد أن تجاوزت الصدمة، أكملت نزهتي على الأقدام وأنا أفكر في الأمر. واستنتجت في وقتها أن رويدن مُتباهٍ فحسب. تظاهر بمعرفة شيء ما. ما كان سيعرض الأداة إن فعلها بنفسه، سيفعلها؟ ثم إنه فتى عرفته طوال حياتي. لقد عرفته طائشًا بعض الشيء، كما أوضح زوجي، لكن منذ أن عاد من البحر هدأ. لقد خطب لنفسه وخطط للزواج. حسنًا، إنه متزوج الآن. لكنه معروف لدى الشرطة، واعتقدت أنني إذا ذهبت وأخبرتهم، فسيرفعون قضية ضده مهما كانت الأدلة"

نعم، هكذا خمّن آرثر؛ ونتيجة لصمتك انطلقوا ورفعوا دعوى ضد جورج بدلاً منه.

"ما زلت لا أفهم لماذا لم تخبريني" قال السيد غريتوريكس.

"لأنك... لأنك كنت أقسى على الصبي مني دائمًا. وأدركت أنك ستستبق النتائج"

"ما هي إلا استنتاجات ربما ثبتت صحّتها فعلاً" أجاب بشيء من المرارة.

يضغط آرثر. ربما حدث خلاف زوجي في وقت لاحق. "السيدة غريتوريكس، أي نوع من... الأدوات تلك؟"

"نصل طويل جدًا" أشارت: قدم أو نحو ذلك، إذن. "ومطوية في غطاء، مثل سكين جيب عملاق. إنها ليست أداة من أدوات المزرعة. لكن النصل كان هو الشيء المخيف. به تقوّس"

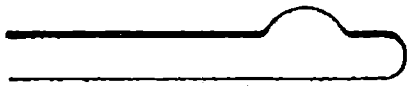
"هل تقصدين، مثل السيف المعقوف؟ أو المنجل؟"

"لا، لا، النصل نفسه كان مستقيمًا، وحافته ليست حادة على الإطلاق. ولكن في النهاية، هناك جزء منحنٍ إلى الخارج، وبدا حادًا للغاية"

"هل يمكنك رسمه لنا؟"

"بالتأكيد" سحبت السيدة غريتوريكس دُرجًا في المطبخ، ورسمت على قطعة ورق

مسطّر مخططًا يدويًا واثقًا:



"إنها غير حادة، إلى هذا الحدّ، وحتى هنا أيضًا، هي مستقيمة. وهناك تنحني، تصبح حادة بشكل مرعب"

نظر آرثر إلى الآخرين. هزّ السيد غريتوريكس وهاري رأسيهما. حام ألفريد وود حول الرسم حتى وقف قبالته وقال، "اثنان إلى واحد إنه مِشرط الحصان المُقوّس. من النوع الكبير. أتوقع أنه سرقه من سفينة الماشية"

"فهمت" قالت السيدة غريتوريكس، "صديقك يستبق النتائج مباشرة. مثلما فعلت الشرطة"

هذه المرة لم يتمكن آرثر من كبت مشاعره. "في حين قفزوا إلى الاستنتاجات عن جورج إدالجي"، احتقن وجه السيدة غريتوريكس مع هذه الملحوظة مرة أخرى. "اعذريني على سؤالي سيدتي، لكنك لم تفكري في إبلاغ الشرطة عن الأداة في وقت لاحق... في الوقت الذي وجّهوا التهمة إلى جورج؟"

"فكرت في الأمر، نعم"

"لكنك لم تفعلي شيئًا"

"سير آرثر" ردّت السيدة غريتوريكس: "لا أذكر حضورك في المنطقة وقت حوادث التشويه. انتشرت هستيريا على نطاق واسع هناك. شائعات عن هذا الشخص وذاك الشخص. شائعات عن عصابة غريت ويرلي وشائعات بأنهم سينتقلون من الحيوانات إلى الشابات. حديث عن القرابين الوثنية. قال بعضهم إن الأمر كله يتعلق بالقمر الجديد. في الواقع، أتذكر الآن، أخبرتني زوجة رويدن ذات مرة أنه تفاعل بغرابة مع القمر الجديد"

"هذا صحيح" قال زوجها مُمعِنًا التفكير. "لاحظت ذلك أيضًا. اعتاد الضحك مثل المعاتيه عندما كان القمر مُحاقًا. اعتقدت في البداية أنه تلبّس الحالة للتو، لكني أمسكته وهو يفعل ذلك حين لم يكن أحد حوله"

"لكنك لا ترين..." بدأ آرثر.

قاطعته السيدة غريتوريكس. "الضحك ليس جريمة. حتى الضحك كالمعاتيه"

"لكن ألا تظنين...؟"

"سير آرثر، لا أملك أي تقدير كبير لذكاء أو كفاءة شرطة ستافوردشاير. أعتقد أن هذا شيء يمكننا الاتفاق عليه. وإذا قلقت بشأن سجن صديقك الشاب سجنًا جائرًا، فقد انتابني القلق عينه بشأن ما سيحدث لرويدن شارب. ربما لم يكن قد انتهى بنجاة صديقك من الحبس، بل مع كل منهما خلف القضبان لانتمائه إلى العصابة ذاتها، سواء وُجِدت أم لا"

قرر آرثر قبول التوبيخ. "وماذا عن السلاح؟ هل أخبرته أن يتخلص منه؟"

"بالتأكيد لا. لم نذكره من ذلك اليوم حتى الآن"

"إذن هل لي أن أطلب منك يا سيدة غريتوريكس، أن تستمري في هذا الصمت لبضعة أيام أخرى؟ وسؤال أخير. هل تعني الأسماء ووكر أو غلادوين أي شيء بالنسبة لك... على صلة بشارب؟"

هزّ الزوجان رأسيهما.

"هاري؟"

"أعتقد أنني أذكر غلادوين. عمل كسائق عربة لتوصيل الجعّة. رغم ذلك، لم نشاهده منذ أعوام"

بينما طُلب من هاري انتظار التعليمات، عاد آرثر وسكرتيره إلى برمنغهام ليلًا. اقترُحت أماكن للإقامة أكثر ملاءمة في كانوك، لكن آرثر فضّل أن يكون واثقًا من كأس نبيذ (بورغندي) لائق في نهاية يوم عمل شاق. أثناء العشاء في فندق امبريال فاميلي، تذكر فجأة عبارة من إحدى الرسائل مما أحدث قرقعة برميه سكينه وشوكة.

"عندما تباهى السفّاح بإخفاقهم في القبض عليه. كتب، "أنا حاد كما يمكن أن تكون الحِدّة""

"كما يمكن أن تكون الحِدّة"، كرر وود.

"بالضبط"

"لكن من هو الصبي بذيء اللسان؟"

"لا أدري". حزِن آرثر إلى حدٍّ ما؛ لأن حدسه هذا بالذات لم يُؤكَّد. "ربما فتى الجيران. أو ربما اختلقه أحد أفراد عائلة شارب"

"إذن ماذا نفعل الآن؟"

"نواصل"

"لكنني اعتقدت -أنك- أننا سنحلها. رويدن شارب هو السفّاح. كتب كل من رويدن شارب وويلي شارب الرسائل"

"أتفق معك وودي. الآن أخبرني لماذا ارتأيت أنه رويدن شارب"

أجاب وود، وهو يحصي على أصابعه أثناء ردّه. "لأنه عرض مشرط الحصان المُقوّس على السيدة غريتوريكس؛ لأن الجروح التي عانت منها الحيوانات، وقَطْع الجلد والعضلات التي لم تخترق الأحشاء، أمكن أن تحدث فقط بواسطة مثل هذه الأداة غير العادية. كما أنه عمل جزّارًا وفي سفينة مواشٍ أيضًا، وبالتالي عرف كيفية التعامل مع الحيوانات وتقطيعها. ومن الجائز أنه تمكن من سرقة المشرط المُقوّس من السفينة. فيما أسلوب الرسائل وحوادث التمزيق يطابق نمط حضوره وغيابه عن ويرلي. وهناك تلميحات واضحة في الرسائل حول تحركاته وأنشطته. ولديه سجل سوابق. وتأثره مع ولادة كل قمر جديد"

"ممتاز يا وودي ممتاز. إنها قضية متكاملة، عرض جيد، وتعتمد على الاستنتاج والأدلة غير المباشرة"

"آه" قال السكرتير خائبًا. "هل فاتني شيء؟"

"لا، لا شيء. رويدن شارب هو رجلنا، ليس هناك أدنى شك في ذهني. لكننا في حاجة إلى دليل أكثر واقعية. نحن بحاجة إلى مشرط الحصان المُقوّس، على وجه الخصوص. في حاجة لتأمينه. يعلم شارب أننا في المنطقة، وإن امتلك أي منطق، فسيرميه في أعمق بحيرة يعرفها بالفعل"

"وإن لم يفعل؟"

"إن لم يفعل، فستتعثّر أنت وهاري تشارلزورث به وستُؤمّنانه"

"التعثر به؟"

"التعثر به"

"وسيُأمّن؟"

"مؤكد"

"هل لديك أي اقتراحات حول طريقة عملنا؟"

"بصراحة، أعتقد أنه من الأفضل ألا أعرف الكثير. لكنني أتخيل أنه لا يزال من المعتاد في هذه الأجزاء من البلاد أن يترك الناس أبوابهم مفتوحة. وإذا اتضح أنها مسألة قابلة للتفاوض، فإنني أقترح أن يظهر المبلغ المعني في حسابات أندرشو في أي خانة تختار وضعه"

اغتاظ وود إلى حد ما بسبب هذه التطلعات العالية. "من المستبعد أن يقوم شارب بتسليمه إذا طرقنا بابه وقلنا معذرة، هل يمكننا شراء المشرط المُقوّس الذي مزقت به الحيوانات، حتى نتمكن من عرضه على الشرطة؟"

"لا، أتفق معك" قال آرثر بضحكة ضحكة خافتة. "هذا لن يحدث أبدًا. يجب أن تكونا أكثر إبداعًا، كلاكما. أكثر دهاء. أو لهذا الأمر، المزيد من الصراحة. قد يشغله أحدكم، ربما في حانة، فيما الآخر... لقد ذكرت خزانة صحون في المطبخ، أليس كذلك؟ ولكن في الحقيقة، يجب أن أترك الأمر لك"

"ستتحمل كفالتي إذا لزم الأمر؟"

"سأمنحك شهادة شخصية"

هزّ وود رأسه ببطء. "ما زلت لا أستطيع تجاوز ذلك. هذه المرة لم نعرف شيئًا تقريبًا في الليلة الماضية. أو بالأحرى، لدينا بعض الشكوك. الآن نعرف كل شيء. كل ذلك في يوم واحد. وين وغريتوريكس والسيدة غريتوريكس... وهذا كل ما في الأمر. قد لا نتمكن من إثبات ذلك، لكننا نعلم. وكل هذا في غضون يوم واحد"

"ليس من المفترض أن يحدث مثل هذا" قال آرثر: "يجب أن أعرف. لقد كتبته عدة مرات كافية. ليس من المعقول أن يُحل باتباع خطوات بسيطة. يجب أن تبدو غير قابلة للحل تمامًا حتى النهاية. ثم تُحل العقدة باقتطاع قطعة رائعة واحدة، وهو أمر منطقي تمامًا ولكنه مذهل للغاية، ثم يغمرك شعور عظيم بالانتصار"

"ما الذي لا تفعله؟"

"الآن؟ لا، أشعر بأنني محبط تقريبًا. في الواقع، أشعر بالإحباط"

قال وود: "حسنًا، يجب أن تسمح لنفسك بأبسط إحساس بالانتصار"

"عن طيب خاطر"

في وقت لاحق، حين نفث آرثر آخر نفس في غليونه واستلقى، رقد على سريره، مفكرًا في ذلك. لقد وضع لنفسه تحديًا، واليوم تغلب عليه. ومع ذلك لم يشعر بالبهجة. ربما هو الكبرياء، والدفء المؤكد حين تأخذ راحة من مهمة مضنية، لكن ليس من السعادة، ناهيك عن الانتصار.

تذكر اليوم الذي تزوج فيه توي. لقد أحبها بالطبع، وفي تلك المرحلة المبكرة، فُتن بها جدًا ولا يمكنه الانتظار لإتمام الزفاف. ولكن عندما تزوجا في ثورنتون-ان-لونسدايل مع ذاك الرجل والر الذي نكزه في مِرفقه، شعر بإحساس... كيف يمكن أن يعبّر دون أن يقلل من احترام ذكراها؟ غدا سعيدًا بقدر ما بدت سعيدة فقط. تلك هي الحقيقة. بالطبع بعد ذلك بيوم أو يومين، بدأ يختبر السعادة التي انتظرها. ومع ذلك بقدر أقل بكثير مما توقع، في الوقت نفسه.

ربما هذا هو السبب في أنه مع كل منعطف في حياته، سعى إلى تحدٍ جديد دائمًا. قضية جديدة، حملة جديدة... لأنه كان مؤهلًا فقط لفرحة وجيزة على نجاح الحملة السابقة. شعر بالحسد تجاه بساطة وودي في لحظات كهذه، كما حسد أولئك القادرين على أن يستريحوا على أمجادهم. مع ذلك ليس هذا أسلوبه أبدًا.

وهكذا ما الذي يتعين القيام به الآن؟ يجب تأمين المشرط المُقوّس. وحتمًا الحصول على عينة من خط يد رويدن شارب... ربما من السيد والسيدة غريتوريكس. عليه أن يبحث ما إذا ووكر وغلادوين لديهما أي صلة أخرى بالموضوع. وفي مسألة الاعتداء على المرأة والطفل. يجب التحقيق في مسيرة رويدن شارب الدراسية في والسال. كما أن عليه أن يحاول مطابقة تحركات ويلي شارب بشكل أكثر تحديدًا مع الأماكن التي نُشِرت الرسائل فيها. يجب عليه مجرد تأمين المشرط، أن يبرهن أنه مشرط الحصان المُقوّس، للجراحين البيطريين الذين اعتنوا بالحيوانات المصابة، وطلب تقييمهم المهني. من الضروري أن يسأل جورج إن كان هناك ما يذكره عن شارب.

يجب أن يراسل الأم. وأن يكتب لجاين.

الآن بعد أن امتلأ رأسه بالمهمات، خلد إلى نوم هانئ.

شعر آرثر بالعودة إلى أندرشو، كمن أوشك على الانتهاء من الكتاب: معظم الأشياء في أماكنها، ولذة الخلق الرئيسة صارت من الماضي، والآن أصبحت المسألة مجرد عمل عليه الانتهاء منه، لجعل المسألة لا لبس فيها قدر الإمكان. على مدار الأيام التالية، بدأت نتائج تعليماته واستفساراته ومساعيه بالوصول. جاء الأول على هيئة طرد من الورق البني المشمع مربوط بسلسلة، مثل عملية شراء من بروكس لتجارة الحديد. لكنه أدرك ما يحتويه قبل أن يفتحه، أدرك من وجه وود.

فضّ الطرد وبحذر فتح مشرط الحصان المُقوّس بكامل طوله. لقد كانت أداة خبيثة، زادها التباين بين حِدّة الجزء المستقيم والطرف المصقول عند المنحنى القاتل... والذي وجده حادًا بالفعل كما يمكن أن تكون الحِدّة.

"وحشي" قال آرثر. "هل لي أن أسأل..."

لكن سكرتيره قطع التحقيق بهزة رأس. لم يتمكن السير آرثر من الحصول على كلا المسارين، أولاً عدم المعرفة ثم اختيار المعرفة.

كتب جورج إدالجي ليقول إنه لا يذكر الأخوين شارب سواء في المدرسة أو في وقت لاحق، ولا يمكن أن يفكر في سبب يجعلهما يُكِنّان أي عداء ضده أو ضد والده.

الأمر الأكثر إرضاءً كان رسالة من السيد ميتشل تفصّل السجل الدراسي لرويدن شارب:

عيد الميلاد، 1890.	أقل من 1. الترتيب، 23 من أصل 23. متأخر جدًا وضعيف. الفرنسية واللاتينية لم يحاول.
عَيد الفصح، 1891.	أقل من 1. الترتيب، 20 من أصل 20. بليد، إهمال الواجبات المدرسية، بدأ في التحسن في الرسم.

منتصف الصيف، 1891.	أقل من 1. الترتيب، 18 من أصل 18. بدأ في التحسّن، ضُرب بعصا لسوء السلوك في الصف، ومَضْغ التبغ، والمراوغة، والتنابز بالألقاب.
عيد الميلاد، 1891.	أقل من 1. الترتيب، 16 من أصل 16. غير مُرضٍ، وغالبًا غير صادق. دائم الشكوى أو هو موضوع الشكوى. ضُبِط مُتلبسًا بالغش، وغالبًا ما يغيب بلا إذن. تحسّن في الرسم.
عيد الفصح، 1892.	الاستمارة 1. الترتيب، 8 من أصل 8. خامل ومؤذٍ، يُضرب بالعصا يوميًا، كتب إلى الأب، زوّر علامات زملاء المدرسة، ويكذب عمدًا. ضُرب عشرين مرة هذا الفصل.
منتصف الصيف، 1892.	تغيّب بلا عذر، الرسائل المزورة والحروف الأولى للاسم، أزالها والده.

هناك نحن، فكّر آرثر: التزوير، الغش، الكذب، الألقاب، تعمّد الأذى عمومًا. علاوة على ذلك، لاحظ تاريخ الطرد أو الإبعاد، أيهما تفضل: منتصف الصيف 1892. حدث ذلك عندما بدأت الحملة ضد الإدالجيز وضد بروكس وضد مدرسة والسال. شعر آرثر بضيقه يتصاعد... فقد أمكنه اكتشاف مثل هذه الأشياء من خلال سلسلة عادية من التساؤلات المنطقية، في حين أن أولئك المغفلون... إنه يرغب في تثبيت شرطة ستافوردشاير على الحائط، من قائد الشرطة والمشرف العام باريت مرورًا بالمفتش كامبل والرقيب بارسونز وأبتون وصولاً إلى أكثرهم تواضعًا في القوة، وطرح سؤال بسيط عليهم. في ديسمبر ألف وثمانمئة واثنين وتسعين، سُرِق مفتاح كبير تابع لمدرسة والسال من المبنى ونقل إلى غريت ويرلي. من الذي يمكن أن يكون المشتبه به الأكثر قبولاً: صبي فُصِل قبل بضعة أشهر من المدرسة على نحو مخزٍ بعد سيرة من الغباء والخبث، أو نجل كاهن مجتهد وله مستقبل واعد أكاديميًا، ولم يسبق له أن التحق بمدرسة والسال، ولم يزر مبانيها إطلاقًا، ولا يحمل ضغينة ضد المؤسسة أكثر من أي شخص آخر؟ أجبني على هذا يا قائد الشرطة، ويا حضرة

المشرف العام، ويا مفتش الشرطة، وأنت أيها الرقيب، وأنت أيها الشرطي. أجيبوني على هذا، أنتم أيها الاثنا عشر رجلاً صالحًا، والموثوقون في محكمة الجلسات الفصلية.

أرسل هاري تشارلزورث تقريرًا عن حادث وقع في غريت ويرلي في أواخر خريف أو أوائل شتاء عام ألف وتسعمئة وثلاثة. كانت السيدة جاريوس هاندلي قادمة من محطة ويرلي ذات مساء، بعد أن ذهبت لشراء بعض الأوراق للبيع، برفقة ابنتها الشابة. دنا منهما رجلان بوقاحة في الطريق واقتاداهما. أحدهما قبض على الفتاة من عنقها، وفي يده يمسك بشيء يلمع. صرخت كل من الأم والابنة، عندئذ هرب الرجل، وصرخ برفيقه الذي استمر في ما يفعله، "حسنًا، جاك، أنا قادم". وصرحت الفتاة أن والدتها سبق أن أوقفها الرجل نفسه. وُصف بأنه ذو وجه مستدير، وبلا شارب، يبلغ طوله نحو خمسة أقدام وثماني بوصات، يرتدي بدلة داكنة، وقبعة مدببة لامعة. انطبق هذا الوصف على رويدن شارب، الذي يرتدي في ذلك الوقت زيًا شبيهًا بالبحّارة، تخلى عنه في ما بعد. واقترح التقرير أيضًا أن "جاك" كان جاك هارت، الجزار الماجن والرفيق المعروف لشارب. وقد تم إبلاغ الشرطة، ولكن لم يُقبض عليه في القضية.

أضاف هاري في آخر رسالة نصية أن فريد وين تواصل معه مرة أخرى مقابل نصف لتر من الشجاعة تذكّر شيئًا غاب عنه سابقًا. عندما التحق هو وبروكس وسبيك جميعًا بمدرسة والسال، عُرف شيء واحد عمومًا عن رويدن شارب أنه لا يمكن تركه في عربة للسكك الحديدية دون أن يقلب الوسادة ويشقّ جانبها السفلي بسكين، وذلك لإخراج شعر الحصان المحشو بها. ثم يضحك بجموح ويعيد الوسادة مرة أخرى.

أُعلن في يوم الجمعة الأول من مارس عن لجنة للتحقيق بعد تأخير دام ستة أسابيع الغرض منه إظهار أن وزير الداخلية لم يستجب للضغوط من أي مصدر معروف. الغرض منها هو النظر في مختلف الأمور في قضية إدالجي التي أدت إلى قلق عام. ومع ذلك، شَددت وزارة الداخلية على أن مداولات اللجنة لا تصل بأي حال من الأحوال إلى إعادة المحاكمة في القضية. لن يتم استدعاء الشهود، ولن يكون حضور السيد إدالجي مطلوبًا. ستدرس اللجنة المواد الموجودة في حوزة وزارة الداخلية وتبت في بعض المسائل الإجرائية. السير آرثر ويلسون (الحاصل على وسام الفرسان)، والرايت أونرابل . جون لويد وارتون،

رئيس الجلسات ربع السنوية لمقاطعة درم، والسير ألبرت دي رتزن، كبير القضاة في لندن، سيقدمان تقريرًا إلى السيد غلادستون بأسرع ما يمكن.

قرر آرثر أنه لا ينبغي ترك هؤلاء السادة لتبادل النقاشات الطويلة معًا عن "بعض المسائل الإجرائية" برضا عن النفس. سيُلحق مذكرة خاصة توضح القضية ضد رويدن شارب إلى مقالات التلغراف التي أعاد صياغتها - والتي من شأنها أن تثبت براءة جورج. تصف تحرياته، وتلخص أدلته، وتدرج أولئك الذين يمكن الحصول منهم على مزيد من الشهادات: على وجه التحديد الجزّار جاك هارت من بريدجتاون، وهاري غرين الموجود في جنوب إفريقيا. السيدة رويدن شارب أيضًا، يمكنها أن تؤكد تأثير القمر الجديد على زوجها.

سيرسل إلى جورج نسخة من المذكرة، يطلب فيها ملاحظاته. سيُبقي آنسون في حالة تأهب أيضًا. في كثير من الأحيان، عندما يتذكر الجدال الطويل على البراندي والسيجار، ترتفع دمدمة لا يمكن إيقافها في حلقه. طغى الصخب على محادثاتهما لكنه وجدها عقيمة إلى حد كبير... مثل اثنين من أيائل الإلكة الاسكندنافية في الغابة قرناهما تشابكا. ومع ذلك، فقد صُدم من تراخي وتحامل رجل كان ينبغي أن يعرف أفضل. وبعد ذلك في النهاية، حاول آنسون أن يخيفه بقصص الأشباح. كم هو ضئيل جدًا ما يعلمه قائد الشرطة عن رجله. أخرج آرثر مشرط الحصان المُقوّس في مكتبه، وكشف عنه ورسم الخطوط العريضة للنصل على ورقة من الورق الشفاف. نوى أن يرسل الرسم - "بالحجم الطبيعي" - إلى قائد الشرطة، طالبًا وجهة نظره.

قال وود، "حسنًا، لديك لجنتك"، فقد سحبوا شاراتهم من الرف في ذلك المساء.

"أفضل أن أقول إن لديهم لجنتهم"

"التي تشير من خلالها إلى أنك أقل من راضٍ؟"

"لدي بعض الأمل في أن هؤلاء السادة لا يمكن أن يفشلوا في الاعتراف بما يحدق في وجوههم"

"لكن؟"

"لكن... هل تعرف من هو ألبرت دي رتزن؟"

"أبلغتني صحيفتي أنه رئيس القضاة في لندن"

"هو كذلك. هو كذلك. وهو ابن عم كبير المفتشين آنسون أيضًا"

جورج وآرثر

لقد قرأ جورج مقالات التلغراف عدة مرات قبل أن يكتب ليشكر السير آرثر. وقرأها مرة أخرى قبل لقائهما الثاني في فندق غراند، شارع تشارينغ كروس. كان من المربك للغاية أن يرى المرء نفسه موصوفًا ليس من بعض المقاطعات المحلية فحسب بل من أشهر كاتب في يومنا هذا. مما دفعه للشعور بأن هناك العديد من الأطراف المتشابكة في الوقت نفسه: ضحية تسعى للإنصاف، ومحامٍ يواجه أعلى محكمة في البلاد، وشخصية في رواية.

هنا وضّح السير آرثر السبب أنه من غير الممكن أن جورج متورط مع عصابة لصوص ويرلي المزعومة الهمجية: "في المقام الأول، هو ممتنع عن المُسكِرات أي أنه شخص زاهد جدًا، مما يجعل مثل هذه العصابة بالكاد تثني عليه. إنه غير مُدخّن وخجول وقلق للغاية. إنه الطالب الأكثر تميزًا" كل هذا بدا صحيحًا، ولكنه غير صحيح الآن، فهو مُتملّق، ومع ذلك غير جذاب. قابل للتصديق، لكنه لا يُصدَّق. لم يكن تلميذًا متميزًا، إنه مجرد فرد عمل عملًا جيدًا وبِجد. حصل على مرتبة الشرف من الدرجة الثانية لا الأولى، والميدالية البرونزية لا الفضية أو الذهبية، من جمعية برمنغهام للمحاماة. لقد كان بالتأكيد محاميًا واعدًا، ومن المحتمل أن ينجح أكثر من غرينواي أو ستينتسون، لكنه لن يصبح مرموقًا أبدًا. وبالمثل لم يراه وفقًا لتخمينه خجولًا جدًا. وإن حكم عليه بالتوتر استنادًا لذاك اللقاء السابق في الفندق، فقد توافرت الظروف المخففة. جلس في الردهة قارئًا صحيفته، وبدأ القلق يتسلل إليه إن ارتكب خطأ بشأن التوقيت أو حتى اليوم، حين اكتشف شخصية كبيرة مبالغًا فيها، تقف على بعد أمتار قليلة وتتفحصه باهتمام. كيف ستكون رد فعل أي شخص آخر يحدّق فيه روائي عظيم؟ اعتقد جورج أن وجهة النظر هذه عن أنه خجول وعصبي ربما أكّدها والديه، إن لم يروّجا لها. غاب عنه كيف يحدث الأمر في عائلات

أخرى، ولكن في بيت الكاهن، لم تتطور النظرة الأبوية للأطفال بذات سرعة نمو الأطفال أنفسهم. لم يفكر جورج في ذاته فقط، لا يبدو أن والديه يأخذان في الاعتبار تطور مود، وكيف أصبحت أقوى وأقدر. والآن بعد أن فكّر مليًا في الأمر، لم يعتقد أنه توتر جدًا في صحبة السير آرثر. وفي مناسبة أكثر عرضة لإثارة الأعصاب، واجه المحكمة المكتظة برباطة جأش... أليس هذا ما كُتب في صحيفة برمنغهام ديلي بوست؟

لم يدخّن. هذا صحيح. فهو اعتبرها عادة عبثية وبغيضة ومُكلِفة. لكن لا علاقة لها بالسلوك الإجرامي كشخص أيضًا. اشتُهر شيرلوك هولمز بتدخين الغليون - والسير آرثر كما فهم، دخّن الغليون أيضًا - لكن هذا لم يجعل أيًا منهما مرشحًا لعضوية عصابة. صحيح أنه ممتنع عن المُسكِرات أي أنه زاهد فيها جدًا أيضًا: نتيجة لنشأته، وليس فعلًا مبدئيًا للتخلي. لكنه أقرّ بأن أي عضو في هيئة محلفين أو أي لجنة، قد يفسر هذه الحقيقة بأكثر من طريقة. فِعْل الامتناع يمكن اعتباره دليلًا على الاعتدال أو التطرف. قد تكون علامة على شخص قادر على التحكم في رغباته البشرية، أو مساوٍ لشخص قاوم الرذيلة من أجل تركيز عقله على أشياء أخرى أكثر أهمية... شخص ذو لمسة غير إنسانية حدّ التعصب.

لم يقلل بأي حال من الأحوال من قيمة ونوعية عمل السير آرثر. وَصفت المقالات بمهارة نادرة سلسلة من الظروف التي تبدو استثنائية للغاية لدرجة أنها تفوق إبداع كاتب الخيال. قرأ جورج وأعاد قراءة مثل هذه التصريحات بكل فخر وامتنان، حتى تُحل كل هذه التساؤلات، ستبقى هناك وصمة عار داكنة في السجلات الإدارية لهذه البلاد. وعد السير آرثر بإحداث جلبة، وصل صداها الذي أحدثته بعيدًا عن ستافوردشاير، وأبعد بكثير من لندن، حتى إنه بعيد عن إنجلترا نفسها. لولا تفاني السير آرثر في مهمته وتكريسه لنفسه، فإن من شبه المؤكد أن وزارة الداخلية لن تشكّل لجنة، على الرغم من أن كيفية استجابة اللجنة نفسها للجلبة والتفاني قضية أخرى. بدا لجورج أن السير آرثر ذهب في مسار صعب للغاية في تعامل وزارة الداخلية مع ذكرى السيد يلفيرتين، عندما كتب أنه لا يستطيع تخيل أي شيء أكثر سخافة وظلماً في ظل استبداد شرقي. إن اتهام شخص ما على أنه مستبد قد لا يكون أفضل طريقة لإقناعه بأن يتحلّى باستبداد أقل في المستقبل، ثم بيان القضية ضد رويدن شارب...

"جورج! أعتذر منك كثيراً. لقد تأخرنا"

يقف هناك، غير وحيد. إلى جانبه شابة جميلة. تبدو أنيقة وواثقة بنفسها في ظل من اللون الأخضر، لم يتمكن جورج من تحديده. إنه ذاك النوع من اللون الذي تُعرف به النساء. تبتسم قليلاً وتمدّ يدها.

"إنها الآنسة جاين ليكي. كنا... نتسوق" يبدو غير مرتاح.

"لا آرثر، كنا نتناقش" نبرتها لطيفة لكنها حازمة.

"حسنًا، تحدثت إلى صاحب متجر خدم في جنوب أفريقيا، وكان مدنيًا لأسأله فقط..."

"لا يزال هذا يسمى نقاشًا، لا تسوقًا"

يقف جورج مرتبكًا من هذه المقابلة.

"كما ترى جورج، نحن نتأهب للزواج"

"أنا سعيدة جدًا بلقائك" تقول الآنسة جاين ليكي، وتتسع ابتسامتها، حتى لاحظ جورج أن أسنانها الأمامية كبيرة. "والآن يجب أن أذهب" تهز رأسها في غيظ من آرثر وتتجاوزه مبتعدة.

"الزواج"، يقولها آرثر كأنه يغوص في كرسي غرفة الكتابة. بالكاد ترقى الكلمة إلى مستوى السؤال. ومع ذلك، يجيب جورج... وبدقة غريبة.

"إنها حالة أطمح إليها"

"حسنًا، يمكن أن تكون حالة محيرة، أحذرك. إنه نعيم بالطبع. لكنه النعيم المُحيّر اللعين في أغلب الأحيان"

أومأ جورج. إنه لا يوافق، فيما يسلّم بأن لديه القليل من البراهين للمتابعة. بالتأكيد لن يصف زواج والديه بأنه نعمة محيرة لعينة. لا يمكن أن تنطبق أيٌّ من هذه الكلمات الثلاث بأي شكل معقول على الحياة في بيت الكاهن.

"إلى العمل، على أي حال"

ناقشا مقالات التلغراف، وردود الأفعال التي أثيرت حولها، ولجنة غلادستون واختصاصاتها وعضويتها. يتساءل آرثر عما إذا وجب عليه شخصيًا فضح ابن عم السير

ألبرت دي رتزن، أو ترك تلميح لمحرر صحيفة في ناديه، أو ببساطة ترك الأمر برمته وشأنه. ينظر إلى جورج، متوقعًا وجهة نظر فورية. لكن جورج لا يملك رأيًا فوريًا. قد يعود هذا لكونه خجولاً ومتوترًا للغاية أو لأنه محامٍ أو ربما يجد صعوبة في التحول من كونه قضية السير آرثر إلى مستشار السير آرثر التكتيكي.

"أعتقد أن السيد يلفيرتين ربما هو الشخص الملائم للتشاور معه بشأن ذلك"

يجيب آرثر: "لكنني أستشيرك"، كما لو أن جورج يتهرب.

رأي جورج، بقدر ما يمكن أن يُطلِق عليه أحدهم عندما يشعر أنه ليس أكثر من غريزة، هو أن الخيار الأول سيكون مثيرًا للغاية، والثالث سلبيًا جدًا، وهكذا عمومًا قد يميل إلى تقديم المشورة كَحَلٍّ وسط. ما لم يكن بالطبع... وعندما بدأ في إعادة النظر، فهو على دراية بنفاد صبر السير آرثر. من المؤكد أن هذا يجعله متوترًا قليلاً.

"سأتنبأ بشيء واحد يا جورج. لن يكونوا واضحين بشأن تقرير اللجنة"

يتساءل جورج إذا ما زال آرثر ينتظر رأيه في المسألة السابقة. لا يَفترض ذلك. "لكنهم يجب أن ينشروه"

"آه، يجب وسيفعلون. لكني أعرف كيف تعمل الحكومات، خاصة حين تشعر بالحرج أو الخجل. سيخفون الأمر بطريقة أو بأخرى. وإن استطاعوا سيدفنونه"

"كيف يمكنهم فعل ذلك؟"

"حسنًا، كبداية يمكن أن ينشروه بعد ظهر الجمعة، عندما يغادر الناس لقضاء عطلة نهاية الأسبوع أو أثناء العطلة. هنا سنكتشف كل أنواع الحيل"

"لكن إن كان تقريرًا جيدًا، فسينعكس عليهم انعكاسًا جيدًا"

يقول آرثر بحزم: "لا يمكن أن يكون تقريرًا جيدًا. ليس من وجهة نظرهم على الأقل. إذا أكدوا براءتك، كما يجب، فهذا يعني أن وزارة الداخلية قد عرقلت العدالة على مدى السنوات الثلاث الماضية عن قصد على الرغم من جميع المعلومات المعروضة عليها. ومن المستبعد للغاية - أرغب في أن أقول من المستحيل - وَجدتْ أنك ما زلت مذنبًا -وهو الخيار الآخر الوحيد- ستكون فضيحة مدوية تجعل الوظائف على المحك"

"نعم، فهمت"

تحدثا على مدى نصف ساعة أو نحو ذلك إلى الآن، وآرثر في حيرة من عدم تطرّق جورج لتصريحه في القضية المرفوعة ضد رويدن شارب إطلاقًا. لا، أكثر من الحيرة، إنه الغضب الذي في طريقه إلى الإهانة. يخطر على باله أن يسأل جورج عن خطاب التسول الذي عرضه في غرين هول. لكن لا، سيلعب لعبة آنسون لأجله. ربما يفترض جورج أن الأمر متروك للمضيف لوضع جدول الأعمال. هذا ما يجب أن يكون عليه الأمر.

"إذن" يقول. "رويدن شارب"

"نعم"، أجاب جورج. "لم أكن أعرفه قط، كما قلت عندما راسلتك. لا بد أنه شقيقه عندما كنت صغيرًا في المدرسة، على الرغم من أنني لا أذكره أيضًا"

أومأ آرثر. هيا يا رجل، هذا ما يفكر فيه. أنا لم أبرئك فقط، لقد قدمتُ يدَيْ وقدميْ المجرم مقيدة للاعتقال والمحاكمة. أليس هذا، على الأقل، خبرًا جيدًا لك؟ لكنه على الرغم من كل مِزاجه، يتأنّى.

يقول جورج أخيرًا: "أنا مندهش. لماذا يرغب في أن يؤذيني؟"

لا يجيب آرثر. فقد قدّم إجاباته. يعتقد أن الوقت قد حان لجورج كي يبدأ العمل لصالحه.

"أنا على دراية بأنك تعتبر التحيز العرقي عاملاً في القضية سير آرثر. ولكن كما قلت بالفعل، لا يمكنني الموافقة. لا نعرف بعضنا شارب وأنا. لتكره شخصًا ما عليك أن تعرفه. ثم تجد سببًا لكرهه. وبعد ذلك ربما إذا لم تجد سببًا مُرضيًا، فأنت تلوم كرهك على بعض غرائبه، مثل لون بشرته. لكن كما أقول، لا يعرفني شارب. لقد أمعنت التفكير في بعض تصرفاتي التي ربما اعتبر أنها تجاهل أو أذى. ربما أنه على صلة بشخص قدمت له مشورة مهنية..." لا يعلق آرثر، فهو يظن أنه يمكنك فقط أن توضح ما هو واضح مرات عديدة. "وأنا لا أفهم لماذا يرغب في تشويه الماشية والخيول بهذه الطريقة أو لماذا قد يفعل أي شخَص. أليس كذلك سير آرثر؟"

"كما قلت في تصريحي" يجيب آرثر، الذي يزداد استياءه مع كل دقيقة، "أعتقد أنه تأثر بغرابة بالقمر الجديد"

"ربما"، يرد جورج. "لكن لم تقع كل الاعتداءات في المرحلة ذاتها من الدورة القمرية"

"هذا صحيح. ولكن معظمها وقعت في تلك المرحلة"

"نعم"

"لذا ألا يمكنك أن تستنتج بعقلانية أن تلك التشوهات الغريبة قد نُفّذت لكي تضلل عمدًا المحققين؟"

"نعم، ربما"

"سيد إدالجي، لا يبدو لي أني أقنعتك"

"سامحني سير آرثر، ليس الأمر أنني لست أو أرغب في أن أبدو، أقل من مُمتن للغاية لك، بأي شكل من الأشكال. ربما، أنا محامٍ"

"صحيح" قد يبدو هذا شديد القسوة على المرء. لكن هذا غريب: مثل أن يحضر أحدهم كيسًا من الذهب من أقصى أطراف الأرض، ويتلقى ردًا مثل: لكني بصراحة أحبّذ الفضة.

"الأداة" يقول جورج.

"مشرط الحصان المُقوّس"

"نعم؟"

"هل لي أن أسأل كيف تعرف ماهيته؟"

"في الواقع. بطريقتين. أولاً، طلبت من السيدة غريتوريكس أن ترسمه لي. عندها ميّز السيد وود بأنه مشرط للخيل. وثانيًا..." يترك آرثر فاصلاً زمنيًا من أجل التأثير، "إنه في حوزتي"

"هل هو معك؟"

أومأ آرثر برأسه. "يمكنني أن أطلعك عليه إن أردت" ينظر جورج نظرة قلق. "ليس هنا. لا تقلق، لم أحضره معي. إنه في أندرشو"

"هل لي أن أسأل كيف حصلت عليه؟"

يحكّ آرثر بإصبعه طرف أنفه. ثم يهدأ. "عثر عليه وود وهاري تشارلزورث"

"عثر؟"

كان من الواضح أنه يجب تأمين السلاح قبل أن يتمكن شارب من التخلص منه.

علم أنني في المنطقة وأقتفي أثره. حتى أنه بدأ في إرسال ذات النوع من الرسائل التي استخدمها لمراسلتك. وفي التهديد بنزع الأعضاء الحيوية. لو دَعَك فَصّيْ دماغه معًا، لدفن الأداة حيث لن يعثر عليها أحد لمئة عام. لذلك أوعزت إلى وود وهاري بالعثور عليها"

"فهمت" يشعر جورج بالشعور ذاته عندما يبدأ المُوكِّل في إخباره بسرية عن أمور لا يجب على أي مُوكِّل أن يخبر المحامي بها ولا حتى نفسه... لا سيما نفسه. "هل التقيت شارب؟"

"لا. أعتقد أن هذا واضح في تصريحي"

"نعم بالطبع. سامحني"

"لذا، ما لم يكن لديك أي اعتراض، فسأُدرِج تصريحي ضد شارب مع ما سأقدمه من تقارير أخرى إلى وزارة الداخلية"

"سير آرثر، أعجز عن التعبير عن الامتنان الذي أشعر به..."

"لا أريدك أن تفعل. لم أفعل ذلك من أجل امتنانك اللعين، الذي عبرتَ عنه بالفعل بما يكفي. لقد فعلت ذلك؛ لأنك بريء وأنا أشعر بالخجل من الطريقة التي تعمل بها الآلية القضائية والبيروقراطية في هذا البلد"

"ومع ذلك، لم يكن بإمكان أي شخص آخر أن يفعل ما فعلت. وفي وقت قصير نسبيًا أيضًا"

يعتقد آرثر أنه يقول عمل جيد بقدر ما يقول إنني أفسدت الأمر. لا، لا تكن سخيفًا... إنما هو أكثر اهتمامًا بتبرئة نفسه، والتأكد من ذلك أكثر من اهتمامه بمقاضاة شارب. وهو أمر مفهوم تمامًا. قم بإنهاء البند الأول قبل الانتقال إلى البند الثاني... ماذا تتوقع أيضًا من محامٍ حذر؟ بينما أهاجم على كل الجبهات في الوقت ذاته. إنه قلق فقط من أنني قد أغفل عما أقوم به الآن.

لكن في وقت لاحق، عندما افترقا وجلس آرثر في سيارة أجرة في طريقه إلى شقة جاين، بدأ يتساءل. ما هو القول المأثور؟ سيغفر الناس لك أي شيء إلا المساعدة التي تقدمها لهم؟ شيء من هذا القبيل. وربما هذا الرد مبالغ فيه في مثل هذه القضية. عند اجتهاده في البحث عن دريفوس، أدهشه أن العديد من أولئك الذين جاءوا لمساعدة الفرنسي، وعملوا معه

بدافع الشغف العميق، رأوا قضيته ليست كمعركة كبيرة فقط بين الحقيقة والأكاذيب، وبين العدل والظلم، ولكن كمسألة توضح بل وتحدد البلاد التي يعيشون فيها... أن العديد منهم لم يعجبهم على الإطلاق العقيد ألفريد دريفوس. لقد وجدوه إلى حد ما، يبدأ في سرد القصة ثم يندم على بدء السرد وبالتالي لا يكشف عن قسم القصة الأخير. إنه قاسي القلب ومستقيم ولا يُجاري جوهر الامتنان والتعاطف البشري أبدًا. كتب أحدهم أن الضحية لم تصل كالعادة لمستوى غموض علاقته الغرامية. أصبح هذا شيئًا فرنسيًا إلى حد ما، ولكن ليس بالضرورة أن ينتشر على نطاق واسع.

أو ربما غير عادل. عندما التقى جورج إدالجي لأول مرة، تأثر كيف احتمل هذا الشاب الضعيف والحساس ثلاث سنوات من الأشغال الشاقة. بلا شك لقد فشل في تقدير ما كلفه جورج. ربما الطريقة الوحيدة للنجاة هي التركيز تمامًا على تفاصيل قضيتك الدقيقة الثانوية، من الفجر حتى الغسق، وألا يشغل تفكيرك أي شيء آخر، من أجل ترتيب جميع الحقائق والبراهين ما أمكن ذلك عند الحاجة إليها. عندها فقط يمكنك النجاة من الظلم البشع والانقلاب البائس في عاداتك المعيشية. لذلك قد يُنتظر الكثير من جورج إدالجي كأن نَتوقّع منه أن يتصرف مثل رجل حر. حتى تم العفو عنه وتعويضه، لم يعد بإمكانه العودة إلى الرجل الذي عليه من قبل.

يعتقد آرثر أن عليه الاحتفاظ بحنقه على الآخرين. جورج شخص جيد، ورجل بسيط، لكن ليس هناك جدوى من إضفاء قدسية عليه. إن الرغبة في أن يقدم مزيدًا من الامتنان وأكثر مما يستطيع هو كالرغبة في أن يعلن كل قارئ يكتب مراجعة عن كل كتاب جديد لك أنه عمل عبقري. نعم، وفّر حنقك على الآخرين. كبداية احتوت رسالة كبير المفتشين آنسون هذا الصباح على مقطع جديد من الوقاحة: الرفض القاطع للاعتراف بأن التشوهات يمكن أن تكون ناجمة عن مشرط حصان مُقوّس. ولإنهاء ذلك الطرف الرافض، "ما رسمته مشرط عادي" من المؤكد لن يزعج آرثر جورج بهذا الاستفزاز الأخير.

بالإضافة إلى آنسون، شعر بالغضب من ويلي هورننغ. ألقى صهره نكتة جديدة، مررتها إليه كوني على الغداء. "ما هو القاسم المشترك بين آرثر كونان دويل وجورج إدالجي؟" لا تعرف الإجابة؟ تستسلم؟ "التصريحات" همهم آرثر في نفسه. التصريحات... يحسب أنه

ظريف؟ من الناحية الموضوعية، رأى آرثر أن بعضهم قد يجده كذلك بالفعل. لكن في الحقيقة... إلا إذا قد بدأ يفقد حس الدعابة. قالوا إن ذلك يحدث للناس في منتصف العمر. لا... هراء. والآن بدأ يشعر بالغيظ وهي سمة أخرى في منتصف العمر، بلا شك.

في هذه الأثناء، مكث جورج في الغرفة الشاغرة في فندق غراند بمعنويات منخفضة. فظًا بصورة مخزية وناكرًا لمعروف السير آرثر. وبعد شهور وشهور من العمل كرّسها للقضية. خجل جورج من نفسه. يجب أن يكتب ليعتذر. وبعد... وبعد... بدا من الخداع أن ينطق أكثر مما نطق. أو بالأحرى، لو صرّح بالمزيد، لاضطر أن يكون صريحًا.

قرأ بيان القضية ضد رويدن شارب الذي أرسله آرثر إلى وزارة الداخلية. قرأه عدة مرات، بطبيعة الحال. وفي كل مرة كان انطباعه صلدًا. استنتج -استنتاجه المهني المحتوم- أنه لن يدعم موقفه. علاوة على ذلك، حكمه -الذي لم يجرؤ مطلقًا على التصريح به خلال لقائهما- هو أن قضية السير آرثر ضد شارب تشبه بغرابة قضية شرطة ستافوردشاير ضده هو نفسه.

استندت في البداية وبالطريقة ذاتها بالضبط على الرسائل. قال السير ريجينالد هاردي في الختام في ستافورد أن الشخص الذي كتب الرسائل يجب أن يكون هو الشخص الذي شوّه الماشية أيضًا. كانت هذه العلاقة واضحة، وانتقدها السيد يلفيرتين وأولئك الذين تناولوا قضيته بالفعل. لكن هنا استخدم السير آرثر الرابط ذاته. كانت الرسائل نقطة انطلاقه، ومن خلالها تمكنوا من تتبّع خط يد رويدن شارب، ومجيئه وذهابه عند كل منعطف. جرّمت الرسائل شارب، تمامًا كما جرّمت جورج سابقًا. بينما استنتج الآن أن الرسائل كتبها شارب وشقيقه عن عمد لجرّ جورج إلى القضية، فلماذا لم يكتبهما شخص آخر لِزجّ شارب في القضية؟ إن أخطأوا في المرة الأولى، فلماذا يجب أن يكونوا على صواب في الثانية؟

وبالمثل، تميّزت جميع أدلة السير آرثر بأنها غير مباشرة، ومعظمها من الإشاعات. اعتدى أحدهم على امرأة وطفل ربما هو رويدن شارب، باستثناء أن اسمه لم يُثَر في ذلك الوقت ولم تتخذ الشرطة أي إجراء. أدلت السيدة غريتوريكس بتصريح قبل ثلاثة أعوام أو أكثر، ولم تجده مناسبًا لتمريره إلى أي شخص في ذلك التوقيت، لكنها طرحته الآن عند

ذكر اسم رويدن شارب. وتذكرت بعض الإشاعات -أو ثرثرة حبل غسيل- من زوجة شارب أيضًا. امتلك رويدن شارب سجلاً مدرسيًا سيئًا جدًا: ومع ذلك إذا كان هذا دليلاً كافيًا على النية الإجرامية، فسيمتلئ السجن. بدا من المفترض أن يتأثر رويدن شارب تأثرًا غريبًا بالقمر... باستثناء تلك المناسبات التي لم يتواجد فيها. علاوة على ذلك، عاش شارب في منزل من اليسير التسلل منه متخفيًا في الليل: تمامًا مثل بيت الكاهن، وعدد من البيوت الأخرى في المنطقة.

وإذا لم يكن ذلك كافيًا لإغراق قلب محام، يمكن العثور على الأسوأ، الأسوأ بكثير. الدليل الوحيد الراسخ للسير آرثر هو مشرط الحصان المقوّس، الذي استحوذ عليه الآن. وما هي بالضبط الأهمية القانونية لمثل هذا الشيء الذي حصل عليه؟ حرّض طرف ثالث هو السير آرثر طرفًا رابعًا هو السيد وود، على دخول ممتلكات طرف آخر، هو رويدن شارب، وسرقة غرض نقله بعد ذلك في منتصف الطريق عبر المملكة. اتضح أنه لم يسلمه إلى شرطة ستافوردشاير، لكن أمكنه تسليمه إلى مسؤول قانوني مناسب. محام قانوني، على سبيل المثال. في حين أن تصرفات السير آرثر أفسدت الأدلة. حتى الشرطة تيقنت أنه تحتّم عليها الحصول على مذكرة تفتيش أو إذن صريح لا لبس فيه من صاحب المنزل قبل دخول المبنى. اعترف جورج بأن القانون الجنائي ليس من اختصاصه، لكن يبدو له أن السير آرثر قد حرّض أحد مساعديه على ارتكاب السطو، وفي هذه العملية جعل من دليل بلا قيمة دليلاً حيويًا. وربما يصبح محظوظًا للنجاة من تهمة التآمر لارتكاب السرقة.

كان هذا ما قاد حماس السيد آرثر الفائض. فيما قرر جورج أن كل ذلك خطأ شيرلوك هولمز. تأثر السير آرثر تأثرًا كبيرًا فيما ابتكر. قدّم هولمز استنتاجه الرائع ثم سلّم الأشرار إلى السلطات مع ذنبهم المكتوب عليهم الذي لا لبس فيه. لكن هولمز لم يكن ملزمًا أبدًا بالوقوف في منصة الشهود، وتقديم افتراضاته، وحدسه، ونظرياته الخالصة إلى هباء منثور على مدى عدة ساعات من أمثال السيد ديستيرنل. ما فعله السير آرثر يعادل الذهاب إلى حقل حيث يمكن العثور على آثار أقدام المجرم، والدوْس على تلك الآثار في كل مكان مرتديًا عدة أزواج مختلفة من الأحذية. لقد دمّر الدعوى القضائية المرفوعة ضد رويدن شارب أثناء محاولته رفعها بالرغم من شغفه. وكل ذلك وقع نتيجة لخطأ السيد شيرلوك هولمز.

آرثر وجورج

بينما يمسك نسخة من تقرير لجنة غلادستون في يده، يطمئن آرثر لأنه فشل مرتين في الترشح للبرلمان. ومع هذا لا يشعر بالخجل المباشر. هكذا يفعلون الأمور، ويدفنون الأخبار السيئة. لقد أصدروا التقرير دون أدنى تحذير يوم الجمعة قبل عطلة عيد الخمسين (العنصرة). من يريد أن يقرأ عن إخفاق العدالة أثناء ركوبه في القطار إلى شاطئ البحر؟ ومن سيكون متأهبًا لتقديم تعليق مستنير؟ من سيهتم بحلول الوقت الذي يمر فيه أحد العنصرة والاثنين عطلة ويبدأ العمل مرة أخرى؟ قضية إدالجي... ألم تتم تسويتها قبل أشهر؟

بينما يمسك جورج نسخة في يده. ينظر في صفحة العنوان:

وثائق

تتعلق

بقضية جورج إدالجي

قُدمت إلى مجلسي البرلمان

بأمر من جلالة الملك

ثم في الأسفل:

لندن: طباعة شركة آير آند سبوتيسوود للمكتب الخاص

لفخامة صاحب الجلالة الملك،

طابعات التاج الملكي [Cd. 3503.] السعر بنس واحد ونصف. 1907.

يبدو وقع الأمر كبيرًا، لكن يظهر أن السعر يثبت الرغبة في التخلي عنها. بنس واحد ونصف بنس لمعرفة حقيقة قضيته وحياته... يفتح الكتيب بحذر. أربع صفحات من التقرير، ثم ملحقين موجزين. بنس واحد ونصف. أنفاسه تتلاحق. حياته تتلخّص مرة أخرى. وهذه المرة ليس لقراء كانوك تشايس كورير أو ذي برمنغهام ديلي أو برمنغهام ديلي بوست أو ديلي تلغراف أو ذي تايمز، ولكن لكل من مجلسيْ البرلمان وجلالة الملك...

أخذ آرثر التقرير غير المقروء إلى شقة جاين. هذا هو الصواب فحسب. مثلما يُعرض التقرير نفسه على البرلمان، فإن عواقب مشروعه يجب أن تُعرض أمامها. لقد اهتمت بالمسألة وتجاوزت توقعاته بكثير. في الحقيقة، لم يمتلك توقعات على الإطلاق. لكنها وقفت إلى جانبه دائمًا، إن لم يكن حرفيًّا فمجازًا. لذا لا بدّ أن تكون هنا في الختام.

يأخذ جورج كوبًا من الماء ويجلس على أريكة. عادت والدته إلى ويرلي وهو وحده في غرفة من غرف الآنسة غود المفروشة، وعنوانه مُسجّل في سكوتلاند يارد. يضع دفترًا على ذراع الأريكة؛ لأنه لا يريد وضع علامات على التقرير نفسه. ربما لم يُشفَ بعد من اللوائح التي تحكم استخدام كتب المكتبة في لويس وبورتلاند. بينما يقف آرثر مسندًا ظهره إلى الموقد، تخيط جاين، ورأسها بنصف جهوزيته بالفعل للمقتطفات التي سيقرأها آرثر. تتساءل عما إذا توجّب عليهما فعل المزيد في هذا اليوم من أجل جورج إدالجي، ربما دعوته إلى كأس من الشمبانيا، إلا أنه لا يشرب، مع ذلك سمعا أنه من المقرر إصدار التقرير صباح هذا اليوم فقط...

وقد حوكم جورج إدالجي بتهمة التسبب بجروح خطيرة عن عمد...

يقول آرثر: "هاه! بالكاد نصف فقرة. استمعي إلى هذا. أفاد مساعد رئيس الجلسات الفصلية، الذي ترأس المحاكمة، عند التشاور معه بشأن الإدانة، اعتقد هو وزملاؤه بشدة أن الإدانة صحيحة. هواة. هم بمرتبة هواة. لا محاميَ بينهم. أشعر أحيانًا يا عزيزتي جاين أن البلاد بأكملها يديرها هواة. استمعي لهم. هذه الظروف تجعلنا نتردد بجدية شديدة قبل التعبير عن الاعتراض على الإدانة التي تم التوصل إليها، والموافقة عليها"

لم يكن جورج معنيًا كثيرًا بهذه الافتتاحية. إنه كمحامٍ لديه الخبرة الكافية ليشعر بأي كان قبل أن يحدث. وهنا لا يتعلق الأمر... بواحد، بل بثلاثة منهم. إلا أن هناك تعاطفًا

كبيرًا عَمّ حي ويرلي في ذلك الوقت. ومع ذلك، كانت الشرطة في حيرة من أمرها، وحريصة للغاية بطبيعة الحال على توقيف شخص ما، ورغم ذلك فقد شرعت وواصلت الشرطة في التحقيق بغرض العثور على أدلة ضد إدالجي. قيل هذا صراحة والآن رسميًا تمامًا. لقد تحيزت الشرطة ضده منذ البداية.

قرأ كلٌّ من آرثر وجورج: إن القضية هي واحدة من الصعوبات المتأصلة الكبيرة أيضًا، لأنه لا وجود لرأي محتمل يمكن أخذه في الاعتبار، ولا ينطوي على احتمالات متطرفة. يعتقد آرثر أنه كلام فارغ. ما هي الاحتمالات المتطرفة في كون جورج بريئًا؟ يعتقد جورج أن هذا مجرد تشكيل متقن للكلمات. يقولون إنه لا يوجد حل وسط. هذا صحيح، إما لأني بريء فعلاً أو مذنب جدًا؛ ولوجود احتمالات متطرفة في قضية الادعاء، لذا يجب رفضها وستُرفض.

أوجه القصور في المحاكمة... تغيرت مرافعة الادعاء في اعتبارين جوهريين مع المضي قُدُمًا. بالتأكيد. أولاً، في مسألة الوقت المفترض أن الجريمة قد ارتكبت فيه. أدلة الشرطة متباينة بل متناقضة. وتوجد تناقضات مماثلة حول موس الحلاقة... وحتى آثار الأقدام. نعتقد أن قيمة آثار الأقدام كدليل لا تمثل شيئًا عمليًا. موس الحلاقة كسلاح. ليس من السهل التوافق مع أدلة الجراح البيطري. الدم ليس طريًا. الشعر. الدكتور باتر شاهد فوق الشبهات.

يعتقد جورج أن الدكتور باتر كان حجر عثرة دائمًا. لكن هذا عادل جدًا إلى الآن. بعد ذلك الرسائل. رسائل غريتوريكس هي المفتاح، وقد فحصتها هيئة المحلفين طويلاً. كما تدارسوا قرار المحكمة لفترة طويلة، ونعتقد أنهم يجب أن يأخذوا في الاعتبار أن إدالجي كاتب تلك الرسائل. لقد تفحصنا بأنفسنا الرسائل بعناية، وقارناها بخط إدالجي المعترف به، ولسنا على استعداد للاعتراض على النتيجة التي توصلت إليها هيئة المحلفين.

يشعر جورج أنه على وشك أن يفقد وعيه. ما يخفف عنه فقط أن والديه ليسا معه. يعيد قراءة الكلمات مرة أخرى. لسنا على استعداد للاعتراض. يعتقدون أنه كتب الرسائل. تعلن اللجنة للعالم أنه كتب رسائل غريتوريكس. يأخذ رشفة من الماء. يضع التقرير على ركبته كي يستعيد رباطة جأشه.

في هذه الأثناء، يتابع آرثر وغضبه يتصاعد. ومع ذلك، فإن حقيقة أن إدالجي كتب الرسائل لا تعني أنه ارتكب هذه الاعتداءات أيضًا. هتف: "أوه، هذا سخاء كبير منهم" إنها ليست رسائل رجل مذنب يحاول إلقاء اللوم على الآخرين. كيف يمكن أن تكون باسم كل القوى الدنيوية والسماوية، يدمدم آرثر مع نفسه؛ لأن الرجل الذي يلومونه هو جورج نفسه. نعتقد أنه من المحتمل جدًا أن تكون خطابات رجل بريء، لكنه رجل عنيد وخبيث، ينغمس في جزءٍ من الأذى الدنيء، ويتظاهر بمعرفة أمر ما قد لا يعلم شيئًا عنه، من أجل إرباك الشرطة، ومضاعفة الصعوبات في تحقيق صعب للغاية.

"هراء" يصرخ آرثر. "هـ.. ـــرا.. ء"

"آرثر"

"هراء، هراء" يكرر. "لم أقابل طوال حياتي كاملة رجلًا أكثر رزانة واستقامة من جورج إدالجي. إنه الأذى الدنيء... ألم يقرأ الحمقى كل تلك الشهادات التي قدمها يلفيرتين عن طبيعته؟ رجل عنيد وخبيث. هل هذه، هذه... قصة" -يخبط التقرير على رفّ الموقد- "محمية بموجب امتياز برلماني؟ إذا لم يكن الأمر كذلك، فأحضرها في محكمة الطعن. سيكون لدي الكثير منها هناك. سأُموّلها بنفسي"

يشعر جورج أنه يهذي. وينتابه شعور كما لو أن العالم قد جن جنونه. كأنه عاد إلى بورتلاند واستحم. أمروه بخلع قميصه، ورفع رجليه وفتح فمه ورفعوا لسانه و... ما هذا د462؟ ما هذا الذي تخفيه تحت لسانك؟ أعتقد أنها عتلة. ألا تظن أن هذه عتلة يخفيها السجين تحت لسانه أيها الضابط؟ من الأفضل إبلاغ مأمور السجن بذلك. إنك في ورطة خطيرة يا د462، يجدر بي أن أحذرك. ومع كل حديثك عن كونك آخر سجين في الحبس قد يرغب في الفرار. ومع أجوائك المقدسة وكتب مكتبك. أصبح لك رقم، جورج إدالجي هو د462.

توقف مرة أخرى. يتابع آرثر. أما الخلل الثاني في مرافعة الادعاء فيكمن في ما إذا كان من المفترض أن يكون إدالجي قد تصرف بمفرده أم لا. غيروا رأيهم لأن الأدلة جاءت على هواهم. حسنًا، على الأقل، لا يمكن أن يفوتك غباء هؤلاء المُفوّضين رسميًا. السؤال الأكثر أهمية عن قوة الإبصار. وقد ركزوا على هذا الأمر في بعض الرسائل الموجهة إلى وزارة

الداخلية. نعم بالفعل: الضغط الذي مارسه كبار رجال شارع هارلي وميدان مانشستر. لقد درسنا تقرير الخبير المرموق الذي فحص إدالجي في السجن ورأي طبيب العيون الذي عُرض علينا بدقة، والمواد التي جُمعت الآن تبدو لنا غير كافية لإثبات الاستحالة المزعومة.

"أيها الحمقى! غير كافية على الإطلاق. أيها المغفّلون والبُلهاء!"

تبقى جاين مُطأطئة رأسها. تتذكر نقطة بداية انطلاق حملة آرثر: السبب الذي دفعه لعدم الاكتفاء بمجرد الظن أن جورج إدالجي بريء فقط، بل إنه أيقن أنه بريء. كيف يمكن النظر إلى قلة احترام الآخرين، عند تعاطيهم باستخفاف مع مهمة آرثر وحكمه!

لكنه يتابع القراءة ويمضي متقدمًا وكأنه يتجاهل هذه النقطة. "في رأينا، جاءت الإدانة غير مرضية و... لا يمكننا أن نتفق مع حكم هيئة المحلفين. ها!"

"هذا يعني أنك ربحت يا آرثر. لقد برّأوا اسمه"

"ها!" لا يعترف آرثر حتى بالمداخلة. "الآن اسْتَمِعي لهذا. وجهة نظرنا في القضية تعني أنه لم يكن ما يبرر تدخل وزارة الداخلية في السابق. إنهم مُراؤون. هزيمة نكراء بالجملة لكل من تاجر بالبراءة"

"ماذا يعني ذلك يا آرثر؟"

"هذا يعني، يا عزيزتي جاين، ألا أحد قد ارتكب أي خطأ. هذا يعني أن الحل البريطاني العظيم لكل شيء قد طُبّق. لقد حدث شيء فظيع، لكن لم يرتكب أي شخص أي خطأ. ينبغي أن يكون منصوصًا عليه بأثر رجعي في وثيقة الحقوق. لا شيء مما حدث خطأ أي شخص، لا سيما من طرفنا"

"لكنهم أقرّوا أن قرار المحكمة كان خاطئًا"

"لقد ذكروا أن جورج كان بريئًا، لكن الحقيقة أنه عوقب بثلاث سنوات من الأشغال الشاقة ليست خِطأ أحد. مرارًا وتكرارًا، نوّهوا لوزارة الداخلية بوقوع خَلل ومرة تلو الأخرى رفضت الوزارة إعادة النظر. لم يُذنِب أحد. مرحى، مرحى"

"آرثر، اهدأ قليلًا، من فضلك. ارتشِف القليل من البراندي والصودا أو أي شيء. يمكنك حتى أن تُدخّن غليونك إذا رغبت في ذلك"

"ليس أمام سيدة أبدًا"

"حسنًا، سأكون سعيدة بهذا الاستثناء. لكن اهدأ قليلاً. ثم دعنا نرى كيف يبررون مثل هذا التصريح"

لكن جورج بلغه أولاً. اقتراحات... حق العفو... منح عفو عام... من ناحية، نعتقد أن الإدانة ما وجب أن تحدث للأسباب التي ذكرناها... الدمار التام لوضعه المهني وإمكاناته... إشراف الشرطة... من الصعب إن لم يكن من المستحيل عليه استعادة أي شيء مثل الوظيفة التي فقدها. يتوقف جورج في هذه اللحظة، ويشرب الماء. إنه يعلم أن وجهة نظر تتبعها دائمًا وجهة نظر أخرى، وهو غير متأكد من قدرته على مواجهة ما قد تكون عليه وجهة النظر تلك. "وجهة نظر أخرى،" يصرخ آرثر. "يا إلهي، ستجد وزارة الداخلية العديد من الجوانب مثل هذا الإله الهندي، ما اسمه..."

"شيفا، عزيزي"

"شيفا، عندما يُعْمِلون البحث للعثور على سبب ألّا شيء مما حدث خطأ أحدهم. من وجهة نظر أخرى، نظراً لعدم قدرتنا على الاختلاف مع ما نعتبره حكم هيئة المحلفين، أن إدالجي هو كاتب الرسائل في عام ألف وتسعمئة وثلاثة، لا يسعنا إلا أن نرى ذلك، على افتراض أنه رجل بريء، إلى حد ما جلب المشكلات لنفسه. لا، لا، لا، لا، لا، لا"

"آرثر، من فضلك. سيعتقد الناس أننا نتجادل"

"أنا آسف. إنه فقط... آآآه، الملحق الأول، نعم، نعم، الالتماسات، أسباب عدم قيام وزارة الداخلية بأي شيء. الملحق الثاني، دعينا نرى كيف يشكر حكيم وزارة الداخلية اللجنة. تقرير دقيق وشامل. شامل! أربع صفحات كاملة، بلا أي ذكر لآنسون أو رويدن شارب! ثرثرة... جلب المشاكل لنفسه.... ثرثرة ثرثرة... قبول الاستنتاجات... ومع ذلك... حالة استثنائية... سأقول ذلك... فقدان الأهلية الدائم... أوه أرى أن أكثر ما يخشونه هو مهنة المحاماة، وكلهم يعلمون أن هذا هو أعظم إخفاق للعدالة منذ، منذ... نعم، لذلك إذا سمحوا له بالعودة... ثرثرة، ثرثرة... اعتبارات كاملة وأكثر قلقًا... عفو عام"

"عفو عام"، تكرر جاين، باحثة عن شيء ما. لذا فالنصر لهم.

يقرأ جورج: "عفو عام"، مدركًا أن هناك جملة واحدة متبقية من التقرير.

يكرر آرثر: "عفو عام" قرأ هو وجورج الجملة الأخيرة معًا. "لكني توصلت أيضًا إلى

استنتاج مفاده أن القضية ليست من النوع الذي يمكن فيه تقديم أي تعويض"

يُلقي جورج التقرير، ويضع رأسه بين يديه. يقرأ آرثر بنبرة جنائزية تهكمية كلماته الأخيرة، "أنا، تقبلوا فائق احترامي، إتش. جاي. غلادستون"

"عزيزي آرثر، كنتَ إلى حد ما تُعجّل الأمور حتى تصل إلى النهاية". لم تره بمثل هذه الحالة المزاجية من قبل وهو ما تجده مثيرًا للقلق. لم ترغب في أن تنقلب ضدها مثل هذه المشاعر.

"عليهم نصب لافتات جديدة في وزارة الداخلية. بدلاً من كلمتي دخول وخروج، يجب أن يقرؤوا وجهتي النظر"

"آرثر، هل يمكنك أن تكون أقل غموضًا، وتقول لي فقط ما يعنيه هذا بالضبط"

"هذا يعني، هذا يعني يا عزيزتي جاين، أن وزارة الداخلية هذه وهذه الحكومة والبلاد هذه، وإنجلترا هذه كشفت لنا مفهومًا قانونيًا جديدًا. في الماضي، كنتَ بريئًا أو مذنبًا. إذا لم تكن بريئًا، فأنت مذنب، وإذا لم تكن مذنبًا، فأنت بريء. نظام بسيط بما يكفي، تمت تجربته واختباره لقرون عِدّة، أدركه القضاة وهيئة المحلفين والجمهور عمومًا. اعتبارًا من اليوم، لدينا مفهوم جديد في القانون الإنجليزي... مذنب وبريء. جورج إدالجي رائد في هذا المجال. الرجل الوحيد الذي حصل على عفو عام عن جريمة لم يرتكبها أبدًا، ويتم إبلاغه في الوقت نفسه أنه من الصواب تمامًا قضاء ثلاث سنوات من الأشغال الشاقة"

"إذن هل هي تسوية؟"

"تسوية! لا، إنه نفاق. إنه أفضل ما تفعله هذه البلاد. لقد قضى البيروقراطيون والسياسيون قرونًا في إتقانها. يطلق عليه تقرير حكومي. يطلق عليه ثرثرة، يطلق عليه..."

"آرثر، أشعِل غليونك"

"أبدًا، ذات مرة أمسكت أحدهم يُدخّن أمام سيدة. سحبت الغليون من فمه، كسرته إلى جزئين ورميته عند قدميه"

"لكن السيد إدالجي سيكون قادرًا على العودة إلى عمله كمحامٍ"

"سيعود. وكل عميل محتمل يقرأ الصحيفة، سيعتقد أنه يستشير رجلًا مجنونًا بما يكفي لكتابة رسائل مجهولة تدينه على جريمة شنيعة يعترف بها حتى وزير الداخلية وابن

عم آنسون المبارك الذي لا علاقة له على الإطلاق"

"لكنه ربما سيُنسى. لقد قلت إنهم يدفنون الأخبار السيئة عبر إخراجها في عيد العنصرة. لذا ربما يذكر الناس أن السيد إدالجي حصل على عفو عام فقط"

"إلا إذا تدخلتُ في الأمر"

"هل تعني أنك ستواصل؟"

"إنهم لم يروا دعمي بعد. لن أسمح لهم أن يفلتوا من هذا. أعطيت وعدًا لجورج وأعطيتكِ وعدًا"

"لا، آرثر. لقد ذكرتَ ما كنت ستفعله وما فعلته، وحصلت على عفو عام له، ويمكن لجورج العودة إلى العمل، وهذا ما بيّنت والدته أنه كل ما يرغب فيه. لقد حققت نجاحًا كبيرًا يا آرثر"

"جاين، أرجوك توقفي عن كونك منطقية معي"

"هل تريد مني أن أكون غير منطقية معك؟"

"أود تقديم القرابين للرّب لتجنب ذلك"

"ومن وجهة النظر الأخرى؟" تسأل جاين بإثارة.

يقول آرثر: "معك. لا توجد وجهة نظر أخرى. وجهة نظر واحدة فقط. إنها بسيطة. إنه الشيء الوحيد في حياتي الذي يبدو بسيطًا على الإطلاق. أخيرًا وبعد طول انتظار"

لا أحد إلى جوار جورج يواسيه، ولا يُكدّر صفوه، ولا يوقف الكلمات المتدحرجة ذهابًا وإيابًا في جمجمته. ينغمس رجل خبيث وعنيد في جزء من الأذى الشرير، يتظاهر بمعرفة شيء ربما ليس لديه أدنى فكرة عنه، من أجل إرباك الشرطة، ومضاعفة العقبات التي أمامها في تحقيق صعب للغاية. عُرِض الحكم على مجلسيْ البرلمان وجلالة الملك.

في ذلك المساء، سأل ممثل الصحافة جورج عن رده على التقرير. فأعلن عن استيائه الشديد من النتيجة. كما وصفه بأنه مجرد خطوة في الاتجاه الصحيح، لكن ما زعموه عن أنه كتب رسائل غريتوريكس ما هو إلا افتراء... إهانة... تلميح لا أساس له، ولن أستريح حتى يتم سحبه وتقديم اعتذار. علاوة على ذلك، لم تُقدّم أي تعويضات. اعترفوا بخطأ إدانتهم لي، لذا يجب أن أُعوَّض عن الأشغال الشاقة على مدى الثلاث سنوات التي عانيت فيها. لن أدع

الأمور كما هي. أُريد التعويض.

كتب آرثر إلى ديلي تلغراف، واصفًا موقف اللجنة بأنه غير منطقي ولا يمكن تبريره. سأل عما إذا أمكن تخيّل أي شيء أكثر وضاعة في اللغة الإنجليزية من العفو العام دون تعويض. عرض أن يثبت في غضون نصف ساعة أن جورج إدالجي لا يمكنه كتابة الرسائل المجهولة. واقترح أنه ربما يجب أن تُفرَض تعويضات بحصص متساوية بين شرطة ستافوردشاير ومحكمة الجلسات الفصلية ووزارة الداخلية؛ نظراً لأن هذه الأطراف الثلاثة بينها رجال مذنبون تسببوا في هذا الإخفاق التام لأنه ليس من العدل أن يطلب من الجهة المُكلّفة دفع الضرائب تمويل تعويض جورج إدالجي وحدها.

كتب كاهن غريت ويلي إلى صحيفة ديلي تلغراف أيضًا، مشيرًا إلى أن هيئة المحلفين نفسها لم تصدر أي قرار بشأن كتابة الرسائل، وأن أي استنتاجات زائفة خطأ السير ريجينالد هاردي، الذي اتصف بأنه متهور وغير منطقي بما يكفي لإخبار هيئة المحلفين بأن الذي كتب الرسائل ارتكب الجريمة أيضًا. وأطلق محامي المرافعات المتميز الذي حضر المحاكمة على تلخيص رئيس الجلسة وَصْف العرض المؤسف. كما وصف الكاهن معاملة كل من الشرطة ووزارة الداخلية لابنه، بأنها الأكثر صدمة وجُبْنًا. وأما سلوك واستنتاجات وزير الداخلية ولجنته: قد تكون هذه دبلوماسية أو حِنكة سياسية، لكن ليس هذا ما سيفعلونه لو كان ابنًا لإقطاعي إنجليزي أو نبيل إنجليزي.

استاء كبير المفتشين آنسون من التقرير أيضًا. أجرى مقابلة مع صحيفة سنتينيل ستافوردشاير، ردًا على الانتقادات المرتبطة بشرف الشرطة. لم تفهم اللجنة قضية الشرطة، لدى تحديد ما يسمى تناقضات الأدلة. كما أنه ليس صائبًا أن الشرطة بدأت في التيقن من إدانة إدالجي أيضًا، ثم سعت للحصول على أدلة لدعم هذا الرأي. بل على العكس، لم يُشتبه في إدالجي إلا بعد بضعة أشهر من بدء الاعتداءات. وأشير إلى أن العديد من الأشخاص متورطون في الجرائم، لكن استُبعدوا تدريجيًا. أُثيرت الشكوك في النهاية ضد إدالجي بسبب الحديث الشائع عن عاداته في التجول في الخارج في وقت متأخر من الليل.

وردت هذه المقابلة في ديلي تلغراف، وكتب جورج عنها في دحضه. لقد اتّضح الأساس الضعيف الذي بُنيت عليه الدعوى المرفوعة ضده الآن. لحقيقة، لم يحدث أبدًا مرة واحدة

أن "هام على وجهه في الخارج"، ولم يرجع متأخرًا من برمنغهام أو من بعض الترفيه المسائي في المنطقة، وفي حوالى التاسعة والنصف مساء على الدوام. لم يكن هناك شخص في المنطقة أقل احتمالاً منه للخروج ليلاً، وكما يظهر أن الشرطة أخذت على محمل الجد شيئاً يهدف إلى المزاح. علاوة على ذلك، لو أنه معتاد على الخروج في وقت متأخر، لأصبحت هذه الحقيقة معروفة لدى مجموعة كبيرة من الشرطة التي تقوم بدوريات في المنطقة.

اتسمت عطلة العنصرة بأنها باردة وغير موسمية. لقي ابن مليونير مصرعه في حادث سباق سيارات مُفجع أثناء قيادته سيارة بسرعة مئتي حصان. وصل الأمراء الأجانب إلى مدريد من أجل التعميد الملكي. أثار مزارعو النبيذ أعمال شغب في بيزيبيه، حيث نهب وحرق الفلاحون مبنى البلدية. لكن لا شيء -لم يقع هناك أي شيء منذ أعوام- عن الآنسة هيكمان الطبيبة.

عرض السير آرثر تمويل أي دعوى تشهير رغب جورج في رفعها ضد كبير المفتشين آنسون، ووزير الداخلية، أو أعضاء لجنة غلادستون، إما بشكل منفصل أو مشترك. بينما كرّر جورج عبارات الامتنان، رفض بأدب. لقد تحقق هذا الإنصاف الذي حصل عليه للتو بفضل التزام السير آرثر وعمله الجاد ومنطقه وحبه لإثارة الضجة. ومع ذلك، اعتقد جورج أن الضجة ليست الحل الأفضل لكل شيء. لا تنتج الحرارة الضوء دائمًا، ولا تنتج الضوضاء الحركة دائمًا. دعت صحيفة ديلي تلغراف إلى إجراء تحقيق عام في جميع جوانب القضية، هذا من وجهة نظر جورج، ما وجب عليهم الضغط عليه الآن. كما أطلقت الصحيفة مناشدة مادية نيابة عنه.

خلال ذلك، واصل آرثر حملته. لم يقبل أحد عرضه ليثبت خلال نصف ساعة أن جورج إدالجي لم يكن بإمكانه كتابة الرسائل... ولا حتى غلادستون، الذي أكد علنًا نقيض ذلك. لذا عرض آرثر الأمر على غلادستون واللجنة وآنسون وغورين وجميع قراء صحيفة ديلي تلغراف. خَصَّص ثلاث مقالات مطولة لهذه المسألة، مع رسم وافٍ ثلاثي الأبعاد. وبيّن أنه من الواضح أن الرسائل كتبها شخص من طبقة مختلفة تمامًا عن إدالجي، أو شخص فظ بذيء اللسان أو وغد أو شخص شرير أو شخص بلا مبادئ ولا أخلاق. كما أعلن أن لجنة غلادستون قد طعنته شخصيًا، بالنظر إلى أن تقريرهم لم تُشِر كلمة فيه تدفعني إلى

التفكير في أن دليلي أخذوه بعين الاعتبار. وفيما يتعلق ببصر إدالجي، استشهدت اللجنة برأي قدّمه طبيب سجن لم تذكر اسمه في حين تجاهلت آراء خمسة عشر خبيرًا، بعضهم من أوائل أطباء العيون في البلاد. وأضاف أعضاء اللجنة أنفسهم إلى ذلك الخط الطويل فقط من رجال الشرطة والمسؤولين والسياسيين الذين يدينون باعتذار شديد إلى هذا الرجل الذي أُسيء استغلاله، لكن إلى أن يُقدَّم مثل هذا الاعتذار والتعويض، لن تؤدي أي تطورات متبادلة من التلطيخ المجاني إلى تنظيفها.

طوال شهري مايو ويونيو هناك أسئلة مستمرة في البرلمان. سأل السير غيلبرت باركر ما إذا وُجِدت أي سابقة لتعويض لم تُدفع لشخص أدين بالخطأ ومن ثم مُنح عفوًا عامًا. السيد غلادستون: "لا أعرف أي حالة مماثلة". سأل السيد آشلي عما إذا اعتبر وزير الداخلية جورج إدالجي بريئًا. السيد غلادستون: "لا أعتقد أن هذا سؤال مناسب لطرحه علي. إنها مسألة رأي" سأل السيد بايك بيز عن نمط الشخصية التي ولدت لإدالجي في السجن. السيد غلادستون: "عُرِفت شخصيته في السجن بأنها جيدة" طلب السيد ميتشل تومبسون من وزير الداخلية إجراء تحقيق جديد للنظر في مسألة خط اليد. رفض السيد غلادستون. طلب النقيب كريغ الحصول على أي ملحوظات دُوّنت خلال المحاكمة واستخدمتها المحكمة لطرحها أمام البرلمان. رفض السيد غلادستون. سأل السيد إف. إي. سميث عما إذا كانت هذه هي المسألة فإن السيد إدالجي كان سيحصل على تعويض لولا الشك في تأليفه للرسائل. السيد غلادستون: "أخشى أنني غير قادر على الإجابة على هذا السؤال" سأل السيد آشلي لماذا أُفرج عن هذا الرجل إذا لم تثبت براءته بالكامل. السيد غلادستون: "هذا سؤال لا يعنيني فعلاً. أُفرِج عنه بقرار ممن سبقني في المنصب، مع ذلك أوافق عليه" طلب السيد هارمود بانر تفاصيل ارتكاب اعتداءات مماثلة على المَزارِع أثناء وجود جورج إدالجي في السجن. ردّ السيد غلادستون بأن ثلاث اعتداءات وقعت جوار غريت ويرلي، في سبتمبر ألف وتسعمئة وثلاثة وفي نوفمبر ألف وتسعمئة وثلاثة وفي مارس ألف وتسعمئة وأربعة. سأل السيد إف. إي. سميث عن عدد الحالات التي دُفعت فيها تعويضات تبين أنها غير مُرضية على مدى الأعوام العشرين الماضية بعد ثبوت الإدانات، وعن المبالغ المعنية. رد السيد غلادستون بأنها اثنتي عشرة حالة في الأعوام العشرين الماضية، اثنتان تنطويان على

مبالغ كبيرة: "في إحدى الحالات دفع مبلغ خمسة آلاف جنيه إسترليني، وفي الحالة الأخرى اقتسم مبلغ ألف وستمئة جنيه إسترليني شخصان. في القضايا العشر المتبقية، تفاوتت التعويضات المدفوعة من جنيه إسترليني واحد إلى أربعين جنيهًا إسترلينيًا" سأل السيد بايك بيز إذا صدر العفو العام في جميع هذه الحالات. السيد غلادستون: "لست متأكدًا"، طلب النقيب فابر أن تطبع جميع تقارير الشرطة والاتصالات الموجهة إلى وزارة الداخلية حول موضوع قضية إدالجي. رفض السيد غلادستون. وأخيرًا، في السابع والعشرين من يونيو، سأل السيد فنسنت كينيدي: "هل يُعامل إدالجي على هذا النحو لأنه ليس إنجليزيًا؟" على حد تعبير هانسارد: "[لم نتلق أي إجابة]"

استمر آرثر في تلقي الرسائل مجهولة الهوية والبطاقات المسيئة، وُضِعت الرسائل في مظاريف صفراء خشنة ملصق عليها طابع بريدي. ختمت بختم بريد شمال غرب لندن، لكن الطيّات في الوثائق أشارت على أنها ربما حُملت بمُغلّف، أو ربما في جيب شخص ما... مثل حرس السكة الحديد، على سبيل المثال... من ميدلاند إلى لندن لتوزيعها. عَرض مكافأة قدرها عشرون جنيهًا إسترلينيًا لأي شخص ساعد في اقتفاء أثرها إلى أن قادته إلى كاتبها.

طلب آرثر إجراء مزيد من المقابلات مع وزير الداخلية ووكيله السيد بلاكويل. وصف أنه عومل بكياسة في ديلي تلغراف ولكن مع برود في التعاطف أيضًا. علاوة على ذلك، اتخذوا جانبًا واضحًا مع تشكيك رسمي في مصداقيته وإشعاره بجو عدائي يُحيط كل ما حوله. لم يكن هناك ارتفاع في درجة الحرارة، ولا تغير في الجو، أعرب المسؤولون عن أسفهم من الآن فصاعدًا؛ لأن مهمات الدولة ستشغلهم للغاية عن منح السير آرثر كونان دويل مزيدًا من وقتهم بعد الآن.

صوتت جمعية القانون المسجلة لإعادة إدراج اسم جورج إدالجي في قائمتها.

موّلت ديلي تلغراف محتويات صندوق الاستئناف، التي بلغت نحو ثلاثمئة جنيه إسترليني.

بعد ذلك، بلا أحداث جديدة أو نزاعات أو دعاوى تشهير أو إجراءات حكومية أو أسئلة إضافية في البرلمان، أو تحقيق عام أو اعتذار أو تعويض، هناك القليل لتكتب

الصحافة عنه.

تقول جاين لآرثر: "هناك شيء آخر يمكننا القيام به من أجل صديقك"

"ما هو يا عزيزتي؟"

"يمكننا دعوته لحفل زفافنا"

ارتبك آرثر نوعًا ما من هذا الاقتراح. "لكني أظن أننا قررنا أن ندعو عائلتينا وأقرب أصدقائنا فقط؟"

"إنه حفل الزفاف نفسه يا آرثر. وبعد ذلك هناك حفل الاستقبال"

ينظر الإنجليزي غير الرسمي إلى خطيبته غير الرسمية. "هل سبق لأحد أن أخبرك أنه بصرف النظر عن كونك أكثر النساء فتنة، فأنت حكيمة جدًا، وأكثر قدرة على رؤية ما هو صائب وضروري من الأحمق المسكين الذي ستتخذينه زوجًا؟"

"سأكون إلى جانبك آرثر، إلى جانبك دائمًا. وبالتالي سننظر في الاتجاه نفسه. أيًا كان هذا الاتجاه"

جورج وآرثر

مع بدء الصيف، تحولت الأحاديث إلى لعبة الكريكت أو الأزمة الهندية. إذ لم تعد سكوتلاند يارد بحاجة لتأكيد عنوان جورج شهريًا عن طريق البريد المسجل، فيما أكتفت وزارة الداخلية بالصمت، حتى السيد يلفيرتين الذي لا يعرف الكلل فشل في التوصل إلى حيلة جديدة، أُبلغ جورج أن مكتبًا ينتظره في 2 شارع ماكلينبيرغ حتى يحين الوقت الذي يجد فيه مقره الخاص، فقد تراجعت اتصالات السير آرثر لتقتصر على تلخيص ملحوظات تشجيع أو غضب، في حين عاد والده كليًا إلى أعمال الأبرشية، وارتأت والدته أنه من الآمن ترك ابنها البكر وابنتها الوحيدة في رعاية بعضهما. فيما فشل كبير المفتشين المُبجَّل جورج آنسون في الإعلان عن أي استئناف للتحقيق في اعتداءات غريت ويرلي على الرغم من عدم وجود مؤلف رسمي الآن، تعلم جورج قراءة الصحيفة مرة أخرى دون أن تتعثر إحدى

عينيه باسمه على الدوام، كما مُثّل بحيوان آخر في منطقة ويرلي، ومع ذلك، تلاشى الاهتمام حتى أن كاتب الرسالة المجهول قد سئم من إساءة معاملته، وأدرك جورج أن الحكم النهائي الرسمي في قضيته قد صدر، ومن غير المحتمل أن يتغير على الإطلاق.

بريء لكنه مذنب: هكذا قالت لجنة غلادستون، وكذلك قالت الحكومة البريطانية عبر وزير الداخلية. مذنب مع أنه بريء. بريء لكنه عنيد وخبيث. بريء لكنه منغمس في شيءٍ من الأذى الدنيء. بريء ومع ذلك يسعى عمدًا لإقحام نفسه في التحقيقات الفعلية للشرطة. بريء مع أنه يجلب المشكلات لنفسه. بريء ولكنه لا يستحق التعويض. بريء برغم أنه ليس أهلًا للاعتذار. بريء ولكنه يستحق عقوبة ثلاث سنوات من الأشغال الشاقة تمامًا.

لكن ذلك لم يكن الحكم الوحيد. واصلت معظم الصحافة وقوفها إلى جانبه: وصفت صحيفة ديلي تلغراف موقف اللجنة ووزير الداخلية أنه ضعيف وغير منطقي وغير حاسم. أما موقف الجمهور، بقدر ما أمكن قياسه، هو أنه لم يلعب مرة واحدة دورًا عادلًا. وقد دعمته مهنة المحاماة دعمًا كبيرًا. وأخيرًا أكد أحد أعظم الكُتّاب في عصره براءته بصوت عالٍ وبلا انقطاع. هل سترجح كَفّة هذه الأحكام في الوقت الملائم على الحكم الرسمي؟

سعى جورج لإلقاء نظرة أوسع على قضيته، والدروس التي تضمنتها أيضًا. إذا لم تتوقع أن تكون الشرطة أكثر كفاءة، أو الشهود أكثر صدقًا، فعليك إذن على الأقل رفع مستوى جلسة الاستماع إذ تخضع كلماتهم للاختبار. قضية مثل هذه لم يجدر أن يتولاها رئيس جلسة بلا خبرة قانونية، سيتوجب تحسين مؤهلات من هم على مقاعد البدلاء. وحتى إذا أمكن جعل جلسات الربع سنوية ومحاكم الجنايات تمضي بطريقة أفضل، فيجب الاستعانة بعقول قانونية أكثر دقة وحكمة: بمعنى آخر، إلى محكمة الاستئناف. أصبح من السخف أن تكون الطريقة الوحيدة لإسقاط إدانة جائرة مثل إدانته، عبر تقديم التماس إلى وزير الداخلية، فقد يصل ذاك الالتماس مع مئات -لا، الآلاف- من التماسات الآخرين كل عام، معظمها من الواضح أنها من المذنبين نزلاء سجون جلالة الملك، الذين كان لديهم القليل لقضاء وقتهم في ما هو أفضل من إقامة النصب التذكارية لوزارة الداخلية. من الواضح أنه ينبغي استبعاد الاستئنافات العقيمة والعبثية لأي محكمة جديدة، لكن عند حدوث نزاع

جدّي على القانون أو الحقيقة أو عندما يكون سلوك المحكمة الابتدائية متحيزًا أو غير كفء، يجب على المحكمة العليا إعادة النظر في القضية.

ألمح والد جورج له في مناسبات مختلفة أن معاناته لها غاية أسمى في نظرهم. لم يرغب جورج في أن يكون ضحية أبدًا، ولم يجد إلى الآن أي تفسير مسيحي لآلامه. لكن قضية بيك وقضية إدالجي كلتاهما أحدثتا إثارة كبيرة في مهنته، وأمكن جدًا أن يتحول إلى ضحية بعد كل شيء، إذا كان أبسط وأكثر واقعية... ضحية القانون التي أحرزت معاناتها تقدمًا في إقامة العدل. لا شيء في رأي جورج يمكن أن يعوّض السنوات التي سرقت في لويس وبورتلاند، وسنة التوقف بعد الإفراج عنه، ومع ذلك، ألا يمكن أن يجد بعض العزاء إذا جلب هذا الصدع الفظيع في حياته بعض الفائدة لمهنته في الختام؟

بدأ جورج في تخيل كتاب قانون مكتوب منذ مئة عام، بحذر كما لو أدرك خطيئة الكبرياء. "أُنشئت محكمة الاستئناف في الأصل نتيجة لعدد من حالات إخفاق القضاء مما أثار السخط العام. لم يكن أقلها قضية إدالجي، التي لم تعد تفاصيلها تقلقنا، لكن ضحيتها، تجدر الإشارة إليه بشكل عابر، ألّف قانون السكك الحديدية لـ "ركّاب القطارات"، واحدة من أولى الأعمال لتوضيح هذا الموضوع المربك في كثير من الأحيان، وكتاب لا يزال يشار إليه..." أقرّ جورج أن هناك مصائر أسوأ من أن تكون هامشًا في تاريخ القانون.

ذات صباح، وصلته بطاقة مستطيلة طويلة. طبعت بخط فضي وأسلوب كوبربليت للكتابة الخطية:

تأثر جورج إلى حدٍّ لا يوصف. وضع البطاقة على رف الموقد، وردّ على الفور. أعادت جمعية القانون المسجلة إدراج اسمه في قوائمها، كما أعاده السير آرثر إلى المجتمع الآن. هذا لا يعني أن لديه أي طموحات اجتماعية... لكن ليس إلى مثل هذه الطبقات الرفيعة على أي حال، لكنه أقر على أن هذه الدعوة لفتة نبيلة ورمزية لشخص كل ما انغمس فيه قبل عام واحد فقط هو أن يحافظ على سلامة عقله في سجن بورتلاند مع روايات توبياس سمولت. فكّر جورج لفترة طويلة في ما قد يكون هدية زفاف مناسبة، وقرر في نهاية المطاف أن يقدم لهما إصدارات مُجلّدة ذات طبعة واحدة لشكسبير وألفريد تنيسون.

السيد والسيدة ليكي

يتشرفان بدعوة

السيد جورج إدالجي

ورفاقه

في وايتهول رومز

فندق متروبول

يوم الأربعاء الموافق الثامن عشر من سبتمبر

الساعة الثانية وخمس وأربعين

بمناسبة زفاف ابنتهما جاين

من السير آرثر كونان دويل

غليب هاوس،

بلاكهيث

عزم آرثر على التخلص من أي مراسل لعين، لذا لن تجد أي إعلان عن مكان زفافه هو وجاين، ولا عن العشاء السري عشية زفافه في مسرح جايتي، توضع المظلة المخططة في اللحظة الأخيرة في كنيسة القديسة مارغريت في وستمنستر. لا يجتمع إلا عدد قليل من المارة في هذا الركن النائم، والغارق في غبار الشمس إلى جوار الدير لمعرفة من الذي قد يتزوج يوم أربعاء حصيف بدلًا من يوم سبت صاخب.

يرتدي آرثر معطف فراك أسود وصُدْرة بيضاء، مع غاردينيا بيضاء كبيرة في عروته. شقيقه إينيس في إجازة من مناورات الخريف، تجعل رجلًا عصبيًا أفضل. سيريل أنجيل زوج أخت آرثر الصغرى دودو، سيرأس القدّاس. الأم التي احتفلت بعيد ميلادها السبعين مؤخرًا، ترتدي الديباج الرمادي. كوني وويلي موجودتان، ولوتي وإيدا وكينغزلي وماري. لم

يتحقق حُلم آرثر في جمع عائلته حوله تحت سقف واحد أبدًا، ولكنه الآن ولفترة وجيزة، تمكّن من جمعهم جميعًا. وللمرة الأولى، لم يكن السيد والر حاضرًا.

زُيّن مذبح الكنيسة بأشجار النخيل الطويلة، ومجموعات من الزهور البيضاء رُتّبت في قاعدتها. يجب أن تكون الخدمة كورالية تمامًا، ونظرًا لتفضيل آرثر تخصيص يوم الأحد للغولف على الكنيسة، سمح لجاين اختيار الترانيم: "هللويا.. سبحوا الرّبَّ.. هللوه من السماوات" و "حب عظيم قد سما عن كل حب في الورى" يقف في مقدمة المقصورة، ويتذكر كلماتها الأخيرة له. "لن أجعلك تنتظر يا آرثر. لقد فسرت ذلك لأبي جيدًا" إنه يدرك أنها ستبدو رائعة كوعدها. قد يقال على اعتبار أنهما انتظرا بعضهما طوال عشرة أعوام، فإن عشر أو عشرين دقيقة إضافية لن تضر، وربما حتى أنها ستُضفي دراما على الحدث. لكن لفرط سعادته، لم تكن جاين كما يُفترض بفعل جاذبية الزفاف عروسًا مِغناج. يجب أن يتزوجا في الساعة الواحدة وخمس وأربعين. لذا ستكون جاين في الكنيسة عند الواحدة وخمس وأربعين. وهو يعتقد أن هذا أساس سليم للزواج. بينما يقف يتأمل المذبح، عكس أنه لا يفهم النساء دائمًا، لكنه يُميِّز اللواتي يتصرفن بأسلوب صادق وأخلاقي واللواتي لا يفعلن.

تصل جاين ليكي متأبطة ذراع والدها في تمام الساعة الواحدة وخمس وأربعين دقيقة بالضبط. التقت في الشرفة مع إشبيناتها، ليلي لودر سيموندس ذات النزعة الروحانية وليزلي روز. وفارس جاين هو السيد برانسفورد أنجيل، نجل سيريل ودودو، مرتديًا بدلة كورت من الحرير الأزرق والكريمي. فستان جاين، بتصميم شبه إمبراطوري مع طلّة أميرة، مصنوع من الدانتيل الإسباني الحريري العاجي، تصميماته مُجمّلة بتطريز لؤلؤي ناعم. الملابس الداخلية من النسيج الفضي. ذيل الفستان ذو حواف بيضاء من الكريب، تتدلّى من عقدة ترولِفرز من الشيفون مرصوفة مع الكالونا البيضاء على شكل حدوة حصان، وتزيّن شعرها طرحة عروس على إكليل من زهر البرتقال.

بالكاد يعي آرثر القليل جدًا من هذا حين تصل جاين إلى جانبه. لم يألف أنه رجل المعطف الرسمي، وبالتالي هو راضٍ تمامًا عن الخرافة القائلة بأن فستان الزفاف يجب ألا يلمحه العريس إلى أن يصل مع العروس. يعتقد أن جاين تبدو جميلة لعينة، ولديه فكرة

عامة عن ذيل الفستان الكريمي واللؤلؤي الطويل. في الحقيقة، سيكون سعيدًا برؤيتها ترتدي ملابس الفروسية. يُبدي ردود أفعاله بشهوة وبالكاد مسموعة.

يثبت ذيل الفستان أنه مصدر إزعاج كبير في فندق متروبول الدرج الكبير المؤدي إلى غرف وايت هول. بينما تُثير الإشبينات وعدد قليل من صديقات العروس جلبة حولها لا حد لها، ينفد صبر آرثر. يمسح بعينيه عروسه من أخمص قدميها ويحملها بلا جهد يذكر على الدرج. يشم رائحة زهر البرتقال، ويشعر بأثر اللؤلؤ على خده، وتتناهى لسمعه ضحكة هادئة لعروسه للمرة الأولى في ذلك اليوم. يعجّ حفل الزفاف ببهجة من في الأسفل، وبصوت أعلى يأتي رد على البهجة من حفل الاستقبال المجتمع أعلاه.

يدرك جورج إدراكًا تامًا أنه لن يعرف أحدًا هناك غير السير آرثر، فقد التقاه مرتين فقط، والسيدة جاين التي صافحته في فندق غراند، شارع تشارينغ كروس. وهو يشك بشدة في دعوة السيد يلفيرتين، ناهيك عن هاري تشارلزورث. سلّم هديته ورفض المشروبات الكحولية التي يتناولها المدعوون الآخرون. ينظر هنا وهناك في قاعات وايت هول: يشغل الطهاة أنفسهم على طاولة البوفيه الطويلة، وتتأهب أوركسترا متروبول للغناء، وفي كل مكان تنتشر أشجار نخل طويلة مع سرخس وأوراق وأجمة من الزهور البيضاء عند قاعدتها. تُزيّن المزيد من الزهور البيضاء الطاولات الصغيرة في زوايا القاعات.

يقترب الناس من جورج ويتحدثون إليه لمفاجأته ولاعتباره الكبير، يبدو أنهم يعرفون من هو، ويحيّونه كما لو أنهم من أصدقائه تقريبًا. يقدِّم ألفريد وود نفسه، ويتحدث عن زيارة بيت الكاهن في ويرلي، ولقائه مع أسرة جورج وهو اللقاء الذي أشعره بسعادة غامرة. يهنئه السيد جيروم الكاتب الهزلي على نجاح معركته من أجل العدالة، ويقدم له الآنسة جيروم، ويشير إلى مشاهير آخرين: الكاتب جيمس ماثيو باري، والروائي برام ستوكر والروائي ماكس بيمبرتون. السير غيلبرت باركر، الذي أحرج وزير الداخلية في مجلس العموم عدة مرات، صادف جورج لمصافحته. يدرك جورج أن جميعهم يعاملونه كرجل ظُلِم كثيرًا. لا أحد منهم ينظر إليه كما لو أنه كاتب سلسلة من الرسائل المجنونة والفاحشة. لا يوجد شيء يقال مباشرة، مجرد افتراض ضمني أنه من نوع الأشخاص الذين يفهمون الأشياء عمومًا بالطريقة التي يفهمها الآخرون عمومًا أيضًا.

بينما تعزف الأوركسترا بهدوء، تجلب ثلاث سلال من التلغرافات والبرقيات، فتحها وقرأها شقيق السير آرثر. ثم المائدة وشمبانيا تُصبّ أكثر مما رآه جورج في حياته، والخطب وشرب النخب، وحين يلقي العريس خطابه الذي يتكون من كلمات ربما لها أثر الشمبانيا؛ لأنها ستنفجر في دماغ جورج وتشعره بدوار مع إثارة.

"... ومن بيننا بعد ظهر اليوم يسعدني أن أرحب بصديقي الشاب جورج إدالجي. لا يوجد شخص أفخر برؤيته هنا مثله..." تتجه الوجوه نحو جورج، وتظهر الابتسامات وترفع الكؤوس قليلاً، أما هو فليس لديه أي فكرة إلى أين ينظر، لكنه يدرك أن هذا لا يهم على أي حال.

يأخذ العروسان دورًا احتفاليًا على حلبة الرقص، لمواكبة صيحات الفرح، ثم يبدآن في الانتشار بين ضيوفهما، في البداية معًا ثم ينفصلان. يجد جورج نفسه إلى جانب السيد وود، الذي تراجع إلى شجرة نخيل لها سرخس يصل إلى ركبتيه.

" ينصح السير آرثر بالاختفاء دائمًا" يقول مع غمزة. وينظران إلى الحضور معًا.

يتدارك جورج: "يوم سعيد"

يجيب وود: "ونهاية لطريق طويل جدًا"

لا يعلم جورج ماذا يعقّب على هذه الملحوظة، لذا فهو يكتفي بإيماءة رأس موافقة.

"هل عملت لصالح السير آرثر عدة سنوات؟"

"ساوث سي، نوروود، هندهيد. المحطة التالية في تمبكتو لا يجب أن أتساءل"

يقول جورج: "حقًا؟ هل هذه وجهة شهر العسل؟"

اكفهرّ السيد وود من هذا، كما لو كان غير قادر على تتبّع السؤال. يسحب كأس شمبانيا آخر. "أفهم أنك متحمس للارتباط على العموم. يعتقد السير آرثر أنه يجب عليك أن تتزوج بشكل خ.. ا.. ص" ينطق هذه الكلمة الأخيرة بتأثير متقطع ما يُسلّيه لسبب ما. "أم أن ذلك يوضح ما هو واضح؟"

يشعر جورج بالانزعاج من هذا التحول في الحديث، كما أنه مُحرج إلى حد ما. يمرّر السيد وود سبّابته صعودًا وهبوطًا جانب أنفه. "أختك هي الواشية"، ويضيف: "لا يمكن أن تصمد أمام زوج من المحققين الاستشاريين العاملين بدوام جزئي"

"مود؟"

"هذا اسمها. شابة جميلة. هادئة، لا حرج في ذلك. هذا لا يعني أنني أعتزم الزواج من نفسي بشكل عام أو خ.. ا.. ص"

يبتسم بينه وبين نفسه. يحكم جورج أن وود شخص لطيف وليس خبيثًا. ومع ذلك، يشتبه في أنه ربما ثمل بعض الشيء. "بعض الثرثرة، إذا سألتني. ثم هناك المصاريف" يلوّح السيد وود بكأسه للفرقة والزهور والنُدُل. يأخذ أحد هؤلاء إشارته كأمر ويعيد ملء كأسه.

بدأ جورج يتساءل إلى أين يمكن أن تودي هذه المقايضة حين يلمح من فوق كتف وود، السيدة كونان دويل تنقضّ عليهما.

تنادي: "وودي"، ويبدو لجورج أن نظرة غريبة بدت على رفيقه. لكن قبل أن يتمكن من تمييزها، اختفى السكرتير بطريقة أو بأخرى.

"سيد إدالجي" تنطق السيدة كونان دويل اسمه بالضغط المناسب فحسب، وتضع كفّها المزينة بقفاز على ساعده. "أنا سعيدة للغاية لأنك تمكنت من الحضور"

فوجئ جورج: لأن الأمر ليس كما لو أنه اضطر إلى رفض العديد من الارتباطات الأخرى ليكون هنا.

أجاب: "أتمنى لك كل سعادة" ينظر إلى فستانها. لم يسبق له أن رأى مثله من قبل. لم ترتدِ بعد أي من نساء ستافوردشاير القرويات اللواتي زوّجهن والده فستانًا مثل هذا. يعتقد أنه يجب أن يثني عليه، لكنه لا يعرف كيف يفعل ذلك. لكن لا يهم؛ لأنها تواصل التحدث معه مرة أخرى.

"سيد إدالجي، أود أن أشكرك"

فوجئ مرة أخرى. هل فتحا هدايا زفافهما بالفعل؟ بالتأكيد لا. ولكن ما الذي يمكن أن تلمح إليه؟

"حسنًا، لم أكن متأكدًا مما قد تحتاجانه..."

تقول: "لا، لا أقصد الهدية مهما كانت" تبتسم له. يعتقد أن لعينيها لون الأخضر الرمادي، وشعرها ذهبي. هل يحدّق بها؟ "أعني، يعود فضل هذا اليوم السعيد جزئيًا لك على ما جرى، حين حدث وكيفما حدث"

ارتبك جورج ارتباكًا كليًا الآن. علاوة على ذلك، هو يحدّق ويعلم ذلك.

"أتوقع أن نقاطَع في أي لحظة، وعلى أي حال لم أعتزم الإسهاب في الشرح. قد لا تعرف أبدًا ما أعنيه. لكني ممتنة لك بطريقة لا يمكنك تصورها. لذا من الصواب تمامًا أن تكون هنا"

يستمر جورج في تأمل هذه الكلمات فيما تأخذ دوامة الضجيج السيدة كونان دويل الجديدة بعيدًا. أنا ممتن لك بطريقة لا يمكنك تصورها، صافح السير آرثر يده بعد لحظات قليلة، وأخبره أنه يقصد كل كلمة في خطابه، يربت على كتفه، وينتقل إلى ضيفه التالي. تختفي العروس ثم تظهر مرة أخرى في ثوب مختلف. يُشرَب النخب الأخير، وتُستنزف الكؤوس، وتتعالى الهتافات، ويغادر الزوجان. لم يبق لجورج ما يفعله إلا توديع أصدقائه المؤقتين.

في صباح اليوم التالي اشترى صحيفتي ذي تايمز وديلي تليغراف. بينما أدرجت إحدى الصحف اسمه بين أسماء السيد فرانك بولين والسيد هورننغ، الأخرى ظهر فيها متوسطًا السيد بولين والسيد هانتر. اكتشف أن الزهور البيضاء التي لم يتمكن من التعرف عليها تسمى زنبق هاريسي. كما غادر بعد ذلك السير آرثر والسيدة كونان دويل إلى باريس في طريقهما إلى دريسدن والبندقية. قرأ "سافرت العروس بفستان من القماش الأبيض العاجي، مُزيّن بجديلة بوتاش بيضاء، وله صدرية وأكمام من الدانتيل، مع قماش فوق الأكمام. في الخلف شُدّت طبقة من الخصر بأزرار ذهبية مطرزة. من الأمام، تنسدل ثنايا القماش بهدوء على جانبي صِدار الدانتيل. والملابس من تصميم ميزون دوبري، لي، بي. إم."

بالكاد فهم كلمة من هذا. بدا الأمر غامضًا عليه مثل الكلمات التي نطق بها المتأنقون بثيابهم في اليوم السابق.

تساءل عما إذا كان سيتزوج يومًا ما. عندما تخيل إمكانية ذلك بفارغ الصبر في الماضي، تخيّل المشهد يحدث في كنيسة القديس مارك دائمًا، حيث والده يترأس القدّاس، ووالدته تنظر إليه بفخر. لم يستطع أبدًا استحضار وجه عروسه، لكن هذا لم يزعجه أبدًا. ومع ذلك، لم يعد المكان مُرضيًا له منذ محنته، ويبدو أن هذا يُقوّض احتمالية وقوع الحدث بأكمله. تساءل عما إذا كانت مود ستتزوج يومًا ما. وماذا عن هوراس؟ ألمّ بالقليل

عن حياة أخيه الحالية. رفض هوراس حضور المحاكمة، ولم يقم بزيارته في السجن. أرسل بطاقة بريدية غير مناسبة من وقت لآخر. لم يزر هوراس البيت منذ عدة سنوات. ربما تزوج بالفعل.

تساءل جورج عما إذا كان سيرى السير آرثر والسيدة كونان دويل الجديدة مرة أخرى. قضى الشهور والأعوام التالية محاولاً استعادة الحياة التي عاشها مرّة في برمنغهام في لندن قبل القضية، فيما ذهب الزوجان إلى حيث يذهب المؤلفون عالميّو الشهرة مع عرائسهم الصغيرات للمتعة. لم يَعُد متأكدًا من الطريقة التي ستسير بها الأمور بينه وبينهما في حالة تلاشي ما يجمعهم. ربما هذه حساسية مفرطة من جانبه أو أكثر من خجل. لكنه حاول أن يتخيل زيارته لهما في ساسكس أو تناول الطعام مع السير آرثر في ناديه بلندن أو رحّب بهما في أي سكن بسيط قد يتمكن من تحمل نفقاته. لا، كان هذا مشهدًا آخر غير قابل للتصديق من حياة لم يكن ليعيشها. لن يجتمع بهما مرة أخرى على الأغلب. ومع ذلك، تقاطعت مساراتهم لثلاثة أرباع السنة، ورغم أن الأمس هو نهاية استمرار هذا التقاطع، فإن جورج لم يمانع. في الواقع، فضّل جزء منه ذلك.

أربعة

نهايات

جورج

مَرّرت مود صحيفة ديلي هيرالد بصمت عبر مائدة الإفطار يوم الثلاثاء. توفي السير آرثر في الساعة التاسعة والربع من صباح اليوم السابق في ويندلشام، حيث منزله في ساسكس. **وفاة مَن أثنى على زوجته** تصدّر هذا الخبر عناوين الصحف. وأيضًا **"أنتِ رائعة!" يقول مبدع شيرلوك هولمز"**، ومن ثم **لا حداد**. قرأ جورج كيف "لا حزن" يسود المنزل في كروبورو. لم تُسحب الستائر عمدًا، وماري ابنة السير آرثر من زواجه الأول، "أظهرت الحزن" فقط.

تحدّث السيد دينيس كونان دويل بحرية إلى مراسل هيرالد الخاص، "سعيد وفخور بالحديث عنه وليس بصوت خافت. قال: "لقد عاش كأروع زوج وأب، وأعظم الرجال على الإطلاق. أعظم مما عرفه معظم الناس؛ لأنه كان متواضعًا للغاية" وتلت ذلك فقرتان من ثناء الأبناء المناسب. لكن الفقرة التالية أحرجت جورج. أراد إخفاء الصحيفة عن مود تقريبًا. هل يجب على الابن التحدث عن والديه بهذا الأسلوب... خصوصًا للصحافة؟ "عاش والدي ووالدتي عاشقين حتى النهاية. عندما كانت تسمعه قادمًا، تقفز كصبية وتربت على شعرها وتجري لمقابلته. ليس هناك عشاق أكثر منهما أبدًا" بصرف النظر عن عدم الاحتشام، استنكر جورج التباهي... توكيدًا على تواضع السير آرثر. من المؤكد أنه لن يقدم مثل هذه المطالبات عن نفسه. وتابع الابن: "لولا يقيننا أننا لم نفقده، فلا ريب في أن والدتي ستموت وتلحق به في غضون ساعات".

أكد أدريان شقيق دينيس الأصغر استمرار حضور والدهم في حياتهم. "أعلم جيدًا أنني سأتحاور معه. آمن والدي إيمانًا قاطعًا أنه عندما يرحل، سيظل على اتصال بنا. وجميع أفراد عائلتنا يؤمنون بذلك أيضًا. ليس هناك أدنى شك في أن والدي سيتحدث إلينا كثيرًا، كما فعل قبل أن يرحل عنّا" لا يعني ذلك أن الأمر سيبدو واضحًا جدًا: "سنميز متى يتَحدث دائمًا، ولكن علينا أن نكون حذرين؛ لأن هناك محتالين على الجانب الآخر كما هم موجودون هنا. من الممكن أن يحاولوا انتحال شخصيته. ولكن هناك معايير تعرفها والدتي، مثل القليل من أساليبه المميزة في النطق التي لا يمكن تقليدها"

وقع جورج في حيرة من أمره. اعتبر أن الحزن اللحظي الذي شعر به في الأخبار -كما

لو أنه فقد بطريقة ما أحد والديه - غير مسموح به: **لا حداد**. ممنوع. توفي السير آرثر سعيدًا. قاومت أسرته - باستثناء أحد أفرادها - الحزن. لم تُسحب الستائر، ولم يعمّ الحزن المكان. فمن هو إذن ليعلن نفسه مفجوعًا؟ وتساءل عما إذا عقد العزم على أن يُفصح عن هذه المُعضلة لمود، التي تمتلك القدرة على التفكير بوضوح في مثل هذه الأمور، ولكن الحكم على الأمر قد يبدو متعجرفًا. ربما تواضُع الرجل المتوفى أرغم الحزن على التواضع بين أولئك الذين عرفوه.

توفي السير آرثر في الحادية والسبعين من عمره. كانت صفحات النعي كبيرة وكلماتها ودودة. تابع جورج الأخبار طوال الأسبوع، واكتشف أنه انزعج انزعاجًا طفيفًا؛ لأن صحيفة مود هيرالد قدمت له معلومات أكثر من صحيفته دايلي تلغراف. من المفترض وجود **ممر حديقة جنائزي**، الذي كان **مجرد وداع عائلي**. تساءل جورج عما إذا كان سيُدعى للجنازة. تمنى أن يُسمح للمشاركين في حفل زفاف السير آرثر إلقاء بعض الكلمات للثناء على الفقيد... كان سيذكر الموت، لكن الكلمة لم تكن مستخدمة في كروبورو. رحيله، ترقّيه، كما وصفه بعضهم. لا، كان تخمينًا غير مناسب... لم يكن بأي حال من الأحوال فردًا من أفراد الأسرة. بعد أن حسم الأمر في ذهنه، شعر جورج بضيق الصدر قليلًا ليكتشف من صحيفة اليوم التالي أن جمعًا من ثلاثمئة شخص سيحضرون مراسم الجنازة.

تولى القدّاس صهر السير آرثر، القس سيريل أنجيل، الذي دفن السيدة الأولى كونان دويل وزوّجه الثانية، في حديقة الزهور في ويندلشام. كما ساعده القس سي. درايتون توماس. حضر القليل من ذوي البشرة السوداء في الأبرشية. ارتدت السيدة جاين فستانًا صيفيًا مزهرًا. دُفن السير آرثر بالقرب من سقيفة الحديقة التي مكث فيها طوال فترة الدراسة. وصلت البرقيات من جميع أنحاء العالم، بدا أن تشغيل قطار خصيصًا لحمل كل الزهر أمر لا بدّ منه. عند وضع الزهر في حيّز الدفن، شاهدوا وفقًا لأحد الشهود، كما لو أن حديقة هولندية خيالية قد نمت إلى ارتفاع يصل رأس الإنسان. أمرت السيدة جاين بلوح مصنوع من خشب البلوط البريطاني، منقوش عليه عبارة: **عاش مستقيمًا كالسيف وحقيقيًا كالفولاذ**. إنه رجل رياضي وفارس شهم حتى النهاية.

شعر جورج أن كل شيء قد انتهى كما يجب، لو كان رجلًا غير عادي، فقد كُرِّم

مَن مدّ له يد العون كما تمنى. لكن صحيفة دايلي هيرالد أعلنت يوم الجمعة أن القصة لم تكتمل بعد. **كرسي كونان دويل شاغر** قرأ هذا العنوان الممتد على أربعة أعمدة، مع شرح أسفله، انتقل من حجم خط ونمطه إلى حجم خط آخر ونمطه. **مُسْتَبْصِر لحضور اجتماع عظيم**. اجتمع ستة آلاف شخص روحاني في لقاء تذكاري. **أمنية الزوجة**. الوسيط مَن سيتّصف بالصراحة التامة.

أقيم حفل تأبين عام في قاعة ألبرت الملكية يوم الأحد الموافق للثالث عشر من يوليو لعام ألف وتسعمئة وثلاثين في تمام الساعة السابعة مساء. تَقرّر أن يُنظِّم هذا القدّاس السيد فرانك هوكين، سكرتير جمعية مرليبون الروحية. أعلنت السيدة جاين كونان دويل، أنها ستحضر مع أفراد الأسرة الباقين، فهي نظرت إليه على أنه آخر تظاهرة عامة ستحضرها مع زوجها. سيوضع كرسي شاغر على خشبة المسرح يرمز إلى حضور السير آرثر، وستجلس على يساره... حيث أنه الموضِع الذي شغلته بلا كلل على مدى العقدين الماضيين.

لكن هناك المزيد. فقد طلبت السيدة جاين تنسيق عرض روحاني خلال الاجتماع. ستنفذه السيدة إستِل روبرتس، مَن ظفرت بلقب الوسيطة المفضلة للسير آرثر دائمًا. خصّ السيد هوكين صحيفة هيرالد بمقابلة: صرّح فيها: "إنه لأمر مثير للجدل أن يكون بمستطاع السير آرثر أن يثبت ظهوره للوسيطة، موصوفًا، بعد مدة" ويُعلِن: "ينبغي عليّ تصوّر أن بمقدوره إثبات ذلك بالفعل؛ فقد تأهب للرحيل". علاوة على ذلك: "إذا أثبت أنه من المشكوك فيه ما إذا سيقبل المُرتابون الأدلة، لكن نحن من خبِرنا السيدة روبرتس كوسيطة لن نرتاب في هذه المسألة على الإطلاق. نعلم أنها إذا لم تتمكن من رؤيته فستكون صريحة جدًا بشأن ذلك" كما أشار جورج، أنه لم يَرِد هنا أي ذِكر أن أيًّا من المُحتالين قام بأي تهديد.

راقبت مود شقيقها وهو ينهي القصة. قالت: "يجب أن تذهب"

"هل تظنين ذلك؟"

"بالتأكيد. عَدّك صديقه. يجب أن تودّعه، حتى لو كان الظرف استثنائيًا. أرى من الأفضل أن تذهب إلى جمعية مرليبون للحصول على تذكرتك. بعد ظهر اليوم أو غدًا... وإلا فإنك ستبقى قلقًا"

بدا غريبًا، لكنه مقبول، كيف يمكن لمود أن تتصف بالحزم. اعتاد جورج تتبّع

الحجة إثر الأخرى قبل اتخاذ أي قرار سواء في مكتبه أم لا. رفضت مود إضاعة مثل هذا الوقت. لقد اتضحت الرؤية لديها جيدًا - أو على الأقل فهمت بسرعة أكبر- وسلّمها قرارات الأسرة كليًا مثلما سلّمها أي أموال لم يكن في حاجتها لتغطية نفقات الملابس والمكتب. اهتمت بتكاليف معيشتيهما، وخصّصت مبلغًا محددًا شهريًا لحساب توفير، ومنحت الباقي للجمعيات الخيرية.

"ألا تظنين أن أبانا سيرفض هذا... نوعًا ما"

أجابت مود: "هذا الأب توفي منذ اثني عشر عامًا. وأود دائمًا أن أفكر أن الموجودين في حضرة الرّب يجدون أنفسهم قد تغيروا إلى حدٍ ما، عمّا كانوه على الأرض"

ولا تزال مود تفاجئه جدًا بصراحتها، حتى أوشك حديثها أن يبلغ حدّ الانتقاد. قرر جورج عدم مناقشتها، لكن أخذه بعين الاعتبار في وقت لاحق منفردًا بذاته. عاد لتصفّح الصحيفة. استندت معرفته بالروحانية في الغالب إلى بضع عشرات من الصفحات كتبها السير آرثر، ولا يمكنه القول إنه أثار اهتمامه بالكامل. فكرة أن ستة آلاف شخص في انتظار مُرشدهم الفقيد لمخاطبتهم عبر وسيط، صدمته كافتراضٍ مثير للقلق.

اعتاد النفور من الحشود بأعداد كبيرة في مكان واحد. فكّر في الحشود في كانوك وستافورد، من المستهترين الهائجين الذين حاصروا بيت الكاهن بعد احتجازه. تذكّر الخبط العنيف لرجال على باب سيارة الأجرة والتلويح بِعصيّهم. كما يسترجع قمع الرجال في لويس وبورتلاند، وكيف شحذت ملذّات الحبس الانفرادي. قد يحضر محاضرة عامة في ظروف معينة، أو اجتماع كبير للمحامين، ولكن كقاعدة عامة، اعتبر نزعة البشر إلى التجمهر في مكان واحد بمثابة بداية غير منطقية. صحيح أنه عاش في لندن، المدينة الأكثر اكتظاظًا بالسكان، لكنه تمكّن إلى حد كبير من تقنين تواصله مع زملائه من الرجال والنساء. فضّل أن يحضروا الواحد تلو الآخر إلى مكتبه، شعر أنه في مأمن في مكتبه ومعرفته في القانون. كان المكان آمنًا هنا في 79 شارع بورو هاي: المكتب في الطابق السفلي، والحجرة المشتركة مع مود في الطابق العلوي.

لقد كانت فكرة ممتازة أن يعيشا سويًا، على الرغم من أنه لم يعد بإمكانه تذكّر من اقترحها. عندما ساعد السير آرثر في تبرئته، أقامت الأم فترة من الزمن معه في مسكن الآنسة

غود في ماكلينبيرغ سكوير. لكن أصبح من الواضح أنها يجب أن تعود إلى ويرلي، وبدت فكرة تبديل نساء الأُسرة منطقية. أثبتت مود قدرتها الهائلة التي أثارت دهشة والديهما، فقد بدت لهما سابقًا أقل قُدرة بكثير من ذلك. رتبت منزله وتولت مهمة الطهي فيه، وعملت كسكرتيرته حين غادر سكرتيره بعيدًا، واستمعت إلى يومياته في العمل بحماس كبير كما لو أنها عادت إلى حجرة الدراسة القديمة. لقد أصبحت أكثر انفتاحًا وتعنتًا منذ انتقالها إلى لندن. كما تعلمت كيفية استفزازه، مما أعطاه متعة نادرة.

"لكن ماذا سأرتدي؟"

سرعة ردها تعني لا بد أنها توقعت السؤال. "بدلتك الرسمية الزرقاء. ليست جنائزية، وعلى أي حال فهم لا يؤمنون باللون الأسود. لكن من المهم إظهار الاحترام"

"يبدو أنها صالة واسعة كما سمعت. أشك في أنني سأتمكن من الحصول على بطاقة قريبة من خشبة المسرح"

أصبح جزءًا من حياتهما معًا، أن يبحث جورج عادةً عن اعتراضات على الخطط المتفق عليها مسبقًا. وفي المقابل، انغمست مود في هذه المراوغة. الآن اختفت، وسَمع صوت أشياء تُسحب في العلّيّة فوق رأسه. عادت بعد بضع دقائق، وضعت أمامه شيئًا تسبب في أن تسري قشعريرة مفاجئة في جسده: منظاره في حافظة يكسوها الغبار. جلبت خِرقة ومسحت الغبار. يلمع الجلد غير المصقول منذ أمد بعيد بفتور مع رطوبة.

يقف الأخ والأخت على الفور مرة أخرى في أراضي قلعة آبريستويث، في آخر يوم سعيد حقًا من حياته. يشير أحد المارة إلى جبل سنودون، لكن كل ما يمكن أن يراه جورج هو البهجة على وجه شقيقته. استدارت وتعهدت بشراء زوج من المناظير. بدأت محنته بعد أسبوعين، وبعدئذ عندما أطلق سراحه وانتقلا إلى شارع بورو هاي، في عيد الميلاد (كريسماس) الأول لهما معًا، أعطته هذه الهدية التي جعلته على وشك أن يجهش في البكاء على نفسه.

صار ممتنًا، لكنه مرتبك أيضًا، فقد ابتعدا الآن عن سنودون، وشكّ في إمكانية عودتهما إلى آبريستويث. خمّنت مود ردة الفعل هذه، واقترحت عليه أن يبدأ في مراقبة الطيور. وقد أُخِذ بالفكرة مباشرة، مثل جميع مقترحات مود، على اعتبارها منطقية جدًا،

وهكذا انطلق لعدة أيام بعد الظهر إلى المستنقعات والغابات المحيطة بلندن. فكرت أنه في حاجة إلى هواية. كما فكر أنها في حاجة إلى أن يخرج بنزهة من وقت لآخر. انغمس بها مع حس بالمسؤولية بضعة أشهر، لكنه في الحقيقة واجه صعوبة في تعقّب طائر أثناء طيرانه، وبدا أن البقية المستريحة تستمتع بالتمويه. بالإضافة إلى ذلك، وعوضًا عنه، صدمته العديد من الأماكن التي عُدّت من الأفضل لمشاهدة الطيور في برودتها ورطوبتها. إذا قضيت ثلاث سنوات في السجن، فلن تحتاج إلى المزيد من البرودة والرطوبة في حياتك حتى تحين لحظة وضعك في تابوتك، وإنزالك إلى مكان أبرد وأكثر رطوبة. كانت هذه هي وجهة نظر جورج في مراقبة الطيور.

"شعرت بالأسف من أجلك في ذلك اليوم"

رفع جورج عينيه، وفي رأسه صورة لفتاة تبلغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا من أنقاض مخيبة للآمال لقلعة ويلزية، استُبدِلت بامرأة رمادية الشعر في متوسط عمرها خلف إبريق شاي. اكتشفت بعض ذرّات الغبار على حافظة المنظار وأعطته مسحة أخرى. حدّق جورج في أخته. في بعض الأحيان لم يتمكن من معرفة أي منهما يعتني بالآخر.

"لقد كان يومًا سعيدًا"، قالها بحزم قابضًا على الذكرى التي تيقن منها عبر التكرار. "فندق ذا بيل فيو. خط الترام. الدجاج المشوي. لا لجلب الحصى. رحلة القطار. أمضينا يومًا سعيدًا"

"تظاهرتُ في معظمها"

لم يكن جورج متأكدًا من رغبته في إزعاج ذكرياته. قال: "لا أستطيع أبدًا تحديد مدى معرفتك بما حدث"

"جورج، لم أكن طفلة. ربما كنت طفلة عندما بدأ كل شيء، لكن ليس بعدها. ما عليّ أن أفعل غير ذلك؟ لا يمكنك الاحتفاظ بأشياء بعيدًا عن شخص في الواحد والعشرين من عمره، نادرًا ما يغادر المنزل. أنت تحجب الأشياء بعيدًا عن نفسك فقط، وتدّعي أمام نفسك، وتأمل في أن تتماشى معها"

فكّر جورج في طريق عودته مع هذه المود التي يعرفها الآن، وأدرك أن هناك كثيرًا من هذه المرأة في تلك الفتاة التي عرفها وقتئذ. لكنه لم يرغب في متابعة تعقيدات ذلك. لقد

قرر منذ وقت طويل ما حدث، فقد عرف قصته. قد يكون على استعداد لقبول تعديل عام من النوع الذي حدث للتو، لكن آخر شيء رغب فيه هو التفاصيل الجديدة.

شعرت مود بهذا. وربما إذا أخفى أمورًا عنها في ذلك الوقت، فقد أخفت أمورًا عنه أيضًا. لم تخبره أبدًا عن الصباح الذي اتصل فيه الأب من مكتبه، وباح لها أنه يخشى بشدة على الاستقرار العقلي لأخيها. ذكر أن جورج تحت ضغط كبير ورفض أن يأخذ عطلة بسيطة. لذا اقترح على العشاء أن يقوم الأخ والأختُ برحلة ليوم واحد إلى آبريستويث، وبغض النظر عن رغبتها، فإن عليها أن توافق وتصر على الذهاب معه بالتأكيد. وهو ما حدث. صدّ جورج والده بأدب لكن بإصرار، ثم استسلم لتوسّلات أخته.

لقد جرى جزء من التخطيط غير النمطي في بيت الكاهن. لكن الأمر الأكثر صدمة لمود، وقع من تقييم الوالد لحالة جورج. بينما كان جورج الأخ الجدير بالثقة وذو الضمير الحي، فإن هوراس من وجهة نظرها عابث، وعاش الحياة كنزوة، وافتقر إلى المتانة. ومن ثم تبيّن أنها على صواب والأب على خطأ. كيف تمكّن جورج من النجاة من محنته لو لم يتمتّع بثبات عقلي أكبر بكثير مما نسبه الوالد إليه؟ لكن هذه الأفكار احتفظت بها مود لنفسها دائمًا.

صرّح جورج فجأة: "هناك مسألة واحدة أخطأ السير آرثر فيها خطأً كبيرًا. أنه عارض التصويت للنساء" بما أن شقيقها دعم على الدوام حق المرأة في الاقتراع خلال التوقيت الذي أُثيرت فيه هذه القضية، فإن هذا الرأي لم يكن مفاجئًا لمود. بدلاً من ذلك، لم تخضع حِدّته للمساءلة. أشاح جورج بوجهه بعيدًا عن أخته في حيرة. مسار الذاكرة، وكل ما جلب معه، فجّر فيه أرقّ المشاعر العاطفية تجاه مود، وإدراك أن هذه كانت وستظل أقوى مشاعر حياته. لكن جورج لم يتمتّع بالمهارة ولا السلاسة في نقل مثل هذه الأفكار، وحتى أكثر هذه الاعترافات غير المباشرة أزعجته؛ لذا نهض وطوى صحيفة هيرالد بلا داعٍ، وأعادها ونزل إلى مكتبه.

كان عليه عمل يجب القيام به، ولكن بدلاً من ذلك جلس على مكتبه يفكر في السير آرثر. التقيا آخر مرة قبل ثلاثة وعشرين عامًا. ومع ذلك، لم يُقطع الرابط بينهما بطريقة أو بأخرى. وقد تابع كتابات وأفعال السير آرثر، ورحلاته وحملاته وتدخلاته

في الحياة العامة للأمة. غالبًا ما وافقه جورج على تصريحاته... حول إصلاح الطلاق، والتهديد من ألمانيا، والحاجة إلى نفق القناة، والضرورة الأخلاقية لإعادة جبل طارق إلى إسبانيا. ومع ذلك، فقد سمح لنفسه أن يرتاب صراحة بشأن واحدة من مساهمات السير آرثر الأقل شهرة في إصلاح نظام العقوبات: الاقتراح الذي يقضي بضرورة نقل معتادي الإجرام العُتاة في سجون جلالة الملك إلى جزيرة تيري الأسكتلندية. قصّ جورج مقالات من الصحف، وتتبع بطولات شيرلوك هولمز المستمرة في مجلة ستراند، واستعار أحدث كتب السير آرثر من المكتبة. اصطحب مود مرتين إلى السينما لمشاهدة التمثيل الرائع للسيد إيلي نوروود في دور المحقق المستشار.

تذكر العام الذي انتقلا فيه إلى شارع بورو هاي، وقاما بشراء صحيفة ديلي ميل؛ لقراءة تقرير السير آرثر عن سباق الماراثون في أولمبياد لندن. لم يكن جورج أقل اهتمامًا بالمجهود الرياضي، لكنه كوفئ بمزيد من التبصر -إذا استشفّ حاجة إلى المزيد- في طبيعة المُحسِن إليه، فقد اتسم وصف السير آرثر بأنه نابض بالحياة لدرجة أن جورج قرأه مرارًا وتكرارًا حتى تمكن من استحضاره في رأسه مثل نشرات إخبارية. الملعب الواسع.. التدافع المتوقع.. شخصيات قليلة تدخل قبل الآخرين... إيطالي على وشك الانهيار.. يقع وينهض، ويقع ثانية وينهض مرة أخرى، يترنّح.. ثم يدخل أمريكي إلى الملعب ويبدأ في اللحاق به.. الإيطالي الجريء على بُعد عشرين ياردة من الشريط التحذيري.. يبدو الحشد كالمنوّم تنويمًا مغناطيسيًا.. يقع مرة أخرى.. يساعدونه على الوقوف.. تتطوع أيادٍ لدفعه عبر الشريط التحذيري قبل أن يتمكن الأمريكي من الإمساك به. لكن الإيطالي بالطبع خالف القواعد بقبول المساعدة وأُعلن فوز الأمريكي.

أي كاتب آخر كان سيكتفي عند هذا الحدّ، مسرورًا بنجاحه في إثارة دراما اللحظة. لكن السير آرثر لا يشبه أي كاتب آخر، وقد تأثر بشجاعة الإيطالي حدّ أنه بدأ حملة تبرعات للرجل. وقد ساهم بثلاثمئة جنيه، مما مكّن العدّاء من فتح مخبز في قريته الأصلية... وهو أمر لم يكن بوسع الميدالية الذهبية أن تحققه. كانت هذه من شِيم السير آرثر: كريم وعملي في الوقت نفسه.

بعد نجاحه في قضية إدالجي، ارتبط السير آرثر ارتباطًا وثيقًا بمعضلات قضائية

أخرى. خجل جورج بدلاً من ذلك من الاعتراف بأن مشاعره تجاه الضحايا اللاحقين تمثلت في الحسد الذي يصل حدّ الاستنكار في بعض الأحيان. كان هناك أوسكار سلاتر، استغرقت قضيته سنوات وسنوات من حياة السير آرثر. وُجّهت تهمة القتل الخطأ للرجل وكاد يُعدم، وأدى تدخل السير آرثر إلى نجاته من المشنقة، وفي النهاية أُطلِق سراحه. لكن سلاتر كان رجلاً من صنف دنيء من البشر، مجرمًا محترفًا لم يُظهر أي ذرة من الامتنان تجاه أولئك الذين ساعدوه.

كما واصل السير آرثر لعب دور المخبر. قبل ثلاث سنوات أو أربع فقط، ظهرت حالة غريبة لكاتبة اختفت. اسمها كريستي. يبدو أنها نجمة صاعدة في عالم الروايات البوليسية، على الرغم من أن جورج لم يكن لديه أدنى اهتمام بالنجوم الصاعدة، طالما هولمز كان لا يزال يجمع ملف حالته. اختفت السيدة كريستي من منزلها في باركشر، وعُثر على سيارتها متروكة على بُعد نحو خمسة أميال من غيلدفورد. عندما لم تتمكن ثلاث قوى شرطة من العثور على أي أثر لها، استدعى قائد شرطة مقاطعة سري السير آرثر... الذي شغل في ذلك الوقت، منصب نائب ملازم المقاطعة. فاجأ الكثير من الناس ما حدث بعد ذلك. هل التقى السير آرثر مع شهود، أو جاب الأرض المُداسة بحثًا عن آثار أقدام، أو استجوب الشرطة استجوابًا دقيقًا، كما فعل في قضية إدالجي الشهيرة؟ لا شيء من ذلك. تواصل مع زوج كريستي، واستعار إحدى قفازات المرأة المفقودة، وأخذها إلى وسيط روحاني وضعها على جبهته في محاولة لتحديد مكان المرأة. حسنًا، كان هناك تصرف واحد -كما اقترح جورج على شرطة ستافوردشاير- هو استخدام كلاب بوليسية حقيقية لاستكشاف الأثر، وهو شيء آخر مختلف تمامًا عن توظيف الأشخاص النفسيين الذين يبقون في المنزل ويشمّون القفازات فقط. شعر جورج بالارتياح التام عند قراءة تقنيات السير آرثر الاستقصائية الجديدة؛ لتطبيق مزيد من الأساليب التقليدية في قضيته.

مع ذلك، فإن الأمر سيستغرق أكثر بكثير من عدد ضئيل من الانحرافات لتقليل احترام جورج التام للسير آرثر. كان في سن الثلاثين عندما أُفرج عنه من السجن حديثًا. ومازال يعمل كمحام بلغ الآن أربعة وخمسين عامًا، غزا الشيب شاربه وشعره. السبب الوحيد الذي جعله يجلس هنا على مكتبه صباح يوم الجمعة هو مبادئ السير آرثر

العالية، واستعداده لتحويلها إلى أفعال. أعيدت الحياة لجورج. اقتنى مجموعة كاملة من كتب القانون، ولديه عمل مُرْضٍ، وخيارات من القبعات، وسلسلة ساعة جيب رائعة -ربما يقول بعضهم حتى إنها مبهرجة - مُعلّقة على صُدْرة يشعر كل عام أنها تضيق أكثر. كان صاحب بيت ورجل لديه آراؤه حول قضايا اليوم. لا زوجة له، صحيح. كما أنه لم يشارك زملاءه الغداء طويلاً، الذين صاحوا: "حسنًا أيها العجوز جورج!" عندما تصل الفاتورة. بدلاً من ذلك، حاز على نوعٍ غريب من الشهرة، أو نصف الشهرة، أو مع مرور السنين، ربع الشهرة. أراد أن يُعرف كمحامٍ، وانتهى به المطاف كضحية لإخفاق العدالة. وقد قادت قضيته لإنشاء محكمة الاستئناف الجنائية، التي طورت قراراتها على مدى العقدين الماضيين قد وضعت القانون العام للجريمة إلى حد معترف به على نطاق واسع باعتباره ثوريًا. شعر جورج بالفخر لارتباطه -مهما بدا غير متعمد- بهذا الحدث. ولكن مَن على علم بذلك؟ فئة قليلة من الناس يتفاعلون مع اسمه من خلال مصافحته بحرارة، ومعاملته كرجل عُرف عنه أنه تعرض للظلم منذ فترة طويلة، آخرون نظروا إليه بأعين فتية المزارع أو الشرطة في الأزقة الريفية، لكن الأكثرية هذه الأيام لم يسمع به أبدًا.

امتعض من ذلك في بعض الأحيان، وشعر بالخجل من امتعاضه. أدرك أنه على مدى سنوات معاناته، لم يَتُق إلى شيء أكثر من إخفاء هويته. سأله قسيس في لويس عمّا فقده؟ فأجاب بأنه فقد حياته. والآن استعادها. لديه عمل وما يكفي من المال، والناس يومِئون له في الشارع. لكنه دأب على الاندفاع من حين لآخر بفكرة أنه جدير بالمزيد، أنه استحق أن تأخذه محنته إلى مزيد من الثواب. من الشرير إلى الضحية إلى لا أحد... أليس هذا غير عادل؟ وقد أكد له أنصاره أن قضيته مهمة مثل قضية دريفوس، وكشفت عن الوجه الحقيقي لإنجلترا بقدر ما فعله الفرنسي عن فرنسا، ومثلما وُجِد هناك دريفوساردز[69] ومناهضو دريفوساردز، وُجِد مَن هم مع إدالجي ومن ضده. كما أصروا على أنه مع السير آرثر كونان دويل حظي بمدافع عظيم وكاتب أفضل من الفرنسي إميل زولا، الذي ورد أن كتبه عُرفت أنها مبتذلة وهرب إلى إنجلترا عندما هُدّد بالسجن. تخيّل السير آرثر متجهًا

---

69 أوائل المدافعين عن دريفوس. ودريفوس هو ألفريد دريفوس هو ضابط مدفعية فرنسي، يهودي الأصل، حوكم وأدين سنة 1894 بتهمة الخيانة وكانت قضيته واحدة من أكثر القضايا السياسية سخونة في التاريخ الفرنسي الحديث.

إلى باريس هربًا من نزوة سياسي ما أو مُدّعٍ عام. صمد وقاتل وأحدث جلبة كبيرة وهزَ قضبان زنزانته حتى انهار السجن.

ومع ذلك ولكل هذا، تصاعدت شهرة دريفوس باستمرار، وعُرف في جميع أنحاء العالم، في حين أن اسم إدالجي بالكاد سمع به أحد في وولفرهامبتون. هذا جزئيًا من فعل يديه... أو مما لم يفعل. بعد الإفراج عنه، طُلب منه مرارًا مخاطبة الجمهور، وكتابة المقالات الصحفية، وإجراء المقابلات. رفض دائمًا. لم يرغب في أن يكون ناطقًا رسميًا أو ممثلًا لقضَية، ولم يرغب في الظهور على المنصات العامة، وبعد أن روى مرة واحدة معاناته في ذي أمباير، شعر أنه من غير اللائق أن يكرر فعل ذلك كلما تلقى دعوة. فكّر في إعداد نسخة منقحة من كتابه عن قانون السكك الحديدية، لكنه أحس أن هذا ربما يُفسَّر على أن فيه نوعًا من الاستغلال لسمعته السيئة أيضًا.

لكن أكثر من ذلك، شك في أن غموضه له علاقة بإنجليزيته نفسها. فرنسا، كما فهمها، بلد متطرّف ذو آراء عنيفة ومبادئ عنيفة وذكريات ممتدة. أما إنجلترا فمكان أهدأ، وذو مبادئ، لكنه أقل حرصًا على إثارة الجدل حول مبادئه. أرضٌ، القانون العام فيها موثوق أكثر من القانون الحكومي، ينشغل فيها الناس بشؤونهم الخاصة ولا يسعون إلى التدخل في شؤون الآخرين، واندلعت فيها ثورات عامة وكبيرة من وقت لآخر، والاضطرابات العاطفية فيها قد تنقلب حتى إلى العنف والظلم، لكنها سرعان ما تتلاشى من الذاكرة، ونادرًا ما تُوثّق في تاريخ البلاد. هذا ما حدث، والآن دعونا ننسى الأمر ونستمر كما سبق: كانت هذه هي طريقة الإنجليز. هناك خطأ ما، شيء ما تحطّم، لكنه عولج الآن، لذا دعونا نتظاهر بأنه لا وجود لخطأ كبير بالدرجة الأولى. هل لو وُجدت محكمة استئناف، لما أُثيرت قضية إدالجي؟ حسنًا، إذن: العفو عن إدالجي، إنشاء محكمة استئناف قبل انتهاء العامِ... وماذا تبقى أن يقال عن هذه القضية؟ كانت هذه إنجلترا، وباستطاعة جورج أن يفهم وجهة نظر إنجلترا؛ لأنه نفسه إنجليزي.

راسل السير آرثر مرتين منذ الزفاف. توفي الأب في السنة الأخيرة للحرب. دفن بالقرب من العم كومبسون في صباح يوم بارد في شهر مايو، على بُعد عشر ياردات من الكنيسة التي رأس قدّاسها لأكثر من أربعين عامًا. شعر جورج أن السير آرثر - بعد أن التقى والده - يرغب

في معرفة هذا. وردًا على ذلك، تلقى رسالة تعزية موجزة. لكن بعد ذلك ببضعة أشهر، قرأ في الصحيفة أن نجل السير آرثر كينغزلي، بعد أن أصيب في معركة السوم وتُرك في حالة سيئة، مثل آخرين كُثر لقوا حتفهم بالإنفلونزا، قبل أسبوعين فقط من توقيع الهدنة. راسله مرة أخرى، كابنٍ فقد أبًا لأبٍ فقد ابنًا. هذه المرة تلقى رسالة أطول. كان كينغزلي هو الاسم الأخير لنداء اسم مرير. فقدت زوجة السير آرثر شقيقها مالكولم في الأسبوع الأول من الحرب. قُتل ابن شقيقته أوسكار هورننغ في إبير، مع ابن شقيقه الآخر. توفي زوج شقيقته لوتي في أول يوم له في الخنادق، وهلمّ جرا. سجّل السير آرثر أولئك المعروفين له ولزوجته. لكن في الختام أعرب عن يقينه أنهم لم يخسروهم، إنه مجرد انتظار على الجانب الآخر.

لم يعتبر جورج نفسه شخصًا متدينًا. إن كان مسيحيًا تحت أي تصنيف للمسيحيين على الإطلاق، فإنه لا يعود إلى أثر طاعة الوالدين، بل إلى الحب الأخوي. يمنح مود السعادة حين يذهب إلى الكنيسة وهو ما دفعه للذهاب. بينما تمضي الآخرة، اعتقد أنه سينتظر ويشاهد. ارتاب في الحماس. كما انزعج إلى حد ما في فندق غراند عندما تحدث السير آرثر بانفعال عن معتقداته الدينية، التي بالكاد على صلة بالمسألة المطروحة. لكن هذا أعدّ جورج على الأقل للأنباء اللاحقة، بأن صاحب الفضل عليه أصبح روحانيًا بالكامل وخطط لتكريس أعوامه المتبقية وطاقاته للحركة الروحانية. لقد صُدم كثير من ذوي الفكر السليم صدمة فادحة بالإعلان. إذا كان السير آرثر، الرجل الإنجليزي المثالي للغاية، قد قيّد نفسه بطاولة صغيرة أنيقة بعد ظهيرة يوم أحد بين أصدقاء ربما ظهروا بلا عقل. لكن هذا لم يكن أبدًا أسلوب السير آرثر. إذا آمن بشيء ما، فقد أراد أن يؤمن به الجميع أيضًا. بدت هذه نقطة قوته دائمًا وضعفه أحيانًا. لذا جاءه تهكم من كل اتجاه، مع عناوين الصحف البارزة التي تتساءل **هل فقد شيرلوك هولمز عقله**؟ أينما ألقى السير آرثر محاضرة، رُتبت محاضرات مُناوِئة من خصوم من كل لون: اليسوعيون، وكنيسة الإخوة البليموث، والماديون[70] الغاضبون. هاجم الأسقف بارنز من برمنغهام لأسبوع "أنواعًا من المعتقدات الرائعة" التي تتفشى حاليًا. كان العِلم المسيحي والروحانية عقائد باطلة "قادت

---

70 المادية هي نوع من الفلسفة الأحادية تتبنى أن المادة هي المكون الأساسي للطبيعة، وأن كل الأشياء، بما فيها الجوانب العقلانية كالوعي، هي نتاج لتفاعلات مادية. ولم أعثر على أي معلومة عن الماديين الغاضبين.

البسطاء لإحياء الأفكار المُحتضِرة"، قرأ جورج. ومع ذلك، لا يمكن للتهكم ولا التوبيخ الديني أن يردع السير آرثر.

على الرغم من أن جورج ارتاب ارتيابًا غريزيًا في الروحانية، إلا أنه رفض الوقوف إلى جانب الهجمات عليها. مع أنه لا يعتقد أنه مؤهل للحكم على مثل هذه الأمور، فقد عرف كيف يفاضل بين الأسقف بارنز من برمنغهام والسير آرثر كونان دويل. لقد تذكر - وكانت إحدى ذكرياته العظيمة، تلك التي تخيل تقاسمها مع زوجته دائمًا - ختام اللقاء الأول في فندق غراند. لقد وقفا ليقولا وداعًا، وكان السير آرثر متفوقًا عليه بطبيعة الحال، وقد نظر هذا الرجل المحترم والضخم والقوي إليه في عينيه، وقال: " لا، لا أظن أنك بريء. ولا، لا أعتقد أنك بريء. بل إنني أعلم يقينًا أنك بريء". وقْع تلك الكلمات في نفسه أكثر من قصيدة، أكثر من صلاة، إنه تعبير عن حقيقة تتحطم إزاءها الأكاذيب. إذا قال السير آرثر إنه يعرف شيئًا، عندئذ فإن عبء الإثبات لذهن جورج القانوني انتقل إلى شخص آخر.

دَوَّن الذكريات والمغامرات والسيرة الذاتية للسير آرثر، في كتاب كحلي سميك، نُشر قبل ستة أعوام. إذ وُجِد، كان مفتوحًا على الصفحة مئتين وخمس عشرة دائمًا. "في عام ألف وتسعمئة وستة،" قرأ مرة أخرى بعد: " توفيت زوجتي بعد صراع طويل مع داء عضال... لم أتمكن من الاستقرار في العمل فترة من الزمن بعد هذه الأيام المظلمة، حتى جاءت قضية إدالجي فجأة لتحول طاقاتي إلى مسار غير متوقع أبدًا". لطالما شعر جورج بعدم الارتياح قليلاً من هذه البداية. بدا أن هذا يعني أن قضيته ظهرت في لحظة ملائمة، إذ طبيعتها الغريبة هي ما هو مطلوب فقط لسحب السير آرثر من مستنقع اليأس[71]. كما لو أن ردة فعله ستكون مختلفة - في الواقع، لن تكون - لو أن السيدة الأولى كونان دويل لم تمت مؤخرًا. هل كان هذا ظلمًا؟ هل دقّق في جملة بسيطة عن كثب؟ لكن هذا ما فعله، كل يوم من حياته المهنية: قرأ باهتمام. وافترض أن السير آرثر ربما كتب للقراء المُحنّكين.

رسم جورج خطًّا تحت عدد من الجمل الأخرى بالقلم الرصاص وكتب عنها شرحًا في الهامش. هذا عن بدايات والده: "كيف أصبح الكاهن بارسيًا، أو كيف أصبح البارسي

---

71 (The Slough of Despond) هو مستنقع خيالي عميق في قصة الكاتب الإنجليزي والواعظ التطهيري جون بنيان الرمزية تقدم الحاج، إذ يغرق بطل الرواية المسيحي تحت وطأة خطاياه وشعوره بالذنب تجاههم.

كاهنًا، لا فكرة لدي". حسنًا، امتلك السير آرثر فكرة، وفكرة مُحكمة وصحيحة جدًا؛ لأن جورج شرح مسيرة والده في فندق غراند، شارع تشارينغ كروس. ومن ثم هذا: "ربما كان بعض الرعية من أصحاب الفكر الكاثوليكي يرغبون في إظهار عالمية الكنيسة الأنغليكانية. آمل ألّا تتكرر التجربة، على الرغم من أن الكاهن بدا رجلاً لطيفًا ومتفانيًا، فإن ظهور رجل دين ملون مع ابن هجين في رعيّة جاهلة وبدائية لا بد أنه تسبب في بعض الأوضاع المؤسفة". وجد جورج هذا إجحافًا. ألقى عمليًّا اللوم على عائلة والدته، التي كانت الأبرشية هديّتها، للأحداث التي وقعت. لم يعجبه وصفه بأنه "ابن هجين". كان ذلك بلا شك صحيحًا من ناحية التفاصيل، لكنه لم يعد يفكر بينه وبين نفسه بهذه التعبيرات أكثر مما اعتقد أن مود أخته الهجينة، أو هوراس أخوه الهجين. ألا توجد طريقة أفضل لصياغته؟ ربما اعتقد والده أن مستقبل العالم يعتمد على مزج الأجناس المتناغم، يمكنه أن يأتي بتعبير أفضل.

"ما أثار سخطي وأعطاني القوة الدافعة لتحمل الأمر هو عجز هذه المجموعة الصغيرة البائسة التام، ورجل الدين الملون في وضعه الغريب، والأم الشجاعة ذات العيون الزرق، صاحبة الشعر الرمادي، والابنة الشابة، باتوا طُعمًا للسُّذّج قساة القلوب". عجز مطلق؟ ألم يخطر لك أن الأب نشر تحليله الخاص بالقضية قبل ظهور السير آرثر على الساحة. ولا أن الأم ومود دأبتا على كتابة الخطابات باستمرار؛ لحشد الدعم والحصول على شهادات؟ تبيّن لجورج أن السير آرثر، في الوقت الذي استحق فيه الكثير من التقدير والثناء، كان عازمًا جدًا على أن يستأثر الفضل والثناء لنفسه. ومن المؤكد أنه قلّص الحملة طويلة الأجل التي قام بها السيد فولس في صحيفة تروث، ناهيك عن السيد يلفيرتين، وطلبات الالتماس، وعريضة التوقيعات. حتى تقرير السير آرثر عن كيفية إدراكه للقضية لأول مرة على بيّنة من حالة خلل واضحة "في أواخر عام ألف وتسعمئة وستة، صادف أنني التقطت صحيفة غامضة تدعى ذي أمبير، ووقعت عيني على مقال عبارة عن بيان عن قضيته، أدلى به بنفسه". لكن السير آرثر فقط "صادف أن التقط" هذه "الورقة الغامضة" لأن جورج أرسل جميع مقالاته بمغلف رسائل طويل، للسير آرثر الشهير.

لا ، ظنّ جورج أن هذا بدا غير لائق منه. لا شك أن السير آرثر شغّل ذاكرته، من

روايته للأحداث التي ذكرها بنفسه، وأعاد سردها على مرّ الأعوام. عرف جورج من أخذ إفادات الشهود كيف أن إعادة سرد الأحداث باستمرار يصقل حواف القصص، ويجعل المتحدث أكثر وعيًا بذاته، ويمنح كل شيء مصداقية أكثر مما كانت عليه في ذلك الوقت. مرّ بعينه الآن على تقرير السير آرثر، ولم يرغب في العثور على مزيد من الأخطاء. وأعقبت كلمات "تزييف العدالة" القريبة من النهاية: "حصلت ديلي تلغراف له على اشتراك يصل إلى حوالي ثلاثمئة جنيه إسترليني" سمح جورج لنفسه بابتسامة مزمومة قليلاً: إنه هو المبلغ نفسه الذي جُمع في العام التالي من خلال مطالبة السير آرثر نيابة عن عدّاء الماراثون الإيطالي. لقد لامس الحدثان قلب عامة البريطانيين بالتأثير ذاته القابل للقياس بالضبط: عقوبة السجن لمدة ثلاث سنوات باطلة مع الأشغال الشاقة، والسقوط في نهاية السباق الرياضي. حسنًا، لا شك أن وضع قضيتك في نصابها الصحيح أمر مفيد.

لكن بعد سطرين، تعثّر في الجملة التي قرأها جورج أكثر من أي جزء آخر في الكتاب، وعوضت عن أي معلومات غير دقيقة وتوكيدات خاطئة، وقدمت بلسمًا لشخص عانى معاناة مهينة للغاية. إنها هنا: "لقد حضر حفل زفافي، وليس هناك ضيف كنت فخورًا برؤيته مثله". نعم. قرر جورج أخذ ذكرياته ومغامراته معه إلى القدّاس، في حال اعترض أي شخص على حضوره. يجهل كيف يبدو الروحانيون -ناهيك عن ستة آلاف منهم- لكنه شك في أن واحدًا منهم يشبهه هو نفسه. الكِتاب سيكون بمثابة جواز سفره في حالة واجه أي عقبة. كما ترون، هنا في الصفحة المئتين وخمس عشرة، هذا أنا، لقد جئت لوداعه، وأنا فخور بكوني ضيفه مرة أخرى.

بعد ظهر يوم الأحد، وبعد الساعة الرابعة بقليل، خرج من 79 شارع بورو هاي، وتوجّه إلى جسر لندن: رجل أسمر ضئيل الجسد، يرتدي بدلة رسمية زرقاء، مع كتاب أزرق داكن مدسوس تحت ذراعه الأيسر وزوج من المناظير معلّق على كتفه الأيمن. قد يعتقد مُشاهد عادي أنه ذاهب إلى اجتماع تحضيري -باستثناء أن أيًّا منها لا تتم يوم الأحد. أو أنه كتاب مراقبة الطيور تحت ذراعه- لكن من يذهب لمشاهدة الطيور في بدلة رسمية؟ تمكن من رؤية مشهد غريب في ستافوردشاير، وحتى في برمنغهام ربما حطّوا من قدره كغريب أطوار. لكن لا أحد سيفعل ذلك في لندن، التي بها ما هو أكثر من غريبي الأطوار بالفعل.

عندما انتقل إلى هنا لأول مرة، انتابه القلق. على حياته المستقبلية بالطبع، وكيفية إدارة حياتهما هو ومود معًا، وضخامة المدينة وجموعها وضجيجها، وأبعد من ذلك، على كيفية معاملة الناس له. سواء هناك أشرارًا مُتربّصين مثل أولئك الذين دفعوه عبر الوشيع في لانديوودِ وأتلفوا مظلته، أو رجال شرطة مجانين مثل أبتون يُهدّدون بإيذائه، ما إذا واجه التحيز العرقي، فإن السير آرثر كان مقتنعًا بأنه يكمن في مرتبة أدنى في قضيته. ولكن عندما عبر جسر لندن، وهو ما فعله الآن لأكثر من عشرين عامًا، غمره شعور براحة تامة. ترك الناس لك وحدك عمومًا، إما من باب المجاملة أو اللامبالاة، وكان جورج ممتنًا لأي من هذين الدافعين.

صحيح أن الافتراضات غير الدقيقة باتت معتادة: هو وشقيقته وصلا إلى البلاد مؤخرًا، كان هندوسيًا وتاجر توابل. وبالطبع سُئل من أين أتى؟ على الرغم من أنه حين رد -لتجنب مناقشة أدق النقاط الجغرافية- أنه من برمنغهام، أومأ محاوروه بطريقة أوحت بأنهم غير متفاجئين على الإطلاق، كما لو أنهم خمّنوا أن سكان برمنغهام يبدون مثل جورج إدالجي دائمًا. بطبيعة الحال صارت هناك نوع من التلميحات حملت روح الدعابة التي ذهب إليها غرينواي وستينتسون -على الرغم من قِلّتها في بيتشوانالاند- لكنه اعتبر ذلك أمرًا طبيعيًا حتميًا، مثل المطر أو الضباب. بل إن بعض الأشخاص حين علموا أنه قادم من برمنغهام، عبّروا عن خيبة أملهم؛ لأنهم تعشّموا في الحصول على أخبار من أراضٍ بعيدة لن تقدر على توفيرها لهم.

أخذ مترو الأنفاق من البنك إلى هاي ستريت كنسينغتون، ثم مشى شرقًا حتى برزت قاعة ألبرت الملكية أمام مرأى بصره. حِرصه مع مرور الوقت -هو ما رغبت مود في استفزازه- جعله يصل قبل ساعتين من موعد بدء القدّاس. قرر القيام بنزهة في الحديقة.

كان ذلك بعد الساعة الخامسة من مساء يوم من أيام الآحاد في يوليو، ومنصة الفرقة الموسيقية تعزف بعيدًا. امتلأ المتنزه بالعائلات والسيّاح والجنود... على الرغم من أنهم لم يشكلوا في أي وقت جمهورًا كثيفًا، لذلك لم يُصَب جورج بالقلق. كما أنه لم ينظر إلى الأزواج الشباب، وهم يتبادلون الدعابات، أو إلى الآباء الرصينين المسؤولين عن تنظيم الأطفال الصغار بالحسد نفسه الذي أمكن أن يشعر به ذات مرة. عندما وصل

إلى لندن لأول مرة، لم يفقد الأمل في الزواج بعد. في الواقع، قلق حول إمكانية انسجام زوجته المستقبلية ومود معًا؛ لأنه فهم أنه لا يستطيع التخلي عن مود. ولا يرغب في ذلك. لكن بعد ذلك بأعوام قليلة، أدرك أنّ حمل مود انطباعًا جيّدًا عن زوجته المستقبلية أهم بكثير من رأي زوجته المستقبلية في أخته. ثم مرت بضع أعوام أخرى، وأصبحت عيوب الزوجة المستقبلية أكثر وضوحًا. قد تبدو الزوجة مقبولة لكنها سرعان ما تتحول لامرأة سليطة اللسان. ربما لا تفهم الزوجة معنى الادخار، ومن المؤكد أن الزوجة تتمنى إنجاب الأطفال، ويعتقد جورج أنه ربما لا يستطيع احتمال الضوضاء أو الفوضى التي سيجلبها الإنجاب لعمله. وبعد ذلك بالطبع، برزت هناك المسائل الجنسية، التي لا تؤدي في كثير من الأحيان إلى التوافق. لم يتعامل جورج مع حالات الطلاق، لكن كمحامٍ رأى أدلة كافية على البؤس الذي يمكن أن يحدثه الزواج. لطالما شنّ السير آرثر حملة ضد قمع قوانين الطلاق، وشغل منصب رئيس لاتحاد الإصلاح لعدة أعوام، قبل تسليمها إلى اللورد بيركنهيد. من اسم في قائمة الشرف إلى اسم آخر: كان اللورد بيركنهيد، مثل إف. إي. سميث، طرح على غلادستون أسئلة بحثية في مجلس النواب عن قضية إدالجي.

مع ذلك، حدث هذا في السابق. بلغ الرابعة والخمسين من عمره، ويعيش في راحة تامة وذو نظرة فلسفية لحالته الاجتماعية كرجل غير متزوج. خسرت الأسرة شقيقه هوراس الآن: تزوج وانتقل إلى إيرلندا وغيّر اسمه. لم يكن جورج متأكدًا بأي ترتيب نفّذ هذه القرارات الثلاثة، لكنها قرارات ارتبطت ببعضها ارتباطًا واضحًا، وأي فعل كراهية لابد أنه استنزف الآخرين مباشرة. اتّخذ كل واحد منهم نهجًا مختلفًا للعيش، والحقيقة أن ارتباط أي واحد منهما هو أو مود أمرٌ مستبعد. كانا متشابهين في خجلهما، وصدّهما أولئك الذين اقتربوا منهما. لكن العالم به ما يكفي من الزيجات، وبالتأكيد ليس مهددًا بقلِة السكان. يمكن أن يعيش الأخ والأخت بانسجام مثل زوج وزوجة، وفي بعض الحالات أكثر من ذلك.

في أيامهما الأولى معًا، عاد هو ومود إلى ويرلي مرتين أو ثلاث مرات في العام، لكنهما نادرًا ما أمضيا أوقاتًا سعيدة في تلك الزيارات، استعاد جورج فيها الكثير من الذكريات الخاصة. مازال قَرْع الباب يفزعه. بينما في المساء دأب على تأمل الحديقة المظلمة، لمح

تحت الأشجار تبدّل خطوطها العريضة التي عرف أنها لا شيء ومازالت ترعبه في كثير من الأحيان. أما مود فالأمر مختلف معها. كرست نفسها كما عُرف عنها لوالدها ووالدتها، حين عادت إلى بيت الكاهن أصبحت منطوية ومترددة. احتفظت بآرائها لنفسها غالبًا ولم تُسمع ضحكاتها. يكاد جورج أن يقسم أنها بدأت تشعر بالتوعك. لكنه عرف الحل دائمًا: إنه يدعى نيو ستريت ستيشن وقطار لندن.

في البداية، حين كان هو ومود يخرجان معًا، دأب الناس على أن يخطئوا، ويحسبوا أنهما زوج وزوجة أحيانًا. وجورج الذي لم يرغب في أن يعتقد أحد أنه غير قادر على الزواج، يرد تحديدًا: "لا، إنها أختي العزيزة مود" لكن مع مرور الوقت، صار لا يُكلّف نفسه عناء تصحيح الفكرة أحيانًا، وبعد ذلك ستمسك مود ذراعه وتضحك قليلًا. سرعان ما افترض أن الشيب يغزو شعرها مثل شعره، سيُعدّان زوجين مُسنّين، وقد لا يهتم حتى بالاعتراض على هذا الافتراض.

تجوّل بعشوائية، حتى وجد نفسه يقترب من نصب ألبرت التذكاري الآن. كان الأمير يجلس في محيطه الذهبي واللامع، بحضور جميع رجال العالم من المشاهير. استخرج جورج منظاره من حافظته وبدأ في استخدامه. اجتاز ببطء النصب التذكاري، فوق المُسطَّحات التي ساد فيها الفن والعلوم والصناعة، وفوق شخصية الزوجة الجالسة الغارقة في التأمل، وصولًا إلى عالم أعلى. وجد أنه من الصعب السيطرة على المقبض الخشن، وأحيانًا ملأت كتلة من أوراق الشجر غير الملحوظة العدسة، لكنه برز مع رؤية واضحة لصليب مسيحي عريض في النهاية. من هناك تتبع القمة المُستدقّة ببطء إلى الأسفل، التي بدت مكتظة بالسكان مثل روافد النصب التذكاري الدنيا. صفوف من الملائكة، وبعد ذلك -أقل بقليل من الملائكة- مجموعة من تماثيل بشرية أكثر، مكسوّة بأسلوب كلاسيكي. لقد طاف حول النصب التذكاري، وفقد التركيز في كثير من الأحيان، في محاولة لمعرفة من هم: امرأة مع كتاب في يد، وثعبان في اليد الأخرى، ورجل في فرو دب مع هراوة كبيرة، وامرأة مع مرساة، وشخص مقنّع مع شمعة طويلة في يده... هل هم قدّيسون، أو ربما شخصيات رمزية؟ آه، أخيرًا هنا تعرّف على إحدى الشخصيات، الواقفة عند زاوية قاعدة التمثال: تحمل سيفًا في يد، وميزانًا في اليد الأخرى. سُرّ جورج عندما

لاحظ أن النحّات لم يجعلها معصوبة العينين. غالبًا ما أثار هذا التفصيل رفضه: ليس لأنه لم يفهم مغزاه، ولكن لأن الآخرين فشلوا أيضًا. سمحت العُصابة للجاهل بالتهكّم على عمله. وهو ما لن يسمح به جورج.

أعاد المنظار إلى حافظته، ووجّه انتباهه من التماثيل أحادية اللون والجامدة إلى الملونة والمتحركة من حوله، ومن الفنون الجدارية المنحوتة إلى الحية منها. وفي تلك اللحظة، صُدم جورج عند إدراكه أن الجميع سيموتون. حتى إنه في بعض الأحيان، فكّر مليًا في موته. أكْمَدَه الحزن على والديه... والده قبل اثنتي عشرة سنة، ووالدته قبل ست سنوات. سبق له أن قرأ نعايا في الصحف وشارك في جنازات زملائه. والآن هو هنا لتوديع السير آرثر العظيم. ولكن لم يسبق له أن أدرك -على الرغم من أنه وعي عميق أكثر منه إدراكًا عقليًا- أن الجميع سيموتون. وبالتأكيد لقّنوه هذا حين كان طفلًا، على الرغم من أنه كحال الجميع -مثل العم كومبسون- يستمرون في العيش فقط بعد ذلك، إما في أحضان المسيح أو في مكان آخر إذا صاروا أشرارًا. لكنه الآن نظر حوله. توفي الأمير ألبرت قطعًا، وكذلك أرملة وندسور التي نَعَتْه. لكن تلك المرأة ذات المظلة الشمسية ستموت، ووالدتها إلى جانبها ستموت قريبًا، وهؤلاء الأطفال الصغار سيموتون لاحقًا، على الرغم من أنه إذا وقعت هناك حرب أخرى، ربما يموت الصبيان عاجلًا، وهذان الكلبان اللذان معهم قد يصبحان ميتين أيضًا، وأعضاء الفرقة الموسيقية البعيدة، والطفل في عربة الأطفال، حتى الطفل في عربة الأطفال، لو عاش لعمر يصبح فيه أكبر قاطن سِنًّا على الكوكب، مئة وخمسة، مئة وعشرة، مهما بلغ، فإن هذا الطفل سيموت أيضًا.

وعلى الرغم من أن جورج اقترب الآن من حدود خياله، إلا أنه تابع أكثر من ذلك بقليل. إن عرفت شخصًا مات، فعندئذ يمكنك التفكير فيه بإحدى طريقتين: كونه ميتًا ومضِى نهائيًا، مع اختبار موت الجسد وإثبات أن ذاته وجوهره وفردانيته لم تعد موجودة، أو يمكنك أن تصدق أنه في مكان ما، بطريقة أو أخرى، وفقًا لأي دين تعتنقه، وإلى أي مدى تتمسك به بشدة أو بفتور، مازال على قيد الحياة، إما بطريقة تنبأت بها النصوص المقدسة، أو بطريقة ما لم نفهمها بعد. إنها إحدى الطريقتين، وليس هناك حل وسط، ومال جورج سرًا إلى الاعتقاد بأن الاحتمال الأكبر هو الفناء. لكن عندما وقف في هايد بارك بعد ظهر

أحد أيام الصيف الدافئة بين آلاف البشر الآخرين، ربما قلة منهم فكروا في الموت، كان من السهل تصديق أن هذا الأمر المكثف والمعقد الذي يسمى الحياة مجرد فرصة حدثت على كوكب غامض، لحظة نورانية وجيزة بين أبديتين من الظلام. في مثل هذه اللحظة غدا من الممكن الشعور بأن كل هذه الحيوية يجب أن تستمر بطريقة أو أخرى، في مكان ما. أدرك جورج أنه ليس على وشك الاستسلام لأي دفقة من المشاعر الدينية... فهو لن يطلب من جمعية مرليبون الروحية بعض الكتب والكتيبات التي عرضوها عليه عندما أخذ تذكرته. علم أنه سيواصل بلا شك العيش كما فعل على الدوام، راصدًا مثل بقية البلاد -وبشكل رئيس بسبب مود- الطقوس العامة لكنيسة إنجلترا، ومراقبًا بنوع من الفتور، وبطريقة غير دقيقة مليئة بالأمل، حتى وقت وفاته، عندما سيكتشف حقيقة الأمر أو على الأرجح، لن يكتشف أي شيء على الإطلاق. لكنه اليوم فقط -مثلما هرول ذاك الحصان والفارس وتجاوزاه- حُكِم على ذلك الحصان والفارس بالفشل مثل الأمير ألبرت -اعتقَد أنه رأى القليل مما رآه السير آرثر.

كل ذلك دفعه لشعور بضيق النّفَس والذعر. جلس على مقعد لتهدئة نفسه. نظر إلى المارة ولكنه شاهد موتى فقط يمشون... أُطلق سراح السجناء بترخيص، ولكن من المحتمل أن يتم استدعاؤهم في أي لحظة. افتتح الذكريات والمغامرات وبدأ في تقليب صفحاته في محاولة لشغل نفسه. وعلى الفور قدّمت ثلاث كلمات نفسها إلى عينيه. من نوع الحروف المطبوعة العادية، لكنها أصابته مثل أحرف استهلالية: "قاعة ألبرت الملكية". ربما وجد عقلًا مؤمنًا بالخرافة أكثر أو ساذجًا ذا دلالة في الوقت الراهن. رفض جورج النظر إليها باعتبارها أكثر من مجرد صدفة. ومع ذلك، قرأ وتشتّت انتباهه. قرأ كيف منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا، دُعي السير آرثر للتحكيم في منافسات الرجل الأقوى في العالم في القاعة ذاتها. وكيف بعد عشاء الشمبانيا، خرج إلى الليل الخاوي ووجد نفسه على بُعد خطوات قليلة من الفائز، إنه شخص بسيط يستعد للتسكع في شوارع لندن حتى يحين الوقت للّحاق بقطار الصباح مرة أخرى إلى لانكشاير. يستشعر جورج نفسه في أرض الأحلام المفاجئة والنابضة بالحياة. حيث الضباب وأنفاس الناس بريئة، ورجل قوي يحمل تمثالًا من الذهب مع أنه لا يملك ثمن سرير. يراقب الرجل من الخلف، كما فعل السير آرثر،

يرى قبعة مائلة بزاوية، وسترة قماشية شدّتها أكتاف قوية، وثُبّت تمثال عرضًا تحت ذراع واحدة، وقدماه تتّجهان إلى الوراء. ضاع في الضباب، لكن مع محرّر كبير ودمِث وذي صوت أسكتلندي يمشي خلفه بخفّة، ولا يخشى أحدًا أبدًا. ماذا سيحدث لهم جميعًا الآن -المحامي المتهم خطأً، وعدّاء الماراثون المنهار، والرجل القوي التائه- بعد أن تركهم السير آرثر؟

لا تزال هناك ساعة للدخول، لكن الناس بدأوا بالفعل في التوافد على القاعة، لذا انضم إليهم لتجنب الزحام اللاحق. كانت تذكرته لمقصورة الدرجة الثانية. وُجِّه بضع خطوات إلى الخلف أفضت به إلى ممر مُقوّس. فُتح باب ووجد نفسه في مركز تشييع الجنازة المحدود للصندوق. وجد هناك خمسة مقاعد، وكلها شاغرة حاليًا: واحد في الخلف، واثنان جنبًا إلى جنب، وزوج آخر في الأمام إلى جانب الدرابزين النحاسي. تردد جورج للحظة، ثم أخذ نفسًا وتقدم إلى الأمام.

صُوّبت الأضواء عليه من جميع أنحاء هذا المسرح الكبير المُذهّب والأحمر الفخم. إنه مبنى أدنى من وادٍ بيضَويّ. ينظر بعيدًا جدًا، إلى الأسفل بعيدًا، وإلى الأعلى كثيرًا. لكم شخص يتسع... ثمانية آلاف أو عشرة آلاف؟ يصاب بالدوار على الأغلب، ويشغل مقعدًا في الأمام. يسعده أن مود اقترحت جلب المنظار: يُمشّط الصالة والمقاعد الأمامية المنحدرة، والصفوف الثلاثة للمقصورة، وآلة الأرغن ذات الأنابيب الكبيرة خلف خشبة المسرح، ثم الانحدار العلوي لشرفة المسرح، وصَفّ الأقواس المدعومة بأعمدة من الرخام البني، وفوقها بدايات قبة شاهقة متوارية عن الأنظار بقماش مظلل عائم من الكتان الآخذ في الانحدار، كمشهد الغيم فوق رؤوسهم. يتفحص الأشخاص الواصلين إلى مقدمة المسرح... بعضهم بكامل ملابسهم الرسمية، لكن معظمهم أذعن لرغبة السير آرثر في ألّا ينوح. يمشّط جورج المنصة بالمنظار مرة أخرى: هناكِ ضفاف لما يعتبره نبات الأرطاسيا، وسراخس متدلية نوعًا ما. نُصِبت مجموعة من الكراسي مدعومة الظهر للعائلة. ثُبتت مجموعة من الورق المقوى مستطيلة الشكل في الوسط. يركز جورج عدساته على هذا الكرسي. يقرأ المكتوب على اللافتة **السير آرثر كونان دويل.**

يخفي جورج منظاره مرة أخرى في حافظته، مع امتلاء القاعة. يصل مجاوروه في

مربع المقصورة على يساره. إنه ليس إلا مسند مبطن لذراع مقعد. يحيّونه بِود، كما لو أن المناسبة، على الرغم من جديتها، ليست رسمية. يتساءل إن كان وحده ليس روحانيًا. تصل أسرة مكونة من أربعة أفراد لإكمال مقصورته، يعرض أن يأخذ المقعد الوحيد في الخلف، لكنهم لن يسمعوا منه. يبدون له مثل سكان لندن العاديين: زوجان مع طفلين يقتربان من سن البلوغ. تشغل الزوجة المقعد المجاور له بلا وعي: إنها امرأة في أواخر الثلاثينات من عمرها كما يراها، مرتدية اللون الأزرق الداكن، ذات وجه عريض وقسمات واضحة وشعر كستنائي مُسترسل.

تقول بلطف: "نحن في منتصف الطريق إلى الجنة بالفعل هنا، أليس كذلك؟" يومئ بلطف. "ومن أين أنت؟"

قرر جورج لمرة واحدة الرد بدقة. يقول: "غريت ويرلي. إنها بالقرب من كانوك في ستافوردشاير" يتوقع نصفه منها أن تقول، مثل غرينواي وستينتسون: "لا، من أين أنت حقًا؟". لكن بدلاً من ذلك تنتظر فقط، ربما ليسمّي أي جمعية روحانية ينتمي إليها. يُغري جورج إلى قول، "كان السير آرثر صديقًا لي"، وأضاف: "في الواقع، شهدتُ حفل زفافه"، كان سيتابع، في حال شكّت فيه، لإثبات ما قاله من نسخته من الذكريات والمغامرات. لكنه يعتقد أن ذلك عجرفة. إلى جانب ذلك، قد تتساءل لو كان صديقًا للسير آرثر، لماذا يجلس بعيدًا جدًا عن خشبة المسرح بين الناس العاديين الذين لم يحالفهم الحظ.

عند امتلاء القاعة، تخفت الأضواء وتخرج المجموعة الرسمية على خشبة المسرح. يتساءل جورج عما إذا كان من المفترض أن يقف، وربما يصفق. إنه معتاد على طقوس الكنيسة، ومعرفة متى يقف ويركع ويبقى جالسًا، لكنه هنا يشعر بالضياع. إذا كان هذا مسرحًا وعزفوا النشيد الوطني، فإن ذلك سيحل المشكلة. يشعر أن الجميع يجب أن يقفوا على أقدامهم، تكريمًا للسير آرثر واحترامًا لأرملته، لكن لا تعليمات، وهكذا ظل البقية جالسين. ترتدي السيدة كونان دويل اللون الرمادي بدلاً من الأسود لون الحزن والحداد. يرتدي ولداها الطويلان دينيس وأدريان، ملابس رسمية ويحملان القبعات الرسمية، وتتبعهما أختهما جين، والأخت غير الشقيقة ماري، والطفل الباقي من زواج السير آرثر الأول. تشغل السيدة كونان دويل مقعدًا على يسار الكرسي الفارغ. يجلس ابنها إلى

جانبها، والآخر على الجانب الآخر من اللافتة، واضعين قبعاتهما الرسميتين على الأرض بوعي ذاتي. لا يستطيع جورج رؤية وجهيهما بوضوح على الإطلاق، ويرغب في الوصول إلى منظاره، لكنه يفكّر أن الحركة قد تبدو غير لائقة. بدلًا من ذلك، ينظر إلى ساعته. إنها السابعة بالضبط. أثار إعجابه الالتزام بالموعد، لقد توقع بطريقة ما أن الروحانيين أكثر تراخيًا في ضبط الوقت.

يقدم السيد جورج كريز من جمعية مرليبون الروحانية نفسه كرئيس للجلسة. يبدأ بقراءة شهادة نيابة عن السيدة كونان دويل:

جلست إلى جانب زوجي الحبيب في كل لقاء في جميع أنحاء العالم، وفي هذا الاجتماع الرائع، إذ حضر الناس بالاحترام والحب الذي في قلوبهم لتكريمه، وُضع كرسيه إلى جانبي، وأنا أعلم أنه سيكون قريبًا مني في حضوره الروحاني. على الرغم من أن أعيننا في الدنيا لا يمكن أن ترى ما وراء الاهتزازات الأرضية، فإن أولئك الذين وهبهم الرّب بصيرة إضافية تسمى استبصارًا سيمتلكون القدرة على رؤية تشكّل الغالي بيننا.

أريد باسم أبنائي واسمي واسم زوجي الحبيب، أن أشكركم جميعًا من قلبي على الحب الذي دفعكم للحضور هنا الليلة.

تلف همهمة حول القاعة. لم يتمكن جورج من تمييز ما إذا دلّت على التعاطف مع الأرملة أو خيبة الأمل من أن السير آرثر لن يظهر بأعجوبة أمامهم على خشبة المسرح. يؤكد السيد كريز أنه على عكس التكهنات الأكثر حماقة في الصحافة، لا شك في بعض التمثيل المادي للسير آرثر الذي يتجلى بنفسه كما لو أنه خدعة سحرية. لأولئك غير المطلعين على الحقائق الروحانية، وخاصة للصحفيين الموجودين، يوضح أنه عندما يمر شخص ما، غالبًا ما تكون هناك فترة من الارتباك للروح، وقد لا تقدر على تفسيرها على الفور. ومع ذلك، تأهب السير آرثر تمامًا لرحيله، وهو ما واجهه مبتسمًا مطمئنًا، تاركًا أسرته وكأنه يسير في رحلة طويلة، لكنه على ثقة من أنهم سيجتمعون جميعًا مرة أخرى قريبًا. في مثل هذه الظروف، من المتوقع أن تجد الروح مكانها وقوتها أسرع من غيرها.

يتذكر جورج أمرًا قاله نجل السير آرثر أدريان لصحيفة ديلي هيرالد. قال إن الأسرة ستفتقد خطى الأب ووجوده الجسدي، لكن هذا كل شيء: "من ناحية أخرى، ربما ذهب إلى أستراليا فحسب" يعلم جورج أن بطله زار ذات مرة تلك القارة البعيدة؛ لأنه استعار كتاب ترحال روحاني[72] من المكتبة قبل بضع سنوات. في الحقيقة، وجد أن معلومات سفره ذات أهمية أكبر من اكتشافاته اللاهوتية. لكنه يتذكر حين كان السير آرثر وعائلته -إلى جانب السيد وود الذي لا يعرف الكلل- انتشرت شائعات في أستراليا، أنهم عمّدوا الحجاج هناك. الآن عاد السير آرثر إلى هناك أو على الأقل بنظيره الروحي، أيًّا كان ذلك.

قُرِأت برقية السير أوليفر لودج. "سيستمر بطلنا العظيم في مواصلة نضاله على الجانب الآخر، بمزيد من الحكمة والمعرفة. ارفعوا قلوبكم[73]". ثم تقرأ السيدة مابل آني سانت كلير ستوبارت من كورينثيانز، وتعلن أن كلمات القديس بول تتناسب مع هذه المناسبة، إذ أن السير آرثر غالبًا ما وُصف في حياته بأنه القديس بول للروحانية. تشدو الآنسة غلاديس ريبلي بترنيمة ليدل سولو "ابق معي". تحدّث القس والروحاني الأشهر جورج فيل أوين عن العمل الأدبي للسير آرثر ويتفق مع وجهة نظر المؤلف بأن الجماعة البيضاء[٧٤] وتتمّتها السير نايجل[٧٥] كانت أفضل كتاباته. في الواقع، يرى أن الوصف في العمل الأخير لفارس مسيحي ورجل متدين للغاية قد يكون بمثابة صورة السير آرثر نفسه. يشيد القس سي. درايتون توماس الذي تولى نصف مراسم الجنازة في كروبورو، بنشاط السير آرثر الدؤوب باعتباره الناطق باسم الروحانية.

بعد ذلك، يقف الجميع لحركة الترنيمة المفضلة، "خذ بيدي وقُدني" يلحظ جورج شيئًا مختلفًا عن الغناء، لكنه لا يستطيع تحديده في البداية. "خذ بيدي أيها الضوء الكريم وثبّت قدمي.. إني لا أطمع في الأفق البعيد.. خطوة واحدة تكفيني.." للحظة يجد نفسه

---

72 (The Wanderings of a Spiritualist) للكاتب آرثر كونان دويل.

73 (Sursum Corda) هو الحوار الافتتاحي لمقدمة الصلاة الإفخارستية في الصلوات الخاصة بالكنيسة المسيحية. آية تحض المؤمنين في الليتورجيا الإفخارستية التقليدية على العبادة الحماسية تعني الشيء الملهم.

74 (The White Company) هي رواية مغامرة تاريخية بقلم آرثر كونان دويل وتقع أحداثها خلال حرب المئة عام. تدور أحداث القصة في إنجلترا، وفرنسا، وإسبانيا، في السنوات 1366 و1367، على خلفية حملة إدوارد الأمير الأسود لإعادة بيدرو ملك قشتالة لعرش مملكة قشتالة.

75 (Sir Nige) رواية تاريخية تجري أحداثها خلال المرحلة المبكرة من حرب المائة عام التي امتدت بين عامي 1350 و1356، وهي تذكر خلفية الأحداث لرواية دويل الأولى الجماعة البيضاء، والتي تصف الحياة الأولى لبطل ذلك الكتاب نيل لورينغ.

مشتتًا بين الكلمات، التي لا تبدو ملائمة على نحو خاص للروحانية: بقدر ما يفهمه جورج، يضع أتباع الحركة أعينهم على المشهد البعيد كل الوقت، وقد تحددت الخطوات اللازمة للوصول إلى هناك بدقة. ثم يُحوّل انتباهه من أمر إلى آخر. الغناء مختلف. يُغنّي الناس في الكنيسة الترانيم، وكأنهم يعيدون تعريف أنفسهم في سطور مألوفة منذ شهور وأعوام... سطور تحتوي حقائق مثبتة لا تحتاج إلى إثبات ولا تفكير. هنا تغمر الاستقامة والأصالة الأصوات. وهناك نوع من البهجة تتاخم العاطفة التي قد يجدها معظم القساوسة مقلقة. تُلفظ كل كلمة كما لو أن بها حقيقة جديدة تمامًا، واحدة يجب الاحتفال بها ونقلها للآخرين بسرعة. كل ذلك يُشعِر جورج بأنه ليس إنجليزيًا بما يكفي. باحتراس، وجدها رائعة إلى حد ما. "إلى/ أن يذهب الليل/ ومع الصباح يبتسم ذاك الوجه الملائكي/ الذي أُحبّه منذ فترة طويلة، وفقدته في لحظة"

عند انتهاء الترنيمة يأخذ الجميع مقاعدهم مرة أخرى، يمنح جورج جارته تحية صغيرة غامضة... متواضعة بما يكفي، ومع ذلك، إنها مبادرة لم يسبق له فعلها في الكنيسة. تستجيب بابتسامة تملأ وجهها. لا شيء فيها، ولا أي شيء مُبشّر أيضًا. ولا تظهر أي مبالاة واضحة. ابتسامتها تقول فحسب: نعم، هذا مؤكد، هذا صحيح، هذا مُفرِح.

جورج معجب، لكنه صُدم قليلاً: إنه يرتاب من الفرح. عرف القليل منه في حياته مصادفة. في طفولته، عرف شيئًا يسمى المتعة، وعادة ما جاءت مصحوبة بالصفات المُدانة أو الماكرة أو غير المشروعة. الملذات الوحيدة المسموح بها هي تلك التي تبدلت بكلمة بسيطة. أما عن الفرح، فقد ارتبط بملائكة تنفخ الأبواق، ومكانها الحقيقي في السماء وليس على الأرض. فليكن الفرح بلا حدود... هذا ما قاله الناس، أليس كذلك؟ لكن مع تجربة جورج، كان الفرح حبيسًا على الدوام. أما المتعة، فقد عرف متعة القيام بواجب المرءِ.. تجاه الأسرة والمُوكّلين وأحيانًا الرّب. لكنه لم يقم أبدًا بمعظم الأشياء التي تمنح مواطنيه المتعة: شرب البيرة والرقص ولعب كرة القدم والكريكت. ناهيك عن الأشياء التي قد تأتيه لو أنه تزوج. لن يعرف أبدًا امرأة تقفز مثل فتاة، وتربت على شعرها، وتجري للقائه.

يقول السيد إي. دبليو. أوتين، الذي ترأس بفخر أول اجتماع كبير تناوله السير آرثر حول الروحانية، إنه لا وجود لأي شخص يجمع في داخله بين كل الفضائل التي

نربطها بالشخصية البريطانية: الشجاعة والتفاؤل والولاء والتعاطف والشهامة ومحبة الحق والتفاني للرّب. بعد ذلك يتذكر السيد هانين سوافر كيف أن السير آرثر، منذ أقل من أسبوعين، قاوم خطوات وزارة الداخلية للمطالبة بإلغاء قانون السحر، رغم مرضه المميت الذي سعى أصحاب النوايا الحاقدة إلى التذرع به ضد الوسطاء. كان ذلك واجبه الأخير، وفي تفانيه للواجب لم يتعثر أبدًا. برز هذا في كل جانب من جوانب حياته. عرف الكثير من الناس دويل الكاتب، دويل المسرحي، دويل المسافر، دويل الملاكم، دويل لاعب الكريكت الذي تجاهل ذات مرة اللاعب الشهير دبليو. جي. غرايس العظيم. لكن أعظم دويل من بين هؤلاء كان دويل الذي طالب بالعدالة حين زُجّ الأبرياء في أتون المعاناة. وبنفوذه أُقرّ قانون الاستئناف الجنائي. هذا هو دويل الذي انتصر انتصارًا كبيرًا في قضيتيْ إدالجي وسلاتر.

يُخفض جورج نظره عند ذكر اسمه غريزيًا، ثم بفخر، ثم خلسة بطرف عينه. من المؤسف أن اسمه اقترن مرة أخرى بهذا المجرم الخسيس والجاحد. لكنه يعتقد أن من دواعي سروره أن يذكر اسمه في هذه المناسبة العظيمة. ستسعد مود أيضًا. يختلس النظر إلى جيرانه مباشرة، لكن اللحظة التي ورد فيها ذِكر اسمه مرّت. أعينهم على السيد سوافر فقط، التي انتقلت للاحتفاء بدويل آخر، وأعظم من دويل جلّاب العدالة. كان أعظم من كل آل دويل، إنه الرجل الذي حمل في ساعات قنوط الحرب إلى نساء البلاد الدليل المريح على أن أحباءهن لم يموتوا.

يُطلب منهم الآن الوقوف في صمت مدة دقيقتين لتكريم ذكرى بطلهم العظيم. بينما تنهض السيدة كونان دويل تخفض عينيها فترة وجيزة إلى حيث الكرسي الشاغر المجاور لها، ثم تنهض، مُحدّقة بعيدًا في القاعة، ويقف ابن طويل على كِلا جانِبيْها. ستة آلاف نظرة – ثمانية آلاف؟ عشرة آلاف؟- تأتيها من كل مكان، من الرواق والشرفة، من المقصورات المتدرجة، من المنحنى الكبير للمقاعد الأمامية، ومن الصالة. يخفض الناس رؤوسهم ويغمضون أعينهم لتذكّر الراحلين في الكنيسة. هنا لا توجد مثل هذه السلطة التقديرية أو الكينونة الداخلية: يُعبَّر عن التعاطف الصريح بنظرة مباشرة. يبدو لجورج أن الصمت له طبيعة مختلفة عن أي شيء شعر به من قبل أيضًا. الصمت الرسمي مُبجَّل وجليل وكثيرًا

ما يجلب الحزن عمدًا. هذا الصمت حيوي، وغارق في الترقب حتى الشغف. إذا أمكن الصمت أن يصبح مثل صخب مقموع، إذن هذا هو الصمت. عند انتهاء الأمر، يدرك جورج أن هذه القوى الغريبة سيطرت عليه حدّ أنه كاد ينسى السير آرثر.

عاد السيد كريز إلى الميكروفون مُعلنًا: "هذا المساء"، في الوقت الذي يعود آلاف الأشخاص للجلوس مرة أخرى، "سنقوم بتجربة جريئة للغاية بالشجاعة ذاتها التي زرعها فينا قائدنا الراحل. معنا روح حسّاسة ستحاول إعطاء انطباعات من هذه المنصة. أحد أسباب تردّدنا في القيام بذلك في مثل هذا الاجتماع الهائل هو أنه يضع ضغطًا كبيرًا على الأرواح الحسّاسة. تتركّز قوة هائلة على الوسيط في تجمّع من عشرة آلاف شخص. ستحاول السيدة روبرتس وصف بعض الأصدقاء الليلة، لكنها ستكون المرة الأولى التي تحاول فيها في مثل هذا التجمع الهائل. يمكنك المساعدة في تمايلك أثناء غناء الترنيمة التالية، "افتح عيوني كي أرى لمحات من الحقيقة".

لم يسبق لجورج أن حضر جلسة استحضار أرواح، أو حضر حدثًا مماثلاً لهذا قط، أو مرّ بكف غجرية فضي، أو دفع بنسين للجلوس أمام كرة بلورية في مدينة ملاهٍ. يؤمن أن كل هذا هراء. من يُصدِّق أن الخطوط الموجودة على اليد أو في أوراق الشاي في الكوب تكشف عن أي شيء هو فقط أحمق أو متخلف. إنه على استعداد لاحترام يقين السير آرثر بأن الروح تنجو من الموت، وربما في ظل ظروف معينة قد تمتلك هذه الروح القدرة على التواصل مع الأحياء أيضًا. كما أنه على استعداد للاعتراف بأنه قد يحدث شيء ما في تجارب التخاطر التي وصفها السير آرثر في سيرته الذاتية. لكن تأتي نقطة معينة يرفض جورج تجاوزها. لم يتجاوز على سبيل المثال، عندما يُطيِّر الناس الأثاث من حولهم، وعندما تُقرع الأجراس بظروف غامضة وتسطع وجوه الموتى الفلورية من العتمة، وعندما تَترك أيدي الروح بصمة مفترضة على الشمع الليّن. يجد جورج أنها خدعة شعوذة بوضوح. كيف لا يكون شك في أنَ أفضل الظروف للتواصل الروحي هي على وجه التحديد أفضل الظروف التي يمكن فيها للدجل أن يزدهر؟ الستائر المسحوبة والأضواء المطفأة والأشخاص المُتكاتِفون لا يمكنهم النهوض والتحقق مما يحدث للأسف. يحكم على السير آرثر أنه سريع التصديق. لقد قرأ أن الساحر الأمريكي السيد هاري هوديني، من تعرّف عليه السير آرثر في الولايات

المتحدة، عرض إعادة إنتاج كل تأثير معروف للوسائط المهنية. في عدة مناسبات، قيّده رجال بسيطون بإحكام، لكن مجرد أن تُطفأ الأضواء، تمكّن من تحرير نفسه بما يكفي لقرع الأجراس، وانطلاق الجلبة، وتحريك الأثاث، وحتى توليد الإكتوبلازم. رفض السير آرثر تحدّي هوديني. لم ينكر أن الساحر قد يقدر على إحداث مثل هذه الآثار، لكنه فضّل تفسيره الخاص لتلك القدرة: تمتّع السيد هوديني بقوى روحية، لا أن ينكر وجودها بعناد.

مع نهاية ترنيمة "افتح عيوني"، تتقدم امرأة نحيلة ذات شعر داكن قصير، تلبس الساتان الأسود الفضفاض إلى الميكروفون. إنها السيدة إستيل روبرتس، الوسيطة المفضلة للسير آرثر. الجو في القاعة الآن أكثر انفعالاً مما كان عليه خلال دقيقتي الصمت الماضيتين. تقف السيدة روبرتس هناك، وتتمايل قليلاً، مكتوفة اليدين، وخافضة رأسها. كل عين عليها. ببطء، ببطء شديد، تبدأ في رفع رأسها. ثم تفك يديها وتبدأ في مدّ ذراعيها، فيما يستمر التأثير البطيء. أخيرًا، تبدأ التفوّه بالكلمات.

"هناك عدد كبير من الأرواح هنا معنا" تستهلّ حديثها قائلة: "إنهم يتدافعون خلفي مثل أي شيء"

يبدو الأمر كذلك بالفعل: كما لو أنها تقف منتصبة على الرغم من الضغط الهائل عليها من اتجاهات عديدة.

لا يحدث أي شيء لفترة، باستثناء مزيد من الترنّح ومزيد من الارتجاج غير المرئي. تهمس المرأة التي على يمين جورج، "إنها تنتظر ظهور ريد كلاود"

يومئ جورج.

"إنه مرشدها الروحي" تضيف الجارة.

لا يعلم جورج ماذا يقول. هذا ليس عالمه على الإطلاق.

"العديد من المرشدين هنود" تتوقف المرأة مؤقتًا، ثم تبتسم وتضيف، بلا أدنى حرج، "الهنود الحمر، أعني"

الانتظار سيد الموقف كما كان الصمت، كما لو أن الذين في القاعة يضغطون على شخصية السيدة روبرتس النحيلة مثل أي أرواح غير مرئية. يتراكم الانتظار وتغرس الشخصية المتمايلة قدميها على نطاق أوسع كما لو أنها تحافظ على توازنها.

"إنهم يتدافعون، إنهم يتدافعون، الكثير منهم غير سعداء، القاعة، الأضواء، العالم الذي يفضلونه... شاب ذو شعر أسود مُمشَّط إلى الوراء، في زيٍّ عسكريٍ، وحزام سام براون، لديه رسالة... امرأة، أم، ثلاثة أطفال، توفى أحدهم وهو معها الآن... رجل مُسن أصلع الرأس كان طبيبًا ليس بعيدًا عن هنا، وهو يرتدي بدلة رمادية داكنة مرّت فجأة بعد حادث مروعٍ... طفلة، نعم، فتاة صغيرة أخذتها الأنفلونزا تفتقد شقيقيها أحدهما بوب ووالديها - كُفّي عن هذا! توقفي!"- تصيح السيدة روبرتس فجأة، وعلى ما يبدو بذراعيها الممدودتين تصد الأرواح المُتجمهرة خلفها... "هناك الكثير منهم، أصواتهم مشوشة، رجل في منتصف العمر في معطف أسود، قضى معظم حياته في أفريقيا - لديه رسالة - هناك جدة ذات شعر أبيض تشاركك قلقك وتريد منك أن تعرف..."

يستمع جورج إلى حشد من الأرواح التي وُصِفت بإيجاز. الانطباع هو أنها جميعًا تصيح مطالبة بالاهتمام، وتقاتل من أجل إيصال رسائلها. طريف أن يخطر سؤال منطقي لجورج، إذ لا يستطيع أن يجيب، إلا كردّ فعل على كل هذه الشدة غير المرغوب فيها. إن كانت هذه هي بالفعل أرواح الإنجليز من الرجال والنساء التي عبرت إلى العالم الآخر، فمن المؤكد أنهم سيعرفون كيفية تشكيل طابور صحيح؟ إن تمت ترقيتهم إلى مستوى أعلى، فلماذا اختُزلوا إلى مثل هؤلاء الرّعاع اللّحوحين؟ لا يظن أنه سيشارك هذه الفكرة مع جيرانه المتاخمين له، الذين يميلون إلى الأمام ويمسكون الدرابزين النحاسي.

"... رجل يرتدي بدلة مزدوجة الصدر بين الخامسة والعشرين والثلاثين لديه رسالة - فتاة، لا، أخوات، عبرن فجأة - رجل مسن فوق السبعين، عاش في هيرتفوردشاير..."

يتواصل نداء الأسماء، وأحيانًا وصف موجز للحظات من جزء بعيد من القاعة سيرسم شهقة. إن الترقب من حوله محموم ومجهد وهناك شيء مخيف أيضًا. يتساءل جورج عما يجب أن يصبح عليه الحال عندما ينتقيك فرد راحل من أفراد عائلتك في حضور الآلاف. يتساءل عما إذا كان معظمهم لا يفضل أن يحدث هذا في غرفة تحضير أرواح مظلمة وذات ستائر في عزلة، أو ربما لا على الإطلاق.

تهدأ السيدة روبرتس مرة أخرى. يبدو الأمر كما لو أن الثرثرة المتضاربة خلفها وحولها، قد تراجعت أيضًا في الوقت الحالي. ثم فجأة تدفع الوسيطة ذراعها الأيمن، وتشير

إلى الجزء الخلفي من المقاعد الأمامية، على الجانب الآخر من القاعة لجورج. "نعم هناك! رأيته! أرى هيئة روح جندي شاب. إنه يبحث عن شخص ما. إنه يبحث عن رجل بالكاد لديه أي شعر"

جورج مثل أي شخص آخر لديه إطلالة عبر القاعة، يتطلع باهتمام، ويتوقع نصفه أن للروح هيئة مرئية، ونصفه يحاول التعرف على الرجل الذي بالكاد لديه أي شعر. ترفع السيدة روبرتس يدها لحماية عينيها، كما لو أن أضواء القوس تتداخل مع إدراكها لهيئة الروح.

"يبدو أنه في الرابعة والعشرين. بزي كاكي. مُنتصب، متين البُنية، مع شارب صغير، وفمٍ مرتخٍ قليلاً عند الزوايا. لقد مرّ فجأة".

تتوقف السيدة روبرتس مؤقتًا، وتميل برأسها للأسفل، بدلاً من ذلك كما قد يفعل المحامي عند أخذ ملحوظة من المحامي إلى جانبه.

"يخصص عام ألف وتسعمئة وستة عشر عامًا لرحيله. إنه يطلق عليك بوضوح اسم "العم". نعم، "العم فريد""

ينهض رجل أصلع في الجزء الخلفي عن المقاعد على قدميه، ويومئ برأسه، كما يجلس فجأة، كما لو أنه غير متأكد من آداب السلوك.

"يتحدث عن الأخ تشارلز"، الوسيط مستمر. "هل هذا صحيح؟ يريد أن يعرف إذا كانت معك العمة ليليان. هل تفهم؟"

يبقى الرجل في مقعده هذه المرة، وهو يومئ بقوة.

"أخبرني أنها ذكرى عيد ميلاد أخ. ويوجد بعض القلق في المنزل. لا حاجة لذلك. تستمر الرسالة..." ثم تتقدم السيدة روبرتس فجأة إلى الأمام، كما لو أنها دُفِعت بعنف من الخلف. تدور حولها وتبكي، "حسناً!" يبدو أنها تتراجع. "حسناً! أقول"

لكن عندما تستدير لمواجهة الصالة مرة أخرى، من الواضح أن الاتصال مع الجندي قد انقطع. تغطي الوسيطة وجهها بيديها، وأصابعها تضغط على جبهتها، وإبهاميها تحت أذنيها، كما لو أنها حاولت استعادة التوازن الضروري. وأخيرًا، تبعد يديها عن وجهها وتفرد ذراعيها.

هذه المرة ظهرت روح امرأة يتراوح عمرها بين الخامسة والعشرين والثلاثين عامًا، واسمها يبدأ بـحرف جي. تلقت الدّعم أثناء ولادة صغيرتها، التي ما لبثت أن رحلت في اللحظة نفسها. تتفحص السيدة روبرتس الجزء الأمامي من الصالة جيدًا، بعد تقدم أم مع روح رضيعتها في ذراعيها، وهي تحاول تحديد مكان زوجها المَنسي. "نعم، تقول إن اسمها جون - وهي تبحث عنه – من يبدأ اسمه بحرف آر، نعم آر - هل هو ريتشارد؟" حين ينهض رجل مباشرة من مقعده ويصرخ، "أين هي؟ أين أنتِ يا جون؟ جون، تحدثي معي. أرني صغيرتنا!" إنه في حالة ذهول شديد ويحدّق في كل ما حوله، حتى يسحبه زوجان عجوزان، ينظران بحرج، ويسحبانه ليجلس.

ركزت السيدة روبرتس، كما لو أن الانقطاع لم يحدث قط، تركيزًا تامًا على صوت الروح، وتقول: "الرسالة هي أنها والطفلة تراقبانك وتعتنيان بك فيما تواجه من مصاعب حالية. إنهما في انتظارك على الجانب الأبعد. إنهما سعيدتان، ويتمنيان لك أن تكون سعيدًا إلى أن تلتقوا جميعًا مرة أخرى"

يبدو أن الأرواح أصبحت الآن أكثر تنظيمًا. تُحدّد الهوية وتُمرّر الرسائل. يبحث رجل عن ابنته. إنها مهتمة بالموسيقى. وهو يحمل نوتة مفتوحة. اعتُمِدت الأحرف الأولى ثم الأسماء. تسلمت السيدة روبرتس الرسالة: إن روح أحد كبار الموسيقيين تساعد ابنة الرجل، إذا استمرت في العمل بجد، فإن الروح ستستمر بتأثيرها.

بدأ جورج في تمييز النمط. الرسائل المنقولة، سواء كانت تعزية أو تشجيع أو كليهما، ذات طبيعة عامة جدًا. وكذلك الحال بالنسبة لتحديد الهويات، على الأقل في البداية. لكن بعد ذلك تأتي بعض التفاصيل الدقيقة، وغالبًا ما تأخذ من الوسيط وقتًا في البحث عنها. يحسب جورج أنه من المُستبعد إلى حد كبير أن تكون هذه الأرواح، إن وجدت، عاجزة عجزًا مدهشًا على إيصال هويتها دون الكثير من ألعاب التخمين من السيدة روبرتس. هل مشكلة الانتقال المفترضة بين العالمين ليست إلا خدعة لزيادة الدراما - في الواقع الميلودراما - حتى لحظة الذروة التي يومئ فيها شخص ما من الحضور، أو يرفع ذراعه، أو يقف كما لو أنه استُدعِي، أو يغطي بيديه وجهه في حالة من عدم التصديق والفرح؟

يمكن أن تكون مجرد لعبة تخمين ذكية: من المؤكد أن هناك احتمالية إحصائية

بأن شخصًا ما يحمل الحروف الأولى الصحيحة، ثم الاسم الصحيح، سيكون موجودًا في جمهور بهذا الحجم، وقد تُنمِّق الوسيطة كلماتها بذكاء لتقودها إلى هذا المرشح. أو يمكن أن كل ذلك حيلة صريحة، مع زرع شركاء متواطئين بين الجمهور؛ لإثارة الإعجاب وتحويل السذّج. ثم هناك احتمال ثالث: أن أولئك الذين يومِئون برؤوسهم ويرفعون أذرعهم ويقفون ويصرخون صرخة على حين غرة حقًا، ويؤمنون بصدق أن الاتصال جرى، ولكن هذا لأن شخصًا من دائرته -ربما روحاني متحمس مصمم على نشر الإيمان بأي وسيلة كانت حتى لو سخيفة- قد نقل التفاصيل الخاصة إلى المنظمين. ويخلص جورج إلى أن هذا ربما يحدث على الأرجح. كما هو الحال مع الحنث باليمين، فإنه يعمل أفضل عندما يجتمع هناك خليط ذكي من الصواب والخطأ.

"والآن هناك رسالة من رجل محترم ومميز، رحل قبل عشرة أعوام، أو قبل اثني عشر عامًا. نعم، إنه معي، لقد رحل في عام ألف وتسعمئة وثمانية عشر، كما يخبرني" في السنة التي توفي فيها الأب، يفكر جورج. "أوشك على أن يبلغ من العمر خمسة وسبعين عامًا تقريبًا" غريب، بلغ والده السادسة والسبعين. صمت طويلًا نسبيًا، ثم: "لقد كان رجلًا روحانيًا للغاية" عند هذه النقطة، يشعر جورج أن جسده يبدأ في الوخز، على طول ذراعيه وصولًا إلى رقبته. لا، لا، بالتأكيد لا. يشعر بالتجمد في مقعده. يتصلّب كتفاه. يحدّق بجمود في خشبة المسرح، وينتظر الخطوة التالية للوسيطة.

ترفع رأسها، وتبدأ في النظر إلى الأقسام العلوية من القاعة، بين المقصورات العلوية والرسومات. "يقول إنه قضى أعوامه الأولى في الهند"

الآن تسري قشعريرة تجعل جورج مرعوبًا تمامًا. لا أحد على علم بقدومه إلى هنا إلا مود. ربما يكون تخمينًا عشوائيًا -أو بالأحرى، تخمينًا دقيقًا جدًا- خمّنه شخص على معرفة أن العديد من الأشخاص المرتبطين بالسير آرثر سيحضرون هنا على الأغلب. ولكن لا... لأن العديد من المشاهير والمُقدّرين، مثل السير أوليفر لودج، اكتفوا بإرسال برقيات فقط. هل يمكن أن أحدهم تعرف عليه حين وصل؟ ربما أمكن حدوث هذا تقريبًا... لكن كيف أمكنهم اكتشاف عام وفاة الأب؟

تُحرّر السيدة روبرتس ذراعها، وتشير إلى الطبقة العليا من المقصورات الموجودة على

الجانب الآخر من القاعة. ينتفض كل جسد جورج، كما لو أنه قُذف عاريًا في صف من نبات القراص. يفكّر: لن أكون قادرًا على تحمل ذلك، إنها قادمة، ولا أستطيع الهرب. تتحرك تلك النظرة والذراع ببطء حول المدرج الكبير، مع الحفاظ على ذات المستوى، كما لو أنها مشاهَدة لهيئة روحية تتنقل من مقصورة إلى مقصورة. جميع استنتاجات جورج العقلانية منذ لحظة لا قيمة لها. والده على وشك التحدث إليه. والده، الذي قضى كل حياته كاهنًا في كنيسة إنجلترا، على وشك التحدث إليه من خلال هذه... المرأة الغريبة. ماذا يريد؟ ما هي الرسالة التي يمكن أن تكون مُلحّة للغاية؟ شيء ما يجب القيام به مع مود؟ توبيخ أبوي لإيمان ابنه الضعيف؟ هل هو على وشك أن يقع عليه حكم مرعب؟ إلى جانب ذعره، وجد جورج نفسه متمنيًا لو أن والدته إلى جانبه. لكن والدته توفيت في هذه السنوات الست.

بينما يستمر رأس الوسيطة في الدوران بأناة، لا تَزال ذراعها تشير إلى المستوى نفسه، يشعر جورج بالخوف أكثر من اليوم الذي جلس فيه إلى مكتبه، مع العلم أنه في مرحلة ما ستأتي طرقة وسيعتقله شرطي بسبب جريمة لم يرتكبها قط. ها هو الآن مرة أخرى مشتبه به، وعلى وشك التعرف عليه أمام عشرة آلاف شاهد. يعتقد أنه يجب أن يقف على قدميه ببساطة وينهي التشويق بالبكاء، "هذا هو والدي!" ربما سيفقد وعيه ويسقط من الشرفة على المقاعد الأمامية في الأسفل. ربما سيفاجأ بنوبة.

"اسمه... يخبرني باسمه... يبدأ بحرف إس..."

ولا زال الرأس يدور ويدور، بحثًا عن وجه واحد في المقصورات العليا، بحثًا عن لحظة التقدير المجيدة. جورج متأكد فعلًا من أن الجميع ينظرون إليه... وسرعان ما سيعرفون من هو بالضبط. لكن الآن يتملص جورج من الاعتراف الذي تمناه في وقت سابِق. إنه يريد الاختباء في أعمق زنزانة، زنزانة السجن الأكثر ضررًا. يعتقد أن هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا، هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا على الإطلاق، يقول لنفسه: لن يتصرف والدي على هذا النحو أبدًا، ربما سأقوم بتلطيخ نفسي كما فعلت حين كنت صبيًا في طريق عودتي من المدرسة، ربما هذا هو السبب في مجيئه ليذكّرني أنني طفل، ليظهر لي أن سلطته مستمرة حتى بعد وفاته، نعم، هذا لن يختلف عنه.

"لدي الاسم..." يظن جورج أنه سيصرخ. على وشك أن يغمى عليه. سيسقط وسيرتطم رأسه... "إنه ستيوارت"

ومن ثم يقف رجل في عمر جورج، على بُعد بضعة ياردات إلى يساره، ويشير إلى خشبة المسرح، معترفًا بهذا البالغ خمسة وسبعين عامًا، نشأ في الهند ورحل في عام ألف وتسعمئة وثمانية عشر، ويبدو كأنه يُطالِب به كجائزة. يشعر جورج أن ظل ملاك الموت قد أُلقِي عليه، متجمدًا حتى العظام، مُتعرقًا، مُنهكًا، مُهدَّدًا، مرتاحًا جدًا، وخجلاً للغاية. وفي الوقت نفسه، جزء منه معجب وفضولي ويتساءل بخوف...

"والآن لديّ سيدة، كانت في الخامسة والأربعين إلى الخمسين من عمرها. رحلت في عام ألف وتسعمئة وثلاثة عشر. تشير إلى مدينة موربيث. لم تتزوج قط، لكنها تحمل رسالة لرجل نبيل" تبدأ السيدة روبرتس في النظر للأسفل صوب الصالة. "تقول شيئًا عن حصان"

هناك وقفة. تخفض السيدة روبرتس رأسها مرة أخرى، وتستدير جانبًا، وتتأهب للنصيحة. "لدي اسمها الآن. إنها إميلي. نعم، قدمت نفسها باسم إميلي وايلدنغ دافيسون. لديها رسالة، وقد رتبت للمجيء إلى هنا لإعطاء رسالة لرجل. أعتقد أنها أخبرتك عبر لوحة بلانشيت أو ويجا[76] أنها ستكون بين الحضور"

يرتدي رجل قميصًا مفتوح العنق، يجلس بالقرب من المنصة، يقف على قدميه، وكأنه أدرك أنه يخاطب القاعة بأكملها بصوت داعم: "هذا صحيح. أخبرتني أنها ستتواصل الليلة. إميلي سيدة طالبت بحق الاقتراع للنساء حتى إنها ألقت نفسها أمام حصان الملك وماتت متأثرة بجراحها. كشخصية روحية إنها معروفة لي"

يبدو أن القاعة تأخذ نفسًا جمعيًا واسعًا. تبدأ السيدة روبرتس في نقل الرسالة، لكن جورج لا يكلف نفسه عناء الاستماع. يستعيد سلامة عقله فجأة، تهب رياح المنطق التوّاقة مرة أخرى في دماغه. هراء، كما ارتاب دائمًا. إميلي دافيسون بالفعل. إميلي دافيسون، حطمت النوافذ، وألقت الحجارة، وأشعلت النار في صناديق البريد، ورفضت الانصياع

---

76 يعتبر لوح الويجا أحد أدوات الكتابة التلقائية، والتي تمكن الأشخاص من إجراء اتصال مزعوم مع كيانات أو أرواح من العالم الآخر. لوح الويجا يتضمن جزأين: اللوح نفسه مطبوع بأحرف وأرقام، وأداة على شكل دمعة تدعى بلانشيت (Planchette) وهي المؤشر، صُمّمت لتنزلق بسلاسة على اللوح، ويحركه المشترك.

لأنظمة السجن وبالتالي أُطعِمت قسرًا في عدة مناسبات. من وجهة نظر جورج، هي امرأة هيستيرية سخيفة، سعت عمدًا إلى الموت من أجل المضي قدمًا في قضيتها، على الرغم من أن بعضهم قال إنها حاولت فقط وضع علم على الحصان، وأساءت تقدير سرعة الحيوان. إنها في هذه الحالة، فاقدة للأهلية وهيستيرية أيضًا. لا يمكنك خرق القانون للمضي قدمًا في القانون، كان هذا هراء. أنت تفعل ذلك بتقديم التماس، أو حجة، أو بالتظاهر إذا لزم الأمر، ولكن عن طريق المنطق. أولئك الذين خالفوا القانون كحجة لكسب التصويت، أظهروا عدم أهليتهم لكسبه.

لا تزال النقطة ليست ما إذا كانت إميلي دافيسون امرأة سخيفة وهيستيرية، أو ما إذا أدّى تصرّفها إلى حصول مود على التصويت الذي وافق عليه جورج تمامًا. لا، فالقصد هو أن السير آرثر عُرف بمعارضته لِحقّ المرأة في الاقتراع لدرجة أن فكرة حضور مثل هذه الروح حفله التذكاري هي فكرة عبثية. ما لم تكن أرواح الراحلين غير منطقية بقدر ما هي جامحة. ربما فكّرت إميلي دافيسون في تخريب هذا التجمع مثلما عطّلت سباق الديربي ذات مرة. ولكن في هذه الحالة، يجب أن تُوجِّه رسالتها للسير آرثر أو أرملته بدلًا من صديق متعاطف.

توقف، يقول جورج لنفسه. توقف عن التفكير بعقلانية في مثل هذه الأمور، أو بالأحرى توقف عن منح هؤلاء الناس الفائدة من الشك. لقد تلقيت صدمة غير سارة من خلال إنذار كاذب ذكي، لكن هذا ليس سببًا لفقدانك عقلك وأعصابك أيضًا. إنه يفكر كذلك: لكن إن خفت جدًا، وإن أُصبت بالذعر، وإذا اعتقدتُ أنني قد أموت، ضع في اعتبارك التأثير المحتمل على العقول الضعيفة وأصحاب الذكاء الأقل. يتساءل جورج عما إذا كان قانون السحر -الذي من المُسلَّم به أنه غير مألوف- لا ينبغي أن يبقى في كتاب القانون الأساسي بعد كل شيء.

قدمت السيدة روبرتس رسائل على مدى نصف ساعة أو نحو ذلك. يكتشف جورج الناس في الصالة يقفون على أقدامهم. لكنهم الآن لا يتنافسون على قريب مفقود، أو ينهضون نهوضًا جماعيًّا لتحية هيئات روح الأحبة. إنهم يخرجون. ربما كان ظهور إميلي ويلدينغ دافيسون هو القشة الأخيرة لهم أيضًا. ربما جاءوا كمعجبين بحياة السير آرثر

وعمله، لكنهم يرفضون ربط أنفسهم أكثر بخدعة استحضار الأرواح هذه. يقف ثلاثون وأربعون وخمسون شخصًا على أقدامهم ويتجهون إلى المخارج بإصرار.

تعلن السيدة روبرتس: "لا يمكنني المضي قدمًا مع خروج كل هؤلاء الأشخاص" يبدو أنها تشعر بالمهانة، ومع ذلك تبدو منزعجة. تأخذ خطوات قليلة إلى الوراء. شخص ما، في مكان ما، يعطي إشارة، فقد سُمع صوت دوي مفاجئ من أنبوب آلة الأرغون الضخم خلف خشبة المسرح. هل يهدف هذا الصوت إلى تغطية جلبة المتشككين المغادرين، أم الإشارة إلى أن الاجتماع قد انتهى؟ يتطلع جورج إلى المرأة على يمينه لتوجيهه. إنها عابسة ومستاءة من الطريقة المبتذلة التي قُطِعت الوسيطة بها. أما السيدة روبرتس نفسها، فقد أطرقت رأسها وأحاطت نفسها بذراعيها، مما أدى إلى قفل كل هذا التداخل في خط الاتصال الضعيف الذي أقامته مع عالم الروح.

ومن ثم يحدث آخر أمر توقعه جورج. تتوقف آلة الأرغن فجأة في منتصف الترنيمة، وتفتح السيدة روبرتس ذراعيها، وترفع رأسها، وتمشي بثقة إلى الميكروفون، وتصرخ بصوت رنّان وحماسي.

"إنه هنا!" تكرّر مرة أخرى، "إنه هنا!"

يعود بعض من هم في طريقهم للخروج إلى مقاعدهم. لكن على أي حال، تم نسيانهم الآن. يحدّق الجميع في خشبة المسرح باهتمام شديد، وإلى السيدة روبرتس على الكرسي الشاغر الذي تعلوه اللافتة. قد يكون دويّ الأرغن دعوة للفت الانتباه، تمهيدًا لهذه اللحظة بالذات. تصمت القاعة بأكملها تراقب وتنتظر.

تقول: "رأيته أولًا، خلال صمت دام دقيقتين"

"كان هنا، وقف ورائي لأول مرة، على الرغم من أنه منفصل عن جميع الأرواح الأخرى"

"ثم رأيته يمشي عبر المنصة، متجهًا إلى كرسيه الشاغر"

"رأيته بوضوح. مرتديًا ملابس رسمية"

"لقد ظهر بهيئته التي اعتاد عليها في السنوات الأخيرة دائمًا"

"لا شك في ذلك. لقد تأهب جيدًا لرحيله"

بينما تتوقف بين كل بيان درامي قصير، يتأمل جورج أسرة السير آرثر على المنصة. ينظر جميعهم إلى السيدة روبرتس مذهولين بتصريحها باستثناء فرد واحد هي السيدة كونان دويل التي لم تلتفت صوبها. لا يستطيع جورج أن يرى تعابير وجهها من هذه المسافة، مع ذلك يديها متشابكتين في حضنها، وأكتافها مشدودة، وعربتها تقف منتصبة متأهبة. إنها تُحدِّق من أعلى في الحضور ونحو الخارج بعيدًا.

"إنه بطلنا العظيم، هنا وعلى الجانب الآخر"

"إنه قادر تمامًا على الإثبات بالفعل. رحل رحيلًا سلميًا، وهو ما تأهب له تمامًا. بلا ألم، ولا ارتباك في روحه. إنه قادر بالفعل على بدء عمله من أجلنا هناك"

"عندما رأيته لأول مرة، خلال صمت دام لدقيقتين، مضت كما لو أنها ومضة"

"رأيته لأول مرة بوضوح وبلا ريب"

"لقد حضر ووقف خلفي وشجعني حين قمتُ بعملي"

"ميّزت مرة أخرى ذلك الصوت الجيد والواضح له، ولا يمكن أن يخطئ. لقد حفر اسمه كرجل نبيل، كما فعل دائمًا"

"إنه معنا طوال الوقت، والجدار الفاصل بين العالمين مؤقت"

"لا يوجد ما نخشاه في العبور. وقد أثبت بطلنا العظيم ذلك من خلال الظهور هنا بيننا الليلة"

تميل المرأة على يسار جورج عبر مسند الذراع المخملي، وتهمس: "إنه هنا"

يقف العديد من الأشخاص على أقدامهم الآن، للحصول على رؤية أفضل لخشبة المسرح. يحدّق الجميع في الكرسي الشاغر بثبات وفي السيدة روبرتس وفي أسرة دويل. يشعر جورج أنه عالق مرة أخرى في بعض المشاعر المختلطة التي تتخطّى الصمت. لم يعِد يستحوذ عليه الخوف الذي شعر به عندما اعتقد أن والده سيأتي من أجله، ولا الشكوك حين تواجدت إميلي دافيسون لفترة وجيزة. إنه يشعر رغمًا عنه بنوع من الفزع الحذِر. هذا هو، بعد كل شيء، السير آرثر الذي يتحدثون عنه، إنه الرجل الذي استخدم طواعية قدراته البوليسية نيابة عن جورج، وخاطر بسمعته لإنقاذ جورج، وساعده على استعادة الحياة التي سُلِبت منه. يؤمن السير آرثر، وهو رجل يتمتع بأعلى درجات الاستقامة

والذكاء، بأحداث من النوع التي شهدها جورج للتو، سيكون من الوقاحة لجورج في هذه اللحظة أن يتنكّر لمُخلِّصه.

لا يعتقد جورج أنه يفقد عقله أو حسّه السليم. يسأل نفسه: ماذا لو أن في الإجراءات مزيج من الحقيقة والأكاذيب حددها فيما مضى؟ ماذا لو أن بعض أجزاء مما حدث هي أعمال دجل، في حين بعضها الآخر حقيقي؟ ماذا لو أن أداء السيدة روبرتس المسرحي رغمًا عنها، يجلب الأخبار من بلاد بعيدة حقًا؟ ماذا لو أن السير آرثر بأي هيئة أو مكان قد يكون فيه الآن، مُلزمًا من أجل الاتصال بالعالم المادي، بأن يُستخدم كوسيلة نقل لمن يتعاملون أيضًا في الاحتيال في بعض الأحيان؟ أليس هذا تفسيرًا؟

"إنه هنا"، تُكرّر المرأة على يساره بصوت حواري عادي.

ثم يتشارك الكلمات رجل على بُعد عشرات المقاعد. "إنه هنا". نطق ثلاث كلمات بنبرة عادية، يعتزم بها دعم عدد قليل من الأشخاص. لكن هذا الهواء المشحون في القاعة يبدو أنه تضخم بأسلوب سحري.

يردد شخص ما بين الجمهور: "إنه هنا"

ترد امرأة في الصالة: "إنه هنا"

ثم زمجر رجل في الجزء الخلفي من المقصورات فجأة، بنبرة واعظ تبشيري: "إنه هنا!"

ينحني جورج ليصل عند قدميه ويسحب منظاره من حافظته. يحشره إلى نظاراته ويحاول التركيز على المسرح. يدور إصبعه وإبهامه بعصبية بعد التركيز المناسب في كل اتجاه، ثم يهبطان أخيرًا عند نقطة المنتصف. يتفحص الوسيطة المُنتشية والكرسي الفارغ وأسرة دويل. بقيت السيدة كونان دويل، منذ الإعلان الأول عن حضور السير آرثر، ثابتة في الوضع ذاته: ظهر مستقيم، وأكتاف مشدودة، ورأس مرفوع، تحدق -كما يمكن أن يرى جورج الآن- مع شيء يشبه الابتسامة على وجهها. الشابة ذات الشعر الأشقر والمغناج، التي قابلها لفترة وجيزة أصبحت ذات شعر أغمق ورزينة. لم يرها إلا إلى جانب السير آرثر، حيث لا تزال تدعي أنها موجودة فيه. يحرك نظاراته ذهابًا وإيابًا بين الكرسي والوسيطة والأرملة. يجد أنفاسه تتسارع وبقوة.

ثم هناك مَن مَسّ كتفه الأيمن. يسقط المنظار. تهز المرأة رأسها وتقول بلطف: "لا يمكنك رؤيته بهذه الطريقة"

إنها لا توبخه، تشرح فقط كيف تسير الأمور.

"ستراه بأعين الإيمان فقط"

أعين الإيمان. الأعين التي جلبها السير آرثر معه عندما التقيا في فندق غراند، شارع تشارينغ كروس. لقد آمن بجورج. هل يجب أن يؤمن جورج الآن بالسير آرثر؟ مفردات بطله: لا أظن، لا أعتقد، أنا أعرف. حمل السير آرثر معه إحساسًا يُحسد عليه وشعورًا مريحًا باليقين. أدرك الأشياء. ما الذي يدركه جورج؟ هل يدرك أخيرًا أي شيء؟ ما حصيلة ما كسب من معرفة في الأعوام الأربعة والخمسين؟ على الأغلب، قضى حياته في التعلم وفي انتظار أن يبلّغ. كانت سلطة الآخرين مهمة له دائمًا، هل لديه أي سلطة خاصة به؟ في الرابعة والخمسين، يفكر في الكثير من الأمور، ويؤمن بالقليل، ولكن ما الذي يمكن أن يدعي حقًا أنه يعرفه؟

تلاشت صرخات الشاهد على حضور السير آرثر، ربما لأنه لم يتلق أي رد بالاعتراف من خشبة المسرح. ما هي رسالة السيدة كونان دويل في بداية القدّاس؟ أن أعيننا في الدنيا لا يمكن أن ترى ما وراء الاهتزازات الأرضية، فإن أولئك الذين وهبهم الرّب بصيرة إضافية تسمى استبصارًا سيكونون قادرين على رؤية تشكّل الغالي بيننا. كان من الممكن أن تتحقق معجزة بالفعل لو أن السير آرثر تمكن من منح قوى استبصار للأشخاص المختلفين الذين مازالوا يقفون على أقدامهم في أجزاء مختلفة من القاعة.

والآن تتحدث السيدة روبرتس مرة أخرى.

"أحمل رسالة لك عزيزتي من آرثر"

لا تلتفت السيدة كونان دويل مرة أخرى.

تتحرك السيدة روبرتس، مع انبعاث نسمة عطر بطيئة من الساتان الأسود، إلى يسارها، نحو أسرة دويل والمقعد الفارغ. عندما تصل إلى السيدة كونان دويل، تقف إلى جانبها وخلفها قليلاً، وتواجه جزء القاعة حيث يجلس جورج. تنتقل كلماتها بسهولة، على الرغم من المسافة.

"أخبرني السير آرثر أن أحدكم ذهب إلى السقيفة هذا الصباح" تصمت في انتظار الرد، وعندما لا تجيب الأرملة، تلحّ عليها. "هل هذا صحيح؟"

"نعم، ولكن لماذا؟" تجيب السيدة كونان دويل. "لقد ذهبت"

تومئ السيدة روبرتس برأسها وتستطرد، "الرسالة هي: أخبري ماري..."

في هذه اللحظة يُسمع دوي هائل آخر من أنبوب آلة الأرغن. تميل السيدة روبرتس أكثر وتواصل التحدث تحت حماية الضوضاء. وبدورها تومئ السيدة كونان دويل برأسها من وقت لآخر. ثم تنظر عبر الابن الضخم الذي يرتدي ملابس رسمية على يسارها، كما لو أنها استفسرت عنه. وهو بدوره ينظر إلى السيدة روبرتس، التي تخاطبهما الآن. ثم ينهض الابن الآخر وينضم إلى المجموعة. يجلجل الأرغن بلا هوادة.

لا يعرف جورج ما إذا كان هذا الانغماس في الرسالة مراعاة لخصوصية الأسرة أو جزءًا من إدارة المرحلة. إنه لا يعرف ما إذا قد رأى الحقيقة أم أكاذيب أم مزيجًا من الإثنين. إنه لا يعرف ما إذا الحماسة الواضحة والمفاجئة وغير الإنجليزية لمن حوله هذا المساء دليل على الدّجل أو الإيمان. وإن عُدّ هذا الإيمان صوابًا أم خطأ.

انتهت السيدة روبرتس من إيصال رسالتها وتوجهت نحو السيد كريز. يرعد الأرغن، لكن بلا انغماس في شيء ما. يتبادل أفراد أسرة دويل النظر. إلى أين يذهب القدّاس من هنا؟ الترانيم أُنشدت جميعًا، والإشادات قُدّمت. التجربة الجريئة انتهت، والسير آرثر حضر بينهم، ورسالته وصلت.

تستمر آلة الأرغن. الآن يبدو أنها تتحول إلى الإيقاعات التي تلعب دور المجموعة بعد حفل زفاف أو جنازة: إصرار لا يعرف الكلل، يدفعهم للعودة إلى العالم اليومي الكئيب وغير السحري. تغادر أسرة دويل المنصة، ويتبعها موظفو جمعية مرليبون الروحانية، والمتحدثون والسيدة روبرتس. يقف الجمهور، وتنحني النساء ليصلن أسفل مقاعدهن للحصول على حقائب اليد، ويتذكر الرجال مرتدو الملابس الرسمية القبعات العالية، ثم هناك خلط وتذمر، وتحية الأصدقاء والمعارف، وقائمة انتظار هادئة ومتأنية في كل ممر. يجمع أولئك الذين حول جورج متعلّقاتهم وينهضون، ويومئون برؤوسهم ويمنحونه ابتساماتهم الكاملة والمحددة ويعيد لهم جورج ابتسامة لا تساوي ابتسامتهم ولا تزيد

عنها. عندما يفرغ معظم قسمه، يمد يده للأسفل مرة أخرى ويضغط بالمنظار على نظارته. يركز مرة أخرى على المنصة، ونبات الأرطاسيا، وصفّ الكراسي الشاغرة، والكرسي الفارغ المحدد بلافتة من الورق المقوى، والمكان حيث كان السير آرثر، على الأرجح. إنه يحدّق عبر عدساته المتتابعة، في الفراغ وما وراءه.

ماذا يرى؟

ماذا رأى؟

ماذا سيرى؟

المؤلّف

استمر آرثر في الظهور في جلسات تحضير الأرواح حول العالم خلال الأعوام القليلة المقبلة. على الرغم من أن عائلته صادقت فقط على ظهوره في إحدى الجلسات الخاصة بالسيدة أوزبورن ليونارد في عام ألف وتسعمئة وسبعة وثلاثين، إذ حذّر من أن "أكثر التغييرات الهائلة" كانت على وشك الحدوث في إنجلترا. أصبحت الليدي جاين روحانية متحمسة بعد وفاة شقيقها في معركة مونس، وحافظت على الإيمان حتى وفاتها في عام ألف وتسعمئة وأربعين. غادرت الأم ماسونغيل في عام ألف وتسعمئة وسبعة عشر، قدّم لها أبناء أبرشية ثورنتون-ان-لونسدايل "ساعة كبيرة ذات قرص مضيء في علبة جلدية". على الرغم من أنها قدِمت للاستقرار نهائيًا في الجنوب، إلا أنها لم تقطن أبدًا منزل ابنها، وتوفيت في منزلها الريفي في ويست غرينستيد في عام ألف وتسعمئة وعشرين، في حين استمرّ آرثر في الظهور للوعظ في الروحانيات في أستراليا. عاش بريان والر بعد آرثر عامين.

توفي ويلي هورننغ في سان جان دي لوز في مارس ألف وتسعمئة وواحد وعشرين بعد أربعة أشهر، ظهر في جلسة استحضار الأرواح لعائلة دويل، واعتذر عن شكوكه السابقة حول الروحانية وأعلن عن نفسه "لم أعد أعاني من مرض الربو القديم الفظيع". توفيت كوني بسبب السرطان في عام ألف وتسعمئة وأربعة وعشرين. خدم القائد المحترم جورج أوغستس آنسون كقائد شرطة في ستافوردشاير على مدى واحد وأربعين عامًا، وتقاعد أخيرًا في عام ألف وتسعمئة وتسعة وعشرين، حصل على لقب فارس في قائمة التتويج الشرفية عام ألف وتسعمئة وسبعة وثلاثين، ومن ثم توفي في باث عام ألف وتسعمئة وسبعة وأربعين. ماتت زوجته الليدي بلانش في قتال مع العدو في عام ألف وتسعمئة وواحد وأربعين. عادت شارلوت إدالجي إلى شروبشاير بعد وفاة شابورجي، توفيت في أتشام بالقرب من شروزبري عام ألف وتسعمئة وأربعة وعشرين، عن عمر يناهز واحد وثمانين عامًا، واختارت أن تدفن إلى جانب زوجها.

نجا جورج إدالجي من كل ما سبق. استمر في عيش حياته الطبيعية وممارسة مهنته في 79 شارع برو هاي حتى عام ألف وتسعمئة وواحد وأربعين، ثم اتخذ له مكتبًا في أرغايل سكوير من عام ألف وتسعمئة واثنين وأربعين حتى عام ألف وتسعمئة وثلاثة وخمسين. توفي في 9 بروكيت كلوز، في ويلون جاردن سيتي، في السابع عشر من يونيو من عام ألف وتسعمئة وثلاثة وخمسين، سبب الوفاة خثار تاجيّ. عاشت مود معه إلى ذلك الحين، وسجلت الوفاة. عادت في آخر زيارة لها إلى غريت ويرلي عام ألف وتسعمئة واثنين وستين، عندما قدّمت صور أبيها وشقيقها إلى الكنيسة. اليوم هي مُعلّقة في مجلس كنيسة القديس مارك.

بعد أربع سنوات من وفاة السير آرثر كونان دويل، أقرّ إينوك نولز، وهو عامل يبلغ من العمر سبعة وخمسين عامًا بالذنب في محكمة ستافوردشاير كراون بجرم كتابة رسائل تهديد بذيئة على مدار ثلاثين عامًا. اعترف نولز أن مرحلته بدأت في عام ألف وتسعمئة وثلاثة، عندما انضم إلى حملة الاضطهاد بإرسال رسائل موقعة "جي. إتش. داربي، زعيم عصابة ويرلي". بعد إدانة نولز، كتب جورج إدالجي مقالاً في ديلي إكسبرس. في هذا البيان العلني الأخير حول القضية، بتاريخ السابع من نوفمبر من عام ألف وتسعمئة وأربعة وثلاثين، لم يشر جورج إلى الأخوين شارب، ولا إلى التحيز العرقي كدافع، بل يخلص إلى:

> مع ذلك، ظل اللغز العظيم دون حل. تم تقديم جميع أنواع النظريات. إحداها أن الاعتداءات كانت من عمل مجنون ضُبِط بين الفينة والأخرى مُصابًا بشهوة الدم. نظرية أخرى هو أنهم انتهوا إلى فكرة تشويه سمعة الرعية والشرطة، أو ربما فعل ذلك بعض رجال الشرطة المُقالون من عملهم. تم اقتراح نظرية غريبة لي. أخبرني رجل ينتمي إلى ستافوردشاير أن الاعتداءات لم يرتكبها إنسان، بل خنزير أو أكثر. واقترح أن هذه الحيوانات أُرسِلت ليلاً بعد إعطائها نوعًا من المنشطات مما جعلها شرسة. قال إنه رأى أحد هذه الخنازير. بدت لي نظرية الخنازير في ذلك الوقت -كما هي الآن- غريبة جدًا لا يمكن أخذها على محمل الجد.

توفيت ماري كونان دويل، الطفلة الأولى لآرثر، في عام ألف وتسعمئة وستة وسبعين. احتفظت بِسِرٍّ واحد عن والدها دائمًا. هو أن أمها توي، وهي على فراش الموت، لم تحذرها فقط من أن والدها آرثر سيتزوج مرة أخرى، بل باحت لها باسم العروس، آنسة جاين ليكي.

جوليان بارنز، يناير 2005

عدا رسالة جاين إلى آرثر، فإن جميع الرسائل هنا، الممهورة باسم كاتبها وكذلك المجهولة، هي أصليّة، وكذلك الاقتباسات من الصحف والتقارير الحكومية، وإجراءات البرلمان وكتابات السير آرثر كونان دويل. وعليه أودّ أن أشكر: الرقيب آلان ووكر من شرطة ستافوردشاير، وأرشيف مدينة برمنغهام المركزية، وخدمة ممتلكات مقاطعة ستافوردشاير، والقس بول أوكلي، ودانيال ستاشور، ودوغلاس جونسون، وجيفري روبرتسون، وسومايا بارتنر.

جوليان بارنز (1946-) روائي بريطاني. يُعتبر أحد أهم الكتاب الإنجليز المعاصرين، ويُشار إليه بأنه أحد أعلام حركة ما بعد الحداثة الأدبية في إنجلترا. درس اللغات الحديثة في جامعة أوكسفورد، وعمل كمُعجميّ لاستكمال قاموس أوكسفورد الشّهير. نشر روايته الأولى عام 1980 وتتابعت مؤلّفاته بعد ذلك بين الروايات والقصص والمقالات والرسائل، منها "ببّغاء فلوبير" و"تاريخ للعالم في عشرة فصول ونصف" و"آرثر وجورج". نال عدّة جوائز تكريميّة وتشريفيّة. دخلت رواياته قوائم جائزة البوكر القصيرة ثلاث مرّات، وفاز بها عن رواية "الإحساس بالنهاية".





نداء فاروق غانم كاتبة ومترجمة من الأردن. صدر لها كتاب نصوص "خفيف كالهواء ثقيل كمروحة" عام 2014. ترجمت إلى العربية رواية بيل كلينتون وجيمس باترسون "الرئيس اختفى" وكتاب مارغريتا ماغنوسون "التأهّب للرحيل".

تتناول الرواية أحداثًا حقيقية جمعت بين شخصيّتين إنجليزيّتين: آرثر كونان دويل (1859-1930)، مبتكر شخصية شيرلوك هولمز الشهيرة، وجورج إدالجي (1876-1953): محامي، ويحمل والده كاهن أبرشية منطقة غريت ويرلي أصولًا هنديّة، في حين أن والدته أسكتلندية.

تُجري الشرطة تحقيقًا حول حوادث تمثيل بشعة بالحيوانات في منطقة الأراضي الزراعية من غريت ويرلي، وآخَر حول رسائل محملة بالحقد والكراهية يُرسلها مجهول إلى منزل كاهن الأبرشية. تنتهي التحقيقات باتهام جورج إدالجي وإدانته في المحكمة بتلك الجرائم. ثم نرى السّير آرثر كونان دويل، يتلبّس شخصيّة شيرلوك هولمز، ويُحقّق في الحوادث وملابساتها، ويلتقي جورج وأسرته والشهود، ويُثير الرأي العام عبر الصحف حول الظلم الذي وقع عليهم. لكن هناك الكثير مما لا يعرفه أحدهما عن الآخر: هل سبب ما وقع على جورج إدالجي هو العنصرية ضد أصوله الهندية؟ ولماذا يؤمن طبيب وكاتب عبقري مثل آرثر كونان دويل باستحضار الأرواح؟

Cover design: Studio Hassân Al Mohtasib

ISBN 978-9948-468-53-0
9789948468530

روايات
REWAYAT